

مذكرات يابلونيرودا

أعترف بأنني قد عشت

ترجمة وشرح : الدكتور محمود صبح

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر



0159209



Bibliotheca Alexandrina

مذكرات بابلو نيرودا

مُذَكَّرَات بَابِلُونِيْرُودَا

أَعْتَرَفُ بِأَنْنِي قَدْ عِشْتُ

تَرْجَمَةٌ وَشَرْحٌ
الدكتور محمود صبح

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية برج الكازلتون - ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ - رقباً « موكبالي » بيروت
ص . ب . ١١ / ٥٤٦٠ بيروت

جميع حقوق الطبع محفوظة
للمؤسسة العربية للدراسات والنشر

الطبعة الثانية
تموز (يوليو) ١٩٧٨

ملاحظات حول هذه المذكرات

١ - ان عنوان هذه المذكرات بالاسبانية هو : بابلو نيرودا ، اعترف بأنني قد عشت ، مذكرات» . (Pablo Neruda, CONFIEZO QUE HE VIVIDO, Memorias

٢ - لقد تم طبع هذا الكتاب في برشلونة بتاريخ ٢٣ آذار (مارس) من عام ١٩٧٤ ، اي بعد مضي ستة اشهر على وفاة الشاعر ، كما جاء في الصفحة الاخيرة من الكتاب بالنص .

٣ - ان عدد صفحات الكتاب في نصه الاصلي هو (٥١٥) صفحة من الحجم المتوسط وبحرف متوسط وبورق عادي .

٤ - لقد شرعنا في ترجمة هذه المذكرات في منتصف شهر ايار (مايو) من عام صدور الكتاب ، وقد اقتنينا اول نسخة بيعت في مدريد .

٥ - لقد قمنا بتعريبها على مرحلتين ؛ الاولى : ترجمة حرفية اسنفرقت ثلاثة اشهر ، والثانية : تعريب مع المحافظة على النص الاصلي وذلك

بصياغة الترجمة الحرفية صياغة عربية جملة فجملة ومراجعة النص الأصلي في الوقت نفسه ، وقد استغرقت هذه المرحلة أربعة أشهر .

- ٦ - وضعنا بعد ذلك الترويح الضرورية ، وهذه الشروح هي :
 - أ - عرّفنا بأسماء الاعلام الواردة في الكتاب ، وذلك بالعودة الى كتب النراجم والموسوعات وغير ذلك .
 - ب - عرّفنا ببعض أسماء الاماكن .
 - ج - أشرنا الى الكلمات التي أصلها عربي ، وهي كثيرة في اللغة الاسبانية .
 - د - حافظنا على التعابير والامثال الاسبانية كي نزيد لفتنا العربية غنى على غناها ، ولكننا أشرنا الى ذلك ، وفي اكثر الاحيان وضعنا ما يقابل او يماثل كل واحد منها في اللغة العربية .
 - هـ - شرحنا الكلمات التي لم نجد لها تعريبا ، مثل أسماء بعض الاشجار والازهار والاطيار والحيوانات وغير ذلك .
 - و - فسّرنا ما غمض أحيانا او ما كان تضمينا الخ .

٧ - لم نترجم ما ورد في الكتاب من كلمات وعبارات بلغات اخرى غير الاسبانية ، الا فيما ندر .

٨ - لم نشرح الكلمات العربية الصعبة التي اضطررنا أحيانا الى استعمالها الا فيما ندر ، وذلك لاعتقادنا أن هذا من عمل القارئ وفائدته - مع الاعتذار - .

٩ - حاولنا أن نحافظ على ما جاء في الكتاب من علامات ونقط وغير ذلك من علامات التعجب والاستفهام والفواصل والاقواس الخ ، كلما امكن ذلك . (ان جمل (نيرودا) قصيره ، أحيانا ، وهو يضع كثيرا من النقاط) .

١٠ - وضعنا أسماء الاعلام بين قوسين ، وبجانب كل اسم يذكر لأول مرة، رسمه بالحروف اللاتينية ، تجنبنا للخطأ في النطق . فان تكرر الاسم لم نرسمه باللاتينية ، الا ما فاتنا . (وهذا بدل القارئ على أن الاسم كان قد ذكر من قبل وعرف به) .

١١- وضعنا أسماء الأماكن بين فواصل ، ووضعنا كل اسم مكان يذكر لأول مرة ، داخل فوسين بالحروف اللاتينية ، إلا ما اشتهر منها أو فاتنا في الحالتين .

١٢- لقد حاولنا أن ننقل إلى القارئ العربي أسلوب (نيرودا) في هذا الكتاب ، فهو مختلف منباين ينراوح بين الأسلوب النقي العالي وبين الأسلوب المباشر العادي ، (يستعمل ضمير «أنا» ، مثلا ، كثيرا جدا) .

١٣- قد يأخذ علينا القارئ أننا أسرفنا في أسلوبنا العربي ، أحيانا ، أو أجحفنا (مثلا ، ذكرنا ضمير «أنا» بعد الاسم لا قبله ، فلم نقل ، على سبيل المثال : أنا والملك ، بل قلنا : الملك وأنا) فنرجو منه الصفح .

١٤- لم نسا أن نكتب مقدمة نبين فيها رأينا في هذه المذكرات وندحض بعض أفكار (نيرودا) الخاطئة ، (مثلا ، رأيه في حرب العصابات ، بحامله على (ماوتسي تونغ) و(فيديل كاسترو) ، وغير ذلك من الآراء السياسية والأدبية التي نستدعي الرد والدحض) ، تجنبنا للإطالة ، فالكتاب كبير ضخم .

١٥- لقد وضعنا نصب أعيننا منذ أن بدأنا بترجمة هذه المذكرات إلى أن أنهيناها ، الحديث النبوي الشريف :
«ان الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن ينقنه» .
وبيت المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام
فنرجو من القارئ أن يضع نصب عينيه ، حين يقرأ هذا الكتاب ،
بسب أبي تمام :
وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا .

د. محمود صبح

مدريد في ١٦-٢-١٩٧٥

الفصل الأول

الشاب القروي

الغابة التشيلية

.... تحت حمام البراكين ، ازاء القمم الثلجية العاصفة ، بين البحيرات الكبيرة ، الغابة التشيلية المتشابكة الساكنة الشدية تفوص الأفدام في اوراق الشجر الميتة ، لقد خشخش غصن هتس ، ها هسي اشجار «الراولي» (١) الضخمة نشمخ بقاماتها المتفضنة ، ثمة عصفور يعبر من الدغل البارد ، يرفرف ، يتوقف بين غصون الشجر الظليلة ، ثم من مخبئه يصفّر مثل مزمار صغير يسري عبر أنفى حتى مسارب روجي

١ - راولي (Rauli) : الكلمة من اصل «اراوكاني» (Araucano) وهي لغة قبيلة هندية كانت تسكن في احدى مناطق تشيلي ، اما «الراولي» فهو شجر عظيم ، يبلغ ارتفاعه حوالي خمسين مترا ، له ورق ضاحب اللون ، متفضر ، تؤخذ الاخشاب من هذا الشجر للنساء وصنع الابواب والنوافذ .

شذى الغار البري ، شذى شجيرة «البولدو» (٢) الداكن ... سرو المخافر
يعرض خطوي ... انه لعالم شاقولي : أمة من العصافير ، حشد من
الاوراق أتعثّر بحجر ، أجدش الوقبة المكتسوفة ، عنكبوت هائل ذو
سعر أحمر يرمفني بعينين ثابتتين ، بلا حراك ، كبير في حجم سرطان ...
عقرب مذهّب ينفت نحوي سمه المنبثق ، بينما يختفي فوسه القزحسى
المتسع مثل برق خاطف حين أمر أجناز غابة من شجر السرخس
أكثر علواً من قامني : تدع ان يساقط عليّ ، فوق وجهي المشرّب ، سون
دمعة نهمر من عيونها الباردة الخضراء ، ومن خلفي نطل مراوحها ترتعد
لمده طويلة تمه جذع متأكلة : يا له من كنز ! ... نبات الفطر
الاسود والاررق قد منحها آذانا ، نباتات طفيلية حمراء فد افعمتها
بالجواهر والحلي ، نباتات كسلى أخرى اعاربها لحاها وينفجر ، سريعاً ،
افعوان يطلع من أحشائها المأكلة ، كما انبثاق العجر ، كما لو أن الروح
هرب من جذعها المينة وهناك بعيداً ، كل شجرة انتحت مكاناً قصياً
مبعدة عن نظيراتها ... نميس فوق بساط الدغل الكتوم ، وكل ورفة
سواء أكانت هيفاء او مكتنزة او ورفاء او ملساء لها نمط مختلف وشكل
آخر كما لو أن مقصداً ذا حركة مبدلة قد فصها ففصلتها بعضها ليس
كبعض نمة غدير ، الماء التسفاف من تحت ينزلق فوق الحجر الأبل
واليشب بطير فراشة نقية كنتقاوة الليمون ، تنراقص بين المساء
والنور بحيّني عن قرب الرياحين وهي ننحني لي برؤوسها الصغيره
الصفراء وهناك في الاعالي ، مثل فطرات فصدت من الترايين ،
نماوج رهور «الكوبيهوية» (٣) الحمراء ... الاحمر منها هو زهر الدم ،
والابيض منها هو زهر الثلج ... قد تنق السكون نعلب سريع فاهتزت
الاوراق ، بيد أن السكون هو ناموس هذه الاوراق قلّما يسمع صراخ
بعيد لحيوان متململ رجع وختاز لعصفور مختبئ إلا لما ...

٢ - بولدو (Boldo) : الكلمة من اصل «اراوكانى» ، وهو شجر صخ ، اوراقه دائمة
الخصرة وأرهاره بيضاء ، تؤكل تماره ، تطبخ اوراقه العطرة لتعك بعد ذلك في سبيل شفاء
امراض المعدة والكبد .

٣ - كوبيهويه (Copihue) : الكلمة من اصل «اراوكانى» ، وهو زهر جميل يشبه
الليلك ، يستعمل للزينة .

فلما يوشوش عالم النبات الا قليلا قبللا الى ان يهب زوبعة فتجملل
موسبقى الدنيا كلها تتجاوب .

من لا يعرف الغابة النشيلية ، فهو لم يطا هذا الكوكب الارضي .
من تلك الاراضي ، من ذاك الطن ، من ذاك السكون ، خرجت أنا
لأسر ، لأغني عبر الكون .

طفولة وشعر

سوف اشرع في الكلام عن ايام طفولتي واعوامها قائلا ، ان المطر كان لي
الشخصية الوحيدة التي لا انسها . مطر الفطب الجنوبي الغزير الذي
بهطل مثل شلال من قطب «بولو» (Polo) بنحدر من سماء «كابو دي
هورنوس» (٤) حتى سماء الثغر . في هذا الثغر ، او «فار ويست» (٥)
بالنسبة لوطني ، ولدت للحياة ، للارض ، للشعر والمطر .

مع اني قد تجولت كثيرا فانه يبدو لي انه فد ضاع فن الامطار هذا
الذي كان يمارس وكأنه موهبة متسلطة هائلة بارعة ، في ارضي ، ارض
«اراوكانيا» (Araucania) . كانت السماء تمطر خلال شهور بكاملها ،
أعوام بأسرها . كان المطر بندلي خيطانا كأنها ابر طويلة من البلور يتكسر
على أسطح المنازل ، او انه يستحيل امواج شقافة تلطم النوافذ ، وكانت
كل دار كأنها سفينة لا تبلغ الميناء الا بشق الأنفس والجهد الجهد في ذلك
المحيط الشتائي .

فلبس لمطر جنوب امريكا البارد هذا هبّات الرياح الهائجة التي تسف
المطر الساخن لافحا كأنه السياط نم يمضي واذا بالسماء زرقاء صافية .

٤ - كابو دي هورنوس : معناها ، رأس الافران ، وهو على ساحل تشيلي .

٥ - فار ويست: هي منطقة العرب الاقصى من الولايات المتحدة الامريكية .

مطر الجنوب على العكس من ذلك له صبر وناة فهو لا يفتأ يتساقط من السماء الرمادية اللون بلا حد ولا قيد .

تجاه داري ، الشارع امسى بحرا هائلا من الوحول . ارى عبر النافذة ومن خلال المطر عربة قد اوحلت في وسط الشارع . وهناك فلاح ملتف بعباءة سوداء يسوط الثيران التي لم نعد تقوى على المضي بين المطر والوحل .

لقد كنا نوجه الى المدرسة عبر الدروب ، ننقل الخطى من حجر الى حجر ، منعرضين للبرد والمطر . الرياح تتخاطف المظلات . الماطرات (البرشكوتات) كانت غالية جدا . ولم نكن تستهويني القفتازات ، وكانت الاحذية نبتل بالماء . سوف اذكر دائما الجرابات المضمخة وهي تجفف قرب الموقد وكثيرا من الاحذية وهي تنفث بخارا يتقطر ، كأنها قاطرات بخارية صغيرة . ثم تأتي الفياضانات ، التي كانت تجرف القرى والمساكن حيث كان يعيش اكثر الناس فقرا ، الى النهر . كذلك كانت الارض تنهز راجفة . احيانا اخرى ، كانت تطل من سلسلة الجبال قنزعة نور رهيب : البركان « يايما » (Llaima) كان يستيفظ .

ان «نيموكو» (Temuco) هي مدينة رائدة ، من هذه المدن التي لا ماض لها ولا براث ، غير ان لها دكاكين حدادة . بما أن الهنود لا يعرفون القراءة ، فان دكاكين الحدادة تتباهى بتعاراتها/ البارزه في التسوارع : منتسار ضخمة ، قدر كبيره ، قفل فخمة ، معرفه هائلة . هناك بعيدا محصلات الاسكافية ، عليها جزمه عظيمة .

اذا كانت «تيموكو» هي السباقه الرائده في الحياة التسيلية بأراضي جنوب تشيلي ، فان هذا يعني تاريخا داميا طويلا .

اثناء زحف الفاتحين الاسبان ، بعد ثلاثمائة سنة من الكناح والنضال ، اضطرت قبائل (اراوكانو) الى التفهقر نحو تلك المناطق الباردة . لكن التشيليين واصلوا ما سمى بـ «تهدة اراوكانيا» ، اي ، مواصلة حرب بالدم والنار لانتزاع الاراضي من ابناء وطننا . ولقد استخدمت كل اصناف

الاسلحة بسخاء ضد الهنود : اطلاق نيران البنادق عليهم ، احراق اكواخهم ، ومن بعد ، بطريقة اكثر ابوية ، استعمل القانون والخمر ، فالمحامي أصبح اختصاصيا كذلك في اجلائهم عن اراضيهم ، والقاضي اذانهم حين اعتراضوا ، والكاهن هددهم بالنار الخالدة الدائمة . اخيرا ، ماء الحياة (العرق) أنجز تصفية جنس عريق عظيم ، من مآثره الشجاعة والجمال ، وهو ما تركه محفورا في مقاطع شعرية من حديد ويشب ، السيد (الونسو دي ارتيا) (٦) في ديوانه «أراوكانا» .

والداي هما من بلدة «بارال» (٧) ، حيث ولدت أنا . هناك ، في وسط نتيلي ، تنمو الكرمة ويكثر النبيذ . من غير أن أذكر ، دون أن أعرف ان كنت نظرت اليها مرة بعيني ، ماتت أمي السيدة (روسا باسوالتو) . أنا ولدت في الثاني عشر من شهر تموز (يوليو) من عام ١٩٠٤ . بعد شهر ، في آب (أغسطس) ، هلكت أمي بمرض السل ، أمي لم تعد توجد .

الحياة كانت قاسية بالنسبة لصغار المزارعين في وسط البلاد . لقد كان لجدتي السيد (خوسه انخل ريس (José Angel Reyes) فلبل من الارض وكثير من البنين . لقد كانت أسماء أعمامي تبدو لي وكأنها أسماء أمراء من ممالك نائية قصية . فقد كانوا يسكنون (أموس) ، (اوسياس) ، (خويل) ، (ابادياس *abadias*) (٨) والسدي كان اسمه بسيطاً (خوسه ديل كارمس) . سجر أبي ملكيات أبيه وهو شاب صغير ليعمل في سدود ميناء «تالكاهوانزا» . ثم أصبح عاملا في السكك الحديدية ب «تيموكو» .

كان سائق فطار صابورة . قلائل هم الذين يعرفون ما هو قطار صابورة . في المنطقة الجنوبية ذات الزوابع الهائلة ، تجرف المياه القضبان

٦ - الونسو دي ارتيا : شاعر اسباني (١٥٣٣ - ١٥٩٤) .
٧ - بارال (Parral) : معناها ، العرائش او الدوالي .
٨ - يقال ان اسرة (نيرودا) كانت يهودية ثم تنصرت .

الحديدية ان لم يكن قد وضعت لها حصوات وحجيرات بين الروافد .
ولذلك فانه يجب أن تستخرج الصابورة من المفاعل في قفف ثم يقلب الحجر
الصغير الى العربات المستوية السطوح في الفطار . قبل اربعين سنة كان
سائقو قطار من هذا النوع يجب ان يكونوا فطاحل أشداء . أما أجسور
التركة فقد كانت بائسة جدا ، وما كان يطلب من الذين كانوا يريدون العمل
في القطارات الصابورة ان يبرروا شهادة بلا سوابق (لا حكم عليه) . والذي
كان يسوق القطار ، ليس الا . لكنه كان قد تعود على الامر والطاعة فهو
أحيانا نام وأحيانا بطيح . ولطالما اخذني معه . كان الرجال هناك يقتلعون
الاحجار في منطقة «بوروا» التي هي القلب البري للفر والني كانت مسرحا
للمعارك الرهيبة بين الاسبان والاراكانيين .

كانت الطبيعة هناك تمنحني نوعا من النشوة وتبعث فيّ شيئا من
السالة . لشد ما كانت تجذبني العصافير ، الخنافس ، بيوض الحجل .
وكم كان صعبا العتور عليها خبيثة بين الفجاج والتقوق ، غامقة اللون
براقة الحيا والبشرة ، لونها كان شبيها بلون ماسورة البندقية . ولتد ما
كنت أعجب بكمال الحشرات ودقة ابداعها . كنت التقط «أمات الحنش» .
بهذا الاسم الغريب كان ينسار الى كبرى الحشرات من صنف مغممسات
الاجنحة . سوداء الحيلة ، صقيلة البدن ، لماعة المظهر ، متينة الاضلاع ،
قوية الهمة . عملاقة الحشرات في تشيلي . لقد كانت رؤيتها بغنة تقشعر
لها الابدان ، رابضة في أحضان جدوع شجر «الماكي» (٩) والتفاح البري
و«الكوبهوية» ، لكنني كنت أدري انها جد قوية ومتينة ، فلو دسست عليها
بأقدامي لن تنهشم . وهى في صلابتها الدفاعية العظيمة ما كانت لنتحتاج
لسلاح السم .

ان اسكشافاني هذه كانت تثير حب الاستطلاع في نفوس السفيلة .
وسرعان ما اخذوا بولون اهتماما بهذه المكتشفات . فما ان يسهي والذي او
يلتهى حتى ينطلقوا الى الغابة البكر ، وكانوا يعثرون لى على كنوز غريبة

٩ - ماكي (Maqui) : الكلمة من اصل « اراوكاني » ، وهو شجر يبلغ علوه
ثلاثة امتار ، له بمر حلو الطعم .

عجيبة ، طبعا ، بمهارة وذكاء وقوة تفوق ما كان عندي من هذه المواهب .
من بين هؤلاء الرجال كان ثمة رجل اسمه (مونخه) ، كان والدي يقول عنه
انه ضارب سكاكين خطير . وكان له في وجهه الاسمر خطان كبيران ،
احدهما كان عبارة عن ندبة شاقولية خددتها في خده حد سكين والخط
الآخر كان مرسوم ابتسامته البيضاء ، أفقية الطيف ، مفعمة باللطافة والمكر
معا . (مونخه) هذا كان يجلب لي زهور شجر «الكوبيهوية» البيضاء، عناكب
كتيفة الشعر ، افراخ الحمامات المطوقة ، وذات مرة عثر لي على ما هو
اكثر خلبا للابصار ، أحضر لي جعل شجر «الكوبيهويه» والقمر . لست
ادري ان كننم قد رابتموه ذات مرة ، فانا لم اره الا في تلك المرة . كان
برقا يرتدي قوس قزح . لقد كانت الوان ذيله وقشرته تخلب الابصار
بالاحمر والبنفسجي والاخضر والاصفر . ثم فر من بين يديّ حين لم يكن
معي (مونخه) لكي يعود فيلتقطه لي . ما استطعت قط أن أبرأ من تلك
المشاهدة الخلاّبة ولا نسيت ابدا ذلك الصديق . لقد قص عليّ ابي حكاية
مونه ، لقد وقع من القطار وهوى متدحرجا في بادىء الامر ، فتوقف
القطار ، لكن ، كما كان يروي لي ابي ، ما عثروا الا على جنة هامدة وكيس
من العظام .

انه لمن الصعوبة بمكان اعطاء فكرة دقيقة عن دار مثل دارنا . فقد كانت
دارا تقليدية كأغلب دور الثغر قبل ستين سنة .

اولا ، المساكن العائلية كانت تنحاذى ، بعضها كان يصل ببعض .
هناك في عمق كل فناء كان يسكن آل (رييس) ، آل
(اورتيغا) ، آل (كانديا) ، آل (ماسون) . وكانت هذه
العائلات تبادل الادوات او الكنب او الحلويات في مناسبات اعياد الميلاد .
او المراهم لذلك ، او المظلات او الطاولات والكراسي .

هذه الدور الرائدة كانت تغطي حاجات شعب بكامله وتلبي فعالياته .

كان زعيم آل (ماسون) هو السيد (كارلوس Carlos) ، وكان ذا

شعر ابيض كثيف مسترسل يتسبه (اميرسون) (١٠)، وقد قدم من امريكا الشمالية. وقد كان ابناؤه اصيلىن فى انتسابهم الى طائفة «كريبوس» (١١) Crillos . وكان له كتابه المقدس وله نواميس يسير عليها ويطبقها. لم يكن امبرياليا ، بل كان مؤبسا اصليا . فى هذه الاسرة لم يكن احد يملك شيئا من المال ومع ذلك فقد كانت تنمو لها مطابع وفنادق ومحلات بيع اللحوم . بضعة من ابنائه كانوا مديري صحف وآخرون كانوا عمالا فى المطبعة نفسها . كل شيء كان يمضى مع مضى الزمن وكل الناس كانوا يظلون فقراء كما كانوا عليه من قبل . الالمان فقط كانوا يواصلون حديثهم الفاض عن حده ، عن ممتلكاتهم واثرواتهم ، وهذا ما كان يميزهم عن غيرهم من سكان الشجر .

فدورنا كان لها شيء من حفل او بعض من مرآب ، تعلن عن نفسها ؛ بما ان يدخل المرء حتى يرى براميل وادوات ومطايا وحاجات صعبة الوصف .

كانت الغرف تمكث دائما من غير اتمام وانتهاء ، والسلالم او الادراج غير مكتملة البناء، ودائما كانوا يتحدثون عن ضرورة مواصلة التعمير والبناء، ثم شرع الآباء يفكرون فى ضرورة ادخال ابنائهم الى الجامعات .

فى دار السيد (كارلوس ماسون) كانت تجري الاحتفالات الكبرى فى مناسبات الاعياد .

فى كل وليمة كان يدعو اليها ، كان ثمة أوز مع كرفس ، خرفسان مشوية على السفود وحليب مخثر مثلج فى نهاية الاكل . منذ كثير من السنوات لم اتذوق طعم الحليب المخثر المثلج . رب العائلة ذو الشعر الكثيف المسترسل الابيض كان يحلس فى رأس المائدة غير المتناهية ، وإزاءه

١٠ - اميرسون : شاعر وكاتب من الولايات المتحدة الامريكية (١٨٠٣ - ١٨٨٢) .
١١ - كريبوس : هو من كان امريكيًا من اصل اوروبى ، و (S) هو حرف الجمع فى اللغة الاسبانية .

زوجته السيدة (ميكائيل كانديا) . خلفه كان يوجد علم تشيلي كبير وقد ألصق عليه بدبوس راية أمريكا الشمالية ولكن بحجم صغير جدا ، هذا كان ايضا يمثل نسبة حصة الدم ، فنجمة علم تشيلي الوحيدة كانت تسود وتغطي .

في دار آل (ماسون) هذه كان ثمة قاعة أخرى كذلك ، لم يكن يسمح لنا نحن الصغار بالدخول اليها ، ما عرفت ابدا لون أثاثها حين كنت ألج اليها لأن هذا الأثاث كان مغطى بأغطية بيضاء تمنع عنها التوسخ والتلف الى أن هبت النار يوما فابتلعت الأثاث وأغطيته . كان في هذه القاعة مجمع (البوم) صور للأسرة . وكانت هذه الصور أكثر رقة وروعة من صور التكبيرات الفظيعة التي اجتاحت الثغر فيما بعد .

في هذه القاعة كان معلقا رسم أمي داخل إطار ، كانت سيدة ترتدي ثوبا أسود ، نحيلة متأملة . لقد قالوا لي انها كانت تكتب الأشعار ، غير اني ما شاهدت هذه الأشعار ابدا ، لم أر الا ذلك الرسم البديع .

تزوج والدي للمرة الثانية بالسيدة (ترينداد كانديا ماربرده) ، ففدت بهذا خالتي زوجة أبي . يبدو لي شيئا مستحيلا قبيحا ان يطلق هذا الاسم على الملاك الذي كفّل طفولتي وحذب عليها . لقد كانت امرأة نشيطة هذبة ، كان لها روح الدعابة الريفية وكان لها طيبة حيوية متجددة فياضة .

فما ان كان يدلف والدي الى الدار حتى تستحيل الى طيف عذب وظل خفيف ليس الا ، كجميع نساء ذلك الزمن وذاك المكان .

في بهو دارنا رأيت رقصات «ماتوركا» (١٢) و «كوادريا» (١٣) تبعث

١٢ - ماتوركا : الكلمة من اصل بولوني ، وهي رقصة بسيطة الحركات ، تعبر عن الود والمحبة .

١٣ - كوادريا : هي رقصة جماعية ، تعبر عن التآلف والانسجام .

الفرح والطرب .

كان في دارنا كذلك صندوق يحتوي على اغراض واشياء ساحرة فائنة . وفي أسفله كان يلتصع قفص رائع . ذات يوم ، بينما كانت «امي» تعيد تنظيم تلك السفينة المقدسة ، وقعت على رأسي في جوف الصندوق لأبلغ ذاك القفص . لكن مع نمو عمري وجسمي كنت أفتحه سرا لأنظر ما فيه ، كانت فيه مراوح نسائية ثمينة جدا لم تمس قط .

احتفظ بذكرى أخرى عن ذاك الصندوق . أول رواية غرامية أثرت بي وهي عبارة عن بطاقات بريدية مرسله من شخص ما ، بتوقيع ، لم أعد أذكر ، أهو (انريكه) أم (البرتو) ، وكانت جميعها مرسله الى (ماريا ثيلمان)، وكانت هذه البطاقات رائعة حقا ، فهي صور لمثلاث شهيرات في ذلك الوقت مطلية ببرنيق وكانت ما تزال في رونقها غير متلفة ولا ممحوة وأحيانا كانت ملتصقة عليها خصلات شعر . كذلك كان في هذه البطاقات صور قلاع ومدن ومناظر طبيعية غير مألوفة . خلال عدة سنوات كنت أتمتع برؤية الصور فقط ، غير اني ما أن كبرت قلبا حتى اخذت أتلذذ بقراءة تلك الرسائل الغرامية المسطرة بخط جميل متقن . وكنت دائما أتخيل ذلك العاشق انه رجل بقبعة سوداء وعكاز ، وبألماس في ربطة عنقه ، بيد أن تلك السطور خطتها يد عاشق ولّيه ، ومداد عاطفة جيئاشة أخاذه . لقد أرسلها مسافر من جميع أنحاء العالم . كانت مدبجة بعبارات ساحرة باهرة أملتها جراءة عشق واندفاع هوى . شعرت اني قد بدأت أعشق أنا كذلك (ماريا ثيلمان) . لقد كنت أتصورها ممثلة أنوفا متوجة بالدر والجوهر . لكن كيف وصلت هذه الرسائل الى صندوق أمي ؟ ما استطعت أن أعرف ذلك قط .

ها هو ذا عام ١٩١٠ يصل الى «تيموكو» . في هذا العام الذي أذكره دائما دخلت الى المدرسة . كانت عبارة عن دائرة كبيرة فسيحة ذات قاعات غير متناسقة وسرادب تحت الارض معنمة . وهناك من علو المدرسة كان يلعب ، في الربيع ، نهر «كاوتين» المنعطف اللذيذ وهو يصافح ضفافه العامرة بأشجار التفاح البرية .

كنا نهرب من الدروس لكي نفطس أرجلنا في الماء الفرات الذي ينرقرق فوق الاحجار الصقيلة البيضاء .

لكن المدرسة كانت حقلا لمجالات عديدة بالنسبة لاعوامي الستة . فكل شيء كان له احتمال المجهول . مخبر الفيزياء الذي ما تركوني ادخله ابدا ، كان مليئا بأدوات باهرة ، بأنابيب معوجة ، بأوان كثيرة . المكتبة كانت بشكل دائم مغلقة أبوابها . ما كان أبناء الرواد يتذوقون المعرفة والعلم . بيد أن القبو أكثر الاماكن سحرا وروعة . ففيه كان يخيم السكون وتسلط العتمة ، وهناك كنا على ضوء الشموع نلعب لعبة العسكر واللصوص ، فكان الغالبون يربطون الأسرى بالاعمدة العتيقة . ما زلت حتى الان أشتم رائحة الرطوبة ، رطوبة مكان محصور ، رطوبة جدث ، رطوبة كانت تفوح من قبو مدرسة «تيموكو» .

كنت آخذ بالنموّ جسما وعقلا ، وراحت تثير اهتمامي الكتب وراحت نجول روحي عبر مناطق الحلم في حماسة (بوفالو بيل Buffalo Bill (١٤) وفي رحلات (سالغاري Salgari (١٥) . اما أوائل الحب النقية جدا فقد كانت تفيض في رسائل موجهة الى (بلانكا ويلسون) . وكانت هذه الفتاة هي ابنة حداد البلدة الشهير ، وبناء على طلب أحد الفتيان الناهيين في حبها كنت أكتب باسمه هذه الرسائل الغرامية اليها . لم أعد أذكر كيف كانت هذه الرسائل ، لكن ربما انها باكورة أعمالي الادبية ، اذ انه ، ذات مرة ، سألتني زميلتي الفتاة المعنية عما اذا كنت أنا هو من كان بصوغ لها هذه الرسائل الغرامية التي كان ينتحلها عاشقها حين يحشرها في يدها ، ما كنت لأجروء على انكار أعمالي الادبية ، وبتلكو أجبتها ان أجل . اذالك ناولتني سفرجلة لم أشأ ان أقضمها فاحتفظت بها وكأنها كنز ثمين ، وهكذا ، وقد أجلت عن قلبها صاحبي ، حللت موضعه فمضيت أدبج لها رسائل غرامية لا تنضب ولا تنتهي ورحلت أكنز سفرجلة أنر سفرجلة .

١٤ - بوفالو بيل : هو ممثل من الولايات المتحدة كان «بطلا» من أبطال الحرب الأمريكي في الافلام ، يسلي الاطفال ويشير حماسهم (١٨٤٦ - ١٩١٧) .
١٥ - سالغاري : كاتب ايطالي (١٨٦٣ - ١٩١١) .

ما كان صبيان المدرسة يعرفون اني شاعر ، وان عرفوا ما كانوا
يقدرّون لي هذه الموهبة . لقد كان للشعر هذا الطابع الرائع طابع «فار
ويست» الخالي من الاوهام والهواجس . القاب زملائي كانت على النحو
التالي : (شناكس) ، (شيلير) ، (هاوسيرس) ، (سميت) ، (تايتوس) ،
(سيرانيس) . وكانت القاب عائلتنا متشابهة فهي : (ارائيناس) ، (راميرث) ،
(ربيبس) . لم يكن هناك القاب «بسكوية» . كان ثمة القاب «سيفاردية» :
(البلاس) ، (فرانكو) . كانت هناك القاب ايرلاندية : (ميك غينتيس) ،
بولونية : (يانيشيويكيس) . كانت تشعّ نورا غامقا الالقاب الاراوكابية ،
وهي تفوح برائحة الخشب والماء : (ميليبيلوس) ، (كاتريوس) .

كنا نتراشق ، احيانا ، في البهو المغلق ببلوطات (١٦) . لا احد ، ما لم
يكن قد تلقى ضرباته ، يعرف كم هو موجد البلوط حين يصيب جسم المرء
او راسه . قبل الوصول الى المدرسة ، كنا نملأ جيوبنا بالاسلحة والدخائر ،
اما انا فقد كانت لي قدرة ضئيلة ، اقدف من غير حول ولا قوة ، أصوب
بقليل من البراعة والدهاء . بينما كنت اتلهى بتأمل البلوطة الرائعة الشكل
كانت تتوالى عليّ اخواتها فيصيبني منها اسوأ قسط ولكن اكثره واوجعه .
كم هي جميلة البلوطة ، خضراء رشيقة ، بقلنسونها الخشنة الرمادية ،
اناء ما كنت احاول ، بغبابة وفلة دراية ، ان اصنع منها غليوننا من هذه
الغليونات التي كان يصنعها رفاقي ، كانوا يتخاطفونها مني ، بعد ان ينصبّ
فوق راسي طوفان من زخات البلوط ووخزاته .

خطر لي ، حين كنت في السنة الثانية من المدرسة الابتدائية ، ان
اضع على رأسي قبعة غير نافذة للماء ، ذات لون احمر فاقع ، وكانت هذه
القبعة لوالدي ، بما أن دنارها القشتالي (١٧) وسهامها ذات الشارات
الخضراء والحمراء كانت تسحرني وتدهشني ، فقد كنت اضعها ، كلما

١٦ - بلوطات : هكذا في الاصل Bellotas عن العربية

١٧ - القشتالي : نسبة الى «قشتالة» Castilla وهي المنطقة الوسطى في اسبانيا .

استطعت ذلك ، وأمضي بها الى المدرسة مختلا مزهواً . ذات مرة كانت السماء تمطر بلا هوادة ولا رحمة ، اذن ، فليس هناك أفضل من هذه الفبة ذات المسمع الاخضر التي كانت تبدو وكأنها يبغاء ، وما ان ولجت البهو الذي كان يتراكم فيه حوالي ثلاثمائة من اللصوص وقطاع الطرق، حتى طارت فبعثتني كما يطير ببغاء . وكلما كنت أتبعها وأوشك أن أصطادها، كانت تعود فتطير من جديد بين النباح والعواء والمواء مما كان يخز في سمعي ويصمّ أذني ، في حياتي كلها ما سمعت قط مثل هذه الجلبة ومثل هذا الضجيج ، أما الفبة فقد طارت الى الابد .

لست أرى جيداً في هذه المذكرات تتابع الزمن وتسلسل الحوادث بدقة ونظام . تتشابه في مخيلتي وتتراكم أحداث كثيرة كانت ذات أهمية بالنسبة لي ويبدو لي أن هذه الحادثة الممتزجة في شكل غريب بالتاريخ الطبيعي هي أولى مغامراتي الهزلية . ربما كان الحب والطبيعة منذ مطلع حياتي هما فلزات شعري .

مقابل دارنا كانت فتاتان تفيضان هناك ، على الدوام وباستمرار كانتا ترميان بنظرات تبعث في نفسي الحياء والخجل . بقدر ما كنت أنا وجلا خجلاً ، صامتا ساكناً ، كانتا هما يافعتين قبل الموسم والأوان ، ماكرتين شيطانتين . في إحدى المرات ، بينما كنت واقفاً على باب دارنا وأنا أحاول ألا أنظر إليهما ، لمحت بين أيديهما شيئاً خلبني فخلبني ، فدنوت منهما بحيلة واحتياط فارتاني عش عصفور بري ، منسوجاً من الطحلب والرييشات . يكنّ في داخله ببيضات صغيرة رائعة ذات لون فيروزي . حين هممت لأخذه ، قالت لي واحدة منهما أنه بادئ ذي بدء لا بد من أن بجسّائي ويتجسّساني تحت سروالي فارتعدت هلعاً واقفلت مسرعاً ، تطاردني الفئاتان البكران اللتان كانتا تلوحان بالكنز المثير ، أثناء عملية المطاردة دلفت في زقاق باتجاه محل خاو كان مخبأ يمتلكه والدي ، وهناك أدركتني المعتديتان وطفقتا تنزعان عني سروالي وملبسي ، وما أن همّتا بي حتى سمعت في المشى خطوات أبي ، اذّك تهشّم العش وانفقت بيبيضاته البديعات الرائعات في ذاك المخبز المهجور ، بينما كنا نحن المعتدي عليه والمعتديتان ، نكتم أنفاسنا تحت المنضدة .

أذكر كذلك أنه ، ذات مرة بينما كنت أفتش عن حاجات عالي الصغيرة

وحبوانانه الضئيلة في فناء دارنا ، عثرت على فجوة في السياج الخشبي ، نظرت من خلال الفجوة فرأيت حوسا شبيهها بحوش دارنا ، أرضا بسورا ودشرة خلاء ، راجعت بسرعة خطوات لانه نولد لديّ احساس غامض مبهم بأنني على وشك ان أدوس شيئا ما ، وبغثة ظهرت يد صغيرة ، انها يد طفل في سنني ، لما اقتربت من جديد لم اعثر على يد الطفل بل على حمل صغير ابيض اللون ضئيل الحجم .

كان حملا ذا صوف قليل باهت اللون ، قد فرت منه العجلات التي كان يدحرج عليها ، ما رايت طيلة حياتي حملا في رشاقة ذلك الحمل وجماله ، ذهبت الى بيتنا لأعود له بهدية وضعتها في المكان ذاته ! كوزا من الصنوبر ، نصف مفلوق ، ذا شدي ، بلسميا ، وكنت انا اعبدته واتعشقه .

ابدا من بعد ، ما عدت فرأيت يد الطفل ، ما شاهدت قط حملا مثل ذلك الحمل . لقد فقدت الحمل في حريق اختطفه مني ، وما زلت حتى الآن على كبر عمري ، حين أمرت بحمل للعب الاطفال ، انظر خاسرة الى الواجهات الزجاجية ، علني اعثر عليه ، لكنني عبثا ابحت ، فلقد عجزت المصانع ان تاتي بحمل كمثل ذلك الحمل .

الفن والمطر

مثلما كان يحل البرد والمطر ووحل الدروب ، اي شتاء جنوب امريكا المستهتر المدمر ، كان كذلك يكتسح هذه المناطق الصيف الاصفر اللافت . كانت تحيط بنا الجبال البكر ، غير اني كنت في شوق عارم لرؤية البحر والتعرف عليه . لحسن حظي استطاع ابي ذو النية الطيبة ان يحصل على دار اعاره اياها احد عرّابيه العديدين في السكة الحديدية . في الساعة الرابعة ليلا (ما استطعت حتى الآن ان اعرف لماذا يقال الساعة الرابعة صباحا) ، وفي جو يسوده الضباب الكثيف ، ايقظ والسدي ، السائق ، جميع من في الدار بصفتارته ، صفّارة سائق . منذ هذه اللحظة ما عاد ثمة سلام وهدوء ، ولا حتى ضوء ، وعلى لهب الشموع الذي كان يترنح ويدبل كلما تسالت من جميع الجهات هبّات الرياح ، كانت تلوب أُمي ،

أخني (لاورا) ، أخي (رودولفو) ، الطاهية ، يتراوون من مكان الى آخر ،
ويطوون الفرش الكبيرة فتغدو مثل كرات ضخمة ، ويلفونها بأقمشة مسن
القنب الهندي ، وكان لا بد من شحن الاسرة في الفطار ، حين انطلقنا الى
المحطة القريبة كانت الفرش لما تزل ساخنة دافئة . اما انا ، الممرض
والمحموم بطبيعتي ، فكنت أشعر بالغثيان والقشعريرة وقد قفزت من عز
نومي ، بينما كانت التحركات في الدار تتابع من غير هوادة وبلا انتهاء .
ما بقي شيء لم يحمل في سبيل هذا الشهر ، شهر عطلة الفقراء ، حتى
المجففات المصنوعة من الصفصاف والتي كانت توضع فوق المجامر المتوقدة
حتى تسخن ثم تجفف بها التراشف والملابس التي كانت تغدو بليلة دائما
بسبب رطوبة الطقس ، قد رفعت فحسرت في العربة التي كانت تنتظر
الطرود والحزم .

كان الفطار يجتاز جزءاً من تلك الناحية الباردة ، من «تيموكو» حتى
«كاراهوه» . كان يعبر مساحات واسعة غير أهلة لا بالبشر ولا بالزرع .
كان ينسرب عبر الغابات البكر ، كان يرنج كأنه هزة أرضية وهو يخترق
الانفاق والقناطر . كانت المحطات تبدو منعزلة في وسط الحقول بين
الأشجار الشدية وأشجار التفاح المزهرة . كان الهنود «الاراوكانوس»
بأزيائهم الطقوسية وبهيئتهم العريقة ينتظرون في المحطات لكي يبيعوا
للمسافرين خرافا ، دجاجا ، بيضا ، منسوجات . وكان والذي بعد الكثير
من المفاصلة والمماحكة بشئ من شئنا منهم . وكم كان جميلا أن يرى وهو
يشيل دجاجة حتى مهوى لحيه الصغيرة الشقراء ، في وجه امرأة
«اراوكانية» جلقة عنيدة لا تخفض ثمن بضاعتها ولا بنصف فلس .

كان لكل محطة اسم جد بديع ، هذه الاسماء جميعها تقريبا كانت تراثا
ينحدر من منازل «الاراوكانوس» القديمة . وهذه المنطقة كانت مجسلا
للمعارك الطاحنة بين الغزاة الاسبان وأوائل التشيليين ، أولئك الذين كانوا
أبناء هذه الأرض عن أصالة وصدق محدد .

«لابرانثا» كانت أولى هذه المحطات ، ثم تتوالى محطة «بوروا» فمحطة
«رانكيلكو» . أسماء ذات شذى كشذى النباتات البرية، كانت تأسرني بنبرات
مقاطعها ، فهذه الاسماء «الاراوكانية» كانت تنبئ دائما عن شيء لليد :

شهد خبيء ، بحيرة او نهر ازاء غابة ، جبل بلقب عصفور . كنا نجتاز «امبريال» الضبعة (١٨) الصغيرة فذكرت انه هنا اعدم الحاكم الاسباني الشاعر السيد (الونسو دي ارثيا) . فلقد كانت هنا عاصمة الغزاة الفاتحين خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فاخترع «الاراوكانيون» تكتيك الارض المحروقة ، فلم يدعوا حجرا على حجر في هذه المدينة التي وصفها (ارثيا) بالجمال والجلال .

لقد آن الوصول الى المدينة النهرية، فالقطار كان يطلق اكثر صفاراته فرحا وكان يغطي الحقول والمحطة بدياجير من خصلات الدخان الفحمسي المنسدلة ، فشرعت الاجراس تدق وبدانا نتنسم عطر المجرى المديد لنهر «امبريال» السماوي الهاديء عند اقترابه من مصبه في المحيط . انزال الطرود والحزم العديدة ، ترتيب الاسرة الصغيرة ، اركابها والاحزمة في عربة تجرها الثيران حتى نتوجه نحو المركب الذي سيهبط عبر نهر «امبريال» ، كل ذلك كان عملية يقودها والذي ويوجهها بعينيه الزرقاوين وبصفيه الفطاري . انحشرنا نحن والحزم في البويخرة التي كانت ستقلنا الى البحر . لم يكن ثمة غرف في البويخرة ، ولذا فاني قعدت قسرب قيدومها . كانت العجلات تحرك بريش مراوحها التيار النهرى ، وكانت آلات السفينة الصغيرة تلهث وتسهل ، وكان اناس الجنوب المطرقون يمكثون بلا حراك منتشرين على ظهر المركب .

كان ثمة اكورديون يرسل نغمات اساه الرومانطيكية ، يبعث شكواه الى الحبيب . ليس من شيء يجتاح قلبا ذا خمسة عشر عاما كمثلى ابصار عبر نهر عريض مجهول بين ضفاف جبلية باتجاه البحر الطلسم .

ان «باخو امبريال» (١٩) Bajo Imperial كان عبارة عن صف مسن المنازل ذات سقوف ملونة تقوم على جبهة النهر . من الدار التي نزلناها بله

١٨ - الضبعة : هكذا في الاصل Aldea عن العربية

١٩ - باخو : معناها ، تحت ، فالبلدة اسمها اذن : امبريال التحتانية .

من الارصفة المتشققة حيث رسا المركب ، اخذت أنصت ، من على بعد ، الى الرعد البحري، الى هيجان قصي . لقد كان التموج يتسرب الى أعماق وجودي .

كانت هذه الدار التي نزلناها ملكا للسيد (اورايسو باتشيكسو) ، كان مزارعا جبارا فذاً ، كان خلال هذا الشهر الذي احتلنا فيه داره ، يمضي عبر التلال والدروب الوعرة الصعبة بعربته وآلته الدارسة ، وكان بآلة أخرى يحصد القمح للهنود الحمر ولبعض الفلاحين النائين عن سكان الساحل . كان رجلا ضخما ، على حين غرة وبدون سابق انذار او اخبار كان يقتحم الدار ويفجأ اسرتي السكك الحديدية ويتكلم بصوت جهوري وبجسم مغطى بالفبار وتبن الحبوب ، ثم بالجلبة ذاتها وبالسرعة نفسها يعود الى أعماله في الجبال ، وكان بالنسبة لسي انموذجا آخر لهذه الحيوانات الصعبة القاسية في منطقتي الجنوبية .

كان كل شيء يبدو لي غريبا غامضا ، الدار نفسها ، الشوارع المتشققة ، الكائنات المجهولة التي تحيط بي ، النغم العميق للبحر المديد البعيد . كانت للدار ، كما بدا لي ، حديقة فسيحة غير منظمة ولا معننى بها . وفي وسطها ، فسحة كانت قد أتلفتها الامطار ، وكانت هذه الفسحة مصنوعة من أخشاب بيضاء تغطيها بعض النباتات . وما من احد غير شخصيتي التي لا أهمية لها ، كان يأوي الى هذه الوحدة الظليلة حيث تنمو اشجار اللباب وزهور العسل وشعري . على فكرة ، كان في تلك الحديقة الغريبة شيء آخر يخلب الالباب ويشير الشاعر : زورق كبير ، غدا يتيما بعد أن غرقت أمه السفينة ، كان هناك في الحديقة يرقد بلا أمواج هائلة ، ساكنا بين شقائق النعمان .

ما هو غريب ايضا في تلك الحديقة البرية هو انه ، سواء اكان ذلك عن تصميم او عن غير تصميم ، ما كان يوجد من النبات الا شقائق النعمان، أما النباتات الاخرى فقد انسحبت من ذاك المكان الظليل . وكانت شقائق النعمان على أنماط والوان مختلفة ، منها ما هو كبير ابيض كالحمامة ، منها ما هو قرمزي كقطرات الدماء ، منها ما هو بنفسجي وأسود كالأرملسة

المنسية . ما كنت شاهدت من قبل مثل هذه الكثرة من زهور شقائق
النعمان ، وأبدا من بعد ، ما عدت فرأيت مثلها كثرة وتنوعا . مع اني كنت
انظر اليها بكثير من الاحترام والاجلال ، وبشيء من الخوف الخرافي الذي
لا تبثه الاثا من بين اصناف الزهور كلها ، فاني من حين الى حين كنت
اقطف واحدة منها فتترك ساقها المهشمة في يدي حليبا خشن الملمس ،
ورشة من الشدى الدفين ، ثم اداعبها وادغدغها ثم احتفظ بها في كتاب
بأوراق حريرية فاخرة . لقد كانت هذه الشقائق بالنسبة لي فراشات
كبيرة لا تحسن القفز ولا تعرف الطيران .

حين مضيت الى المحيط لأول مرة وبقيت وحيدا أمامه ، شعرت
بالهلع والذهول . ومن هناك ، بين ربوتين كبيرتين ربوة «ال هويلكه» وربوة
«ال ماوله» ، كان يصطخب غضب البحر ، ليس غضب الامواج الهائلة
الهاوية التي تعلو عدة امتار فوق رؤوسنا فحسب ، بل كذلك كان دوي قلب
جم ، وجيب كون وخفقان يم .

هناك على شاطئ البحر ، عائلتي كانت تفنرش غطيتها وتعدّ اوانيتها،
وكان الاكل يبلغ فمي رملي الطعم واللون ، ولكن هذا ما كان يهمني كثيرا بل
ان الذي كان يبعث في نفسي الهلع والخوف هو اقتراب اللحظة النسي
يامرنا فيها والدنا بالاستحمام البحري الذي كان خبزنا كفاف يومنا ، ومع
انا كنا : انا وأختي (لاورا) ، بعيدين عن الامواج العملاقة ، فان الماء كان
يجلدنا بضربات سياطه الباردة اللاذعة . وكنا نظن مرتعدين ان اصبع احدى
الموجات سوف يجرجرنا نحو جبال البحر السامقة الرهيبة ، وعندما نتها
للموت وقد اخذنا نتقارب يدا بيد ، بأسنان مصطكة بردا وخوفا وبأضلاع
دكناء مزروقة ، ترن الصفارة القطارية ويأتي امر والدنا لينقلنا من
العذاب .

سوف أروي الان غرائب وعجائب أخرى عن تلك المنطقة ، وسأكنفي
بقصتين الاولى عن الخيول والاخرى عن دار النساء الثلاث ، الساحرات
الرائعات .

في ربض البلدة كانت نشمخ بيوت كثيرة ، كانت عبارة عن اماكن

للدباغة ، فيما اظن . يملكها بعض «البشكنس» (٢٠) الفرنسيين ، كان هؤلاء «البشكنس» دائما ، يقومون في جنوب تشيلي بصناعة الجلود ودباغتها . الحقيقة هي انني ما كنت اعرف على وجه الدقة عما كان عليه امرهم وشأنهم ، بل ان ما كان يهمني معرفته هو ان ارى الخيول وهي تخرج من بوابات كبيرة في ساعة معينة عند الغروب لتكتسح القرية وتجتازها . كانت الخيول مؤلفة من أحصنة ومهور وأفراس ذات أجسام ضخمة قوية، اعرافها الكبيرة كانت تتدلى وكأنها ضفائر شعر او خصلات صبية على صهوات الخيل العالية ، أرجلها ضخمة متينة مغطاة كذلك بفصون من الشعر تتماوج لدى القمص كأنها مجموعة من القنابر والقنزعات والخصلات ، حمراء ، بيضاء ، وردية اللون . لو ان البراكين تخب وتقمص لبدت مثل هذه الخيول الجسيمة الهائلة . كانت تمضي عبر الشوارع المفجرة المنقضة كأنها الزلزال الرجراج المهزاز، غطاريس صناديد تختال وتنوس، كانت كالنمايل والاصنام المتحركة ، لا عد لها ولا حصر ، ابدا ما عدت فرأيت مثلها فسي حياتي ، اللهم الا تلك التي شاهدها في الصين محفورة منحوتة في الحجر الصلد نصبا وشواهد على أحداث سلالة (مينغ Ming) ، لكن مهما كان الحجر قيما ومقدسا فانه لا يمكن له ان يمثل او يتمثل تلك الحيوانات الرائعة الفياضة بالحركة والحيوية ، تلك الخيول بدت امام مخيلتي الطفولية وكأنها تنبثق من ظلمات الاحلام لنلج في عالم آخر ، عالم العمالقة .

والواقع ان ذلك العالم كان مكتظا بالخيول ، فعبر الشوارع ، كان الفرسان التشيليون والالمان والهنود الحمر من قبائل «مابوتشيس» (٢١) بعباءاتهم المغزولة المنسوجة من الصوف الاسود القتتالي ، يمتطون صهوات خيولهم او ينزلون عنها . وتبقى الخيول الضامرة او المكتنزة ، النحيلة او الشخينة ، هناك حيث يتركها فرسانها ، تملك الكلا

٢٠ - البشكنس : هو الاسم الذي اطلقه العسرب على «البسك» Vascos

وهم شعب يسكن في شمال اسبانيا وجنوب غرب فرنسا ، لا يعرف من اين جاء هذا الشعب ولا مصدر لفته ، فهي ليست من اصل لاتيني ، لم يعتنق «البسك» الديانة المسيحية الا في وقت متأخر فقد بداوا بامتناعها في القرن الثالث عشر .

٢١ - مابوتشيس : هو اسم آخر للقبائل «الارواكانية» .

وعشب الدروب ، تقلد الدخان والانفاس من خياشيمها . لقد الفت سواعد فرسانها وتعودت على حياة الدشرة الموحشة المنفردة . . ثم ، اذا جاء المساء ، تؤوب مثقلة بأكياس العلف والعدد والادوات ، تمضي نحو الارباض البعيدة المتشابكة ، تصعد الدروب الوعرة او تقمص الى الابد في الرمال ازاء البحر . من حين الى حين كان يخرج من احدى وكالات الشغل لو من احدى المحانات المعتمدة احد الفرسان «الأراوكانيين» ، يحاول ، بصعوبة، أن يمنطي حصانه الثابت الراسخ ، ثم بواي وجهه شطر داره بين الجبال، يترنح من جانب الى آخر وقد بلغت منه الخندريس غايتها . حين اراه يشرع المسير ثم يواصل الطريق ، كان يخيل اليّ ان المسخ (٢٢) الثمل سيهوي على الارض كلما مال به جسده ناحية او أخرى بشكل خطير ، غير اني كنت أخيب في ظني وتحسبي ، فقد كان يعود فيستقيم ، ثم يميل الى الجانب الآخر مرة أخرى ثم يعود فيستقيم وهكذا دواليك ، وفي كل مرة يستعيد أنفاسه ويلتصق بالسرج ، ثم يروح على ظهر حصانه يقطع فرسخا اثسر مرسخ الى ان ينصهر والطبيعة الغابية البرية كأنه حيوان ساهم متردد ، لا يصيبه سهم ولا اذية .

لقد عدنا ، دائما بالاحتفالات والتحركات العائلية عينها ، لنقضي عطلة الصيف مرات كثيرة ، الى هذه المنطقة المثيرة الساحرة . وكنت انا آخذ في النمو ، اقرا ، اكتب ، مع مضي الزمن ، بين فصول الشتاء المرة فسي «تيموكو» وبين فصول الصيف العجيبة في الساحل .

الفت ركوب الخيل ، وحياتي كانت تصير اكثر علواً واوسع مدى حين اتهاذى عبر الدروب الطينية المزلاجة ، عبر الطرقات المنعطفة على حين غرة تخفّ للترحيب بي النباتات المتشابكة ، السكون او نغم العصافير البرية ، حفيف شجرة مزهرة ملتحفة بثوب قرمزي كأنها أسقف جليل لهذه الجبال او مندوفة بثلوج معركة ازهار مجهولة . او تبرز من حين الى حين كذلك زهرة الـ «كوبيهويه» ، هكذا فجأة ، متوحشة ، برية ، وحشية ،

٢٢ - المسخ : El Centauro كلمة من اصل الفريقي ، وهي في الاساطير اليونانية مسخ نصفه انسان والنصف الآخر حصان ، قد يكون انثناس .

مزمنة الالم والوحدة ، متدلية كأنها قطرة دم نضرة . . لقد تعودت على ركوب الخيل ، وتمرست باللجم والمهاميز القاسية التي كانت تطن تحت عقبي وكعبي . لقد بدأ اتصال ما بين سواحل لا نهاية لها وجبال كثيفة مسنبكة وبين روحي ، اي بين هذه الارض ، اكثر الاراضي وحشة في العالم ، وبين شعري . هذا جرى قبل سنوات كثيرة ، بيد ان هذا الاتصال وهذا الوحي وهذا الحلف المقدس مع الفضاء ، ما فتئت جميعها تقيم في وجودي ، تستمر في حياتي .

اولى قصائدي

الآن ساروي لكم حكاية عن العصافير . كانوا في بحيرة «بودي» (Budi) يطاردون البجع بنراسة ، كانوا يقنربون منها بزوارقهم في صمت وسكون ، ثم في سرعة ، في سرعة يجففون البجع ، مثل القواديس ، شروعها بالطيران صعب ، اذ لا بد لها من ان تجري منزلجة على سطح الماء لترفع فيما بعد بصعوبة فائقة أجنحتها الكبيرة . كانوا يدركونها فيقضون عليها بصربات هراوات ثم يحملونها .

إحضروا لي بجعة نصف ميتة . كانت واحدة من هذه الطيور التي ما عدت أفرايت مثلها في الدنيا ، بجعة ذات عنق اسود . سفينة من ثلج ، بعنق رقيق اهيف ، كأنما أدخل في جراب ضيق من حرير اسود . المنقار برنقالي اللون والعينان حمراوان .

ان هذا حدث قرب البحر في «بورتو سايدرا» ، ببلدة «امبريال ديل سور» (٢٣)

لقد أعطونيها شبه ميتة . غسلت جراحها وحشرت لها في حلقها فتات خبز وفتايل سمك . كانت تتقيا كل شيء . ثم اخذت تستعيد قواها وتبرا

٢٣ - امبريال ديل سور : معناها امبريال الجنوب .

من أوجاعها ، وبدأت تعي بأني صديق لها . وبدأت أنا أعسي ان الحنين
يضيئها والشوق الى الماء ينضيها . فاحتضنت العصفور الثقيل بين ذراعي^{٢٤}
ومضيت عبر الشوارع لأخذها الى النهر . كانت تعوم قليلا ، قريبة مني ،
كنت أريد لها ان تصطاد شيئاً فأدللها على الحجيرات في القعر وعلى الرمال
حيث تنزلق أسماك الجنوب المفضضة . لكنها كانت تنظر البعد فتخشاه
بعينين جد حزينتين .

هكذا كل يوم ، أكثر من عشرين يوماً ، كنت آخذها الى النهر وأحملها
الى بيتنا . كانت البجعة كبيرة ، حجمها حجمي . ذات مساء كانت غارقة
في التفكير جدا ، سبحت قربي لكنها ما اهتمت بالزبابات التي اردت بها
تعليمها الصيد من جديد . مكثت هادئة فأخذتها الى حضني من جديد بنيتة
ان أحملها الى دارنا ، وما ان أوشكت ان ترتاح في صدري حتى شعرت ان
شريطاً قد انحلت ، ان شيئاً كأنه ذراع سوداء ، قد لمس وجهي وكشطه
فالنفت^{٢٥} وإذ بعنقها الطويل الملتوي يتهاوى . آنذاك تعلمت ان البجع حين
تموت لا تغني .

ان الصيف لحر لافح في «كاوتين» . يحرق السماء والقمر . ان
الارض تود لو تستفيق من سباتها . والدور لم تتخذ عدتها للصيف ، كما
لم تتخذ مؤونتها للشتاء . كنت أمشي عبر الحقول أسير وأمشي . اضيع
في تلة «نييلول» (Nielol) . هاندا وحدي ، جيبني مليء بالخنافس .
في صفت صغير أحمل عنكبوتا كثيف الشعر حديث الصيد . السماء لا
تري . الغابة دائمة الرطوبة ، انزحلق ، فجأه يصرخ عصفور ، انه الصراخ
التسبحي لـ «ال تشوكاو» (٢٤) (El chucao) . تنمو من أخمص
قدمي^{٢٦} قشعريرة نذيرة رهيبة . زهور «ال كوييهويس» هي قطرات دم تكاد
لا تبين . لست غير مخلوق ضئيل تحت السراخس العملاقة الهائلة . قاب
فوسين او أدنى من فمي تطير حمامة مطوقة ، حفيف أجنحتها جاف خفيف .
عصافير أكثر نطيقا تضحك مني ونستهزيء بي ضحكة جشاء بحيجة .

٢٤ - التشوكاو : كلمة من اسل «مابوتشي» ، وهو عصفور في حجم الزرور ، ذو
ريش اغمر اللون ، يقطن الغابات الكثيفة جدا .

أتلتمس الدرب فأجده وقد لا أجده . ها هو الليل يرخي سدوله .

لما يات والدي بعد . سباني في الثالثة او الرابعة صباحا . اصعد الى غرفتي . اقرا لـ (سالفاري) . المطر ينسكب كأنه شلال . المطر والليل في لحظة يخفيان الكون . هانذا هنا وحيدا اكنب الاشعسار في دفتر الحساب . انهض في صباح اليوم التالي مبكرا . الخوخ لما يزل اخضر . اقفز فوق الروابي . احمل معي علية صغيرة فيها ملح . اصعد الى شجرة . انمرکز في موضع مريح . اقضم في حذر خوخة فانال منها فلقة نسم اغمسها في الملح فأكلها . هكذا الى ان التهمت مائة خوخة . من بعد عرفت انني افرطت وافضب .

بما ان دارنا قد احترقت ، فان هذه الدار الجديدة تبدو لي غريبة عجيبة . اصعد على سور الحائط وانظر الى الجيران ، ما من احد . ارفع بعض العصي عن السور الخشبي ، لا شيء الا عناكب بائسة صغيرة . هناك في آخر فناء الدار المرحاض . للاشجار القريبة منه يساريع . اشجار اللوز تعرض فاكهتها المبطنة في قطيفة ببضاء . اعرف بنف اصيد قمع اللباب بمنديل دون ان اسبب لها اذى . احفظ بها سجيئة لفترة من الزمن وأدنيها من أذني . يا له من طنين رائع بديع .

يا للوحدة ، وحدة طفل شاعر صغير ، يرتدي السواد ، في الثغر الفسيح المديد الرهيب . كانت الحياة وكانت الكتب تجعلني ارى شيئا فشيئا غرائب كثيرة جمّة .

لا استطيع ان انسب ما قرانه تلك الليلة : فأكهة الخبز انقسلت «ساندكان» وأصحابه في بلد بعيد يسمى «مالاسيا» .

لا يعجبني (بوقالو بيل) لانه يقتل الهنود . لكن يا له من عداء على الخيل ماهر سريع ! يا للمروج ويا للخيمات المخروطية الشكل ذات البشرات الحمراء !

لقد سئلت مرات عديدة متى كتبت اولى قصائدي ، متى ولد فسي الشعر .

ساحاول ان اتذكر ذلك . في مهتبل طفولتي وفي بداية تعلمي الكتابة، شعرت ذات مرة بعالج عارم يغمرني فسطرت بضع كلمات شبه مسجوعة، عجبت لها ومنها فقد كانت مختلفة متميزة عن الحديث اليومي والكلمات الالية . اعدت نسخها في خط انيق بعد ان شذبتها ، كنت حينذاك اسير جوى عميق ، سجين شعور ما كنت شعرت به من قبل البتة ، شعور مسنطن غير مسبور ، نوع من الكآبة والاسى . كانت قصيدة موجهة الى امي ، اي ، الى المرأة التي كنت ادعوها امي ، الى خالتي زوجة ابي الملاكية التي حمى ظلها الخفيف اللطيف طفولني كلها وحبب عليها ورعاها . ما كنت بقادر على تقييم قصيدتي ، اخذتها الى والدي ، كانا في غرفة الطعام غارقين في حديث من احاديثهما هذه التي كانا يهمسان بها همسا بصوت خفيض جدا ، احاديث تفصل اكثر من نهر بين عالمين : عالم الصغار وعالم الكبار ، وكان ذلك الحديث على ما يبدو خاصا بعالم الكبار . مددت لهما الورقة ذات السطور ، وكنت ما زلت ارتعد من هول زيارة الوحي الاولى، تناولها والدي وهو ساه غافل ، فقرأها وهو ساه غافل ، أعادها لي وهو ساه غافل ، ثم قال :

- من اين استنسختها ؟

وتابع حديثه مع امي في صوت خفيض عن شؤونهما المهمة العاجلة والاجلة .

هكذا ولدت اولى قصائدي وهكذا تلقيت اولى عينات النقد الادبي الفافل الساهي .

بيد اني كنت امضي قدما في عالم المعرفة ، في نهر الكتب على غير هدي او ترتيب مثل بختار يمخر في الخضم وحده . ما كان ليرتوي او يقنع نهمي للقراءة في آناء الليل واطراف النهار . عثرت ، على الشاطئ بميناء «بورتو سايدرا» على مكتبة تابعة للبلدية وعلى شاعر أصيل ، هو السيد (اوغوستو وينتر) . فأكبرني وأكبر في نهمي الادبي . «أفقرأتها جميعها؟» كان يقول لي ، وهو يناولني كتابا جديدا لـ (بارغاس بيسلا) اولـ (اييسن Ibsen) (٢٥) ، اولـ (روكامبول Rocambole) . كنت

٢٥ - اييسن : هو الروائي والمؤلف المسرحي النرويجي الشهير (١٨٢٨ - ١٩٠٦) .

التهم كل شيء دون تمييز كما النعامة .

في ذاك الوقت وصلت الى «تيموكو» سيدة طويلة القامة ، ترتدي ملابس طويلة فضفاضة ، تنتعل حذاء ذا كعب واطيء قصير . انها المدير الجديدة لمدرسة الاناث، قدمت من مدينتنا الجنوبية، من تلوج «ماغايانيس» . تدعى (غابرييلا ميسنرال Gabriela Mistral) (٢٦) .

كنت انظر اليها وهي تجتاز شوارع قريني بأثوابها السابغة الفضفاضة فكنت اخشاها . غير انه ، حين قابلتها وجدتها فتاة طيبة . كانت تتألق أسنانها البيضاء في وجهها الملوّح الذي يسوده الدم الهندي كما يسود في دنّ «أراوكاني» جميل ، حين بتسم ابتسامة عريضة سخية تضيء المكان . ما كنت لأكون خليلا لها لأنني كنت بعد صبيا هيّابا مغرقا في التفكير والأمل . رأيتها من بعد مرات قليلة ، وفي كل مرة أراها ، كنت أخرج وأنا أحمل كتبا نهديها اليّ ، مجموعة من الروايات الروسية نعتبرها هي أفضل وأجمل ما في الادب العالمي . أستطيع القول ان (غابرييلا) قد أربكتني في هذه الرؤية الجدية الرهيبة الفظيعة ، رؤية الروائيين الروس، وأن (تولستوي) و(ديسنويفسكي) و(تشيخوف) كانوا الاثريين عندي وما زالوا يرافقونني .

دار الارامل الثلاث

دُعيت ذات يوم لمشاهدة درس الحنطة بالافراس ، كان البيدر في مكان عال بالجبال بعيد جدا عن القرية . استهوئني مغامرة ان أمضي وحيدا أستجلي الدروب وأتبينها بين سلسلة الجبال تلك . وان تهت فلا ريب في اني سأجد من يغيثني ويعينني . ابتعدنا : انا ومطيتي ، عن «باخو امبريال» واخرقنا حاجز النهر . كان المحيط الهادي هناك يفك

٢٦ - غابرييلا ميسنرال : شاعرة من تشيلي مشهورة جدا حازت على جائزة نوبل للاداب (١٨٨٩ - ١٩٥٧) .

عقاله فيلطم في تواتر وكرّ وفر الصخور وأحراج ربوة «ماوله» . آخر تلة على الشاطئ ، شاهقة سامقة جدا . ثم انحرفت عبر ضفاف بحيرة «بودي» . تلاطم الامواج كان يقذف قواعد التلة بضربات هائلة عنيفة . كان علينا أن ننتهر تلك الفرصة ، حين تفتت إحدى الموجات وتقهقر لتستعيد أنفاسها ، لنعبر بضيق شديد المضيق بين الربوة والماء ، قبل أن تأتي موجة جديدة تهرسني ومطيتي بمهراس التلة المسننة الحادة .

عند الغروب وقد انقضى الخطر ومضى الحذر ، بدت تتجلى صفيحة البحيرة الزرقاء الساكنة . كانت الرمال تنجرف بعيدة عن الشاطئ حتى مصب بحيرة «تولتين» (Toltén) . ان هذه الشواطئ التشيلية هي صخرية ناتئة ولكنها سرعان ما تستحيل أشرطة رفيعة مديدة تسمح للعابر ان يطأها لمدة نهارين وليلتين تحته الرمال وإزاءه زبد البحر .

انها سواحل تبدو أبدية غير منتهية ، كأنها تشكل على امتداد تشيلي خانما لكوكب ، خاتما محققا تضغط عليه بحار الجنوب الصخابة ، مدرجا يبدو كأنه يدور عبر سواحل تشيلي الى ما هو أبعد من القطب الجنوبي .

على جوانب الطرقات كانت تحيني أشجار البندق ذات الاغصان المورقة الخضراء القامقة البراقة بجميع أصنافها ، ما كان منها مرصعا بعناقيد فاكهة وما لم يكن ، أشجار بندق تبدو كأنها قد طليت وزينت بزنجفر فبرزت حمراء فاتنة في هذه الفترة من السنة . سرائس جنوب تشيلي الضخمة سامقة جدا الى درجة اننا ، أنا وحصاني ، كنا نسير تحت أغصانها دون ان نستطيع لمسها . وان دنت أحيانا فجسّت رأسي ، فانها ترش علينا من نداها . على جانبي الايمن ، تمتد بحيرة «بودي» : صفيحة مثابة زرقاء تتجاور والغابات النائية .

ما رايت احدا الا في آخر الشوط ، صيادين غريبين . في ذلك المدى حيث يلتصق المحيط والبحيرة يتعانقان او يتشاحنان ، كان ثمة بعض اسماك بحرية ، تجرفها الامواه الشديدة العنيفة . أكثرها جشعا وطمعا هي الاسماك المساء العريضة المفضضة التي كانت تتشاحن في هذه المنخفضات البحرية متخبطة نائمة . كان الصيادون ؛ واحدا ، اثنين ، ثلاثة ، اربعة ،

خمسة ، وهم في وضع شاقولي وفي حالة تمعن وانتظار ، يترصدون حالة السوق ومعرض الاسماك التائهة ، ثم على حين غرة ، يقدفون خطافا طويلا الى الماء ، من بعد يشيلون نحو الاعلى وقد غنموا تلك الالباب الكروية الشكل ، الفضية اللون التي ترتعد وتلتمع في شعاع الشمس قبل أن تلفظ انفاسها في اسفاط السمائة . لقد دنا الغروب . كنت قد خلّفت ورائي ضفاف البحيرة وكنت قد مارست البحث عن السبيل عبر منحدرات الجبال المعقدة الوعرة . كان الظلام يمضي شبرا فشبرا . فجأة اخترق الفضاء انين عصفور وحشي مجهول كأنه همس أجش . صقر او عقاب بدا من علوه الشفقي وكأنه يوقف اجنحته السوداء عن الطيران ليشير الى حضوري ووجودي ، يواكبني من عل في طيران ثقيل بطيء . تعوي او تنبح او تخترق ثعالب سريعة عجولة ذات ذيول حمراء ، او وحوش ضارية مجهولة من هذه الغابات السرية .

أدركت اني قد تهت . الليل والغابة ، اللذان كانا لي البهجة والسرور ، هما يتهدداني ويتوعداني ، يملآني رعبا وهلعا . طارق وحيد ، فجأة ، تقاطع وإياي في وحدة الطريق المدلهمة . حين تقاربنا توقفت فرأيتة فلاحا من هؤلاء الفلاحين الحفاة العراة ، ليس له الا عباءة بالية وحصان ضامر ، واحدا من هؤلاء الرعاة الذين يطلعون من السكون .

قصصت عليه ما جرى لي .

اجابني بأني لن ابلغ البيدر تلك الليلة . هو كان يعرف المكان كله موضعا موضعا وزاوية زاوية ، يعلم علم اليقين اين يدرسون القمح . قلت له اني لا أريد ان أقضي الليلة في الخلاء ، وطلبت منه ان يرشدني الى موضع آوي فيه الى ان يبرز الفجر ، فأشار لي في ايجاز بأن أمضي في درب متفرع عن الطريق مسافة فرسخين . «سوف ترى من بعيد بيتا خشبيا كبيرا ذا طابقين» ، قال لي .

— اهو فندق ؟ سألته .

— كلا ، ايها الفتى ، لكنك سوف تلقى الترحاب والرحابة . انهن ثلاث

فرنسيات يعملن في تجارة الاختساب ويقمن هناك منذ ثلاثين سنة . انهن طبيبات المعشر مع الناس جميعا . ولسوف ياوينك ويرحبن بك .

شكرت الفلاح على نصائحه الشحيحة المختزلة . هو ابتعد يخب به حصانه المقوؤض وانا سلكت الدرب الضيق كأنني نفس في جوى وأسى . هلال بكر ابيض معقوف كفلامه ظفر حديثة القص كان يشرع الصعود عبر السماء .

لمحت عند التاسعة ليلا انوارا ، لا مندوحة في انها منبعثة من منزل . اجهدت حصاني قبل ان تحرمني الأقفال والمفاتيح من دخول ذلك المعبد ذي الاعاجيب . . اجتزت حواجز الحمى ، متجنباً جدوعاً مقطوعة وجبالاً من نسارة ، وصلت الى الباب بله الى رواق ابيض لتلك الدار الضائعة في تلك الانحاء المنفردة المتوحدة . ناديت من وراء الحجرات . . . قرعت الباب ، بادئا في رفق ثم في قوة ثم في عنف . حين يئست وقد مرت دفائق رهيبة ، وظننت ان ما في الربع من احد ، اطلت سيدة ذات شعر ابيض ، نحيلة ، في ثياب حداد ، تتفحصني بعيون صارمة ، ثم فتحت الباب بين بين ، كي تستقصي الطارق القادم في غبر وقت .

من انت وماذا تريد ؟ قال صوت لطيف ناعم ، صوت شبح .

لقد تهت في الغابة . انا طالب في مدرسة . دعاني لحضور درس الحنطة على البيدر آل (ايرنانديث) لقد انهكني المسير . لقد قيل لي انك واختيك فعالات للخير ، لست ابغي الا ان انام في اي ركن وان اواصل حين يطلع الفجر طريقتي نحو حصاد آل (ايرنانديث) .

تفضل - اجابتنني - لانت في بيتك .

قادتني الى بهو معتم وهي بنفسها اشعلت قنديلين او ثلاثة من زيت القطران . لاحظت ان القناديل جميلة Art - nouveau (٢٧) ، من

٢٧ - Art nouveau : التعبير فرنسي ، معناه : فن حديث .

البرونز المذهب . البهو يفوح برائحة الرطوبة . ستائر كبيرة تنسدل على
النوافذ العالية ، مقاعد مغطاة بأغطية تحفظها وتصونها . مم ؟

كان ذاك البهو من عهد آخر ، صعب التحديد ومفلق كالحلم . السيدة
الساهمة الحاملة ذات الشعر الابيض كانت تتحرك دون ان تبين لها قدما
او أن أسمع لها خطوا ، يداها تلمسان شيئا أو آخر ، مجمع صور ،
مروحة ، هنا أو هناك داخل السكون .

تخيلت اني قد هويت الى قعر بحيرة وفي أعماقها أحيا ، مرهقا
منهوكا . فحاة دخلت سيدتان طبق الاصل من التي استقبلتني . كان
الوقت متأخرا وكان تمة برد شديد . جلسنا من حولي ، احدهما فسي
ابتسامة خفيفة ذات غنج عتيق والاخرى تنظر اليّ بعينين كئيبتين ، كعيني
التي فتحت لي الباب .

ابتعد الحديث كثيرا عن تلك الحقول النائية ، عن تلك الليلة المثقوبة
بآلاف الحشرات ، المخنقة بنقيق الضفادع وغناء العصافير الليلية .
سألني عن دروسي . فاجأتهن حين لفظت على غير توقع منهن اسم
(بودلير) (٢٨) واستغربن حين قلت لهن بأنني قد بدأت بترجمة أشعاره .

كان ذاك كشرارة كهربائية ، السيدات الثلاث المنطفئات اشتعلن .
تغيرت عيونهن المكروبة ووجوههن الصارمة ، كما لو ان ثلاثة براقع نزع
عن وجوههن ذوات الملامح العتيقة .

— (بودلير) — هتفن . لعل هذه هي المرة الاولى التي فيها يتلفظ باسمه
في هذه الاماكن المنعزلة منذ ان وجد الكون . لدينا هنا كتابه *Fleurs*
du mal (٢٩) . ليس من احد غيرنا يستطيع قراءة صفحاته الرائعة
في هذه الاماكن على مسافة دائرة قطرها ٥٠٠ كيلومتر . لا احد يعرف

٢٨ — (شارل بودلير) : الشاعر والناقد الفرنسي المعروف (١٨٢١ - ١٨٦٧) .

٢٩ — *Fleurs du mal* : بالفرنسية ، أزهار الشر .

الفرنسية في هذه الجبال .

اثنان من الاخوات الثلاث ولدتا في «أفينيون» (Avinon) ، الصغرى
تسيلية المولد لكنها كذلك فرنسية الدماء طبعاً . جدودهن ، آباؤهن ،
اقرباؤهن جميعاً ، ماتوا منذ زمن بعيد . هن الثلاث كنّ قد تعودن على
المطر ، على الريح ، على نشارة الاخشاب ، على التعامل مع عدد قليل من
الفلاحين البدائيين والخدم الاجلاف المتأخرين . قررن البقاء هنا في هذه
الدار الوحيدة الموحشة وسط تلك الجبال المسننة الوعرة .

دخلت خادمة فهمست بشيء الى السيدة الكبرى . حينذاك خرجنا
بإشارة منها عبر دهايز باردة جدا الى غرفة الطعام . اندهشت وذهلت .
في وسط القاعة ، مائدة مستديرة بسماطين بيضاوين طويلين ، مضاءة
بشمعدانين من فضة مليئين بشموع مشتعلة ، كان الزجاج والفضة يلتمعان
معا على تلك المائدة المفاجئة .

اجتاحني حياء عارم ، كما لو ان الملكة (فيكتوريا) كانت قد دعنتني الى
وليمة في قصرها . فقد جئتهن أشعث الشعر ، مغبّر الثياب ، مرهق
الجسد ، وهذه المائدة تبدو وكأنها نتوقع زيارة امير ، وانا على حالتي ابعد
الناس عن ان اكون اميرا ، بالاحرى كنت ابدو وكأنني راعي بقال برائحة
كريهة ، تركت عند الباب قطيع ماشيته ودوابه .

مرات قليلة جدا اكلت كمثّل هذه المرة ، مضيفاتي كنّ معلمات في
الطهي ، ورثن عن جداتهن وصفات فرنسا العذبة في فن الطهي والتطيب .

على الرغم من ان التعب كان يغمض لي العينين على حين غرة ، فاني
كنت أسمعهم يتحدثون عن أشياء غريبة . كان فخر الاخوات الاعظم الاكبر
هو التفتن في الطهي ، المائدة بالنسبة لهن هي ممارسة ارث مقدس ،
ممارسة ثقافة لن يعدن اليها ابدا وقد عزلهن عن وطنهن الزمن العتيق
والبحار الهائلة . أراني ، كأنهن يستهزئن من أنفسهن ، سجلا غريبا .

— نحن عجائز معتوهات — قالت لي الصغرى .

خلال ثلاثين سنة زارهن ٢٧ عابرا قصدوا هذه الإدار النائية ، بعضهم بفرض التجارة وبعضهم بهدف الاستطلاع وبعضهم كحالي بمحض الصدفة . ما لم يثر من قبل مثله البتة ، كان احتفاظهن ببطاقة عن كل واحد مسن زوارهن ، تاريخ الزيارة ، وجبة الاكل التي اعددها في كل مناسبة .

— نسجل وجبة الاكل حتى لا نقدم منها ولا طبقا واحدا فيما اذا عاد فزارنا من كان قد تذوق هذه الاطباق من قبل .

رحت لأنام فهويت على الفراش مثل كيس بصل في سوق . عند انبثاق الفجر ، في العتمة ، أشعلت شمعة ، فاغتسلت ، ولبست ملابس . عندما أسرج لي الحصان احد الخدم كان النهار يأخذ بالطلوع والوضوح .

ما تجرات على توديع السيدات الكريمات السخيات اللابسات ثياب الحداد . في أعماقي شيء كان يقول لي ان ذلك كله كان حلما غريبا للذيذا ، وأنه ما كان لي ان أصحو منه حتى لا يتلاشى السحر وتضيع الرقية .

لقد انقضى على هذا الحدث اربعون سنة ، كان ذاك في مستهل فترة مراهقتي . فماذا جرى لتلك السيدات المنفيات وكتابهن (أزهار الشر) في وسط تلك الغابة البكر ؟ ماذا حصل لرجاجات نبذهن المعتق ، لمائدتهن البراقة المضاءة بعشرين شمعة ؟ ماذا كان مصير المناشر والدار البيضاء الضائعة بين الاشجار ؟

لا بد انه طرا ما هو أبسط شيء ! الموت والفناء . ربما ان الغابة التهمت تلك الحيوانات وبلت القاعات التي احتضنتني ذات ليلة غير منسية . لكنهن ما زلن يحيين في ذاكرتي كما لو كنّ في عمق بحيرة الاحلام الشفاف . مجدا وطيبا لهاته النساء الثلاث الحزاني اللواتي صارعن بلا جدوى في وحدتهن القاسية لكي يصنّ لياقة عريقة . كنّ يدافعن عما اتقنت صنعه أيدي أسلافهن ، اي : أواخر قطرات ثقافة عذبة لذيذة ، هناك بعيدا ، في أقصى حدود جبال هي اكثر الجبال صلابة ووحدة في هذا العالم .

الحب ازاء القمح

وصلت الى مرابع آل (ايرانانديث) قبل الظهيرة ، منتعشا جدلا ، موكبي المنفرد عبر الدروب الخالية ، استجمامي من الارهاق والوسن ، كل ذلك كان يتألق في شبابي الصموت ويبدو على محيائي النضر .

في ذلك العهد كان درس الحنطة والنوبان والشعير تقوم به دابة تلف وتدور . ليس من شيء في العالم أروع وأبدع من رؤية دوران الافراس وهي تخب حول اكداس الحبوب المكومة ، تحت صراخ الفرسان المزعج لها كي لا تحرن او تراوح او تماطل . الشمس تشرق رائعة باهرة ، النسيم كأنه الماسة برية غابية تجعل الجبال تلتمع تحت أشعة الهجير . ان الدرس لهو مهرجان ذهبي . التبن الاصفر يتكوم في جبال مذهبّة ، كل شيء كان نشاطا وفعالية وبهجة ، اكياس تجري فتملا ، نساء تطهو ، أحصنة تعلق الشكيمة ، كلاب تنبح ، اطفال لا بد من انقاذهم في كل لحظة يبدون وهم يلعبون كأنهم اوراق التبن او أرجل الخيول .

ان آل (ايرانانديث) هم قبيلة فريدة في نوعها . كان رجالها شعث الشعر ما تطيبوا ولا حفوا ذقونهم يوما ، يمضون ، دائما ، بلا سترة مكتفين بأكمام قمصانهم ، مسدساتهم في أحزمتهم ، مدسمين بالزيت ، او معفرين بغبار الحبوب ، او موحلين بالطين ، او مبتلين حتى العظام بالامطار . كانوا جميعا ، آباء ، أبناء ، احفادا ، اعماما ، اخوالا ، أبناء عمومة ، أبناء خؤولة ، انسبا ، أصهارا ، يبدون في مظهر من البداوة والجلافة ينم عنهم ويدل عليهم . يمكنون ساعات بكاملها منهمكين في اصلاح محرك ، او مجففين سلائقهم على أسطحه منازلهم ، او متسلقين آلة حاصدة او دارسة . ابدا ما كانوا يتحدثون او يثرثرون . ما كان كلامهم الا مزاحا في كل امر اللهم الا حين يتشاحنون ويتخاصمون ، فهم في العراق والنزال اعاصير بحرية ، يقوضون كل من او ما يقف في وجوههم . اما في الشواء ، وبخاصة شوي رؤوس الغنم ، في النبيذ الاحمر ، في القيثاره النواحة فقد كانوا جهابذة أوائل . كانوا رجالا من الثغر ، اي القوم الذين أعجب بهم ويطيبون لي . كنت أحس انا الطالب الشاحب بضالتي وصغري ازاء أولئك البرابرة النشيطين الفعالين ، وهم ، لست

أدري السبب ، كانوا يعاملونني بلطافة لم تكن لاحد غيري .

بعد الشواء والقيثارة والتعب المعمي من شمس ومن قمع ، كان لا بد من ترتيب الامور لقضاء الليل ، المتزوجون مع زوجاتهم ، والنساء الوحيدات ، جميعا رقدوا في الخيمة المنصوبة على عمد حديثة القطع . اما نحن الفتيان فقد خصص لنا البيدر لننام عليه . ان البيدر بجبله التيني يمكن لقريّة بأسرها ان تبرصع في طراوته الصفراء .

كان ذاك الموضع بالنسبة لي مزعجا مقلقا ، لم اكن اعرف كيف اتصرف ، كيف اتمدّد ، وضعت في حذر حدائي تحت طبقة من التبن لتكون لي مخدة او وسادة ، نزعْتُ ثيابي ، التحفّت بعباءتي وغطست في جبل التبن . كنت بعيدا عن الآخرين جميعا ، لكنهم سرعان ما اخذوا بالتسخير في عزف جماعي .

مكثت هكذا فترة طويلة ، مستلقيا على ظهري ، عينايتان محدقتان في السماء ، وجهي وذراعاي مغطاة بالتبن . كان الليل جليا باردا لاسعا ، ما كان القمر قد طلع في السماء لكن النجوم تبدو حديثة الابتلال بالمطر ، وفوق نوم الآخرين الاعمى كانت تنلّالا في حضن السماء لي ، ليس غير .

ثم غفوت قليلا فصحوت لان شيئا ما كان بدنو مني ، جسم شيء كان يتحرك من تحت التبن ويقترب شيئا فشيئا من جسدي ، شعرت بالخوف ، هذا الشيء كان يقترب اكثر فأكثر ولكن في تودة ، شعرت ان اقذاء التبن كانت تتكسر من حولي تتهشم كلما تماسست والجسد الزاحف ، كان جسدي جميعه في حالة طوارئ ، اترقب مرتعدا ، كدت انهض ، كدت اصرخ ، لكنني بقيت جمادا بلا حراك ، اسمع انفاسا قرب رأسي .

على حين غرة تحسستني يد ، يد كبيرة ، خشنة الملمس كيد عاملة ، بيد انها يد انثى ، لمست جبيني ، جفني ، وجهي ، كل وجهي ، بعدوبة ، ثم ان ثغرا نهما التصق بفمي فأحسست على طول جسدي حتى اخمص قدمي بجسد امرأة كانت تشدني واشدها شدا .

لذة عارمة كانت تهزم دياجير خوفي شيئا فشيئا ، أجلت يدي في

خصلات شعر منسدل ، فوق جبين أملس ناعم ، على عينين بجفنين مطبقين
ناعمين لزجين كشقائق النعمان ، يداي راحتا تبحثان عن كنوز ، لقفت
نهدين راسخين عظيمين ، جسست أردافا عريضة ، لمست ساقين التفتتا
بساقين ، أفرقت أصابعي في عانة غضة بضة مثل طحالب الجبال . ولا
بكلمة واحدة نبسى ذلك الثغر المجهول .

كم هي صعبة ممارسة المضاجعة دون إثارة ضجيج ولا حتى خفيف
في جبل من تبن مجوف بسبعة أو ثمانية من الفتيان الغارقين في النوم
الذين ان أوقفوا غضبوا وأثاروا التبن والفضيحة . غير ان الفتى لقادر على
إنجاز كل شيء مهما كلفه من جهد وحذر . وما ان مضى هزيع من الليل
أو بعضه حتى همدت تلك المجهولة نائمة قربي ، وأنا محموم مسن تلك
الحالة ، بدأت بإثارة الفرع في نفسي . عما قريب سينبثق الفجر ، كنت
أفكر ، أوائل العاملين في البيدر سيجدون هذه المرأة عارية ، مستلقية
قربي . لكنني أنا كذلك أخذت للنوم ، وحينما صحت مددت يدي فرما
فما لمست غير فجوة باردة وما وجدت الا غيابها وارتحالها . ها هو عصفور
يزرقق ثم ضجت الغابة وامتأ الجبل أغاريد وانا شيد . رن مزمار آلة وإذ
بهم جميعا رجالا ونساء ينطلقون نحو البيدر يكدون ويعملون . بدأ يوم
للدروس جديد .

عند الظهيرة بينما كنا متحلقين حول طاولات كبيرة ، وبينما كنت
أنظر وأنا آكل ، نظرات خاطفة ، باحثا عن زائرتي في الظلام ، بين النساء،
أهذه هي ؟ لا . فهذه عجوز شمطاء ، أتلك ؟ كلا فهذه نحيفة ضامرة .
أنا أبحث عن امرأة مكتنزة رداح بنهدين طيبين وبدوائب مسترسلة طويلة،
واذ بامرأة تتقدم ومعها شريحة من اللحم المشوي ناولتها لزوجها من آل
(ايرنانديث) أهذه ؟ ، أجل ، قد تكون هي . حين رمقتها من طرف المائدة
وهي في الطرف الآخر ، لاحظت ان تلك السيدة الجميلة ذات الدوائب
المسترسلة لاحظتني بنظرة سريعة وابتسمت لي ابتسامة صغيرة جدا . غير
ان هذه الابتسامة كانت تكبر في عيني ، تعمق في قلبي ، تتفتح فسي
جسدي .

الفصل الثاني

... ضائعاً في المدينة

غرف للايجار

بعد عدة سنوات قضيتها في المدرسة حيث كنت دائماً أتعثر في شهر كانون اول بامتحان الرياضيات ، أصبحت مهياً ، خارجياً ، لمواجهة الجامعة في «سانتياغو» بتشيلي (١) . اقول ، «خارجياً» ، لانه «داخلياً» كان رأسي مليئاً بالكتب والاحلام والقصائد التي كانت تتر كالنحل .

مجهزاً بصندوق من صفيح ، بالبدلة التي لا غنى عنها ، بدلة الشاعر

١ - سانتياغو Santiago : هي عاصمة تشيلي ، وتذكر معها ، عادة ، كلمة «تشيلي» تميزها لها عن مدينة اخرى بهذا الاسم تقع في شمال غرب اسبانيا وهي (Santiago de compostela) وكان العرب يدمونها ، «السانت (قديس) يعقوب» .

السوداء ، نحيلًا جدًا ومبربا كشفار ، صعدت في الدرجة الثالثة للقطار الليلي الذي كانت رحلته تستغرق يوما بليلا ونهاره في الوصول الى « سانتياغو » .

ما زلت اذكر لهذا القطار حتى الساعة سحره الغريب، فلطالما سافرت فيه وهو يجتاز مسافات مختلفة ومناطق عديدة وأجواء متباينة . كانت تجري في عربات الدرجة الثالثة حباة بكاملها ، فلاحون بعباءات تتقطر ماء وبسلال مكتظة بالدجاج ونساء من قبائل «مابوتشه» (Mapuche) عابسات متجهومات . الكثيرون كانوا يسافرون مجانا دون ان يدفعوا شيئا . على ما يبدو المفتش كان يمسح الارواح والاجساد . بعضهم يختفي ، بعضهم يخنق تحت عباءة يجلس فوقها حالا اثنان ويتظاهران بأنهما يلعبان الورق فيمر المفتش دون ان تلفت نظره هذه الطاولة التي نصبت فجأة .

كان يمر القطار من حقول البلوط والصنوبر والبيوت ذات الخشب البليل ، الى حور اواسط تشيلي ، الى الابنية المعمولة من الطوب المغبر . مرات كثيرة قمت بهذه الرحلات ذهابا وايابا بين العاصمة والناحية لكنني دائما كنت اشعر بالاختناق حين اخرج من الغابات الكبيرة ، من جوف اُمي، من الخشب . بيوت الطوب واللبن ، المدن ذات الماضي العريق ، جميعها كانت تبدو لي مليئة بالهلل والسكون والعناكب والدخان . ما زلت حتى الان شاعر الزوابع والاعاصير ، شاعر الغابة الباردة التي فقدتها منذ ذلك الحين .

لقد نصحت قبل المجيء من قريتي باستئجار غرفة في بيت يقع في شارع «ماروري» (Maruri) رقم البيت هو ٥١٣ . لا أنسى هذا الرقم ابدا . قد أنسى التواريخ كلها والسنين جميعها ، لكن هذا الرقم ٥١٣ سوف يبقى حيا في دماغي ما حييت ، اذ اني حُسرته فيه منذ كثير من السنين خوفا من ان لا ابلغ هذا البيت وان اتيه في العاصمة المجهولة الكبيرة . في الشارع المذكور أعلاه وفي البيت المذكور في دماغي وعلى شرفة غرفتي كنت اجلس ارقب حشرة المساء ، اجلي النظر في السماء المزدانة بالرايات بألوانها البديعة من اخضر وازرق واحمر قان ، الملح كآبة اسطحة منازل ضواحي المدينة المهددة بحريق السماء .

حياة الطلبة في غرف الإيجار هذه خلال تلك السنين العجاف كانت
جوعا على جوع . كتبت شعرا اكثر مما كنت كتبت من قبل لكنني كنت
أكل أقل بكثير . لقد هلك الكثير من الشعراء الذين عرفتهم في تلك الايام
بسبب صوم الجوع الصارم . من بين هؤلاء اذكر شاعرا كان في عمري
لكنه اكثر طولا وأسوأ رفلة مني . شعره الفنائي القتيب مغمم بالهيولي
والشفافية . كان حيث ينشد تنتشي الاجواء وتطرب الاسماع . يدعى
(روميو مورغا) .

ذهبنا : هو وأنا ، ذات مرة لننشد أشعارنا في مدينة «سان برناردو»
القريبة من العاصمة . قبل أن نصعد المنصة لانشاد شعرنا كانوا قد احتفلوا
باختيار ملكة الزهور ، فهناك كانت الملكة بثيابها البيضاء وشعرها الاشقر،
كان وجهاء المدينة قد القوا خطبا رنانة ، والفرق الموسيقية قد عزفت الحانا
نشازا ، عندما صعدت وبدأت بانشاد اشعاري في صوت متأوه ، لم يكن
في العالم كله صوت اكثر منه تأوها ، تبدل كل شيء ، الجمهور يعطس ،
يُنكث ، يتلهى بشعري الكئيب الحزين . حين رأيت هذه الاستجابة المخزية
من قبل هؤلاء البرابرة الهمج أسرع في القراءة وأوجزت فنزلت تاركا
المنصة لزميلي (روميو مورغا) . ان ما حدث عند ذلك لجدير بالتخليد
والذكر . فما ان صعد (دون كيخوته) (٢) هذا الفارع الطول بثيابه الغامقة
الرنة المضحكة وأخذ ينشد بصوت اكثر من صوتي اتيانا وتأوها ، حتى بدأ
الجمهور وقد فقد قدرته على ضبط النفس وكظم الغيظ ، بالصراع
والهناف : «يا شعراء الجوع ، لا تفسدوا لنا الاحتفال» .

من تلك الغرفة بتسارع «ماروري» انسحبت مثلما ينسل رخوي من
صدفه . ودعت ذيل السلحفاة ذاك لكي أتعرف على البحر ، اي ، على
العالم . البحر المجهول هو : شوارع «سانتياغو» التي ما كنت شاهدها من
قبل حين كنت أمضي غاديا او راثحا ، ذهابا او ايابا بين الجامعة العتيقة

٢ - دون كيخوته (Don Qijote) : هو بطل رواية (سرفانتس) الخالدة المعروفة
بهذا الاسم ، والنطق هو كما رسمناه ، وليس (دون كيشوت) الذي اخذنا نطقه عن النطق
الانجليزي او الفرنسي ، حيث لا تنطق الخاء كما هو في الاسبانية والعربية معا .

والغرفة الخاوية في دار تلك العائلة بشارع «ماروري» رقم ٥١٣ .

كنت أدري ان مجاعاتي المتراكمة سوف تزداد في هذه المغامرة . اكثر من مرة ، سيدات تلك الدار اللواتي لهن علاقة بعيدة بمنطقتي ، كنّ ينقلنني بحبة بطاطا او برأس بصل ، تنزل عليّ كرحمة من السماء . لكنما ، لم يكن من ذلك بد ، الحياة ، الحب ، المجد ، التحرر ، كل هذه المغريات كانت تدعوني لالبيها او هكذا خيل اليّ .

ان اول تحفة مستقلة ملكتها كانت غرفة استأجرتها في شارع « ارغويس » (٣) قريبة من المعهد التربوي . في احدى نوافذ هذا الشارع الرمادي كانت تطل لافتة مكتوب عليها : «للايجار» . صاحب الدار كان يشغل الغرف المظلة على الشارع . كان أشعث الشعر شائبه ، له مظهر نبيل ، ذا عينيّن كانتا تبدوان لي غريبتين . كان ثرائرا متحذلقا . يكسب عيشه بمقصه ومشطه فقد كان حلاقا للسيدات ، لكنه لم يكن يولي أهمية لهذا الفن ، اذ ان اهتماماته قد انحصرت واقتصرت ، حسب ما شرح لي ، على العالم اللامرئي ، على عالم ما هناك ، عالم ما وراء الطبيعة .

اخرجت كتيبي وملابسي الزهيدة القليلة جدا من الحقيبة والصندوق اللذين جاءا معي من «تيموكو» واضطجعت على الفراش لاقرا ، لانام ، معتزا باستقلالي مزهوا بكسلي .

لم يكن للدار فناء بل دهليز تطل عليه غرف مغلقة لا حصر لها ولا عد . حين سبرت اغوار الدار المتوحدة الخالية في صباح اليوم التالي ، لاحظت ان على الجدران وفي المرحاض لوحات معلقة مكتوب عليها كلها العبارة التالية : «اقنعي . لا تستطيعين الاتصال بنا . انك لميتة» . في كل موضع علّقت لافتة كأنها اشارات تحذير وخطر ، في غرف النوم ، في

٣ - ارغويس : سوف يسكن (نيرودا) في شارع او بالاحرى حي بهذا الاسم نفسه حين يسافر الى مدريد .

غرفة الاكل ، في الدهاليز ، في القاعات ، كلها تقول : «اقنعني ، لا تستطيعين الاتصال بنا . انك لميتة» .

كان الفصل شتاء ، من هذه الفصول الشتوية القارصة الصقيعية ، في «سانتياغو» تشيلي . لقد ورث بلدي عن الاستعمار الاسباني ازدياء الطبيعة الصارمة وعدم الارتياح اليها (بعد خمسين سنة على حدوث ما اروييه الان ، قال لي (ايليا ايهريمبورغ) انه مما احس ببرد اشد مما احس به في تشيلي ، في اي مكان من العالم البتة ، وهو كان يعيش في موسكو المثلجة دائما) . كأن ذلك الشتاء لغزارته قد طلى الزجاج بمادة مانعة للتأكسد . أشجار الشوارع ترتعد بردا . خيول العربات القديمة تقذف غيوما دخانية من خياشيمها ومخاطمها . لقد كانت تلك الفترة أسوأ فترة يحياها المرء في تلك الدار ، بين ايماءات الجن وتحذيرات ما وراء الطبيعة .

شرح لي صاحب الدار حلاق السيدات الالمعي وطبيب العيون اللوذعي في جدية بينما كان يغرز عينيه في أعماق عيني ، كأنه مجنون بعينين لا تهدآن ولا تستقران ، فقال :

— لقد ماتت زوجتي (لا تشاريتو) (٤) منذ اربعة شهور . ان حالة الموت حالة صعبة بالنسبة للاموات . هم يرتادون دائما الاماكن نفسها حيث كانوا يحيون . نحن لا نراهم ، لكنهم هم لا يعرفون بأننا لا نراهم . لا بد من اشعارهم بأننا لا نراهم حتى لا يظنوا بأننا غير مباليين بهم وكيلا يتعذبوا من اننا لا نراهم . لذلك وضعت هذه اللافتات وكتبت عليها هذه العبارة حتى تدرك (لا تشاريتو) حالتها الآنية المؤقتة في أنها متوفاة .

لكن الرجل ذا الشعر الرمادي قد يكون حسبني حيا بإفراط وزيادة فقد بدأ يراقب دخولي وخروجي ، يقيد عدد من يزورنسي من الاناث ،

٤ — لا تشاريتو : هو تصغير تحبب لن تسمى Charo ، وأداة التعريف ، المؤنثة هنا : (La) ، لا تدخل على اسم العلم الا للتعجب او التحقير .

يتجسس على رسائلي وكتبي . كنت ألج الى حجرتي في غير الوقت المعتاد
أحيانا فأجد طبيب العيون يتفحص اثنائي الضئيل ، يجس حوائجي الفقيرة .

كان لا بد لي من ان ابحث في عز الشتاء ، متخبطا في الشوارع
العدائية ، عن مأوى جديد حيث احفظ استقلالتي المهدد . عثرت عليه في
مكان قريب من ذلك ، على بعد بضعة أمتار من هناك ، في مفصلة من هذه
المفاصل الكبيرة . بدا للعيان وللعين ان صاحبة هذه المفصلة ليست لها
علاقة بما وراء الطبيعة . بعد اجتياز فناءات باردة وباحات كأنها البحيرات
وينابيع ماء راكد لا دافق حيث الطحالب المائية تغطي سجاجيد متينة خضراء
وعلى الجانبين تمتد حدائق مهمة مهجورة ، وصلت الى غرفة ذات سماء
وجدران ملساء جرداء ، ذات نوافذ متسلقة مثقوبة فوق ساكن الابواب
العالية الفسيحة . وهذا ما جعل المسافة بين الارضية والسقف تكبر في
عيني وتعظم في تقديري . في هذه الدار وفي هذه الغرفة مكثت .

لقد كنا نحن الشعراء الطلبة نحيا حياة غريبة عجيبة . انا دافعت عن
عاداتي الريفية ، كنت أشتغل في غرفتي ، اكتب عدة قصائد في اليوم ،
اتناول طاسات من الشاي لا تنتهي . كنت أطيّب الشاي وأعدّه انا بنفسني .
لكن ، خارج غرفتي وبعيدا عن شارعني ، انطلق كما أهوى فقد كان لفوضى
تلك الفترة واضطرابها جاذبيتها الخاصة . زملائي ما كانوا ليرتادوا المقاهي
بل الخمارات والحانات . كانت الاحاديث والاشعار تروح وتجيء حتى مطلع
الفجر ، ودراستي تروح وتجيء لاعنة شاتمة .

كانت شركة السكك الحديدية تهب والدي بردة ذات نسيج سميك
رمادي اللون ، تقيه البرد والصقيع ، لكن والدي ما استعملها ابدا فوهبها
للشعر . بدأ ثلاثة من زملائي الشعراء او اربعة منهم يشتملون ببرود شبيهة
ببردي التي كنت أعيرها كذلك لآخرين . هذا الطراز من الثياب كان يشير
حفيظة الناس : الطيب منهم والسيء . كانت تلك الفترة هي فترة رقصة
«التانغو» التي قدمت الى تشيلي ليس بأنغامها و«مقصها» العازف ، بالآت
«الاكورديون» ووقع الحانه ، فحسب ، بل كذلك بجوقة من الصعاليك
الاوغاد الذين اكتسحوا الحياة الليلية والزوايا التي كنا فيها نجتمع .

ان هذه الطغمة من الاوباش ، برقصهم وعربدتهم ، كانوا يشنون
المعارك ضد برودنا ووجودنا ، فكنا نحن الشعراء نكيل لهم الصاع صاعين
ونقاومهم ببسالة وصلابة .

فى تلكم الايام اقتنيت صداقة غير متوقعة ، صداقة أرملة ما نسيتهما
قط ، ذات عيين زرقاوين واسعتين تعبران فى حنان ورقّة عن ذكرى
زوجها الحديث الوفاة . كان زوجها روائيا شابا ، شهيرا برشاقتة البديعة .
كانا قد كونا معا تنائيا جديرا بالذكر والذكرى ، هي بشعرها القمحسي
وجسدها المتقن الصنع وعينيها المحيطيتين وهو بقامته الفارعة وعضلاته
المفتولة . الروائي هلك من بعد بمرض السل ، من هذا النوع الذي ينعته
بالسل المستعجل . من بعد فكرت فى ان رفيقة حياته الشقراء لا بد انها
ساهمت بنصيبها من السل المستعجل فى القضاء عليه فهي «فينوس»
السل والشبق ؛ فالسل المستعجل ، قبل اكتشاف البنسلين ، وهذه
الشقراء الملتهبة ، نقلا من هذا العالم ذاك الزوج المتين كالصنم فى اشهر
معدودة .

لم تكن تلك الارملة الجميلة قد نزعّت عنها بعد ، لي ، نياها الفامقة
المنسوجة من حرير اسود وبنفسجي ، التي كانت تجعلها تبدو وكأنها ثمرة
يانعة رطبة محفوفة بلحاء من سواد . هذا اللحاء انزلق ذات مساء فسي
غرفتي ، هناك فى عمق المفصلة ، فلمست وقطفت تلك الفاكهة الخالدة من
ذوات الثلج المحرق والرونق المتوهج . حين اوشكت الغيبوبة الطبيعية على
الاستنفاد ، لمحت تحت عيني عينيها وهما تطبقان تغيبان وهي تصرخ
متنهدة او جاهشة : « آه ، إيه ، آي » (روبرتسو ، روبرتو) .
(بدا لي ذلك كأنه مشهد من الاعمال الطفوسية . العذراء فى المعبد الروماني
تنادي الإله المخفى قبل ان تستغرق فى طقس جديد) .

على الرغم من شبابي المتدفق الظمى فان هذه الانثى بدت لي مفرطة
فى سغبها وغليها . كانت تهيجاتها وتهيجاتها تزداد استعجالا فى كل مرة
وقلبها المتقد الحار يقودني شيئا فشيئا الى هلاك عاجل : وما كانت الغلطة
لتتوافق مع الفاقة وعدم التغذية . وفاقتي كاتب فى كل يوم تغدو اكثر
مأساوية .

الخجل

ان الحقيقة هي انني عشت خلال كثر من سنواتي الاولى ، قد تكون سنوات العقد الاول والثاني من حياتي ، كأنني أصمّ أبكم .

كنت ارتدي رداء اسود منذ صباي ، اقلد بذلك شعراء القرن الماضي الاصيلين ، فقد كان لي انطباع غامض بأنني لست قبيح المظهر . لكنني بدل من ان اقرب من الفتيات كنت افضل ان أمرّ بهن جانبا وأبتعد عنهن مظهرا لامبالاة بهن . الحق يقال اني كنت في داخلي اهتم بهن وأبالي غير اني كنت أخشى ان دنوت منهن وكلمتهن ان ألتصم أو أحمر خجلا أمامهن . لقد كن بالنسبة لي طلسمًا وسرا عميقا لا يسبر أعماقه . وددت لو اني اموت احتراقا في هذه المجرمة السحرية ، اختناقا في هذه البشر ذات القاع اللغز بيد اني ما كنت لأجرؤ ان أقذف بنفسي الى النار او الى اللجة . ربما كان سبب ذلك هو اني ما عثرت على من يدفعني فألقف . كنت أحاذي ضفاف السحر دون ان التفت ولو بنظرة او ابتسامة .

الشيء نفسه كان يقع لي مع الكبار ايضا ، مع اناس فقراء ، مع مستخدمي في السكك الحديدية او في البريد ، مع «سيداتهم حرمهم» ، فهكذا كانوا يدعونهم اذ ان البورجوازية الصغيرة كانت تشعر بالفضيحة والعار ان لفظت كلمة «امراتي ، امراتك ، امراته» . كنت انصت للاحاديث في مجالس والدي ، لكن ، اذا ما صادفت في اليوم التالي ، احدا من الذين كانوا قد بعثوا في بيتنا الليلة البارحة ، ما كنت أجرؤ على تحيته او رد السلام عليه ، بل انني كنت أغير سبيلي كي اتفادى اللحظة الحرجة .

ان الخجل لهو طبع غريب ، انه لمرتبة ، انه لمدي يطل على الوحدة والشعور بالانفراد والعزلة . وهو كذلك معاناة لا تنفصم عن المعاشة فكأنما للمرء بشرتان اثنتان : الباطنية منهما تشمئز وتشنج تجاه الحياة . ان هذه الميزة وهذه الاذية بين بني الانسان ، لهما جزء من السبيكة التي تدعم ، في ظرف مديد ، تأييد الوجود وتخليد الانسان .

لقد استغرق تشاقلي في المسير ، اغراقي في التفكير المستديم فترة

أكثر مما يجب . عندما قدمت الى العاصمة تباطأت في كسب الصديقات والاصدقاء . كلما أولاني احدهم أهمية أقل أوليته صداقتي بسهولة أقل . ما كان عندي إلا فضولية في التعرف على النوع البشري . لا أستطيع أن أتعرف على أناس هذا العالم كلهم ، كنت أقول في نفسي . وهكذا نشأت في بعض الاوساط فضولية شاحبة حول هذا الشاعر الجديد ذي ١٦ سنة من العمر او أكثر قليلا ، فتى منظر منعزل يرى في مجيئه وذهابه وهو صامت ساهم لا يلقي السلام ولا يرد التحية ، لا يسودع ولا يستودع . بالإضافة الى انني كنت ارتدي بردة طويلة من الطراز الاسباني تجعلني أشبه شيء بفراشة عصافير . ما كان أحد يظن ان ردائي الفضفاض هذا كان نتاجا مباشرا لفقرى وعوزي .

من بين الذين استقصوا عني واهتموا بي اثنان كانا من أبرز طليعة تلك الفترة في التائق وحب البروز : (بيلو يانيث) وزوجته (مينا) . كانا يمثلان النموذج الكامل في البطالة الرائعة التي وددت أن أحيها ، غير انها بعيدة المنال بالنسبة لي ، أبعد من حلم جميل . لأول مرة في حياتي تلك دخلت الى دار ذات تدفئة وثريات بديعة هادئة ومقاعد لطيفة مريحة وجدران طافحة بكتب اكوابها مختلفة الألوان والاشكال كأنها ربيع دائم . آل (يانيث) كانوا يدعونني مرات كثيرة لزيارتهم فقد كانوا كرماء رصينين لا يعيرون اهتماما لبداية بردتي الغريبة ، بردة الرهينة والتأمل والانتكباب . أغدو من بيتهم راضيا فيلاحظون ذلك فيدعونني من جديد فألبي راضيا .

في تلك الدار رأيت لأول مرة لوحات تكعيبية ومن بينها لوحة (خوان غريس Juan Cris) (٥) . أخبروني أن (خوان غريس) كان صديقا لعائلتهم في باريس . لكن أكثر شيء لفت انتباهي هو البيجاما التي كان يرتديها صديقي (بيلو) . كنت أستغل كل فرصة سانحة لأنظر الى هذه البيجاما الجميلة شزرا بطرف عيني وفي إعجاب شديد . لقد كان الوقت شتاء وتلك كانت بيجاما من قماش سميك كأنها قطيفة طاولة «البلياردو» لكنها في زرقعة لجة البحر . آنذاك ما كنت أعرف صنفا آخر لبيجاما اللهم

٥ - خوان غريس : رسام اسباني عاش في فرنسا (١٨٨٧ - ١٩٢٧) .

الا تلك الخطوط التي تبدو كأنها زيّ سجين في حبس معتم . ان بيجاما (بيلو يانيث) هذه فاقت البيجامات جميعها وخرجت عن الاطر كلها . نسيجها المتين السميك وزرقتها المشعة كانا يثيران حسد شاعر فقير يعيش في ضواحي سانتياغو . لكنني، في الحقيقة ، ما رأت عيناى خلال خمسين سنة بيجاما مثل تلك .

لم اعد ارى آل (يانيث) لسنين طويلة . هي هجرت زوجها وفارقت كذلك الدراري والاروقة الفاخرة ومضت مع بهلوان سيرك روسي مر يوما بسانتياغو . فيما بعد صارت تبيع التذاكر في العالم من استراليا حتى الجزر البريطانية ، مساهمة في استعراضات البهلوان الذي بهتها وخبلى قلبها . ثم تسمت بـ (روسا كروث) او شيئا مبن هذا القبيل ، وعاشت في مجمع متاع مختلط الجنسبن بجنوب فرنسا .

اما (بيلو يانيث) زوجها ، فقد غير اسمه واستبدل به اسم (خوان ايمار) ، وتحول مع مرور الزمن الى كاتب قدير ولكن باسمه المستعار هذا . كنت له صديقا طيلة حياته . صامتا وانيقا وفقيرا عاش ومات هكذا . ان مؤلفاته الكثيرة ما زالت حتى الان دون نشر ، بيد ان ابداعه لا بد ان يظهر ذات يوم .

سأنهي الحديث عن (بيلو يانيث) او (خوان ايمار) (ولسوف اعود من بعد لموضوع خجلي) ذاكرنا انه خلال عهدي الجامعي ، أصر صديقي (بيلو) هذا على تقديمي الى والده . «سيؤمن لك السفر الى اوروبا بكل تأكيد» قال لي . في تلكم الاوقات شعراء امريكا اللاتينية ورساموها جميعهم كانت عيونهم مسمرة في باريس . والد (بيلو) كان شخصية مهمة جدا ، عضوا في مجلس الشيوخ . كان يعيش في دار من هذه الدور الضخمة القبيحة، في شارع قريب من ساحة «ارماس» ومن القصر الجمهوري ، الذي كان يفضل هو من غير ما شك ، أن يعيش فيه لو سنحت له الظروف .

صديقي (بيلو) وزوجته — لما تكن قد هجرته — بقيا في الرواق بعد ان نزعا عني بردتي لكي ابدو شخصا عاديا . فتتح باب قاعة الشيخ لي ثم أغلق خلف ظهري . قاعة واسعة جدا ، ربما من قبل كانت قاعة للاستقبالات الحافلة ، غير انها كانت خاوية خالية . ميزت من بعيد ، في الطرف

الآخر من القاعة ، تحت مصباح مرتكز على سارية ، مقعدا عظيما والشيخ عليه . صفحات الجريدة التي كان يقرأها كانت تخفي عني طلعه كأنما الجريدة حجاب يحجبه .

حين خطوات اول خطوة فوق الارضية الخشبية المصفولة والمشمعة بشكل اجرامي ، تزلقت كأي منزلج ماهر . سرعة هرولتي كانت تتزايد في عجلة هائلة ، دعست على المكبح كي أتوقف واذا بي انخض وأهتز وارتض عدة مرات كانت آخرها عند أفدام التبخ الذي خزنني بعينين باردتين مواصلا قراءة الجريدة .

نوصلت الى ان أجلس نفسي على مقعد بجانبه . الرجل العظيم تفحص فيّ بنظرة عالم حشرات نعب قد أحضر له نموذج من الحشرات عرفه بالذاكرة ، عنكبوت مسالم . سألني في نكاسل عن مشاريعي . انا ، بعد الرضضة والندحرج . كنت أكثر خجلا وأقل فصاحة مما انا عليه عادة .

لا أدري ماذا قلت له . بعد عشرين دقيقة ناولني بعضا من يده كعلامة للانصراف . كأي سمعته يقول بصوت ناعم خفيف بأنه سيتصل بي ويخبرني بشيء . ثم عاد ليواصل قراءه جريدته وأنا شرعت بالاياب ، عبر تلك الارضية الخشبية الخطيرة ، مسرعا في اتخاذ الاحتياطات اللازمة التي كان عليّ أن اتخذها من قبل حين انطلقت لاجتازها . طبعاً ما وصلني من الشيخ والد صديقي أية بشرى ولا خبر ، ابدا . انتفاضة عسكرية ، على فكرة ، غبية ورجعية ، أطاحت به من على مقعده هو وصحيفته التي لا تنتهي . اعترف باني سررت لذلك وفرحت .

اتحاد الطلبة

في «تيموكو» كنت مراسلا لمجلة «كلاريداد» Claridad (٦) الناطقة

٦ - كلاريداد : معناها ، الوضوح .

باسم اتحاد الطلبة ، وكنت أبيع منها من عشرين الى ثلاثين نسخة بين زملائي في المدرسة . ان الاخبار التي وصلت الينا ونحن في «تيموكو» عام ١٩٢٠ ، قد طبعت ابناء جيلي بندوق دموية ... منظمة «الشبيبة الذهبية» ، لدى طبقة الاقلية الحاكمة ، كان قد هاجم افرادها مقر اتحاد الطلبة فحطموه تحطيمًا . العدالة التي منذ الاستعمار حتى الوقت الحالي كانت في خدمة الاغنياء ، لم تسجن المعتدين الاثمين بل الابرياء المعتدى عليهم . (دومينغو غومث روخاس) الشاب الذي كان امل الشعر التشيلي اذاك ، جن من وطأة العذاب وقضى نحبه في معتقله . كان صدى هذه الجريمة ، ضمن الاوضاع المحلية لبلد صغير ، شديدا وعميقا ، كما لو كان اغتيال (فيدريكو غارثيا لوركا) بفرنطة .

حين وصلت الى «سانتياغو» في آذار من عام ١٩٢١ ، لكي التحق بالجامعة ، لم يكن عدد من سكان العاصمة يبلغ خمسمائة الف نسمة . كانت تفوح برائحة الغاز والبن . آلاف الدور كانت مسكونة باناس غرباء وبالبق . تقوم بالواصلات بين الشوارع والاحياء حافلات «ترام» صغيرة غير منظمة ، تضطرب في مسيرها وتثز بحدائد كانت لها واجراس صغيرة . السفر بين نهج « ايندييندنثيا » وبين الطرف الاخر من العاصمة ، حيث كان معهدى الجامعي قرب المحطة المركزية ، كان لا ينتهي لطول المسافة وتباطؤ الحافلة .

كان يدخل ويخرج من مقر اتحاد الطلبة زعماء التمرد الطلابي المشهورون حينذاك ، وهم عقائديا كانوا مرتبطين بالحركة الفوضوية القديرة الكاسحة في تلك الفترة . كان اكثر هؤلاء القادة والزعماء تاريخيا في النضال ، الرباعي العنيف : (الفريدو ديماريا) ، (دانييل سشيويترزير) ، (سانتياغو لباركا) ، (خوان غاندولفو) ، وكان (خوان غاندولفو) ، من غير ما شك ، اعظمهم واروعهم ، كان يهاب لوعيه السياسي العميق الجريء ولشجاعته المجربة في كل معترك . كان يعاملني كما لو كنت طفلا صغيرا وفي الحقيقة كنت لما ازل طفلا . ذات مرة وصلت متأخرا عن الموعد الى عيادته من اجل استشارة طبية ، نظر اليّ مقطب الجبين وقال : «لماذا لم تأت في الساعة المحددة ؟ ، هناك مرضى آخرون ينتظرون» . «ما كنت

أعرف كم كانت الساعة» ، أجبتة . «خذ من أجل ان تعرف الوقت في المرة القادمة» ، قال لي وأخرج ساعة من جيب صدرته فأعطانيها هدية ، شكرته عليها .

(خوان غاندولفو) كان صغير القامة ، مكور الوجه مدوره ، أصلع قبل الاوان . غير ان هيبتة كانت دائما تفرض نفسها . تحداه للمبارزة ذات مرة احد العسكريين الذين فاموا بالانقلاب في ذلك الحين ، وكان هذا متهورا بأنه عريبد وقح ، فقبل (غاندولفو) التحدي ، ثم تعلم فن المبارزة فسي خمسة عشر يوما ، وفي يوم النزال جندل خصمه وعفره . وفي هذه الايام ذاتها حفر على الخشب غلاف اول ديوان لي «شفقيات» Crepuscular ومشاهده المرسومة فيه . فأتت حفريات مدهشة قام بها رجل لا احد يقارنه في الخلق الفني والانداع .

ان اكثر الشخصيات أهمية ، في الحياة الادبية الثورية ، كان هو (روبيرتو ماثا فويننيس) ، مدير مجلة «خوبينتود» (٧) ، التي كانت ايضا تابعة لاتحاد الطلبة ، كانت احسن انتقاء وأكثر اتقانا من مجلة «كلاريداد» . وعلى صفحاتها كان يبرز (غونثاليت بيراز) و(مانويل روخاس) (٨) ، وهما من جيل أفدم من جيلي . (مانويل روخاس) جاءنا من الارجننتين ، وله من العمر سنون كثيرة ، فادهتتنا بقامته الهیابة وبكلماته الني يسقطها من فمه بشيء من الازدراء او من الزهو والامعجاب . كان يعمل صافقا للحروف في المجلة . اما (غونثاليت بيراز) فقد كنت اعرفه منذ ان جاءني الى «تيموكو» هاربا اثر هجوم الشرطة على مقر اتحاد الطلبة ، جاء مباشرة من محطة القطار التي تبعد بضعة أمتار عن بيتنا ليراني . كان مظهره جديرا بأن اذكره دائما وقد كان لي اذاك ١٦ سنة ، في بداية مسيرتي الشعرية . ابدا ما رأيت من قبل وجها اكثر شحوبا من شحوب وجهه الضئيل جدا كأنه قد من عساج وجمع من عظام ، كان يتشخ برداء اسود قد انفرط خيطه في الاكمام والاطراف . دون ان يفقده اناقتة . كلامه رن لي منذ اللحظة الاولى حاد

٧ - خوبينتود : معناها ، الشباب .

٨ - مانويل روخاس : روائي ولد عام ١٨٩٦ .

النهر هارلا ، اثارني حضوره في تلك الليلة الممطرة التي قادتني الى بيتنا ، دون ان ادري من قبل عن وجوده شيئاً ، كان وصوله كوصول ذاك العدمي التائر الى بيت (سانشا يفوليف) ، بطبل (اندرييسف Andreiev) (٩) تلك الشخصية التي كان شاباً امريكا اللاتينية المنمرد يتخذها انموذجاً وامثولة .

البرتو روخاس خيمينيث

في مجله «كلاريداد» التي انتميت اليها عضواً سياسياً وادبياً ، كل شيء تقريباً كان يدار ويوجه من قبل (البرتو روخاس خيمينيث) ، الذي غدا فيما بعد من اكثر زملائي الذين في سني ومن جيلي حبا في نفسي وتعظيماً . كان ينجلل بقبعة فرطية ويضع شارات طويلة كأنه شريف من الشرفاء . انيقاً رشيفاً بخطر ويتخايل ويتمخطر كأنه عصفور مذهب مزدان على رغم بؤسه وعوزه . كانت تمثل فيه صفات الفتوة الجديدة كلها : سلوك متعفف أبي . ادراك كامل للنزاعات العديدة وإلمام بها ، معرفة جذلي (وشهية طيبة) بكل الاشياء الحيوية . كتب وفتيات ، زجاجات وسفن ، مسالك وأرخبيلات ، كل هذا كان يعرفه ويستعمله حتى الثمالة وفسي تفاصيله ودقائقه ، غادبا أو رائحا . كان يتنقل في الوسط الادبي بنسيم منعش وطلعة تنم عن فاسق ولفات ندل عن حاذق ومبادعات تنبىء عن نابغ وإتسارات تخبر عن ساحر . ربطات عنقه كانت دائماً عينات غنسى ومساطر ثروة . في اطار الفقر العام . كان يبدل دوراً ومدناً وبلدانا دائماً ابداً لا يقر له قرار ولا يستقر على حال وهو بهذا التنقل وبسروره الفرح الجدل وببوهيميته الفطرية كان يسر لبضعة ايام أو اسابيع السكان المباغتين المفاجئين حيث يحل أو يمر بـ «رانكاغوا» ، بـ «كوريكو» ، بـ «بالديبيا» . بـ «كونشيشيون» ، بـ «بالبارائيسو» . كان يرحل كما قدم ؛ حيث ينزل ، يدع أشعاراً ، رسوماً ، ربطات عنق ، عاشقات ، صداقات . بما انه كان من جبلة امير حكايات شرقية ومن محتد كريم خيالي لا بصدق ، فقد كان

٩ - اندرييف : روائي ومسرحي روسي (١٨٧١ - ١٩١٩) .

يهدي كل شيء ويجود بكل ما عنده : قبعته ، قميصه ، سترته ، صرافيته، وحتى بحذائه . حين لا يبقى معه شيء مادي يمنحه ويهديه فانه كان يرسم شيئاً على الورق ، او يكتب جملة او بيت شعر او اية املوحة لطيفة وبإيماءة كريمة منه يعطيكه فترضى كما لو انه ترك في يدك جوهرة لا تقدر ، ثم ينطلق .

كان ينظم أشعاره على الطراز الاخير ، متابعاً في ذلك تعاليم (ابوللينر) (١٠) والعصبة التطرفية (١١) في اسبانيا . لقد أسس مدرسة شعرية جديدة باسم «أغو» Agu هذه الكلمة ، كما كان يقول ، هي صرخة الانسان الاولى ، اول بيت شعر ينطق به الوليد .

ان (روخاس خيمينيث) فرض علينا أنماطا في اللبس ، في طريقة التدخين ، في الخط والكتابة . مستهزئاً بي ولكن في لباقة لا حد لها ، ساعدني على ان أنزع مني نفمتي الكثيبة . لم يعدني ابدا بتشككه الظاهري وارتبابه في كل شيء ولا بسكره العاصفي ، فقد خرجت من ذلك سليماً . بيد اني ما زلت اذكر حتى الان بحنين شديد شكله الذي كان يضيء كل شيء ، يجعل الجمال يطير من كل الانحاء كما لو كان يبعث الحركة فسي فراشة مختبئة .

لقد تعلم من السيد (ميغيل دي اونا مونو) (١٢) صنع عصافير من ورق . كان يشيد عصفورا ذا عنق طويل وأجنحة مديدة

١٠ - ابوللينر : شاعر فرنسي (١٨٨٠ - ١٩١٨) .

١١ - العصبة التطرفية : هي عصبة شعرية انتشرت مبادئها في اسبانيا عام ١٩١٨ ثم عمت امريكا اللاتينية كلها ، كانت تدمو الى ضرورة الاسراع في اجراء تغييرات جذرية في الشعر وفي الحياة .

١٢ - ميغيل دي اونا مونو : هو المفكر والشاعر الاسباني المشهور جدا (١٨٦٤ - ١٩٣٦) ، لقد ترجمنا له وعنه في كتابنا «دون كيخوته في القرن العشرين» منشورات المعهد الاسباني العربي للثقافة في مدريد عام ١٩٦٨ ، وفي كتابنا الاخر « مختارات من الشعر الاسباني المعاصر» منشورات وزارة الاعلام العراقية عام ١٩٧٣ .

فينفخ فيه ليطير . كان يدعو هذا النفث ، اعطاء العصافير «الدافع الحيوي» .
كان يكتشف شعراء من فرنسا ، قوارير خمر في الاقبية ، كان يوجه
رسائل غرامية الى بطلات (فرانثيس جيمس) (١٢) .

ان ابياته الجميلة كانت نمرج وتلتف في جيوبه ، وهي حتى الآن لم
تنشر .

ان شخصيته المفرطة في غرابتها كانت كثيرا ما تلتع الانظار السى
درجة انه في احد الايام ، بينما كان جالسا في مقهى ، اقترب منه رجل
مجهول وقال له : ايها السيد ، لقد كنت استمع اليك فأعجبتني
فاستلظفتك ، اسمح لي ان اقول لك شيئا ؟ ، «وما هو هذا الشيء» ؟
اجابه (روخاس خيمينيث) في جفاء ، «ان تسمح لي ان اقفز فوقك» قال
الرجل المجهول ، «لكن ، كيف ؟» قال الشاعر «هل انت جد قدير ونشط
الى درجة انك تقدر على ان تففز من فوقى ، وانا جالس في هذه الطاولة؟»
«كلا ، ايها السيد» استدرك الرجل المجهول في صوت خفيض ، «انا اريد
ان اقفز من فوقك في وقت آجل ، حين سنريح حضرتك في التابوت ،
ان هذا هو الشكل الذي اكرم فيه الشخصيات الهامة التي اتعرف عليهم
في حياتي الا وهو القفز من فوقهم ، ان يسمحوا لي بذلك ، حين يكونون
جثتا في التوايت ، انا رجل وحيد متوحد وهوايتي الوحيدة هي هذه» .
ثم اخرج مفكرة من جيبه وقال له : «هنا في هذه المفكرة لدي قائمة
باسماء الشخصيات الذين قفزت من فوق جثتهم» . فقبيل (روخاس
خيمينيث) وقد جن فرحا ، هذا الاقتراح الغريب . بضعة سنوات من بعد ،
في فصل من فصول الشتاء الاكثر امطارا وبردا مما اذكر انه مر علينا في
تشيلي ، مات (روخاس خيمينيث) كان قد ترك سترته كعادته في احدى
حانات مركز مدينة «سانتياغو» . وليس على جسده غير قميص خفيف عبر
المدينة في ذلك الشتاء القارس القاسي متوجها الى منزل اخته (روسيتا)
بدار المعلمات الخامسة . لم يمض يومان حتى اختطفت من هذا العالم ،
ذات الرئة ، واحدا من اكثر الاشخاص الذين عرفتهم سحرا ودوعة ، ذهب

١٢ - فرانثيس جيمس : شاعر وروائي فرنسي (١٨٦٨ - ١٩٣٨) .

الشاعر بعصافيره الورقية طائرا عبر السماء وتحت المطر .

لكن ، في الليلة التي كان يسهر اصداقؤه حول نعيه ، جاءهم زائر غريب . كان المطر يتساقط مدرارا على أسطح المنازل ، والرياح والرعود والبروق كانت تضيء وتهز اشجار اللوز في باحة دار المعلمات ، حين فتحت الباب فدخل رجل متشح بالسواد وعليه علامات الحزن والحداد ومبتلا بالامطار ، لا احد منهم كان يعرفه ، امام استغراب هؤلاء الذين كانوا يسهرون حول النعش ، تراجع المجهول قليلا ثم قفز من فوق التابوت ، دون ان ينبس ببنت شفة غادر المكان فجأة مثلما جاء ، ثم اختفى تحت أجنحة الليل وزخات المطر . وهكذا ختمت حياة (البرتسو روخاس) المفاجئة ، بمفاجأة طقس لغز لا احد حتى الآن استطاع له تفسيراً وتبيانا .

كنت على وشك الوصول الى اسبانيا ، حين نعي اليّ . مرات قليلة في حياتي شعرت بألم شديد وحزن ممض كالذي شعرت به وأنا فسي برشلونة ، على فقد هذا الصديق ، حالا شرعت بكتابة مرثاتي (البرتسو دوخاس خيمينيث) «يجيء وهو يطير» (Alberto Rojas Gimenez Viene Volando) نم نشرتها من بعد في مجلة «اوكتيدنته» (١٤) .

لكن ، كان عليّ أن أؤدي طقسا من الطقوس لتوديعه . لقد مات بعيدا عني ، في تشيلي ، في ايام ذات أمطار مخيفة أغرقت المقبرة بأسرها . لا بد أن اجري للاحتفال بذكراه شيئا ، فأنا لم أمكث عند وفاته نادبا ولم أمش في جنازته نائحا ، ذهبت الى صديقسي الرسام (اسائياس كابيثون) ، فرافقني في التوجه الى الكنيسة الكبيرة الرائعة ، كنيسة «سانتا ماريا ديل المار» (١٥) . اشترينا شموعا كبيرة ، طويلة جدا تقريبا بقدر طول هيكل

١٤ - اوكتيدنته : معناها ، الغرب وهي مجلة أسسها في مدريد الفيلسوف الاسباني (اورتيفا اي غاسيت) ، ونسب ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور «دون كيخوته في القرن العشرين» ، وما زالت هذه المجلة تصدر حتى الآن .

١٥ - سانتا ماريا ديل مار : معناها ، القديسة مريم البحر ، وكذلك فان اسم مريم معناه قديسة اليم .

انسان ، ودخلنا بها الى ظلال ذلك المعبد الغريب . بما ان «سانتا ماريا ديل المار» كانت كاتدرائية البحارة فقد بناها حجرا على حجر منذ عدة قرون صيادون وبحارة . من بعد زينت بالآلاف النذور ، بقوارب من جميع الاشكال والحجوم تمخر عبر الخلود ، كانت تفرس بها جدران الكنيسة الجميلة وسقفها البديع . تصورت ان هذا المكان هو مشهد ومسرح جديران بالشاعر الفريد ، فلو كان حيا وعرف هذه الكنيسة لاتخذها مراحسا له ومسرحا ولكان مكانه المفضل . اشعلنا التسموع في صحن الكنيسة العظيمة تحت قبابها العديدة ، ونحن جالسان في الكنيسة الخاوية ، وزجاجة نبيذ اخضر ارائي واخرى ازاء صديقي الرسام ، فكثرتنا في ان هذا الاحتفال الصامت ، على الرغم من اعتقادنا بمذهب اللادرية ، يقربنا من صديقنا في عالمه السحري بشكل من الاشكال السحرية الفامضة . التسموع المشتعلة في وسط هذه الكنيسة الكبيرة الخاوية كانت تبدو وكأنها شيء حي يلتمع حياة وبريقا كما لو ان عيني ذاك الشاعر المجنون الذي اخمد قلبه الى الابد كانتا تنظران الينا من بين الظل والنور في تلك النذور .

مجانين في الشتاء

على ذكر (روخاس خيمينيث) اقول ان الجنون ، نوعا من الجنون ، يمضي احيانا كثيرة في احضان الشعر . فكما ان ذوي الحكمة والعقل يكلفهم جهدا كبيرا ان يصبحوا شعراء كذلك فان الشعراء يكلفهم طاقته عظيمة من العناء ان يغدوا عقلانيين ، بيد ان العقل دائما يربح الجولة ويكسب الشوط ، فالعقل اساس العدل الذي يجب ان يسود في العالم ويسوده . (ميفيل دي اونامونو) ، الذي كان يحب تشيلي كثيرا ، قال ذات مره : «ما هذا القول ، بالحجة او بالقوة ؟ بالحجة ودائما بالحجة» .

من بين الشعراء المجانين الذين عرفتهم في فترة اخرى سأخصص بالحديث الان (البرتو بالديبيا Alberto Valdivia) ، كان واحدا من اكثر الخلق نحافة ، شاحب الوجه اصفر اللون ، كما لو انه خلق من عظم بلا لحم ولا شحم ولا دم ، ذا لبدة كثيفة جدا ، رمادية اللون ، وزوج من النظارات تحجب عينييه المبلتين بقصر النظر ولكنهما ترسلان نظرات بعيدة .

كنا نسميه «الجثة بالديبيا» .

كان يدخل ويخرج في سكون من الحانات والندوات والمقاهي وحفلات عزف الموسيقى ، دون ان يشير ضجيجا ولا غبارا وتحت ابطه حزمة من الصحف، غريبة عجيبة . «ايتها الجثة العزيزة» كنا نقول له نحن اصدقاءه، ونحن نحضن جسده اللاجسدي فنحس كأننا نعانق مجرى هوائيا .

لقد نظم اشعارا قيّمة رائعة مفعمة بشعور رقيق وعذوبة آسرة ، اليكم بعض هذه الابيات :

«كل شيء سوف يمضي ، السماء ، الشعاع ، الحياة :
انتصار الشر يقوى والردى الحتمي يطفئ
ليس يبقى غير عينيك ازالتي في مصري
يا ابنة النور ويا اخت حياتي في الفروب» .

شاعرا حقيقيا كان ذلك الذي كنا ندعوه في محبة وود «بالديبيا الجثة» . مرات كثيرة قلنا له : «ايتها الجثة ، ابق للاكل معنا» . لم يكن ينزعج ابدا من هذه التسمية . احيانا في شفثيه الرفيعتين الرقيقتين كانت تطل ابتسامة . جملة كانت موجزة مقتضبة لكن مشحونة بالتلميح والفحوى . لقد اصبح طقسا من الطقوس المقدسة اخذه كل سنة الى المقبرة . في الليلة السابقة لفتح تشرين الثاني كنا نقدم له عشاء فاخرا جدا بقدر ما كانت تسمح به جيوبنا الضامرة ، جيوب طلاب وأدباء شبان . «جثتنا» هذا كان يشغل مكان الصدارة ويجلس على حجر الشرف ، في الساعة الثانية عشر تماما من منتصف الليل طبعاً كانت المائدة ترفع فنذهب في مسيرة طروب نحو المقبرة . في سكون الليل كانت تلقى بعض الخطب احتفالا وتكريما وتأيينا للشاعر «المرحوم» . من بعد ، كل واحد منا يودعه في حزن وخشوع ووقار ثم ننطلق راجعين تاركينه وحده عند بوابسة الجبئانة . «الجثة بالديبيا» كان يقبل هذا التقليد الذي لم يكن فيه قساوة او احتقار ، برحابة صدر ، اذ انه كان يشارك في هذه المسرحية الهزلية حتى آخر لحظة يؤدي دوره على أحسن وجه . قبل ان نتركه كنا نعطيه عادة «بيسوس» Pesos ؛ قروشاً حتى يستطيع ان يأكل ما طاب له من «سندويش» ، في حفرة بالمقبرة .

لم يكن يفاجأ احد منا حين يدخل هو بعد يومين او ثلاثة من جديد في صمت وسكون الى حلقات التنكيت والتبكيت ، او المقاهي . طمأنينته مضمونة حتى فأنح نشرين الثاني من العام التالي .

في «بونوس ايريس» تعرفت على كاتب ارجنتين غريب الاطوار جدا، يدعى (عمر بيغنوله Omar Vignole) . لا ادري ان كان ما يزال حيا حتى الآن . كان رجلا ضخما الجثة عظيم الهيئة ، يحمل في يده عكازا ثخيناً غليظاً . ذات مرة ، في احد مطاعم مركز المدينة حيث دعاني الى العشاء ، بينما كنا قرب المائدة أشار لي بيده المبسوطة وقال بصوت جهوري سمع في قاعة المطعم الفاصلة بالزبائن : «تفضل اجلس ، يا سيد (عمر بيغنوله)» ، فجلست وعلائم الانزعاج بادية على وجهي وسألته حالا : لماذا نناديني باسم (عمر بيغنوله) علما انك انت هو وانا (بابلو نيرودا) ؟ ، «اجل ، - اجابني - لكننا في هذا المطعم ثمة أناس لا يعرفونني الا باسمي فحسب ، وبما ان هناك عددا ليس بالقليل يرغب ان يعرفني شخصا فينهال على ضربا ، فاني افضل ان تكون من نصيبك هذه الضربات بدلا مني .

ان (بيغنوله) هذا كان مهندسا زراعيا في محافظة ارجنتينية ومنها احضر معه الى العاصمة بقرة كان بها يعقد صداقات متينة حميمة . كان يتنزه وينزه بقرته عبر شوارع «بونوس ايريس» قاطبة ، وهو يجرب بقرته بحبل ورسن . في ذلك الحين نشر عدة كتب يعنونها دائما بعناوين تلميحية: **ما يدور في خلد البقرة ، انا وبقرتي (١٦) الخ .**

حين انعقد في بونوس ايريس لاول مرة مؤتمر «نادي القلم» العالمي Pen Club (١٧) ، كان الكتاب المؤتمرون برئاسة (فيكتوريسا اوكامبو) (١٨) يرتجفون فزعا بعد ان بلغهم ان (بيغنوله) وبقرته سوف يأتیان

١٦ - انا وبقرتي : وهو تقليد لكتاب الشاعر الاسباني (خوان رامون خيمينيث Juan Ramon Jiménez) (١٨٨١ - ١٩٥٨) المعروف باسم انا وحماري وقلد هذا الكتاب كذلك ادبنا (توفيق الحكيم) ، وقد ترجمنا لهذا الشاعر وعنه في كتابنا المدكسور مختارات من الشعر الاسباني المعاصر .

١٧ - نادي القلم : هو جمعية ادبية لها طابع امبريالي وصهيوني ، هناك قصة حدثت (نيرودا) مع هذا النادي سيرويها فيما بعد .

١٨ - فيكتوريا اوكامبو : هي كاتبة ارجنتينية معاصرة .

للمشاركة في جلسات المؤتمر ومداولاته . أبلغوا السلطات المسؤولة عن الخطر الذي سوف يداهمم ويهددهم فجاء رجال الامن وطوقوا الشوارع المؤدية الى فندق « بلاثا » كي يمنعوا ان يصل الى المقر الفخيم حيث كان ينعقد المؤتمر ، موكب صديقي الغريب الشاذ وبقرته المجترّة . عبثا كان ما حاولوه واتخذوه من اجراءات واحتياطات ، اذ انه بينما كانوا يتدارسون العلاقات بين عالم الاغريق الكلاسيكي ومجرى التاريخ الحديث، اقتحم قاعة المحاضرة ببقرته التي لا تفارقه ابدا ، وثلاثة الاثافي ان هذه البقرة حين اتخذت لها موقعا في القاعة اخذت تخور كما لو انها كانت تريد المشاركة في الجدل والبحث . كان قد احضرها الى مركز المدينة حيث الفندق داخل عربة شحن مغلقة كبيرة ، فهزئت بحراسة الشرطة وبالمؤتمرين .

عن هذا (بيغنولة) نفسه ساروي الآن حكاية اخرى ، حكى انه ذات مرة ، تحدى (بيغنولة) بطلا في المصارعة اليابانية الحرة ، بعد موافقة البطل المحترف وتحديد المكان والزمان ، وحين حانت ساعة التواجه وليلة التقابل وهيئت حلبة النزال وامتلات الساحة وغص المكان ، برز (بيغنولة) وبقرته في الموعد المحدد ، فقيدها بركن من اركان الحلبة المربعة ، ثم نزع عنه طيلسانه الانيق ودثاره ذا البريق وصعد الحلبة لمنازلة البطل الشهير باسم «مارد كالكوتا» .

لكنه لسوء حظه وافول نجمه ما افادته بقرته في النزال ولا نفعته زينته في السجال ولا اعانه شعره في القتال ، فقد خسر عليه «مارد كالكوتا» وما هي الا لحظات حتى جعله منطرحا مرميا كانه كتلة هامة بلا حول ولا طول ، ثم وضع المارد رجله على حلقه اذلالا له وارغاما ، فيا للثور الاديّب المعفر ويا للحنجرة الشاعرة المهروسة المدعوسة بين استهزاء الجمهور الشرس واستخفاف المتفرجين الذين كانوا يطالبسون باستمرار الصراع ومواصلة القتال ولكنه كان في حال من الاحوال .

بعد بضعة شهور نشر كتابا جديدا بعنوان «احاديث مع البقرة» ، ابدا لن انسى الاهداء الذي لم يسبق اليه ، والذي استهل به كتابه ، هذا نصه ، ان لم تخنّي الذاكرة: «أهدي هذا الكتاب الفلسفي الى الاربعين الف

ابن قحبة الدين كانوا يصفرون لي ويستهزئون بي ويطالبون بموتي في حلبة الصراع ليلة ٢٤ من شباط» .

في باريس ، قبل الحرب العالمية الاخيرة ، تعرفت على الرسام (البارو غويفارا) وكانوا دائما ينادونه في اوروبا باسم (تشيلي غيفارا) . ذات يوم اتصل بي هاتفيا وقال لي : «انه موضوع مستعجل وفي غاية الاهمية» .

كنت قد قدمت من اسبانيا وكان صراعنا في تلك الفترة ضد (نيكسون) ذلك الزمان المدعو (هتلر) . كانوا في مدريد قد اغاروا على منزلي بغارات جوية ورأيت هناك رجالا ونساء واطفالا وقد مزقت اجسادهم قنابل المغيرين وتناثرت جثثهم في كل مكان . الحرب العالمية كانت على وشك الانفجار فعقدنا العزم نحن فئة من الكتاب ، على محاربة الفاشية بسلاحنا الخاص الا وهو كتبنا التي كانت تعرف الناس بالخطر الداهم وتحضهم على الاستعجال في درء شروره .

ابن بلدي هذا كان على هامش هذا الصراع ؛ كان رجلا هادئا صموتا ، رساما يشتغل كثيرا ، مكبا على اعماله واشغاله . لكن الجو اذاك كان من بارود . عندما تمنع القوى الكبرى وصول الاسلحة الى الجمهوريين الاسبان ليدافعوا عن انفسهم ، ومن بعد ، في «مونيخ» يقررون فتح الابواب امام الجيش الهتلري ، فان هذا يعني ان الحرب لا بد واقعة .

اسرعت في التوجه لمقابلة من يسمى بـ «تشيلي غيفارا» ، ففد كان شيئا مهما وعاجلا ما كان يريد ان يبلغني به .

— بم يتعلق الامر ؟ — قلت له .

— ليس هنا وقت لاضاعته — اجابني — . ليس لك ان تعادي الفاشية ، وليس على المرء ان يكون ضد اي شيء . يجب الذهاب مباشرة الى لب الموضوع ، وهذا اللب قد عثرت عليه انا . اريد اخبارك به كي تترك المشاركة في المؤتمرات المعادية للنازية فتتنصرف بكليئتك الى العمل الادبي ، ليس نمة من وقت تضيعه .

— حسنا ، قل لي بم يتعلق الامر ، فالحقيقة يا (البارو) ان وقت الفراغ عندي لقليل جدا .

— الحقيقة يا (بابلو) هي ان افكاري شرحتها في عمل مسرحي من ثلاثة فصول ؛ أحضرته معي كي أقرأه عليك .

وبوجهه ذي الحاجبين الوارفين وملامح مصارع قديم ، كان ينظر اليّ في ثبات وامعان وهو يخرج من جيبه مخطوطا ذا حجم كبير جدا .

من فزعي احتججت له بقلّة الوقت وأقنعتة ان يشرح لي شفها افكاره التي يعتقد في انها ستنقل العالم والانسانية .

— انه بيضة (كولبوس) (١٩) — قال لي — ، سأشرح لك ذلك . كم حبة بطاطا تخرج من حبة بطاطا تغرس ؟.

— حسنا ، يمكن ان تخرج اربع او خمس — قلت له على سبيل المجاملة .

— اكثر بكثير — اجاب — . احيانا اربعون ، احيانا اكثر من مائة . تصور لو ان كل شخص يغرس حبة بطاطا في الحديقة ، في الترفة ، في اي مكان . كم نسمة عدد سكان تشيلي ؟ نمانية ملايين ، فاذن ، نمانية ملايين حبة بطاطا مفروسة ، اضرب ، يا (بابلو) ، بأربعة ، بمائة ، اذن الحرب انتهت الى الابد بانتهاء الجوع . كم نسمة في الصين ؟ خمسمائة مليون نسمة ، اليس كذلك ؟ ان غرس كل صيني حبة بطاطا واحدة ، فانه ستخرج من كل حبة بطاطا مفروسة اربعون حبة بطاطا فالنتيجة هي حاصل ضرب خمسمائة مليون نسمة بأربعين حبة بطاطا ، وبهذا تنقذ الانسانية نفسها .

١٩ — بيضة كولبوس : هو تعبير اسباني يشبهه في معناه ما نقولـه بالعربية ، العصا السحرية .

حين دخل النازيون باريس لم يهتموا بهذه الفكرة المنقذة : بيضة (كولبوس) او بالاحرى حبة بطاطا (كولبوس) . اعتقلوا (البارو غيفارا) في ليلة باردة ذات ضباب بيته في باريس . اخذوه الى معتقل ، وهناك احتفظوا به وعلى ذراعه وصمة الى ان انتهت الحرب . خرج من جهنم وقد غدا هيكلًا عظيمًا . لكنه ما استطاع ان يستعيد عافيته وقواه ، فعاد في نهاية الامر الى تشيلي كما لو انه احب ان يودع ارضه ويطلع عليها القبلية الاخيرة ، قبله رجل مروبص ، تم عاد الى فرنسا حيث انتهى من موته في الحياة .

ايها الرسام العظيم ، يا صديقي العزيز ، ايا «تشيلي غيفارا» اريد ان اقول لك شيئًا : انا ادري انك ميت ، وانه لم تجدك نفعا كونك لاسياسيا وانه لم تكن لك من سياسة غير سياسة البطاطا . ادري ان النازيين قد قتلوك . بيد اني ، في شهر حزيران من العام الماضي ، دخلت الى «صاله العرض الوطنية» ما كنت انوي ان اشاهد غير لوحات (تورنير) فقط ، لكنني قبل ان اصل الى القاعة الكبرى لمحت لوحة رائعة مؤثرة : لوحة بدت لي جد بديعة مثل لوحات (تورنير) اثقانا وابداعا، لوحة مدهشة باهرة . كانت صورة لسيدة مشهورة ، تدعى (اديث سيتويل Edith Sitwell (٢٠) . رايت توقيعك عليها فكبرتك وعظمتك ، كانت اللوحة الوحيدة لرسام من امريكا اللاتينية بلغ من العبقرية والمهارة درجة بواته مكانا بين تلك النماذج الفريدة في ذلك المتحف العظيم بلندن .

ليس المكان ما يهمني ولا القيمة ما يثيرني ولا حتى تلك اللوحة ما يبعث في نفسي الاعجاب بل ان ما يحز في نفسي هو اننا ما تعارفنا كثيرا، ما تفاهمنا كثيرا ، ما توافقنا كثيرا ، ان ما يهمني ويؤلمني هو اننا قد تقابلنا وما تفاهمنا وما كان الدنب عليّ او عليك يا صاح ، بل على حبة البطاطا .

انا كنت رجلا بسيطا جدا : هذا شرف لي وعار عليّ . لقد رافقت فرقة تمثيلية متجولة كان يجوب بها الاصدقاء لي في هذه الحياة فحسدت

٢٠ - اديث سيتويل : شاعرة انجليزية (١٨٨٧ - ١٩٦٤) .

فيهم يراهم اللامع الرائع وسلوكهم الشيطاني ، عصافيرهم الورقية وحتى هذه البقرات التي قد يكون لها علاقة ما في شكل غامض سحري مع الادب . على كل حال يبدو لي اني ما ولدت كي اتهم وأدين بل كي احب واعشق . اما هؤلاء الهمازون اللمازون المفسدون المثبطون الذين يهاجمونني ، الذين يتجمعون ويتآلبون يريدون اطفاء نور عيني ، فقء بصيرتي بعدما تغدوا من شعري وغرفوا من بحري . هؤلاء جميعا لا يستحقون مني الا الصمت والسكوت فانا قط ما خشيت ان أنعدي بسومهم او ان أغدو من طينتهم وليس لي من اعداء الا اعداء الشعب .

لقد قال (ابولينير) : «الرحمة لنا نحن الذين نستنبط حدود اللاواقع» . اروي من الذاكرة ، وانا افكر في هذه الحكايات التي رويتها ، حكايا اناس ، ليس لكونهم غربي الاطوار يستحقون محبة اقل وليس لانهم شاذون ، هم اقل قيمة .

صفات كبيرة

نحن الشعراء نفكر دائما بأن لدينا افكارا عظيمة لكي نثري ونغنى . وانا عابرة في التخطيط لصفات تجارية مع ان الآخرين لا يدركون عبقريتنا . اذكر انني ، مدفوعا بفكرة من هذه التشكيلة المزدهرة في حديقة الافكار ، بعث الى ناشر في تشيلي عام ١٩٢٤ حقوق نشر كتابي «شفقيات» وملكيته لا لطبعة واحدة بل الى الابد ، ظاننا بأنني سوف اثري بهذه الصفقة فوقعت العقد امام كاتب العدل ودفع لي هذا المخلوق مبلغا قدره خمسمائة «بيسو» عددا ونقدا ، وهي تساوي في تلكم الايام اقل من خمسة دولارات . (روخاس خيمينيث) و(البارو هينوخوسا) و(هوميرو ارثه) ، كانوا ينتظرونني عند باب كتابة العدل لكي نحتفل بهذا النجاح التجاري . ، فعلا رحنا فاكلنا في احسن مطعم كان يوجد في ذلك الحين وهو «لا باهيئا» (٢١) ، وشربنا نبيدا فاخرا ودخنا تبغا ممتازا وختمنا ذلك بتناول بعض المشروبات ، وكنا

قبل هذا قد لمّعنا احديتنا ففدت تضيء كأنها مرايا ، وما استفاد من تلك الصفقة الا صاحب المطعم وأربعة مساحي احذية وناشر ، اما الشاعر فلم تدن الرفاهية منه ولا صافحه الرخاء واليسر .

ان من كان يقول ان له عيني باز في الاعمال التجارية هو (البارو هينوخوسا) . كان بدهشنا بخططه العظيمة جدا التي لو انها توضع موضع التنفيذ لجعلت السماء تمطر دنائير فوق رؤوسنا . وكنا نحن ، بوهميين محرومين تعسين ، لا نشك في ان اتقانه اللغة الانجليزية ، لفافاته ذات التبغ الاشقر ، سنواته الجامعية في نيويورك سوف تضمن نجاح الفلسفة العملية لدماغه التجاري العظيم .

ذات يوم دعاني الى التباحث في سرية مطلقة وقال لي انه يريد ان يجعلني عضوا مشاركا في محاولة رائعة بغية اكتساح ثروة سريعة واكتساب غنى دائي القطوف ، انا ساكون شريكه في ربح الخمسين بالمائة على ان اساهم ببضعة «بيسوس» قد استلمها من جهة ما وهو سيدفع المبلغ الباقي . ذلك اليوم سنشعر اننا رأسماليون حقيقيون من غير رب ولا دين ولا قانون ، عازمين على كل شيء ومصممين على المغامرات الرباحة الاخرى.

— وما هي هذه التجارة ؟ سألت في خوف ملك التمويلات العجيب .

(البارو) اغمض عينيه ، قذف بنفحة من دخان استحال الى دوائر صغيرة ، ثم اجاب في صوت خفيض :

— جلود .

— جلود ؟ اعدت مندهشا مستغربا .

— اجل ، جلود ذئب البحر ، لكي اكون دقيقا ، جلود ذئب البحر ذي الشعر الوحيد الواحد .

ما تجرات على ان استقصي عن دقائق وتفصيلات اكثر . كنت اجهل

ان عجول البحر او الدثاب البحرية لها شعر واحد وحيد . حين انعمت نظري فيها وهي على صخرة في سواحل الجنوب بتشيلي ، رايت لها شعرا براقا يلتمع تحت شعاع الشمس دون ان الحظ لها اي شعر فوق كروشها الكسلى .

قبضت ما وردني من دخل ، في سرعة البرق ، ومن غير ان اسدد ما كان عليّ من ايجار ، ومن قسط للخياط ومن وصل للاسكافي ، وضعت مساهمتي المالية في يدَي شريكي الممول .

ذهبنا لنرى الجلود . كان (البارو) قد ابتاعها من عمّة (خالة) له ، من اهل الجنوب ، مالكة لعديد من الجزر غير المنتجة . فوق الجزر الصغيرة ذات المجالات غير الموجهة كانت الدثاب البحرية قد اعتادت على ممارسة احتفالاتها الغرامية واتصالاتها الجنسية . ها هي الان امام عينيّ ، وقد غدت حزما كبيرة من الجلود الصفراء بعد ان ثقبها بطلقات البنادق خدم العمّة الماكرة فخرّت صريعة . كانت أسفاط الجلود تبلغ سقف ذلك القبو الذي استاجرّه (البارو) كي يهر بها أنظار المشتريين المزعومين .

— وماذا سنفعل بهذا الحشد ، بهذا الجبل من الجلود ؟ سألته في خطف من الكلام .

— ان الناس كل الناس في حاجة ماسة الى جلود من هذا الصنف الجيد ولسوف ترى . فخرجنا من القبو ، (البارو) مودعا شررا من الطاقة يطلقه من لفافته وأنا مطرق الرأس صامتا .

(البارو) كان يروح من هنا الى هناك وهو يحمل سجلا فيه عينة من جلودنا الاصلية الاصيلّة ، جلود «ذئب بحري ذي شعر واحد وحيد» وكان فد ملاً السجل بأوراق بيضاء في بياض لكي يعطيه مظهرا تجاريا . قروشنا الاخيرة ذهبت في اعلانات بالصحافة عسى ان شخصية مهمة ومتفهمة تقرؤها فتكفيها وكفى . وسنصبح ان بعناها ، أغنياء أثرياء . (البارو) ، وهو ما هو من رجل متأنق أنيق ، كان يحلم بشراء نصف اثنتي عشرة بدلة من الجوخ الانجليزي ، اما انا ، اكثر تواضعا منه ، فكنت ادّاعب احلامي

لترضى بأنني سوف اقتني مرشّة ماء أو فرشاة حلاقة أحسّن بها ذقني ،
اذ ان الفرشاة الحالية كانت توشك على ان تغدو صلعاء جرداء .

اخيرا حضر المشتري ، كان سرّاج خيل ، ذا جسم ضليع متين ، قصير
القامة ، ذا عينين رابطتي الجأش ثابتتي الجنان ، قليل الكلام ، وفي
عرض (٢٢) من الصراحة هي في حكمي بعض من السفاهة . استقبل
(البارو) في جفاء وفتور واقين حتى لا يعرف مدى اهتمامه به وحدد له
موعدا بعد ثلاثة ايام لكي نريه بضاعتنا الممتازة .

في مجرى هذه الايام الثلاثة ، اقتنى (البارو) لفائف من الدخان
الانجليزي وبعضا من السيجار الكوبي من صنف «روميو وجولييت» وضعها
بشكل مرئي في الجيب الخارجي من سترته . حين حانت ساعة انتظار
وصول المعني ، بعثنا على ارض القبو الجلود التي تنمّ عن حالة احسن
ووضع افضل ومنظر اجمل .

الرجل خف الى الموعد المحدد بالضبط . لم ينزع عنه قبعته ، وحيثا
بهمهمة تكاد لا تسمع ، ثم نظر الى الجلود المدودة على الارض نظرة سريعة
مزدرية ، من بعد اّجال عينيه الصارمتين الخبيثتين في الرفوف المكتظة .
رفع يدا غليظة سميقة وسنّ اظفرا كي يحزّ به حزمة من الجلود فيختبرها،
في المكان ذاته حيث حشرت انا اكثر الجلود حقارة واقلها قيمة .

(البارو) استغل تلك اللحظة الحرجة ليقدم له واحدا من السجاير
الاصيلة الكوبية ، فالتقطه المشتري بسرعة خاطفة وعضه من طرفه ثم تف
ثم ادخله في حلقة بين شذقيه وهو ثابت الجأش والنظر مشيرا الى الحزمة
التي كان يريد ان يحتزها ويقيّمها .

لم يكن بد من عرضها عليه واظهارها له . شريكي صعد السلم وهو

٢٢ - عرض : هكذا في الاصل مع «ال» التعريف Alarde ، والكلمة من اصل
عربي واضح ، ومن معانيها كذلك في اللغة الاسبانية ، مفاجرة ، استعراض ، ببجج .

مبتسم ابتسامة المحكوم عليه بالموت شنقا ، ثم نزل وأنزل الحزمة الشخينة .
المشتري استعرض جلود الحزمة واحدا اثر واحد ومن حين الى حين كان
يسحب من سيجار (البارو) الذي أهدها اليه دخانا ثم يقذف به جوا .

كان الرجل يرفع جلدا من الجلود ، يدلكه ، يدعكه ، يكشطه ، يطويه ،
يبصق عليه ، يرميه ، يتناول آخر وهكذا دواليك . بعد ان انتهى من
تفحصه وتفتيشه أجال من جديد نظره البازي عبر الرفوف المكومة
المرصوفة بجلودنا الدببية البحرية ذات الشعر الوحيد ، آخر الامر ركز
عينيه في جبين شريكى الخبير بالتمويلات والصفقات . كانت اللحظة
مؤثرة جدا .

وقتذاك قال بصوت حازم جاف جملة خالدة ، على الاقل بالنسبة لنا .

— يا سادتي ، انا لا اتزوج بهذه الجلود . ورحل الى الابد ، وقبّعته
على رأسه كما دخل ، وهو يدخن سيجار (البارو) الهائل ، دون ان
يودّع او يستأذن بالانصراف ، فقضى من غير رحمة ولا شفقة على احلامنا
المليونيرية .

أوائل كتبي

التجأت الى الشعر في سرعة الخائف الوجل . كانت ترفرف فوق
«سانتياغو» المدارس الادبية الجديدة . في شارع «ماروري» ، رقم ٥١٣ ،
انتهيت من كتابة ديواني الاول . كنت اكتب قصيدتين ، ثلاثا ، اربعا ،
خمسا ، في اليوم الواحد . في الاماسي عند أفول الشمس ، امام الشرفة
كان يجري يوميا مهرجان ما كنت لاستبدل به اي شيء في العالم . كان
غروب الشمس يختال في حشد من الالوان عظيم ، توزيعات نور متقنة ،
مراوح هائلة من لون برتقالي وآخر قرمزي . الفصل الرئيسي في ديواني
اسميته «شفق ماروري» ، لا احد سألني ابدا ، ما هو هذا «ماروري» ،
لعل القليلين هم الذين يعرفون اني اشير بهذا الى شارع متواضع يزوره
أروع شفق وأبدعه .

في عام ١٩٢٣ ، نشر ديواني الاول هذا «شفقيات» . كي ادفع تكاليف

الطباعة كنت أواجه كل يوم صعوبات جمة وأحقق انتصارات عظيمة ، اثنائي الفيل بيع ، الى دار الرهائن على عجل مضت ساعتني التي كان والدي قد اهداني اياها في وقار وجلال ، اذ انها كانت ساعتها الخاصة به وكان قد نقس عليها بريقين صغيرين منصالبين . ولحقت بالساعة بدلة الشاعر السوداء . لقد كان صاحب المطبعة رجلا لا يرحم ولا يشفق اذ انه بعد ان اصبحت الطبعة جاهزة والاغلفة ملصقة ، قال لي في نفس الخاسر : لن تأخذ منه ولا نسخة واحدة حتى تدفع لي قبل كل شيء التكاليف كلها» . ساهم النافذ الادبي (ألونه Alone) في سخاء بدفع ما تبقى عليّ من «بيسوس» فابتلعتها حلاقيم صاحب المطبعة ، وخرجت الى الشارع وكتبي على منكبنيّ بحذاء مهنريء ممزق ، مجنونا من الغبطة والطرب .

يا لديواني الاول ! كان رأيي دائما هو ان عمل الكاتب ليس لغزا ولا هو بالمأساوي ، بل انه ، على الاقل بالنسبة للشاعر ، عمل شخصي ، ذو منفعة عامة . ان ما هو اكثر شبها بالشعر ، هو رغيف خبز او وعاء خزفي او حفر على الخشب متفول في طراوة وحنان ، ولو ان الايدي التي تصنع هذه التحف كانت بليدة غير متقنة . بيد اني اعتقد انه ليس ثمة من صانع واحد يشعر ، كما يشعر الشاعر ، لمرة واحدة خلال حياته كلها ، هذا الشعور الثمل نحو اول خلق ابتدعته يده وحنانه تيه احلامه الذي لما يزل خافقا دافقا لحظة الابداع . انها لحظة ابدا لن تعود مرة اخرى ، أعني لحظة الابداع الاولى والفرح الاول بأول كتاب . قد ينشر في طبعات اخرى كثيرة اكثر اتقانا وأجمل مظهرا من طبعته الاولى قد تنتقل كلماته وأشعاره لتسكب في كأس لغات اخرى مثل نبيذ يفني ويفوح في اماكن اخرى من الارض بعيدا عن موطنه ، غير ان هذه اللحظة التي يولد فيها اول ديوان طازج المداد طري الورق ، ان هذه اللحظة الفاتنة الساحرة المسكرة ذات الانغام كأنها خفيف اجنحة عصفور يرفرف لأول مرة ، ذات الالوان كأنها تفتق برعم يتبدى في اعلى قمة لأول مرة ، لهي الحضور الوحيد في حياة الشاعر .

ان احدى قصائدي بدت وكأنها حادت عن ذاك الديوان الطفولي واتخذت لها طريقا خاصة بها ، ألا وهي قصيدة «فيريويل» (٢٣)

Farrwell ، التي يحفظها كثير من الناس حتى الان عن ظهر قلب .
حيثما ذهبت وفي الاماكن التي لا اتوقع ان اسمعها ، ينشدونها لي من
الذاكرة او انهم يطلبون مني ان أنشدها عليهم . ما ان احضر في مكان
 للمشاركة في ندوة او اجتماع او جلسة حتى تنطلق فتاة من الفتيات
الحاضرات في صوت مرتفع بترديد تلك الابيات المسيطرة على الدهن ، وان
كان ذلك يزعجني كثيرا . واحيانا كان وزراء يستقبلونني وقد اتخلدوا
وضعا عسكريا إحتراما وإجلالا فيباغتوني بانشادهم المقطع الاول من
الفصيدة .

بعد عدة أعوام ، حكى لي (فيدريكو غارتيا لوركا) ، باسبانيا ، ان
الشيء نفسه كان يحدث له بالنسبة لقصيدته «المتزوجة غير الوفية» (٢٤).
فقد كان كل واحد من الناس يطالبه بأن ينشد له قصيدته الجميلة الشهيرة
هذه برهانا منه على ما يكنه من صداقة نحو هذا الشخص او ذاك . ثمة
حساسية ايجابية عند الناس نحو النجاح الاستاتيكي الساكن الدائم لعمل ما
من اعمالنا الادبية . ان هذا لهو شعور صحي وحتى انه احساس بيولوجي .
ان هذا التكليف من لدن الفارثين يحاول تجميد الشاعر في لحظة واحدة ،
بينما الخلق في حقيقة الامر هو عجلة دائمة تدور على الدوام نحو الامام
بمهارة اكثر وبوعي اعمق واشمل ولو انها برونق اقل وعفوية اصغر .

كنت امضي مخلفا ورائي ديواني «شفقيات» . كان ثمة قلق يدفع
شعري ويحركه . كنت اجدد قواي في رحلات سريعة واسفار عابرة نحو
جنوب تشيلي . في عام ١٩٢٣ اقتنيت تجربة غريبة . كنت قد عدت الى
بيتنا في «تيموكو» . بعد منتصف الليل وقبل ان اضطجع فتحت نوافذ
غرفتي . خلبتني السماء وبهرتني . كانت عامرة بجمهرة من النجوم المتألثة
المتكاثرة . الليل حديث التضمخ بالرذاذ غب المطر والنجمات القطبية تتناثر
على راسي .

٢٤ - المتزوجة غير الوفية : لقد ترجمنا هذه القصيدة في كتابنا «مختارات من الشعر
الاسباني المعاصر» ص ٩١ - ٩٣ .

شملتني نشوة ، اخذتني سكرة ، تعتعتني خمرة سماوية كونية .
اسرعت الى قرطاسي فكتبت في هذيان كما لو انه كان يوحى اليّ وينملي عليّ ، القصيدة الاولى لديوان اسميته بأسماء عديدة الى ان استقر في النهاية على اسم «حامل المقلع المتحمس» . كنت أعوم في يم صيغ سلسلة اغرف منها ما اغرف وكاني اسبح في مياهي الحقيقية .

في اليوم التالي قرأت مفعما بالمتعة قصيدتي الليلية . من بعد ، حين وصلت الى «سانتياغو» ، قرأتها على الناقد الساحر (الريو اويارثون) ، الذي استمع اليها بإنصات وأعجب بها ، ثم سألني بصوته العميق :

— انت متأكد من ان هذه الابيات ليست متأثرة بـ (سابات ارسكاتي) (٢٥) ؟ .

— اعتقد اني متأكد . لقد كتبتها في نوبة هيجان .

خطر لي آنذاك ان ابعث بقصيدتي الى (سابات ارسكاتي) نفسه ، ذلك الشاعر العظيم ، شاعر «اورغواي» الكبير ، الذي تنوسي في هذه الايام ظلما واجحافا . كنت قد رأيت في هذا الشاعر انه قد تحقق فيه تطلمي وطموحي لشعر لا يحتوي على الانسان فحسب بل على الطبيعة ايضا ، على القوى الخبيثة ، شعر ملحمي يواجه سر الكون الرهيب العظيم وكذلك امكانات الانسان الهائلة . كنا نتراسل . كنت في الوقت الذي اعمل فيه جاهدا على انضاج شعري وتطويره ، اتمعن مليا في رسائل (سابات ارسكاتي) التي كان يهديها الى شاعر شاب غير معروف فاستزيده شاكرا .

ارسلت اليه في «مونتيفيدو» هذه القصيدة تلك الليلة ذاتها متسائلا عما اذا كان يرى فيها أثرا بشعره ، اجابني على جناح السرعة في رسالة كريمة نبيلة : «مرات قليلة في حياتي قرأت قصيدة في غاية الاتقان وفي أوج الروعة كما هي عليه قصيدتك هذه ، لكنني اجد انه لا بد لي من ان

٢٥ - سابات ارسكاتي : (كارلوس Carlos) : شاعر من اورغواي ولد عام ١٨٨٧ .

اقول لك شيئاً : اجل ، ثمة في ابيات قصيدتك هذه بعض من التأثير بشعر (سابات ارسكاتي) .

كان ما قاله لي مثل نور برق في ليل داج ، ما زلت حتى الآن اشكره عليه ، . بقيت الرسالة في جيبى خلال عدة ايام ، تنطوي وتتجدد الى ان اهترأت . لقد كان كل شيء بعدها قيد الرهان محك الاختبار . كنت أهجس بالهديان العاقر لتلك الليلة حتى لا يفتنني هديان ليلة أخرى فأهذي او الفو او اقلد . عبثاً غطست في لجة تلك النجوم ، عبثاً غمرت حواشي تلك العاصفة الجنوبية . لقد كنت في ضلال . عليّ الا اثق بالوحي والالهام . يجب ان يقودني الوعي عبر السبل الصغيرة خطوة اثر خطوة . عليّ ان اتعلم ان اكون متواضعاً . مزقت قصائد كثيرة ، أضعت أخرى . بعد عشر سنين من ذلك الحين ، يعثر على هذه القصائد فتُنشر .

انتهى برسالة (سابات ارسكاتي) طموحي في الاحاطة بشعر فسيح . اغلقت الباب على فصاحة كان محالاً ان استمر على سننها . اختصرت متعمداً أسلوبى وعبارتى . وأنا ابحت عن ملامحي الاكثر بساطة ، عن عالمي المتناسق الخاص بى ، شرعت بكتابة ديوان غزلى آخر . فكان حصيلة ذلك كتاب «عشرون قصيدة» .

ان ديوان «عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة» ، هو كتاب اليمّ ورعوي يتضمن عواطف مراهقتى العاصفة جداً ، ممتزجة بالطبيعة المستبشرة الجارفة في جنوب وطني . هو كتاب احبه كثيراً لانه على الرغم من كآبته الحادة ، فيه متعة الوجود حاضرة . ساعدني في كتابته نهر ومصبه : نهر «امبريال» . ان قصائد «عشرون قصيدة» لى «رومانث» (٢٦) سانتياغو ، بشوارعها الطلابية ، لى الجامعة ، وهى فوح اليزفون للحب المتبادل .

٢٦ - رومانث Romance : هي نوع من القصائد نشأت في اسبانيا بالعصور الوسطى .

ان المقاطع المتعلقة بـ «سانتياغو» نظمت بين شارع «ايتشورين» و«نهج اسبانيا» وفي داخل المبنى القديم للمعهد التربوي ، لكن المنظر العام مستوحى من مياه الجنوب وأشجاره . اما أرصفة قصيدة «اغنية يائسة» فهي الارصفة العتيقة لـ «كارهويه» و«باخو امبريال» . ان الالواح الفليضة الشخينة المكسرة والاشخاب كأنها جدعات يلطمها النهر الفسيح ورفرفة النوارس كنت أحس بها وما أزال ، كأنها تسري في مسام الجسد عند ذاك المصب .

في زورق مهجور طويل نحيل ، لبخرة غريفة ، قرأت كتاب (خوان كريستوبال) بكامله وكتبت قصيدة «اغنية يائسة» . كان للسماء من فوق رأسي زرقة عنيفة جدا لم أر مثلها قط . انا كنت انظم في القارب المختبئ في الارض . أعتقد اني ما عدت شعرت بأني جد شامخ الى السماء وجد عميق في باطن الارض ، كما كنت أشعر اذاك . من فوق السماء الزرقاء العميقة ، في يدي كتاب (خوان كريستوبال) او الايات الوليدة فسي قصيدتي ، اذائي كل ما وجد وما يزال يوجد في شعري : صراخ العصافير البرية والبحر المتوقد دائما ليس يخمد او ينفد كأنه العوسج الذي لا يموت .

لقد سئلت دائما من هي ملهمة «عشرون قصيدة» ، انه لسؤال صعب الاجابة . الاثنان او الثلاث اللواتي تداخلن في هذا الشعر الكثيب المتوقد فلنقل انهن «ماريسول» (٢٧) و«ماريسومبرا» (٢٨) . ان (ماريسول) هي «عتابا» (٢٩) منطقة رائعة ساحرة ، ذات نجوم ليلية هائلة وعينين غامقتين كسماء «تيموكو» البليلة المضمخة . تتجسد بفرحها وجمالها الحي فسي صفحات الديوان كلها ، محاطة بمياه الميناء ومكللة بالهلال الذي بطل من فوق الجبال . اما (ماريسومبرا) فهي الطالبة الجامعية ، قبعة رمادية ،

٢٧ - ماريسول : معناها ، مريم الشمس .

٢٨ - ماويسومبرا : معناها ، مريم الظل .

٢٩ - عتابا : في الاصل Idilio ، وهي مقاطع شعرية شعبية تتغنى بالرعي والرعاة .

عينان رقيقتان ناعمتان ، شدى الحب الطلابي المتنقل المتجول الذي يفوح
كعطر الزيزفون ؟ خمود جسدي اثر التقاءات عاصفية مثيرة في مخابيء
المدينة .

اثناء ذلك كانت الحياة تتبدل في تشيلي .

مدويا كان يعلو نداء الحركة الشعبية التشيلية وهي تبحت بين الطلبة
والكتاب عن دعم أصلب وتأييد آمن . من جهة اخرى ، كان الزعيم الكبير
للبورجوازية الصغيرة ، (ارتورو اليستاندري بالما) الديناميكي الديماغوجي،
قد توصل الى ان يصبح رئيسا للجمهورية بعد ان هز البلد قاطبة بفصاحته
الساطعة المخيفة . على الرغم من شخصيته الفاتكة فانه سرعان ما تحول
وهو على كرسي الحكم الى حاكم تقليدي شبيه بمن سبقه من حكام امريكا
الجنوبية . ان الفئة المسيطره من البورجوازية الكبيرة التي كان من قبل
يحاربها ، فتحت بلاعيمها وابتلعت خطبه النورية واحتوته واستحوذت
عليه فغدا يآتمر بأمرها . واسنمر بلدنا يتخاصم في نزاعات رهيبة عنيفة .

في الوقت نفسه ، كان الزعيم العمالي (لويس اميليو ريكاباريسن)
بفعاليته المدهشة ، ينظم صفوف البروليتاريا ، يشكل نقابات مركزية ،
يؤسس حوالي عشر صحف عمالية في طول البلاد وعرضها . كانت البطالة
وقلة الاعمال تهز مؤسسات النظام الرأسمالي . انا كنت في تلك الاوقات
اكتب في مجلة «وضوح» اسبوعيا . كنا نحن الطلبة ندعم المطالب الشعبية
وندافع عنها وكثيرا ما كنا نصطدم بالشرطة اثناء مظاهراتنا في شوارع
سانتياغو فينهال رجال الامن علينا ضربا وتستيتا . كان يصل الى العاصمة
آلاف العمال المطرودين من اعمالهم في مناجم ملح البارود والنحاس . لقد
كانت المظاهرات وما يتبعها من حملات الاعتقال والاضطهاد تصبغ الحياة
القومية للبلاد بطابع مأساوي .

منذ تلك الفترة وعلى تناوب امنزجت السياسة في شعري وفي
حياتي . لم يكن ممكنا ان أغلق الباب عن الشارع واقبع داخل قصائدي
كما لم يكن ممكنا اغلاق الباب عن الحياة ، عن الفرح ، او عن الحزن في
قلبي ؛ قلب شاعر شاب .

(الكلمة)

... كل ما شئت ، ايها السيد ، أجل كل ما شئت ، بيد ان الكلمة
ترنم ، تحلق وتهبط ... فأركع لها واسجد ... اهيم بها ، اذن لها ،
أتابعها ، الثمها ، أتمظها ، أذيبها ... أنا مغرم بالكلمة ... كل كلمة
مباغتة ... انتظرها في نهم ، اترصدها في شغف ، الى ان تحط على
حين غرة ... لفظة حبيبة ... تلتمع كالدرة ، تقفز كالسمكة الفضية ،
انها لزبد ، لخيط ، لمعدن ، لندى ... الاحق كلمة اطارد اخرى ، أريد
لحسنها ان التقطها جميعها ، أن أحضنها في شعري ... أوشك ان
التقط هنا وهناك ، تطير ، تثر ، اقتنص احداها ، انظفها ، انتف شعرها ،
اهي نفسي امام الصحن ، أجسها فأحس بها شفافة ، رجراجة ، عاجيئة ،
لزجة ، دبقة ، كالثمرة ، كالطحلب ، كمصقل العقيق ، كحبة الزيتون ...
أقلبها ، أخضها ، أهزها ، اترشفها ، التهمها ، أتمثلها ، أزخرها ،
أعتقها ... تتدلى من القصيدة كما تتدلى عناقيد الرواسب من سقف
مغارة ، صقيلة كرصائع خشب ثقيف ، كالماس ترسب في شعري كما
ترسب بقايا سفين غريق في قاع اليم ، مجلية كهدايا الموج كالدر ...
كل شيء يكمن في الكلمة ... تبدل الفكرة ان كلمة حُرِّفت عن موضعها
او ان اخرى تربعت مثل مليكة على عرش جملة ، عنوة ، فخضعت
لجبروتها ... ان للكلمة لظلا ، لرونقا ، لوزنا ، لزغبا ، ان لديها كل ما
اقتنته في تسيارها عبر مساري الانهار ، كل ما اكتنزته في ترحالها عبر
مسالك الاوطان ، كل ما ادخرته في تجوابها عبر نسغ الجذور ... انها
لتليدة جدا وجديدة جدا ... تكتن في عش خبيء ، تجتن في برعم
زهرة ... لكم هي طيبة لساني ، لكم هي رائعة هذه اللغة التي ورثناها عن
أولئك الفزاة القساة ... أولئك كانوا يمضون قدما يجتازون سلاسل
الجبال الهائلة ، يخترقون غابات امريكا الشائكة بحثا عن البطاطا ، عن
شرائح اللحم ، عن الفاصولياء ، عن التبغ الاسود ، عن الذهب ، عن الدرّة ،
عن بيض مقلي ، في شهية نهم شرة ما شوهد لها في العالم مثيل من
بعد البتة ... كانوا يلتمهون كل شيء : الاديان ، الاهرام ، القبائل ،
الاصنام الشبيهة بالصلبان والانصاب التي احضروها معهم في اكياسهم
الكبيرة ... اينما مروا هدموا ، حيثما حلوا افسدوا فالارض منهم موات
يباب خراب ... غير انه كانت تتساقط من هؤلاء البرابرة ، من نعالهم ، من

لحاهم ، من خَوّذهم ، من حدواتهم ، عدد الحصى ، كلمات مضيئة بقيت
هنا يلتمعن يتوهجن ... مكثت اللغة . أجل لقد خسرنا ... بلى لقد
غنمنا ... اخذوا منا الذهب ، تركوا لنا الذهب ... اخذوا كل شيء ،
تركوا كل شيء ... لقد تركوا لنا الكلمة .

الفصل الثالث

دروب العالم

صعلوك «بالبارائيسو» (Valparaiso)

ان «بالبارائيسو» لقريبة جدا من «سانتياغو» . لا يفصل بينهما الا الجبال الهلباء المزبثرة المسننة التي في قممها ترتفع، كأنها المسلات، أشجار «كاكتوس» (١) Cactus الضخمة العدائية المؤذية المزهرة ، غير انه تمة شيء صعب التحديد يبعد بينهما . «سانتياغو» هي مدينة سجيئة تحيط بها أسوارها الثلجية ، بينما «بالبارائيسو» هي على العكس من ذلك تسرع أبوابها على البحر اللامحدود ، على ضجيج الشارع ، على عيون الاطفال .

في لحظات شبابنا الاكثر فوضوية كنا نحشر انفسنا في عربة قطار من

١ - كاكوتس : هي اشجار كثيرة الاضلاع ، مخددة ، ذات أزهار كبيرة صفراء،
تكثر في المكسيك .

الدرجة الثالثة دائما دون أن تكون قد نمنا بعد ، ودون أي فلس فسي جيوبنا . كنا شعراء ورسامين في العقد الثاني من عمرنا مزودين بشحنة قيّمة من الجنون العنيد تريد أن تفرغ ، أن تمتد ، أن تنفجر . كانت نجمة «بالبارائيسو» تناديننا بنبضها الساحر .

ما شعرت بمثل هذا النداء إلا بعد عدة سنوات وذلك في مدينة أخرى . وخلال سنوات اقامتي في مدريد فقد كنت وأصدقائي ، كلما دخلنا الى حانة او خرجنا من مسرح في السحر ، او تجولنا في شارع او آخر ، نسمع صوت طليطة ينادينا ، صوت أشباحها الابكم ، لحن سكونها . في هذه الاوقات المتأخرة كنا نمضي مجموعة من الاصدقاء المجانين كجنون رفاق شبابي في تشيلي ، نحو هذه المدينة العريقة العتيقة ذات البيوت الكلسية والأزقة الضيقة المعوجة كي ننام فوق ضفاف نهر «التاخو» (٢) تحت القناطر الحجرية .

لست أدري ما سبب انه من بين رحلاتي الرائعة الساحرة السي «بالبارائيسو» بقيت رحلة واحدة عالقة بذاكرتي ومحفورة في ذهني ، مضمخة بشدى اعتساب اقتلعتها على فرع من الحقول . كنا نروح لتوديع صديقين لنا احدهما شاعر والآخر رسام يزعمان السفر الى فرنسا ، طبعاً ، بالدرجة الثالثة . بما اننا جميعاً لم نكن نملك ما ندفع به اجرة مبيتنا في فندق من الفنادق ولو كان اكثرها فيرانا ، فقد فتشنا عن (نوبوا Nova) وهو احد مجانيننا المفضلين ومن سكان مدينة «بالبارائيسو» العظيمة . لم يكن الوصول الى بيته بالامر السهل . صعدنا وترحلقنا فوق تلال وتلال لا تنتهي ، لا نرى في العتمة غير طيف (نوبوا) الذي كان يقودنا ويرشدنا .

كان (نوبوا) رجلاً مهيباً ، ذا لحية عامرة ، وشوارب ضخمة ، كانت اطراف رداءه الغامق يخفق بعضها بعضاً كأنها أجنحة طيور في قمم تلك الجبال العجيبة التي كنا نصعد فيها على عماوة وفي ضيق شديد . ما

٢ - التاخو : هو نهر يمر بطليطة ، كان العرب يدعونه : التاجه ، والقناطر الموجودة عليه هي من العرب .

كان يسكت أو ينصت . كان قديسا مجنوناً ، معروفا جيدا لدينا نحن الشعراء . وكان ، طبعا ، طبيعيا من المؤمنين بالطبيعة ، نباتيا من آكلي النبات حتى منبت الاصلة . كان يشيد علاقات سرية ، لا يعرفها غيره ، بين الصحة الجسدية وهبات الارض الطبيعية . كان يعظنا بينما كنا نطلع على التلال ، يوجه نحو الخلف صوته المنغم ، كما لو كنا تلاميذ له . كان شكله الضخم يزحف كأنه قامة القديس (كريستوبال Cristobal) لكن هذا القديس ولد في الليالي المعتمة وفي الضواحي المنعزلة .

بعد المشقة والعناء القينا عصا الترحال في بيته واذا به مجرد كوخ صغير أو خص حقير من غرفتين ليس غير ، الواحدة منهما يشغلها سرير صاحبنا القديس (كريستوبال) والاخرى يملأ جزءا كبيرا منها كرسي عظيم مصنوع من شجر الصفصاف ، متشابك في وفرة بتزيينات هشة من القش وبجوارير غريبة عجيبة مضافة الى أرجله وأذرعته ، انه لتخفة فنية من عهد الملكة (فيكتوريا) . المقعد الكبير خُصص لي كي انام عليه تلك الليلة . أما اصدقائي فقد مدوا على الارض صحفا مسائية وتمددوا في وقار وقناعة فوق الاخبار والافتتاحيات .

بعد قليل من الوقت عرفت بفضل الزفير والشخير انهم قد ناموا جميعا . لقد كان صعبا بالنسبة لتعبني ان يصلح النوم ويصاحبه طالما انه لا يستريح فوق ذلك المقعد التذكاري . ما كان يسمع الا سكون مرتفعات وصمت قمم متوحدة أو نباح كلاب فلكية كانت تخترق الليل أو صفير سفينة بعيدة جدا تدخل الى الميناء أو تخرج منه . كل هذا كان يؤكد لي انني في «البارائيسو» .

شعرت فجأة بنشوة غريبة فائنة تسري في جسدي . نشوة شدي جبلي ، فوح سفوح المروج ، عطر كعطر نباتات كانت قد نمت ونمو طفولتي ثم نسيتها في ضوضاء حياتي بالمدينة . شعرت اني قد تصالحت والنوم فعفوت عنه وغفرت له اني يقط مسهد تلك الليلة ، احسست اني ملفوف بهديل الام الارض وترنيمها . من اين يجيء خفق الارض البرتي هذا ؟ ، بكرة الاشداء الطاهرة النقية هذه من اين تأتي ؟ وانا ادخل اصابعي من خلال الوعور الصفصافية لذلك المقعد الضخم اكتشفت جويريرات لا حصر

لها وفي داخلها جسست نباتات جافة ملساء ، اغصانا خشنة مدوّرة ، أوراقا رمحية الشكل ، طرية او صلبة . عثرت اذن على دار الصناعة الصحية التي يخبئها واعظنا النباتي ، عن صورة طبق الاصل لحياة هذا القديس العاكف على التقاط الاعشاب بيديه الكبيرتين كيدي القديس (كريستوبال) ، وهو ابدا خصب الجنى ، جواب الحقول .

بعد ان كشفت عن اللغز وعرفت السر نمت في طمأنينة ، في رعاية شذى تلك الاعشاب الساهرة الحارسة .

لقد سكنت خلال بضعة اسابيع ، في بيت يواجه بيت السيد (ثويلو ايسكوبار) بشارع ضيق من شوارع «بالبارائيسو» . شرفات غرفنا كانت تقريبا تتلامس ، كان جاري يخرج مبكرا الى الشرفة ليجري تمارين رياضية في جسم ناسك زاهد متقشف تمّ عنه أوتار قيثار اضلاعه . يرتدي دائما بدلة شغل (فارول) فقيرة او سترة خالقة بالية . كان نصفه ملاكا والنصف الآخر بحّارا . وكان قد انسحب منذ زمن بعيد من إبحارته ، من الجمارك ، من الموانئ والبواخر . كل يوم يمسح وينفض ويسحج بدلته ، بدلة الزينة الوحيدة في اتقان وكمال دقيقين . كانت بدلة من الجوخ الفاخر الاسود ما رأيته ابدا يلبسها ولا مرة واحدة خلال عدة سنين ، فلقد كان يحفظها في الخزانة بين كنوزه الكثيرة .

لكن كنزه الاكثر حدة والاكثر تمريقا للقلب كان آلة كمان من نوع «ستراديفاريوس» احتفظ به وصانه في حيلة واعتناء طيلة حياته كلها ، دون ان يلمسه او يعزف عليه ودون ان يسمح لاحد ان يلمسه او يعزف عليه . كان السيد (ثويلو) يفكر في انه سوف يبيع هذا الكمان في مدينة نيويورك فهناك سوف يدفعون له مبلغا محترما ثمنا لهذه الآلة الموسيقية الشهيرة . يخرج احيانا من الخزانة الفقيرة ويسمح لنا ان نتأمله في خشوع ديني وعاطفة مؤثرة . كان يحلم في انه سيسافر الى الشمال ذات يوم وسيعود بلا كمان لكن سيعود محملا بالخواتم الفاخرة والاسنان الذهبية التي ستحل في فمه بدل التجايف التي حتّها ونخرها مجرى السنين وعبور الدهر الطويل .

صباح ذات يوم لم يخرج السيد (ثويلو) الى الشرفة لاجراء التمارين الرياضية . دفناه هناك في اعلى المدينة ، في مقبرة الربوة ، مكفنا ببدلته السوداء التي لاول مرة غطت هيكله العظمي الصغير ، هيكل ناسك زاهد متقشف . اوتار كمانه ما بكت على رحيله ، لا احد كان يعرف ان يعزف عليه الا . حين عدنا ففتحنا الخزانة لم نعثر على ذلك الكمان اليتيم لعله طار الى البحر او الى نيويورك ، كي يحقق احلام السيد (ثويلو) .

ان مدينة «بالبارائيسو» هي كنوم ، ملتوية ، متدرجة . تنسبح الفاقة على سفوح روابيها كأنها شلال عارم . نعرف عن سكان هذه الروابي المكتظة بهم ما يأكلون وما يلبسون (ونعرف كذلك ما لا يأكلون وما لا يلبسون) . الملابس المنتورة للتجفيف ترفرف كالبيسارك فوق كل دار والأقدام الحافية المعرضة للشمس بلا توقف عليها تطهرها من أوساخها ، تنمّ عن حبها الذي لا يخمد نحو هذا الحبيب الذي ليس يخمد .

لكنما ، قرب البحر ، في السهل ، ثمة بيوت لا تفتح نوافذها ولا تترع شرفاتها ، لا تدخل اليها أقدام كثيرة ولا تحمل اليها الغبار قط . من بين هذه الدور كانت دار الرائد . قرعت الباب بمطرقة برونزية كبيرة ، عدة مرات متتالية كي يسمع طرقي . اخيرا سمعت خطوات خفيفة تقترب واذ بالباب يفتح نصف مصراع ويطل منه وجه متفحص لا تبدو عليه علائم الثقة بي وكأنه يرغب ان يطردني ، كان وجه الخادم العجوز العتيقة في تلك الدار ، عليها منديل كبير وعلى خصرها مئزر طويل يكاد لا يسمح لخطوها ان يهمس .

كان الرائد ايضا رجلا عجوزا ، يسكن وخادمه وحيدتين منعزلتين هذه الدار الفسيحة ذات النوافذ المغلقة . قصده كي يريني تشكيلة مجموعته من الاصنام . كانت تملأ الدهاليز والجدران مخلوقات عجبية شقراء اللون، مساخر (٣) مخددة ، باللون الابيض وباللون الرمادي ، تماثيل تمثل جثثا

٣ - مساخر : هكذا في الاصل **Mascaras** وهي جمع اسباني للكلمة العربية مسخرة، بمعنى قناع او برقع .

بائدة لآلهة هائلة ، خصلات شعر مجففة ، دروع رهيبة فوق اطر خشبية
ملبسة بجلود نمرور رقطاع ، أطواق من أسنان مفترسة ، مجاديف قوارب
لعلها كانت قد قطعت زبد المياه السعيدة المحظوظة (٤) . مدى ونصصال
وسكاكين عنيفة كانت تبعث الدمر في الجدران التي تتدلى منها اوراق
فضية اللون كأنها افاع تتلوى في الظلال .

لاحظت ان التماثيل الخشبية للآلهة الذكور كانت مصفرة جدا .
العضو الذكري منها كان مغطى في اعتناء بستر من قماش هو نفسه القماش
الذي استفيد منه لصنع منديل الخادم ومثزرها ، كان التأكد من هذا في
غاية السهولة .

الرائد العجوز كل يتنقل في خفوت بين تلك الانصاب التذكارية . يشرح
لي قاعة انر قاعة بين جد وهزل عن هذه المخلوقات العجيبة شرح من عاش
كثيرا وما يزال يعيش على قبس نمائيله . دُقينه الابيض يبدو كلحية وثن
في «ساموا» . اراني البنادق ذات المواسير الطويلة والمسدسات التي بها
طارد العدو وعقر الرثم والنمر . كان يحكي لي عن مغامراته دون ان يماوج
في لحن همسه الوتير . كان ذلك كما لو ان الشمس تسربت على الرغم من
النوافذ المغلقة وتركت هنا شعاعا صغيرا واحدا لا غير ، فراشة حية ضئيلة
ترفرف بين التماثيل والاصنام .

عند التوديع قلت له بأن لديّ مشروعا للقيام برحلة نحو الجزر ، وان
لديّ رغبات شديدة للتوجه شطر الرمال المذهبة في اقرب وقت ممكن .
آنذاك ، بعد ان التفت الى الجانبين ، قرب من اذني شاربيه البضاوين
المتآكلين وهمس لي راجفا : «حتى لا تسمع هي ، حتى لا تعرف ، انا كذلك
انوي ان اقوم برحلة وقد اعددت لها العدة» . بقي هكذا ساهما ، لحظة ،
واصبغه بين شفتيه، كأنه يصغي لوطء نمر في الغابة . ثم أغلق الباب فجأة،
على الظلام ، كما يهبط الليل على افريقيا .

٤ - قد يعني بهذا جزر «كنارييس» Canarias التي كان العرب يسمونها «الجزر
السعيدة» وكذلك تسمى بالاسبانية Las Islas Afortunadas .

سألت الجيران :

— هل ثمة رجل آخر غريب الاطوار هنا ؟ هل ثمة شيء يحرز همم
مجيئي الى «البارائيسو» .

اجابوني :

— ليس لدينا تقريبا اي شيء مما يمتع بغرابته او اي شخص مما
يستحق المشاهدة لشذوذه ، لكن ، ان مضيت في هذا الطريق سوف تتعثر
بالسيد (بارتولوميه) .

وكيف سأميزه من بين الآخرين وأتعرف عليه ؟

— ليس ثمة مجال للخطأ ، آيته انه يرحل دائما في عربة يجرها
حصان .

بعد ساعات قليلة ، بينما كنت اشترى تفاحا من دكان بهذا الشارع
نفسه ، توقفت عند بابها ، عربة يجرها حصان ، ونزل منها رجل طويل ،
ارفل عديم الرشاقة والهندام ليس له الا ثوب اسود مهلهل .

جاء ليشتري تفاحا كذلك . على منكبه بيفاء اخضر سرعان ما طار
نحوي وحط على رأسي دون تقدير او احترام .

— هل حضرتك هو السيد (بارتولوميه) ؟ — سألت ذلك الفارس .

— أجل ، انها الحقيقة ، انا أدعى (بارتولوميه) — وأشهر سيفه الذي
كان يتمنطق به تحت ثوبه فأعطانيه كي ينحني ويملا سلته بالتفاح والعنب .
كان سيفا عتيقا ، طويلا حادا ، ذا مقبض بديع صنعته أيدي صناع ماهرين ،
مقبض كانه الوردة المتفتحة .

انا ما كنت اعرفه من قبل ولا عدت فرأيته من بعد ، لكنني رافقته في
اجلال واحترام . ثم فتحت له باب العربة فصعد ودخل ودخلت سلته ،

وضعت بين يديه ، في وقار وكياسة ، البغاء والسيف .

ان عوالم «البارائيسو» لهي مهجورة متروكة ، بلا معنى ولا زمن ، كأنها صناديق رست ذات مرة الى قعر قبو سفينة ليس يدرى من اين جاءت ولا احد سأل عنها او ادعاها لنفسه ، فهي ابدا حبيسة ذلك القبو المعتم لن تستطيع البتة الانطلاق من حدودها ودياجيرها . ربما مكثت في اسرار «البارائيسو» السيطرة وفي ارواحها الطاغية ، الى الابد ، سلطة موجة ضائعة ، عاصفة ، ملح ، بحر يهوج ويموج ، بحر كل نسمة من سكان «البارائيسو» ، يرغي ويزبد ، يثور ويهدد ، لكنه حبيس سجين ففسدا هديرا لا تستجاب شكواه ، حركة وحيدة اليمة تتفتت طحيننا ولمج زبدا اذ تخب احلامها وترتد على صخر الواقع الصلد .

في هذه الحيوانات الغريبة الاطوار التي عثرت عليها او بها ، كانت دائما نفجوي وحدتهم المطلقة والميناء المؤثر ، انصهارهم الكامل في مياه البحر ، فهناك في الاعالي ، عبر الروابي ، يزهر البؤس وينبثق في فوران محموم من القطران (هـ) والفرح . ان ارسفة الميناء والرافعات والعربات واشغال العمال تغطي خصر الساحل ببرقع صبغته السعادة الهاربة من بسوس الروابي . غير ان نمة آخرين ما اسنطاعوا ان ييلفوا الاعالي ليسكنوا التلال ولا الاسافل ليعملوا في الميناء بل مكثوا في صناديقهم محتفظين بنصيبهم من عالم اللابهاية عالم البحر .

لقد صانوا كل ذلك بأسلحتهم الخاصة ، بينما الفناء يقترب منهم كما الضباب .

ان «البارائيسو» لتهتز احيانا مثل حوت جريح . ترتج ، تحتضر ، تموت وتبعث .

ان كل مواطن هنا يحمل في ذاكرته زلزالا . انه لهول ملتصق بقلب

• - القطران : هكذا في الاصل Alqutrân . عن العربية

المدينة . ان كل مواطن هنا لهو بطل من قبل ان يولد . اذ ان في ذاكرة الميناء انطبعت رعشة الارض التي ترتعد من اخفاقها وتثور على فشلها وتطلق صرخة من الندم تبلغ اعماقها ، كما لو ان مدينة ترسو تحت البحر وتستقر تحت الارض ، فجأة ، شرعت تطوي ابراجها وأشرعتها الدفينة لتقول للانسان ان كل شيء قد انتهى وانها ستقلع باحثة عن مغامرة اخرى قد تكون رابحة ظافرة .

أحيين ، حين تكون الاسوار والجدران والسقوف قد تدحرجت بين الغبار والسنة النيران ، بين الضجيج والسكون ، بعد ان يخمد كل شيء الى الابد في أحضان الموت ، تخرج من البحر ، كأنها آخر هول ، الموجة الكبيرة ، اليد الخضراء الهائلة ، طائلة ملوثة بالخطر ، تعلو كأنها برج حاقد نم تهوي لتسحق وتجرف حيثما وقعت او صفت ، كل ما تبقى من حياة .

كل شيء كان يبدأ بحركة كسلى فيستيقظ من كان قد نام من سكان «البارائيسو» . نأخذ الروح وهي بين الاحلام تنصلل بجذور عميقة ، بعمقها الارضي . لقد أحبت الروح دائما ان تعرف عمقها وها هي تعرفه . ثم تنقض حركة الارتجاف الاخير ، ليس ثمة من يفيث او يعين فالالهة رحلوا والكنائس المزهوة غدت كنلا مطحونة مهروسة .

ان هذا الرعب ليس كرهب من يعدو هاربا من نور هائج غضوب ، ليس كدعر من يهدده خنجر ، ليس كخوف من أوشك على الغرق ، انه لهول كوني ، انه لخطر مفاجيء . الكون ينهار يتهدم يتقوض بينما الارض تدوي في رعد أصم ، بصوت ، ما من احد سمعه قبل ولا عرف له مثيلا .

يترسب الغبار الذي أثارته البيوت عند انهيارها شيئا فشيئا وكل شيء يهدأ ، يخمد . نظل وحدنا مع أمواتنا دون ان ندري اننا اموات نحن ام أحياء .

تنطلق المدارج من تحت ومن فوق وتتلوى درجة درجة بعضها فوق بعض دون تماس بين الواحدة والاخرى . تغدو نحيلة رفيعة كأنها شعر او

خيطة ، تستريح قليلا ، تطلع شاقولية الظهر ، تراوح ، تسرع الخطو ،
تمتد . تتقهقر . لا تنتهي ابدا .

كم من مدارج ؟ كم من درجة مدارج ؟ كم قدم على الدرجات ؟ كم قرن
من الخطى ، من النزول والصعود مع الكتاب ، مع الطماطم ، مع السمك ،
مع الزجاجات ، مع الخبز ؟ كم الف من الساعات دارت على هذه الدرجات
فأبقتها وجعلتها قنوات تجري فيها الامطار لاعبة او باكية ؟ .

يا لها من مدارج !

ما من مدينة سفحت المدارج ، عرّتها في تاريخها ، في وجهها ، ذرّتها
ثم جمعتها ، كما مدينة «بالبارائيسو» . ما من وجه له مثل هذه الاثلام
والاخاديد حيث تروح وتجيء الحيوانات كما لو انها دائما وابدا تصعد الى
السماء ، كما لو انها دائما ابدا تهبط الى البحر مصدر الخلق .

يا لها من مدارج أنبتت في منتصف الدرب حراشف من الزهور
الارجوانية ! يا لها من مدارج أخذت بيد بحار آب من سفره الى آسييا
ليجد في بيته ضحكة جديدة او غيابا رهيبا ! يا لها من مدارج هوى من
عليها مثل نيزك اسود ، سكير فتدحرج فوقها ! يا لها من مدارج تصعد
الشمس عليها لتمنح حبها الخالد الى التلال !

ان مشينا مدارج «بالبارائيسو» كلها فائنا نكون قد درنا حول
العالم كله .

يا «بالبارائيسو» يا مدينة آلامى . . . ماذا جرى لك في وحدة المحيط
الهادي الجنوبي ؟ أنت نجمة تائهة أم معركة ديدان نجا تألقها من المصيبة ؟

يا له من ليل ، ليلك ! نقطة من الكوكب الارضي وقد أضيء ، ضئيلا ،
في الكون الفارغ الخاوي . حباب خفقت ، حدوة من ذهب توهجت بين
الجبال .

ان ليلك الهائل نشر من بعد اشكالا عظيمة ضاعفت من نورك . فنجمة

الدبران (٦) سطعت بنبضها القصي البعيد ، الثريا نشرت ملابسها البراقة
عند ابواب السماء ، بينما كانت تدور عربة القطب الجنوبي الصامتة في
المدى الليلي لنهر المجرة .

اذنك برج القوس الشامخ الكثيف الشعر القى الماسة من اقدامه
الضائعة ، برغوثا من جلده العصي البعيد .

لقد ولدت «بالبارائيسو» ، متوهجة وثرثرة فاضحة ، مزبدة وبغيا .

امتلا ليل ازقتها بحور البحور السمرات السوداوات ، تترصدك في
الظلام الابواب ، تتخاطفك الايدي في العتمة ، شرشف الجنسوب تينته
البحارة ، اسرتها ضيقت الرحاله والجواله والعاير والمسافر . ان البغايا :
(بوليانثا) ، (كارميلا) ، (فلور دي ديوس) ، (مولتيكولا) ، (بيرينيثه) وغيرهن
كثيرات ، انشان الحانات والملاهي ، صنّ الفرقى من الهديان بالهديان ،
حفظن السكارى من التمتع بالتمتع ، تبدلن ، تجددن ، رقصن ، بسلا
خلاعة ، ولكن بكآبة اصيلة ممطرة وحزن جنسي دام .

لقد خرجت من الميناء لصيد الحيتان اكثر السفن صلابه وجلدا ،
وسفن اخرى انطلقت نحو جزر الذهب . هذه الاخيرة عبرت البحار السبعة
لتاخذ فيما بعد من الصحراء التشيلية فلزات «الآزوت» التي ترقد هناك
كانها غبار لا يحصى لتمثال محق وسحق تحت اكثر منطقة في العالم جفافا .

لقد كانت هذه هي المغامرات الكبرى .

لقد تلات «بالبارائيسو» عبر ليل الكون ، لقد بدت بواخر تمخر من
عالم الى عالم ، سفن موشاة كانها حمائم سحرية ، سفن شذية عطرة ،
اشرعة جائعة ارساها «كابو دي اورنوس» في مراسيه ردحا من الزمن ...
احايين كثيرة كان الرجال حديثو العهد في الاقلاع والابحار يستعجلون

اليابسة ويستوحشون الكلاً كانت أياما ضارية ساحرة حين لم تكن المحيطات تتصل فيما بينها الا عن طريق مسافات المضيق «الباتاغوني» ، حين كانت «بالبارائيسو» ندفع بعملة جيدة اجرة البحارة الذين كانوا يتفنون عليها ويعشقونها .

في احدى السفن وصلت آلة موسيقية من الطراز القديم ، في أخرى عبرت السيدة (فلورا تريستان) وهي الجدة «البيروانية» (٧) لـ (غاوغين Cauguin) (٨) ، وفي «واجير» (Wager) وصل (روبينسون كروزو) ، الآلة الموسيقية شحنت بقدها وقديدها (٩) من ميناء «خوان فيرنانديث» ؛ سفن أخرى جلبت ثمر الاناناس ، بنتا ، فلفلا من «صوماطيرا» ، موزا من «غواياكيل» Cuayaquil ، شايا مع الياسمين (١٠) من «استام» Assam ، مشروب «ال انيس» (١١) من اسبانيا . . . امتلأ الرصيف البعيد وحدوه «سنتورو» Centauro المؤكسده بالأشذاء والعطور ؛ في هذا الشارع تفعمك عدوبة القرقة ، اذ ذاك تخترق روحك مثل سهم ابيض رائحة فاكهة «تشيريمويا» Chirimoyas (١٢) من هذا الزقاق او ذاك تطل لتقاتلك فتات طحالب البحر : طحالب البحر التشيلي كله .

كانت «بالبارائيسو» آنذاك ، تتشح وتتقلد بالذهب الاسود ، تستحيل الى شجرة يرتقال بحرية ، كان لها اغصان وأوراق ، كان لها نضارة وظل ، كان لها تألؤ الثمر وألق البحر .

٧ - البيروانية : نسبة الى «البيرو» ، احدى جمهوريات امريكا الجنوبية .

٨ - غاوغين. : رسام فرنسي (١٨٤٨ - ١٩٠٣) .

٩ - بقدها وقديدها : في الاصل بلحمها وعظمها .

١٠ - الياسمين : هكذا في الاصل (Jazmin) ، عن العربية

١١ - ال انيس Anis مشروب يشبه العرق ، منه الحلو ومنه الحاد .

١٢ - تشيريمويا : هي كلمة من اصل امريكي ، وهي شجرة تكثر في امريكا الوسطى ،

يبلغ علوها حوالي ثمانية أمتار ، على جذعها اغصان كثيرة ، وثمرتها كثيفة ، ازهارها مطرة ، اوراقها مستطيلة خضراء ، تؤكل فاكهتها .

لقد قررت قمم «بالبارائيسو» لقاء رجالها ، الاطاحة بالمنازل من الاعلى كي تحور هذه المنازل في المستنقعات التي يصبغها الصلصال باللون الاحمر ، المتاهات الذهبية باللون المذهب ، الطبيعة النفور باللون الاخضر . لكن الرجال ابوا والمنازل جفخت فتسببت الرجال والمنازل بالقمم ، التفوا عليها ، تسمتروا فيها ، تعذبوا منها ، تعوتدوا على كل ما هو شاقولي بها ، تعلقوا بأسنانهم في كل مفارة ، غرزوا اظافرهم في كل هاوية . وما ميناء «بالبارائيسو» الا الحرب السجال بين البحر وطبيعة الجبال المراوغة ، بيد ان الانسان في هذا الصراع ربح الجولة فتصالحت القمم والامواج وتعاونت الرابية والتساطىء على تكوين المدينة وخلقها فالبساها زيا واحدا ليس كما هو الحال عليه في الثكنات بل في تنوع الربيع ، في تلون ألوانه ، في تشكل رسومه ، في تناغم الحانه ، في نشاطه ، في حركته . فغدت المنازل الحانا وألوانا : من ازرق وأصفر ومن اسود وأحمر ومن أرجواني وأخضر . هكذا انجزت «بالبارائيسو» مهمتها فغدت ميناء حقيقيا ، سفينة راسية لكنها حية تعجّ نتساطا ، اشرعة راياتها مشرعة على الرياح فلقد كان المحيط العظيم بأمواجه ورياحه يستحق مدينة ذات بيارق ورايات .

لقد عشت بين هذه الربا الشذية الجريحة ، هي ربا مفعمة لذيذة فيها الحياة تلطم بأمواج تتجاوز الاسوار ، تقذف بأصداف لا تسبر ، تعزف بأبواق معوجة . في المدرج ينتظرك ، مهرجان برتقالي ، راهب يهبط ، طفلة حافية غارقة في بطيختها التي تأكلها ، زحمة من بحارة ونساء ، بيعة من حدائد متأكسدة ، سيرك صغير جدا لا يسع شبوطه الا شاربي المروض المهرج ، مدرج يصعد الى الفيوم ، مصعد يرتفع وقد حمل بالبصل ، سبعة حمير تحمل ماء ، سيارة اطفاء تعود من حريق ، واجهة محل فيها من الزجاجات ما يحيي او يميت .

لكن هذه الروابي لها اسماء عريقة عميقة . ان الحفر بين هذه الاسماء ليس ينتهي او ينقضي لان رحلة «بالبارائيسو» لا تنتهي لا في الارض ولا في الكلمة . اليكم هذه الاسماء او بعضا منها (١٣) : الربوة الفرحة ، الربوة

١٣ - نحاول هنا ان نترجم هذه الاسماء علما بانها اسماء اعلام واماكن .

الفراشة ، الربوة القطبية ، ربوة المستشفى ، ربوة المسيح ، ربوة الركن ،
ربوة الدئاب ، ربوة المراسي ، ربوة أواني الفخار (١٤) ، ربوة السنديان ،
ربوة البطم ، ربوة الطاحونة ، ربوة القصب ، ربوة السيدة (البيرا) ، ربوة
القديس (اسطفان) ، ربوة الزمردة ، ربوة اللوزة ، ربوة (رودريغيث) ، ربوة
المدفعية ، ربوة الحلابين ، ربوة مريم العذراء ، ربوة المقبرة ، ربوة شوك
الدراج ، ربوة الشجرة المطوقة ، ربوة المستشفى الانجليزي ، ربوة سعف
الجريد ، ربوة الملكة (فيكتوريا) ، ربوة القديس (خوان دي ديوس) ، ربوة
الفرضة ، ربوة «فيثكايا» ، ربوة السيد (الياس) ، ربوة الرأس ، ربوة
قصب السكر ، ربوة السفرجل ، ربوة الثور ، ربوة «فلوريدا» .

لم اعد اقدر على المسير بعد في اماكن اخرى كثيرة . ان «بالبارائيسو»
تحتاج الى نسناس بحري جديد او الى اخطبوط (١٥) حتى يستطيع ان
يتعرف عليها ويطوف بها . اما انا فاني استغل شيئاً ما من مداها الفسيح ،
مداها الذاتي الودود ولكنني لا ابلغ ان اضمها من يمينها ذات الالسوان
العديدة ، من يسارها ذات الخصوبة والعطاء من رأسها او من هاويتها .

انا فقط اتبعها في اجراسها ، في تموجاتها ، في اسمائها .

لاسيما اسماءها ، اذ ان للاسماء جذورا وأصولا ، ان لها لهواء وزيتا ،
ان لها تاريخا ، لديها دم في مقاطعها وحروفها .

قنصل تشيلي في جنح

جائزة ادبية طلابية ، بعض من الشهرة لكتبي الجديدة ، بردتسي
الشهيرة ، كل هذا منحني هالة من الوقار والاحترام ، وذلك خارج اطر
الدوائر الفنية والادبية . لكن الحياة الثقافية لبلداننا في عام ٢٠ كانت

١٤ - أواني الفخار . هكذا في الاصل Alfareras ، عن العربية

١٥ - اخطبوط (Octopierna) : كلمة من اصل افريقي ومعناها ، ذو الثمانية أرجل ،
تقرأ بضم الهمزة .

تتوقف كلية على أوروبا ، ما عدا استثناءات بطولية معدودة . في كسل جمهورية من جمهوريات أمريكا اللاتينية كان هناك محفل كوني لا يهتم إلا في الثقافة الأوروبية وبخاصة الفرنسية منها وأما بالنسبة لكتاب الفئة الحاكمة فقد كانوا يعيشون في باريس . لم يكن شاعرنا الكبير (بيثينته هويدوبرو) (١٦) يكتب باللغة الفرنسية ، فحسب ، بل إنه غيّر اسمه لينطق كما هو بالفرنسية ، استبدل به اسم «فينسنت» .

والحقيقة هو أنه ، ما ان حزت على شيء من الشهرة ففي مستهل شبابي ، حتى بدأ الناس . يسألونني ان راوني في احد الشوارع او احد الاماكن : «لكن ، ماذا تفعل هنا ؟ عليك ان تذهب الى باريس» .

لقد نوسط لي صديق من اصدقائي لدى رئيس دائرة في وزارة الشؤون الخارجية ، فاستقبلني هذا الرئيس حالا احسن استقبال ، اذ انه كان قد قرأ شعري .

— بالاضافة الى شعرك فاني اعرف كذلك تطلعاتك . اجلس في هذا المقعد المريح ، فمنه تستطيع ان ترى الساحة ومهرجان الساحة . تأمل في هذه السيارات ، ان كل شيء لباطل وعبث . انك لسعيد كونك شاعرا شابا . افترى ذاك القصر ؟ لقد كان ملكا لعائلي . وها انت تراني هنا ، في هذه الحظيرة ، مكبلا وقد غدوت بيروقراطيا ، . ليس من شيء ذي قيمة سوى الروح . هل يعجبك (تشايكوفسكي) (١٧) ؟

بعد ساعة من الحديث الادبي والفني . عندما مد لي يده لتوديعي ، قال لي بالا اقلق حول هذا الموضوع اذ ان الامر في ايد امينة ، كيف لا وهو مدير الخدمات القنصلية وصاحب الامر والنهي في هذا الموضوع .

١٦ — بيثينه هويدوبرو : شاعر من شيلى (١٨٩٣ - ١٩٤٨) .

١٧ — تشايكوفسكي (Pioty Ilich) : الموسيقي الروسي الشهير (١٨٤٠ -

١٨٩٣) .

— اعتبر نفسك من الآن معيّنًا لمنصب في الخارج .

كنت أتردد خلال سنتين كاملتين الى دائرة هذا الرئيس الديبلوماسية الكيّنس ، وهو في كل مرة أكثر كرما وترحيبا . ما ان يراني أطل من الباب حتى ينادي في فتور على احد من مساعديه ويقول له وهو يقتل شاربيه : اسمع ، لست اليوم مستعدا لاستقبال احد مهما كان ، دعني انسى النثر اليومي ، ان ما هو روعي في هذه الوزارة هي زيارة الشاعر ، ليس الا ، ليت لا يغادرنا ابدا .

كان يكلمني في صراحة وصدق ، انا متأكد من هذا . من بعد يأتي الفصل التالي ، يحدثني عن الكلاب الاصيلة «من لا يحب الكلاب ، لا يحب الاطفال» . ثم يستعرض الروايات الانجليزية ، ثم يعرج على علم طبائع الانسان ثم يحلّق الى الروحانيات لينتهي متحدثا عن مسائل تتعلق بعلم الانساب وبخاصة أشعة الاشراف . لدى توديعي يعيد على مسمعي هامسا ، كما لو كان الامر سرا بين اثنين لا يجوز البوح به ، ان لا احزن او أقلق وان منصبي في الخارج أكيد . مع اني كنت في عوز واحتاج الى المال لكي أكل على الاقل ، فقد كنت اخرج من عنده راضيا ، استنشق الهواء كأنني وزير او مستشار . وحين كان يسألني اصدقائي «ماذا كنت تعمل هذا اليوم ؟» اجيب بأنني أعدت نفسي للسفر الى اوروبا .

لقد دام هذا الامر الى ان التقيت صدفة بصديقي (بيانتشي Bianchi) . ان آل (بيانتشي) في تشيلي هم فخذ من قبيلة نبيلة . منهم رسامون وموسيقيون مشهورون وقضاة وكتاب ورواد مكتشفون ومتسلقون لجبال «الانديس» Andis ، تنفذ الحكومة لهم ما يشاؤون وتلبي مطالبهم او وساطاتهم في أسرع وقت . سألني صديقي هذا الذي كان سفيرا يعرف الاسرار الوزارية والديبلوماسية :

— ألم يصدر تعيينك حتى الان ؟

— سوف أحصل عليه بين لحظة واخرى ، كما أكد لي ذلك احد حماة الفنون والآداب ممن يعملون في الوزارة .

ابتسم لي ثم قال :

— هيا بنا الى الوزارة .

نأبطني من ذراعي الى ان وصلنا الوزارة فصعدنا الدرجات الممرية ، فكان يخلي لنا الدرب الصاعد فراشون ومستخدمون ونازلون وطاقون . لقد كنت مندهشا جدا الى درجة اني ما استطعت ان انطق ببنت شفة حين استقبلنا وزير الخارجية فهذه هي اول مرة التقى فيها بوزير للخارجية ، كان قصير القامة جدا ولكي يخفي قصره ، جلس على مقعد عال وراء مكتبه . شرح له صديقي الامر وكلمه عن رغباتي الشديدة بالخروج من تنسلي ، فوضع الوزير ابهامه على زر من أزرار أجراسه الكثيرة واذ بحارس الادب وحامي حماي الروحي وشفيعي يطلّ بطلعته البهية فجأة مما ضاعف من بلبتي وزاد في ارتباكي .

— ما هي المناصب الخالية في دائرتكم ؟ قال له الوزير .

لم يكن ليستطيع هذا الموظف الموبخ ان يكلم الآن عن (تسايكو - سكي) ، بل اقتصر على تعداد أسماء مدن مبشرة في العالم ، ما التقطت منها سوى اسم واحد لا غير بدا لي اني كنت قد سمعت به او قرأته من قبل . . . « رانغون » .

— الى ابن تريد الذهاب يا (بابلو) ؟ قال لي الوزير .

— الى رانغون — اجبت بلا تردد .

— أصدر تعيينه حالا — أمر الوزير ظهيري وشفيعي الذي جرى . عاد بقرار التسمية .

كان هناك في القاعة الوزارية كرة للكرة الارضية . صديقي (بيانتشي) وأنا اخذنا نبحت فيها عن مدينة «رانغون» المجهولة . كان للخارطة الكروية العتيقة جدا انبعاث عميق كأنه جُحر ، بناحية من آسيا وفي هذا النحيف اكتشفناها .

. رانغون . ها هي هنا رانغون .

لكن حين التقيت من بعد بأصدقائي الشعراء ، وأرادوا الاحتفال
بتعييني ، حصل انه نسيت كليا اسم المدينة ، ما استطعت الا ان اقول
لهم بأنني عيّنت قنصلا في الشرق الخرافي وان المكان الذي عينت فيه
يوجد في جحر من الخارطة .

« مونتبARNASSE » (Montparnasse)

انطلقنا ذات يوم من ايام حزيران لعام ١٩٢٧ نحو المناطق القصية
البعيدة . استبدلنا ببطاقتي من الدرجة الاولى اثنتين من الدرجة الثالثة
وأقلعنا في سفينة « ال بادين » Baden . كانت باخرة المانية ، قيل
بأنها وحيدة في نوعها ، لكن كان يجب ان يقال بدلا من هذه «وحيدة» ،
خامسة او سادسة الخ . كانت الوجبات في هذه الباخرة تقوم على
مرحلتين متتابعتين ان انتهى من الاولى شرع بالثانية : واحدة منهما
سريعة الى المقربين البرتغاليين والجليقيين (١٨) ، والاخرى الى المسافرين
الآخرين على اختلاف اجناسهم وبخاصة الالمان الذين كانوا
يعودون من عملهم في المناجم او المعامل بأمریکا اللاتينية . صاحبني
(البارو Alvaro) صنف المسافرين حالا . كان مغازلا فعلا ، فقد
قسمهن الى مجموعتين، اللواتي يهاجمن الرجل ، واللائي يخضعن للسطو .
لم تكن هذه الصيغ في التصنيف والتقسيم دقيقة دائما . كان يستعمل
انواع الحيل جميعها ليوقع الفتيات في حباله ويصيدهن في شباكه . حين
كان يطل عند جسر الباخرة مشى من المسافرين المهمات ، يأخذ يدي
بسرعة ويتظاهر بأنه يفسر لي معاني خطوط كف يدي ، بإشارات غريبة .
حين ترجع المتنزهتان من جولتهما الاولى ، تتوقفان فترجوانه ان يقرأ لهما
البخت . فورا يأخذ يد هذه او تلك فيداعبها ويدغدغها اكثر مما يجب وكان

١٨ - الجليقيون (Gallegos) : هم سكان منطقة «غاليسيا» Galicia

او «جليقيا» كما كان يدعواها العرب ، وهي المنطقة الشمالية الغربية من اسبانيا .

يوقع لهما المستقبل السعيد ألا وهو زيارة غرفتنا في السفينة .

بالنسبة لي تحولت رحلتي الى شيء آخر فلم اعد انظر الى المسافرين الذين كانوا دائما يحتجون صارخين على وجبة الطعام الخالدة من « كارنوفيل » (١٩) لسم اعد اتأمل فسي الكون او في المحيط الاطلسي الرتيب ، فقد فرصت نظري على التمتع في عينين سوداوين واسعتين لفتاة برازيلية، برازيلية في كل شيء، برازيلية الى حد ما لا حد له، منذ ان صعدت الى الباخرة بصحبة ابويها واخويها في ميناء ريو دي جينيرو".

ان مدينة «ليشبونة» البهجة الفرحة في تلكم الاعوام بصيادبها الذين يملأون أرصفة مينائها وشوارعها ، ومن غير ان يكون بعد في الممرش (سالازار) (٢٠) ، أدهشني وفتنتني ، الأكل في الفندق الصغير كان لذيذا، صوان كبيرة من الفواكه كانت تتوَج المائدة . الدور الكثيره الالوان، القصور القديمة ذات الاقواس فوق الابواب ، الكنائس الهائلة المخيفة كأنها بقبابها قشور بيض الرخ والتي كان الله قد غادرها منذ قرون ليعيش في أماكن أخرى ، دور الميسر داخل القصور العنيقة ، الجمهور المتطفل بشكل طفولي في السوارع الطويلة ، (الدوقة براغانشا) (٢١) ، وقد فقدت عقلها ، تمضي عبر شارع مرصوف بالاحجار ، في وقار وجلال ، وهي تنبع بمائة من النبان الصعاليك الداهلين ، هكذا كان دخولي الى اوروبا .

ومن بعد ، مدريد بمقاهيها المكتظة بالناس ، في تلك الايام كان (بريمو دي ريبيرا) (٢٢) الدمث يلقي الدرس الاول فسي الديكتاتورية

١٩ - كارتوفيل : هو نوع من الاكل الالاني .

٢٠ - سالازار (Antonio de Olivera) : الديكتاتور البرتغالي المعروف

(١٨٨٩ - ١٩٧٠) .

٢١ - الدوقة براغانشا : من الاسره الملكيه البرتغاليه التي اقصيت عن الملكيه والحكم .

٢٢ - بريمو دي ريبيرا (Miguel) : كان جنرالا في الجيش ثم حكم اسبانيا حكما

ديكتاتوريا (١٨٧٠ - ١٩٣٠) .

على بلد سيتلقى من بعد الدرس الاكمل . ان قصائدي الاولى
في ديواني «مقام في الارض» قد تأخر الاسبان في فهمها ، وهم ما فهموها
واستوعبوها الا حين نشأ جيل (البرتي) (٢٣) و(لوركا) و(اليكساندره)
و(ديغو) . واسبانيا كانت بالنسبة لي كذلك القطار اللامنتهي والعربة من
الدرجة الثالثة ، اكثر العربات قساوة ورداءة في العالم ، التي اقلتني الى
باريس .

لقد اختفينا ؛ انا وصاحبي ، بين جمهرة مقهى «مونتبارناس»
الدخانية ، بين ارجنتينيين وبرازيليين وتشيليين . اما الفانزويليون فلم
يكونوا قد حلموا بعد بأن يبينوا ويظهروا ، فقد كانوا مقبورين اذآك تحت
نير حكم (غومث Comez) (٢٤) . وهناك في زاوية من زوايا المقهى جلس
اوائل الهنود الحمر من الدين اتوا الى باريس بملابسهم السابغة . وقربي
على طاولة مجاورة جارتي تتناول في تودة قهوة بالحليب وحول عنقها التفتت
افعى . كانت جاليتنا الامريكية الجنوبية تشرب «كونياك» ، ترقص
«التانغو» وهي تنتظر سانحة كي تبدأ بمشاجرة كبيرة والتعارك مع اكثر
الناس هناك .

لقد كانت باريس وفرنسا وأوروبا بالنسبة اليـنا نحن القرويين
البوهيميين القادمين من امريكا الجنوبية لا تعدو ان تكون مثني متر ليس
الا ، وزاويتين : «مونتبارناس» ، وال «روتوند» وال «روم» وال «كوبول» ،
وثلاثة مقاه او اربعة اخرى ليس اكثر . لقد اصبحت عادة عند الامريكيين
الجنوبيين وبخاصة الارجنتينيين منهم الذين كانوا اكثر عددا واكثر عريضة
واكثر غنى ، مسامرة الملاهي المليئة بالسود . في كل لحظة كانوا يشيرون
الشغب في هذا المقهى او ذاك ويشاهد دائما منظر احد الارجنتينيين وهو

٢٣ - البرتي : لقد ترجمنا له ومنه وكذلك لشعراء جيله المعروف بجيل عام ٢٧ في
كتابنا المذكور «مختارات من الشعر الاسباني المعاصر» ، وهو شاعر ولد في قرية من قرى
«قاديش» عام ١٩٠٢ ويعيش منذ نهاية الحرب الاهلية الاسبانية في ايطاليا ، وله كذلك
مسرحيات رائعة . لقد عاد الى اسبانيا في عام ١٩٧٧ .

٢٤ - غومث (Juan Vicente) : ديكتاتور فينزويلي (١٨٥٧ - ١٩٣٥) .

بحمل بين اربعة من النوادل وبمر بين الطاولات بلا توقف لبوضع على ناصية السارح في صخب واحتجاج اذ لم تكن نعجب ابناء عمنا ابناء «بونوس ايرس» ، هذه التصرفات العنيفة - علما بانهم كانوا هم الذين يبدؤون بها - التي تعسد لهم سراويلهم الانيفة . وما هو اكثر حظورة انها كانت تخربط تسريحات شعرهم ، فلقد كانت الاناقة والليافة جزءاً اساسيا فى الثقافة الارجنتينية تلك الفترة من الزمن .

ان الحقيقة هي انني ، في هذه الايام الاولى لي بباريس النى كانت تطير ساعانها دون ان أدري ، لم أتعرف على اي فرنسي ولا على اي اوروبي ولا على اي آسيوي بله على اي مواطن من افرقيا او من المحيط الهادي . كان الامريكيون الناطعون باللغة الاسبانية جميعا ، من المكسيكيين حنى البانتاغونيين ، يقضون اوقاتهم في مجالس للنكيت والتبكيث يضحمون العيوب ، يصفتر بعضهم بعضا ويحفره ، دون ان يستطيعوا ان يعيشوا مفترقين لحظة واحدة فقد كان رجل من غواتيمالا ، منلا ، يفضل لفضاء الوف في شكل لزيد ، مصاحبه صعلوك من باراغواي على مصاحبة (باسنور) (٢٥) .

في هذه الايام تعرفت على (ثيسار بايجو) (٢٦) ، الذي هو «تشولو» (٢٧) عظيم وشاعر شعر متفضن صعب اللمس خشن المجس كانه جلد الغابة ، لكنه شعر عظيم جدا ذو ابعاد انسانية .

لقد وقعت لي معه حادثة حين قدموني اليه في مقهى ال «روتوند» ففد قال لي وهو يصافحنى فى لهجته البيروية المهذبة :

— انت اعظم شعرائنا كلهم ، لا يقارن بك الا (روبين داريو) (٢٨) .

-
- ٢٥ — باسور Louis : كيميائي فرنسي (١٨٢٢ - ١٨٩٥) .
٢٦ — ثيسار بايجو : شاعر من البيرو (١٨٩٣ - ١٩٢٨) .
٢٧ — تشولو Cholo : هو الهجين المختلط الدماء من دماء الهنود الحمر ومن دماء الاوروبيين .
٢٨ — روبين داريو : شاعر مشهور جدا من «نيكراغوا» (١٨٦٧ - ١٩١٦) .

— يا (بايخو) — قلت له — اذا اردت ان تكون اصدقاء دائما فأرجوك
الا تعود فتقول لي شيئا من هذا القبيل ، فلست أدري ان بدأنا علاقتنا على
هذا النحو من المدح والمجاملة وعلى هذا الشكل في التخاطب بأننا أديبان
كبيران ، اين سنقف فيما بعد وإلى اين سنصل .

بدا لي ان كلماني هذه قد أزعجته جدا . تربيتي المعادية للأدب كانت
تجعلني أصير سيء الادب ، بينما هو ، على العكس من ذلك ، ينتمي الى
جنس أكثر عراقة من جنسي ذي مجد وكياسة ولباقة . لقد شعرت حين
لاحظت انه تضايق من كلامي ، كأني ريفي جلف فظ .

لكن ذلك مر كسحابة صيف ومنذ تلك اللحظة غدونا صديقين
حميمين . بعد عدة سنوات ، حين عرجت على باريس مرة أخرى لقضاء
بعض من وقت ، كنا نتقابل يوميا . حينذاك عرفت في عالمه الداتي وأحبته
أكثر فأكثر .

كان (بايخو) أقصر قامة مني، أكثر عظاما، كان كذلك أكثر «مهندا» (٢٩)
مني بعينه الغامقتين وبجبهته الشامخة المعقودة قناطر وقيابا وبميسمه
ال «اينكي» (٣٠) الجميل الحزين في شيء من الجلالة والمهابة . كان مزهوا
معجبا متباهيا بجميع الشعراء قاطبة فلقد كان يسره ويرضيه ان يطنب
الناس في الحديث عن سجايه البدوية وملامحه الهندية ، كان يشمخ
برأسه كي الحظ في وجهه هذه المزايا فأكبرها وأطريها ويقول لي :

— أفليس حقا ان في وجهي لنضارة البدوي ؟ . ثم يضحك من نفسه
في ابتسامة صامتة .

ان افتخاره لمختلف جدا عن فخر (بيشينته هويدوبرو) ، هذا الفخر

٢٩ — مهند : لم نجد أصلح من هذه الكلمة لترجمة ما معناه انه كان أكثر هنديا اخمر .

٣٠ — ال «اينكي» : نسبة الى (inca) وهو ملك او امير او نبيل في قبائل «البيرو»

القديمة .

الذي كان يبدبه أحياء كثيرة هذا الشاعر المتقاطر و(بايخو) فسي أشياء كثيرة ، فلقد كان (هويدوبرو) يترك على جبينه عقيدة من الشعر تتدلى ويحصر أصابعه في صدرينه وينثر رأسا وصدره نم يتساءل :

— أفما تلحظون شبيهي من (نابليون بونابرت) ؟

— بلى ، كانوا يجيبونه مسنهنئين أحيانا .

كان (بايخو) متجهما عبوسا كئيبا ، بيد أن ذلك لم يكن إلا في المظهر فكانه رجل يفف في شبه ظل نصفه نور ونصفه الآخر عتمة ، خلال روح طويل من الزمن ، فلا النور يبلغ الظلام ولا الظلام يبلغ النور وكل في مكانه لا يبرحه . كان في طبعه جليلا وقورا ، ووجهه كأنه قناع صلب لا يرق ولا يلين ، رصين يحسبه الناس تكلفا وما هو بذلك . لقد رأينه عدة مرات (وبخاصة حين كنا نفدر على اجتثاته من سيطرة زوجته ، كانت امرأة فرنسية طاغية مدعية وهي ابنة بواب) . لقد شاهدته حين يخرج معنا ، وهو يقفز قفزات النلامدة فرحا وغبطة ، ثم يعود إلى وقاره وجلاله إلى خضوعه وانقياده .

على حين غرة طلع من ظلال باريس نصير الاب هذا الذي كنا ننتظره ولا يأتي أبدا ، نصيرا يأوينا ويعطينا . كان حاميا الأدب هذا كاتب تشيليا ، صديقا لـ (رافائيل البرتي) وللفرنسيين ولنصف العالم . وكذلك كان ، وهذه ميزة أكثر أهمية من غيرها ، ابن صاحب أكبر شركة تشيلية للسفريات البحرية . وكان شهيرا بتبديره وإطلاق يده .

كان ذلك المسيح الحديث السقوط من السماء يريد أن يحتفل بسي ويكرمنا فقادنا جميعا إلى ملهى للروس البيض يدعى «الحانة القفقاسية» ، كانت جدران هذه الحانة مزينة بأزياء ومناظر من جبال القفقاس ، ما أن جلسنا حتى أحاط بنا عدد كبير من الروسيات أو المدعيات بأنهن روسيات ، متزينات كما تتزين فلاحات تلك الجبال .

ان (كوندون) ، هذا هو اسم مضيفنا راعي الفنون ، يبدو وكأنه آخر روسي من عصر الانحطاط ، هشا أشقر ، كان يطلب بلا هوادة أو انقطاع

زجاجة «شمبانيا» اثر زجاجة ، يقفز قفزات جنونية ، مقلدا رقصات القوزاق» (٣١) التي ما رآها او رآهم قط .

-- «شمبانيا ، شمبانيا» ، ثم خرّ ساقطا مضيفنا المليونير الشاحب الوجه البدن . ظل مخزونا تحت الطاولة ، نائما نوما سباتا كأنه جثة هامد . بمفقاسي أهلكه الدب الأبيض .

.. يت بنا رعدة تلجية وهزة جليدية ، لا الرجل يستفيق فيدفع - لقد حاولنا بعثه بأضمة من ثلج بزجاجات من نشادر مفتوحة موضوعة قيد انفه - ولا نحن نملك ان ندفع . الراقصات ما عدا واحدة منهن ، هجرنا وقد رأينا في حيرة وتشتت . بحثنا في جيوب مضيفنا فما عثرنا الا على دفتر «شيكات» مزخرف ، ما كان صاحبنا في شروطه الجشية تلك بقادر على النوقيع .

لقد ألح صاحب الحانة القفقاسي الاعظم على ان يكون الدفع عدّا ونقدّا وحالا ، فأغلق باب الخروج تحسبا كيلا نولي الأدبار ، فما استطعنا ان ننجو من السجن الا بترك جواز سفري الدبلوماسي الجديد القشيب هنالك حبيسا لدبه مرهونا بدلا منا .

خرجنا وقد حملنا مضيفنا المليونير المنهك فكلفنا جهدا كبيرا نقله الى سيارة «تاكسي» ، تكفيتها فيها ، انزاله منها عند باب فندق فاخر فتركناه بين أذرع بوابين ضخمين لابسين ازياء حمراء فحملاه كما لو انهما يرفعان امير بحر (٣٢) سقط على جسر سفينته .

كانت تنتظرنا في سيارة «التاكسي» فتاة الحانة ، الفتاة الوحيدة التي ما هجرتنا في وقت الضيق والتعاسة . دعوناها ، انا و(البارو) ، الى مطعم «ليس هاليس» Les Halles لتتذوق حساء البصل عند الفجر ،

٣١ - القوزاق (Cosacos) : هم سكان بعض مناطق روسيا ، وكذلك هم المسافر الخيالة في روسيا القيصرية .

٣٢ - امير بحر : او امير البحر ، هكذا في الاصل Almirante . عن العربية

اشترينا لها ورودا من السوق وقبلناها قبلات شكر وامتنان على سلوكها السامري فشعرنا ان لها جاذبية ما . لم تكن لا بالجميلة ولا بالقبيحة ، بل ان انفها الباريسية المتجمدة المتفضضة كانت تمنحها شيئا من الاعتبار . آنذاك دعوناها الى فندقنا البائس التعس ، لم يكن هناك من جانبها اي مانع او تعقيد في الذهاب معنا .

دخلت مع (البارو) الى غرفته ، وأنا هويت في فراشي مستسلما للنوم ، لكن ما ان غفوت قليلا حتى احساست ان احدا يهزني ، يخضني ، كان (البارو) ، وجهه بدا لي غريبا كوجه مجنون وديع .

— هناك شيء يجري — قال لي — ان لهذه المرأة شيئا متميزا غريبا غير مألوف ، شيئا ما انا بقادر على ان اشرحه لك ، عليك ان تجربها بنفسك الآن حالا .

بعد دقائق معدودات جاءت هذه المرأة فحشرت نفسها بلطافة وهي كأنها حالة ساهمة ، في فراشي . حين ضاجعتها خبرت فيها هذه الميزة الغريبة ، هذه الهبة السحرية ، كان شيئا لا يوصف ، شيئا ينبع من اعماقها يتفجر ، ثم يرجع ادراجه الى اصل الشهوة ، نبع اللذة ، مولد الموجة ، الى سر «فينوس» الخصب ، ثم يعود يقذف ثم ينخطف . ان (البارو) لعلى حق وفي يقين .

في اليوم التالي ، اثناء الفطور ، حذرني (البارو) قائلا باللغة الاسبانية:

— ان لم ندع هذه المرأة الآن ، فان سفرنا سيبوء بالفشل والاحباط اذ اننا ، يا عزيزي ، لن نركب البحر بل سر الجنس المقدس ولغز هذه المرأة الذي لا يسبر .

قرنا ان نفعمها هدايا : ورودا ، شوكولاتا ، نصف ما تبقى معنا من «فرنكات» . اعترفت لنا بأنها ما كانت تعمل في ذلك الملهى القفقاسي ، بل انها زارته لأول مرة تلك الليلة . ثم من بعد اخذنا لها سيارة تاكسي وركبنا معها . كان سائق التاكسي يجتاز حيا مجهولا ، حين امرناه بالتوقف

فودعناها وتودعنا منها بقبل كثيرة كبيرة ، تركناها هناك ، تائهة لكن مبتسمة .

ابدا لم نرها من بعد ، قط .

سفر الى الشرق

كذلك لن أنسى الفطار الذي أقلنا الى مرسيليا ، محملا مثل سلة فواكه غريبة ، بأناس شتى ، بفلاحين وبحارة ، بآلات «أكوردبون» وأغان كانت تتساق وتجاوب في عربات القطار كلها . كنا نمضي نحو البحر الابيض المتوسط ، نحو أبواب النور عام ١٩٢٧ . لقد سحرتني مرسيليا برومنطيكيتها التجارية وميناء «بيوكس» ، المجنح بأشرعنه الفوارة في كدرها القائم . لكننا الباخرة التي كانت تابعة الى شركة «ميساجريس» البحرية والتي قطعنا تذكرتين للركوب بها حتى «سينغابور» ، كانت قطعة من فرنسا في البحر ، ببرجوازياتها الصغيرة التي كانت تهاجر لتسفل مناصبها في المستعمرات النائية . حين لاحظ بحارة السفينة ان لدينا آلة كاتبه وأنه يبدو علينا من كتبنا وأوراقنا اننا من الكتاب ، وذلك خلال الرحلة ، طلبوا منا ان نكتب لهم على الآلة الكاتبة رسائلهم . كنا نكتب ما يملونه علينا من رسائل غرامية بحارية غريبة عجيبة ، الى خطيباتهم في مرسيليا ، في «بوردو» في الريف . ما كان يهمهم كثيرا ان نحسن الاسلوب ونديجّ الجمل الجملة ، بل ان ما كان يهمهم هي الآلة الكاتبة ، لكن ما كان يقولونه في هذه الرسائل كان يشبه قصائد (تريستان كوربيير) ، رسائل كلها فظاظة وطرادة معا . راح البحر الابيض المتوسط ينفتح امام قيدوم سفينتنا بموانئه ، بسجاجيده ، ببضائعه ، بأسواقه . في البحر الاحمر أدهشني ميناء «جيبوتي» Djibuti ، الرمال المحترقة المخددة من كثرة ذهاب (ارنور رامبو Arthur Rimbaud (٣٣)، تلك الفتيات السوداوات كأنهن نحف بسلالهن الملتئة بالفاكهة ، تلك الاكواخ البائسة لاولئك السكان

البدايين ، وهواء غير متناسب ونسيم تلك الانحاء في مقاه منارة بضوء شاقولي ذي أطياف هناك كانوا يتناولون الشاي المبرد بالليمون .

ان المهم هو رؤية ما يجري في «شانغهاي» ، ليلا . ان المدن ذات السمعة السيئة والصيت «الحسن» تجذب المرء اليها كمثمل نساء سامئات . كانت «شانغهاي» تفتح شذقتها الليلي لتبتلعنا نحن الاثنين . فنحن اثنان من ريفي العالم ، مسافران من الدرجة الثالثة ، ليس لهما الا قليل من المال وكثير من الفضولية الحزينة .

دخلنا الى هذا الملهى وذاك ، الى القريب والبعيد . كانت ليلة في منتصف الاسبوع ، لذلك فان الملاهي كانت خاوية . لقد كان محزنا ومحبطا ان ترى تلك المدارج ؛ مدارج الرقص الهائلة ، كانما بنيت لكي يرقص فوقها مئات الفيلة ، وهي خاوية على مدارجها ، لا يرقص فيها احد . في الزوايا الكثيبة كانت تطلع منها فجأة روسيات ضامرات من عهد القيصر يتشاءبن وهنّ يطلبن منا ان ندعوهن على زجاجة «شمبانيا» . هكذا تجولنا في ستة او سبعة من محلات اضاءة الوقت حيث لم يكن يضيع منا الا وقتنا .

كان الوقت متاخرا كي نعود على ارجلنا الى الباخرة التي خلفناها بعيدة جدا، خلف أزقة الميناء المتصالبة فلذلك استأجرنا لكل واحد منا «ريكتشا» . لم تكن متعودين على هذا النوع من النقلات بأحصنة بشرية . لقد كان صينيو عام ١٩٢٨ يخبّون وهم يجرون العربّة بلا هواده ولا راحة عبر مسافات طويلة بعيدة .

«با للصينيين من عرق جدّ ناعم وجدّ ماهر ، ليس عبثا ان لهذا الجنس الفي عام من الحضارة» كنا نفكر في هذا : (البارو) وأنا ، كل في . مقعده المتدرّج الجاري .

غير ان شيئا بدأ يوسوس في صدري ويقلقني . لم اكن ارى شيئا ، وأنا سجين تحت حصار اتخذت فيه كافة الاحتياطات كيلا ارى شيئا ، لكن ، بلى ، كنت اسمع على الرغم من القماش المشمع ، صوت حصاني وهو يهمهم ويدمدم وصوت حوافره وهي تخبّ وتدبّ . على نغم حوافره

أضبفت من بعد أصوات أخرى متنافمة لأقدام حافية كانت تخب عبر
الاسفلت البليل . أخيرا همدت الأصوات والضجّات ، علامة بأن الاسفلت
قد انتهى . لقد أصبح مؤكدا أننا نسير فوق أراضي حقول بور ، خارج
المدينة .

توقفت فجأة ، عربتي . فك الحوزي في مهارة القماش الذي كان
يحميني من المطر . لم يكن ثمة أي ظل لاية باخرة في تلك الضاحية غير
الآهلة . والعربة الأخرى كانت واقفة أزائي ، ثم نزل منها (البارو) تأهها
مخبولا .

— «موني ، موني» Money Money (الفلوس، الفلوس) كانوا يرددون
بالانجليزية في صوت هاديء ، ونظرنا واذ بهم سبعة أو ثمانية يحيطون بنا .

أبدى صديقي حركة بيده وكأنه يبحث عن سلاحه في جيب السروال
فكان هذا كافيا لكي يضربونا كلينا بضربة في القفا لكل منا . أنا هويت نحو
الخلف ، لكن الصينيين في خفة وسرعة تلقفوا رأسي وهو في الهواء كي
يحيلوا بينه والصدمة العنيفة على الأرض وفي رقة ونعومة فرشوني على
الأرض البليلة مستلقيا . قلبوا جيوبي ، بحثوا في قميصي ، خلعوا عني
قبّعتي ، نزعوا مني حذائي ، سلخوا مني جرابي ، فكوا عن عنقي ربّطتي ،
في سرعة عجيبة وفي حذاقة بالغة كما البهلوان . لم يدعسوا سانتيمترا
واحدا من الملابس الا حركوه وقلبوه ولا «سانتيما» واحدا مما كان معنا
وهو قليل وحيد ، الا وأخذوه وسرقوه . لكن لصوص شانغهاي بما لهم من
لباقة تقليدية وعفة نفس أبية احترمو لنا في حرص وقداسة ، أوراقنا ،
وجوازي سفرنا .

بعد أن مضوا وبقينا وحدنا ، تحركنا باتجاه الأنوار التي كانت تثرى
من على بعد ، فوجدنا مئات من الصينيين الليليين لكنهم شرفاء محترمون .
لم يكن بينهم من يعرف الفرنسية او الانجليزية او الاسبانية ، غير أنهم
أبدوا استعدادهم لمساعدتنا في الخروج من ورطتنا وانقطاعنا عن الباخرة
فأرشدونا الى أن وصلنا الى غرفتنا من الدرجة الثالثة ، غرفة فردوسية
تنفسنا فيها واسترحنا .

وصلنا الى اليابان . لا بد ان المال الذي كنا ننتظر ان يصل من تشيلي، قد وصل الى القنصلية . اضطررنا ان نأوي تلك الليلة الى ملجأ بحارة في «يوكوهاما» . فقضينا فيه عدة ايام ، كنا ننام فوق نضائده من الحلفاء ، انكسر زجاج النافذة ، أثلجب السماء ، كان البرد يلدغ ويلدغ حتى روحنا ، وما من احد يهتم بنا او يرثي لحالنا . ذات سحر انشقت سفينة بترول الى قسمين امام الساحل الياباني فامتلا الملجأ بالناجين من الفرق . من بينهم بحار بشكانسي لم يكن يعرف من اللغات الا لغته واللغة الاسبانية فحكى لنا مغامرته : خلال اربعة ايام بلياليها بقي عائما على قطعة من الباخرة ، وهو محاط بأمواج النفط الملتهبة . هؤلاء الناجون من الفرق كانوا يتلقسون مساعدات ومؤنا ، وكان هذا الشاب البسكوي الكريم يعطينا من كل شيء وكأنه حامينا وراعينا .

نقيضه كان القنصل العام لتشيلى - يبدو لي انه يدعى (دي لا مارينا) او (دي لا ريبيرا) - استقبلنا من مقامه العالي الرفيع وهو يحاول ان يشعرنا بضآلتنا ، بضآلة من نجا من الفرق ويطلب العون والمساعدة . فهو وقته قصير جدا ، وهذه الليلة سيتعشى مع «الكونديسه» (يوفسو سان) ، الحاشية الامبراطورية ، دعتة لتناول الشاي في القصر ، هو عاكف على دراسة عميقة عن السلالة الملكية .

— يا له من انسان رقيق جدا جلالة الامبراطور ، الخ .

كلا ، ليس عنده هاتف ، فما هي حاجة الهاتف في «يوكوهاما» بالنسبة له ؟ ان كلموه فانهم سيكلمونه باللغة اليابانية اما بالنسبة لآخبار أموالنا ، فان مدير المصرف ، وهو صديق حميم له ، لم يكن قد تفضل فأخبره بشيء حول هذا الامر . انه لياسف ان يودعنا ، اذ انهم ينتظرونه في حفلة استقبال ، الى الغد ، ان شاء الله ، الى الغد .

وهكذا كل يوم ، كنا نغادر القنصلية ونحن نرتعد من البرد لان ملابسنا كانت قد تضاءلت نظرا للسطو والهجوم الذي شن علينا ، لم نكن نلبس الا ما يعطى لنا من ملابس الناجين من الفرقى . علمنا فى آخر لحظة ان اُرصدتنا قد وصلت الى «يوكوهاما» قبل ان نصل نحن اليها . وكان

المصرف قد أرسل ثلاث رسائل يخبر فيها السيد القنصل بوصول المبلغ، لكن تلك الدمية ذات القلائد أعني ذلك الموظف العالي السامي جدا لم يكن قد درى بهذا الشيء الضئيل الذي هو أقل كثيرا من أن يصل إلى عالي مقامه ورفيع شأنه . (حين أقرأ في الصحف أن قنصلا أو آخر قد أعتيل من قبل أحد مواطنيه الغاضبين ، أفكر بحنين في ذاك المقلد المبجل) . تلك الليلة ذهبنا إلى أحسن مقهى في طوكيو وهو مقهى الـ «كورونكو» Koroncko بـ «غينزا» Ghinza . لقد كان يؤكل جيدا في تلكم الاوقات بطوكيو، بفضل اسبوع الجوع الذي كان يملا الاطعمة توابل . شربنا بمصاحبة فتيات يابانيات لذيذات ، عدة مرات ، نخب المسافرين التعساء كلهم ، نخب أولئك المسافرين الذي لا يعتني بهم القناصل الفاسدون التافهون الموزعون في انحاء العالم .

اتها «سينغابور» . كنا نظن انفسنا قرب «رانغون» . يا له من فشل مرير ! ان ما كان في الخارطة وهو لا يعدو ان يكون بضعة ميليمترات قد استحال إلى هاوية مرعبة . ما زالت تنتظرنا عدة ايام على ظهر الباخرة ، ولكن اية باخرة ! فالباخرة الوحيدة التي تقوم عادة برحلة بين المدينتين كانت قد أقلعت في اليوم السابق إلى «رانغون» . لم يكن معنا ما ندفع به اجرة الفندق ولا ثمن التذكريتين . فأرصدتنا الجديدة تنتظرنا فسي «رانغون» .

لقد وجدتها ! . فلأمر ما ثمة هنا في «سينغابور» قنصل تشيلي ، انه زميلي ، السيد (مانسيًا) . اتصلنا به فخفت سريعا إلى فندقنا ، لكن ابتسامته اخذت تتلاشى شيئا فشيئا ، تخفت إلى أن اختفت كلياً لتترك مكانها تكشيرة غضب وانزعاج .

— لا أستطيع مساعدتكما في شيء ، اتصلا بوزارة الخارجية فسي تشيلي .

حرّضت فيه النخوة وتضامن القناصل الاخوي . عبثا ، فلقد كان للرجل وجه كوجه سجنان لا يرحم ولا يشفق ، اخذ قبّعتنه وخرج مهرولا، وما كاد أن يختفي حتى خطرت لي فكرة رائعة :

— يا سيد (مانسيًا) ، اني لأجد نفسي مضطرا أن أقوم بالقاء عدة محاضرات عن بلدنا على أن يدفعوا لي مقابلها مبالغ مسبقة ، وبهذا أستطيع أن أجمع ما يكفي لشراء البطاقتين والمصاريف الأخرى ، فلهذا اني أرجوك أن تؤمن لي المكان والمترجم والأذن اللازم .

أصبح الرجل عند ذلك شاحب الوجه مضطربا . ثم أردف قائلا :

— ماذا ، أمحاضرة عن تشيلي في «سينغابور» ؟ لا أسمح بهذا ، هذه هي منطقة اختصاصي ومجال نشاطي ، ما من أحد يستطيع الكلام عن تشيلي هنا سواي .

— هدئي من روعك ، يا سيد (مانسيًا) — أجبتة . كلما كان عدد المحاضرين عن وطننا النائي أكثر ، كان أفضل ، لا أرى بهذا ما يدعوك للغضب .

أخيرا عقدنا صفقة في هذه التجارة الغريبة من التلميح بالتهديد في أنه يعادي الوطنية . جعلنا نوقع له على عشرة وصول ، وهو يرتعد من غضب ، ثم ناولنا النقود التي حين أحصيناها وعددناها وجدنا أن الوصول كانت تتضمن مبلغا أكثر مما دفعه لنا .

(بعد عشرة أيام أرسلت له أنا «شيكا» لايفائه الدين من «رانغون» ، لكن بدون تضمين الفوائد ، طبعا) .

من على ظهر السفينة التي كانت تتهاذى مقتربة من «رانغون» ، رأيت، مطلّ القمع الذهبي الهائل للمعبد الرائع ، معبد «سوي داغون» Swei Dagon . كانت جمهرة من الأزياء الغريبة تتزاحم على رصيف الميناء في حشد من الألوان عنيّف . نهر عريض وسخ يصب هناك في خليج «مارتابان» . أن لهذا النهر اسما هو أجمل اسم نهر من أنهار العالم جميعها «إيراوادهي» .

أزاء مياهه ، على ضفافه بدأت حياتي الجديدة .

(«البارو» Alvaro)

.... انه لعفريت (البارو دي سيلبا) (٢٤) يعيش في
نيويورك ... اتخيله وهو يأكل برتقالة في لحظات غاضبة شائمة ...
يحرق بالكبريت ورق لفائفه من التبغ ، يوجه أسئلة مزعجة مفيضة الى
نصف العالم لقد كان دائما معلما قوضويا ، ذا ذكاء لامع ، ذكاء
يستقصي لكنه لا يؤدي الى أية جهة ، الا الى نيويورك ، كان ذهابه الى هذه
المدينة في عام ١٩٢٥ كان يحيا بين شقائق النعمان التي كانت تفرّ
من بين يديه وهو يعدو مسرعا ليقطفها فيعطئها الى مسافرة مجهولة يريد
مضاجعتها دون ان يعرف لها اسما ولا جهة ولا يدري من اين جاءت والى
اين تمضي وبين قراءاته التي لا تنتهي لـ (جويس Joyce) (٣٥) ، كان
يدلي الى والى آخرين كثيرين ، بأراء يشكّ في مدى صحتها ، وجهات
نظر في كل شيء كأنه مواطن يعيش في كهفه بالمدينة ويخرج من حين الى
آخر ليتمتع بالموسيقى ، بالرسم ، بالكتب ، بالرقص ... دائما ياكل
برتقالا ، يقشر تفاحا ، حمية غداء لا تحتل ، يتدخل في كل شيء ، لقد
رايت فيه مجسما نقيض الريفي الذي طالما حلمت في ان اكونه ، بله نحن
الريفيين جميعا نحلم دائما ان نكونه ، لا يرحل بعناوين ملصقة على
الحقائب ، بل يمضي يدور حول نفسه وفي نفسه مزيج من البلدان
والالحن والحفلات والمقاهي حتى مطلع الفجر ، والجامعات ذات الثلوج على
الاسطحة ... لقد بلغ في أحلامه المفرطة حدا جعل لي العيش مستحيلا ...
انا حيث اصل أحاول أن أحلم حلم النبات في ان يكون له موضع لا يتزعزع
منه ، ان أحدد لي مكانا لا أبرحه ، ان أغرز جذرا كي أفكر ، كي أوجد ...
بينما (البارو) كان يمضي من كهبة الى أخرى ، من فكرة الى اختها ،
مسحورا بالافلام التي يمكن ان نمثل فيها ، لبسنا ذات مرة ملابس جعلتنا
نبدو كمسلمين كي نذهب الى الاستوديوهات فيتعاقدوا معنا للتمثيل ...
ثم توجهنا الى هذه الاستوديوهات (في الطريق حين دخلنا الى حانوت

٢٤ - سيلبا : معناها ، غابة .

٣٥ - جويس (جيمس James) : كاتب ايرلاندي (١٨٨٢ - ١٩٤١) .

لنشتري تبغا ، وانا ارتدي زيا بنغاليا ، وذلك في «كلكتا» ، الناس ظنوا اني من عائلة اطافون) وصلنا الى استوديوهات «دوم-دوم» Dum - Dum وسرعان ما خرجنا منها مطرودين - ما زلت احتفظ بصورة لي في تلك الازياء - ووشيكما خرجنا راكضين من فندق «ي م ك ا» YMCA لاننا ما دفعنا اجرة اقامتنا فيه اما عن الممرضات اللواتي كنّ يعشقنا فحديثهن يطول (البارو) حشر نفسه في اعمال تجارية هائلة ... كان يريد ان يبيع شاي «اسام» Assam اقمشة من «كشمير» ، ساعات ، كنوزا قديمة كل شيء كان يعطي ثماره عما قريب ... كان يترك عينات من الحرير الكشميري ، مساطر من الشاي فوق الطاولات ، فوق الاسرة ... كل ذلك وقد هيا حقيقته للسفر او انه قد اصبح في مكان آخر من العالم ... في ميونيخ ... في نيويورك ...

ان كنت انا قد تعرفت على كتاب مثابريسن ، مثيرين ، متقنين ، خصبين فاني اجزم قائلا بأن (البارو) هو اعظمهم جميعا وافضلهم على الإطلاق ... قلما ينشر ما يكتب ... لا افهم لماذا ... كان في كل صباح ، وهو في السرير ، ونظارته طالعة من حديسة (٣٦) انفه ، «هزتي» ، «هزتي» (٣٧) على الآلة الكاتبة ، مستهلكا مواعين وحزما من انواع الورق كله ، والاوراق جميعها ... لكنه لا يستنفد حركاته ، كهرباءه ، انتقاداته ، برتقالاته ، تحولاته الزوبعية ، كهفه في نيويورك ، باقاته من شقائق النعمان ، غموضه الذي يبدو واضحا ، وضوحه الذي يبدو غامضا ... وما يبدعه ويؤلفه يقبع ولا يخرج قد يكون لانه لا يرغب ... ربما لانه لا يستطيع نشره ... قد يكون لانه جد مشغول ... ربما لانه جد غير مشغول ... بيد انه يعرف كل شيء ، يعلم بكل شيء ، يرى كل شيء عبر القارات بهاتين العينين الزرقاوين الجريئتين ، بهذا اللمس الحاذق الذي يدع رمل الزمن يتسلل بين اصابعه .

٣٦ - حديسة : في الاصل Jorobilla وهو تصغير اسباني للكلمة العربية حديسة.

٣٧ - هزتي : في الاصل Dale que Dale بمعنى اعطيه ، اعطيه ، وهذا يقال للراقصة او الراقص كي يتحمس ويميد ويريد .

الفصل الرابع

الوحدة المضيئة

اطياف من المغاية

لقد غرقت في هذه الذكريات ، عليّ أن استيقظ توتاً . انه لصخب البحر . اكتب الان ، في «ايسلا نيفرا» (١) Isla Nigra على الساحل ، قرب «الباراثيسو» . لقد هدأت زوابع عظيمة كانت تسوط (٢) الشاطئ . ان المحيط — ينظر اليّ بألف عين من زبد أكثر مما انظر اليه انا عبر نافذتي — ما يزال يحقن في تموجه اصرار العاصفة الرهيب .

يا لها من سنين بعيدة نائية ! ان تشييدها من جديد لهو كما لو ان انغام الامواج هذه التي اصغي اليها الآن تتسرب في داخلي مترادفة متتابعة متذبذبة ، أحيانا تتماوج كي تنيمني ، وأحيانا أخرى تلتمع كبريق سيف مباغت . سألتقط هذه الاطياف بلا سرد تاريخي متصل ، مثل هذه الامواج التي تروح وتجيء .

١ — ايسلانيغرا : معناها ، جزيرة سوداء .

٢ — تسوط : هكذا في الاصل ، والفعل مشتق من الكلمة العربية السوط .

عام ١٩٢٩ ، ليلا . ارى جمهرة من الناس وقد اجتمعوا في الشارع . انه احتفال اسلامي . لقد حفروا خندقا كبيرا في الشارع وملؤوه جمرا . اقترب . تلهب وجهي حدة الجمر المكوم ، تحت طبقة خفيفة من الرماد ، فوق شريط قرمزي من نار حية متوهجة . تظهر فجأة شخصية غريبة ، بوجه مصبوغ بالابيض والاحمر ، محمولة على اكتاف اربعة رجال يلبسون كذلك ثيابا حمراء . ينزلونه ، يبدأ يمشي متمايلا عبر الجمر او فوقه ، ويصيح بينما هو يمضي سائرا :

— الله ، الله (٣) .

كان الحشد الهائل من الناس يبلع هذا المنظر مذهولا مندهشا . لقد عبر الساحر سليما هذا الشريط الطويل من الجمر . حينذاك ينطلق رجل من بين صفوف الحشد ، يخلع خفيته ويقوم حافي القدمين بالمسير على الجمر . ثم ينطلق متطوع آخر فاخر وهكذا دواليك . بعضهم يتوقف في الخندق لكي يراوح فوق النار على صياح «الله ، الله» يؤدي حركات وإشارات فظيعة ، يرفع النظر الى السماء . آخرون يعبرون حاملين أطفالهم في أحضانهم . لا احد منهم يصلي بهذه النار الحامية او لعلمهم يصلون فيصبرون ونحن لا نعرف .

ازاء النهر المقدس يرتفع معبد « كهالي » إلهة الموت عندهم . دخلنا مع مئات الداخلين من الحجّاج الذين اتوا من اقاصي البلاد كي يتبركوا بها ويحصلوا على نعمتها . حفاة عراة ، او بأثياب رثة واسمّال بالية ، خائفين فزعين ، يدخلون فيجبرهم البراهمة على ان يدفعوا مالا في كل خطوة يخطونها مقابل اي شيء يرونه او يتبركون به . كان البراهمة يرفعون مسحا من المسوح السبعة للالهة الكريمة ، وحين يرفعونه ، ترنّ ضربة قارعة كأنها قرعت كي تقوض الكون كله ، وما ان يرى الحجّاج ذلك حتى يخرّوا سجّدا ثم يكبرون وأيديهم مرفوعة كأنهم يحيون معا ، ولكن بكليتهما معا ، ثم يسجدون ويضعون جباههم على الارض ويمضون هكذا

٣ — الله ، الله : هكذا في الاصل (Alà ! Alà !)

الى ان يرفع المسح الثاني فالثالث . . الخ يأخذ الكهنة بتجميع الحجاج في فناء واسع حيث يضحئون التيوس ويقطعون رؤوسها بضربة واحدة تذبحها وتدميها فيقبضون منهم اتاوات جديدة . ثغاء الحيوانات الجريحة لا يسمع اذ تخنقها الضربات الطارقة القارعة ونخفيها . ترش الحيطان الكنسية الوسخة بالدم حتى السقف . وما هذه الإلهة الا صنم ذو وجه غامق اللون وعينين بيضاوين ولسان قرمزي طوله متران ينزل من فمها حتى يبلغ الارض . في أذنيها وفي عنقها علقت أطواق من جماجم وشعارات ترمز للموت . يدفع الحجاج نقودهم الاخيرة قبل ان يدفعوا الى الشارع .

لقد كان الشعراء الذين تحلقوا من حولي لينشدوا لي اغانيهم واشعارهم مختلفين جدا عن أولئك الحجاج المدعنين الخاضعين . فلقد جاء هؤلاء الشعراء ومعهم طنابيرات (٤) ، وهم يرتدون ملابسهم البيضاء السابضة الفضفاضة ، فجلسوا القرفصاء على السندس الأخضر ، كل واحد منهم كان يطلق بحة وصرخة بين بين تكاد لا تبلغ ان تكون صرخة ، فتصعد من شفثيه أغنية نظمها هو بنفسه وأجراها على بحر من بحور الاغاني القديمة الالفية ، غير ان المعنى جديد والمحتوى قد تغير . لم تكن هذه الاغانى اغاني حسية شهوانية لمتعة او لذة ، بل هي اغاني احتجاج على الجوع ، اغان مكتوبة في السجون . ان كثيرا من هؤلاء الشعراء الشبان الذين التقيت بهم في كل مكان على طول الهند وعرضها ، والذين لن انسى نظراتهم الظليلة الكثيبة ، كانوا قد خرجوا من السجن امس او اول امس وربما يعودون اليه غدا او بعد غد . لانهم كانوا يحاولون التمرد على البؤس والثورة على الآلهة . ان هذا هو الزمن الذي قدر لنا ان نعيش فيه ، وهو العصر الذهبي للشعر العالمي . بينما تطارد الاغاني الجديدة والانشيد الجديدة ، فان مليوننا من البشر يفترشون الدروب ليلة بعد ليلة ، ينامون في العراء في ضواحي «بومباي» . ينامون ، يولدون ، يموتون . لا دار ولا خبز ولا دواء . في هذه الشروط القاسية ، تركت انجلترا المتمدنة المتبججة مستعمراتها : مستعمرات امبراطوريتها العظمى . لقد ودعت مواطنيها القدماء دون ان تترك لهم شيئا ؛ لا مدارس ولا مصانع ولا مساكن ، اللهم الا سجوننا وجبالا من زجاجات ويسكي فارغة .

٤ - طنابيرات : في الاصل صيغة تصغير اسبانية وبالعجم للكلمة العربية طنبور .

ان ذكرى انسان الغاب «رانغو» لهي طيف آخر غص طري يأتي خياله مع الامواج . في «ميدان» بسومطرا لمست ، احايين ، باب تلك الحديقة النباتية الخراب . كان هو بنفسه يأتي ليفتح لي الباب فادهش واعجب . كنا نتجول معا وقد اخذني من يدي الى ان نجلس حول طاولة كان هو يضربها بيديه وبرجليه ، عند ذلك يظهر نادل ويأتي لنا بزقّ من خمرة الجمعة (بيرة) ، لا هو بالصغير ولا بالكبير ولكنه كاف لانسان الغاب وللشاعر .

كنا نرى في حديقة الحيوانات ب «سينغابور» الهدهد داخل قفص متألقا وهائجا ، رائع الجمال كأنه طير قد جاء لتوّه من جنة عدن . وهناك كان يتنزه في قفصه نمر ارقط ابيض اسود كان ما يزال يفوح برائحة الغابة ، لقد كان مقطعا غريبا من الليل المنجم ، شريطا مغناطيسيا يهتز بلا هوادة ، بركانا اسود مطاطيا يريد احراق العالم ، محرك قوة نقية تتلوى تملج ، له عينان صفراوان مسددتان كما الخنجر ، تتساءلان بنارهما عما لم يكن يفهمه لا السجن ولا البشر .

وصلنا الى المعبد الغريب معبد لا سيريبينته (ه) La Serpiente في ضواحي مدينة «بينانغ» ، في المنطقة التي كانت تسمى من قبل ، الهند الصينية .

ان هذا المعبد معروف موصوف من قبل رحالة وصحفيين ، لست ادري ، بعد العديد من الحروب والتهديم وبعد عتو الدهر ومضي الزمن وتساقط الامطار ، ان كان ما يزال صامدا حيا . تحت سقف من قرميد ثمة بناء واطيء ومسود ، متآكل بأسنان الامطار المدارية وحشها ، تحفّ به غابة كثيفة من اوراق الموز الكبيرة الحجم ، وله رائحة كرائحة الرطوبة ، شدى كشدى الخبز العفن . لما دخلنا الى المعبد لم نر شيئا في الظلّيل (تصغير ظل) . اريج قوي شديد كرائحة البخور ، وثمة شيء يتحرك . انها لاغنى تتشاءب تسجبد . شيئا فشيئا لمحنا اخرى فاخرى ثم اخرى واذا هي بالمشرات . من بعد عرفنا ان هناك بالمئات وبالالاف ؛ منها

صغيرات ملتفات معقوفات على شمعدانات ، منها غامقات ، منها معدنيات .
منها نحيلات رفيفات ، كلها غافية متخمة . ففي كل الجهات ، فعلا ،
ثمة أطباق رقيقة من الزجاج الفرفوري (بورسيلان) ، بعضها طافح بالحليب
وبعضها مليء بالبيض لم تكن الافاعي تنظر اليها او تلحظنا . مررنا محاذين
لها عبر متاهات ضيقة في المعبد ، ها هي فوق رؤوسنا ، معلقة بالفسن
المعماري المزخرف ، ها هي تنام في المحراب الحجري ، ها هي في المذابح .
وها هي ذي افعى «روسيل» (٦) المهابة ، تبتلع بيضة قرب اثنتي عشرة
حية قاتلة كأنها جوقة من الراقصات اللواتي لهن خواتم تفصح عن سمهن
السريع الفнк . ميزت من بينها حية «فير دي لانس» ، عددا كبيرا من
تنينات البر (ذات القرون) ، حية «ديروسي» ، حية «نويا» ، كانت تملأ
البهو الافاعي الخضراء ، الرمادية ، الزرقاء ، السوداء . كل شيء فسي
سكون . من حين الى حين كان يعبر الظل كاهن برداء زعفراني (٧) . كان
بزيق لون برده يجعله يبدو وكأنه حية اخرى ، تتحرك ، تتشاءب ، تتجبد
بحثا عن بيضة او عن طبق من حليب .

اتيتم بهذه الافاعي الى هنا ؟ كيف تألفت وتعودت ؟ على اسئلتنا كانوا
يجيبون بابتسامة ، قائلين لنا انها اتت وحدها وانها ستذهب وحدها حين
يخطر لها ذلك . ما هو اكيد ان الابواب كانت دائما مفتوحة وليس عليها
مشبكات من حديد او خشب وليس فيها زجاج ولا شيء من هذا القبيل
مما يجبرها على البقاء في المعبد .

خرجت سيارة الركاب من «بينانغ» وكان عليها ان تجتاز ادغال الهند
الصينية وضيعها كي تصل الى «سايفون» . لا احد في هذه السيارة يعرف
لغتي ولا انا اعرف لغة احد منهم . كنا نتوقف في منعطفات الغابة البكر ،
على مدى الطريق الذي لا ينتهي ، فينزل المسافرون ، فلا تحون بملايس
غريبة ، وبكرامة صامتة مطرقة ، وعيون زائغة ، لم يبق الا ثلاثة مسافرين

٦ - روسيل : هذه الاسماء كلها بالفرنسية .

٧ - زعفراني : هكذا في الاصل Azafran . عن العربية

او اربعة في السيارة التي تشق طريقها وهي تصرصر وتهدد كي تنطلق تحت
الليلة الحارة .

شعرت فجأة برعب متدفق طاغ ، اين انا ؟ والى اين امضي ؟ لماذا
اقضي هذه الليلة الطويلة بين اناس لا اعرفهم ؟ كنا نجتاز «لاووس»
و«كامبوديا» . تمعنت في وجوه آخر مرافقي في هذه الرحلة القريبة ،
كانت وجوها صلبة متجهمة . وعيونهم مستيقظة ، ملامحهم وتقاسيم
وجوههم بدت لي مريبة مخيفة ، لا شك في اني بين عصابات قطاعي طرق
أصيلين من هؤلاء الذين تحكي عنهم الحكايات الشرقية .

كانوا يتبادلون نظرات من ذكاء حاد ويلحظونني عرضا وخطفا . في
هذه اللحظة توقفت السيارة في سكون وسط الغابة . لقد اخترت موقعا
لي كي اموت هنا غريبا وحيدا . لا ، لن اسمح لهم ان يأخذوني فيصلبوني
تحت ظل تلك الاشجار التي لم ارها من قبل ، والتي تخفي عني السماء
بظلها الغامق الشاحب . ساموت هنا في هذه السيارة الحانية ، على
مقعدها ، بين سلال الثمار واقفاص الدجاج ، فهذه الدجاجات هي الشيء
الوحيد الاليف في هذه اللحظة الرهيبة . نظرت فيما حولي ، مقرا ان
اواجه غيظ جلادي ان همرا بقتلي ، فتنبهت الى انهم قد اختفوا .
انتظرت زمنا بدا لي دهرا ، وحيدا ، بقلب واجف خائف ، مغمورا
مطمورا بظلام هذه الليلة الاجنبية الشديد الكثيف . انا ساموت ، هاندا
اموت دون ان يدري بموتي احد ، بعيدا عن بلدي الصغير الحبيب ، نائما
عن اهلي وحيي وكتبي . على حين غرة ، بزغ نور ، طلع نور آخر ، امتلات
الطريق بالانوار والاضواء ، قرع طنبور ، تفجرت انغام تصر الاذن من
الحن موسيقى «كامبوديا» ، صدحت النايات تجاوبت الطنابيرات ، تلات
المشاعل ، فملات الطريق انغاما وانوارا . صعد رجل فقال لي باللغة
الانجليزية :

لقد حصل عطل في السيارة ، بما ان الانتظار سيكون طويلا ، ربما
حتى شروق الشمس ، وليس هنا من مكان صالح للنوم فان المسافرين
قد ذهبوا الى الضيعة للبحث عن فرقة موسيقية وراقصين حتى تسامروا
الليل وتقضوا وقتا ممتعا جميعا ، وها هم قد عادوا والفرقة الموسيقية .

خلال ساعات عديدة ، تحت تلك الاشجار التي لم تعد تتهددنسي وتوعدني ، شاهدت الرقصات الطقوسية الرائعة البديعة لشعب ذي ثقافة نبيلة وحضارة عريقة ، واستمعت الى ان اشرقت الشمس ، الموسيقى اللذيذة التي كانت تكتسح الطريق .

ليس للشاعر ان يخشى الشعب ، بدا لي ان الحياة كانت تحدرني وتعلمني الى الابد درسا : درس الشرف المكتنز ، درس الاخوة التي لا نعرفها ، درس الجمال الذي يزدهر في الدياتجير .

مؤتمر في الهند

ان هذا اليوم لهو يوم مشرق ، ها نحن في مؤتمر الهند . امة في اوج كفاحها في سبيل تحررها . آلاف المندوبين يملأون الاروقة . اعصراف (غاندي) شخصيا وكذلك اهراف (البانديت موتيلال نهرو) الذي هو ايضا زعيم الحركة التحررية واعرف ابنه الشاب الانيق (جواهر لال نهرو) الذي وصل حديثا من انجلترا . (نهرو) كان من مؤيدي الاستقلال الكامل بينما (غاندي) كان يدعو الى نوع من الحكم الذاتي البسيط كخطوة اولى لازمة . (غاندي) : وجه ناعم لثعلب ذكي جدا ، رجل عملي ، سياسي شبيه بزعمائنا المتأمركين (٨) القدماء ، معلم ماهر في اللجان والمؤتمرات ، عالم خبير بالتكتيك والمراوغة ، لا يتعب ولا يمل . بينما كانت الجماهير مثل تيسار جارف لا ينتهي ، تلمس بشكل طقوسي ديني ، طرف بردته البيضاء وتصيح (غاندي ! غاندي !) ، هو كان يحييهم تحية هادئة ويبتسم لهم دون ان يرفع عن عينيه النظارة ، يستلم رسائل ويقرأها ، يجيب على البرقيات ، يؤدي اعماله كاملة دون ان يبدل جهدا كبيرا حتى لا يتعب ، ان (غاندي) لقديس لا ينفد . واما (نهرو) فهو أستاذ ذكي للثورة الهندية .

٨ - المتأمركون : وجدنا انها اصلح كلمة لترجمة Criollos وهم الامريكيون ذوو الاسول الأوروبية .

كانت الشخصية الكبيرة في ذلك المؤتمر هو (سوبحاس شاندرابوسه Subhas Chandra Bose) هو ديمافوجي مندفع ، عدو للامبريالية عنيف ، شخصية سياسية تسحر ابناء وطنه . انضم في حرب عام ١٩١٤ الى اليابانيين الذين غزوا بلده ، وذلك لكي يقاوم الامبراطورية البريطانية . بعد عدة سنوات ، في الهند نفسها ، حكى لي احد رفاقه كيف سقط رجل «سينغابور» القوي :

— كانت اسلحتنا موجهة نحو اليابانيين المحاصرين . ثم تساءلنا ... ولماذا ؟ امرنا جنودنا : «وراء ، در» وصوبناها ضد القوات الانجليزية . القضية كانت واضحة . كان اليابانيون غزاة عابرين . بينما الانجليز كانوا غزاة خالدين .

لقد اعتقل (سوبحاس شاندرابوسه) ، حوكم ، ادين بالموت من قبل المحاكم البريطانية في الهند نظرا لانها اعتبرته قد اقترف الخيانة العظمى . توالى الاحتجاجات وتضاعفت من طرف الجناح الاستقلالي . اخيرا ، بعد معركة قانونية حامية ، توصل محاميه — (نهر) على وجه الدقة — الى الحصول على العفو عنه . منذ تلك اللحظة استحال الى بطل شعبي .

(الآلهة المتكئة)

... في كل جهة تماثيل (بوذا) ، «اللورد» (بوذا) ... تماثيل صارمة ، شاقولية ، متأكلة ، بمذهب من الزينة كأنه الق ذو حياة وبمسحة من الاحباط كأنما هذه التماثيل تخشى ان يستنفدها الهواء ومما يزيد في ابراز المذهب وهذه المسحة من الاحباط بها ان عليها في خدودها ، في ثيابها ، في مرافقها ، في سررها في افواهها وابتساماتها لطخات صغيرة : فطر ، نباتات مسامية ، روث ، براز ، غائط ، من حيوانات الغابة او بالاحرى ثمة رواقد كبيرة ، نصب حجرية بأربعين مترا ، من الفرائيت المرملة ، شاحبة ، ممددة بين الادغال الهامسة ، على حين غرة ، تطلع من هذه الزاوية بالغابة او من تلك ، تبرز من على منصة محدقة بالاشجار او من على مرتفع من الارض مكتنف بالأيك اراقدة هي ام غير راقدة

في أحلامها العميقة ؟ لست أدري ، بيد أنها هناك هي منذ مائة سنة ، الف سنة ، الف الف سنة لكنها تنتظر ناعمة هادئة وهي بهذا الحشر الأرضي الغامض المعروف لا تدري أفستمكت أم ستمضي عجباً هذه الابتسامة الحجرية الناعمة ، هذه الجلالة المهيبة المصنوعة من حجر صلد خالد ، لمن تبسم ، لمن ، فوق هذه الأرض الدامية ؟ . . . لقد مرت بها الفلاحات الهاريات ، رجال الحرائق ، المحاربون المتقنعون ، الكهنة ، السواح الشرهون فما برحت مكانها هذه النصب ، هذه الأحجار الهائلة ذات الركب ، ذات الانحناء في العبادة الحجرية ، ذات النظرة الضائعة لكنها موجودة باقية ، لقد مكثت هذه النصب اللاإنسانية إلى الأبد ، سرمديّة خالدة ولكنها كذلك إنسانية ، بشكل ما ، أو في تضاد من النحت متناقض ، فسواء أكانت آلهة أم لم تكن ، وسواء أكانت أحجاراً أم لم تكن ، لقد مكثت تحت نعيم الطيور السوداء ، بين رفرفة الطيور الحمراء : طيور الغابة نحن كذلك نفكر بشكل أو بآخر في تماثيل المسيح الإسبانية الرهيبة التي ورثناها نحن بدماملها وبكل شيء ، ببثورها وكل شيء ، بندوبها وكل شيء ، بهذه الرائحة كرائحة الشمع ، كرائحة الرطوبة ، كرائحة قطعة لدى الكنائس حبيسة تماثيل المسيح هذه كذلك شكّت في أن تكون بشراً أو أن تكون آلهة . . . كي تصبح بشراً ، لكي تقترب أكثر ممن يعانون ويتعذبون ، من النساء الحواض وممن المضروبة أعناقهم ، من المفلوجين والبخلاء ، من أصحاب الكنائس وممن الناس الذين يحيطون بالكنائس ، كي تصبح هذه التماثيل إنسانية فإن المثاليين النحّات وهبوا قروحا تقشعر لها الأبدان فاستحال كل ذلك العذاب إلى دين : « اذنب تتعذب ، لا تذب تتعذب ، عش وتعذب ليس لك من منجى يحرك ولا من مهرب . . . » . . . هنا ، كلا ، هنا السلام بلغ الحجر . . . فلقد تمرد المثاليون النحّات على نواميس الألم فتماثيل بوذا هذه الهائلة الجسيمة ذات أقدام آلهة عملاقة ، لديها في الوجه ابتسامة حجرية إنسانية تبعث في النفوس الطمأنينة ، تحررها من المعاناة والألم . ينبع منها أريج ، ليس كرائحة غرفة مينة ، ليس كرائحة خزانة أشياء الكنيسة المقدسة ورائحة بيوت العنكبوت ، بل كشذى فضاء من نبات ، كعطر زخات اعصارية تتساقط مشحونة بطلع من الغابة الفسيحة اللامحدودة ، بريش طيورها بأوراق أشجارها .

أسرة إنسانية تعيسة

لقد قرأت في بعض المجلات حول شعري ان اقامتي في الشرق الاقصى اثرت في جوانب معينة من شعري وانها انطبعت بشكل خاص في ديواني «مقام في الارض» . في الحقيقة ان اشعاري الوحيدة لتلك الفترة هسي القصائد التي يحتويها «مقام في الارض» ، لكن ، دون ان أجرؤ على دعم هذا الرأي الذي سابديه في شكل صارم ، اقول انه يبدو لي مخطئا هذا الكلام عن التأثير والتأثير .

ان كل هذه الباطنية الفلسفية للحياة في الاقطار الشرقية ، حين واجهت الحياة الواقعية تكشفت عن قلق ، عن عصاب ، عن ضياع ، عن انتهاز غربي ، اي عن ازمة المبادئ الرأسمالية . لم يكن في الهند خلال تلك السنوات مجال واسع للتأملات الباطنية العميقة ، حياة ذات متطلبات مادية قاسية ، شروط استعمارية مستندة الى اكثر الدناءات نقاوة فسي الخسة ، آلاف الموتى كل يوم بالكوليرا ، بالجذري ، بالحمى ، بالجوع ، قطاعات اقطاعية غير متوازنة بسبب الفنى المفرط في السكان والفقر المدقع بالصناعة ، كل هذه الامور كانت تضغط على الحياة وتطبعها بشراسة؛ ففيها تعدم الناملات الصوفية وتختفي الانعكاسات الروحية .

لقد كانت الخلايا الصوفية توجهه ، تقريبا دائما ، من قبل مغامرين غربيين ، من بينهم الامريكيون سواء من الشمال او الجنوب . ليس هناك مجال للتسك في ان من بين هؤلاء وأولئك ثمة أناسا ذوي نيات حسنة ، لكن الاكثرية كانت تستغل سوقا رائجة رخيصة حيث كانت تباع ، في كميات هائلة وبالجمل ، تماثيل ، تعاويد ، اوثان غريبة ، محفوفة ملفوفة بالماورائيات التافهة المتهاففة . هؤلاء كانوا يتخمون بفضل ال «دهارما» وال «يوغا» ؛ فلقد كانوا يستطيعون جدا الرياضة الدينية المضمخة بالفراغ والسفسطة .

لهذه الاسباب ، فان الشرق اثر في نفسي كونه أسرة إنسانية كبيرة تعيسة ، دون ان أفرغ في ضميري اي مكان لطقوسه او آلهته . لا اعتقد ، اذن ، ان شعري في ذلك الحين ، قد عكس شيئا آخر غير الشعور بالوحدة ؛ وحدة غريب نقل من منبت غرسه الى عالم هنيئ غريب .

أذكر واحدا من أولئك السواح؛ سواح الباطنية، كان نباتيا ومحاضرا
فذا . كان طرازا صغيرا في حجمه ، قصر القامة ، في منتصف العمر ،
ذا صلعة لئاعة كاملة شاملة ، وعينين زرقاوين صافيتين واضحتين ونظرة
خارقة مستهترة ، لقبه هو (بوبيرس) ، قدم من الولايات المتحدة ، من
كاليفورنيا ، كان يؤمن بالديانة البوذية ومحاضراته كانت تنتهي دائما بهذه
الوصفة النافعة في الحمية : «كما كان يقول (روكيفلر) (٩) Rockefeller :
تغذ ببرتقالة كل يوم» .

(بوبيرس) هذا ، استلطفته لقلّة أدبه ووقاحته الحلوة المفرحة ، وكان
يعرف اللغة الأسبانية . بعد محاضراته كنا نروح معا لنلتهم وجبات كبيرة
مُتخِمة من الخروف المشوي (كباب) (١٠) ، مع البصل . كان بوذا لاهوتيا،
لست أدري ان كان بشكل شرعي او غير شرعي ، ذا شراهة اكثر اصالة من
مضمون محاضراته .

لقد افتنن ، اولا ، بفتاة خلاسية هجينة ، هامت بملابسه (سموكين)
وبنظرياته ، كانت آنسة ضامرة هزيلة ، ذات نظرة اليمة وهي كانت تعتقد
انه إله ، انه بوذا حيا . هكذا تبدأ الديانات .

بعد مضي عدة اشهر على هذا الحب ، جاء ذات يوم يبحث عني كي
احضر زواجا جديدا له . تركنا خلفنا ، ونحن على درّاجته النارية التي
كانت تضعها تحت تصرفه شركة تجارية يخدم فيها بائع مبردات كهربائية
ومراوح هوائية ، غابات ، منازل ، مزارع رز ، الى ان وصلنا اخيرا الى
ضبعة صغيرة بأبنية من الطراز الصيني وسكان صينيين . استقبلوه بأسهم
نارية وموسيقى بينما الخطيبة الصغيرة ظلت جالسة في مكانها وهي متزينة
بالبدلة البيضاء كأنها صنم ، على كرسي اعلى من كراسي الاخريات ، على

٩ - روكيفلر John Danjon : هو الراسمالي اليهودي الامريكى (١٨٣٦ -
١٩٣٧) ، وابنه كذلك كان له الاسم نفسه (١٨٧٤ - ١٩٦٠) ، وهو والد نائب رئيس الولايات
المتحدة السابق .

١٠ - (كباب) : هكذا في الاصل Khebab ، والقوسان من المؤلف .

وقع الموسيقى تناولنا المشروبات المرطبة من كل نوع . (بويرس) وعروسه
ما تبادلا كلمة واحدة .

عدنا الى المدينة ، شرح لي (بويرس) انه في هذه الملة . حسب شرعها،
الخطيبة هي وحدها من يتزوج . وان الاحتفالات ستستمر دون حاجة الى
ان يكون العريس موجودا ، وانه في وقت لاحق سيعود ليعيشا معا .

— افتدري انك بهذا تمارس تعدد الزوجات ؟ سألته .

— ان زوجتي الاخرى تعرف هذا وستكون سعيدة جدا وراضية ؟ —
اجاب .

كان في تأكيد هذا كثير من الحقيقة مثلما هو الامر عليه ، في برتقال
كل يوم . حين وصلنا الى بيته ، بيت زوجه الاولى ، وجدناها ، أعني
الخلاسية الاليمة ، تحشرج وكأسها من السم موضوعة على المائدة الصغيرة
قرب سريرها، وقرب الكأس رسالة وداع . كان جسدها الاسمر ، عاريا
تماما ، هامدا نحت كلتها ، دام احتضارها عدة ساعات .

لقد صاحبت (بويرس) على الرغم من اني شعرت بالاسف لهذا الامر
مشمئزا ، لانه كان يتألم بشكل واضح . لقد حطمه الاستهتار الذي كان
يحملة في داخله . ذهبت معه الى الاحتفال الجنائزي . على ضفة نهر
وضعنا التابوت (١١) الرخيص فوق تل عال من الحطب . أشعل (بويرس)
النار في العيدان بعود ثقاب ، وهو يتمتم بالسانسكريتي جملا طقوسية .

كان بضعة من العازفين وهم يرتدون برودا بلون مائل الى البرتقالي ،
يرتلون او ينفثون في آلات جد حزينة . انطفأت النار في الحطب وهي في
منتصف استنفادها للعيدان ، فكان لا بد من تجديد الجذوة بعود ثقاب .
كان النهر يجري داخل مجراه غير مبال ولا مهتم . كانت السماء الزرقاء
الخالدة ؛ سماء الشرق ، تبدي جمودا مطلقا ، سكونا سرمديا نحو تلك

١١ - النابون : هكذا في الاصل El ataud . عن العربية

الجنابة الحزينة الموحشة ، جنابة مهجورة مسكينة .

لم تكن حياتي الرسمية تشتغل الا مرة واحدة كل ثلاثة اشهر . فلقد كان عليّ حين يصل مركب الى «كالكوتا» وهو ينقل زيت القطران (برفين) الصلب واسقاطا كبيرة من الشاي الى تشيلي ، ان اختم وأوقع وئاسق واوراقا بسرعة محمومة . من بعد ثمر ثلاثة اشهر اخرى من البطالة والعطالة ، من التأمل الصوفي في اسواق ومعابد . هذه هي اكثر فترة اليمة في شعري .

لقد كان الشارع هو ديني ومعبودي . الشارع البرماني ، المدينة الصينية بمسارحها في الهواء الطلق وتنانينها المصنوعة (جمع تنين) من الورق، وفوانيسها الرائعة . الشارع الهندي ، هو اكثرها تواضعا ، بمعابده التي كانت أماكن تجارة لهذه الطائفة او لتلك ، والناس المساكين الفقراء الساجدين على الوحل خارجها . ان الاسواق حيث اوراق ال «بيتيل» (١٢) ترتفع في اهرامات خضراء مثل جبال من دهنج . حوانيت الطيور ، أماكن لببيع الوحوش والطيور المتوحشة . الشوارع الملتفة المتجعدة حيث تعبر النساء البرمانيات الرجراجات وفي نفورهن لفافة تبغ طويلة . كان كل هذا يستولي عليّ ، يمتصني ثم يروح يفرقني في رقية الحياة الواقعية .

ان الطوائف جعلت سكان الهند ينصفون كما لو كانوا في مدرج أروقة يعلو بعضها بعضا وهذا المدرج متوازي السطوح ، في اعلاه تجلس الآلهة . كان الانجليز من جهتهم لهم مدرجهم من الاجناس يبدأ من المستخدمين الصغار في الحوانيت ، يمر بأصحاب المهن والمثقفين ، يأتي الى المستوردين ويتوج بسطح هذا المركب الذي يجلس فيه براحة تامة ارستوقراطيو الخدمة المدنية وأصحاب بنوك الامبراطورية .

ما كان لهلين العالمين ان يتماسا . فلم يكن ابناء البلاد الاصليون يستطيعون الدخول الى الاماكن المخصصة للانجليز . وكان الانجليز يعيشون

١٢ - بيتيل : هو نبات يشبه ثمرة الفليفلة ، ولاوراقه طعم كطعم النساج .

بعيدين عن نبض البلاد . لقد جلبت لي هذه الوضعية صعوبات ومشاكل .
ذات مرة شاهدني اصدقائي البريطانيون وانا اركب عربة تسمى «غاهري»
gharry وهي عربة مختصة بمواعيد الغرام المؤقتة المتدحرجة حيث
يمارس الحب على عجل . لفتوا نظري بشكل لطيف قائلين ان
قنصلا مثلي انا يجب عليه الا يستعمل هذه العربات مهما كان السبب .
كذلك اسرّوا لي اشياء وقالوا انه يجب عليّ الا اجلس في مطعم فارسي ،
وهو مكان مليء بالحياة ، كنت فيه اتناول احسن شاي بالعالم في
طاسات (١٢) صغيرة شفافة . كانت هاتان النصيحتان آخر ما قالوه لي من
عتاب ونصيحة ، من بعد لم يعودوا يسلمون عليّ ابدا ولا يردون لي تحية
البتة .

شعرت اني سعيد بهذه المقاطعة . لم يكن اولئك الاوروبيون ذوو
الافكار المسبقة والعقد النفسية يهمونني في شيء اذ انهم لم يكونوا مهمين
حتى نقول ... وفي نهاية الامر ، انما ما جئت الى الشرق كي اتعيش
ومستعمرين عابرين ، بل جئت كي احيا مع روح ذاك العالم القديمة ، مع
تلك الاسرة الانسانية الكبيرة التعيسة . لقد تغفلت في روح هؤلاء الناس
وحياتهم جدا الى درجة اني عشقت هناك واحدة من بنات البلد . كانت
تلبس مثل انجليزية واسمها الفني الشارعي كان هو (خوسيه بليس) ، لكن
في العلاقات الحميمة ببيتها الذي شاركتها السكن فيه ما ان تعرفت عليها
وعشقتها ، حتى كانت تنزع عنها تلك الملابس وذلك الاسم وتستعمل ثوبها
الباهر «سارونغ» واسمها البرماني العميق الخفي .

«تافو» (١٤) (الأرامل)

لقد كانت لي صعوبات في حياتي العاطفية الخاصة . اذ ان هذه
الفتاة الحلوة (خوسيه بليس) راحت تكثف حبها لي وتتأجج عاطفة الى ان

١٣ - طاسات : هكذا في الاصل Tazas . عن العربية

١٤ - تافو : اسم رقصة .

اصيبت بداء الغيرة . ولربما ، لولا هذا السبب ، كنت قضيت حياتي معها الى الابد . كنت اهييم باقدامها العارية ، كنت اغرم بالزهور البيضاء التي كانت تتالق في شعرها الغامق . لكن مزاجها الحاد كان يقودها الى حالة من النوبة الهمجية . كانت تغار وتنفر من الرسائل التي تصلني من بعيد ، تخبيء البرقيات التي تصلني دون ان تفتحها ، كانت تنظر في حقد الى الهواء الذي استنشقه .

احايين كان يوقظني شبح يتحرك خلف الكلّة ، واذا بها هي ، بثوبها الابيض ، تسن لي سكينها الطويلة الحادة ، او تتنزه حول سريري حائرة بهمّ بقتلي ولا يطاوعها قلبها . «حين تموت ستنتهي مخاوفي» كانت تقول لي . في اليوم التالي كانت تؤدي طقوسا غريبة كي تهبها الجن ضمانا عن وفائي .

لا بد انها قاتلتني يوما ما . لحسن حظي ، تلقيت رسالة رسمية بانتقالي الى «سيلان» . لقد حضّرت سفري سرا ثم خرجت من البيت صباح ذات يوم كما هي عادتي ، طبعا تركت ملابسي وكتبي ، وصعدت الى الباخرة التي ستقلني الى مكان بعيد .

لقد هجرتها ، هجرت هذا النمر الارقط المدعو (خوسه بليس) ، والالم يمضني والحزن يضمنني . ما ان شرعت الباخرة بالاهتزاز في امواج خليج «بينغالا» حتى جلست اكتب قصيدة «تأنغو الارمل» ، وهي قطعة مأساوية من شعري ، موجهة الى المرأة التي فقدتها وفقدتني لان في دمها بركان الكوليرا يزفر ، يفرقع ، يقرقر من غير هواة ولا استراحة . فيا لها من ليلة جد كبيرة ويا لها من ارض جد وحيدة .

(الافيون)

.... كان ثمة شوارع برمتها عاكفة على الافيون... جالسين على منصات وعتبات يمتد المكيفون المدخنون فوقها... انها لمعابد الهند الحقيقية... فلا سجاجيد ولا وسائل من حرير ولا بدخ ولا ابهة... بل الواح خشبية

بلا لون ، غلايين من خيزران ، وسائد من فخّار صيني ... تطفو في
 الاجواء سكينّة ورصانة وصرامة ما عهدتها المعابد ... الرجال صرعى
 خاشعون بلا حراك ولا صراخ ولا عياط ... تناولت غليوننا فنشقتة ...
 ليس بشيء ... ما هو الا دخان قائم بارد فاتر لزج لزوجة اللبن ...
 دخنت اربعة غلايين ، مكثت خمسة ايام مريضا ، غثيان اثر غثيان ، يأتيني
 من البصلة النخاعية ، من الشوكة الظهرية ، ينزل عليّ من المخ من النخاع
 من الدماغ كراهية للشمس ، حقد على الوجود عقاب
 الافيون ... ما كان لهذا ان يكون خاتمة المطاف ... فلطالما كتب عن
 هذا السم المقدس الشهير ، ولشد ما قيل عنه ، وكثيرا ما قلبت الحقائق
 ونفضت المحافظ في مخافر الحدود الجمركية وفي المطارات بحثا عنه علّ
 هذا السم يقتنص او يمسك به قبل ان يطير كان لا بد لي من ان
 اهزم القرف ، اغلب التقزز ، أقهر الاشمئزاز ... كان لا بد لي من معرفة
 الافيون معرفة حقا ، من ان اسبر غوره ، اكشف سره ، اعرف امره ، افصح
 لغزه ، كي اعطي شهادتي وأدلي بحكمي ... عكفت عليه ، دخنت غلايين
 كثيرة ، حنى خبرت كنهه ليس فيه من حلم ، ليس فيه من خيال ،
 ليس فيه من نوبة ، ليس فيه من حدة ... كل ما فيه وهن ، كل ما فيه
 ضعف ، كل ما فيه ارتخاء رخيم مطرب كما لو ان معزوفة موسيقية ناعمة
 ابدية امتدت في الزمن ، في الفضاء يحس المرء ان اغماء بداخله ،
 ان دغلا بعروقه فأية حركة مرفق او قفا ، اي صوت مركبة بعيد ،
 اي تزمير ، اية جلبة شارع ، تأتي فتشكل قسما من كل ، من لذة
 مريحة أدركت لماذا كان بياذق الزراعة والمستخدمون المياومون
 والحوذيون الذين يجرجرون عربات ال « ريشكا » كل يوم ،
 يخرون توا هناك غافلين هامدين ساكنين لم يكن الافيون جنسة
 الشاذين او فردوس هواة اللذة والغرابة ، كما قيل لي كدبا وبهتانا ، بل
 منجى المستغلكين الوحيد ، مناص الفقراء الوحيد لقد كان أولئك
 العاكفون على الافيون جميعهم اناسا فقراء مساكين لا اريكة مطرزة
 عندهم ولا وسادة حريرية لديهم ، لا علامة على غنى ولا اشارة عن ثروة ...
 لا شيء يلمع في ذاك المكان حيث يقبع المكيفون المدخنون ولا حتى عيونهم
 الساهمة شبه المغمضة اتراهم يستريحون ، أم تراهم يغفلون ؟
 ابدا ما عرفت ، قط ما دريت ... لا احد ينطق ... لا احد ينبس ...
 لا احد يهمس ... ليس ثمة من اثاث ، ليس هناك من فرش ولا أرائك ...

لا شيء غير مخدات خشبية صغيرة ... لا شيء الا السكون ورائحة الافيون
جبارا عتيا ، مسيطرا سائدا يبعث الاشمئزاز والنفور ... لا شك في ان
هناك طريق الابداء ، درب الفناء ... ان افيون الشرفاء والاعيان
والمستعمرين كان يخصص للفقراء المستعمرين فلقد كان لأولئك
المدخنين لافتة علقت على الباب ، تبين الترخيص بالبيع والترويج ، رقم
المحل ، تاريخ الامتياز ... وفي الداخل كان يسود سكون رهيب كئيب ،
جمود خافت هامد ، عطالة تخفف التعاسة تحلي التعب سكينسة
مظلمة ، رواسب احلام مبتورة وجدت غدورها وماءها ... اولئك الذين
كانوا يحلمون بعيون ساهمة مغمضة بين بين ، كانوا يحيون ساعة مغمورين
في لجة البحر، ليلة كاملة على ظهر ربوة متلذذين باستجمام رقيق ممتع ...

بعد ذلك ما عدت اليهم فلقد عرفت ... ولقد خبرت ...
ولقد لمست ... ولقد جسست شيئا لا يمك ... لا يحتوى ... شيئا.
خفيا قصيئا يتلاشى في الهواء ...

« سيلان »

لقد كان لسيلان ، اجمل جزر العالم الكبيرة ، عام ١٩٢٩ الوضع
الاستعماري نفسه الذي كان يسيطر في بيرمانيا والهند . كان الانجليز
يتحصنون في احيائهم وفي نواديهم ، محاطين بجمهرة غفيرة من موسيقيين،
من صانعي اوان فخارية ، من خياطين ، من اقنان ، من رهبان يرتدون
الملابس الصفراء ، من آلهة هائلة مصنوعة في الجبال الحجرية .

ما كنت انا لاستطيع ان اختار بين الانجليز الذين يرتدون «سموكين»
كل ليلة ، وبين الهنود الذين كانوا في اكثريتهم الغفيرة منعزلين لا اطفالهم،
الا ان اميش وحيدا . لقد كانت هذه الفترة من حياتي اكثرها وحسدة
ووحشة ، لكنني اذكرها على انها اكثر فترات حياتي اضاءة وبريقا ، كما لو
ان اشعاعا خارقا حط على نافذتي كي يضيء مصري ، نورا ينبعث من
داخلي ، ومن خارجي ..

ذهبت لاعيش في بيت صغير ، حديث البناء بضاحية «ويلويذا» ازاء البحر . كانت منطقة غير آهلة . كانت الامواج تتكسر على الارصفة ، في الليل تنمو الموسيقى البحرية .

كانت تأسرني في كل صباح اعجوبة تلك الطبيعة المجلية الحديثة الاغتسال . منذ مطلع الشمس وأنا مع الصيادين . كانت القوارب المجهزة بعوامات طويلة جدا تبدو كأنها عناكب بحرية . يجلب الرجال أسماكاً ذات ألوان عنيفة من قاع البحر ، أسماكاً مثل عصافير الغابة الفسيحة اللامحدودة ، بعضها بزرقة غامقة فصفورية لماعة مثل مخمل فاقع اللون ينبض بالحياة ، بعضها على شكل كرة واخزة ناخسة ، يفرغ هواءها في الفضاء حتى يستحيل الى كيس صغير مسكين من الشوك .

كنت أأمل في رعب اغتيال جواهر البحر وتحفه وحليته . كانت الاسماك تقطع فتباع الى السكان الفقراء قطعاً قطعاً . لقد كانت مسدى الدابحين تقطع هذه الاضاحي ، تفتت مادة اللجّة الربانية كي تحيلها تجارة دامية .

كنت امشي عبر الشاطئ حتى ابلغ حمّام الفيلة . ما كنت اضيع او اخطيء دربي وقد اتخذت لي رفيقاً كلبى . كان يطلع من الماء الهادى فطر رمادي جماد ، من بعد يغدو افاعي ، من بعد يصير رؤوساً هائلة مكومة ، من بعد يصبح جبلاً ذات انياب . لا قطر في العالم له مثل هذا الفطر ، لا بلد له مثل هذه الفيلة التي تعمل في الطرق . لو اراها الآن — ليس في السرك او في الحديقة الحيوانية تحت الدوالي — كما كنت اراها مندهشاً وهي تعبر بحمولتها الخشبية من جانب الى آخر ، كأنها عمال مستخدمون ضخام عظام مجدّون مجتهدون .

ما كان لي من رفيق او صديق غير كلبى ونمبتي . كانت هذه النمسة الحديثة الخروج من الغابة تنام في سريري ، تأكل من زادي على مائدتي . لا احد يستطيع ان يتصور مدى حنان النمسة وحنوها . كانت حنيوانتي الصغيرة تعرف كل لحظة من وجودي ، كل شيء عن حياتي . تنزهه عبر اوراقى تجري خلفي كل يوم ، تحشر نفسها بين كتفي ورأسي سامسة

القيلولة ، تنام في هذا الحلم الفرع الكهربائي الذي تتصف به الحيوانات البرية .

صارت نمستي الليفة شهيرة في الضاحية . ان للأنماس في المعارك التي تخوضها ضد الافاعي الاصلال لقيمة وسمعة حسنة الى درجة تكاد تبلغ ان تكون شيئاً خرافياً . انا اعتقد بعد ان رأيتها تتصارع كثيراً من المرات ضد الحيات أن الدله تهزم الحية بسبب ما للدله من خفة وسرعة حركة وبسبب جلدها السميك ذي الشعر الملون بلون ملحي ولون فلفلي مختلطين وهذا يحير الزحافة . من هنا جاء الاعتقاد بأن الدله بعد خوضها المعارك ضد اعدائها السامة تخرج تبحث عن عشيبات الترياق .

ان هذا الصيت الشائع الذي اكتسبته نمستي - كانت دائماً تصحبنى في تجولاتي الطويلة عبر الشاطئ - جعل اطفال الربض (١٥) يتوجهون ذات مساء نحو بيتي في مسيرة مهيبة . فلقد ظهرت في الشارع افعى فظيعة فجأؤوا يستنجدون بـ «كيريا» Kiria ، نمستي المشهورة ، لان انتصارها الاكيد جعلهم يستعدون لاجراء احتفال عظيم سيقومون به حال القضاء على العدو الداهم . فحملت نمستي بين ذراعي وتقدمت العرض العسكري ومن خلفي اتبع بالمعجبين - عصابات بأسرها من الاولاد السيلانيين ، لا يلبسون الا خرقة بالية تغطي عوراتهم - .

الافعى كانت نوعاً اسود مما يسمى الافعوان المخيف او حية «روسيل»، ذات قدرة مميتة . كانت تتشمس بين اعشاب خضراء وهي على انبوب ابيض تبدو واضحة متميزة كأنها سوط فوق الثلوج .

توقف الاولاد بعيداً وهم ، هادئون ، ينتظرون ، يرقبون ، انا تقدمت على الانبوب الفليظ الكبير الى بعد مترين من الافعى التي كانت قبالي ، أطلقت نمستي ، اشتمت الخطر من الهواء ، توجهت بخطى بطيئة نحو الافعى ، انا واصحابي الصفار كتمنا أنفاسنا ، فالمعركة العظيمة على وشك

البدء ، التفتت الافعى ، رفعت رأسها ، فتحت شدقها ، صوّبت نظرتها المخدرة الى الحثيوان ، الدله استمرت تتقدم ، لكن ، ما ان اصبحت على بعد قليل من السنتيمترات من فم المسخ حتى انتبهت انتباها دقيقا وتنبهت لما سيجري واذ بها تقفز قفزة هائلة وتشرع بمسابقة سريعة جدا باتجاه عكسي تاركة خلفها الافعى والمتفرجين الذين فوجئوا بجبن النمسة ، لم تتوقف عن جريها حتى وصلت غرفة نومي وهناك ارتاحت واطمأنت .

هكذا اضعت سمعتي الحسنة وصيتي العظيم في ضاحية «ويلواذا» منذ اكثر من ثلاثين سنة .

في هذه الايام احضرت لي شقيقتي دفترا يحتوي على اشعاري الاولى ، نظمناها بين عام ١٩١٨ وعام ١٩١٩ . حين تصفحتها ابتسمت لذلك الالم الطفولي والعداب المراهقي ، ضحكت من ذلك الشعور الدهني بالوحدة الذي يطبع كل تأليف الشبان . ان الكاتب الشاب لا يستطيع ان يكتب شيئا دون هذه الرهبة من الوحدة ولو كان كل ذلك وهميا ذهنيا فرضيا ، كما ان الكاتب الكهل الناضج لا يستطيع ان يعمل شيئا من غير طعم المصاحبة الانسانية ، طعم المجتمع .

الوحدة الحقيقية عرفتھا في تلكم الايام والاعوام ب «ويلواذا» . لقد نمت خلال ذلك الزمن كله على سرير مثل هذه الأسرة التي يستعملها الجنود او متسلقو الجبال . ما كان يصحبني في بيتي غير طاولة وكرسيين وعملي وكلبي ونمستي والفلام الذي كان يخدمني ويعود الى ضيعته في الليل . هذا الرجل لم يكن ليبلغ ما نسميه مصاحبة لان شرطه كخادم شرقي كان يفرض عليه ان يكون اكثر صمتا من ظل ، كان يسمى او انه ما زال يسمى (برامبي) Brampy لم اكن اضطر الى ان اطلب منه اي شيء او آمره بأي شيء ، اذ ان كل شيء كان معدا جاهزا ، دائما ، طعامي على المائدة ، ملابسه نظيفة مكوية ، زجاجة الويسكي على الشرفة ، كان يبدو وكأنه قد نسي الكلام ، ما كان يعرف الا ان يبتسم بأسنان كبيرة .

لم تكن الوحدة في هذه الوضعية موضوعا لابتهاال ادبي ووحى شعري فحسب بل كانت كالجدار ، كجدار سجين ، تستطيع ان تضرب رأسك به وتكسره دون ان يخف لنجدتك احد ، تصيح وتبكي وما من مجير .

لقد كنت أدرك انه كان هناك عبر الهواء الازرق ، في الرمل المذهب ،
ابعد من الغابة التي كنت اتردد عليها ، ابعد من الافاعي والفيلة التي كنت
اشاهدها ، مئات الآلاف من البشر الذين يغنون ويعملون ازاء الماء وفسي
البحر ، يصنعون نارا ، يصوغون جرارا ، وان هناك نساء كذلك ملتهبات
ينمن عاريات فوق الحصر وعلى الارض تحت ضوء النجمات الرائعات .
لكن، كيف اقترب من هذا العالم الخافق دون ان يعتبروني عدوا يتجسسهم
ويتجسس عليهم ؟

رحت أتعرف خطوة فخطوة على الجزيرة العظيمة . ذات ليلة عبرت
كل احياء «كولبو» المعتمة المظلمة كي أحضر وليمة عشاء . كان ينطلق من
دارمعتمة صوت طفل او امرأة تغني . امرت الحوذي أن يقف . فاكسحتني
حين اقتربت من الباب الفقير ، هبة أريج عطر ، أريج «سيلان» الذي لا
يخطئه الانسان ، مزيج من الياسمين (١٦) والعرق وزيت الجوز الهندي ،
والمفوليا . فدعاني اصحاب البيت ان ادخل على الرحب والسعة ، كانت
وجوههم غامقة اللون مصهورة بالحر وشذى الليل ، قعدت هادئا ساكنا على
الحصيرة المفروشة ، بينما كان يرئم في العتمة من احدى الزوايا المظلمة
ذلك الصوت الانساني الساحر الذي جعلني اتوقف فأطرق بابا لا اعرف
اصحابه ، صوت طفل او امرأة ، مرتعش باك ، صوت يصعد ، يصعد الى
ما لست أدري ، يخفت فجأة ، يتطامن ، يهبط حتى يغدو معتما كالدجاجير ،
صوت يتحد والعنبر ، يلتف في توريقات رسوم عربية (ارابيسكو) ،
يسقط على حين غرة بكل ثقله الشفاف كما لو ان فسوارة من ماء لمست
السماء كي تنعق لتوها فتنهار بين ازهار الياسمين .

لقد امضيت هناك وقتا طويلا ، ساكنا جمادا تحت رقبة
الطنبور وسحر ذلك الصوت ، من بعد تابعت طريقي ، ثملا من لغز شعور
لا يفسر ، من نغم سره كان يخرج من كل الارض ، ارض رنانة منغمة ،
ملفوفة بالظل ، محفوفة بالشذى .

كان الانجليز قد جلسوا على المائدة ، لابسين اسود وأبيض .

١٦ - الياسمين : هكذا في الاصل Jazmin . عن العربية

— سامحوني ، فلقد توقفت في الطريق كي استمع الى موسيقى —
قلت لهم .

هم ، وقد عاشوا خمسة وعشرين عاما في «سيلان» ، تفاجأوا بشكل
انيق ، موسيقى ؟ أفلابناء هذا البلد موسيقى ؟

ما كانوا يدرون بهذا ، كان بالنسبة لهم الخبر الاول حول هذا
الموضوع .

لم يكن لهذا الانفصام الرهيب بين المستعمرين الانجليز والعالم
الاسيوي الفسيح الرحب حد ولا نهاية . وكان يعني دائما انعزالا لانسانيا ،
جهلا كاملا بقيم أولئك الناس وحياتهم .

كانت هناك بعض الاستثناءات في الاستعمار ، تحققت من ذلك في
وقت لاحق . لقد عشق احد الانجليز عشقا جنونيا فتاة هندية اصيلة ،
كان هذا الانجليزي يعمل فسي « نادي الخدمات » فعزل
من منصبه ، حالا وعزل عن ابناء وطنه وكأنه اجدم . حدث كذلك في ذلك
الوقت ان المستعمرين أمروا بحرق كوخ فلاح سيلاني بقصد اخلائه
والاستيلاء على ملكية الارض ، كان الانجليزي الذي يجب عليه تنفيذ الاوامر
باحراق الكوخ موظفا بسيطا يسمى (لورند وولف) ، لكنه رفض ان يطيع
فخلع من منصبه وعاد الى انجلترا . كتب هناك كتابا من احسن ما كتب
حول الشرق : (Avillage in The Jungle) هو مؤلف انموذجي في الحياة
الحقيقية ، في الادب الواقعي . لكن هذا المؤلف انعم كثيرا او قليلا بشهرة
زوجة (وولف) التي هي (فيرجينيا وولف) (١٧) ، كاتبة عظيمة واصيلة ذات
شهرة عالمية كبيرة فغطت بشهرتها على شهرة زوجها ، فما لاقى هذا الكتاب
الشهرة التي يستحقها .

شيئا فشيئا اخذت تتحطم القشرة الصلبة وبدأت باكتساب اصدقاء

١٧ — فيرجينيا وولف : الكاتبة الانجليزية الشهيرة (١٨٨٢ — ١٩٤١) .

قليلين ولكنهم جيدون . اكتشفت في الوقت نفسه الشبان الغاطسين في الثقافة الاستعمارية الذين ما كانوا يتكلمون الا عن آخر كتاب ظهر فسي بريطانيا . وجدت ان عازف البيانو المصور السينمائي الناقد اليونيسل وينديت) هو مركز الحياة الثقافية التي كانت تعج بالمناقشة والمجادلة بين كتاب الامبراطورية مع ميل لعكس قيم «سيلان» البكر .

ان (ليونيل وينديت) هذا الذي كان يملك مكتبة كبيرة ويستلم اواخر الكتب الصادرة في انجلترا ، كانت له عادة قريبة وجيدة في الوقت نفسه، الا وهي انه كان يرسل لي الى داري البعيدة عن المدينة رجلا يركب دراجة ومعه كيس مليء بالكتب والمجلات كل اسبوع . وهكذا خلال تلك الاوقات كنت اقرا الكثير من الكيلومترات من الروايات الانجليزية ، من بينها «ليدي تشارلي» في طبعتها الاولى الخاصة المنشورة في «فلورنسا» . ان مؤلفات (لورانس Lawrance) (١٨) ادهشتني بسبب أسلوبها الشعري وبسبب ما لها من مغناطيسية حيوية اكيدة موجهة الى العلاقات الخبيثة بين ابناء الوجود . لكن بعد مدة وجيزة انتبهت الى انه ، على الرغم من عبقريته ، كان خائبا فاسدا كما هم عليه الكثير من الكتاب الانجليز الكبار ، بسبب رغبته التربوية ونزعتة التعليمية . ان السيد (د. هـ. لورانس) يجلس على كرسي الاستدلة في التربية الجنسية التي ليس لها الا ما ندر من العلاقة مع تعلمنا الفطري الطبيعي للحياة وللحب والجنس . انتهت منه مالا بشكل نهائي ، سئما تماما دون ان يقل اعجابي ببحثه الصوفي - الجنسي الملب الذي كان اكثر الما كلما كان اكثر عديم جدوى وغير مفيد .

اذكر من بين اشياء «سيلان» ، عملية صيد الفيلة الضخمة .

كانت الفيلة قد تكاثرت بافراط في ناحية معينة من تلك المنطقة وكانت تغير على المنازل والمزارع فتؤذيها ، فراح الفلاحون - بالنيران والمجاسر وأنغام «تام - تام» - يجمعون القطعان الوحشية من هذه الفيلة ويدفعونها نحو ركن من الغابة ، واستمروا على هذا المنوال اكثر من شهر على طول

١٨ - لورانس (D.H.) : رواي انجليزي (١٨٨٥ - ١٩٣٠) .

نهر كبير يخترق الغابة ، ليل نهار والمجامر في أيديهم وهم يرددون «تام - تام» وهذا على ما يبدو كان يخيف الفيلة ويقلقها فأخذت هذه الوحوش الكبيرة تتحرك مثل نهر بطيء نحو الشمال الغربي من الجزيرة .

ذات يوم وقد هبّىء الـ «كرال» El Kraal والحواجز كانت تسد قسما من الغابة ، رأيت في ممر ضيق ، اول فيل دخل ، وما ان دخل حتى شعر بأنه محاط فلم يعد يستطيع التراجع . ثم تقدمت المئات وعبرت في هذا الممر الضيق المسدود . لم يستطع هذا القطيع المؤلف من حوالي خمسمائة فيل لا ان يتقدم ولا ان يتقهقر .

توجهت فحول الفيلة الاكثر قدرة وهمة نحو الحواجز لتحطمتها ، لكن خلف هذه الحواجز كان الفلاحون يكمنون فرشقوها بسهام عديدة أوقفتها عن زحفها . عند ذلك قررت الفيلة التراجع الى مركز ذلك المكان المسور بالحواجز والرجال لحماية الاناث والصغار . لقد كان دفاعهم وتنظيمهم مؤثرين في نفسي جدا . كانت الفيلة تطلق نداء مقلقا ، نوعا من الصهيل او الحنين ، وهي من ياسها كانت تجتث الاشجار من جذرها الاكثر وهنا وضعفا .

ثم ، دخل مروّضان يمتطيان صهوتي فيلين اليفين كبيرين . كان هذا الزوج الاليف من الفيلة يعمل وكأنه شرطة رخيصة سخيفة . كان هذان الشرطيان يتركزان على جانبي الحيوان السجين ثم يضربانه بخرطوميهما حتى تهن قواه الى درجة لا يقدر بعدها على التحرك ، اذالك يأتي الصيادون فيربطون رجلا من رجليه الخلفيتين بحبال سميكة متينة الى جذع شجرة متينة قوية . وهكذا فقد أخضع الفيلة واحدا فواحدا .

يرفض الفيل السجين الغذاء لعدة ايام . لكن الصيادين يعرفون نقطة الضعف فيه . يتركونه يصوم زمنا ما ، ثم يحضرون له براعم ونوى من شجيراتهم المفضلة ، من هذه الاشجار التي كان يبحث عنها ، حين كان حرا طليقا ، في رحلات طويلة عبر الغابة . وفي النهاية يقرر الفيل اكل هذه المغريات واذا به يغدو حيوانا اليفا ويبدأ بتعلم أعماله المرهقة وحمل اثقاله المضنية .

الحياة في «كولومبو»

لم يكن يبدو في «كولمبو» أي أرهاص لثورة أو تمرد . كان الجو السياسي مختلفا عما هو عليه في الهند . فلقد كان كل شيء غارقا في سكونة جائرة مزعجة . كان هذا البلد يعطي للانجليز أفضل أنواع الشاي الناعم الرفيع في العالم .

كان هذا البلد مقسما الى نواح او مقاطع يعلو بعضها بعضا . تأتي، بعد الانجليز الذين كانوا يشغلون قمة الهرم ويعيشون في منازل كبيرة ذات حدائق واسعة فسيحة ، طبقة منوطة شبيهة بالطبقة المتوسطة في أمريكا الجنوبية . كان أفراد هذه الطبقة يدعون أو ما زالوا يسمون «البورجوازيين» ، وهم ينحدرون من «البوير» القدماء ، أولئك المستعمرين الهولنديين في إفريقيا الجنوبية الذين نفوا الى «سيلان» خلال الحرب الاستعمارية التي جرت في القرن الماضي .

تحت هذه الطبقة تأتي طبقة السكان البوذيين والمحمديين (١٩) من السيلانيين وهذه الطبقة مؤلفة من ملايين كثيرة ، وتحت هذه الطبقة تأتي طبقة أخرى في أسوأ شروط عمل وأقل أجره وهي كذلك كانت تعد ملايين من المهاجرين الهنود جاؤوا من جنوب الهند وهم يتكلمون «تاميل» وديانتهم هي «الهندوسية» .

كان فيما يسمى «بالعالم الاجتماعي» الذي كان يقيم احتفالاته في نوادي «كولمبو» الجميلة ، زعيمان يتنازعان الميدان ، أحدهما نبيل فرنسي مزيّف اسمه (الكونت ماوني) الذي كان له مريدوه وأتباعه ، والآخر بولوني أنيق مستهتر ، صديقي (وينزر) الذي كان يبسدي آراءه في مجالس محدودة . هذا الرجل كان عبقريا بشكل ظاهر واضح ، مستهترا بشكل مبالغ ، عالما بكل ما في الكون ، مهنته كانت غريبة عجيبة : «محافظ الكنز الثقافي والأثري» ، وما كنت أدري بهذا الى ان اصططحته مرة في جولة من جولاته الرسمية .

١٩ - المحمديون : هكذا في الاصل Mahometanos ، يعني بهم المسلمين .

ما كان صديقي (وينزر) يؤدي مهنته بشكل سيء ، بل كان يذهب الى الاديرة النائية ، ويرضى من الرهبان البوذيين كان ينقل الى سيارة شحن صغيرة رسمية اعمال النحت الرائعة من حجر ألفي ، ثم ينتهي مصير هذه التحف النحتية في متاحف انجلترا . كان هؤلاء الرهبان المرتدون برودا بلون زعفراني ، حين يترك لهم (وينزر) كتعويض عن تحفهم القديمة ، دمي سيئة الصنع من «سليوليود» ياباني تمثل (بوذا) ، يفرحون جدا وينظرون الى هذه التماثيل الصغيرة التافهة باجلال وتقديس ويضعونها في المدابح نفسها حيث كانت تبسم خلال قرون وقرون تلك التماثيل اليسيرة والفرانيتية التي تنقل الى انجلترا .

لقد كان صديقي (وينزر) نتاجا ممتازا للامبراطورية ، اي ، كان رجلا وغدا انيقا .

جاء شيء ليعكس لي تلك الايام التي كانت تستهلكها الشمس وتستنفذها . حبيبتي البرمانية العاصفة (خوسه بليس) تمركزت تجاه بيتي . جاءت من بلدها البعيد تحمل معها كيسا من الرز - كما لو انه لا رز الا في « رانغون » - ، اسطواناتها المفضلة لـ (باول روبيسون) سجادة طويلة مطوية . عكفت على مراقبتي من الباب المواجه لبابي ، من بعد شنت السب والشتم ضد كل من كان يزورني ، بدافع من غيرتها الشبهة ومن توجسها المسيطر عليها ، وكانت تهدد باحراق بيتي دائما . اذكر انها اغارت وسلاحها سكين ، على فتاة حلوة اورو آسيوية جاءت لتزورني .

اعتبرت الشرطة الاستعمارية ان وجودها يشكل بؤرة فوضى فسي هدوء ذلك الشارع وقالوا لي بانهم سوف يطردونها من البلاد ان لم اتول شأنها انا واخلدها الى بيتي . عانيت عدة ايام ، حائرا متدبدا بين الحنان الذي يوحى لي به حبها التعيس، وبين الرهبة التي كنت اشعر بها اذ انني لم اكن ادعها تضع رجلا في بيتي خوفا منها وحذرا، فقد كانت ارهابية غرامية قادرة على كل شيء .

اخيرا قررت ذات يوم الرحيل . رجتني ان اصطحبها حتى الباخرة.

عندما كانت الباخرة على وشك الاقلاع وكان عليّ ان اغادرها ، انطلقت هي من بين مرافقيها في السفر فانكبّت عليّ تملأ وجهي بالدموع وهي تقبلني في رباط (٢٠) من الحب والالم . كما في طقس من الطقوس كانت تقبل لي ذراعيّ ، يديّ ، بدلتي ، ثم هوت على حداثي قبله دون ان استطيع ان اتجنب ذلك ، حين نهضت من جديد كان وجهها مغبرا ملطخا بحوار حداثي الابيض . لم استطع ان اقول لها ان تدع السفر وأن تغادر معي الباخرة التي كانت سنبعدها عني الى الابد . لقد كان العقل يمنعني من ذلك ، لكن قلبي تفطر لها وما زال فيه ندب ما التأم ولم يبرا منه حتى الان . لم تزل في ذاكرتي ذكريات ذلك الالم المضطرب العنيف الحاد وتلك الدموع الرهيبة المنحدرة على الوجه المغبر الحزين .

كنت قد انتهيت تقريبا من كتابة الجزء الاول من ديواني «اقامة في الارض» ، غير اني كنت اكتب في ببطء . لقد كنت منفصلا عن عالمي بسبب البعد والسكون وكنت عاجزا عن الدخول في العالم الغريب الذي يحيط بي.

كان ديواني يلتقط كفصول طبيعية نتائج حياتي الراسبة في الفراغ : «اقرب الى الدم منها الى المداد» (٢١) لكن اسلوبي أصبح اكثر صرفا واشد نقاوة واعطيت نفسي اجنحة في تكرار كآبة محتدمة . اصررت على الحقيقة والبلاغة (لان طحين الحقيقة والبلاغة يصنع خبز الشعر) في اسلوب مر الخ بشكل اصراري نظامي على تهديمي الذاتي ، ليس الاسلوب هو الانسان فحسب بل هو ايضا ما يحيط به ، فاذا الجو لم ينفذ الى داخل القصيدة فان القصيدة تكون ميتة ، ميتة لانها لم تستطع التنفس .

ابدا ما قرأت في عدوبة ولذة ونهم وكثرة كما في تلك الضاحية من «كولومبو» التي عشت فيها زمنا طويلا . من حين الى حين كنت ارجع الى

٢٠ - رباط . هكذا في الاصل Arrebato وكانت تعني باللهجة الاندلسية العربية ، الغارة وهي تعني بالاسبانية ، هيجان ، احتداد ، نوبة ، الخ .
٢١ - بيت شعر من قصيدة في الديوان .

(رامبو) ، الى (كيبيدو) (٢٢) ، الى (بروست) (٢٣) . ان مقطوعة « عبر طريق «سوان» » أعادتني الى الحياة ، جعلتني أعيش من جديد عواصف مراهقتي وحبها وغيرها . وأدركت انه في تلك المقطوعة لقطة «فينتويل» الموسيقية ، مقطوعة موسيقية نعتها (بروست) بأنها «نسيمية وأليمة» ، ليس يذاق الوصف الاكثر لذة للانغام المؤثرة فحسب ، بل كذلك مدى العاطفة اليأس .

لقد كانت مشكلتي في تلك الوحدة الممضة هي ايجاد هذه الموسيقى والعتور عليها ، لاستماعها . بحثت بمساعدة صديقي الموسيقي والعالم بالموسيقى الى ان عرفت ان «فينتويل (بروست)» ألفها ، ربما ، (شوبرت) (٢٤) و(فاغنر) Wagner (٢٥) و(سينت - سينس) (٢٦) و(فوري) Faure (٢٧) و(ثيسار فرانك) Cesar Frank (٢٨) و(سيندي) Cindy (٢٩) . لقد بقيت تربيتي الموسيقية السيئة الشنيعة جاهلة بكل هؤلاء الموسيقيين تقريبا ، وظلت أعمالهم العظيمة مثل صناديق غائبة او مغلقة . لم يستطع سمعي ان يميز حتى اكثر الالحان وضوحا ، وان ميز ذلك فبصعوبة بالغة وبمساعدة احد اصدقائي .

توصلت اخيرا وأنا استقصي استقصاء اكثر ادبيا منه موسيقيا الى الحصول على مجمع (البوم) بثلاث اسطوانات من عزف موسيقي على البيانو والكمان لـ (ثيسار فرانك) . لم يكن ثمة مجال للشك بأن في هذه

٢٢ - كيبيدو : كاتب وشاعر اسباني مشهور (١٥٨٠ - ١٦٤٥) .

٢٣ - بروست (مارسيل) : الروائي الفرنسي المعروف ، مؤلف الزمن الضائع (١٨٧١ - ١٩٢٢) .

٢٤ - شوبرت (فرانز) : الموسيقي النمساوي الشهير (١٧٩٧ - ١٨٢٨) .

٢٥ - فagner (ريتشارد) : الموسيقي الالماني المعروف (١٨١٣ - ١٨٨٣) .

٢٦ - سينت سينس (كميل) : موسيقي فرنسي (١٨٣٥ - ١٩٢١) .

٢٧ - فوري (غابرييل) : موسيقي فرنسي (١٨٤٥ - ١٩٢٤) .

٢٨ - ثيسار فرانك : موسيقي فرنسي (١٨٢٢ - ١٨٩٠) .

٢٩ - سيندي (Vicente) : موسيقي فرنسي (١٨٥١ - ١٩٣١) .

الاسطوانات كانت مقطوعة «فينتويل» ، ليس في هذا شك البتة .

ان شغفي ما كان الا ادبيا . لقد توقف (بروست) ، وهو في رأيي اعظم اديب واقعي شعري ، في تاريخه النقدي لمجتمع يحتضر كان يحبه ويمقته في الوقت نفسه ، في مسرة عاطفية، عند اعمال كثيرة من الفن ، من اللوحات، من الكاتدرائيات ، من الفنانات الممثلات ، من الكتب . لكنه اعاد ، مع انه كان يضيء كل ما كان يلمسه ، سحر هذه القطعة الموسيقية وعبارتها المنبعثة من جديد في حدة ما اظنه وهبها لقطع وصفية اخرى . لقد قادني كلماته الى ان اعيش من جديد حياتي الذاتية ، متاعري البعيدة الضائعة في داخل نفسي ذاتها ، في غيبوبتي نفسها . احببت ان ارى في المقطوعة الموسيقية مقال (بروست) الادبي الساحر فاتخذت محمولا على اجنحة الموسيقى .

ان المقطوعة تختبئ في خطورة الظل ، تنطلق ، تبلغ باحتضارها درجة الخطر ثم تطيل هذا الاحتضار . تبدو وكأنها تبني احتباس انفاسها مثل العمارة «القوطية» التي تكرر الحلي المعمارية فيها ، مدفوعة بالثغم الذي يعلو بلا هوادة ، المربعات نفسها .

ان المادة المولودة من الالم تبحث عن مخرج لها منتصر ، لا ينكر وهو في القمة اصل هذه المادة التي امضتها الالم وعنتها الحزن . يبدو هذا المخرج وكأنه يتلوى وينعقف في شكل حلزوني مؤثر ، بينما البيانو الشاحب الغامق يصحب مرة بعد اخرى الموت وانبعاث اللحن . ان احشاء البيانو الظليلة تلد تلقا اثر طلق هذا الوليد الحلزوني الافعواني الى ان يندغم الحب والالم في الانتصار المحتضر .

لم يكن ثمة شك ، بالنسبة لي ، في ان هذه هي القطعة الموسيقية المنشودة .

كان هذا الظل المباغت يسقط مثل قبضة اليد فوق داري الضائعة بين اشجار الجوز الهندي في «فيلا واذا» ، لكن هذه القطعة الموسيقية كانت كل ليلة تعيش معي ، تقودني ، تلفني ، تهبني حزنها الدائم الخالد ، كآبتها المنتصرة .

لما ير النقاد الذين طالما نكلوا بمؤلفاتي حتى الآن هذا التأثير السحري الذي اعترف به هنا . لاني هناك في « فيلا واذا » كتبت قسما كبيرا من ديواني «مقام في الارض» . مع ان شعري ليس هو «شذيا ولا نسيميا» بل هو ارضي في شكل حزين ، فانه يبدو لي ان مواضيع قصائدي التي ترتدي لباس الحداد في هذا الديوان لها علاقة وشيجة بالذاتية الباطنية البلاغية لتلك الموسيقى التي تعايشت وإياي هناك .

حين عدت الى تشيلي بعد عدة أعوام تلاقيت في ندوة ادبية مع ثلاثة من الموسيقيين الشبان كانوا اعظم موسيقيي تشيلي ، جرى ذلك ، فيما اظن عام ١٩٣٢ ، فسي بيت (مارتا برونيت) . كان (كلاوديو اراو) Claudio Arrau (٣٠) يتحدث على حدة مع (دومينغو سانتا كروث) و(ارماندو كارباخال) ، فاقتربت منهم ، فما أعاروني انتباها او التفاتا ، بل مضوا في حديثهم الصافي الهادي عن الموسيقى والموسيقيين . حاولت ان الملح بالتكلم عن تلك القطعة الموسيقية الوحيدة التي كنت اعرفها .

نظروا اليّ بشكل ذاهل ثم قالوا لي في تكبر :

— (ئيسار فرانك) ، لماذا (ئيسار فرانك) ؟ ان الذي عليك ان تعرفه هو (فيردي) . ثم تابعوا حديثهم بعد ان قبروني في جهلي الذي لما اخرج منه حتى الآن .

سينغابور

الحقيقة هي ان الوحدة التي كنت اشعر بها في «كولمبو» لم تكن ثقيلة خانقة فحسب بل كانت كذلك كابوسا سباتيا . لم يكن لي الا القليل من الاصدقاء في ذلك الشويرع الذي كنت اسكن فيه . كانت تمر بسريري ذي الطراز العسكري صديقات من مختلف الالوان دون ان يدعن فيه ذكرى

٣٠ — كلاوديو اراو : هارف بيانو تشيلي ولد عام ١٩٠٣ .

البرق الجسدي . لقد كان جسدي مجمرة متوقدة متوحدة ليل نهار في ذلك الشاطئ المداري . كانت تجيء صديقتي (باستي) ، على الدوام ، بمجموعة من صديقاتها : صبايا سمرات ومذهبات ، ذوات دماء مختلفة ؛ دم «بويري» ، دم انجليزي ، ومن مشتقات الله واصنافه ، كنّ جميعهن يضطجعن معي بشكل رياضي وغير مصلي .

لقد باحت لي احدهن بزيارة قامت بها الى «شوميريس» Chummeries وهو اسم المنازل التي كان يعيش فيها مجموعات من الشبان الانجليز ، من مستخدمي المحلات والشركات ، يعيشون معا كي يقتصدوا فسي الملابس والاغذية على شكل مشاعة صغيرة . حكّت لي هذه الفتاة بشكل طبيعي ودون شعور بالابتذال او بالبداءة انه في احدى المناسبات ضاجعها اربعة عشر رجلا منهم .

— وكيف فعلت ذلك ؟ سألتها .

— كنت المرأة الوحيدة بينهم تلك الليلة ، وكانوا يحتفلون بشيء ما . وضعوا الحاكي وانا اخذت ارقص مع كل واحد منهم بضعة خطوات ثم اثناء الرقص كنا نضيع في غرفة النوم ، هكذا ارضيتهم جميعا واحدا اثر واحد .

لم تكن هذه الفتاة بغيا محترفة بل كانت بالاحرى نتاجا استعماريًا ، فاكهة ساذجة ومعتاة ، حكايتها هذه اثّرت بي جدا ولكنها ما اثّرت على علاقتي بها فقد ظللت اكن لها المحبة والاستلطاف .

لقد كان منزلي المتوحد المنعزل بعيدا عن المساكن الاخرى كلها . حين استأجرته حاولت ان اعرف اين يقع المرحاض منه ، اذ انه ما كان يرى ولا في اية ناحية من هذا المنزل . من بعد اكتشفت انه في عمق المكان وراء الحمام .

بدافع من حب الاستطلاع تفحصته واذ به صندوق من الخشب وفي وسطه فتحة ، كان لهذا المرحاض شبه غريب بذاك الذي عرفت في طفولتي

الفلاحية ، في بلدي ، غير ان مراحضنا تلك كانت تتركز فوق بئر عميقة
او فوق مجرى مائي ، بينما مراحضي هذا ليس له من مستودع الا سطل
معدني بسيط يقع تحت تلك الفتحة المدورة .

كان السطل هذا يصحو مع الشروق نظيفا كل يوم دون ان ادري كيف
كان يتخلص من مضمونه وأين يختفي هذا المضمون . صباح ذات يوم نهضت
من فراشي في وقت ابكر مما كانت عليه عادتي في النهوض ، فدهشت
حين رأيت ما كان يجري .

كانت هناك امرأة تسير نحو هذا المرحاض كأنها تمثال غريب يمسي ،
امرأة ما رأيت مثلها في الحسن بسيلان من قبل قط ، من جنس «تاميل»
ومن طائفة «باريا» (٣١) Paria ، كانت ترتدي «ساري» Sari
احمر ومذهب من قماش خشن جدا ، وفي قدميها الحافيتين كانت تضع
خلاخيل (٣٢) ، على كل جانب من انفها كانت هناك خرزتان صغيرتان
حمران تلتمعان ، قد تكونان بلورتين عاديتين ، لكن عليها كانتا تبدوان
وكأنهما جوهرتان .

توجهت بخطى جليلة وقورة نحو المرحاض ، دون ان تلتفت اليّ او
نعيرني انتباهها وكأنها لا تشعر بوجودي ثم اختفت والاناء القدر فوق رأسها
مبتعدة بخطوها الربثاني .

لقد كانت جد جميلة الى درجة انني بقيت مشغول البال مضطربا .
كانها غزال نفور اتي من الادغال وهو ينتمي الى عالم آخر ، الى وجود
آخر ، الى عالم منفصل لا يمت بصلة الى عالمي . ناديتها فلم تجب ، ذات
مرة تركت لها في طريقها هدية : حريرا ، مرة اخرى فاكهة ، مرة اخرى
عطرا ، كانت تمر ولا تدري بي ولا تنظر الى هداياي . لقد تحول طريق
مسيرها وعملها البائس الى احتفال اجباري بملكة غير مبالية ، كنت أنا

٣١ - باريا : هي طائفة من البراهمة ، محرومة من الحقوق الانسانية والمدنية .

٣٢ - خلاخيل : في الاصل Ajorcas وهي مأخوذة من الكلمة العربية الشارقة .

المحتفل وهي الملكة الأنوف بما لها من جمال وحسن .

ذات صباح وقد قررت ما قررت وعزمت أن أقامر ، أخذتها بقوة من معصمها وجذبته اليّ ونظرت اليها وجها لوجه وما وجدت لغة أكلمها بها ، فانصاعت وتأودت فقّدتها ، دون أن تبدو على شفيتها اية ابتسامة ، وعريّتها دون أن تبدي حراكا ، أملتتها على السرير فمالت ، أنمتها فنامت ، كان خصرها النحيل جدا ، الضامر جدا ، كانت أردافها المكتنزة جدا ، الممتلئة جدا ، كان نهداها الطافحان جدا ، الواثبان جدا ، تجعلها تبدو وكأنها تحفة الفية من تحف جنوب الهند وتمائيلها . وكان اللقاء لقاء رجل بصنمه . مكثت الوقت كله وعيناها ساهمتان مفتوحتان ، كانت جمادا بلا حراك . لقد احسنت صنعا باحتقاري وازدرائي ، والتجربة ما تكررت من بعد .

لقد كلفني جهدا أن أقرأ البرقية التي وصلتني ، وزارة الخارجية تعلمني بنقلي الى مكان جديد . فقد نقلت من قنصل في «كولمبو» الى قنصل في «سينغابور» و«باتافيا» اي المهمة ذاتها والعمل نفسه ولكن هذا المنصب الجديد يرفعني من دائرة الفقر الاولى الى دائرة الفقر الثانية . كان لي الحق بكولمبو في أن أحجز لنفسني من المبالغ التي تكسبها القنصلية ، مرتبي (ان توفر في هذه المبالغ) وقدره مائة وستة وستون دولارا وستة وستون سنتيما . الان بعد أن أصبحت قنصلا في مستعمرتين معا فاني سوف استطيع ان آخذ مبلغا قدره ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون دولارا واثنيان وثلاثون سنتيما (ان توفر في صندوق القنصلية) وهذا يعني انني ، عما قريب ، سوف أدع النوم على السرير العسكري ، طموحي المادي ما كان مفرطا وما كنت أطمع بأكثر من هذا .

لكن ، ماذا سأفعل بـ (كرينا) نمستي ؟ أهديها الى اولاد الحي الدين لم يعودوا يكونون لها الاحترام اللازم بعد أن فقدوا ايمانهم بقدرتها على مقارعة الافاعي ؟ لا ، لا ابدا ، فانهم لن يعتنوا بها ولن يدعوها تأكل معهم على المائدة كما كنت قد عودتها على ذلك ، بل انهم سيفلتونها في الغابة لترجع الى وضعها البدائي الحيواني ، فهي من غير شك فقدت غرائزها الدفاعية وأصبحت اليقة وهناك في الغابة ستلتهمها الطيور الجارحة او الزاحفة دون سابق انذار او اعدار . من جهة أخرى ، كيف أحملها معي ؟

انهم في الباخرة لن يقبلوا بمثل هذا المسافر الغريب من نوعه .

قررت حينذاك ان اصطحب معي في السفر (برامبي Brampy) خادمي السيلاني ، كان ذلك مصروفا باهظا لا يتحملة الا مليونير وكذلك كان جنونا ، لاننا سندهب الى قطرين وهما ماليزيا واندونيسيا ، يجهل خادمي (برامبي) لفتيهما . لكن النمسة تستطيع السفر خفية في داخل سفط نضعه على ظهر الباخرة تحت جسرهما وهناك يرقد خادمي قربها فهي تعرفه وتطمئن اليه فتظل خبيثة دون ان يراها احد ، لكن المشكلة كانت الجمارك فلعلهم ينقبون في السفط ويرونها ، لكن خادمي (برامبي) الماكر تكفل بخداع رجال الجمارك .

وهكذا ، بحزن ، بفرح ، بنمسة ، تركنا جزيرة سيلان قاصدين عالما آخر لا نعرفه .

قد يكون من الصعب على الآخرين ان يفهموا لماذا كان لتشيلى هذا العدد الكثير من القناصل المبعثرة في انحاء العالم كله . انه فعلا لغريب ان جمهورية صغيرة منزوية قرب القطب الجنوبي ترسل ممثلين رسميين الى ارجينتين ، سواحل ، ارسيف (٣٣) في الجانب الآخر من الكرة الارضية .

في عمق الامر - اشرح انا وهذا رأيي الخاص - ان هذه القناصل كانت نتاج الوهم واعطاء الاهمية للذات والتركيز عليها وهذا ما تتميز به نحن الامريكيين الجنوبيين عادة . من ناحية اخرى كنت قد قلت في مجال آخر انه من هذه الاماكن النائية جدا كانت تشحن الى تشيلى ، قنب هندي ، زيت القطران الصلب (بارفيينا) لصنع الشموع وبخاصة شاي ، شاي كثير جدا ، اذ اننا نحن التشيليين نتناول الشاي اربع مرات في اليوم ، ولا نستطيع زرعها في بلادنا . لقد اضرب مرة عمال ملح البارود اضرابا هائلا محتجين على نقص هذه المادة الغذائية الغريبة جدا . اذكر ان احد المصدرين

٣٣ - ارسيف : هكذا في الاصل Arrecifes وهي في الاسبانية تعني الهادي او الصخور تحت الماء او الحيدود البحرية . عن العربية

الانجليز سألني في احدى المناسبات بعد ان سقاني ما سقاني من الويسكي،
عما نفعل نحن التشيليين بمثل هذه الكميات الهائلة من الشاي .

— نتناولها — قلت له .

(لقد كان يظن انه سابوح له بسر استغلاله صناعيا ليعرف هذه
الصناعة وينقلها الى بلده ، تأسفت لتخيبي آماله) .

لقد كان للقنصلية التشيلية في سينغابور عشر سنوات من الوجود .
نزلت من الباخرة بالثقة التي كانت تعطينها الثلاث والعشرون سنة من
العمر ، دوما بصحبة خادمي (برمبي) ونمستي (كرينا) . توجهنا مباشرة الى
فندق «رافليس» . هناك امرت بفصل ملابسي التي لم تكن بالقليلة ، ومن
بعد جلست على شرفة الغرفة ، تمددت في كسل على كرسي مريح هزاز
وطلبت كأسا ، كأسين ، ثلاث كؤوس . من «الجن» .

كل شيء كان Sommerst Maufham (٢٤) جدا ، الى ان خطر لي
البحث في دليل الهاتف عن مقر قنصليتي ، فلم تكن مسجلة هذه القنصلية
في الدليل ، يا للشياطين ! طلبت ان يصلوني حالا بمركز الحكومة الانجليزية
هنا ، اجابوني بعد طول استشارة وبحث انه ليس نمة قنصلية تشيلية .
سألتهم عما اذا كانوا يعرفون اي شيء عن القنصل السيد (مانسيا)
فاجابوني بالنفي المطلق .

شعرت بالانزعاج والضيق اذ لم يكن معي من المال ما يكفي لدفع اجرة
تلك الليلة في الفندق وتكاليف غسل ملابسي . فكرت في ان مقر القنصلية
لا بد ان يكون في «باتافيا» ، ولذلك فاني قررت المضي في السفر على
ظهر الباخرة نفسها التي احضرتني الى هنا وكانت ما تزال راسية في المرفأ
على وشك الاقلاع نحو «باتافيا» . امرت باخراج ملابسي من الغلاية حيث
كانت تنتقع ، صنع (برامبي) منها حزمة بليلة وانطلقنا مسرعين نحو رصيف
الميناء .

كانوا قد رفعوا سلم الصعود الى ظهر السفينة . صعدت درجات السلم لاهثا . نظر اليّ رفاق سفري السابقون المستمرون في رحلتهم وضباط الباخرة مستغربين مندهشين . حشرت نفسي في الغرفة نفسها التي كنت قد تركتها صباحا ثم تمددت على ظهري في السرير وأغمضت عينيّ فيما كانت الباخرة تبتعد عن الميناء المشؤوم .

لقد تعرفت في الباخرة على فتاة يهودية ، تدعى (كروزي) شقراء ، سميئة شيئا ما ، ذات عينيّن طاфحتين بالفرح ولونهما برتقالي . قالت لي ان لها منصبا جيدا في «باتافيا» ، اقتربت منها في الحفلة الاخيرة للرحلة البحرية . بين كأس وكأس كانت تجرني الى الرقص وأنا كنت اتبعها بشكل غبي في تلك الالتواءات البطيئة التي كان الرقص عليها في تلك الاوقات . في هذه الليلة الاخيرة قررنا ان نمارس الحب في غرفتي بشكل ودّي ، عارفين بأن مصيرنا التقيا صدفة ولمرة واحدة . حكيت لها عن خيبة آمالي وقسلي فأشفقت عليّ ورقت لي في نعومة بالغة فوصل حنانها الى قلبي وتغلغل في روحي .

اعترفت لي (كروزي) من جهتها بالعمل الحقيقي الذي كان ينتظرها في «باتافيا» . كان تمة منظمة فلندعتها دليّة ، كانت مهمتها هي ان تشبك فتيات اوروبيات في اسرة آسيويين معتبرين ذوي مناصب او القاب مهمة . بالنسبة لها فقد كانوا أعطوها الحق في الاختيار بين «مهراجا» او امير من سيام او تاجر صيني غني فقررت اختيار هذا الاخير ، لكونه شابا وديعا .

حين هبطنا الى اليابسة ، في اليوم التالي ، لمحت سيارة «رويل رويز» وجانبها من وجهه صاحبها الصيني ، العين الغنسي الذي كان يجلس في الخلف وذلك من خلال ستائر حريرية مزهرة على نوافذ السيارة . ثم اختفت (كروزي) بين الناس والعفش والبضائع .

انا نزلت في فندق « دير نيدرلاند » ، كنت اسنعد للغداء حين رايت (كروزي) تدخل ثم ارتمت بين ذراعيّ مختنقة بالبكاء .

— انهم يطردونني من هنا ، يجب علي ان ارحل غدا .

— لكن ، من هم هؤلاء الذين يطردونك ، ولماذا يطردونك ؟ .

حكّت لي بشكل متقطع عن خيبتها وعن الضرر الذي لحق بها ، قالت انه كانت على وشك الصعود الى السيارة الفخمة حين جاء رجال شرطة الهجرة فاعتقلوها كي يخضعوها الى تحقيق قاس ، لم تحدّ بداً من الاعتراف بكل شيء . اعتبر المسؤولون الهولنديون ان نيتها في العيش مع رجل صيني على شكل تسرّ هي جناية خطيرة . اطلقوا في النهاية سراحها شريطة الا تزور عشيقها هذا وشريطة ان تتركب ، لترحل في اليوم التالي ، الباخرة نفسها التي وصلت بها والتي كانت ستقلع لتعود الى الغرب ..

ان ما كان يحزّ في نفسها هو انها خيبت آمال ذاك الرجل الذي كان ينتظرها ، لم يكن بعيداً عن التأثير في شعورها هذا اغراء تلك السيارة الفخمة . لكن (كروزي) في أعماقها كانت عاطفية جداً . كان في دموعها شيء اكثر من مصلحة خابت ، اكبر من اغراء مادي : كانت تشعر بأنها اهينت وانها جرحّت في كرامتها .

— هل تعرفين عنوانه ، اليس عندك رقم هاتفه ؟ سألتها .

— بلى — اجابتنى — لكنني اخاف ان يعتقلوني فلقد هددوني بالسجن في زنزانة .

— لن تخسري شيئاً ، اذهبي كي تري هذا الرجل الذي قد فكر فيك دون ان يعرفك ، فانت تدينين له على الاقل ببضعة كلمات تشرحين بها له الامر . ماذا يهكم بعد من رجال الشرطة ؟ . دعيهم وشأنهم . اذهبي وانظري صينيّك ، خذي احتياطاتك واهزئي ممن أهانوك وستشعرين انك انتقمّت وبهذا تخرجين من البلد وانت اكثر رضى واحسن حالا .

لقد عادت تلك الليلة صديقتي في وقت متأخر . فقد ذهبت ورات المعجب بها عن طريق المراسلة فقصت عليّ تفاصيل المقابلة التي جرت بينهما . الرجل هو شرقي متفرنس ومثقف ، يتكلم الفرنسية بشكل طبيعي ، متزوج على طريقة الشرفاء الصينيين وهو يملّ من زوجته وحياته كثيراً .

كان هذا الخطيب الاصفر قد جهز لخطيبته البيضاء التي جاءت من
القرب منزلا بحديقة فسيحة ، تشبيكات على النوافذ ضد الدباب
والناموس ، اثنا من طراز لويس الرابع عشر ، سريرا كبيرا ذا كثة حريرية
وضع تحت التجربة تلك الليلة . اخذ صاحب الدار هذا يريها التحف
الصغيرة التي اعدّها وهياها : الشوك ، السكاكين الفضية (هو لا يأكل الا
بالعيدان) ، المشروبات الاوربية ، الثلاثة المكومة بالفواكه وأشياء اخرى .

من بعد توقف ازاء صندوق كبير مغلق بشكل محكم ، اخرج مفتاحا
صغيرا من جيب سرواله ، فتح ذلك الصندوق وأرى عيني (كروزي) اعجب ،
كنز في الكنوز ، مئات من الكلاسين النسائية ، سراويل قصيرة ناعمة
الملمس ، كلسات ضئيلة الحجم . مشدات خاصة بالحريم بالمئات بلل
بالآلاف كانت تتوج ذلك الكنز المطهر بالشدى والمعطر بأريج الصندل . هناك
اجتمعت انواع الحرير كلها ، الالوان جميعها فالسلسلة كانت تتدرج من
البنفسجي الى الاصفر ، من الالوان الوردية المختلفة الى الالوان الخضراء
السحرية ، من الالوان الحمراء العنيفة الى الالوان السوداء البهية ، من
الالوان السماوية الكهربائية الى الالوان البيضاء الشفافة الرقراقة . جمع
هذا الوثني قوس قزح الشهوة الذكرية كله في سبيل ارضاء لذته الشهوانية
الفريسة .

— لقد بهرت وسحرت — قالت لسي (كروزي) ثم غرقت بالبكاء
والنحيب — تناولت انا هكذا على غير اتفاق قبضة من هذه المشدات وها
هي الآن معي — أردفت قائلة .

لقد شعرت انا كذلك بالتأثر واستهواني هذا السر الانساني . هذا
الصيني التاجر الجدّي الحازم المستورد او المصدر يصنف ويجمع كلاسين
ومشدات نسائية كما لو كان هاوي فراشات يتابعها ويصطادها ، كيف هذا
ومن يفكر في مثل هذا ؟

— دمي لي واحدا من هذه الكلاسين — قلت لصديقتي .

هي اختارت واحدا ابيض اخضر وداعبته بنعومة وحنان قبل ان
تعطينيه .

— اهديه لي واكتب لي عليه شيئا ، يا (كروزي) ، من فضلك .

اذالك هي مطته بعناية تامة وكتبت اسمي واسمها على سطح التحرير الذي بللته كذلك بالدموع .

في اليوم التالي انطلقت راحلة دون ان اراها وما عدت فرايتها من بعد ابدا . كلسونها الخفيف الرقيق الشفاف واهداؤها عليه ودموعها ليه مشت مع حقائبي ، مختلطة بملابسي وكتبي خلال سنين كثيرة . لا اعرف متى وكيف احدى زائرائي المستغلات خرجت من داري وقد لبسته فطار معها .

« باتافيا »

في تلكم الازمان ، حين لم تكن توجد بعد الفنادق الضخمة كان نزل «نيديرلاند» شيئا خارقا للعادة . كان له بهو مركزي كبير مخصص لقاعة الطعام والمكاتب ، وشقة لكل مقيم نازل تفصلها عن الاخرى حديقة صغيرة واشجار قديرة عظيمة وفي قمم هذه الاشجار كانت تستوطن عصافير لا حصر لها ، سناجب غشائية تطير من غصن الى آخر ، حشرات تصر وتصرف كما في الغابة . كان خادمي (برامبي) منصرفا الى عمله في الاعتناء بالنمسة التي كانت كل يوم اكثر قلقا واشد حزنا في منزلها الجديد هذا .

هنا ، نعم ، كان ثمة ما يسمى بقنصلية تشيلي ، على الاقل كانت مذكورة في دليل الهواتف . في اليوم التالي بعد ان غدوت احسن حالا وآثق ملبسا توجهت شطر مكاتبها . كان الشعار القنصلي لتشيلي معلقا في صدر بناء كبير وعلى واجهة محل كتب عليه كذلك ما يدل على انه مقر شركة للسفريات البحرية . قادني احد الاشخاص العديدين الذين كانوا هناك الى مكتب المدير ، وهو رجل هولاندي ضخيم الهيئة عظيم الجثة ملون الوجه والبشرة ، لا تبدو عليه علائم مدير شركة بل له ملامح عتال ميناء .

— انا القنصل الجديد لتشيلي هنا — قدمت نفسي — اتي لابدا باجزال

الشكر اليكم على خدماتكم الجليلة العظيمة راجيا ان تطلعوني على مجريات الامور المهمة في القنصلية ، اذ انني ارجب بتولي مهام منصبي توجا .

— ليس من قنصل هنا سواي — اجاب حانقا هائجا .

— وكيف ذا ؟

— ابدأوا بان تدفعوا لي ما انتم مدينون به — صرخ .

قد يعرف هذا الرجل عن الابحار الشيء الكثير ، لكن اللياقة لم يكن يعرفها ولا في اية لغة . كان يهرس الجمل يدعسها ويقضم بعضات غاضبة السيجار الثقيل الذي كان يدعف الهواء فيما حوله .

لم يدع لي هذا الممسوس المتخبط فرصة كي اقاطعه اثناء كلامه المتدفق . ان شعوره بالاهانة والسيجار كانا يسببان له هجومات مسن السعال مدوية صخابة حين لا تسببان له تفا ونفا وغرغرة . اخيرا استطعت ان احشر جملة في محاولة للدفاع عن نفسي :

— ايها السيد ، انا لا ادين لك بشيء وليس عليّ ان ادفع لك شيئا . اني لاعرف ان حضرتك قنصل Ad Honorem اي فخري، فان كان هذا امرا قابلا للنقاش في رأيك فانني لا اجد ما يمكن اصلاحه بهذا الصراخ الذي لست على استعداد للقبول به مطلقا .

في وقت لاحق تاكدت من ان هذا الثخين الهولاندي كان لديه بعض من الحق . فلقد كان هذا الرجل ضحية لنصب واحتيال حقيقيين ما كنت انا ، طبعا ، ولا حكومة تشيلي بمسؤولين عمال حقه من اجحاف وظلم . لقد كان (مانسيا) هذه الشخصية الماكرة الملتوية ، هو من كان يهيج حنق الهولاندي وغضبه . فلقد بدأت اعرف ان (مانسيا) هذا لم يقم على رأس عمله في «باتافيا» ابدا ، بل كان يعيش في باريس منذ زمن طويل ، وكان قد اتفق مع هذا الهولاندي كي يقوم بمهامه القنصلية بدلا عنه وان يرسل

اليه الاوراق والعوائد المالية لقاء مرتب شهري ، غير انه لم يدفع له هذا المبلغ قط . ومن هنا شعور الهولاندي بالاهانة والظلم ، ومن هنا غضب الهولاندي الارضي (٣٥) الذي تداعى فوق رأسي كتداعي طنف الحائط .

في اليوم التالي شعرت بأني مريض جدا ؛ حمى خبيثة ، زكام ، ضنك ، وحدة ونزيف ، حر وعرق . كانت الأنف تنزف مني دما مثلما في طفولتي بتيموكو ، تحت برد تيموكو .

توجهت بعد ان بذلت جهدا قويا ، جهد من يريد ان يحيا ، الى قصر الحكومة حيث كان يقع في منطقة «بويتنزور» Buitenzor داخل حديقة اشجار رائعة فسيحة . أبعد البيروقراطيون بصعوبة عيونهم الزرق عن اوراقهم البيض وزووا ما بين عيونهم ثم أخرجوا أقلاما كانت كذلك تترشح مثلي وكتبوا اسمي ببعض قطرات من عرق .

خرجت اكثر مرضا مما دخلت . مشيت عبر النهج الى ان جلست تحت فيء شجرة هائلة . كل شيء هنا كان منعشا صحيا طازجا حيا ، الحياة تتنفس هادئة قديرة . تكشف الاشجار السامقة الهيفاء عن سيقانها الصقيلة للمساء لجينية البدن ، كثيفة الفرع ، ازائي ، امامي ، ورائي ، كان يبلغ علوها مائة متر او اكثر . قرأت الصفائح المطلية بالمينساء حيث تصنف الاشجار فصائل فصائل من اشجار الكافور ، لم اكن اعرفها من قبل . تنزلت من العلو الهائل موجة من الشدى الرطب فتنسمت ملء رئتي ، تساقطت علي موجة من الأريج الزكي فأفعمت قلبي . تلك الشجرة الامبراطورة بين الاشجار رقت لحالي فأرسلت الي من روحها نفحة عطر اعادت الي روحي وشفّتني .

او لربما كانت شفائي جلاله الحديقة الخضراء ، تناغم الاوراق ، تلون الثمار ، تصالب الخطوط ، السحليات التي كانت تنفجر مثل نجمات بحر بين اوراق النبات، العمق البحري لذلك الحرش الغابي، صراخ الببغاوات،

٣٥ - الهولاندي الارضي : اشارة وتمييزا للهولاندي البحري واسطوره المعروفة .

عياط القروء . كل هذا أعاد لي الثقة في مصري ، أرجع لي الفرح بالحياة التي كانت تطفأ فيّ مثل شمعة استهلكت فنفلت .

عدت الى النزل وقد استعدت أنفاسي . جلست في شرفة شقتي ومعني اوراق للكتابة ونمستي فوق الطاولة الصغيرة جالسة ، وقررت ارسال برقية الى حكومة تشيلي . كان ينقصني المداد . ناديت على نادل في النزل وطلبت منه بالانجليزية حبرا **ink** كي يحضر لي محبرة . لم يبد عليه انه فهمني بل اقتصر على النداء الى نادل آخر كان يرتدي بدلة بيضاء مثله وكان حافيا جدا مثله كي يساعده على تفسير رغباتي المبهمة اللغز . لم يكن هناك ما يمكن عمله اذ انني كنت اقول : **ink** واحرك قلمي وانا اغمسه في محبرة خيالية وهمية كي يفهموا قصدي كان الغلمان السبعة او الثمانية الذين خفوا لمساعدة الاول على حل هذا المعضل ، يكررون ايقاع مناورتي باقلام يخرجونها من جيوبهم وينادون في حدة واندفاع (**ink, ink**) مبتئين ضحكا . كان هذا الذي اقوم به من حركات يبدو لهم على انه طقس من الطقوس الجديدة يريدون تعلمه واتقانه . بعد ان ينست انطلقت الى الشقة المجاورة وأنا اتبع بسلسلة طويلة من الخدم المرتدين البياض ، الحفاة الاقدام ، وتناولت من على طاولة وحيدة منزوية محبرة كانت هناك بأعجوبة فأشهرتها أمام عيونهم المندهشة وصرخت بهم :

— هذا ، هذا **This This** .

عند ذلك ابتسموا وقالوا في ايقاع واحد :

— حبر ، حبر . **Tinta!Tinta!** .

وهكذا عرفت ان الحبر كما هو في الاسبانية يقال له بلغة «ملايو»
(**Tinta**)

لقد حانت اللحظة التي أعيد فيها اليّ الحق بأن اتمركز قنصليا . كانت ثروتي المتنازع عليها هي : خاتم مع ممحاة متآكلة منقرضة منقضة،

قطعة قماش مغموسة بالمداد كي احبر الخاتم ، بعض ملفات ووثائق تحتوي على المجلد والباقي . كان الباقي قد راح ليتوقف في جيوب ذلك القنصل الفشاش الذي كان يعمل من باريس في هذه القنصلية . سلمني الهولاندي الذي استهزى به اعواما كثيرة الحزمة التافهة ، دون ان يدع علك سيجاره ، في ابتسامة باردة ، ابتسامة «مستدون» (٣٦) خائب الامل .

— من حين الى حين كنت اوقع على وصولات قنصلية واضع عليها الخاتم الرسمي المتضعف . وهكذا اخذت تردني الدولارات التي كانت تحول الى العملة الوطنية «غولديرس» Guldens فتكفي بشكل مضغوط لدعم وجودي : المبيت والتغذية لي ، راتب خادمي ، العناية بنمستي (كيريا) التي كانت تنمو بشكل واضح جلي وتاكل ثلاث بيضات واحيانا اربع بيضات في اليوم ، بالانضافة الى هذا فقد كان علي ان اشترى سموكين Smoking ابيض و«فراك» I'rac والتزمت ان ادفع الثمن على اقساط شهرية . كنت اجلس احيانا ، وحيدا دوما ، في المقاهي الفاصة بالناس في الهواء الطلق ، ازاء القنوات المريضة كي اشرب بيرة او «جن» فعدت من جديد لاحبا حياه هادئة يائسة .

ان وجبة مطعم الفندق كانت جليلة . كانت تدخل الى قاعة الطعام مسيره مؤلفة من عشرة خدام الى خمسة عشر خادما احيانا ، ثم يروحون يستعرضون انفسهم امام كل واحد من نزلاء الفندق وقصصاتهم مرفوعة على اكفهم الذي نعالو وتهبط . وكل قصصة مقسمة الى اوعية ، وفي كل وعاء يلمع طعام لذيذ غريب . فوق قاعدة من الرز كانت تلك المأكولات اللانهائية تشيد دعائمها . كنت انا ، وانا رجل اكول ولزمن طويل غير مغدسى ، اختار شيئا من كل فصعة من هذه القصصات ، من كل خادم من الخمسة عشر خادما او الثمانية عشر ، حتى يصبح طبقي جبلا حيث الاسماك القريبة ، حيث البيضات المعماة . حيث الخضراوات غير المتوقعة ، حيث الفراخ غير المفسرة ، حيث اللحوم غير الماوفة ، كانت كل هذه اللدائد تتوج قمة غدائي كما راية على قمة جبل قاعدته من رز . يقول الصينيون ان الاكل يجب ان

يحتوي على ثلاث خصائص للذيدة : طعم ورائحة ولون . كانت وجبة نزلي تجمع هذه الخصال الثلاث ورابعة اخرى وهي : الوفرة .

في تلك الايام فقدت (كيريا) : نمستي . كانت لها العادة المجازفة الخطرة وهي متابعتي حيث امضي بخطيواتها السريعة القصيرة . ان الذهاب خلفي كان يعني اجتياز الشوارع التي تخترقها السيارات الصغيرة والكبيرة والشاحنات وعربات «ريكشا» التي يجرها البشر والمارة الهولنديون والصينيون والملايويون . انه لعالم مضطرب مزدحم بالنسبة لنمسة لا تعرف في الدنيا الا شخصين اثنين : انا وخادمي .

لقد جرى ما لا يمكن تفاديه وكان ما خفت ان يكون . حين عدت الى الفندق ونظرت الى خادمي فهمت المأساة ، لم اسأله شيئا . لكن حين جلست في الشرفة ، هي لم تقفز الى حضني ولا امرت ذيلها الكثيف الشعر عبر رأسي .

وضعت اعلانا في الصحف : « نمسة ضائعة ، تستجيب لنداء (كيريا) »^{٢٠} ما من احد اجاب ولا من جار رآها فدل عنها ، ربما ماتت ، لقد اختفت الى الابد .

شعر حارسها (برامبي) بلذب كبير الى درجة انه اختفى عن نظري خلال زمن طويل . كان شبعا كان من يغسل ملابسي وينظف احديتي . كان يخيل لي احيانا وكأني اسمع صراخ (كيريا) يناديني من على غصن شجرة في الليل ، اشعل النور ، افتح النوافذ والابواب علثها تأتيني . اتحرى شجر الجوز الهندي ، استقصي كل مكان ، واذ هي ليست اياها . ان العالم الذي كانت (كيريا) تعرفه وتألفه قد استحال الى احتيال ، انهارت ثقته في غابة المدينة المهددة المتوعدة . لقد شعرت لزمن طويل اني مثقوب بالكآبة ، منخول بالهم .

قرر (برامبي) من خجله العودة الى بلده . تأسفت لهذا كثيرا ، لكن ، في الحقيقة ، تلك النمسة كانت الشيء الوحيد الذي يجمعنا . جاء ذات

مساء بغرض ان يريني البدلة الجديدة التي اشتراها كي يصل الى قريته الأم ، حسن الهندام بهي المنظر . ظهر فجأة وهو يرتدي الابيض ومزرور حتى العنق . ما كان اكثر مفاجأة هي قلنسوته الهائلة كأنه رئيس الطهاة فقد كان قد البسها رأسه الفامق جدا ، حين بدا هكذا انفجرت في قهقهة عارمة . لم يشعر (برامبي) بالاهانة بل على العكس ابتسم لي في عدوبة شديدة بابتسامة تصفح لي جهلي وتتفهمه .

ان اسم شارع داري الجديدة في «باتافيا» هو «بروبولينغو» . هذه الدار هي عبارة عن قاعة ، وغرفة نوم ومطبخ وحمّام . ابدا ما امتلكت سيارة ولكن في هذه الدار كان يوجد كراج ظل دائما فارغا . كان في هذه الدار الجديدة متسع يزيد عن حاجتي . اتخذت طاهية من جزيرة «جاوا» ، فلاحه عجوزا تشعر بالمساواة وتؤمن ان الناس سواسية وكانت كذلك لطيفة جدا . واتخذت كذلك خادما صغيرا جاويا ايضا كان يخدمني في المائدة وينظف ملابسي ويمسح احديتي . هناك أنهيت ديواني «مقام في الارض» .

لعد تضاعف شعوري بالوحدة ففكرت بالزواج . كنت قد تعرفت على فتاة «كريويا» ، بالاحرى هولندية مع قطرات دم من ملايو . كانت تعجبني جدا ، كانت امرأة طويلة وناعمة لطيفة ، غريبة كليا عن عالم الفنون والآداب (بعد عشرين سنة ستكتب كاتبة تاريخ حياتي وصديقتي (مارغاريتا أغيريّه) عن زواجي هذا ما يلي : «لقد عاد (نيرودا) الى تشيلي في عام ١٩٣٢ . قبل هذا بعامين تزوج في «باتافيا» بـ (ماريا انطونيته اجينار Maria Antonieta Ajenar وهي شابة هولندية مستقرة في «جاوا» . تفتخر جدا لكونها زوجة قنصل ، ولها عن امريكا الجنوبية فكرة غريبة جدا ، هي لا تعرف الاسبانية فتبدأ بتعلمها . لكن ليس ثمة شك في ان ما لم تتعلمه ليس اللغة فحسب . ومع كل هذا فان انسجامها العاطفي مع (نيرودا) هو قوي جدا فدائما يريان معا . ان (ماروكا) وبهذا الاسم يدعوها (بابلو) ، هي طويلة جدا ، بطيئة ، متكلفة الرصانة» .

كانت حياتي بسيطة جدا . تعرفت من بعد على اشخاص آخرين لطفاء جدا . القنصل الكوبي وزوجته كانا صديقيّ الاجباريين اذ كنا متحدسين باللغة . كان هذا القنصل يتكلم بلا انقطاع ولا هوادة كأنه آلة متحركة دائما .

كان رسميا يمثل (ماتشادو Machado) (٢٧) طاغية كوبا ، غير انه ، كان يحكي لي ان ثياب السجناء السياسيين ، ساعاتهم ، خواتمهم ، وأحيانا أسنانهم الذهبية كانت تظهر في بطون الاسماك الكبيرة الشرهة بخليج «هافانا» .

كان القنصل الالماني(هريث) يعجب بالتشكيلة الحديثة la plastica بالخيول الزرق لـ (فرانث مارك) بالاشكال المستطيلة لـ (ويلهيلم ليهمبروك) . كان شخصا حساسا ورومانطيكيا ، وهو يهودي ذو قسرون من التراث الثقافي ، سألته ذات مرة :

— (هتلر) هذا الذي يظهر اسمه من حين الى حين في الصحف ، هذا الزعيم المعادي للسامية وللشيوعية ، ألا تعتقد انه قد يصل يوما الى سلطة الحكم ؟

— مستحيل — قال لي .

— كيف تجزم بانه مستحيل ، بينما نشاهد في التاريخ كل ما هو محال وغير معقول ؟

— انت لا تعرف المانيا — ادلى برأيه — ثم اردف قائلا :

— اجل ، هناك في المانيا هو امر مستحيل ، ان محرضا مجفونا مثل هذا (هتلر) لا يمكن له ان يحكم ، ولا حتى في ضيعة .

يا صديقي المسكين ، يا للقنصل المسكين (هريث) ، لقد كان ينقص القليل كي يحكم ذاك المحرض المجنون العالم كل العالم . لا بد ان (هريث) الساذج قد انتهى في غرفة غاز مجهولة ورهيبة مع كل ثقافته ورومانطيكيته النبيلة .

٢٧ — ماتشادو Morales, Cerardo : كان رئيسا للدولة الكوبية (١٨٧١-١٩٣٩) .

الفصل الخامس

اسبانيا في القلب

كيف كان (فيدريكو Federico) (١)

سفر طويل عبر البحر دام شهرين اعادني الى تشيلي عام ١٩٣٢ .
هناك في تشيلي نشرت ديواني «حامل المقلع المتحمس» الذي كان مبعثرا
بين اوراقى ، ونشرت كذلك ديواني «مقام في الارض» الذي نظمته في
الشرق . في عام ١٩٣٣ عينت قنصلا لتشيلي في «بوينس ايرس» حيث
وصلت في شهر آب .

لقد وصل الى هذه المدينة في الوقت نفسه تقريبا (فيدريكو غارثيا
لوركا) كي ي دشن مسرحيته ، مأساة «أعراس الدم» ، ويشرف على تمثيلها

١ - فيدريكو غارثيا لوركا : هو الشاعر الاسباني المشهور جدا (١٨٩٨ - ١٩٣٦) ،
ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور ، مختارات من الشعر الاسباني المعاصر . ونحن في
صدد اعداد كتاب عن المواضيع والالفاظ العربية في اعماله .

الذي قامت به فرقة (لولا ميمبريبيس Lola Membrives) . لم تكن قد تعارفنا بعد فتم تعارفنا في «بوينس ايريس» . وكثيرا ما كان الادباء والاصدقاء هناك يحتفلون بنا معا ويكرمونا . على فكرة ، لم تنقصنا بعض الحوادث . كان لفيدريكو خصوم . وكذلك كان لي ايضا خصوم وما زال هناك لي خصوم كثيرون . هؤلاء الخصوم يشعرون بأنهم مدفوعون غريزيا كي يطفئوا النور حتى لا يرى . وهذا ما حصل في تلك المرة . بما انه كان هناك اهتمام عند الناس لحضور حفلة التكريم التي كان يريد اقامتها على شرفنا «نادي القلم» في فندق «بلاثا» ، فان احد هؤلاء الخصوم اخبل يتصل بالناس هاتفيا كل يوم ليخبرهم بأن التكريم الذي كان سيقام على شرف (لوركا) و(نيرودا) قد ألغي . وقد بلغ بهذا الخصم او الخصوم الحد من الصفاقة انهم اتصلوا بمدير الفندق وعاملة الهاتف ورئيس الطهاة كي لا يشاركوا في الاحتفال ولا يعدوا الوليمة . لكن هذه المناورة فشلت وانعقد شملنا اخيرا وحضر الاحتفال بنا مائة من الكتّاب الأرجنتينيين .

لقد بادرنا الحضور بمفاجأة أدهشتهم . كنا حضرنا خطابا على التناوب «أل اليمون» (٢) . اعتقد ان كثيرا من القراء لا يعرفون معنى هذه الكلمة وأنا كذلك لم اكن اعرفها لكن (فيدريكو) الذي كان دائما مليئا بالابداعات والاملوحات والنوادر والخواطر شرح لي ذلك فقال :

«اثنان من مصارعي الثيران يصارعان في الوقت نفسه وبمعطف واحد وحيد . ان هذه الطريقة في المصارعة هي أخطر تجربة في فن مصارعة الثيران ، ولذا فقلما ترى في حلبات المصارعة . لا ترى الا مرة او مرتين كل قرن ولا يمكن ان يؤديها الا مصارعان أخوان او ان لهما دما مشتركا ، وهذا ما يسمى عندنا في اسبانيا بالمصارعة على «اليمون» . وهذا مما سنقوم به ، انت وأنا ، في خطاب نلقيه على المحتفلين بنا» .

وهذا ما صنعناه ، وما من احد من الحضور كان يعرف هذا الاسلوب

٢ - ليمون : اصل الكلمة عربي ، الليمون ، وال «اليمون» اي على الليمون ، هو نوع من اللعب يقوم به الاطفال وهم يغنون ويرددون هذه الكلمة بالتناوب ، وهو كذلك مما يشرحه (نيرودا) والمصارعة اخذه من لعبة الاطفال هذه .

في المصارعة او المخاطبة . حين وقفنا لكي نشكر مدير النادي على هذا التكريم ، وقفنا معا في الوقت نفسه كأننا مصارعا خطاب واحد . بما ان الوليمة قد قدمت على موائد صغيرة منفصلة ، بعضها يبعد عن بعض فان (فيدريكو) كان في طرف وأنا في الطرف الآخر ، ولهذا فان الناس الجالسين قربي كانوا يشدونني من طرف سترتي معتقدين انني على خطأ وأن المتكلم الان هو (فيدريكو) ، والشئ ذاته جرى لفيدريكو في الطرف الآخر من القاعة . شرعنا في الوقت نفسه بالخطاب فقلت انا «سيداتي» وتابع (فيدريكو) و«سادتي» وهكذا . اخذنا نتناوب وتشابك جملنا الى درجة ان هذه الجمل بدت وكأنها نص وحيد متناسق مترابط الى ان ختمنا كلامنا . ذات الخطاب كان مخصصا ومهديسا الى (روبين داريو Ruben Dario) (٣) لاننا ، (فيدريكو) وأنا ، كنا نبجل (روبين داريو) باعتباره واحدا من عظماء مبدعي اللغة الشعرية في اللغة الاسبانية ، دون ان نتهم في اننا «محدثون» (٤) Modernistas . وإليكم نص الخطاب :

نيرودا : سيداتي ...

لوركا : وسادتي : ثمة في فن مصارعة الثيران طريقة تدعى :

« المصارعة على «اليمون» » ، في هذه الطريقة يصارع اثنان معا مختلسا احدهما جسد الآخر ، آخذين بالدثار ذاته .

نيرودا : (فيدريكو) وأنا ، مربوطين بسلك كهربائي ، سوف نتناوب كي نجيبكم على هذا الاستقبال الحار .

لوركا : انها لعادة نبيلة في مثل هذه الندوات ان الشعراء يعرضون كلمتهم الحية ، سواء افضية كانت أم خشبية ، ويحيثون بصوتهم الخاص زملاءهم وأصدقاءهم .

٣ - روبين داريو : هو شاعر من «نيكراغوا» بأمريكا الوسطى (١٨٦٧ - ١٩١٦) .

٤ - محدثون : من ينتمون الى مذهب ادبي عرف باسم «الحداثة» Modernismo

وقد انتشر هذا المذهب في اسبانيا وأمريكا اللاتينية في مطلع هذا القرن ، وكان (داريو) زعيما لهذا المذهب .

نيرودا : لكننا الآن سنبحث فيما بيننا رجلا ميتا ، نديما أرمل ، داكنا في دياجير ميتة هي أكبر ميتة ، انه أرمل الحياة ، ذاك الذي كان في ابانه وزمانه بعلا ماهرا ، سنختبيء تحت ظله المتوقد ، سنكرر اسمه حتى تقفز قدرته من الفناء والنسيان .

لوركا : اننا سنروح ، بعد ان نرسل تحياتنا في حنان طائر البطريق الى الشاعر الرقيق (امادو بيثار Amado Villar) ، سنروح نقذف فوق هذا السمات باسم عظيم ، متاكدين انه لا بد من ان تتكسر الاقداح ولا بد من ان تتناثر في الفضاء الشوك والسكاكين بحثا عن العين التي طالما اشتاقت اليها وحنّت ، وانه لا بد ان تلتفخ هذا السمات ضربة من بحر . نحن سنذكر اسم شاعر امريكا واسبانيا: (روبين)

نيرودا : (داريو) . لانه ، سيداتي ...

لوركا : وسادتي

نيرودا : اين هي ، في بوينس ايريس ، ساحة (روبين داريو) ؟

لوركا : اين هو تمثال (روبين داريو) ؟

نيرودا : لقد كان يعشق الحداثق ، فاين هي حديقة (روبين داريو) ؟

لوركا : اين هو حانوت الزهور والورود باسم (روبين داريو) ؟

نيرودا : اين هي شجرة النفاح وتفاحات (روبين داريو) ؟

لوركا : اين هي اليد القطعاء يد (روبين داريو) ؟

نيرودا : اين ؟

لوركا : ان (روبين داريو) ينام في مسقط رأسه : «نيكاراغوا» تحت أسده

المرمرى الفظيع مثل هذه الاسود التي يضعها الاغنياء عند ابواب منازلهم .

نيرودا : اسد مطمور في مخزن لمن اسس الاسود ، اسد بلا نجوم لمن كان يمنح النجوم !

لوركا : لقد صور حفيف الغابة بكلمة نعت واحدة وكان مثل (فراي لويس الغرناطي Fray Luis de Granada) (٥) رئيس لغات ، لقد صنع اشارات نجمية بالليمون ورجل الأيل ، والرخويات المليئة بالرعب والابد ؛ ووضعنا على البحر بزوارق والظلال في بآبسيء عيوننا ، وشاد منتزها هائلا من جن (٦) فوق اكثر مساء رمادي امتلكتته السماء ، وحيثى ندأ لند ربح الجنوب الداكنة ملء رثتيه ومدى صدره كأنه شاعر رومانطيكي ، ووضع يدا فوق تاج العمود «الكورنتي» (٧) في شك تهكمي حزين من العهود كلها .

نيرودا : ان اسمه لجدير بالذكر في اتجاهاته الجوهريّة؛ بالآلام قلبه الرهيبة، بارتياحه المتوهج ، بهبوطه الى متاهات جهنم ، بصعوده الى قلاع الشهرة ، بنعوته ؛ نعوت شاعر كبير ، منذ ان كان والى الازل ، ولا بد من ذكره .

لوركا : لقد علّم ، كونه شاعرا اسبانيا ، قدماء المعلمين وعلّم الاطفال ، بشعور من العالمية والكرم لا نجدهما في الشعراء الحاليين، لقد علّم (بايه - انكلان Valle Inclàn) (وخوان رامون خيمينيث)

٥ - فراي لويس الغرناطي : كاتب وشاعر اسباني ولد في غرناطة (١٥٠٤ - ١٥٨٨) .
٦ - جن : هكذا في الاصل gin وهي كلمة لا توجد في قاموس المجمع الملكي للغة الاسبانية ، قد تكون ما قيدناه او خمر «الجن» المعروف او شيئا آخر ، وقد سألنا عنها المختصين فلم يهتدوا الى معناها في هذا النص .

٧ - الكورنتي : نسبة الى جزيرة «كورينتو» Corinto باليونان .

٨ - بايه - انكلان Ramon del : كاتب اسباني معروف (١٨٦٩ - ١٩٣٥) .

والاخوان (ماتشادو Machado) (٩) وكان صوته ماء وملح بارود، في ا حدود اللغة الموقرة . لم يكن للغة الاسبانية منذ زمن (رودريغو كـارو) الى زمن الاخوان (أرخينسولا) (١٠) او السيد (خوان ارغويخو) (١١) ، اعياد كلمات ، اصطدامات حروف ، أضواء وصيغ مثلما كان لها في (روبين داريو) . لقد تنزه (داريو) من منظر (بيلاثكيث Vilazquez) (١٢) ومجمرة (غويا) (١٣) وكآبة (كيبيدو) حتى لون الفلاحات «المايوركيات» (١٤) التفاحي الخفي ، في ارض اسبانيا كما في ارضه نفسها .

نيرودا : لقد اتت به الى تشيلي دوامة بحر الشمال الساخن فتركه هناك البحر ، مهجورا على الشاطئ القاسي المسنن وكان المحيط يلطمه بازباد واجراس وكانت ريح «بالبارائيسو» السوداء تملأه بملح ذي جرس ورنين ، فلنصنع هذه الليلة تمثاله بالهواء يخترقه الدخان والصوت والظروف والحياة على منوال شاعريته المخترقة بالاحلام والالحن .

لوركا : لكنني أريد ان اضع فوق هذا التمثال الهوائي دمه مثل غصن مرجان يهزه التموج ، أعصابه على نمط مطابق لبقاة أشعة ، رأسه

-
- ٩ - الاخوان ماتشادو : هما الشاعران الاسبانيان (مانويل Manuel ١٨٧٤) - (١٩٤٧) و(انطونيو Antonio ١٨٧٥ - ١٩٣٩) ، وقد ترجمنا لهما وعنهما في كتابنا المذكور ، ونحن الآن في صدد اعداد كتاب عن (انطونيو) بتكليف من وزارة الاعلام العراقية - قيد الطبع -
- ١٠ - الاخوان أرخينسولا : هما الكاتبان الاسبانيان (بارتولوميه ليوناردو) (١٥٦٢ - ١٦٣١) شاعر ومؤرخ ، و(لوبيريثو ليوناردو) (١٥٥٩ - ١٦١٣) شاعر وكاتب مسرحي .
- ١١ - خوان ارغويخو : شاعر اسباني (١٥٦٧ - ١٦٢٣) .
- ١٢ - بيلاثكيث : رسام اسباني شهير (١٥٩٩ - ١٦٦٠) .
- ١٣ - غويا Francisco : رسام اسباني معروف (١٧٤٦ - ١٨٢٨) .
- ١٤ - المايوركيات : نسبة الى جزيرة «مايوركا» وهي جزيرة اسبانية في البحر الابيض المتوسط .

الكوكبي حيث الثلج «الفونغوري» (١٥) اللجيني النقي يلونه ويدبجه
طيران الطيور الصداحة ، عينيه الداكنتين الساهمتين الرقراقتين
بمليون دمعة ، وكذلك عيوبه . ان الرفوف قد اكلها اللفت البري ،
حيث يرن القصب فارغا من الناي ، زجاجات الكونياك فارغة من
الشمالة المأساوية ، حيث ذوقه السيء اللذيذ وفضلاته المتهتكة التي
تملأ بالانسانية جمهرة اشعاره . ان المادة الخصبة لتعمره العظيم
تظل منتصبة صامدة خارج الاشكال والصيغ والمهاميز .

نيرودا : اننا : (فيدريكو غاريا لوركا) ، اسبانياً ، وايتاي ، تشيليًا ، نوجه
أنظار المسؤولية في هذه الليلة الرفاقية نحو هذا الظل العظيم الذي
غنى أعلى مما غنينا وحيى بصوته العبقري هذه الارض الارجنطينية
التي نطأها .

لوركا : اننا ؛ (بابلو نيرودا) ، تشيليًا ، وايتاي ، اسبانياً ، قد توافقنا في
اللغة وفي الشاعر النيكراغوي الارجنطيني الشيلي الاسباني العظيم :
(روبين داربو) .

نيرودا ولوركا : تكريما له وتمجيذا نرفع كؤوسنا لنشرب نخبه .

اذكر اني ذات مرة ، تلقيت من (فيدريكو) دعما مفاجئا في مغامرة
هزلية — فلكية — فلقد دعانا الى عشاء وقضاء ليلة صاخبة مليونير من
هؤلاء الذين لا يمكن ان تنتج امثالهم الا الارجنطين او الولايات المتحدة .
كان هذا المليونير رجلا متمردا عصاميا استطاع ان يجمع حظا من المال عن
طريق صحيفته الواسعة الانتشار ذات التأثير المهم في الاوساط جميعها ،
كانت داره الفسيحة المحاطة بحديقة واسعة تجسد أحلام غني جديد يحب
التطيل والتزمير . المكتبة ليس فيها الا الكتب القديمة التي كان يشتريها
برقيا من المزادات التي كان يقيمها من حين الى حين اصحاب مكتبات
اوروبيون ، وهذه المكتبة بالاضافة الى سعتها كانت طاغية عامرة . لكن
ما هو اكثر فخفخة وفخامة كان سطح قاعة القراءة العظيمة هذه فقد كانت

١٥ — الفونغوري : نسبة الى (فونغورا) وهو شاعر اسباني (١٥٦١ — ١٦٢٧) .

مفروشة كلها بجلود نمور رقطاع ، مخاط بعضها الى بعض حتى تبدو وكأنها سجادة واحدة ضخمة مديدة . عرفت ان لهذا الرجل في افريقيا وفي آسيا وفي الامازون اشخاصا مهمتهم هي حصد جلود النمر الراقط والأيائل والوعول والقطط الرائعة الخلابة التي كانت تلتصق بقع من بعضها تحت قدمي في هذه المكتبة الفاخرة .

هكذا كانت الاشياء عليها في دار الشهير ب (ناتاليو بوتانا) رأسمالي قدير مسيطر على الرأي العام في بونوس ايريس . (فيدريكو) وأنا جلسنا حول المائدة على جانبي صاحب الدار المليونير ، وجلست مقابلنا شاعرة طويلة شقراء خفيفة الظل والدم صوبت عينيها الخضراوين خلال الاكل اليّ اكثر مما صوبتهما الي (فيدريكو) . كان هذا الاكل مؤلفا من عجل ضخّم حُمِل بكامله الى الجمر والرماد على نعش هائل ، وكان المشيعون الذين حملوه على اكتافهم هم اربعة عشر راعيا من رعاة البقر . كانت الليلة زرقاء مليئة بالنجوم بشكل غاضب نزع ، وعطر المشوي بجلده ، اختراع رفيع للارجنتينيين ، يمتزج بنسيم السهوب ، بأشياء البرسيم والنعناع على وشوشة آلاف الجداجد والاشراغ .

وقفنا بعد الاكل واقتربنا ، أنا و(فيدريكو) الذي كان يبتهج لكل شيء ويبتسم لكل شيء ، من الشاعرة ، ثم ابتعدنا سوية نحن الثلاثة باتجاه المسبح المضاء هناك ، (فيدريكو) كان يسير أمامنا ولم يكن يسدع الضحك والكلام فقد كان سعبدا وهذا طبعه وهذه عادته فلقد كانت السعادة جلده ، بشرته .

كان هناك برج عال يطل على المسبح ، وكان بياضه المتلألئ يلتصق تحت الانوار الليلية .

صعدنا حتى اعلى مرأى في البرج .

هناك بقينا نحن الشعراء الثلاثة ذوي الاساليب المختلفة ، منفصلين عن العالم ، عين المسبح الزرقاء تبرق من تحت ، من بعيد تسمع أنغام القيثارة وأغاني الحفلة ، من فوق يكاد يمسك الليل ذو النجوم القريب الداني برؤوسنا ليغرقنا في أعماقه .

حضنتُ الفتاةَ الشاعرة الطويلة الذهبية فعرفت حين قبّلتها أنها امرأة
مغلّمة ناضجة ومجربة . أمام دهشة (فيدريكو) انبطحنا أرضاً في ذلك
المراى وما أن بدأت بعريتها من ملابسها قطعة قطعة حتى لمحت فوقنا عيني
(فيدريكو) مختلتين مضطربتين تنظران وهما لا تصدقان أن ما يجري ،
يجري .

— ابعد عنا ، امش ، اذهب من هنا ، خذ بالك من أن يصعد على الدرج
أحد من الناس ، صرخت به .

بينما كانت الاضحية الى السماء ذات النجوم والى (افروديت) الليلية
تستهلك ، تستنفذ ، هناك في أعلى البرج ، ركض فيديريكو فرحاً لتأدية
مهمته ؛ مهمة قواد وناطور ، لكنه هرول كثيراً وكان حظه سيئاً في هذه
المهمة ، فتدحرج عبر درج البرج المعتم فكان علينا أن نخف : أنا وصدقتي،
لمساعدته ولم يكن الأمر سهلاً . وظل (فيدريكو) يعرج خلال خمسة عشر
يوماً .

(ميغيل إيرنانديث Miguel Hernandez) (١٦).

لقد مكثت زمناً طويلاً في قنصلية تشيلي ببونس ايريس . ثم نقلت
في بداية عام ١٩٣٤ الى قنصليتنا في برشلونة باسبانيا . كان السيد
(توليو ماكيرا) هو رئيسي في عملي الجديد اذ انه كان قنصلاً عاماً لتشيلي
في اسبانيا . كان هذا الرجل أحسن موظف ممن عرفتهم ، تأدية لواجبه،
كان صارماً حازماً مشهوراً بأنه نفور غضوب ولكنه كان يعاملني بشكل
ممتاز في طيبة وتفهم وود .

لقد اكتشف السيد (توليو) بسرعة اني كنت اضرب واطرحُ فسي

١٦ — ميغيل إيرنانديث : هو شاعر اسباني مشهور (١٩١٠ - ١٩٤٢) ترجمنا له وعنه
في كتابنا المذكور .

صعوبات كثيرة وتعثرات جمة واني ما كنت أحسن التقسيم (ابدا ما استطعت ان اتعلم هذا التقسيم اللعين) ، عند ذلك قال لي :

— (بابلو) ، يجب ان تعيش في مدريد ، هناك الشعر ، هنا فسي برشلونة ثمة هذه الضربات والطرحات والتقسيمات الرهيبة التي لا تحبك وانا استطيع ان اكتفي بنفسي في هذا الامر .

حين وصلت الى مدريد وقد غدوت في ليلة وضحاها وبفن الخفة قنصلا لتشيلي في عاصمة اسبانيا ، تعرفت فيها على اصدقاء (فيدريكو غارثيا لوركا) و(رفائيل البرتي) جميعهم . كانوا كثيرين . خلال بضعة ايام واذ بي أصبح شاعرا اسبانيا آخر بين الشعراء الاسبان . طبعا نحنن الامريكان مختلفون عن الاسبان ، اختلافا يبرز دائما في افتخار او خطأ من قبل هذا الفريق او ذاك .

كان اسبانيو جيلي اكثر مودة واكثر تضامنا واكثر بهجة مما هم عليه زملائي في امريكا اللاتينية . تأكدت في الوقت نفسه اننا نحن كنا اكثر عالمية ، اكثر تمثلا ومعرفة للغات اخرى وثقافات اخرى . فلقد كان عدد الذين يعرفون اللغات الاجنبية من بينهم جد قليل وما كانوا يتكلمون الا اللغة القشتالية . حين جاء (ديسنوس) و(كريفيل) الى مدريد ، كان عليّ ان اقوم بالترجمة بينهما وبين الكتاب الاسبان .

كان احذ اصدقاء (فيدريكو) و(رفائيل) هو الشاعر الشاب (ميغيل ايرنانديث) . لقد عرفته حين جاء وهو ينتعل نعلا مصنوعا من خيوط القنب ويلبس سروالا فلاحيا محاكا من نسيج صفيق ، من اراضي بلده «اوريويلة» Orihuela حيث كان فيها راعي عنز . انا نشرت له في مجلتي «كابايو فيرده» Caballo Verde (١٧) اشعاره فكانت تبهرني بوميضها وبريقها وغازاتها .

كان (ميغيل) فلاحا جدا الى درجة انه كانت تشتم منه رائحة الشراب،

له وجه من قطعة سكر ، من كعك ، ومن بطاطا ، يستخرج في شروشه
ويقتلع مع جذوره ويظل محتفظا بنضارته ورونق ما تحت التراب .

كان يعيش ويكتب في منزلي . لقد اثر به شعري ذو الافاق الامريكية
والابعاد الاخرى فراح هذا الشعر يبدله ويغيره .

كان يروي لي حكايا ارضية عن حيوانات وعصافير . كان هذا الكاتب
الطالع من الطبيعة مثل حجر لم يمسّ من قبل في عذرية غابية وقسوة
حيوية جارفة . كان يحكي لي عن مدى الروعة والتأثير والدهشة حين يضع
المرء سمعة فوق بطن العنزة النائمة فيسمع جلبة الحليب الذي يصل الى
الضروع ، الحفيف السري الذي ما استطاع احد سماعه الا ذاك الشاعر ؛
شاعر العنز .

كان ، مرات اخرى ، يكلمني عن شدو العنادل . كان الشرق الاسباني ،
موطنه ، مليئا ببيارات البرتقال الزهرة وبالعنادل . بما انه في بلدي لا
يوجد هذا العصفور ، هذا المغني الرفيع فان المجنون (ميجيل) احب ان
يعطيني اكثر صورة تعبيرية تشكيلية عن حيوية هذا الطائر فتسلق شجرة
في الشارع حتى بلغ الفصن الاخير ثم اخذ يصفر ويزغرد ويفرد مثل
عصافير بلده مسقط رأسه ، مثل العنادل الحبيبة اليه .

لم يكن عنده ما يعتاش به ولذلك بحثت له عن عمل . لقد كان صعبا
في تلك الاوقات ايجاد عمل لشاعر في اسبانيا . في النهاية اهتم بالموضوع
رجل «فيكونت» كان موظفا عاليا في وزارة الخارجية واجابني بأنه موافق
على تعيين (ميجيل) في منصب من المناصب وانه اعجب بأشعاره التي
قرأها مليا وان الامر الان يتوقف على (ميفيل) اذ ان عليه ان يقول ما هو
المنصب الذي يرغب به كي يصدر قرار التعيين توتا . طربا (١٨) قلت
للشاعر :

١٨ - طربا : في الاصل Alborozado ، وهي مشتقة من الكلمة العربية، البروز
al borozo ومن معانيها بالاسبانية ما قيدناه .

– (ميفيل) ، ها ان لك مصيرا وحظا . ان «الفيكونت» سيوظفك .
ستصبح موظفا عاليا . قل لي ما هو العمل الذي ترغب ان تشغله حتى
يصدروا قرار تعيينك .

ميفيل اطرق مفكرا . تفتى وجهه ذو التجعيدات الكثيرة المبكرة عن
موسمها ، بغشاء من الترويات والتأملات . مرت الساعات ولم يجبني الا
في المساء فقال لي وعيناه تومضان كمن وجد حلا لمشاكل حياته :

– الا يستطيع ال «فيكونت» هذا ان يتوسط فيجد لي قطيعا من
المنز ارعاه هنا قرب مدريد ؟.

ان ذكرى (ميجبل ايرنانديث) لا يمكن ان نفلت من جذور قلبي .
شدو العنادل الشرقية (شرق اسبانيا) وأبراجها النغمية المنصوبة بين العتمة
والازهار (١٩) كانت بالنسبة له حضورا متسلطا على عقله وجزءاً من مواد
دمه ، من شعره الارضي الغابي الذي اندغمت فيه رائعات الشرق الاسباني؛
لونه ، سداه ، صوته بغزارة الفتوة الرجولية القديرة وأريجها .

لقد كان وجهه وجه اسبانيا ، مصقولا بالنور ، متجعدا مثل ارض
مفلوحة مزروعة بشيء حاسم من قمح ومن تراب . كانت عيناه
المتوهجتان في هذا الميسم المحروق المتصلب على الريح (٢٠) ، شعاعين من
قوة ومن حنان .

لقد رأيت مواد الشعر نفسها تخرج من كلماته لكنها الآن تنبثق من
ضخامة جديدة ، من بريق غابي ، من أعجوبة الدم التليد الذي تمثل في

١٩ – الازهار : هكذا في الاصل Azhahares وهي في الاسبانية زهر البرتقال
المنتشر في شرق اسبانيا .

٢٠ – الريح : اشارة الى ديوان الشاعر «رياح الشعب» .

ابن (٢١) . اني لاستطيع الجزم في انني خلال حياتي كلها ؛ حياة شاعر رحالة ، ما رأيت ولم تعطني الحياة فرصة كي ارى ظاهرة شبيهة ، من نبوغ ومعرفة كهربائية شفوية ، بظاهرة (ميغيل ايرنانديث) .

(كابايو فيرده) (حصان اخضر)

كنا نتقابل بوميا في منازل ومقاه على شكل مجموعة واحدة او مجموعات صغيرة مؤلفة من (فيديريكو) و(البرتو) الذي كان يسكن في بيت قريب من بيتي ، في ملحق يطل على دغل من الاشجار ، ندعوه **الغيل الضائع** ، والرسام (البرتو) وهو خباز من طليطلة كان اذّاك معلما في النحت التجريدي ، و(التولاغيرة) (٢٢) و(بيرغامين) (٢٣) والشاعر العظيم (لويس ثرنودا) (٢٤) و (بيثيننه اليكساندره) (٢٥) شاعر ذي مدى غير محدود ، والمهندس المعماري (لويس لاكاسا) . كنا نرحل من شارع «لا كاستيانا» او من محلات البيرة عند «البريد» حتى نصل قرب بيتي ، الذي كنا ندعوه بيت الزهور ، فسي حي «ارغوايس» . كنا نهبط من الطابق الثاني لحافلة كبيرة كان يدعوها مواطني وابن بلدي العظيم (كوتابوس) سيارة اطفاء ، مجموعات صاخبة للاكل والشرب والفناء . اذكر من بين الشبان زملاء في الشعر والسرور (ارتورو سرائو بلاخا) (٢٦)

٢١ - ابن : اشارة الى ابن الشاعر الوحيد ، وقد اهداه ابوه قصيدة وهو في سجنه ، ترجمناها في كتابنا المذكور ص ١٤٨ - ١٥١ .

٢٢ - التولاغيره (مانويل Manuel) : شاعر اسباني (١٩٠٦ - ١٩٥٩) .

٢٣ - بيرغامين (خوسيه José) : كاتب اسباني ولد عام ١٨٩٧ .

٢٤ - لويس ثرنودا : شاعر اسباني (١٩٠٢ - ١٩٦٣) ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور .

٢٥ - بيثينته اليكساندره : شاعر اسباني ولد عام ١٨٩٨ في اشبيلية ، ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور ونحن في صدد اعداد كتاب عنه . حاز على جائزة نوبل للاداب لعام ٧٧ . ولدت انا جائزته عام ٧٨ .

٢٦ - ارتورو سرائو بلاخا : شاعر وناقد اسباني ولد عام ١٩٠٩ .

وهو شاعر ، و (خوسه كاباييرو) وهو رسام ، ذو حـدق وبراعة ولطافة ، و(انطونيو اباريشيو) (٢٧) ، الذي وصل من الاندلس (٢٨) مباشرة الى بيتي ، وآخرين كثيرين لم يعودوا موجودين في المكان او لم يعودوا موجودين في الحياة بيد ان اخوتهم تنقصني الآن بشكل حي كجزء من جسدي ومادة من روحي .

يا لمريد تلك ! كنت أغدو مع (ماروخا مايثو) الرسامة الجليقية عبر الاحياء السفلى لمريد باحثين عن محلات بيع الحصر والحلفاء ، باحثين عن ازقة صانعي البراميل ودكاكين بائعي الحبال ونبعث ثم نبعث عن مواد اسبانيا الصلبة كلها ، مواد تجدل قلبها ، تفتل قلبها وتشده . ان اسبانيا لصلبة وقديرة تلوحها الشمس الشاقولية وتخرج من سهولها وسهوبها الشرر وتبني قلاع نور وسط العجاج . ان انهار اسبانيا الحقيقية الوحيدة لهم شعراؤها ، (كيبيدو) بمياهه الخضراء العميقة ذات الأزباد السوداء ، (كالديرون) (٢٩) بغدرايه التي تغني ومقاطع حروفة التي تنشد ، الاخوان (ارخينسولا) الشفافان الفراتان ، (غونغورا) نهر جواهر وحلي .

لقد شاهدت (باية - انكلان) مرة واحدة فقط ، كان جد نحيل ، بلحيته البيضاء اللامنتهية ، بدا لي وكأنه يخرج من بين صفحاته وأوراق كتبه نفسها وقد طبع بها فجاء بلون صفحة صفراء .

لقد تعرفت على (رامون غومث دي لا سيرنا) (٣٠) في سردابه ب «بومبو» ومن بعد رايته في بيته . لا أستطيع ابدا ان انسى صوت (رامون) الجهوري وهو يوجه ويقود ، من مكانه في المقهى ، الحديث

٢٧ - انطونيو اباريشيو : شاعر اسباني هاجر الى امريكا عام ١٩٣٦ .

٢٨ - الاندلس : هو الاقليم الجنوبي من اسبانيا .

٢٩ - كالديرون de la Barca : كاتب اسباني معروف (١٦٠٠ - ١٦٨١) .

٣٠ - رامون غوميث دي لا سيرنا : كاتب اسباني (١٨٨٨ - ١٩٦٣) .

والضحك ، الافكار والدخان . ان (رامون غومث دي لاسيرنا) هو في رأي احد عظماء كتاب لفتنا ، وعبقريته لها من العظمة الملونة المتنوعة ما لـ (كيبيدو) و(بيكاسو) (٣١) . ان كل صفحة من صفحات (رامون غوميث دي لاسيرنا) تتمعن مثل ابن مقرض في ما هو فيزيائي وفيما هو ما ورائي، في الحقيقة وفي الطيف ، وما يعرفه وما كتبه من اسبانيا لم يقله احد سواه . لقد كان مجمع عالم سرّي ، قد غير نحو اللغة بيديسه الذاتيتين الاصيلتين ، بعد ان ضمخ اللغة بآثار انامله التي لا احد يجرؤ بعد على محوها .

لقد رأيت السيد (انطونيو ماتشادو) عدة مرات وهو جالس في مقهاه ببدلته السوداء كبدة كاتب عدل ، صامتا جدا ورصينا جدا ، عذبا متجهما كشجرة عتيقة في اسبانيا . كان يقول عنه الهمزة اللمزة (خوان رامون خيمينيث) ، الطفل الشيطاني القديم للشعر ؛ ان السيد (انطونيو) يقدو دائما وهو مليء بالرماد ، وانه ما كان يحمل في جيوبه الا أعقاب سجائر .

كان (خوان رامون خيمينيث) وهو شاعر ذو لمعان كبير ، هو الذي تكلف بإخباري عن الحسد (٣٢) الاسباني الخرافي مجسدا فيه . لم يكن هذا الشاعر العظيم بحاجة ان يحسد احدا من الناس او يغبطه في نعمة نظرا لان ابداعه الشعري كان بريقا كبيرا بدأ مع غموض القرن العشرين ، كان يعيش مثل ناسك مزيف ، يجرح وهو في مخبئه كل من يظن انه يغطيه بظلاله او يقلل من شأنه وشهرته .

كان الشعراء الشبان - (غارثيا لوركا) ، (البرتي) ، (خورخه غيين) (٣٣) ، (بيدرو ساليناس) (٣٤) ، مطاردين مضطهدين من قبل هذا (خوان

٣١ - بيكاسو Picasso, Pablo : الرسام الاسباني الخالد (١٨٨١ - ١٩٧٣) .

٣٢ - الحسد : هو من عيوب الاسبان ، وقد تكلم في ذلك كثير من كتابهم ، وبخاصة (أونا مونو) .

٣٢ - خورخه غيين : شاعر اسباني ، ولد عام ١٨٩٣ ، ترجمنا له وعنه في كتابنا المذكور .

٣٤ - بيدرو ساليناس : شاعر اسباني هاجر الى امريكا بعد الحرب الاهلية ومات هناك .

رامون) الشيطان الملتحي الذي كان كل يوم يرسل سهمه وسمه ضد هذا أو ذاك من الشعراء . كان يكتب أسبوعيا ضدي في تعليقات ملتوية حلزونية ينشرها كل يوم احد في صحيفة (ال سول) El Sol (٣٥) . لكنني آثرت أن احيا وأن ادعه يحيا ، فما رددت عليه بشيء البتة . لم احب - ولا اجيب - على التهجمات الادبية .

وصل ذات يوم الى بيتي الشاعر (مانويل التولاغيره) الذي كان يمتلك مطبعة وكان عنده ميل لان يكون طابعا فيها هو بنفسه وحكى لي انه ينوي اصدار مجلة شعرية بديعة تمثل احسن ما في اسبانيا من شعر وافضله . - ليس ثمة الا شخص واحد يمكن له ان يدير هذه المجلة - قال لي - وهذا الشخص هو انت .

انا كنت مخترعا ملحميا لمجلات سرعان ما تركتها او تركتني . في عام ١٩٢٥ اسست مجلة دعوتها « حصان ذو رحال » . كان ذاك الزمن هو الزمن الذي كنا نكتب فيه بلا علامات وقف ولا فواصل ولا تنقيط . في ذلك الزمن كان (هوميرتو دياث كاسانوف) يستعمل «سويتز» بعنق سلحفاة ، جراحة كبيرة بالنسبة لشاعر في تلك الفترة ، شعره كان جميلا ناصعا وسيبقى هكذا جميلا ناصعا الى الابد ، (روساميل ديل بايه) كان يرتدي ثوبا اسود وبشكل اسود من القبعات حتى الحذاء كما كان فرضا على الشعراء اذذاك ، اذكر هذين الزميلين بصفتهما مشاركين فعّالين . اعرف اني انسى آخرين . لكن عدو حصاننا ذاك هز الفترة والعصر هزّا .

- اجل ، يا (مانوليتو) (٣٦) ! اني اقبل بإدارة المجلة .

كان (مانويل التولاغيره) طابعا مجيدا ، يداه كانتا تغنيان صناديق الحروف بخصائص فياضة رائعة . (مانوليتو) كان يشرف الشعر بشعره وبأيديه الملائكيتين العاملتين . لقد ترجم وطبع في جمال فريد «ادونيس» لـ (شيلي) (٣٧) ، مراثاة لـ (جون كيتس) (٣٨) ، طبع ايضا «حكاية خينيل»

٣٥ - السول : معناها ، الشمس .

٣٦ - مانوليتو Manolito : هو تصغير بحب لمن يسمى Manolo .

٣٧ - شيلي : الشاعر الانجليزي المعروف (١٧٩٢ - ١٨٩٦) .

٣٨ - جون كيتس : الشاعر الانجليزي المعروف (١٧٩٥ - ١٨٢١) .

(La Fabula del Cenil) لـ (بيدرو اسبينوسا Pedro Espinosa) (٢٩) كم من بريق كانت تودع مقاطع القصيدة المذهبة المظلمة بالميناء في تلك المطبعة ذات الطراز الواحد ، الجليظة التي كانت تبرز الكلمات منصهرة من جديد في البوتقة .

أخرجت من مجلتي «حصان أخضر» خمسة أعداد متقنة في جمال لا يشك فيه ، كان يعجبني أن أرى (مانوليتو) وهو دائم الضحك مغمم الابتسامة وهو يصف الحروف ، يرتبها وهو من بعد يدفع بالقدم الآلة الصغيرة الورقية. أحيانا كان يحمل نسخ الطبعة في عربة طفلة (بالوما) (٤٠). كان المارة يطرونه ويشنون عليه معتقدين أن في العربة الطفلة الصغيرة :

— يا للآب الجدير بالتقدير والاعتبار ! كيف يعبر وسط حركة المرور الشيطانية بهذه المخلوقة حانيا على ابنته حادبا !

لقد كانت المخلوقة هي الشعر الذي يمضي في رحلة على ظهر «حصانه الأخضر» . نشرت المجلة أول قصيدة جديدة لـ (ميغيل إيرنانديث) وطبعها ، قصائد (فيدريكو) و(ثيرودا) و(اليكساندره) و(غيين) (الطيب : الأسباني) (٤١) . كان (خوان رامون خيمينيث) المريض باختلال عصابي لاذع ، يستمر في توجيه النبال الاحادية (كل يوم أحد) .

العنوان لم يعجب (رفائيل البرتي) :

لماذا يجب أن يكون الحصان أخضر ؟ «حصان أحمر» ، يجب أن تسمى المجلة .

٢٩ — بيدرو اسبينوسا : شاعر اسباني (١٥٧٨ - ١٦٥٠) .

٤٠ — بالوما : معناها ، حمامة ، وهي الآن صديقة لي وزميلة في جامعة ملويد وفي جمعية الادب المقارن التي أسست حديثا .

٤١ — (الطيب : الأسباني) : القوسان من المؤلف ، وهو هنا يميز (خورخه غيين) عن الشاعر الكوبي (نيكولاس غيين Nicolas Guillen) الذي لم تكن علاقته به حسنة .

لم اغير لون الحصان ، لكن (رفائيل) وانا ابدا ما تخصمنا ، لهذا السبب ولا لاي سبب آخر ، ثمة في العالم اماكن للاحصنة جميعها وثمة شعراء من الوان قوس القزح كلها .

لقد مكث العدد السادس من «حصان اخضر» في شارع «بيرياتو» دون تصفيف ولا تخطيط ولا ترتيب . كان هذا العدد مخصصا لـ (خوليو ايريرا اي ريسنيغ Julio Herrera y Reissig) (٤٢) . وكان قد كتب هذه النصوص تكريما له وتعظيما الشعراء الاسبان ، فقبعت هناك هذه النصوص بجمالها دون ان تحبل ولا ان تلد : كانت المجلة ستظهر الى النور يوم التاسع عشر من تموز عام ١٩٣٦ ، لكن في ذلك اليوم امتلا الشارع بارودا ودخانا . جنرال غير معروف يدعى (فرانثيسكو فرانكو) (٤٢) قد تمرد على الحكم الجمهوري في محميته بأفريقيا .

الجريمة حدثت في غرناطة

وانا اكتب هذه السطور الآن ، تحتفل اسبانيا الرسمية بأعوام كثيرة - جدا - من التمرد والعصيان . يستعرض القائد وهو يرتدي الملابس الذهبية والزرقاء ، محاطا بالحرس المغربي (٤٤) وعلى جانبيه سفير الولايات المتحدة وسفير انجلترا وآخرون كثيرون ، في هذه اللحظة بشوارع مدريد، القوات المسلحة ؛ قوات مسلحة مؤلفة في أغليبيتها من شبان فتيان ما عرفوا تلك الحرب ولا شهدوها .

٤٢ - خوليو ايريرا اي ريسنيغ : شاعر من الاورغواي (١٨٧٥ - ١٩١٠) .

٤٣ - فرانثيسكو فرانكو : كان رئيسا للدولة الاسبانية ولد عام ١٨٩٢ وتوفي عام ١٩٧٥ .

٤٤ - العربي Moro : هي كلمة أطلقها الرومان على سكان شمال افريقيا ، وهي تطلق الآن على العرب جميعا ، ومن المعروف ان فرقة من الجنود المغاربة قد ساعدت (فرانكو) اثناء الحرب الاهلية ، ثم اخذ منهم حرسه الخاص حتى عام ١٩٥٨ حين نشب النزاع بين اسبانيا والمغرب على «افني» .

اما انا فلقد عرفتھا ؛ مليونا من الضحايا الاسبان ! مليونا من المنفيين الاسبان ! . كان يبدو لي ان هذه الشوكة الدامية لن تمحى ابدا من ضمير الانسانية . لكن هؤلاء الفتيان الذين يسرون الآن في العرض العسكري امام الحرس المغربي قد يجهلون حقيقة ذلك الناريخ الفظيع .

كل شيء بدأ بالنسبة لي ليلة التاسع عشر من تموز عام ١٩٣٦ . كان يعمل شاب تشيلي لطيف ومغامر يدعى (بوبي ديغلان) متعبدا في السيرك الكبير «بريثه دي مدريد» . سرحت له التحفظاتي حول جدية هذه الالام «الرياضية» فاقنعني ان اذهب الى السيرك وان اصطحب (غارثيا لوركا) معي لنتأكد من اصالة هذا الاستعراض الجميل . اقنعت (لوركا) واتفقنا ان نتلاقى هناك في ساعة محددة مناسبة . كنا سنقضي فترة ممتعة بالتفرج على تهريجات «ساكن الكهوف المبرقع» و«المارد الحبشي» و«انسان الغاب الشرير» .

تخلف (فيدريكو) عن الموعد . كان قد راح ليلقى حتفه . لم اره من بعد هذا ابدا . مواعده كان مع مرده وسفاحين آخرين . هكذا بدأت حرب اسبانيا التي غيرت شعري ، لقد بدأت بالنسبة لي باختفاء شاعر .

واي شاعر ! ابدا لم ار شاعرا مثله اجتمع فيه اللطافة والعنفوية ، القلب المجنح والشلال الشفاف . لقد كان (فيدريكو غارثيا لوركا) العبقرى المسرف في وحيه وإلهامه ، بؤرة الفرح التي تشع كالكوكب بسعاده الحياة . كان نابغة وفكيها ، كونيا وريفيا ، موسيقيا فذا ، ممثلا رائعا ، فزعا ومعتقدا بالخرافات ، لامعا ونبيلا ، كان خلاصة اعمار اسبانيا وعهودها ، صفوة الازدهار الشعبي ، نتاجا عربيا - اندلسيا ينير ويفوح مثل ابكية ياسمين على مسرح اسبانيا، كان كل هذا ، با ويليقي لقد اختفى ذلك المسرح فاواه وآه .

لقد كان يفتنني (غارثيا لوركا) بقدرته العظيمة على الاستعارات والمجازات وكان بهمني ان اقرا كل ما كان يكتبه وهو كان يطلب مني ان اقرا له آخر ما كتبته من قصائد ، وحين اكون في منتصف القراءة بقاطعتني صارخا : «لا تستمر . لا تستمر ، اذ انني اناثر بك» .

لقد كان (لوركا) في المسرح وفي السكون ، وسط الجماهرة وفي
الانزواء ، يضاف الجمال ويزيد الروعة . ابدا ما رايت مثله أنموذجا لسه
هذا السحر العظيم في يديه ، قط ما كان لي اخ اكثر منه بهجة . كان
يضحك ، يغني ، يموسق ، ينغم ، يقفز ، يبدع ، يخترع ، يطلق شررا .
يا له من مسيكن ، فلقد كانت له هبات العالم كلها وكما كان صائغ ذهب ،
خلية نحل من الشعر العظيم ، كان يسرف في نبوغه ، يستنفد قريحته .

— اصغ — كان يقول لي ، وقد اخذني من ذراعي — أفترى هذه
النافذة ؟ أفلا تجدها «شورباتيلية» chorpatélico ؟

— وماذا تعني كلمة «شورباتيلية» ؟

— وانا كذلك لست أدري ، لكن علينا ان نميز بين ما هو «شورباتيلي»
وبين ما ليس هو «شورباتيليا» وبدون هذا يكون المرء ضائعا . انظر الى
هذا الكلب ، يا له من «شورباتيلي» !

او انه كان يحكي لي انه ذات مرة دُعي الى مدرسة للاطفال الصغار
في غرناطة كانت تحتفل بإحياء ذكرى «الكيخوته» (٤٥) ، وحين وصل الى
قاعة الاحتفال ، غنى الاطفال جميعهم تحت ادارة المديرة :

دائما دائما سيحتفل
من الأبد الى الأجل
بهذا الكتاب المفسر المتين
من لدن (ف. رودريغيث مارين) (٤٦) .

القيت ذات مرة محاضرة عن (فارثيا لوركا) ، وذلك بعد عدة سنوات
من موته ، فسألني أحد الحاضرين :

٤٥ — الكيخوته Quijote : هو كتاب (سيرفانتيس Cervantes) (الخالد) .
٤٦ — ف. رودريغيث مارين : هو كاتب وعلاّمة اسباني (١٨٥٥ - ١٩٤٣) . وحرف
الروي في الاصل على النحو التالي : ا.ب. ا.ب.

— لماذا تقول في قصيدة «نشيد الى (فيدريكو)» انه من اجله «تدهن المشافي باللون الازرق» (٤٧) ؟ .

— انظر ، ايها الرفيق — اجبته — ، ان توجيه مثل هذه الاسئلة الى شاعر هو كمن يسأل النساء عن أعمارهن .

ليس الشعر بمادة ساكنة (استاتيكية) بل هو تيار متدفق الى حد انه احيانا يفلت من يدي خالق هذا الشعر ذاته . ان مادة الشعر الخام هي مصنوعة من عناصر هي هي وفي الوقت نفسه ليست اياها ، من اشياء موجودة وغير موجودة . على كل حال سأحاول ان أجيبك في صراحة وصدق : ان اللون الازرق بالنسبة لي هو اكثر الالوان جمالا . ان للون الازرق انحناءة الغضاء الانساني، مثل القبة السماوية، نحو الحرية والفرح . ان حضور (فيدريكو) ، سحره الشخصي ، كانا يفرضان جوا من البهجة حوله . يريد ان يقول بيت شعري هذا انه حتى المشافي ، حتى حزن المشافي ، يمكن لها ان تستحيل بتأثير من رقيته وفتنته ، بغثة ، الى ابنة جميلة زرقاء .

لقد كان لفيدريكو ادراك مسبق بموته . حين عاد ذات مرة من جولة مسرحية قام بها ، ناداني كي يقص عليّ حادثة غريبة جدا . كان قد وصل مع فناني فرقته « لا برآكا » (٤٨) الى قرية نائية جدا في «قشتالة» ، فنزلوا في جوار القرية وهناك خيموا . ما استطاع (فيدريكو) ان ينام تلك الليلة وقد اضناه المسير وكان مرهقا مشغول البال بالرحلة وهموم الفرقة ومشاكل السفر . حين تفتّق الفجر قليلا نهض من فراشه وخرج كي يقوم بجولة وحده عبر الحقول المترامية هناك ، كان ثمة برد لاذع كحد السكين من هذا البرد الذي تعدّه «قشتالة» للمسافس والعابر والدخيل . كان الضباب ينطلق سحائب سحائب بيضاء تحيل كل شيء الى مداه الشبحي الرهيب .

٤٧ — هذه القصيدة تشغل الصفحات (٧٧ — ٨٣) من كتابنا ، **بايلو نيرونلا ، معتبرات شعوية** ، منشورات وزارة الاعلام العراقية عام ١٩٧٤ .

٤٨ — لا برآكا : معانها ، **الكوخ** .

ما كان ثمة الا حاجز كبير من حديد متأكسد ، تمائيل مهشمة ، أعمدة مكسرة فلاقا فلاقا بين اوراق الاشجار اليباس الهشة الموشوشة . توقف عند باب نطاق عتيق ، كان المدخل الى مزرعة فسيحة لدائرة اقطاعية . كان الخلاء والخواء والوقت والبرد تجعل الوحشة اكثر تغلغلا واشد وهرة . شعر (فيدريكو) على حين غرة انه جزع هلع فزع مشدوه بما سيطلع من ذلك الشروق ، مشدود الى شيء غامض لا بد ان يحدث ، ان يقع في ذلك القفر . هناك جلس على تاج عمود ساقط .

جاء خروف حولي صغير ليقضم اطراف الاعشاب بين الاطلال والخرائب . كان ظهوره ظهور ملاك صغير من ضباب يونس الوحشة ، يسمر عشا عند انشقاق عمود الصبح ، كان وقوعه وقوع زهرة حنان فوق وحدة الربيع اليتيم ، فشعر الشاعر ان هذا السامر يؤنسه ويصعبه .

فجأة واذا بقطيع من الخنازير يجتاح الحظيرة . اقتربت اربع او خمس بهائم داكنة اللون ، خنازير شبه متوحشة ذات جوع جموح وظلال صلدة .

(فيدريكو) حضر اذالك مشهدا مفزعا مرعبا ، فلقد انقضت الخنازير على الخروف تعمل فيه انيابها فقطعته اربا اربا والتقمته والشاعر يرتعد خوفا ، يرفض منه صليده .

هذا المشهد الدموي الوحشي جعل (فيدريكو) يأمر فرقة مسرحه المتجول ان تواصل المسير توتوتا وان تقلع راحلة عن ذلك المكان .

كان يقص عليّ (فيدريكو) هذه الحكاية الرهيبة وهو ما يزال ينتفض رعبا ، وذلك قبل ثلاثة اشهر من الحرب الاهلية . انا أدركت من بعد في وضوح جلي او غير جلي ان هذه الحادثة ما كانت الا عرضا مسبقا لتمثيلية مصرعه ، ارهاصا لمأساته التي لا تصدق .

ان (فيدريكو غارثيا لوركا) لم يعدم رميا بالرصاص ، بل اغتيل . بديهيا ما كان يخطر على بال احد انهم سيقتلونه ذات يوم ، ما كان احد يفكر في ذلك . كان هو من بين الشعراء الاسبان الاكثر محبوبا الاكثر

معشوقا الاكثر شبها بطفل لما له من بهجة رائعة . من كان يمكن له ان يظن ان ثمة فوق هذه الارض ، وبخاصة فوق ارضه ، مرده مسوخا قادرة على اقتراف جريمة غير مفسرة مثل هذه ؟.

ان حدوث تلك الجريمة بالنسبة لي كانت اكثر حوادث ذلك الصراع الطويل اما . لقد كانت اسبانيا دائما مسرحا لمصارعين مجالدين ، ارضا ذات دماء كثيرة . ان ساحة مصارعة الثيران بقربانها واناقتها القاسية تعيد وقد وشيت وزخرفت بفرقة تمثيل متجولة ، ذاك الصراع القديسم بين النور والظل .

ان (فراي لويس دي ليون) (٤٩) تسجنه محاكم التفتيش ، (كيبيدو) يموت- في زناناته ، (كولبوس) (٥٠) يمشي والسلاسل في قدميه ، وكان المشهد الاكبر هو مستودع العظم في «الاسكوريال» (٥١) **El Escorial** كما هو عليه الآن «النصب التذكاري للشهداء» (٥٢) ، والصليب يعلو فوق مليون من الاموات (٥٣) وفوق ذكريات مظلمة لا حصر لها .

كتابي عن اسبانيا

لقد مر الزمن . بدأنا نخسر الحرب . لقد صاحب الشعراء الشعب

٤٩ - فراي لويس دي ليون : شاعر وكاتب اسباني ولد في مدينة «ليون» **León** (١٥٢٧ - ١٥٩١) .

٥٠ - كولبوس **Colon Cristobal** : مكتشف امريكا (١٤٥١ - ١٥٠٦) .

٥١ - الاسكوريال : هو دير في بلدة بهذا الاسم تقع على بعد اربعين كيلومترا من مدريد ، وفيه مكتبة مشهورة .

٥٢ - النصب التذكاري للشهداء : أقيم هذا النصب تخليدا لشهداء الحرب الاهلية، وهو قريب من «الاسكوريال» .

٥٣ - يقتبس (نيرودا) هذا من بيت شعر للوركا ، وقد اقتبسه كذلك الشاعر المصري (عبد الرحمن الابنودي) في قصيدة يهديها الى (الوركا) فقمنا بترجمتها الى الاسبانية ونشرناها في العدد الثاني من مجلة **Mundo Arabe** في بحث عن الادب المصري ما بين حرب حزيران ٦٧ و تشرين اول ٧٣ . وفوق النصب التذكاري هذا صليب كبير كذلك .

الاسباني في نضاله . (فيدريكو) كان قد اغتيل في غرناطة ، (ميفيستل ايونانديث) تحول من راعي عنز الى مناضل فعلي، كان ينشد أشعاره وهو في الزي العسكري في الخط الاول من المعركة النارية ، (مانويل التولاغيره) استمر في مطابعه . نصب مطبعة في حماة المعركة بالجبهة الشرقية ، قرب «خيرونا» في دير فديم . هناك طبع في شكل فريد من نوعه كتابي «اسبانيا في القلب» . اظن ان كتباً قليلة في تاريخ الكتب الغريب ، كانت لها مثل ما كان لهذا الديوان من مخاض عجيب ومن مصير غريب .

فلقد تعلم الجنود في الجبهة صف حروف المطبعة ، لكن كان ينقصهم الورق . وجدوا طاحونة قديمة فقرروا صنعه هناك . لقد كان خليطاً غريباً ما صنعوه ، بين القنابل المتساقطة ، في أجيج المعركة . كانوا يقدفون بكل شيء الى الطاحونة من راية للعدو الى عباءة مدماه لجندي مغربي . على الرغم من هذه المواد غير المتألّفة فيما بينها ومع قلة خبرة الايدي الصانعة فقد خرج الورق بديعاً جداً . ان ما يحفظ حتى الآن من نسخ قليلة لهذا الكتاب تدهش بما فيها من وضوح الحروف والطباعة ذات الصنعة السرية . رايت بعد عدة سنوات نسخة من هذه الطبعة في «واشنطن» بمكتبة «الكونغرس» موضوعة في واجهة زجاجية تعرض اكثر الكتب غرابة في زمننا .

ما ان طبع ديواني وجلّد حتى اخذت تتسارع هزيمة الجمهورية . لقد امتلات الدروب التي تؤدي الى خارج اسبانيا بمئات الآلاف من الرجال الهاربين . لقد كان هذا النزوح اشد الحوادث ايلاماً في تاريخ اسبانيا .

مع هذه الحشود الراحلة الى المنفى كان الجنود الذين نجوا من فرقة الجبهة الشرقية يمضون مهزومين، وكان من بينهم (مانويل التولاغيره) وكذلك الجنود الذين صنعوا الورق وطبعوا «اسبانيا في القلب» . ان كتابي هذا كان مفخرة هؤلاء الرجال الذين طبعوا شعري في تحدٍّ للموت . عرفت ان كثيرين منهم آثروا شحن الاكياس بالنسخ المطبوعة على شحنها بأغديتهم وملابسهم . والاكياس على اكتافهم شرعوا بالمسيرة الطويلة باتجاه فرنسا .

لقد هوجم هذا الطابور الهائل من الهاربين الى المنفى بالقنابل التي كانت تساقطها الطائرات مئات من المرات . وهناك وراء الحدود ، فسي

فرنسا ، لاقى من نجا من هؤلاء الاسبان معاملة سيئة في المنفى . لقد قدمت النسخ الاخيرة من هذا الكتاب اضاحي في احدى المجامر وهكذا فان هذا الديوان المتوهج ولد ومات في وطيس المعركة .

لقد بحث (ميفيل ايرنانديث) عن ملجأ في السفارة التشيلية التي كانت خلال الحرب قد آوت عددا هائلا لا يقل عن اربعة آلاف من انصار (فرانكو) لكن السفير في ذلك الوقت وهو (كارلوس مورلا لينش) رفض ان يأوي الشاعر الكبير فسي سفارته ، مع انه كان يزعم انه صديق حميم له . بعد ايام قليلة اعتقل (ميفيل) وسجن ، ثم مات بالسل في زنزانه بعد ثلاث سنين من الاسر . اذ ان العندليب لم يطق اصفاده وما قدر على تحمل وطاة اسره .

كان عملي القنصلي قد انتهى اذ ان الحكومة التشيلية قررت خلعي من منصبي بسبب مشاركتي في الدفاع عن الجمهورية الاسبانية .

الحرب وباريس

وصلنا الى باريس . استأجرت بمشاركة (رافائيل البرتني) وزوجته (ماريا تيريسا ليون) شقة في حي «كواي دي ل هورلوغ» وهو حي هاديء ورائع . كنت ارى قبالي «البونت نوف» وتمثال (هنري الرابع) وصيادي الاسماك الذين كانوا منتشرين على ضفتي نهر «السين» . خلف بيتنا كانت ساحة «دوفين» الكثيرة العروق تفوح برائحة كرائحة اوراق الشجر والمطاعم . . هناك كان يسكن الكاتب الفرنسي (اليجو كاربينتيير) (٥٤) ، وهو واحد من اكثر الرجال الذين عرفتهم حبا بالحياة فلم يكن يجرؤ على ابداء الرأي حول اي شأن من الشؤون ، ولا حتى حول النازيين الذين كانوا يغفرون على باريس مثل الدئاب الجائعة .

من على شرفتي ، من جانبها الايمن ، كنت المح ، منحنيا قليلا الى خارج

٥٤ - اليجو كاربينتيير : ولد في كوبا عام ١٩٠٤ .

الشرفة ، أبراج «كونسرجير» الكبيرة ، كانت ساعتها الكبيرة بالنسبة لي هي حد الحي الاخير .

لقد حزت لحسن الحظ على صداقة اثنين من اعظم ادباء فرنسا فكانا لي صديقين حميمين خلال سنين عديدة الا وهما (بول إيلوار) (٥٥) و(اراغون) (٥٦) . لقد كانا وما زالا كلاسيكيين غريبين في الملاحظة والظرافة ذوي اصالة حيوية تضعهما الموضع الاكثر رنينا في غابة فرنسا . وهما في الوقت نفسه مساهمان حقيقيان راسخان في الاخلاق التاريخية . ثمة قليلون من الاشخاص مختلفون متباينون فيما بينهم كتباين هذين الاثنين واختلافهما . لقد تمتعت باللذة الشعرية في اضاعة الوقت كثيرا من الاحايين مع (بول ايلوار) . ان ينجب الشعراء على الروائز فانهم سيطلقون السر ويبوحون به ، ليس هناك اجمل ولا اروع من اضاعة الوقت عبثا . وكل واحد له أسلوبه الخاص به لممارسة هذا الميل القديم . لم اكن احس مع (بول) لا بالليل ولا بالنهار كيف يمضيان وينقضيان وأبدا ما عرفت ان كان لما كنا نتحدث به أهمية ام ليس له من أهمية البتة . . (اراغون) هو آلة اليكترونية من الدكاء ، من المعرفة ، من العبقرية اللوذية ، من السرعة البلاغية والفصاحة وسرعة الخاطر . من بيت (ايلوار) كنت دائما اخرج وأنا ابتسم دون ان أعرف مما ابتسم ، بينما بعد قضاء بضعة ساعات مع (اراغون) كنت اخرج منهكا لأن هذا الابليس كان يجبرني على التفكير . لقد كان هذان الاثنان صديقين من خلص اصدقائي وكنت مشدودا اليهما جدا ، ولعل ما كان يعجبني فيهما اكثر من الخصال الحميدة ، هو عظمتهم المتنافرة المتناقضة .

نانكي كونارد Nancy Cunard

قررنا ، أنا و(نانكي كونارد) ، اصدار نشرة شعرية عنونها انا «شعراء

٥٥ - بول ايلوار : الشاعر الفرنسي المعروف (١٨٩٥ - ١٩٥٢) .

٥٦ - اراغون Louis : شاعر المقاومة الفرنسية والروائي المعروف ولد عام ١٨٩٧ .

العالم يدافعون عن الشعب الاسباني» .

كان لـ (نانكي) مطبعة صغيرة في دارها الريفية بالريف الفرنسي . لست اذكر الآن اسم هذه الناحية ، لكن كانت بعيدة عن باريس . حين وصلنا الى دارها كان الوقت ليلا وكان في السماء قمر منير . كان الثلج والقمر يرتجفان مثل ستارة تحيط بالمزرعة . انا ، متحمسا ، خرجت للتنزه . حين اردت الرجوع كان ندف الثلج يدوم فوق رأسي في عناد واصرار ولذلك أضعت دربي ومتيت نصف ساعة أخبط خبط عشواء في بياض الليل .

كان لـ (نانكي) تجربة في الطبع والطباعة ، عندما كانت صديقة (اراغون) نشرت ترجمة قصيدة *Hunting of The Snark* وكانت قد ترجمتها هي بالاشتراك مع (اراغون) . في الحقيقة ، هذه القصيدة لـ (لويس كارول) (٥٧) هي غير قابلة للترجمة واعتقد اننا لا يمكن لنا ان نجد عملا شبيها مسن فسيفساء مجنون الا في اعمال (غونغورا) .

بدأت أهـيء أنماطا من الحروف وأظن انه ليس هناك صـصاف حروف أسوأ مني على الإطلاق . بما اني كنت أضع أنماط حـرف (p) على العكس فانها كانت تستحيل الى حـرف (d) بسبب غبائي المطبعي . في بيت شعر ظهرت مرتين كلمة *Parpados* (٥٨) فأصبحت مرتين مكررتين كلمة *Dardapos* (٥٩) . لقد عاقبتني على ذلك (نانكي) فقد كانت تناديني خلال عده سنين ، دائما على هذا النحو *dardapos* وكانت تبدأ رسائلها اليّ من لندن بعـبارة *My dear dardapo* . لكن النشرة خرجت لاثقة جدا واستطعنا ان نطبع ستة او سبعة اعداد . بالاضافة الى الشعراء الملتزمين مثل (غونثاليت تونيون) او (البرتي) او بعض الشعراء الفرنسيين ، فاننا نشرنا قصائد ملتهبة حماسية وعاطفية لـ (و. هـ. اودين *W. H. Auden*) (٦٠) ، و(سبيندير) الخ . هؤلاء

٥٧ - لويس كارول : هو عالم بالرياضيات وكاتب قصصي انجليزي (١٨٣٢ - ١٨٩٨) .

٥٨ - معناها : جفون .

٥٩ - كلمة لا معنى لها .

٦٠ - اودين : مؤلف مسرحي وشاعر انجليزي ولد عام ١٩٠٧ .

السادة الانجليز لن يعرفوا ابدا ما عانته اصابعي الكسلى وهي تصصف
حروف اشعارهم .

من حين الى حين كان يصل من انجلترا شعراء اصدقاء لـ (نانكي)
وكل واحد منهم كان يضع زهرة بيضاء في العروة وكان هؤلاء كذلك يكتبون
قصائد ضد (فرانكو) .

ابدا ما وجد في التاريخ الفكري الثقافي مادة خصبة للشعر والشعراء
كما توفرت هذه المادة في الحرب الاسبانية . ان الدم الاسباني كان بمثابة
مفناطيس جعل الشعر يهتز خلال فترة عظيمة ولمدة طويلة .

لست ادري ان كانت تلك النشرة قد لاقت نجاحا ام لم تلق لانه في
تلك الحقبة انتهت بشكل سيء الحرب الاسبانية لتبدأ بشكل سيء حرب
عالمية جديدة ، هذه الاخيرة على الرغم من ضخامتها، على الرغم من قساوتها
التي لا عد لها ولا حصر ، على الرغم من بطولاتها المسفوقة المسفوحة ، لم
تستطع ابدا ان تأسر قلب الشعر الجماعسي كما أسرت الحرب الاهلية
الاسبانية .

كان عليّ أن اعود من اوروبا الى بلدي ، (نانكي) كذلك سافرت الى
تشيلي يصحبها مصارع ثيران ترك في «سانتياغو» الثيران و(نانكي كونارد)
لكي يفتح محلا لبيع النقانق والسجق والمحاشي الاخرى . لكن صديقتي
العزيزة جدا لا تقبل الهزيمة لانها من النوع الرفيع جدا فاتخذت لها في
تشيلي عشيقا : شاعرا صعلوكا ، متشردا قدر الهنعدام سيء المظهر ،
تشيليا من اصل «باسكوي» . لم يكن ينقصه النبوغ بل حرم من الاسنان .
اضف الى هذا وذاك ان هذا العاشق المفضل الجديد كان سكيراً عريدا ،
وكان يبخش هذه الامراة الارستوقراطية الانجليزية بصفعات ليلية معادة
مكررة مما كان يجبرها على الظهور في المجتمع بنظارة غامقة الحدقتين
كبيرة الحجم .

في الحقيقة كانت هي شخصية من الشخصيات «الكيخوتية» المزمنة
الشجاعة المثيرة للشجون وهي كانت اكثر من عرفت منهم غرابة . وهي
الوريثة الوحيدة لـ (كونارد لينه) وابنة السيدة
قامت

بفضيحة اهتزت لها لندن وذلك في عام ١٩٣٠ ، فقد هربت مع رجل اسود ، كان مَوْسِقِيًّا (صيفة تحقير) في اول عصبة «جاز» استوردها فندق Savoy حين وجدت Lady Cunard السرير خاليا من ابنتها ورسالة منها تخبرها فيها ، مفتخرة مزدهية ، بمصيرها الاسود ، توجهت هذه السيدة النبيلة الى محاميتها وقررت حرمانها من الوراثة . هكذا ، اذن من عرفت اننا ، متشردة عبر العالم كانت محرومة من ارث العظيمة البريطانية . كان يحضر مجالس السمر التي كانت تقيمها والدة (نانكي) ، (جورج مور) (٦١) ، (كان يشاع بأنه هو الوالد الحقيقي لـ (نانكي) و(السير توماس بيشام) (٦٢) والشاب (الدوس هوكسلي) (٦٣) وأمير «غاليس» الذي اصبح من بعد دوق «ويندسور» (٦٤) .

(نانكي كونارد) اعادت الصفة صفعتين ، ففي شهر كانون الاول الذي حرمتها فيه أمها من الوراثة ، تلقت الارستوقراطية الانجليزية جميعها كهدية في عيد الميلاد كتيبا ذا غلاف احمر معنونا على النحو التالي : (Negro man and white Lady Ship) لم ار اكثر من هذا الكتيب تقريبا ، يبلغ احيانا وبالة (سويفت Swift) (٦٥) .

كانت حججها في الدفاع عن السود تنزل كضربات هراوة على رأس Lady Cunard وعلى المجتمع الانجليزي . اذكر انها كانت تقول لهم ، واورد من الذاكرة لان كلماتها وعباراتها كانت اكثر بلاغة :

«اذا حضرتك ، ابنتها السيدة البيضاء ، او بالاحرى جماعتك، خطفتهم قبيلة اكثر قدرة وقوة منهم ثم ضربتهم وقيدتهم بالاصفاد ، ثم نقلتهم

-
- ٦١ - جورج مور : روائي ايرلاندي (١٨٥٢ - ١٩٣٣) .
٦٢ - السير توماس بيشام : ضابط أيقاع فرقة موسيقية ، انجليزي (١٨٧٩ - ١٩٦١) .
٦٣ - الدوس هوكسلي : كاتب انجليزي (١٨٩٤ - ١٩٦٣) .
٦٤ - دوق ويندسور : كان ملكا لانجلترا باسم (ادوارد الثامن) تنازل عن العرش عام ١٩٣٦ .
٦٥ - سويفت اجو ناثان Jonathan : كاتب انجليزي (١٦٦٧ - ١٧٤٥) .

بعيدا عن انجلترا كي يباعوا في سوق النخاسة ، معروضين كنماذج رخيصة للوفاء الانساني ، مجبرين على الاعمال الشاقة تحت لدغ الشياطين ، وبغذية لا تكاد تسد الرمق ، فماذا سيبقى من ابناء جنسك ؟ لقد عانى السود من هذا ومن غيره من التمييز والقساوة . فقدوا بعد قرون عديدة من المعاناة والعذاب افضل الرياضيين واقواهم ، وكذلك فقد خلقوا موسيقى اكثر عالمية من غيرها . افكنتم تستطيعون ايها البيض ان تخرجوا منتصرين من مثل هذا الجور الكثير ؟ اذن ، من هم اكبر قيمة ومن هم اجدر ؟ »

وهكذا في ثلاثين صفحة .

لم تستطع (نانكي) ان تعود لتقيم في انجلترا ومنذ هذه اللحظة احتضنت قضية الجنس الاسود الملاحق المضطهد . لقد ذهبت الى «اديس ابابا» خلال غزو الحبشة . من بعد وصلت الى الولايات المتحدة كي تتضامن وتدعم الفتيان السود من «سكوتسبورو» الذين اتهموا بفضائح لم يرتكبوها . لقد ادانت العدالة العنصرية في امريكا الشمالية هؤلاء الفتيان السود وطردت الشرطة الديمقراطية في الولايات المتحدة (نانكي كونارد) خارج الحدود .

في عام ١٩٦٩ ماتت صديقتي (نانكي كونارد) في باريس . في ازمة احتضارها نزلت شبه عارية في مصعد (اسانسور) الفندق ، وهناك خرت واغلقت للابد عينيها السماويتين الجميلتين .

حين ماتت كانت وزن خمسة وثلاثين كيلوغراما ، ما كانت الا هيكل عظمي ، كان جسدها قد استهلك ونفذ في معارك خاضتها ضد الظلم في العالم . ما كان ثوابها الا حياة كانت تغدو في كل يوم اكثر وحدة ووحشة والا ميتة مهجورة مخدولة .

مؤتمر في مدريد

كانت الحرب الاهلية في اسبانيا تمضي من سيء الى اسوأ ، لكن

روح المقاومة لدى الشعب الاسباني كانت قد عدت العالم قاطبة بصمودها وئبائها . كانت تحارب في اسبانيا فرق المتطوعين الامميين . أنا رأيتهم يأتون الى مدريد عام ١٩٣٦ موحدي الصفوف . كانوا مجموعة كبيرة من اجناس وأعمار وأشكال والوان مختلفة .

نحن في باريس عام ١٩٣٧ ، والامر الرئيسي كان هو الاعداد لمؤتمر ضد الفاشية يحضره الكتاب من انحاء العالم قاطبة . مؤتمر يُعقد فسي مدريد . آنذاك بدأت بمعرفة (اراغون) معرفة عميقة . اول ما فاجاني منه كانت قدرته العجيبة على العمل والتنظيم ، يملئ الرسائل جميعها ، يصححها ، يذكرها عن ظهر قلب ، لا تفر منه صغيرة ولا كبيرة ، يقضي ساعات متواصلة عاكفا على العمل في مكتبنا الصغير ، ثم ، كما هو معروف عنه ، يكتب كتباً ضخمة في النشر وأما شعره فهو احسن ما كتب في اللغة الفرنسية . لقد رأيت ينقح تجارب ترجمة كتب قام بترجمتها عن الروسية والانجليزية، ورأيت يعيد صياغة بعض التعابير على الورق نفسه ، ورق الملازم المطبوعة ثم يدفع بها ثانية الى المطبعة . انه ، في حقيقة الامر ، لرجل عجيب وقد انتبهت الى عظمته منذ ذلك الحين .

كنت قد نَحِيت عن عملي القنصلي وهذا معناه اني بقيت بلا سينتيم واحد . فعملت بأجرة قدرها اربعمائة فرنك فرنسي قديم في جمعية الدفاع عن الثقافة التي كان يديرها (اراغون) . كان لزوجتي (ديليا ديل كاريل Delia del carril) في ذلك الحين ، ولسنين طويلة، شهرة بأنها غنية ، مالكة ، مخولة ، لكن ما هو اكيد انها كانت اكثر فقرا مني . كنا نعيش في فندق صغير مشبوه حيث كان الطابق الاول منه مخصصا للأزواج العابرين العرضيين ، يدخلون مشى ويخرجون مشى بعد ساعة من الزمن . لقد كنا لا نأكل الا القليل الزهيد وان اكلنا فاكل سيء وذلك خلال بضعة اشهر . لكن مؤتمر الكتاب المعادين للفاشية كان واقعا وحقيقة . كانت تصل من الجهات جميعها جوابات قيّمة جريئة . وصل جواب ايجابي من (ييتس Yeats) (٦٦) ، شاعر وطني من

٦٦ - ييتس (ويليم بطلر Williams Butler) : شاعر ايرلاندي (١٨٦٥-١٩٣٩) .

ايرلاندا . جواب آخر من (سيلما لاغيرلوف Selma Lagerlof) (١٧) ،
كاتبة سويدية كبيرة . لقد كان هذان الكاتبان كبيرين فسي السن فما كانا
يستطيعان السفر الى مدينة محاصرة مقبلة كما كانت عليه مدريد اذالك ،
لكنهما كانا متضامنين في الدفاع عن الجمهورية الاسبانية .

لقد اعتبرت نفسي دوما شخصية ذات اهمية ضئيلة ، وبخاصة فيما
يتعلق بالقضايا العملية والمهام العالية ، لذلك فقد بقيت مشدوها ، بفهم
مفتوح ، حين وصلني امر مصرفي جاء من الحكومة الاسبانية بمبلغ كبير من
المال لتغطية مصاريف المؤتمر ، بما فيها ثمن تذاكر سفر المؤتمريين
والمندوبين القادمين من اقطار اخرى ، وفعللا فقد بدأ الكتاب يفدون
بالعشرات الى باريس .

لقد حرت ، ماذا أستطيع أن أعمل بهذا المبلغ من المال ؟ أثرت ان احوله
الى المنظمة التي كانت تعد لهذا المؤتمر .

— حتى اني ما رايت هذا المبلغ من المال ، ولو قبضته لما كنت قادرا على
التصرف به — قلت ذلك لـ (رفائيل البرتي) الذي كان يمر بباريس فسي
تلك الايام .

— انت غبي جدا — اجابني (رفائيل) — تخسر منصبك القنصلي في
سبيل اسبانيا ، وتمشي بأحذية مفتقة ولا تخصص لنفسك من هذا المبلغ
بضعة آلاف من الفرنكات لمصاريفك الضرورية لقاء عملك .

نظرت الى حداثي فرايت انه فعلا كان مفتوقا ، فأهداني (البرتسي)
زوجا من الاحذية الجديدة .

خلال بضع ساعات سنطلق باتجاه مدريد مع بقية المندوبين جميعهم .
وجدنا انفسنا، انا وزوجتي (ديليا) و(امبارو غونثاليث تونيون) .

Amparo Conzalez tunon اننا مثقلون برسائل الكتاب التي كانت تصلنا من اطراف المعمورة بأسرها ، كانت تأشيرات الخروج من لدن السلطات الفرنسية تسبب لنا مشاكل كثيرة . عمليا سيطرنا على مكتب الشرطة المسئول عن اعطاء التأشيرات في باريس حيث كانت تمتد هناك هذه اللوازم الضرورية التي كانت تسمى بشكل تهكمي Recipisson احيانا كنا نحن بأنفسنا نطبع على جوازات السفر بهذه الاله الفرنسية الرفيعة المدعوة Tampon

بين نارويجيين وايطاليين وارجنتينيين ، وصل من المكسيك الشاعر (اوكتاويو باث) (٦٨) بعد ان قام بألف مفامرة سفرية هنا وهناك . لقد كنت أشعر بالافتخار لاني أحضرته للمشاركة في المؤتمر . كان قد نشر ديوانا واحدا ، كنت قد استلمته قبل شهرين من مجيئه ، فبدأ لي انه يحتوي على نواة حقيقية من الشعر . لم يكن يعرفه في ذلك الوقت احد غيري .

جاء ليراني صديقي القديم (ثيسار بايخو) بوجه مكفهر ، كان غاضبا لان زوجته ما أعطيت بطاقة سفر وكانت هذه الزوجة ثقيلة لا يتحملها احد . حصلت بسرعة على بطاقة سفر لها فأخذ البطاقة (بايخو) وخرج صاحب الوجه كما جاء . كان يجري له شيء تأخرت بضعة شهور فسي اكتشافه .

«أم الخروف» (٦٩) كانت ما يلي : كان قد وصل الى باريس لحضور المؤتمر ابن بلدي ومواطني (بيثينته هويدوبرو) (٧٠) . كنا ، أنا و(هويدوبرو) متعاضدين متخاصمين لا يحين احدا الآخر فيما كان هو صديقا حميما لـ (بايخو) واستغل هذه الايام في باريس كي يملأ رأس صاحبي الساذج بمفتريات عني . ثم توضح كل شيء بعد حديث صاحب اليم جرى بيني وبين (بايخو) .

-
- ٦٨ - اوكتاويو باث : شاعر مكسيكي ولد عام ١٩١٤ .
 - ٦٩ - أم الخروف : تعبير اسباني بمعنى مفتاح السر .
 - ٧٠ - بيثينته هويدوبرو : شاعر من تشيلي (١٨٩٣ - ١٩٤٨) .

لم يكن قد خرج من قبل قطار مكتظ بالكتاب من محطات باريس كما كان عليه ذلك القطار الذي اقلنا الى مدريد. عبر ممرات القطار كنا نتعارف او نحلّ التعارف وننتهي الى خصام . ذهب بعضهم الى النوم ، آخرون كانوا يدخلون تباعا بشكل لا ينتهي . لقد كانت اسبانيا بالنسبة للكثيرين منهم لغزا وكانت وحي تلك الفترة من التاريخ .

لقد تنحى (بايخو) و(هويدوبرو) ناحية من القطار . توقف (اندريه مالرو) (٧١) لحظة للحديث معي في تشنجات وجهه ومشمعه على كتفيه . كان هذه المرة يسافر وحده اذ انني قبل كنت اراه دائما مع الطيار (كورتون - موغليينير) الذي كان المنفذ الرئيسي لمغامراته عبر سماوات اسبانيا : مدن ضائعة يكتشفها ويغير عليها بطائراته او يزود الجمهورية بالطائرات .

أذكر ان القطار توقف لزمّن طويل في الحدود . يبدو ان (هويدوبرو) اضاع حقيبته . بما ان الناس جميعهم كانوا مشغولين او منشغلين بسبب تأخر القطار فما كان احد منهم ليهتم به وبحقيبته . فجاء هذا الشاعر التشيلي بأسوأ اللحظات يبحث عن حقيبته وتوجه نحو رئيس الحملة (مالرو) الذي كان عصيبا بطبعه وكان قد وصل الى الحد الاقصى من الارهاق بسبب كومة المشاكل الملقاة على عاتقه ، ربما لم يكن يعرف (هويدوبرو) من قبل لا اسما ولا شكلا ، وحين اقترب منه وهو على الرصيف لاخباره بفقدان حقيبته ، فقد (مالرو) ما تبقى له من الصبر وضاق ذرعا به فصاح - هذا ما سمعته - . «حتم تزعج حضرتك الناس كلهم ؟ اذهب» je vous emmerde (٧٢) .

شاهدت صدفة هذا الحادث الذي اذلّ غرور الشاعر التشيلي وزهوه . كنت افضل لو اني كنت على بعد الف كيلومتر من هناك في تلك اللحظة ، لكن الحياة غريبة الأطوار تأتي بالمفارقات والصدف العجيبة . لقد كنت انا

٧١ - اندريه مالرو : شاعر وسياسي فرنسي ولد عام ١٩٠١ .

٧٢ - الكلام بالفرنسية : معناه «كل خرا» .

الشخص الوحيد الذي كان يكرهه ويمقتّه (هويدوبرو) ممن كانوا يسافرون في القطار وكان من نصيبي انا ، وثالثة الاثافي انني تشيلي مثله ، ان اكون الشاهد الوحيد على الاهانة التي لحقته في تلك الحادثة .

حين تابع القطار السفر وقد حل الليل وبدانا نتدحرج على ارض اسبانيا ، فكرت في (هويدوبرو) ، في حقيبتّه ، وباللحظة الحرجة التي عانى منها ، عند ذلك التفتّ الى بعض الكتاب الشبان من جمهوريات منتصف امريكا الذين وفدوا الى غرفتي في القطار وقلت لهم :

— رجاء ، اذهبوا لتروا كذلك (هويدوبرو) فقد يكون وحيدا حزينا خائبا . ذهبوا ليعودوا بعد عشرين دقيقة وهم فكهون يستهزئون منه اذ انه قال لهم : «لا تكلموني عن الحقيقة الضائعة ، فليس لهذا أهمية ، بل ما هو خطير جدا انه بينما جامعات «تشيكافو» و«برلين» و«كوبنهاغن» و«براغ» تمنحني القابا تشريفية، اجد ان جامعات بلادكم الصغيرة القليلة الاهمية هي الوحيدة التي تصرّ على تجاهلي وحتى انها لم تدعني لالقاء محاضرات حول مذهب الخلق الابداعي» .

اخيرا وصلنا الى مدريد ، فيما كان المؤتمرون الزوار يتلقون الترحاب ويوزعون على الفنادق ، اردت ان ارى من جديد داري التي كنت قد تركتها مغلقة منذ حوالي عام ، كتبي واشيائي ، فقد تركت فيها كل حاجاتي . وكانت هذه الدار عبارة عن شقة في بناية مسماة «دار الزهور» عند مدخل المدينة الجامعية . كانت الفرق المتقدمة من قوات (فرانكو) تتاخم هذه المنطقة وكانت تتقدم احيانا فتستولي عليها الى درجة ان المنازل الكائنة هناك غيرت عدة مرات اصحابها ما بين الجمهوريين والفرانكويين .

توصل (ميفيل ايرنانديث) وكان يرتدي زي المحاربين المتطوعين (ميليشيا) ويتنكب بندقيته ، الى الحصول على عربة لشحن كتبي وما كان يهمني اخذه من اثاث بيتي .

صعدنا الى الطابق الخامس وفتحنا في شغف باب الشقة . كانت طلاقات الرشاشات قد كسرت النوافذ وخرقت اجزاء من الحيطان ، والكتب

كانت قد انهارت من على الرفوف ، وكان من المستحيل ان ترشد بين الانقاض الى ما كنا نريد حمله . على كل حال بحثت عن بعض الاغراض في تخبط . والغريب في الامر ان الاثواب والملابس والحاجات التافهة او غير المفيدة كانت قد اختفت ، فقد اختطفها الجنود الغزاة او المدافعون . فيما كانت الحلل والقدور وآلة الخياطة والصحون والاواني غارقة هناك في الفوضى ولكنها ناجية بنفسها سليمة ، لم يبق اثر لبدلتي القنصلية الرسمية ولا اقنعتي «البولونيزية» ولا سكاكيني الشرقية .

— ان الحرب لهي كثيرة الاهواء غريبة الاطوار كالاclam ، يا (ميفيل) .

وجد (ميفيل) هناك بين الاوراق المبعثرة على الارض بعض النسخ الاصلية من مؤلفاتي . ان تلك الفوضى كانت بابا نهائيا يغلق في حياتي . قلت لـ (ميفيل) :

— لا أريد ان آخذ شيئا .
— لا شيء ؟ ، ولو كان كتابا ؟
— ولو كان كتابا — أجبته .
— وعدنا بالعربة فارغة .

(الاقنعة والحرب)

... منزلي أمسى بين حجري الرحي من هناك يتقدم المغاربة والايطاليون من هنا يتقدم او يتقهقر او يصمد المدافعون عن مدريد... المدفعية بقنابلها اخترقت الجدران... النوافذ تهشمت دقاقا فتاتا ... عثرت على بقايا الرصاص بين كتبي الطريحة الارض لكن اقنعتي ، اين اقنعتي ؟ ، لقد ولت اقنعتي التي التقطها في «سيام» في «بالي» في «سوماطرا» ، في ارخبيل «الملايو» ، في «باندونغ» ... مذهبة ، رمادية اللون ، بلون الطماطم ، بحواجب فضية ، زرقاء ، جهنمية ، متجهمة ، مقطبة . اقنعتي كانت الذكرى الوحيدة لذلك الشرق الاول الذي وصلت اليه متوحدا فاستقبلني بمسكه : اريج الشاي ، رائحة الروث ، شميم الافيون ، فوح العرق ، شذى الياسمين ، صبر النعناع ، عطر

الفاكهة العفنة في الشارع ان تلك الاقنعة لهي ذكرى الرقصات
النقية جدا ، ذكرى التجليات امام المعابد انها لقطرات خشبية ملونة
بالاساطير ، لبقايا معتقدات مزدهرة ترسم في الهواء احلاما ، عادات ،
شياطين ، غرائب لم تعرفها من قبل طبيعتي الامريكية وإذن . . .
ربما ان المحاربين وضعوها على وجوههم وأطلقوا من نوافذ منزلي كي يربحوا
بها المغاربة (٧٣) ، بين طلفة وطلقة . . . كثير منها غدا مزقا اربا مدماة ،
هناك عند النوافذ . . . بعضها تدحرج من طابقي السابع (٧٤) وقد اقتلعتة طلقة
من الطلقات . . . هناك قبالتها تمركزت قوات (فرانكو) المتقدمة . . .
نجاهها كانت تزعق شرذمة المرتزقة الاميين . . . من بيتي ثلاثون قناع لآلهة
من آسيا شرعت بالرقصة الاخيرة ، رقصة المنية كانت لحظسة
هدنة . . . كانت المواقع قد تبدلت جلست أنظر الى النفايات ، الى
لطخات الدم في الحصرة . . . ثم سرحت بنظري من خلال النوافذ
الجديدة ، اي من خلال الفجوات التي أحدثها الرشاش ، نحو البعد ، نحو
المدى ، الى ما وراء المدينة الجامعية ، نحو السهول ، نحو القلاع
القديمة بدت لي فارغة ، اسبانيا بدا لي ان اواخر ضيوفي
قد رحلوا الى الابد بأقنعة او بلا أقنعة ، بين الطلقات والاناسيد
الحماسية ، بين الفرع المجنون ، بين الدفاع غير المصدق . . . بين المنية او
الحياة ، ذاك كان قد انتهى بالنسبة لي لقد كان السكون الكبير غب
الوليمة . . . بعد الحفلة الاخيرة . . . بشكل من الاشكال ، مع الاقنعة التي
رحلت ، مع الاقنعة التي سقطت ، مع الجنود الذين ما دعوتهم ابدا الى
بيتني ، رحلت عني كذلك اسبانيا

٧٣ - كان على شاعر عظيم مثل (نيرودا) ان يميز بين فرقة من المرتزقة وبين شعب
بكامله ، وكان عليه الا يتمادى في هذه الكراهية تجاه المغاربة .

٧٤ - كان من قبل قد ذكر انه الخامس ولعله هنا يقول السابع على سبيل المبالغة
والمجاز .

الفصل السادس

خرجت ابحت عن شهداء

اخترت طريقا

مع اني استلمت هوية الانتساب في وقت متأخر بتشيلسي ، حين انخرطت رسميا في الحزب ، فاني اعتقد اني حددت نفسي أمام نفسي شيوعيا خلال الحرب الاهلية في اسبانيا . ان اشياء كثيرة ساهمت في قناعتني العميقة .

كان زميلي المتناقض ، الشاعر «النيتشي» (١) ليون فيليب Léon Filipe (٢) رجلا رائعا حقا . أحسن ما فيه من جاذبية كان حسه

١ - النيتشي : نسبة الى (نيتشه) الفيلسوف الالمانى المشهور .

٢ - ليون فيليب : شاعر اسباني مات في المكسيك (١٨٨٤ - ١٩٦٨) ترجمنا له ومنه في كتابنا المذكور .

الفوضوي (٣) بالعصيان وبالتمرد التهكمي . ففي أوج الحرب الاهلية تبثى بسهولة المذهب الفوضوي ذا الجاذبية الذي كان يتمثل في «اتحاد الفوضويين الايبيريين» (٤) . كان يخفّ دوما الى الجبهات الفوضوية حيث يعرض أفكاره وينشد قصائده المعادية للدين . كانت هذه القصائد تعكس عقيدة تدعو الى الغاء السلطة بشكل غامض ، وتعادي الكنيسة ورجالها بتحريض وكفر وإلحاد . كلماته كانت تأسر المجموعات الفوضوية التي كان يتضاعف عدد أفرادها بشكل هائل يوما بعد يوم في مدريد بينما سكان المدينة كانوا ينطلقون الى جبهة المعركة التي كانت تقترب أكثر فأكثر منها . كان الفوضويون قد دهنوا الحافلات والسيارات نصفها أحمر والنصف الآخر أصفر . كانوا يبهرجون بلبد شعرهم ولحاهم ، واطواقهم وأساورهم من الرصاصات ، مهرجان اسبانيا المحتضر . لقد رايت العديد منهم وهم ينتعلون احذية رمزية نصفها من جلد أحمر والنصف الآخر من جلد أسود، ولا بد ان صنعها قد كلف الاسكافية جهدا جهيدا . ولا يظن احد انهم كانوا عبارة عن فرقة تمثيلية متجولة غير قادرة على الدفاع اذ ان كل واحد منهم كان يحمل سكاكينا ، مسدسات ضخمة ، بنادق سريعة الطلقات وبنادق خفيفة الخ . كانوا يتربعون عند مداخل ابواب الابنية الرئيسية ، فرقا فرقا ، بعضهم كان يدخن ، الآخر يبصق ، وهم يستعرضون بنادقهم ويهددون بأسلحتهم . كان همهم الرئيسي هو قبض ايرادات من المستأجرين الفرعيين او بالاحرى جعل هؤلاء الناس يتركون لهم بمحض ارادتهم حليهم ، خواتمهم وساعاتهم .

كان (ليون فيليب) يعود من احدى محاضراته الفوضوية وقد حل الليل حين التقينا في مقهى يقع بزاوية العمارة التي كنت اسكن فيها . كان الشاعر يرتدي بردة اسبانية تليق به في لحيته الناصرية (٥) . حين خرجنا

٣ - الفوضوي : نسبة الى المذهب الفوضوي وليس الى الفوضى .

٤ - اتحاد الفوضويين الايبيريين *Federacion Anarquista Ibérica* ويعرف بعروقه الاولى

٥ - الناصرية^١ : نسبة الى مدينة الناصرة بفلسطين اي انها تشبه لحية المسيح الناصري .

من المقهى لس بأحد هدّاب بردته الرومانطيكية الانيقسة احد رفاقه
الحساسين . لا اعرف فيما اذا كانت الوجاهة ومظهر النبيل العريق الذي
كان يبدو على (ليون فيليب) هما ما أزعج ذلك «البطل» من الطليعة المناضلة،
لكن ما هو اكيد اننا اعتقلنا على بعد بضعة خطوات من مكان ذلك الحادث،
من لدن مجموعة من الفوضويين يتراسهم ذاك الذي اهيّن عند مدخل
المقهى . ارادوا التحقق من أوراقنا وبعد ان القوا عليها نظرة قادوا الشاعر
«الليوني» (٦) وهو محاط من جانبيه برجلين مسلحين .

بينما كانوا يأخذونه الى ساحة الرمي القريبة من داري والتي كانت
فرقتها الليلية لا تدعني انام وذلك في مناسبات عديدة ، رأيت اثنين من
المليشيا المسلحة وهما يعودان من الجبهة ، شرحت لهما الامر وعرفتاهما
من هو (ليون فيليب) وانبأتهما بالخطر الذي ينتظره ، فاستطعت بفضلهما
أن اعتق صديقي .

ان هذا الجو من البلبلة العقائدية ومن التهديم الرخيص، جعلني أفكر
كثيرا . لقد عرفت مآثر رجل فوضوي نمساوي عجوز حسير البصر وبلبلة
طويلة شقراء تخصص في القيام بـ «تنزّهات» وكوّن فرقة أسماها «شروق»
لأنها كانت تفعل ما تفعل عند شروق الشمس .

— ألم تشعر حضرتك مرة بألم في الرأس ؟ كان يسأل الضحية .

— بلى ، طبعا ، بعض المرات .

— اذن سأعطيك مسكنا للآلام — كان يقول لهذه الضحية ذلك الفوضوي
النمساوي ، فيصوب المسدس الى جبين الضحية ويطلق النار .

فيما كانت هذه العصابات تتكاثر في ليل مدريد الاعشى ، كسان
الشيوعيون هم القوة الوحيدة المنظمة التي خلقت جيشا لمجابهة الالمان

٦ — الليوني : نسبة الى مدنة الشاعر Léon وهي مدينة بشمال اسبانيا ،
ومعنى الاسم : أسد .

والإيطاليين والمغاربة ورجال الكتائب (٧) «الفالانج» (Falangistas) وكانوا في الوقت نفسه القوة المعنوية التي تنمي المقاومة والنضال ضد الفاشية .

ببساطة : كان عليّ أن اختار طريقا . وهذا ما فعلته أنا في تلكم الأيام ولم أندم أبدا على قرار اتخذته بين دياجير تلك الفترة المأساوية وأملها .

(رفائيل البرتي)

أن الشعر لهو دوما فعل سلم . أن الشاعر يولد من السلام كما يولد الخبز من الدقيق .

أن المنسولين ، والحربيين ، والدثاب ، يبحثون عن الشاعر ، لحرقه ، لقتله ، لعضّه . عرييد يجيد الضرب بالسيف ترك (بوشكين) (٨) جريحا جرح موت بين أشجار غابة مظلمة . أحصنة عدت محمولة فوق جثة (بيتوفي) (٩) ، مصارعا ضد الحرب مات (بايرون) (١٠) في اليونان ، الفاشيون الأسبان بدأوا الحرب في إسبانيا باغتيال أحسن شعرائها .

أن (رفائيل البرتي) يمكن أن ندعوه **الناجي من الموت** . ألف مئة كانت قد أعدت له ، واحدة في غرناطة كذلك ، مئة أخرى كانت تنتظره في «باداخوث» (١١) ، كانوا يبحثون عنه في «أشبيلية» المفعم بالشمس أو

-
- ٧ - الكتائب Falange : هو حزب اسمه (خوسه الطوليو بريمو دي ريبيرا) (١٩٠٣ - ١٩٣٦) .
- ٨ - بوشكين Aleksandr : الشاعر والروائي الروسي الشهير جدا (١٧٩٩ - ١٨٣٧) .
- ٩ - بيتوفي Sandor : شاعر من هونغاريا (١٨٢٢ - ١٨٤٩) .
- ١٠ - بايرون : شاعر انجليزي معروف (١٧٨٨ - ١٨٢٤) .
- ١١ - باداخوث : هي مدينة تقع في جنوب غرب مدريد ، كان العرب يدمونها، بطليوس .

في وطنه الصغير «كاديث» (١٢) أو في «بورتو دي سانتا ماريبا» (١٣) ، يبحثون عنه في كل مكان لطعنه بالخناجر ، كي يقتلوا فيه الشعر ، مرة أخرى .

لكن الشعر لم يمت ، ان للشعر لارواح القطة السبع . قد يزعجونه ، قد يجرجرونه ، قد ينفونه ، قد يحبسونه ، قد يفرغون فيه اربع طلقات ، لكن الشعر يخرج من هذه الحوادث العرضية بوجه نقي وبابتسامة من أرز .

لقد عرفت (البرتي) في شوارع مدريد بقميص ازرق وربطة عنق ملونة ، عرفته مناضلا في صفوف الشعب حين لم يكن هناك شعراء كثر يؤدون هذه المهمة الصعبة ويقومون بهذا المصير الخطير . لم تكن قد قرعت الاجراس (١٤) في اسبانيا ولم يكن قد دق ناقوس الخطر بعد ، لكنه كان يعرف ما يمكن ان يأتي به الغد . انه لرجل من الجنوب ، ولد ازاء البحر المدوي ، قرب خوابي النبيل الاصفر (١٥) كالزبرجد . لقد جبل قلبه من نار الاعناب من هدير الموج . لقد كان شاعرا منذ قلامه اظفاره مع انه ما كان يدري بهذه الموهبة المخزنة آنذاك (١٦) ، ثم عرف هو ، ثم عرفته اسبانيا ، ثم عرفه العالم كل العالم شاعرا كبيرا .

ان (رفائيل البرتي) يعني بالنسبة لنا نحن الذين كان لنا الحظ فني التكلم بالاسبانية وفي معرفة هذه اللغة القشتالية ، بريق الشعر في هذه

١٢ - كاديث ؛ هي مدينة أسسها الفينيقيون على الساحل الجنوبي من اسبانيا وكان العرب يسمونها قادش .

١٣ - بورتو دي سانتا ماريبا ؛ هي قرية على الساحل قرب «قادش» حيث ولد (البرتي) .

١٤ - اشارة الى رواية (همنغواي) المشهورة ، لكن تفرع الاجراس ؟

١٥ - تشتهر «قادش» وضواحيها بهذا النوع من النبيل المسمى «خيريث» باسم البلدة التي كان العرب يدعونها . شريش ، ولهذا فان هذا النبيل يعرف عالميا ،

وبخاصة في انجلترا باسم «شريش» . (Cherry)

١٦ - اشارة الى ان (البرتي) بدأ رساما الى ان شرع في كتابة الشعر فربسج

الجائزة القومية للآداب عام ١٩٢٥ عن ديوانه «بحار في البر» .

اللغة . ليس هو بشاعر فطري مطبوع فحسب ، بل هو كذلك عالم بالصيغ الشعرية . ان لشعره ، كما الوردة الحمراء المزهرة في الشتاء بأعجوبة ، ندفة ثلج من (غونفورا) جدرا من (خورخه مانريكه) (١٧) ، ثويجا من (غارثيلاسو) (١٨) ، شذى متشحا بالحداد من (غوستافو أدولفو بيكر) (١٩) اي انه في كاسه الشفافة ، تنصهر اغاني اسبانيا الجوهريّة .

لقد أضاءت هذه الوردة الحمراء في اسبانيا درب من حاولوا منع الفاشية والوقوف في وجهها . ان العالم كله ليعرف هذا التاريخ البطولي المأساوي . لم يكن (البرتي) يكتب القصائد الملحمية فحسب ، بل كان ينشدها في الثكنات وفي الجبهات ، وهو الذي ابتدع حرب العصابات الشعرية ، اخترع الحرب الشعرية ضد الحرب ، خلق الاغاني التي راشت ورفرت تحت قصف المدافع ، ثم راحت من بعد تحلق في كل سماء وفوق كل ارض .

ان هذا الشاعر ذا النسب العريق النقي الاصيل علم العالم كيف يكون الشعر نفعا عاما وخدمة اجتماعية في لحظة حاسمة حرجة من تاريخ العالم . وهو في هذا يشبه (ماياكوفيسكي Maiakovski) . ان هذا الانتفاع الشعبي بالشعر يعتمد على القوة ، على الحنان ، على الفرح ، على الجوهر الحقيقي . ان الشعر من غير هذه المزية يرن ولكنه لا يغني .

نازيون في تشيلي

لقد عدت مرة اخرى في الدرجة الثالثة بالباخرة الى تشيلي . مع انه ليس لنا في امريكا اللاتينية ظاهرة ان يغدو كتاب بارزون مثل (ثيلينه)

١٧ - خورخه مانريكه : شاعر اسباني (١٤٤٠ - ١٤٩٧) .

١٨ - غارثيلاسو : شاعر اسباني (١٥٠١ - ١٥٣٦) .

١٩ - غوستافو أدولفو بيكر : شاعر اسباني رومانطيكي (١٨٣٦ - ١٨٧٠) .

Céline (٢٠) ، (دريو لا روشيل) ، (عزرا باوند) خائنين ، في خدمة الفاشية ، فقد كان لدينا تيار قوي منتعش بشكل طبيعي او اصطناعي بالتيار الهتلري . ففي الجهات جميعها كانت تتألف مجموعات صغيرة تقف لترفع الدراع بالتحية الفاشية ، متنكرة بأنها حرس وطنسي . ولم يكن الامر مقتصرا على هذه المجموعات الصغيرة فحسب ، بل ان الطبقة الحاكمة الاقطاعية في هذه القارة كانت تتعاطف (وما زالت) مع كل من يعمل ضد الشيوعية ، سواء اكان المانياً او من اليسار المتطرف في صفوف (كريويا) ، اصف الى هذا ، ان مجموعات كبيرة من سلالات المانية الاصل كانت تستوطن مناطق معينة في تشيلي والبرازيل والمكسيك وتشكل فيها الاكثرية من السكان . ولقد اُسرت هذه الفئات جميعها وحلبت بطلوع (هتلر) النيزكي وحكايا العظمة الالمانية الخرافية الالفية وعودتها الى الدنيا .

في تلكم الايام من المجد المدوّي والنصر الصاخب للهتلرية ، كان عليّ ان اعبر اكثر من مرة شارعا في قرية او مدينة بجنوب تشيلي تحت غابات حقيقية من رايات ذات صلبان معقوفة . في احدى المناسبات ، باحدى القرى الصغيرة الجنوبية ، رأيتني مضطرا لاستعمال الهاتف الوحيد في ذلك المكان فكان عليّ ان اُحني رأسي على غير ارادتي اجلالا للفوهرر ، اذ ان صاحب ذلك المحل الالمانى كان قد «تعبقر» فوضع آلة الهاتف في هيئة تجبر المرء على ان يبقى في حالة استعداد وذراعه مرفوعة نحو الاعلى باتجاه صورة لهتلر كانت هناك معلقة .

لقد كنت مديرا لمجلة «اورورا دي تشيلي» (٢١) : المدفعية الادبسية قاطبة (لم يكن لدينا من مدفعية غير هذه المدفعية) اخذت تشن طلقاتها ضد النازيين الذين كانوا يستولون على البلدان بلدا اثر بلد فيبتلعون ما كانوا يكتسحون . في تلك الاوقات اهدى السفير الهتلري بتشيلي كتبا مما يدعى بالثقافة الالمانية الحديثة ، الى المكتبة الوطنية ، فأجبنا على هذا بتوجيه

٢٠ - ثيلينه Louis Ferdinand : طبيب وكاتب فرنسي (١٨٩٤ - ١٩٦١) .

٢١ - اورورا دي تشيلي : معناها ، فجر تشيلي .

نداء الى قرائنا نطلب منهم ان يرسلوا لنا الكتب الحقيقية الالمانية لالمانيا الحقيقية التي كان (هتلر) قد منع تداولها بين الناس ، فكان هذا تجربة عظيمة ، اذ اننا استلمنا اسقاطا كثيرة محزومة ومرتبطة بشكل صحيح جيّد لم تكن تحتوي الا على نجاسات واقدار . تلقيت انا تهديدات بانّي لا يسد مقتول ، استلمنا كذلك مجموعات كاملة من صحيفة «ستورنير» وكانت صحيفة مختصة بوصف العهارة والبغاء ، سادية وضد السامية ، كان يرأس تحريرها (جوليوس ستريشار) (٢٢) الذي اُعدم من بعد فسي «نوريمبورغ» فلاقى قصاصه المستحق . لكن ، شيئا فشيئا ، وعلى حذر، بدأت تصلنا منشورات باللغة الالمانية منها كتب (هينريش هاينسه) (٢٣) و(توماس مان) (٢٤) و(أنا سيفيرس) و(أرنولد زويغ) (٢٤) . حين حزنا على خمسمائة مجلد من الكتب توجهنا الى المكتبة الوطنية لنودعها هناك .

يا للمفاجأة ! كانت الابواب قد اُغلقت في وجهنا بأقفال متينة .

اذالك نظمنا مسيرة وتسللنا الى مدرج الجامعة هناك ونحن نحمل صور الاب (نيومبير) (٢٥) و (كارل فون اوسيتيسكي) (٢٧) ، ولست ادري بآية مناسبة كان يجري احتفال برعاية السيد (ميغيل كروثشافا توكورنال) وزير الشؤون الخارجية حينذاك . وضعنا الكتب واللوحه في سدة الرئاسة حيث كان الوزير ، وربحنا المعركة اذ ان الكتب قد قبلت منا وظلت هناك .

٢٢ - جوليوس ستريشار : سياسي الماني (١٨٨٥ - ١٩٤٦) .

٢٣ - هينريش هاينه : شاعر الماني (١٧٩٧ - ١٨٥٦) .

٢٤ - توماس مان : وائي الماني (١٨٧٥ - ١٩٥٥) .

٢٥ - أرنولد زويغ : كاتب الماني يهودي ، ولد عام ١٨٨٧ .

٢٦ - نيومبير **Martin** : هو عالم باللاهوت وراهب بروتستانتي الماني ولد

عام ١٨٩٢ .

٢٧ - كارل فون اوسيتيسكي : كاتب الماني وداعية للسلم (١٨٨٩ - ١٩٢٨) .

فكرت في أن أنصرف الى عملي باخلاص اكثر وقوة اشد . لقد كان تماسي باسبانيا قد عززني وأنضجني فلقد حان ان تنتهي ساعات شعري المُرّة وآن لي أن أبدأ شيئاً جديداً ، وكانت الذاتية والكتابة اللتان صبغتاً قصائد ديواني «عشرون قصيدة حب» والحالة الاليمة المؤثرة التي طبعت «مقام في الارض» تقترب من نهايتها . بدا لي اني عثرت على عرق معدن دفين ، ليس تحت الصخور في باطن الارض ، بل تحت اوراق الكتب . افي مكنة الشعر أن يخدم أشباهنا من بني البشر ؟ أفستطيع ان يصاحب الانسان في صراعه ونضاله ؟ لقد كنت افرطت في المسير في درب اللامعقول ، وفي مجال ما هو سلبي ، فكان لا بد لي من أن اوقف نفسي عن هذا وذلك وأن ابحث عن طريق ما هو انساني ، مبتعداً عن الادب المعاصر ولكن بجذور عميقة تمتد الى تطلعات الكائن البشري .

لقد شرعت بالعمل في كتابي «نشيد عام» .

ولهذا فاني كنت أحتاج الى مكان للعمل ، وجدت بيتاً حجرياً يواجر المحيط ، في موضع غير معروف ، يدعى «ايسلا نيغرا» . كان صاحب هذا البيت قبطاناً اسبانياً ، اشتراكياً قديماً اسمه (ايلاديو سوبرينو) ، كان هذا السيد يبنيه ليسكن فيه وعائلته لكنه شاء أن يبيعه لي ، فكيف ابتعته ؟ عرضت مشروع كتابي «نشيد عام» على دار النشر «ايرثيا» التي كانت تنشر مؤلفاتي لكنها رفضت ذلك . فاستطعت بمعاونة ناشرين آخرين دفعوا مقدماً ، ومباشرة الى صاحب البيت ، ان اشترى في عام ١٩٣٩ بيتاً للعمل في «جزيرة سوداء» .

ان فكرة قصيدة رئيسية تجمع الاحداث التاريخية والشروط الجغرافية والحياة وصراعات شعوبنا ، كانت تلح وتبدو على انها عمل عاجل لا بد لي

٤٨ - ايسلانيغرا : معناها ، جزيرة سوداء ، وهي قرية صغيرة على الساحل بتشيلي ، كان للشاعر هناك منزل فيها .

من تأديته . فسمحت «جزيرة سوداء» بما لها من شاطئ بكر وحركة المحيط الصاخبة ، أن انصرف في شغف وعاطفة لتشيد هذا النشيد الجديد .

احضر لي إسبانيا

غير ان الحياة أخرجتني من هناك تو^٣ .

كانت تصل الى تشيلي أخبار الهجرة الاسبانية المربعة ؛ كان قد عبر الحدود الافرنسية اكثر من خمسمائة الف رجل وامرأة ، من المحاربين والمدنيين . فحشدتهم حكومة (ليون بلوم) (٢٩) الفرنسية أسيرة القوى الرجعية ، في معسكرات ووزعتهم على حصون وسجون وأبعدتهم الى المناطق الفرنسية المحاذية للصحراء الاسبانية (٣٠) .

كانت حكومة تشيلي قد تبدلت اذ ان أرواح الشعب الاسباني وطدت القوى الشعبية التشيلية فكان لنا حكومة تقدمية .

قررت حكومة تشيلي ، حكومة الجبهة الشعبية ، هذه ارسالي الى فرنسا للقيام بمهمة من أنبل المهمات التي نفذتها في حياتي الا وهي مهمة اخراج عدد كبير من الاسبان المنفيين هناك في سجون فرنسا ومعتقلاتها وترحيلهم الى وطني تشيلي . . وهكذا سيستطيع شعري أن ينتشر مثل نور متوقد يجيء من امريكا اللاتينية بين هؤلاء الرجال المكومين الذين عانوا ما لم يطقه احد غيرهم من جلد وألم وبطولة ، هكذا شعري سينصهر في المساعدة المادية التي تقدمها امريكا اللاتينية حين تأوي الاسبان وتساعدهم وبذلك تقوم بإيفاء دين قديم علينا لهم .

٤٩ - ليون بلوم : سياسي فرنسي (١٨٧٢ - ١٩٥٠) .

٥٠ - الصحراء : هكذا في الاصل Sahara^١ ، وهي ما ندموه بالساقية الحمراء،

جنوب المغرب . والمناطق الفرنسية هي اقطار المغرب العربي المستقلة .

خرجت من خلوتي وعزلتي وأنا غير قادر على الحركة ، مجصص الساق
بعد اجراء عملية فيها - هكذا كانت عليه شروطي الفيزيولوجية في تلك
اللحظة - فقدمت نفسي الى السيد رئيس الجمهورية ، (بيدرو اغسيره
نيردا) الذي استقبلني في مودة ومحبة .

- اجل ، احضر لي آلافا من الاسبان ، فنحن لدينا متسع من العمل
للجميع ، احضر لي صياديين ، احضر لي باسكاويين ، قشتاليين ،
اكستريمادويين (٣١) .

بعد ايام قليلة وأنا ما زلت مجصص الساق ، خرجت أبحث عن اسبان
في فرنسا من اجل تشيلي . كانت لي مهمة محددة ، كنت قنصلا مكلفا
بالهجرة الاسبانية الى تشيلي . هذا ما كان ينص عليه قرار التعيين فذهبت
وأنا مفتخر بلقبى هذا الى السفارة التشيلية بباريس .

لم تكن الحكومة والوضع السياسي في وطني منسجمين؛ فمثلا، السفارة
في باريس ما تغير فيها موظف واحد فظلت على حالها ، وقد كان يفضب
رجالها من الدبلوماسيين المصنفين فيها الانقيين الرشيقين ، مجرد
الاحتمال بأن استطيع ان ارسل ببعض الاسبان الى تشيلي . وضعوني في
مكتب قرب المطبخ بالسفارة . ضيّفوني الى درجة انهم منعوا عليّ استعمال
اوراق الكتابة الموجودة في السفارة . اخذ يقد الى ابواب السفارة حشد
غير المرغوب بهم من الاسبان : من محاربين جرحى ، قضاة ، محامين ،
كتاب واطباء كانوا قد فقدوا مشافيتهم ، عمال من الاختصاصات جميعها .

بما انهم كانوا يشقّون طريقا في معاكسة الريح ؛ هو وجوه الموظفين
المقيمة ، كي يصلوا الى مكنتي ، وبما ان مكنتي كان في الطابق الرابع من
البناية فان هؤلاء الموظفين فكروا بشيء شيطاني ، الا وهو ايقاف المصعد
وتعطيله . كان الكثير من الاسبان جرحى جاؤوا من معسكرات الاعتقال في
افريقيا فكان يحزّ في نفسي ان اراهم يصعدون الدرج في مشقة وعناء

٣١ - اكستريمادويين : نسبة الى منطقة في جنوب غرب اسبانيا .

حتى طابقي الرابع ، بينما الموظفون الشرسون كانوا يتسلثون بهذه الصعوبات ويستنهضون بي .

شخصية شيطانية

كي تزيد حياتي تعقيدا أخبرني حكومة الجبهة الشعبية لتشيلي بوصول قائم بالاعمال ، ففرحت كثيرا جدا نظرا لان رئيسا جديدا فسي السفارة قد يلغي العراقيل التي كان الدبلوماسيون في السفارة قد اسرفوا في وضعها امام حركة الهجرة الاسبانية. هبط من محطة Saint - Lazare شاب هزيل يضع نظارة بلا اطار Pince nez كانت تجعله يبدو وكأنه فأر عجوز ، وراق يفحص كل شيء في تجارته ، كان يبلغ من العمر حوالي اربع وعشرين سنة او خمس وعشرين ، له صوت اثثوي رفيع حاد جدا ، فقال لي في صوته هذا المتقطع انه سيعترف بي رئيسا له وانه ما جاء الا لمساعدتي وسيعمل تحت امرتي مساعدا في هذا العمل العظيم من ارسال «مهزومي الحرب الامجاد الاكارم» الى تشيلي . وعلى الرغم من فرحي بالحصول على مساعد جديد فان هذه الشخصية ما استراحت في روحي وما ارتحت لها ، ولا راق في عيني ، وعلى الرغم من التملق والمبالغة اللذين كان يفرض فيهما فقد بدا لي اني رايت شيئا مزيفا في شخصيته اللطيفة . عرفت فيما بعد انه مع انتصار الجبهة الشعبية لتشيلي ووصولها الى الحكم ، غيّر على حين غرة موقعه من «فارس كولبوس» وهي منظمة يسوعية الى عضو في الشبيبة الشيوعية، فسرت هذه الشبيبة في اوج عهد الانخراط فيها بمواهبه الفكرية وفرحت بعضوية السيد (اريانو ماريين) الذي كان يكتب مسرحيات هزلية ومقالات ، وكان محاضرا لامعا ، باختصار ، كان يعرف كل شيء ، كما بدا لهم .

كانت الحرب العالمية الثانية على وشك الاندلاع ، وكانت باريس تتوقع كل ليلة الغارات الالمانية وكانت في كل دار تعليمات نظرية وعملية كي يلجأ الاهالي في حالة غارة من الغارات الى الملاجئ والمخابئ . كنت اروح كل ليلة الى بيت صغير في Villiers - sur - Seine مقابل النهر كي اعود كل صباح مكدرا الى السفارة .

توصل (أرييانو مارين) هذا الحديث الوصول ، في بضعة ايام قلائل ، الى ان تكون له أهمية ما حصلت عليها انا ابدا . كنت قد قدمته السي (نيفرين) (٣٢) الى (الباريث ديل بايو) والى بعض قادة الاحزاب الاسبانية . بعد مضي اسبوع فقط كان هذا الموظف الجديد يخاطبهم بـ «انت» (٣٣) . كان يدخل او يخرج من مكاتب زعماء اسبان- ما كنت أعرفهم انا بنفسي ، وكانت محادثاته الطويلة معهم ، بالنسبة لي ، سرا . من حين الى حين كان يناديني كي يريني قطعة الماس او زمردة كان قد اشتراها لامه او يحكي لي عن شقراء ذات دله وغنج كانت تجبره على انفاق مبالغ كثيرة جدا في الملاهي والحانات الباريسية . أصبح (أرييانو مارين) هذا صديقا سريع الود لـ (أراغون) وبخاصة لـ (السا Elsa) اللذين الجأناهما في السفارة لحمايتهما من حركة القمع التي اخذت تلاحق الشيوعيين ، فكان يتحفهما بملاطفات وهدايا صغيرة ، لا بد ان طبيعة هذا الشخص قد الهمت (السا تريولي Elsa Triolet) اذ انها تتكلم عنه في واحدة او اثنتين من رواياتها .

كان عليّ ان انتقل الى «بروكسل» كي أحلّ هناك مشكلة ماساويصة للمهاجرين ، حين كنت اخرج من الفندق المتواضع جدا حيث كنت أسكن، وجدت نفسي على بعد فم الجرة (٣٤) من مساعدي اللامع الانيق (أرييانو مارين) فأخذني في أحضانه وهو يرحب ويهمل ثم دعاني الى الاكل فسي اليوم نفسه .

اجتمعنا على مائدة هناك في فندقه ، وهو اكثر الفنادق غلاء فسي «بروكسل» . كان قد امر بأن توضع فوق المائدة اصص زهور ، طلب طبعا «كافيار» و«شمبانيا» . كنت انا خلال الاكل محافظا على الصمت المنشغل

٣٢ - نيفرين Juan : سياسي وطبيب اسباني (١٨٨٧ - ١٩٥٦) .

٣٣ - انت : ضمير المخاطب يستعمل بين الاقارب والاصدقاء بينما الآخرون يخاطبون usted ويقابلها بالعربية «حضرتك» .

٣٤ - الجرة : هكذا في الاصل jatta ، والتعبير هنا اسباني يقابله بالعربية ، قاب فوسين او أدنى .

المهموم فيما كنت أسمع خطط مضيبي اللديدة ومشاريعه الشيقة وأسفاره
القريبة للراحة والاستجمام ، وكان يحكي لي عن مجوهراته وتحفه ، كنت
كأنني استمع إلى غني حرب جديد ولكن مع بعض علائم الخبسل والعته
والجنون ، وكان في حدة نظراته وفي تأكيدات الحازمة الجازمة يسبب لي
نوعا من الدوار فقررت أن أقطع بما هو صحي (٣٥) وأن اكلمه بصراحة عن
مشاغلي وضيق وقتي فطلبت منه أن نتناول القهوة في غرفته لأن عندي ما
أبوح به إليه .

عند منحدر الدرج الكبير ، بينما كنا نصعد لنتحدث على حدة ،
اقترب منه رجلان ما كنت أعرفهما من قبل فقال لهما بالاسبانية أن ينتظراه
حتى ينزل بعد دقائق قليلة .

ما أن ولجت إلى غرفته حتى تركت جانبا القهوة وبدأت بالقول المعنف
الطاغي :

— يبدو لي — قلت له — أنك تسير في طريق وخم قدر ، أنك تحولت
إلى معتوه بالمال . قد تكون ما زلت صغيرا جدا كي تفهم ما أقوله لك ، أن
واجباتنا السياسية هي جدية جدا فمسير آلاف المهاجرين في أيدينا ، ولا
يمكن أن نلعب بهذا المصير ، أنا لا أريد أن أعرف شيئا عن شؤونك وقضاياك ،
لكنني أريد أن أحذر ، ثمة أناس يقولون بعد أن يقضوا حياة تعيسة
بأنسة أنه «لا أحد قدم إليهم النصيحة الجميلة وأنه لا أحد حذرهم من
مغبة ما كانوا يفعلون» ولكن هذا لا ينطبق عليك فهأنذا أحذر مما تفعل
والعاقبة عليك وهذا ما أقوله ، ليس إلا ، والآن فاني سأصرف .

نظرت إليه حين مددت يدي لأودعه فرايت الدموع تنحدر من عينيه
إلى فمه ، فشعرت بشيء من الندم ، ألم أذهب بعيدا في تقريعي وتعنيفي؟
اقتربت منه وربت على كتفه :

— لا تبك .

٣٥ — بما هو صحي : تعبير اسباني ، يقابله بالعربية ، بالتي هي أحسن .

— اني لابيكي من غضب — اجابني .

ابتعدت دون ان اقول له كلمة اخرى ثم عدت الى باريس ولم اره بعد البتة . حين نزلت رايت هناك عند الدرج الرجلين المجهولين ينتظران ثم رايتهما يصعدان بسرعة الى غرفته .

ان خاتمة هذه الحكاية جرت بعد زمن طويل في المكسيك ، حيث كنت انا هناك قنصلا لتشيلي آنذاك . ذات يوم كنت مدعوا الى الغداء في بيت لاجئين اسبان يقيمون في المكسيك ، وكان من بينهم اثنان تذكراني .

— من اين تعرفاني ؟ — سالتهما .

— نحن من كنا في «بروكسل» وصعدنا للتكلم مع زميلك (ارييانسو مارين) حين رايناك تهبط من غرفته .

قصا عليّ فصلا غريبا للغاية . كانا قد وجداه في غرفته مفتسلا بالدموع ، متأثرا بأزمة عصبية وقال لهما وهو في نشيج ونحيب : « لقد عانيت الآن قبل قليل ، امرا ما عانيت مثله ابدا في حياتي كلها ، فلقد خرج (نيرودا) من هنا وهو على نية ان يخبر عنكما الى «جيستابو» (٣٦) في انكما شيوعيان خطيران من اسبانيا ، فلم استطع اقناعه بالعدول عن هذا الامر الذي ازمع عليه ولا قدرت ان اجعله ينتظر بضعة ساعات ريثما تستطيعان الهرب ، فليس لكما الا دقائق معدودات كي تفرا بجلديكما ، واتركا عندي حقائبكما فسا حفظها ثم اوصلها لكما حيث تكونان او تقيمان» .

— يا له من قدم ، ابله — قلت لهما — على كل حال من حسن حظكما انكما استطعتما ان تفلتا من الالمان .

— لكن الحقائب كانت تحتوي على تسعين الف دولار ، وهي مملوك

٣٦ — الجستابو Gestapo : الشرطة العسكرية الالمانية .

النقابات الاسبانية فلم نستطع ان نستعيد هذا المبلغ لنعيده الى العمال ولم نعد نرى المال ولا الحقائق .

من بعد عرفت ان هذه الشخصية الشيطانية قد قامت بجولة ممتعة طويلة في بلدان الشرق الادنى منمتعا بصحبة حبيبته الباريسية . على فكرة تبين كذلك ان تلك الشقراء المتدلة المتطلبة ما هي الا طالب اشقر من جامعة السوربون .

ثم بعد مضي زمن قليل نشر في الصحف انسحابه من الحزب الشيوعي قائلا : «ان اختلافات عقائدية عميقة تجبرني على اتخاذ هذا القرار» .

جنرال وشاعر

ان كل رجل وصل من الهزيمة او من الأسر كان رواية ذات فصول ، ذات نحيب ، ذات ضحك ، ذات شعور بالوحدة ، ذات غرام . بعض هذه الروايات والحكايات كان يدهلني ويأسرني .

لقد عرفت جنرالا في الطيران ، طويل القامة ، زاهدا في الدنيا ، رجل كلية عسكرية وخبرة ودراية ، له من الاوسمة ما له ، ومن الالقاب احسنها . هناك كان يسير عبر شوارع باريس ، ظلا «دُونكيخوتيا» للارض الاسبانية ، عجوزا منتصبا كحور قشتالة .

حين استطاع الجيش الفرانكي (٣٧) شطر المنطقة الجمهورية السى قسمين كان على هذا الجنرال (هيريرا) ان يعيش في الظلام المطبق المطلق ، ان يفتش خطوط الدفاع ، ان يعطي الاوامر في هذه الجبهة او تلك ، في هذا القسم او ذاك وهو في طائرته يحلق في الليالي المعتمة ، وفي الدياجير المظلمة فوق اراضي جيش العدو ، من حين الى حين طلقة فرانكية كانت

٣٧ - الفرانكي : نسة الى (فرانكو) رئيس الدولة الاسبانية .

تمر فتكاد تلمس مركبته ، ولكن هذا الجنرال لكثرة ما كان عليه ان يتجول ويحلّق ، كان يملّ ويسام فتعلّم كي يستطيع ان يقرأ في العتمة ، طريقة «برايل» Braille . حين اتقن كتابة العميان كان دائما يسافر لتأدية مهماته الخطيرة وهو يقرأ بالاصابع ، بينما تحته كانت تتوهج النيران وآلام الحرب الاهلية الاسبانية . لقد حكى لي هذا الجنرال انه استطاع ان يقرأ خلال جولاته الليلية كتاب «الكونت مونت كريستو» وانه حين اخذ بقراءة «الثلاثة المسلحون بالبنادق» قوطعت قراءته بالهزيمة تم اضطر الى الالتجاء الى فرنسا .

أذكر حكاية أخرى ذات تأثير كبير في نفس كل انسان يسمعها ، وهي قصة الشاعر الاندلسي (بيدرو غارفياس) . استقر به المنفى في قلعة للورد ب «اسكوتلانديا» . كان هذا الحصن منعزلا وحيدا بعيدا فكان (غارفياس) لطبيعته الاندلسية القلقة الانيسة يروح كل يوم الى حانة هناك في المنطقة ويجلس في صمت وسكون، اذ انه لم يكن يتكلم الانجليزية بل انه يكاد لا يتكلم الاسبانية اللهم الا لغة اندلسية فجزية ما كنت انا افهمها ، يشرب كؤوس بيرته في كآبة ووحدة . لفت هذا الزبون الاخرس الابكم نظر صاحب الحانة . ذات ليلة وقد غادر الحانة السمّار والسكرارى، التفت اليه صاحب الحانة ورجاه ان يظل عنده ليستمر في مقارعة كؤوس الخمر حتى مطلع الفجر ، قرب نار المدفأة المتوقدة التي تقذف الشرر فتبوح بما لا يستطيعان البوح به .

لقد اصبحت هذه الدعوة طقسا وعادة . ففي كل ليلة يستقبله صاحب الحانة الوحيد مثله ، فلا امرأة تأويه ولا أسرة تشغله او تسليه . شيئا فشيئا اخدت تنفك عقد من لسانيهما فكان (غارفياس) يحكي لسه فصص الحرب الاسبانية كلها عن طريق صيحات وإيماءات ولعنات وتأوهات اندلسية جدا . كان صاحب الحانة يصفى اليه في سكون مهيب دون ان يفهم ، طبعا ، ولا كلمة واحدة مما يقول مسامره .

لقد بدأ الاسكوتلاندي من جانبه ، يقص على الشاعر حكاية فشله في حياته — هذا ما كان يخيّل للشاعر — حكاية هرب زوجته التي هجرته : مآثر ابنائه الذين كانت صورهم بالازياء العسكرية تزين الجدران حول المدخنة ، كل هذا طبعا قد يكون هو ما كان يحكيه لصديقه ، أقول قد ...

لأن (غارفياس) كذلك ما فهم ولا كلمة واحدة مما كان يقوله الآخر وذلك خلال الشهور الطويلة التي استغرقتها هذه الاحاديث الشيقة الغريبة .

غير ان صداقة هذين الرجلين الوحيدين المهجورين اللذين كانا يتحدثان في ود وعاطفة ، كل عن همومه وشؤونه بلفته التي لا يفهمها الآخر ، راحت تزداد وتنمو وتعمق كل ليلة حتى الشروق وأصبحت صداقتهما ضرورية لكل منهما .

حين كان على (غارفياس) ان يرحل مضطرا الى المكسيك ، تودعا شاربين ، متحدثين ، متعانقين ، باكيين ، حزينين . ان ما كان يحزن في نفسيهما هو انهما سيعودان من جديد ، كل الى عزلته ووحدته .

— (بيدرو) — قلت له مرات كثيرة — ماذا تظن انه كان يقص عليك ؟

— (بابلو) ، الحقيقة انني ما فهمت منه كلمة ، لكن حين كنت انصت اليه كان لديّ الشعور الاكيد اني افهم كل ما يقول ، وحين كنت اتكلم انا، كنت متاكدا كذلك انه كان يفهم كل ما اقول ، وهذا هو المهم .

ال (وينيبغ) Winnipeg

لقد سلمني موظفو السفارة صباح ذات يوم برقية طويلة وهم يتسمون ، فبدا لي غريبا انهم يتسمون لي اذ انهم ما كانوا يردون لي تحية ولا يبادروني بتحية ، فكيف هذا ؟ لا بد ان الرسالة تحتوي على شيء بعث في نفوسهم الغبطة والفرح .

فضتها واذا بها برقية من تشيلي ، موقعة من لدن السيد الرئيس (بيدرو اغيره ثيردا) ، اي الشخص نفسه الذي كنت قد استلمت منه التعليمات القاطعة الحاسمة لترحيل الاسبان المنفيين من فرنسا الى تشيلي .

قرات في ذهول ودهشة ان السيد (بيدرو) رئيسنا الطيب ، علم هذا

الصباح اني اقوم بمحاولة لادخال المهاجرين الاسبان الى تشيلي ففوجيء وهو يطلب مني ان انفي هذا الخبر الغريب في أسرع وقت .

استغربت من امر هذه البرقية التي أرسلها لي السيد الرئيس ، لقد كان عملي في التنظيم والاختيار والتسفير عملا شاقا وكنت اقوم به وحدي . لحسن حظي ان الحكومة الاسبانية التي تأسست في المهجر ادركت أهمية المهمة التي أقيت على عاتقي ، لكن مع ذلك فان مصاعب جمة كانت تنشأ كل يوم ، مصاعب غير متوقعة تعرقل اعمالي واشغالي . اثناء ذلك كان يتهاى من معسكرات فرنسا او افريقيا آلاف اللاجئين كسي يرحلوا الى تشيلي .

كانت الحكومة الجمهورية في المهجر قد استأجرت باخرة «وينيبغ» لترحيل اللاجئين ، وهذه الباخرة ضاعفت من قدرتها عن طريق بعض التحويلات التي أجريت في آلتها ، وكانت تنتظر راسية برصيف «ترومبيلوب» ، وهو ميناء صغير قرب «بورديس» .

ما العمل ؟ ان ذلك العمل المأساوي المكثف المضاعف ، اذ اننا كنا على حافة الحرب العالمية الثانية ، كان بالنسبة لي قمة وجودي ومحك قدرتي، ان رمز يديّ المدودتين نحو أولئك المقاتلين الشجعان المطاردين، كان يعني بالنسبة لهم الانقاذ من الفناء وكان دليلا على ان وطني تشيلي هو وطن مناضل كريم يحضن المناضلين الكرماء . لقد خابت آمالي وفشلت أحلامي حين استلمت برقية الرئيس .

قررت استشارة (نيغرين) في هذا الامر . فلقد كنت محظوظا بتعرفي وصداقتي بالرئيس الاسباني (خوان نيغرين) وبالوزير (الباريث ديل بايو) وبآخرين من المسؤولين الاسبان الجمهوريين . كان (نيغرين) اكثرهم أهمية . لقد بدت لي دوما السياسة الاسبانية انها سياسة محصورة ليس لها آفاق واسعة ، كأنها سياسة تخطط على مستوى محافظة او ناحية وليس على مستوى قطر او عالم .

كان (نيغرين) عالميا او على الاقل كان اوروبيا . اتم دراساته فسي

«ليبيزغ» . كانت له قيمة اكايمية وكان يحافظ في باريس بجدارة وكرامة على هذا الظل اللامادي الذي يكون عادة لحكومات المهجر .

تحدثنا ، رويت له قصة البرقية الرئاسية الغريبة التي جعلتني فعلا ابدو وكأنني دجّال ، محتال ، ثرثار ، مهذار ، يقدم لشعب من المنفيين ملجأ لا يوجد . وقلت له ان الحلول الممكنة هي ثلاثة لا رابع لها ، الاول مستنكر فظيع كريبه وهو ان اعلن ببساطة اني الفيت موضوع هجرة الاسبان الى تشيلي ، الثاني ، ماساوي وهو ان اعلن علنيا عدم موافقتي وانهاء مهمتي ثم اطلق رصاصة في صدفي ، الثالث غير مناسب وهو ان امسأ الباخرة بالمهاجرين وأن اذهب معهم ونطلق من غير اذن او سماح نحسو «بالبارائيسو» لنرى ماذا سيحدث .

ارتعى (نيغرين) نحو الخلف في مقعده وسحب من سيجاره الكبير ما سحب ، ثم ابتسم في كآبة واجابني :

— الا تستطيع استعمال الهاتف ؟

كانت الاتصالات الهاتفية بين اوروبا وأمريكا في تلك الايام على غاية من الصعوبة والتعقيد الى درجة لا تطاق ، اذ لا بد من انتظار ساعات وساعات ومع ذلك فقد اتصلت بتشيلي فاستطعت ان اسمع في ضجيج كبير يبعث على صمم الأذان ، صوت وزير الخارجية النائي البعيد ، من خلال محادثة متقطعة كان يجب ان تعاد عشرين مرة ، دون ان نعرف ان كان يفهم بعضنا الآخر ، ونحن من حين الى حين نصرخ صراخا هائلا ، او نسمع الجواب يأتينا كأنه صخب محيط هائج ، اعتقدت اني جعلت الوزير (اورتيغا) يفهم اني لن امثل لتناقض كلام الرئيس واعتقد اني فهمت منه انه يطلب مني ان أنتظر حتى اليوم التالي .

فقضيت ، كما هو منطقي ، ليلة مزعجة في فندقي الصغير بباريس . في مساء اليوم التالي عرفت ان الوزير قدّم في ذلك الصباح استقالته ، فهو كذلك لم يكن ليقتبل بتجريدي من الصلاحيات التي خولها الي الرئيس ، فارتعدت الحكومة واستعاد رئيسنا الطيب الذي كان قد شوّش وبلبل

نتيجة ضغوط مارسها بعضهم عليه ، فاستلمت برقية جديدة تشير ان
استمر بعملية التهجير .

اخيرا شحنًا المهاجرين في باخرة «وينيبغ» : على ذلك الرصيف
اجتمع الزوج بزوجته ، الاب بابنه ، بعد ان كانوا مفترقين لزمان طويل ،
وكان بعضهم يأتي من طرف في اوروبا او افريقيا وبعضهم يأتي من الطرف
الآخر . حين يصل قطار كان الناس المنتظرون يخفثون لرؤية ذويهم
وأصحابهم ، يعرف بعضهم بعضا بين الدموع والصراخ والركض والازدحام،
وكان الفادمون يخرجون رؤوسهم من نوافذ القطار ويشربون لعلهم
يستعجلون رؤية من فقدوه من اهلهم وأقربائهم ، كانت هذه الرؤوس تبدو
كأنها عناقيد انسانية ، ثم تلاقوا وصعدوا معا الى الباخرة فرحين باكين .
منهم الصيادون ومنهم الفلاحون ومنهم العمال ومنهم المثقفون ، كانوا عينة
اسبانية من القوة والبطولة والعمل . ان شعري في نضاله قد استطاع ان
يحصل لهم على وطن فكنت بهذا مفتخرا وشعرت بالاعتزاز .

اشتريت صحيفة . كنت أسير عبر شارع Varennes - Sur - Seine
كنت امر قرب القلعة القديمة التي تعلو فوق أطلالها المحمرة بالنباتات
المتسلقة على جدرانها أبراج صغيرة من الصخر الاسود . ها هي القلعة التي
كان فيها (رونسارد) (٢٨) وشعراء «لا بلياد» يجتمعون في الزمن القديم .
لقد كان لهذه القطعة في نفسي مكانة حجر ومرمر ، سحر بيت شعر ذي
احدى عشرة نبرة (٢٩) ، مسطر بأحرف ذهبية عريضة . فتحت الصحيفة،
ذلك اليوم كانت الحرب العالمية الثانية قد اندلعت ، هذا ما كانت تقوله في
احرف كبيرة وبمداد اسود قدر تلك الصحيفة التي سقطت من يدي في
تلك القرية القديمة الضائعة .

كان العالم كل العالم يتوقعها ، فهتلر كان يبتلع الاراضي والبلدان ،
وكان السياسيون الانجليز والفرنسيون يتراكمون مع مظلاتهم لكي يهبوه

٢٨ - رونسارد ابيير دي (Pierre de) : شاعر فرنسي (١٥٢٤ - ١٥٨٥) .

٢٩ - هو بحر من بحور الشعر في اللغات اللاتينية .

مدنا وممالك وبشرا .

لقد كان يملأ الضمائر دخان من التشويش والبلبله . كنت ارى من نافذة غرفتي بباريس مباشرة «لوس انفاليدوس» فأرى أوائل فرق المحاربين وهي تخرج ، والفتيان الذين ابدا ما عرفوا للزي العسكري لونا من قبل وما عرفوا قط أن يرتدوا هذا الزي العسكري وهم ينطلقون كي يدخلوا فسي مخطم الموت الكبير .

لقد كان انطلاقهم حزينا والحزن كان بيتنا في سيماهم . لقد كانت هذه الحرب حربا خاسرة من قبل ان تبدأ ، وحزنهم كان شيئا لا يحدد . كانت القوى الشوفينية المتعصبة تجري في الشوارع تطارد المفكرين التقدميين . لم يكن العدو متمثلا بالنسبة لهم في اتباع (هتلر) ، فسي مجموعة «لافال» ، بل في زهرة الفكر الفرنسي . لقد حمينا في السفارة التي كانت قد تغيرت كثيرا الشاعر الكبير (لويس اراغون) ففضى فيها اربعة ايام عاكفا على الكتابة ليل نهار فيما الشراذم كانت تنتظره للقضاء عليه . هناك في سفارة تشيلي انهى روايته «مسافرو لا امبريال» *Ios Viajeros de la imperial* وفي اليوم الخامس توجهه وقد ارتدى الزي العسكري الى الجبهة ، كانت حربه الثانية ضد الالمان .

لقد تعودت في تلك الايام الشفقية على هذا الارتياب الاروبي الذي لا يعاني ثورات مستمرة او زلازل ، بل يحتفظ بسم الحرب القاتل وهو يملأ الهواء والخبز .

خوفا من الغارات كانت العاصمة الكبيرة تنطفئ ليلا ، وهذه العتمة، عتمة سبعة ملايين نسمة معا ، هذه الدياجير الكثيفة الثقيلة التي كان لا بد من السير في ظلها بمدينة النور ، ظلت ملتصقة في ذاكرتي .

... في نهاية هذه المرحلة ، كما لو ان هذا السفر الطويل كان غير مجد ، أعود فأجد نفسي وحيدا في هذه الاراضي الحديثة الاكتشاف ... مثلما في مخاض الولادة ، كما في البدء المنذر للرعب الميتافيزيقي حيث نبعت أوائل أشعاري ، كما في شفق جديد قد هيجته وأثارته قدرتي

الابداعية ، ادخل في احتضار ، اغفل في حشجة ، ألج فسي الوحدة
الثانية ، فالى اين المسير ؟... والى اين العود ؟... الى اين التوجه ؟...
اسكت ام انبض ؟... انظر الى ضواحي الوضوح واطراف العتمة فلا اجد
الا الفراغ نفسه ... هذا الفراغ الذي صنعه يداي في عناية قدريسة
وحيطه مشؤومة

بيد ان ما هو اكثر قربا ... ما هو اكثر جوهريا ... ما هو اكثر
حدة ... ما هو اكثر سعة وامتدادا وعمقا ... ما كان ليتجلى لي حتى
هذه اللحظة ... كنت فكرت في العوالم كلها لكنني ابدا ما فكرت في
الانسان ... كنت قد استنبطت قلب الانسان في قساوة واحتضار ...
غير اني ما فكرت في البشر ... كنت ارى مدنا ولكنها مدن فارغة
خاوية كنت ارى معامل ومصانع في مشاهد مأساوية بيد اني ما كنت
ارى العذاب والعناء والشقاء تحت أسطح المنازل ، فوق الشوارع ، في
المحطات ، في المدن في الارياض

حين انطلقت الرصاصات الاولى فاخترقت قيثاره اسبانيا وانبثقت
منها بدل الالحن فوارات دم ، توقف شعري مثل شبح في وسط شوارع
الكآبة الانسانية ... وأخذ يتسرب اليه تيار من الجذور والدماء ... منذ
ذلك الحين اتحد دربي بدرب الآخرين ... ورأيت اني قد عبرت من جنوب
الوحدة نحو شمالها فكان الشعب ... الشعب الذي اراد شعري المتواضع
ان يكون له سيفا ومنديلا ... كي يجفف العرق عن آلامه الكبيرة ، كي
يعطيه سلاحا في معركة الخبز

اذالك يتسع المدى ، يغدو كبيرا عميقا ابديا سرمديا ها نحن نقف
فوق الارض ... نريد ان نحوز على كل ما هو موجود ... نمتلكه السى
الابد ... لا نبحث عن اللغز فنحن اللغز ... ان شعري يبدأ كي يصبح
جزءا ماديا من جو فضائي أبدي ... من جو ، هو في الوقت نفسه ما تحت
البحري وما تحت الارضي ... ان شعري يشرع كي يلج عبر دهاليز ما هو
نباتي رائع ... ان شعري يتهاى كي يتحادث واشباحا شمسية في وضوح
النهار ان شعري يستعد كيما يسبر ، يستنبط غور المعدن الخبيء
في سر الارض ان شعري يعد العدة كي يحدد العلاقات المنسية بين
الخريف والانسان ان الجو ليعتم احيانا ولكن وشيكا ما ينجلي

ببريق مشحون بتألق وورعب بناء جديد بعيد عن الكلمات المستعملة
المستهلكة يبرز في سطح الهواء قارة جديدة من أكثر مواد شعري
اكتنانا وسرية تشمخ عبر الفضاء لقد قضيت في تعمير هذه الاراضي ،
في تصنيف هذا الملكوت ، في لمس ضفافه الطلسم ، في اخماد عواصفه
وتهدئة ازباده ، في التجواب عبر حيواناته ، في التسيار عبر جغرافيته
الطولانية ، سنين غامضة ، متوحدة ، قصيئة . . .

الفصل السابع

المكسيك المزهرة الشائك

لقد ارسلتني حكومتي الى المكسيك . وصلت في عام ١٩٤٠ وانا مليء
بهذا الكدر القاتل الناتج عن آلام كثيرة وفوضى اليمه كي استنشق النسيم
والحياة في هضبة «أناهواك» التي نعتها (الفونسو ريس Alfonso
Reyes) (١) بأنها اكثر منطقة ، شفافية في العالم .

لقد غمرني المكسيك المزهرة الشائك ، الجاف العاضف ، العنيف الرسم
واللون ، العنيف البشرية والخلق ، بتماثله وبأنواره المباغثة .

لقد جبت المكسيك خلال سنين وسنين من سوق الى سوق ، لان
المكسيك هو في الاسواق ، ليس هو بالاغاني ذات الحروف الحلقية التي
نسمعها في الافلام السينمائية ، وليس هو بالتفاهة المزيفة لشارب

١ - الفونسو ريس : كاتب وروائي مكسيكي (١٨٨٩ - ١٩٥٩) .

ومسدس ، ان هو الا ارض المناديل ذات اللون القرمزي وذات اللسسون
الفيروزي البراق . ان هو الا ارض الاواني والجرار والفاكهة المنفلقة تحت
سرب من الحشرات هنا وهناك . ان هو الا حقل صبار ذو مداد ازرق
فولاذي وذو تاج من الاشواك الصفراء .

ان كل هذا لتمنحه اكثر الاسواق جمالا في العالم ، وتريك ثمة في
اسواق المكسيك ، الفواكه والصوف ، البن والانوال ، قدرة انامل المكسيك
الخصبة الخالدة المدهشة .

لقد تجولت عبر المكسيك ، ركضت على مدى شواطئه ، شواطئه
العالية الجرف ، المتقدة ببريق سرمدي فوسفوري . لقد انحدرت من
«توبولوبامبو» في «سينالوا» . عبر هذه الاسماء نصف الكروية ، اسماء
خفيفة تركها الآلهة هناك تراثا في يدي المكسيك ومضوا عنها حين بدأ
الرجال الذين هم اقل قساوة من الآلهة ، يأمرون فيها ويسودون عليها .
لقد مشيت عبر مقاطع هذه الاسماء ، هذه المقاطع المؤلفة من اللفز والرونق،
عبر هذه الاصوات الفجرية الصباحية . فهذه الناحية باسم «سونورا» وتلك
باسم «يوكاتان» ، اما «أناهواك» فهي تشمخ كأنها مجمرة باردة حيث تصل
اليها الاشداء البليلة من «ناياريت» حتى «ميشواكان»
حيث يدرك أريج دخان الجزيرة الصغيرة «خانيتثيو» ، وعطر الدرة الذي
يصعد عبر «خاليسكو» وعبر الكبريت لبركان «باريكوتين»
الجديد وقد امتزج بعبق وطب من أسماك بحيرة «باتشكوارو» .
ان المكسيك لهو آخر الاقطار السحرية ، انه لسحري في قدمه وتاريخه،
انه لسحري في موسيقاه وتضاريسه . لقد شعرت وأنا اطرق دربي عبر
هذه الصخور المسوطة (٢)، بالدم المستديم ، المتصالبة بخيط عريض من
الدم والطحلب ، اني هائل واني عريق واني لجدير بهذه المسيرة بين هذه
الابداعات الكثيرة العريقة . ثمة وديان وعرة مسدودة بجدران هائلة
صخرية ، من حين الى حين تلال مرتفعة متشققة كما لو بسكين ، غابات
استوائية عملاقة ، اطلالات متوهجة من خشب ومن افاع ، من عصافير ومن

٢ - المسوطة : مشتقة من الكلمة العربية السوط Azote .

اساطير . لقد وجدت في تلك الاراضي الشاسعة المعصورة حتى اطرافها
الاخيرة بصراع الانسان في الزمن ، وجدت في ابعادها ومداهما الكبير اننا
نحن ، تشيلي والمكسيك ، قطرا امريكا المتقاطران . ابدا ما حركتني العبارة
الديبلوماسية المصطلح عليها والتي تجعل سفير اليابان يجد في اشجار كرز
تشيلي ، والانجليزي يجد في ضباب شواطئنا ، والارجنتيني او الالماني
يجدان في ثلج بلادنا المحقق الكثيف ، شبها بما لهم في بلدانهم ، او بما في
بلدان العالم جميعها .

انه ليسرني التنوع الارضي ولتطيب لي الفاكهة الارضية المتميزة في
اصنافها كلها . اني لا انقص شيئا من قدر المكسيك ، هذا البلد الحبيب
ان قرنته في الاشياء البعيدة ببلدنا المحيطي الغلالي بل اني ابين خصائصه
وارفع من ميزاته كي تتباهى قارتنا الامريكية بكل عبااتها ، بمرتفعاتها
واعماقها قاطبة . وليس ثمة في امريكا وربما في الكرة الارضية بلد اكثر
عمقا انسانيا كما هو المكسيك واناس المكسيك . انك لترى من خلال
ارشاداته المضيئة ومن خلال اخطائه الكبيرة ، السلسلة نفسها من الكرم
السخي جدا ، من الحيوية العميقة المتدفقة جدا ، من التاريخ الفريد في
نوعه جدا ، من الخصوبة المعطاء الدائمة ابدا .

لقد انحرف بنا المسير ذات يوم عبر القرى صيادة الاسماك ، حيث
الشبكة تغدو جد شفافة صافية فتبدو فراشة كبيرة تعود الى المياه كي
تحوز على الحراشف الفضية التي تنقصها ، عبر مراكز هذه القرى ذات
المناجم التي ما ان يستخرج منها المعدن حتى يغدو شبكة صلبة وشبكة
متينة في هندسة براقة جدا ، عبر الطرق حيث تشاد الاديرة الكاثوليكية
الكثيفة الشائكة كشجر الصبار الهائلة ، عبر الاسواق حيث البقول معروضة
مثل زهرة ، وحيث غنى الالوان والاذواق يصل الى درجة الاحتدام والنوبة ،
الى ان اجتزنا مدينة المكسيك لنصل الى «يوكاتان» ، وهي مهد نشأ من
أقدم جنس في العالم أعني شعب «ماياب» Mayab الوثني ، ان الارض
هناك لتهتز بما لها من تاريخ وما بها من بذور . لما نزل تنمو هناك ازاء
شجر الصبار النشيط الحيوي ، الاطلال المليئة بالدكاء والأضاحي
والتضحيات .

حيث تتقاطع الطرق الاخيرة ، وصلنا الى الارض الجديدة الفسيحة

حيث ترك أولئك المكسيكيون القدماء تاريخهم الموشى مخبأ تحت اشجار الغابة . هناك نعثر على نوع جديد من الماء ، انها لاغرب مياه في هذا الكوكب ، ليست كمياه البحر ، ليست كمياه النهر ، ليست كمياه الجدول ، ليست كمياه الغدير ، ليست بالمياه المعروفة ، ليس ثمة في «يوكاتان» من ماء الا تحت أعماق الارض تنشق فجأة عن بئر واسعة بكر ثم تعود فتنبثق عن بئر أخرى على حين غرة ، انحدارات هذه الآبار مليئة بالنباتات الصغيرة المدارية . انك لترى من خلال هذه الاعشاب في الاعماق مياهها عميقة خضراء فلكية . لقد وجدت قبائل «المايا» هذه الشقوق الارضية المسماة «ينوته» (٢) Cenote فالتوها وعبدوها بطقوسهم الغريبة . كما في الاديان جميعها فدس البئر ، في المبدأ ، الحاجة والخصوبة ، كذلك في هذه الارض . فلقد هزمت المياه الخبيثة الارض اليباب الجفاف فكانت الارض تتصدع حسيه منها فتنبثق المياه كي يفرح البشر .

عند ذلك . فوق الآبار المقدسة ، عبر آلاف السنين ضاعفت الاديان البدائية والاديان الغازية الوارده من سر الماء اللغز . لقد ألقت مئات العرائس العذراوات المزيّنات بالزهر والذهب بعد احتفالات عرائسها على صفاة الآبار . بانفسهن ونفسهن الى اعماق هذه المياه الجارية التي لا سبر غورها . فكانت تطفو على السطح الزهور والتيجان والحلي ، لكن العرائس مكثن في حماة الطين القصي مشدودات الى الماء بسلاسلهن الذهبية (٤) .

لقد انقد جزء ضئيل جدا من هذه الجواهر بعد آلاف السنين فوضعت في واجهات متاحف المكسيك وأمريكا الشمالية . بيد اني حين نغلغلت في هذه الانحاء الخالية الوحيدة لم ابحث عن الذهب بل عن سراخ الصبايسا الفارقات . لقد خيل اليّ اني كنت اسمع في نعيب الغربان والخفافيش الغرب . حترجة العرائس الجشاء واني الملح في طيرانها السريع السدي

٢ - ينوته : هي بئر عميقة واسعة .

٤ - من المعروف ان حصاره المكسيك هي حصاره قديمه جدا ، وما زال التشابه الموجود بينها وبين الحضارة المصرية موضع بحث الدارسين وعلماء التاريخ القديم .

تعبّر به العظمة المعتمدة للماء السحيق السواعد الصفراء لتلك الصبايا
الفريقات .

لقد شاهدت ذات مرة حمامة تجثم فوق التمثال الذي يطيل ذراعاه
الحجرية البيضاء ويمدها فوق الماء والهواء الخالدين ، لست أدري أي نسر
كان يلاحقها ، كانت هي غريبة في تلك الاصقاع حيث لا طير إلا القبرة ذات
الصوت الابكم ، واليمامة ذات الريش الرائع وال «كوليبري» (٥) الفيروزي
والطيور الجارحة الكواسر ، كانت هذه الطيور جميعها تجتاح الغابة بحثا
عن أكلها وسعيا وراء بهجتها وطربها . حطت الحمامة فوق راحة يد التمثال،
بيضاء مثل قطرة ثلج فوق الاحجار الاستوائية المصنوع منها التمثال .
نظرت اليها مستعبرا اذ انها جاءت من عالم آخر ، من عالم متناسق ودتي،
انت من سارية «فيثاغورية» (٦) او من نقطة في البحر الابيض المتوسط .
لقد توقفت عند حافة الدياجير ، عند حاشية المنايا . فاحتقرت سكوني
وهي لا تدري انني كذلك انتمي الى هذا العالم البدائي ، الامريكي الدامي،
القديم العريق فطارت امام عيني الى ان ضاعت في السماء .

الرسامون المكسيكيون

كان الرسم مسيطرا على الحياة الفكرية في المكسيك ، الرسامون
المكسيكيون يغطون العاصمة بتاريخ وجغرافيا ، بغارات مدنية ، بمجادلات
حديدية . على قمة من قمم الرسم اذالك كان يتربع (خوسه كليمينتسه
اوروثكو) (٧) ، وهو رجل عملاق اقطع اليد ، نحيل الجسم هزيله ، نوع
من (غويا Coya) (٨) في وطنه الطيفي . لقد تحدثت معه مرات كثيرة،

٥ - كوليبري Colibri : هو عصفور امريكي صغير ، ذو منقار طويل ضعيف .
٦ - فيثاغورية : نسبة الى (فيثاغورس Pitagoras) الفيلسوف ومالم الهندسة-
اليوناني المشهور .

٧ - خوسه كليمينتسه اوروثكو : رسام مكسيكي (١٨٨٣ - ١٩٤٩) .
٨ - غويا Francisco de : رسام اسباني مشهور (١٧٤٦ - ١٨٢٨) .

كان شخصه يبدو خاليا من العنف الذي يظهر في أعماله الفنية . كانت له
نعومة صانع الفخار الذي أضاع يوما يده في المخرطة وبيده الأخرى يشعر
انه لا بد يخلق عوالم لا تنتهي . ان فلاتحاته المرميات بالرصاص ، وجنوده
وصنتاع اللحام وحوذتيه وكل ناؤوس رسمه بصلبان رهيبة ، ان هذا كله
لهو اكثر ما في رسومنا الامريكية جدارة بالخلود وسيظل يدل على قساوتنا
وعنفنا .

كان (ديفو ريبيرا) (٩) قد عمل كثيرا في تلكم
الاعوام وكان يتخاصم مع الناس جميعهم ، ذاك ان الرسام العملاق هذا
كان ينتمي الى عالم الخرافة ، حين كنت اراه كنت استغرب من ان ليس
له ذبول ذات حراشف او اقدام بحوافر .

كان دائما خلاقا ومبتدعا ، فلقد نشر قبل الحرب العالمية الاولى في
باريس (ايليا اهرينبورغ) (١٠) كتابا حول مآثر (ريبيرا) وتزييفاته (١١)
عنوانه : «حياة (خوليو خورنيتو Julio Jurenito (وسلوكه» .

بعد مضي ثلاثين سنة كان (ديفو ريبيرا) لما يزل معلما كبيرا في
الرسم والخرافة ، فقد كان ينصح باكل اللحم البشري كحمية صحية نافعة
وكان يعطي وصفات عن كيفية طهي نماذج بشرية من الاعمار جميعها ، مرات
اخرى كان يصّر على تنظير العلاقات السحاقية وفلسفتها وكان يدعم رايه
هذا قائلا بان العلاقة السحاقية هي العلاقة الاخلاقية الوحيدة بناء على ما
دلت عليه اقدم الآثار التاريخية التي عثر عليها في حفريات اشرف هو
بنفسه عليها .

احايين كان يحدثني خلال ساعات طويلة وهو بحرك عينيه الهنديين

٩ - ديفو ريبيرا : رسام مكسيكي (١٨١٦ - ١٩٥٧) .

١٠ - ايليا اهرينبورغ Crigorievich : كاتب روسي يهودي (١٨٩١ - ١٩٦٧) .

١١ - تزييفاته : هنا بمعنى لوحاته التي يقلد فيها لوحات آخرين او ينقلها طبق الاصل.

مقطبتي الجبين ويبوح لي بأصله اليهودي ... أحيانا أخرى وقد نسي الحديث السابق يحلف ويقسم لي أنه هو والد الجنرال (رومل) (١٢) ، ثعلب الصحراء ، ويطلب مني أن يظل هذا سرا بيننا لأن افتضاحه يمكن أن يؤدي إلى نتائج عالمية خطيرة جدا .

لقد كان لحن صوته الممنوع الرائع ، أسلوبه الهاديء في إعطاء التفاصيل والوصف البديء وأكاذيبه المفاجئة تجعل منه مهذرا ثرائرا ، رائعا عذبا، ولا أحد مما عرفه واستمع إلى تخريفاته يستطيع أن ينسى عذوبة حديثه وإن كان سفالة .

كان في تلك الفترة (دافيد الفارو سيكيروس) سجيننا ، فقد كان أحد الأشخاص قد أركبه في غزوة مسلحة على دار (تروتسكي) (١٣) . فعرفته أنا وهو في السجن ، لكن ، في الحقيقة ، خارج السجن إذ أننا كنا نخرج مع رئيس السجن ، العميد (بيرث رولفو) كي نتناول بضعة من كؤوس الخمر في مكان خفي وكنا نعود في ساعة متأخرة من الليل ، فأودع (دافيد) رابنا على كتفه من خلف الأسلاك حيث يبقسى سجيننا إلى اليوم التالي وهكذا ...

أثناء واحدة من هذه السهرات بينما كنا نعود من الشارع إلى السجن تعرفت على أخيه ، وهو شخص غريب جدا يدعى (خيسوس سيكيروس)، قد تكون كلمة «مدار» أقرب في وصفه من كلمة «منافق» ، كان يتسلل من الجدران دون ضجة أو حركة على الإطلاق وإذا به خلفك أو بجانبك ، لا يتكلم إلا قليلا وإن تكلم فبوشوشة لا تكاد تسمع . كان يحمل في محفظة صغيرة كل ما يمكن أن يحشر فيها ؛ من ذلك أربعون أو خمسون مسدسا ، كذلك في خفوت وسكون وصمت . ذات مرة دون انتباه مني فتحت المحفظة هذه

١٢ - رومل Rommel, Ervin : هو المارشال الألماني المعروف بثعلب الصحراء، الذي كان يقود القوات الألمانية في معارك الصحراء الليبية .

١٣ - تروتسكي Trotsky Lev : السياسي والفكر الروسي المعروف (١٨٧٩ -

١٩٤٠) .

فاكتشفت مندهشا دار الرسانة هذه بمقايض سوداء ، لؤلؤية وفضية .

لقد كان هذا كله في سبيل لا شيء ، اذ ان (خيسوس) ، كان مسالما جدا بقدر ما كان اخوه (داود) متساغبا . وكان لـ (خيسوس) ايضا مواهب فنية كأخيه فقد كان ممثلا كبيرا يجيد نوعا من التمثيل الصامت ، دون تحريك الجسد او اليدين ، دون بث اي صوت ، لا يتحرك فيه الا وجهه الذي يبدل ملامحه اراديا فيعبر عما هو حي كأن له براقع متلاحقة متبدلة ، عن الخوف ، عن الكآبة ، عن الفرح ، عن الحنان . كان هذا الوجه الشاحب لهذا الشبح يصحبه في متاهاته الحيوية كلما طلع او برز او قفز من حين الى حين وهو محمل بمسدسات ما استعملها البتة .

كان هؤلاء الرسامون البركانيون يجذبون اليهم الراي العام كله ، فقد كانوا احيانا يفومون بمناقشات حادة عنيفة . ذات مرة بعد ان استنفدت الحجج اخرج كل من (دييفو ريبيرا) و(سيكيروس) مسدسيه الكبيرين واطلقا النار تفريبا في الوقت نفسه ، لكن . على أجنحة الملائكة المصنوعة من الجص المعلقة في سقف المسرح حين بدأت ريش الجص الكبيرة تتساقط فوق رؤوس المتفرجين ، خرج هؤلاء من المسرح مهرولين فزعين ، وانتهت المناقشة برائحة قوبة من البارود وبقاعة فارغة .

لم يكن (روفينو تامايو Rufino Tomayo) (١٤) يعيش اذاك في المكسيك بل في نيويورك . ومن هناك تنتشر رسوماته ولوحاته المتأججة المعقدة التي تمثل المكسيك كما تمثلها فواكه أسواقه وأنسجته .

ليس هناك من تتما به بين رسم (دييفو ريبيرا) ورسم (دافيد الفارو سيكيروس) اذ ان (دييفو) هو كلاسيكي ذو خطوط مستقيمة . وهو بهذا الاسلوب المستقيم المنعطف كأنه نوع من علم الخط التاريخي ، راح يربط تاريخ المكسيك بعضه ببعض ويجلو في أعماله برونق وزخرفة ناتئة عادات المكسيك ومآسي تاريخه ، فيما (سيكيروس) هو انفجار مزاج بركاني يؤلف بين فنية مدهشة وأبحاث طويلة .

بين الخروج كل ليلة من السجن وبين أحداث حول الاحتمالات
الممكنة ، دبّرنا ، أنا و(سيكيروس) نفسه موضوع هربه وحريته ، فطبع
له على جواز سفره تأشيرة دخول الى تشيلي وتوجه نحو وطني تصحبه
زوجته (انجيليكا اريناليس) .

كانت حكومة المكسيك قد بنت مدرسة في مدينة «شيان»
بتشيلي ، ثم تهدمت هذه المدرسة بالزلازل ، وفي هذه المدرسة رسم
(سيكيروس) جدارية فائقة ممتازة . لقد كافأتني الحكومة التشيلية على
هذه الخدمة التي قدمتها للثقافة الوطنية بتوقيفي عن عملي لمدة شهرين .

(نابليون اوبيكو Napoléon Ubico)

لقد قررت زيارة غواتيمالا . فتوجهت اليها بسيارة عبرت بنا برزخ
« تيوانتيبيك » ، وهي منطقة ذهبية في المكسيك ،
بنسائها المرتديات ازياء فراشات وبرائحة في الهواء كرائحة الشهد . من
بعد ولجنا غابة « تشياباس » الكبيرة . كنا نوقف السيارة
ليلا منذهلين بالحفيف والضجيج وبرقيات الغابة التي تبثها في جلبة
وصخب . فتجيبها الجدادج بأزيز عنيف ، أزيز كوكبي سيّار لا يصدق .

كان المكسيك الغريب يمد ظله الاخضر فوق ابنية قديمة عتيقة ، فوق
رسومات سحيقة ، فوق جواهر وحلي ، فوق نصب تذكارية ، فوق رؤوس
هائلة لحيوانات حجرية ، كل هذا كان يجثم في الغابة ، في الوجود
المكسيكي الالفي الخرافي . بعد اجتياز الحدود ، هناك في اعلى امريكا
الوسطى ، بهتني درب «غواتيمالا» الضيق بخطوطه ونباتاته العملاقة
وبحيراته الهائلة السطوح كأنها عيون منسيّة لآلهة معتوهة ، ثم بدت غابات
الارز والانهار العريضة البدائية التي تطل منها قطعان الحماة والحجر كأنها
بشر أحياء يسبحون هناك .

لقد قضيت اسبوعا مع (ميغيل انخيل استورياس) (١٥) الذي ما كان

١٥ - ميغيل انخيل استورياس : رواي من «غواتيمالا» فاز بجائزة نوبل للاداب قبل
(نيرودا) ، (١٨٩٩ - ١٩٧٤) .

قد عُرف بعد برواياته المنتصرة الرائعة ، فأدركنا منذ ان تعارفنا اننا ولدنا شقيقين متحابين فما افترقنا يوما واحدا طيلة هذا الاسبوع اذ اننا كنا نخطط في الليل لزيارات خاطفة نفوم بها الى مثنى نائية من سلاسل الجبال الملفة بالضباب او الى موانئ اسنوائية لـ United Fruit .

لم يكن للعواتيماليين الحق في الكلام اذ لم يكن يجزؤ احد منهم ان يتكلم في السياسة امام الآخر فلقد كانت الحيطان تسمع وتبلغ بما تسمع . كنا احيانا نوقف العربية في اعلى الهضبة ، وهناك ، بعد التأكد الدقيق من انه ليس ثمة من احد خلف شجرة او وراء صخرة كنا نحلل الوضع ونتكلم عن الحالة في حديث يطول جدا .

كان زعيم «غوايمالا» ادالك رجلا يدعى (اوبيكو) ، يتربع على سدة الزعامة منذ سنين طويلة ، وكان بدينا نخينا ، ذا نظرة باردة ، قاسيا جبارا في اخلاص ونفان لجبروته وطغيانه ، هو بملي القانون وهو الامر الناهي وليس لاحد ان يتحرك او ينطق في غوايمالا الا بامرته وبإذنه على ان يكون هذا في صريح العبارة والاشارة من لدن سيادته . تعرّف على احد مساعديه وهو الآن صديق لي . كان هذا نوريا جدا اذ تجرا ذات يوم فناقش الزعيم في امر صغير جدا ، فما كان من الزعيم الا ان قيده هناك وربطه الى عامود في مكبد بانمصر الرئاسي وجلّده بلا رحمة عقابا له على وقاحته ونوربته .

طلب مني الشعراء الشبان ان اشد عليهم بعضا من قصائدي . فارسلوا برقية الى (اوبيكو) طالبين منه السماح بذلك . فامتلا المكسان باصدفائي جميعهم وبطلبة شبان ، فقرات متشرفا بعضا من قصائدي لانه بدا لي انها قد تفسح شيئا من نافذة ذلك السجن الكبير . جلس رئيس الشرطة في مكان بارز في اول صف جلسة تفتيش وتحرك وانذار . من بعد عرفت ان اربع بنادق سريعة الطلقات كانت قد ركزت هناك ووجهت نحوي وبحو الجمهور . كانت ستنطلق فيما اذا غادر رئيس الشرطة مقعده وقاطع قراءه الشعر .

لكن ما جرى شيء يستدعي ذلك فقد ظل رئيس الشرطة في مقعده ستمع الى اشعاري حتى النهاية .

ثم رغبوا بتقديمي الى الديكتاتور ، كان رجلا متورما بهوس جنون نابليونى ، وكان يدع خصلة من شعره تتدلى فوق جبينه ويقف في تصنع وقفة (بونابرت) . قالوا لي ان رفض هذه اللفتة الكريمة هو امر خطير جدا، لكنني آثرت الا اسلم عليه فعدت مسرعا الى المكسيك .

مختارات من المسدسات

لقد كان المكسيك في ذلك الوقت اكثر مسدسيا منه استعمالا لهذه المسدسات في القتل . كان فيه نوع من العبادة نحو المسدس ، نسوع من الوثنية . وكان حاملو المسدسات يخرجون كي يلمعوا بمسدساتهم مزهوين مفتخرين . وكان المرشحون الى النيابة والصحف يبدأون حملات «نزع المسدسات» دائما ، ولكنهم يدركون انه اسهل على رجل مكسيكي نزع سنه من نزع سلاحه الناري الحبيب الى قلبه جدا .

اقام لي ذات مرة الشعراء حفلة تكريم في نزهة على ظهر سفينة قد زينت بالزهور والاضواء ببجيرة « اكسيوشيميلكسو » اجتمع ما يقرب من عشرين شاعرا متجولا فابحرت معهم بين المياه والزهور عبر القنوات والوعور في ذاك المصب المخصص للتنزهات الزهرية منذ عهد «الاستيكيين» (١٦) . كان الزورق الكبير يختال في زينة من الزهور على كل جانب وفي اشكال ودمى والوان زاهية . ان ايادي المكسيكيين لهي مثل ايدي الصينيين غير قادرة على صنع اي شيء قبيح ، سواء اكان مسن الحجر او الفضة او الطين او القرنفل .

لقد اصر عليّ احد اولئك الشعراء خلال العبور، بعد تجرع العديد من اقداح «تيكيلا» (١٧) كي ينوع في التكريم ويمنح الحفل شيئا جديدا ، ان اطلق الى الفضاء بعبارات نارية من مسدسه الجميل الذي كان له في

١٦ - الاستيكيون : هم سكان المكسيك القدماء .

١٧ - تيكيلا : نوع من الخمر يشبه «الجن» .

مقبضه ترصيعات من ذهب ومن فضة . واذ بالزميل الاقرب اليّنا يخرج من حزامه مسدسه وينحني جانبا مسدس المقدم الاول ، وهو في حماسه بالغة ، ثم يدعوني ان اطلق من مسدسه ما شئت من العيارات النارية . في هذا الشغب والهيّاج هبّ الشعراء الرواة الآخرون ، كل بدافع بإصرار عن مسدسه فتحلّقوا حولي وحوّموا فوق رأسي ، يريد كل منهم أن اخار مسدسه وليس مسدس الآخر ، ذلك السراّدق من المسدسات الذي كان يتصالب امام انفي او يمر تحت ابطى كان يصبح اكثر تهديدا وخطرا على حياتي في كل مرة ، الى ان خطر لي ان آخذ قبعة مكسيكية أصيلة كبيرة فالتقطت المسدسات كلها في مستقر هذه القبعة ، فطلبت من طابور الشعراء المتحلق باسم الشعر والسلام ان يدعوا لي مسدساتهم في هذه القبعة فأطاعوا جميعا وبهذا الشكل اسنطعت ان اصادر لهم مسدساتهم لعدة ايام واحفظت بها في داري . اعتقد اني الشاعر الوحيد الذي على شرفه قد قدّمت له مخنارات من المسدسات .

لماذا نيرودا

كان قد اجتمع في المكسيك ملح العالم . كتاب كثيرون من اقطار العالم جميعها التجأوا الى الحرية المكسيكية فيما كانت الحرب في اوروبا تمتد وتطول وقوات هتلر تحقق الانتصارات واحدا اثر آخر بعد ان اكتسحت فرنسا وايطاليا . هناك في المكسيك كان يقسم (انا سيجيرس) والمهرج التشيكوسلوفاكي (اغون ايروين كيش) الذي توفي في فيما بعد ، وآخرون كثيرون . ان (كيش) هذا ترك بعض الكتب الساحرة الأخاذة وكنت انا أعجب كثيرا بعبقريته الفذة وبتمارينه الطفولية وبمعرفته بالشعوذة والتهرّيج . كان ما ان يدخل الى بيتي حتى يخرج بيضة من اذنه او يتلع على جرعات سبع قطع من النقود ، كان هذا الكاتب الكبير المسكين المنفي في أمس الحاجة اليها . كنا قد تعارفنا في اسبانيا ، وبما انه كان يعلن دائما عن حب الاستطلاع الملحّ عليه في معرفة لاي سبب اسمي نفسي (نيرودا) دون ان اكون قد ولدت وارثا هذا اللقب ، فكنت اقول له مازحا :

— يا (كيش) العظيم ، انك انت مكتشف سر العقيد (ريدل) — قصة

مشهورة في التجسس جرت في النمسا عام ١٩١٤ - لكنك ابدأ لن
تستطيع ان تعرف سر اسمي (نيرودا) .

وهكذا كان ، لقد مات فيما بعد في «براغ» وسط تكريمات منحها اليه
وطنه المحرر ، غير انه ما استطاع ذلك الباحث المحترف ان يعرف لماذا
(نيرودا) يُدعى (نيرودا) .

لقد كان الجواب سهلا جدا وهو لا يتضمن ما يبعث على الروعة او
الدهشة ومع ذلك فقد كنت لا أبوح به ابيه في حيلة مني وتحفظ . حين
كان لي من العمر اربع عشرة سنة كان والدي يضطهد نشاطي الادبي فسي
امعان وتعت ، اذ لم يكن يرضيه ان يكون له ولد شاعر . كي اخفي أوائل
اشعاري فقد بحثت لي عن لقب ائبناه لانشر به هذه الاشعار وبهذا يعمه
والدي عن تبيان جليلة الامر . فعثرت في احدى المجلات على هذا الاسم
التشيكي دون ان أدري انه اسم كاتب كبير يجله شعب بكامله وانه مؤلف
«بالادا» (١٨) وكاتب «رومانثيه» (١٩) جميلة جدا ، وان له نصبا تذكاريًا
منتصبا في حي «مالا سترانا» براغ . ما ان وصلت ، بعد سنين كثيرة ،
الى تشيكوسلوفاكيا ، حتى هرعت فوضعت زهرة عند اقدام تمثال
الملتحي .

اليوم السابق على «بيرل هاربور»

كان يتردد الى بيتي ، من الاسبان ، (وينشيلاسو روئيس) و(كونستانثيا
دي لا مورا) وهي جمهورية ، قريبة (دوق ماورا) ، وكتابها in place
of Splendor كان Bestseller في الولايات المتحدة ، و(ليون

١٨ - بالادا Palada : هي قصيدة عاطفية روائية ذات أبيات متوازسة
متناسقة نشأت في شمال أوروبا .
١٩ - رومانثيه Romance : هي قصيدة غنائية ذات قافية واحدة تعاد في
البيت الثاني .

فيليبه)، و(خوان ريخانو) (٢٠)، ومورينو بيثا) و(هيريرا بيتيره) (٢١) وهؤلاء جميعهم شعراء ، و(ميفيل بريتو) و(رودريغيث لونا) وهما رسامان . ومن الايطاليين (فيتوريو فيدالي) ، وهو شهير لانه كان هو المقدم (كارلوس) في الطابور الخامس ، و(ماريو مونتافنانا) وهما منفيان ايطاليان ، مليئان بالذكريات والحكايا المدهشة والثقافة الدائمة الحركة . وهناك كان ايضا (جاك سوستيل) و (جيلبرت ميديونسي) ، وكان يتكاثر المتجئون طوعا او على مضض وإكراه من جمهوريات امريكا الوسطى؛ غواتيماليون ، سالفادوريون ، هوندوريون . كان هؤلاء جميعا يملأون المكسيك ويصبغونه باهمية امنية ، وكانت داري ، وهي عبارة عن منزل قديم في حي « سان انجيل » تخفق كما لو كانت قلب العالم .

مع (سوسيل) هذا الذي كان آنذاك اشتراكيا من اليسار الفرنسي والذي بعد سنين أزعج كثيرا الجنرال (ديفول) حين كان هو رئيسا سياسيا للانقلابيين المتمردين في الجزائر ، وقع لي شيء أجدنسي مضطرا ان ارويّه هنا .

كان عام ١٩٤١ قد تقدم ، والنازيون كانوا يحاصرون مدينة «لينينغراد» ويتوغلون في اراض سوفيتية اخرى . كان الثعالب ، العسكريون اليابانيون الملتزمون بمحور برلين - روما - طوكيو ، يخشون ان يخسروا حصتهم من غنيمة الحرب التي كانت تربحها المانيا . كانت تدور عبر العالم شائعات كثيرة تشير الى ان ساعة الصفر التي فيها تنطلق من الشرق الاقصى القوة الهائلة اليابانية آتية لا ريب . فيما كانت بعثة سلام يابانية تؤدي تحية التملق للحكومة الامريكية في واشنطن لم يكن ثمة مجال للشك

٢٠ - خوان ريخانو : شاعر اسباني ولد عام ١٩٠٢ ولجا الى المكسيك عام ١٩٣٦ ،

مثل زميله الشاعر (ليون فيليه) وآخرين كثيرين . توفي عام ١٩٧٥ .

٢١ - هيريرا بيتيره José : شاعر وروائي اسباني ولد عام ١٩١٠ ولجا الى

فرنسا عام ١٩٣٦ ، ثم الى المكسيك ، ثم الى السويد .

في ان اليابانيين سيشنون هجوما مفاجئا عما قريب اذ ان «الحرب الخاطفة المباشرة» كانت النموذج الدامي لتلك الفترة .

عليّ أن أوضح قبل كل شيء كيما تفهم حكايتي التي سأرويها اثر هذا التوضيح ، أن خطا يابانيا قديما من البواخر كان يربط اليابان بتشيلي . لقد سافرت انا اكثر من مرة في هذه السفن وكنت اعرف خط مسيرها ، كانت تتوقف في موانئنا ويهبط منها بحاراتها المختصون بشراء الحديد القديم والتقاط الصور ، ثم تبحر هذه البواخر الشاطيء التشيلي كله، فشاطيء « البيرو » و « الاكوادور » وتستمر حتى ميناء « مانشانيو » المكسيكي ، كي توجه قيدومها نحو « يوكوهاما » مجتازة المحيط الهادي . حسنا اذن ، ذات يوم وانا ما زلت بعد قنصلا عاما لتشيلي في المكسيك ، قدم الى القنصلية سبعة من اليابانيين فطلبوا مني في الحاج واستعجال ان اعطيهم اشارات دخول الى تشيلي ، وقد جاء هؤلاء من الشريط الساحلي لامريكا الشمالية ، من «سان فرانسيسكو» ، من «لوس انجليس» ومن موانئ اخرى ، كانت وجوههم تنم عن بعض القلق والاضطراب ، وكانوا انقي اللباس مزودين بوئائق وجوازات سفر ، وعليهم ملامح مهندسين او صناعيين منفذين .

لقد سألتهم ، طبعاً ، لماذا يريدون الذهاب الى تشيلي في اول طائرة تنقل مع انهم حديثو الوصول الى المكسيك ، اجابوني بانهم يرغبون للحاق بباحرة يابانية راسية في ميناء «توكوبيسا» بتشيلي ، وهو ميناء لتصدير ملح البارود الناتج من شمال تشيلي . اجبتهم على ما قالوه بانهم ليسوا بحاجة الى السفر الى تشيلي ، وهي في الطرف الآخر من القارة الامريكية ، نظرا لان هذه البواخر اليابانية نفسها ، عادة ، ترسو في ميناء «مانشانيو» المكسيكي ، حيث يستطيعون ان يصلوا مشيا على الاقدام وفي وقت قريب جدا .

نظر بعضهم الى بعض وابتسموا مضطربين ، تكلموا فيما بينهم بلغتهم ثم تشاوروا وسكرتير السفارة الذي كان يرافقهم .

هذا السكرتير كان صريحا معي فقال :

— انظر ، ايها الزميل ، ان ما جرى هو ان هذه الباخرة قد غيرت طريقها ولن ترسو بعد في ميناء «مانثانيو». وإذن ، على هؤلاء السادة الاختصاصيين المتميزين ان يذهبوا الى الميناء التشيلي كي يلحقوا بالباخرة.

لقد مر في ذهني بسرعة اني امام شيء مهم جدا ، فطلبت منهم جوازات سفرهم ، ومعلومات عن عملهم في الولايات المتحدة وقلت لهم توجّاهوا ان يعودوا في اليوم التالي .

لم يكونوا موافقين فقد كانوا يحتاجون الى تأشيرات الدخول حالا وكانوا على استعداد لدفع اي ثمن في سبيل الحصول عليها .
بما ان ما كنت أحاوله انا هو كسب الوقت، فقد قلت لهم انه ليس من صلاحياتي اعطاء تأشيرات دخول الا بعد استشارة ، واننا سنتكلم عن هذا في اليوم التالي .

ظللت وحيدا بعد ان انصرفوا .

شيئا فشيئا بدأ يتوضح في ذهني اللغز ، لماذا هذا الهرب العاجل من الولايات المتحدة وهذا الاستعجال في الحصول على التأشيرات ؟ افتغير الباخرة اليابانية انجاهها لاول مرة منذ ثلاثين سنة ؟ فماذا يعني كل هذا؟ لا بد ان الامر يتعلق في انهم مجموعة من الجواسيس اليابانيين المهمين جدا وانهم بعد تأدية مهمة مستعجلة في الولايات المتحدة هربوا منها ، وهم الآن على عجل نظرا لانهم يعرفون ان امرا خطيرا لا بد وأقع في الحال وان هذا الامر ما هو الا مشاركة اليابان في الحرب .

هذه النتيجة التي توصلت اليها جعلتني في حالة عصبية بالغة ، ماذا تستطيع ان افعل ؟

لم اكن اعرف من ممثلي الامم الحليفة للمكسيك لا انجليزا ولا امريكيين شماليين ، ما كنت على اتصال وثيق الا بأولئك الذين عينوا ممثلين رسميين للجنرال ديغول وهم على علاقة وطيدة بالحكومة المكسيكية .

اتصلت بهم في سرعة ، شرحت لهم الوضع ، وها هي في حوزتنا
اسماء هؤلاء اليابانيين وأوراقهم فان قرر الفرنسيون التدخل في هذا
الشان فاننا سنلقي القبض عليهم ، هذه حجتي التي ابديتها اليهم متحمسا .
ثم اثر ملاحظة الجمود وعدم الاهتمام بما قلته وابديته قلت يائسا من هؤلاء
المثليين الديغولييين :

— ايها الديبلوماسيون الشبان ، اكشفوا سر هؤلاء العملاء اليابانيين
تكسبوا الفخر والمجد ، من ناحيتي فاني لن امنحهم تأشيرات الدخول ، لكن
على حضراتكم ان تسرعوا في اتخاذ قراركم حول هذا الشان .

دام هذا الشد والمذ (٢٢) اكثر من يومين ، لم يهتم (سوستيل)
بالموضوع اطلاقا ، لم يشأ ان يعمل شيئا ، وأنا ، كقنصل بسيط لتشيلي ،
ما كنت لاستطيع ان افعل اكثر مما فعلت . تجاه رفضي اعطاءهم تأشيرات
الدخول اضطر اليابانيون ان يحصلوا في سرعة على جوازات سفر
ديبلوماسية وتوجهوا الى السفارة التشيلية فحصلوا منها على هذه
التأشيرات فوصلوا في الوقت المناسب الى «توكايا» حيث ركبوا في
باخرتهم المقصودة .
بعد اسبوع استيقظ العالم على خبر الاغارة على ميناء «بيرل هاربور» .

انا «ال مالاكولوفو»

لقد نشر في صحيفة بتشيلي ، منذ عدة سنين ، انه حين وصل
صديقي المخلص الاستاذ المشهور (جوليان هوكسلي
Julian Huxley (٢٣) الى «سانتياغو» ، سأل عني في المطار .

— افتسال عن الشاعر (نيرودا) ؟ — اجابه الصحفيون .

٢٢ — الشد والمذ : تعبير اسباني ، واضح المعنى .

٢٣ — جوليان هوكسلي : عالم بالاحياء وكاتب انجليزي ولد عام ١٨٨٧ .

— كلا ، أنا لا أعرف أي شاعر باسم (نيرودا) ، بل אני أريد التكلم مع «ال مالاكولوغو» (نيرودا) . ان هذه الكلمة الاغريقية «مالاكولوغو» تعني : «اختصاصي في الرخويات» .

لقد منحني هذه الحكاية التي كان يستهدف منها ازعاجي . لعدة عارمة . ولم يكن (هوكسلي) ليقصد منها ازعاجي لاننا كنا صديقين منذ سنين كثيرة ، على فكرة هو انسان ظريف جدا وهو اكثر اصالة وحيوية من اخيه الشهير (الدوس) .

لقد كنت في المكسيك اذهب الى الشواطئ واغرق نفسي في مياهها الشفافة الدافئة لالتقط اصدافا ومحاراً بحرية رائعة جميلة ، من بعد ، في كوبا وفي اماكن اخرى كنت افعل الشيء نفسه فراح كنزي البحري يتضخم عن طريق هذا الصيد وعن طريق المفاوضة والشراء والهدايا والسرقات (ليس ثمة من جامع شيء ، شريف البتة) الى ان ملأ غرفا كثيرة في منزلي .

كنت املك اكثر الاصناف غرابة من بحار تشيلي ، الفيليبين ، اليابان . البلطيق ، جعدات من القطب الجنوبي ، حلزونات ملونة من بحر كوبا ، قوقعات رسامات لابسات احمر وزعفرانيا (٢٤) ، ازرق (٢٥) وبنفسجيا كأنهن راقصات بحر الكريبي ، الحق اقول ان النوع الوحيد الذي كان ينقصني هو حلزونة أرضية من ماتسو غروسو Mato Crosso بالبرازيل ، رايتها مرة فلم استطع شرائها وما قدرت على السفر الى الغابة كي التقطها من هناك ، كانت خضراء كلها في جمال زمردة شابة فتية .

لقد بالغت في هذا المذهب الحلزوني حتى اني قمت بزيارة بحار نائية قصية ، كذلك اصدقائي بدأوا في البحث عن حلزونات في « تحلزة » معدية .

٢٤ — زعفران : هكذا في الاصل Azaferan . عن العربية

٢٥ — ازرق azul : الكلمة مأخوذة من الكلمة العربية ذات الاصل الفارسي لانيروء .

أما بالنسبة للتي كانت تنتمي اليّ فقد تجاوزت الخمسة عشر ألفا ، كانت تملأ الرفوف كلها وكانت تتساقط من على الموائد والكراسي . وكتب علم الحلزونات أو «مالاكولوجيا» ، فلتسمّ بما تسمى ، ملأت مكتبتي كذلك . ذات يوم أمسكتها جميعها ووضعتها في صناديق كبيرة ثم حملتها إلى جامعة تشيلي ، فكانت أولى هباتي إلى الروح الأم *Alma Mater* وكانت مجموعتي هذه ذات شهرة واسعة فاستلمتها جامعتي ، هذه المؤسسة الجيدة ، في شكرات وخطابات ثم دفنتها في قبو ، أبدا من بعد ما رُئيت ولا شوهدت .

((أراوكانيا)) (Araucania)

حينما كنت بعيدا ، متميزا في جزر الأرخبيل البعيد ، كان البحر يوشوش والعالم الصامت كان مفعما بأشياء تحكي عن وحدتي وعزلي ، لكن الحروب الباردة والساخنة لوّثت الخدمة القنصلية وجعلت من كل قنصل تمثالا متحركا وصنما من غير شخصية لا يستطيع أن يقرر أي شيء ، وكان عمله يدنو كثيرا بشكل مشبوه من عمل الشرطة .

كانت الوزارة تفرض عليّ أن اتحرى الأصول العرقية للناس : أفريقيين ، آسيويين ، يهودا ، ولا أحد من هذه المجموعات الانسانية كان يستطيع الدخول إلى وطني .

كانت الحماسة تبلغ مدى بعيدا إلى درجة أنني كنت أغدو أنا ضحية لها ، فحين أسست ، دون أي قرش من خزانة الدولة التشيلية ، مجلة متقنة عنونها «أراوكانيا» ووضعت على الغلاف صورة امرأة أراوكانية جميلة تضحك بكل أسنانها ، كان هذا كافيا لكي تلفت وزارة الخارجية نظري في لهجة شديدة لأنها اعتبرت المجلة استخفافا وعصيانا ، علما بأن رئيس الجمهورية السيد (بيدرو أغيره ثيردا) له وجه نبيل لطيف تبدو في سحناته مواد خلاسيّتنا وهجنتنا كلها .

انه ليُعرف أن قبائل «أراوكانو» قد ابيدت عن بكرة أبيها ، ثم في النهاية تنوسيت بعد أن هُزمت لأن التاريخ لا يكتبه إلا الغالبون أو الدين

يجنون ثمرة الانتصار . بيد انه ليس فوق هذه الارض الا اجناس قليلة
تفوق في جدارتها الجنس «الأراوكانى» .

وسياتي اليوم الذي نرى فيه جامعات اراوكانية وكتبا مطبوعة باللغة
الاراوكانية ، وعند ذلك سنعرف ما فقدناه من صفاء ونقاء وطاقة بركانية .

ان الادعاءات «العرقية» الباطلة عند بعض امم امريكا الجنوبية التي
هي نفسها نتاج تصالبات واختلاطات خلاسية هجينة لهي طرحة (٢٦) من
نوع استعماري . يريدون نصب سقالة حيث بضعة وجهاء بيض موسوسون
متشككون او «مستبيضون» يقدمون انفسهم في المجتمع وهم يومتون الى
انفسهم امام الآريين الانقياء او السواح السفسطائيين . لحسن الحظ هذا
اصبح من مخلفات الماضي وها هي الامم المتحدة مليئة بمندوبين سود
ومنغوليين (صفر) ، اي ان نبات الاجناس الانسانية يعرض ، بنسغ
الدكاء الذي يصعد ، ألوان اوراقه كلها .

لقد انتهى بي الامر ان ضقت ذرعا وذات يوم تخليت الى الابد عن
منصبي : وظيفة القنصل العام .

سحر و سر

اضف الى هذا ، اني ادركت ان العالم المكسيكي المقموع المردوع ،
العنيف القومي، الملتف بكياسته التي يرجع عهدها الى ما قبل (كولومبوس)،
سيمضي كما كان بدون حضوري ولا شهادتي .

حين قررت العودة الى بلدي كنت افهم الحياة المكسيكية اقل مما كنت
افهمها حين وصلت الى المكسيك .

٢٦ - طرحة : هكذا في الاصل Tara ، وهي تسمي ما يطرح من اللون الكامل مثل
وزن الوعاء او السفط او الشاحنة . عن العربية

كانت الفنون والآداب تنتج في دوائر متنافسة ، لكن الويل لمن يأتي من الخارج فيميل الى جانب ضد آخر او يكون مع فئة ضد أخرى، فان هؤلاء وأولئك سينقضون عليه ويسحقونه .

عندما هيات نفسي للسفر ، اقاموا لي مظاهرة هائلة ؛ حفلة عشاء حضرها ما يقرب من ثلاثة آلاف مدعو ، دون عد المئات من الذين ما وجدوا مكانا فارغا . عدة رؤساء جمهورية ارسلوا يعبرون عن مباركتهم .

بيد ان المكسيك هو حجر المحك لامريكا كلها ، وليس عبثا انه قد نقشت هناك ساعة التوقيت الشمسي لامريكا القديمة ، الدائرة المركزية للبث ، للمعرفة وللسر .

ان كل ما كان يمكن ان يجري ، جرى . لقد كانت الصحيفة الوحيدة للمعارضة تمولها الحكومة ، كانت الديموقراطية الاكثر ديكتاتورية مسن الديكتاتورية نفسها تحكم هناك .

اني اذكر حادثة مأساوية اثرت في نفسي بشكل رهيب ، كان ثمة اضراب في معمل استغرق زمنا طويلا دون ان ينثر على اي حل لانهايه ، ودون ان يلمح في الجو ضوء يشير الى انتهائه ، فاجتمعت نساء المضربين واتفقن على زيارة رئيس الجمهورية كي يشرحن له الموقف ، ربما كن يردن ان يعبرن له عن قلقهن وبؤسهن . طبعاً ما كن ليحملن اسلحة مطلقا . اشتريين باقة من الورود كي يقدمنها الى ولي الامر او الى زوجته ، كن على وشك الولوج الى القصر حين اوقفهن الحرس الجمهوري فمنع عليهن الاستمرار لأن السيد الرئيس ما كان ينوي استقبالهن ، وأمرن بأن يتوجهن الى الوزارة المعنية وان عليهن ان يخلين المكان حالا ، فهذا امر قاطع عاجل .

النساء بيثن قصدهن وشرحن موضوعهن وقلن انهن لن يتسببن في اي ازعاج مهما كان ، وانهن لا يردن الا اعطاء هذه الزهور الى السيد الرئيس او الى حرمه المصون، والطلب منه ان يعمل على حل الاضراب في اسرع وقت ممكن ، اذ انهن لا يجدن ما يؤوين به اولادهن ولا ما يسد الرمق ، وانه من الصعب جدا ان يستمر الوضع على هذه الحالة ، فرفض رئيس الحرس ان يحمل اية رسالة او اي خبر الى السيد الرئيس، فأصرت

النساء من جانبهن على البقاء هناك الى ان يلبس طلبهن .

آنذاك سمعت طلقات انطلقت من حرس القصر، واذ بسبع من النساء يسقطن مضرجات بدمائهن ميتات ، بالاضافة الى جريحات اخريات .

في اليوم التالي اقيمت الجنائز السبع ، كنت اظن ان موكبا هائلا سيرافق نعوش تلك النساء الشهيدات غير ان اشخاصا قلائل مشوا في الجنازة الموحدة . بلى ، تكلم الزعيم النقابي الكبير وكان هذا ثوريا معروفا، كان خطابه على المقبرة لا يتقدح فيه لما له من أسلوب بلاغي رثان طنان ، قراته بكامله في اليوم التالي وقد نشرته الصحف ، فلم يكن يحتوي على سطر واحد من الاحتجاج ، لم تكن فيه كلمة واحدة من الغضب ولا حرف يطالب بمحاكمة المسؤولين عن هذه الفعلة الشنعاء . بعد مضي اسبوعين على هذه المجزرة ما كان احد يتكلم عن الحادثة . ابدا ما قرأت من بعد ان احدا يشير الى هذه الحادثة او يذكرها .

كان رئيس الجمهورية امبراطورا «اثيريا» ، لا يمكن ان يمس في شيء فهو اكثر رفعة من العائلة البريطانية المالكة بألف مرة . ما مسن صحيفة ، سواء في مزح او جد ، كانت تجرؤ على انتقاد هذا الموظف السامي ، والا فانها تتلقى حالا ضربة مميتة قاضية .

ان ما هو جذاب خلاّب ، ليلف مآسي المكسيك الى درجة ان المرء يعيش مذهولا امام التورية ، تورية تبتعد اكثر فأكثر عن النبض الجوهري، عن الهيكل الدامي . ان الفلاسفة أصبحوا نقّادا في علم الجمال ، ارتموا على البحوث الفنية الوجودية الزهيدة التي تبدو ازاء البركان مشينة معيبة . ان السلوك المدني لتقطع وصعب . ان القهر ، الاخضاع ، الاذلال، يأخذ مجاري عديدة تترسب مياهها حول العرش .

لكن كل ما هو سحري ينشأ ويعاد نشوؤه دوما في المكسيك . من بركان بدا يولد من جديد فلاحا في حقله الفقير بينما هو يبذر فاصوليا ، الى البحث المستمر عن رفات (كورتيس Cortés) الذي حسب ما يقال ، يستريح في المكسيك مع الخوذة الذهبية التي تغطي جمجمة الفاتح،

الى المتابعة الشديدة التي ليست اقل من الاخرى في البحث عن بقايا
الامبراطور الاثيني : (كوانثيموك Cuanthemoc) ، التي ضاعت منذ
اربعة قرون والتي قد تظهر هنا او هناك على حين غرة ، اذ ان هنودا
سريين لا يرون يحفظونها ويصونونها ، كي تعود للنشوء مرة اخرى في
الليل الطلسم .

ان المكسيك يعيش في حياتي مثل نسر صغير ضال يدور في عروقي .
ما من شيء سوى الموت يقدر على ان يطوي اجنحته فوق قلبي : قلب
جندي غاف .

الفصل الثامن

الوطن في دياجير

((ماكتشو بيكتشو)) (١)

لقد أسرعت وزارة الخارجية فوافقت على استقبالي من عملي .

ان انتحاري الديبلوماسي منحني الفرح الاكبر : فرح انني استطيع العودة الى تشيلي . اني لاعتقد في ان الانسان يجب ان يعيش في وطنه واومن ان اجتثاث المرء من جذوره ، واستئصال البشر من تربتها ، لهما خيبة تعكر وضوح الروح واحباطا يفسد جلاء النفس . انا لا استطيع العيش

١ - ماکتسو بیکتشو : هي بلدة قديمة ، ترتفع ثلاثة آلاف متر من سطح البحر ، مبنية من حجر غرانيتي ابيض قرب اخدود **Urubamba** في سلسلة جبال «الانديس» ، اكتشفها عالم الآثار (الانجليزي) **Hiran Bingham** عام ١٩١١ ، وفي اعلى قمة من قمم هذه المدينة تسمى الصخرة المقدسة التي ترحل الشمس بالمدينة .

الا في ارضي نفسها ، أنا لا استطيع الحياة دون ان اضع قدمي وبدي
وسمعي في تربة وطني ، أنا لا استطيع التنفس دون ان احس بدوران
مياها وظلالها ، أنا لا استطيع النمو دون ان اشعر بجذوري وهي تبحث
في الحماة عن الذات الأم ، عن الجوهر الاصل .

لكن قبل بلوغي تشيلي قمت باكتشاف آخر اضاف تطورا جديدا
الى تطور شعري .

لقد توقفت في «البيرو» وصعدت حتى اطلال «ماكتشو بيكتشو» ،
امتطينا احصنة حتى استطعنا السمو الى اعالي هذه المرتفعات ، اذالك
لم يكن نمة طريق معبدة للسيارات . لقد رأيت من على ذراها الابنيسة
الحجرية القديمة التي تحيط بالقمم العالية جدا لسلسلة جبال «الانديس»
الخضراء . كانت تنحدر من القلعة المتآكلة المنقضة بفعل الحت على مضي
القرون والدهور ، سيول ووديان . كانت تصعد من نهر «ويلكامايو»
Wilcamayo كتل من ضباب ابيض تعمم هذه الدرى . لقد شعرت
بضالتي في مركز تلك السرة الحجرية ، سرة عالم غير ماهول بالسكان ،
عالم فخور منيف شاهق ، كنت انمي اليه بشكل من الاشكال . لقد شعرت
ان يدي كانتا قد عملتا هناك في احدى المراحل التاريخية السحيقة ، كانتا
تحفران اخاديد ، تملسان الصخور .

احسست انني تشيلي ، بيروي ، امريكي . عثرت في تلك المرتفعات
الوعرة ، بين تلك الاطلال المتناثرة المجيدة ، على عقيدة ايمان كي يستمر
غنائي ونشيدي .

هناك ولدت قصيدتي «مرتفعات ماکتسو بيكتشو» (٢) .

٢ - مرتفعات ماکتسو بيكتشو : لقد ترجمنا هذه القصيدة - الملحمة ولكنا لم
ننشرها بعد .

سهوب ملح البارود

لقد وصلت من جديد في نهاية عام ١٩٤٣ الى « سانتياغو » ، فنزلت في منزلي الذي استطعت تملكه على مدى فترة طويلة بفضل تحسبي لما قد يجيء به المستقبل . في هذا المكان ذي الاشجار الكبيرة السامقة جمعت كتبتي وبدأت مرة اخرى الحياة الصعبة .

لقد بحثت من جديد عن جمال وطني ، جمال الطبيعة العنيف ، عن روعة النساء في بلدي ، عن اعمال زملائي ، عن ذكاء بني وطني .

لم يكن البلد قد تغير، او تبدل . ارياف وضيع غافية ، فقر مريع في المناطق النجمية ، والناس المتألقون يملأون ناديتهم : نادي

لقد سبب لي قراري الذي اتخذته اضطهادا وملاحقة ودقائق نجمية . (٣)

واي شاعر يندم ؟

ان الصحفي (كورثيو مالابارت) (٤) الذي اجري معي مقابلة بعد سنوات مضت على ما سأرويهِ الآن ، قال في مقالة ، مصيبا : « لست شيوعيا ، لكنني لو كنت شاعرا تشيليا لاصبحت شيوعيا ، كما فعل (بابلو نيرودا) . يجب على المرء هنا في تشيلي ان يتحزب في سبيل الفقراء ، في سبيل من هم بلا مدرسة وبلا حذاء » .

لقد اختارني هؤلاء الناس الذين هم بلا مدرسة وبلا حذاء نائبا في مجلس الشيوخ في ٤ آذار من عام ١٩٤٥ . اني سأظل افتخر مدى حياتي

٣ - دقائق نجمية : التعبير هنا يشبه ما نقوله بالعربية « رؤية نجوم الظهر » من شدة العذاب والاضطهاد .

٤ - كورثيو مالابارت : صحفي وكاتب ايطالي (١٨٩٨ - ١٩٥٧) .

بأن الذين صوتوا لي هم آلاف من التشيليين يعيشون في أقصى منطقة
بتشيلي : منطقة المناجم الكبيرة ، مناجم النحاس وملح البارود .
انه لصعب وعسير جدا المسير عبد هذه السهوب . فالسمااء لا تهطل
في هذه المناطق خلال نصف قرن او بزيد ، والصحراء منحت عمال المناجم
سيماء صلبة وملاح متجهمة . فهم رجال ذوو وجوه ملوحة بالشمس
محروقة ، ان تعبيرات نفوسهم عن الوحدة والعزلة والهجران تختزن في
عيونهم ذات الحدة الغامقة والشدة المعتمة . كان علي ان اصعد من
الصحراء الى سلسلة الجبال ، ان ادخل في كل بيت فقير ، ان اعرف
الاعمال اللانسانية التي يتعرضون لها ، ان اشعر اننى مستأمن على امال
الانسان المنعزل المضطهد المغمور ، ان كل هذا ليس بمسؤولية سهلة

وعادية . غير ان شعري استطاع ان يفتح طريقا للاتصال فاستطعت ان
امشي وان اجري وان استقبل على اني اخ وفي من لدن مواطني الذين
يعيشون في ظروف صعبة وحياة قاسية صلبة .

لست ادري ، ان كان في باريس او في براغ ، حين راودني شك
ضعيف حول موسوعية المعلومات لدى احداثي الحاضرين معي هناك ،
تقريبا كلهم كانوا كتابا والطلبة كانوا قلة فيهم .

— نحن نتكلم كثيرا عن تشيلي — قلت لهم — واني على يقين بانكم
تجالسونني نظرا لانني تشيلي ، لكن ، افتعرفون شيئا عن بلدي البعيد
النائي ؟ مثلا ، في اية وسيلة من وسائل النقل نتحرك ؟ اعلى فيل ، افي
سيارة ، ابطار ، اعلى متن طائرة ، اعلى دراجة ، ام على ظهر جمل ام في
مزلقة جليد ؟

اجاب اكثرهم في جدية وقناعة : على ظهر فيل .

ليس في تشيلي لا فيلة ولا جمال . لكنني ادرك انه الامر مبهم ومحير
ان بلدا يولد في القطب الجنوبي الجليدي لينتهي في السهوب السبخة
المالحة والصحاري حيث لا مطر منذ نصف قرن على الاقل . كان علي ان
اجتاز هذه الصحاري واجوب بها خلال سنين عديدة لانني كنت نائبا
اختاره سكان تلك الفيافي العزلاء ، لانني كنت ممثلا لشغيلة لا حصر لهم

يكدّون في ملح البارود والنحاس ، هؤلاء ما استعملوا يوما ربطة عنق قط .

التوغل في تلك السهوب ومواجهة تلك الرمال هو كالدخول في القمر ، ان هذا النوع من الكرة الخالية والكوكب الفارغ يختزن الثروة الكبرى في وطني ، لكن لا بد من استنباطها من باطن الارض الجافة القاسية وهذه الارض ليست مزودة بما يغري للعيش فيها ، ان نقل الماء اليها يكلف جهودا جيدة ناهيك عن حفظ نبتة تزهر ولو كانت زهرة متواضعة ، او عن مقتابعا وثمانى سنوات من الالحاح وسبع ضحايا .

انا انتمى الى الطرف الآخر من الجمهورية التشيلية ، فقد ولدت في اراض خضراء ذات اشجار غابية فكانت لي طفولة ذات مطر وثلج . ان اضطراري لمجابهة تلك الصحراء القمرية كان يعني انقلابا في وجودي كذلك ان تمثيل أولئك الرجال في مجلس الشيوخ ، وتمثيل اراضيهم الهائلة المنعزلة كان مشروعا صعبا وعملا شاقا . ان الارض العارية بسلا حشيشة واحدة ، ولا قطرة ماء تائهة ، لهي سر شديد ولغز نفور . فيما تحت الغابات ، ازاء الانهار ، كل شيء يكلم الانسان ، الصحراء هي على العكس من هذا لا تخاطب احدا وانا ما كنت لافهم لغتها ، اي ، صمتها .

خلال سنين طويلة ركزت مؤسسات ملح البارود سيطرة حقيقية : اقطاعيات او ممالك في تلك السهوب ولقد أغلق الانجليز ، الالمان ، وتشكيلة الغزاة المحتلين كلهم على هذه الاراضي المنتجة للملح البارود وأقطعوها لانفسهم واعطوها اسم مكاتب . هناك صكوا عملة خاصة بهم فرضوها على العمال ، ومنعوا اي اجتماع قد يعقدونه وحرّموا الاحزاب ومنعوا الصحافة الشعبية . لم يكن من السهل الدخول الى تلك المناطق الا بسماح خاص لا يتوصل اليه الا القلة المختارة .

كنت ذات مساء اتحدث الى عمال مرآب في مكاتب ملح البارود التابعة (ماريا الينا) . كانت ارضية هذا المرآب دائما موحلة بالماء والزيت والسوائل ، فكنت والقادة النقابيين الذين اصطحبوني ندوس على السواح ثخينة تعزلنا عن الارض الموحلة .

ان هذه الألواح الثخينة - قالوا لي - كلفتنا خمسة عشر اضرابا

متتابعا وثمانى سنوات من الالحاح وسبع ضحايا .

بالنسبة للضحيا السبع فقد قصوا عليّ انه في احد الاضرابات هذه، اخذت شرطة التركة سبعة من فادة العمال ، كان الحراس يمتطون الخيل فيما العمال وهم مربوطون الى الخيول بحبال ينابعونهم على الأقدام عبر الاراضي الرملية النائية ثم افرغوا فيهم ما شاءوا من الميارات النارية . ظلت أجسادهم ممددة تحت اشعة الشمس المتوهجة اللاهبة وبرد الصحراء الفارص الى ان عشر عليهم رفاقهم فدفنواهم .

من قبل كانت الاشياء اسوا كثيرا ، مثلا ، في عام ١٩٠٦ ب «ايكيكه» نزل المضربون الى المدينة من مكاتب ملتح البارود جميعها ، كسي يقدموا مطالبهم مباشرة الى الحكومة ، فاجتمع آلاف الرجال المنهكين بما قاسوه من المسير الطويل للاستراحة في ساحة تجاه مدرسة هناك ، كانوا ينوون ان يتوجهوا في صباح اليوم التالي ليروا حاكم المنطقة فيعرضوا عليه مطالبهم ، لكنهم ما اسنطاعوا ان ينفذوا ما عزموا عليه ، فلقد قدمت في فجر ذلك اليوم قوات عسكرية يقودها عقيد فأحاطت بالساحة وبدأت باطلاق النار والتقتيل دون اي اذار او تحذير فسقط صريعا في تلك المجزرة اكثر من ستة آلاف رجل .

في عام ١٩٤٥ كانت الامور تجري في صورة احسن ، لكن ، احيانا ، كان يبدو لي ، ان زمن الابداء الجماعية يعود من جديد . ذات مرة منعت من التوجه الى العمال في محل النقابة ، فدعوتهم انا الى خارج ذلك السور، وفي وسط الصحراء بدأت اشرح لهم الوضع وأبين لهم الوسائل الممكنة للخروج من هذه الحالة التي هم عليها ، كنا ما يقرب من مائتي شخص واذا بي اسمع ضجة آليات تقترب ، على بعد اربعة امتار او خمسة مني وقفت دبابة عسكرية ثم فتحت فوهتها وأطلقت فوهة رشاش منها قد صوب نحو رأسي، ثم أطل قرب الرشاش ضابط متأنق جدا لكنه جاد جدا ، اقتصر على توجيه نظره اليّ بينما كنت اتابع خطابي ، وهذا كان كل شيء .

ان الثقة التي وضعها في الشيوعيين اولئك العمال الكثيرون ، وهم أميون في غالبيتهم ، كانت قد ولدت مع (لويس ايميليو ريكايرين) الذي بدأ نضاله في هذه المنطقة اليباب . من عامل محرض بسيط ، من فوضوي

قديم ، تحول الى حضور شعبي هائل في كل مكان ، فلقد ملأ البلد بالنقابات والاتحادات واستطاع ان ينشر اكثر من خمسة عشر صحيفة مهمتها الدفاع عن هذه المنظمات الجديدة التي خلقها ، وكل هذا بلا اي سنتيم . كان المال يخرج من الضمير الجديد الذي كان العمال قد تبثوه وتكفلوا به .

لقد رايت في بعض الاماكن مطابع (ريكابرين) التي خدمت قضية العمال في بطولة وجراة ، وظلت تعمل في سبيل هذه القضية اكثر من اربعين سنة ، بعض هذه الآلات حطمها رجال الشرطة ثم اتصلت من بعد في دقة واعتناء ، وكان تلمع فيها الندوب الهائلة تحت اللحام الفرامسي الودتي الذي جعلها تتحرك من جديد .

لقد تعودت في تلك الجولات الكثيرة التي كنت اقوم بها عبر السهوب ان انزل في اكثر ابيوت فقرا ، في بيوت صغيرة ، او اكواخ او اخصاص يقطنها رجال الصحراء . كان ينتظرنني دوما عند مداخل المناجم مجموعة من العمال وهم يحملون رايات صغيرة للترحيب بي ، من بعد كانوا يدلونني على المكان الذي سايت فيه . ثم يتوافد علي في غرفتي خلال اليوم كله نساء ورجال يعرضون علي شكاويهم العمالية ونزاعاتهم المحلية او العائلية . هذه الشكاوي كان لها احيانا طابع قد يراه من هو غريب ، مضحكا هزليا؛ مثلا نقص الشاي قد يؤدي بهم الى شن اضراب ذي نتائج خطيرة . اهو من الضروريات الملحة كما هو الامر عليه في لندن ، في هذه المنطقة البائسة الفقيرة ؟ لكن ، ما هو اكيد ان الشعب التشيلي لا يمكن له ان يعيش دون تناول الشاي عدة مرات في اليوم ، كان العمال الحفاة الذين يسألونني عن سبب فقدان هذا الشيء الغريب ، هذا المشروع الكريه الطعم ، لكنهم ضروري لا غنى عنه ، يقدمون لي حجة عذر قائلين :

— اننا ، ان لم نتناوله ، نشعر بوجع شديد في الراس .

لقد كان لاولئك العمال المسجونين خلف جدران الصمت ، فوق الارض المتوحدة وتحت السماء المتوحدة ، حب الاستطلاع السياسي الحيوي ، كانوا يريدون ان يعرفوا ماذا يجري في يوغوسلافيا او في الصين ، كانوا يهتمون بالتغيرات والتحويلات والمصاعب في البلدان الاشتراكية ، وبناتج

الاضرابات العمالية الكبيرة في إيطاليا ، وبشائعات الحروب وظهور الثوار في اكثر الاماكن بعدا عن تشيلي .

كنت استمع دوما خلال الاجتماعات التي تنعقد هنا وهناك الى مطلب ملحّ متكرر ألا وهو ان اقرا عليهم بعضا من قصائدي ، وكثيرا من المرات يطلبون هذه القصائد باسمائها . طبعاً ما فهمت ابدا او عرفت فيما اذا كانوا جميعا يفهمون او لا يفهمون ، يدركون او لا يدركون القليل او الكثير من ابيات قصائدي التي انشدها ، فلقد كان هذا صعب التحديد في ذلك الجو من الاطراق والسكون المطلق ، من الاحترام المقدس الذي كانوا ينصتون فيه الى هذا الانشاد . لكن ما هي اهمية هذا ؟ فانا ، وانا واحد من اكثر الاغبياء شهرة ، ما استطعت ابدا ان افهم ابياتا ليس بالقليله من شعر (هولديرلين) (٥) ومن شعر (مالارميه) (٦) . مع العلم انني قرأت هذه الابيات بالاحترام المقدس نفسه .

اما الطعام ، فانه حين يراد له ان يتخذ ملامح وايمة كبرى . يبدو قدرا كبيرة من دجاجة او طير غريب يستطادونه من السهوب . وما كان يوضع في الصحون كان بالنسبة لي سعباً ، لا استطيع ان اغرز فيه سنّي ، وكثيرا ما كان ارائب يقال بأنها مطهية . كانت الظروف تجبر على صنع طبق مفضل من هذا الحيوان الصغير الذي ولد كي يموت في المخابر .

والاسرة التي خصصت لي ، دائما كانت ذات طراز واحد ، ففسي الببوت التي لا حصر لها حيث كنت انام ، فان هناك اسرة لها خامستان اثنتان وميزتان لا تجدهما الا في الاديرة ، اولاهما شراشف بنساء مثل الثلج متيبسة بفعل قوة النشا ، قادرة على ان تعف وحدهم فائمة . والثانية يبوسة في السرير شبيهة ببوسة ارض الصحراء غير الرملية . هناك لا يعرفون ما يسمى بالفراش بل هو الواح بقدر ما هي ملساء بقدر ما هي قاسية لا ترحم .

٥ - هولديرلين Friedrich : شاعر الماني (١٧٧٠ - ١٨٤٢) .

٦ - مالارميه Stephane : شاعر وناقد فرنسي (١٨٤٢ - ١٨٩٨) .

ومع هذا فان كل شيء هناك كان يغفو قريـر العين ، فبلا اي جهد كنت ادخل لأشارك في النوم ذلك الفيلق الغفير من زملائي ورفاقي . كان النهر دائما جافا ومتوهجا كأنه مـجرة من نار ، فيما الليل في الصحراء كان يمد رطوبته تحت قبة ذات نجوم متقنة المصنع .

لقد جرى شعري وحياتي جريان نهر امريخي ، مثل تيار من مياه تشيلي ، فشعري وحياتي ولدا من عمق الجبال السري بالمجنوب وتوجها بلا توقف نحو مخرج بحري في حركة تياراتهما . لم يرفض شعري اي شيء مما استطاع جرفه معه في مجراه ، لقد قبل الهوى ، وحضن السر ففتح له طريقا بين قلوب الشعب .

لقد كان لي ان اكافح وان اكابد ، ان احب وان اغني ، ان انتصر وان انهزم ، ان اتذوق طعم الخبز وان ادوق طعم الدم ، فماذا يريد الشعب بعد ؟ ان النقيضين من دمع ومن قبل ، من وحدة ومن شعب ، يعيشان في شعري ، يعملان في شعري ، لاني عشت من اجل شعري ، وشعري دعمني في صراعاتي . وان كنت قد حزت على جوائز كثيرة ، جوائز تفلت هاربة مثل فراشات ذات طلع هارب ، فاني قد نلت الجائزة الكبرى ، جائزة يحتقرها الكثيرون ، ولكنها في واقع الامر مستعصية على الكثيرين . لقد غدت بكـد دروس قاسية من جمالية ومن بحث ، عبر متاهات الكلمة المكتوبة ، شاعرا شعبيا ، بلى فهذه هي جائزتي ، ليست الكتب ولا القصائد المترجمة او التأليف التي تصف او تشرح او تحنط كلماتي . ان جائزتي لهي هذه اللحظة القصيرة في حياتي حين ، في عمق فحم « لوتا » وسط وهج الشمس بتلك الارض المحترقة ، من حفرة ملح البارود صعد انسان كما لو كان يصعد من جهنم ، في وجه مشوه بسبب العمل الرهيب ، في عينيـن محمرتين بسبب الغبار القاتل ، فمد لي يده المتصلبة ، هذه اليد التي تدل عليها خارطة تلك السهول في قساوتها وتقطيعها . فقال لي في عينيـن تـبرقان : « اني لاعرفك منذ زمن طويل ، يا اخي » . ان هذا هو اكليل الغار لشعري ، هذا المثقب في السهوب الرهيبة حيث يخرج عامل قالت له الريح والليل والنجوم بتشيلي مرات عديدة : « انك لست وحدك ، ثمة شاعر يفكر في الامك » .

لقد انتسبت الى الحزب الشيوعي بتشيلي في ١٥ تموز من عام ١٩٤٥ .

(غونثاليث بيدىلا Conzalez Videla)

كانت المرات التي انا ورفاقي كنا نمثلها ، لا تصل الى المجلس الا في صعوبة جمة . تلك القاعة المريحة البرلمانية كانت مثل سرير وثير لا تنعكس عليه جلبه الجماهير غير المرتاحة ولا تجد لها صدى في مجلس الشيوخ . وزملائي في العصابة المضادة كانوا اكاديميين خبراء في فن الخطابة الوطنية الرنانة ، وتحت هذا الستار الحريري المزيف كانوا يبسطون ويسهبون في كلامهم ، فكلت اشعر بالاختناق .

فجأة تجدد الامل ، اذ ان احد المرشحين الى الرئاسة وهو (غونثاليث بيدىلا) اقسم ان يعمل في سبيل العدالة ، فجلبت له بلاغته الفعالة سمعة حسنة ، وانا كنت قد عينت رئيسا للدعاية في حملته الانتخابية فحملت الى انحاء ارض تشيلي كلها هذه البشوى الجديدة عن مرشحنا هذا .

فاختاره الشعب بأكثرية كاسحة من الاصوات رئيسا للجمهورية .

لكن رؤساء الجمهورية في قارتنا الامريكية « الكريوية » كانوا يعانون من مسخ وتغير في الخلق والخلقة مرات كثيرة ، في حالة هذا الذي اروي حكايته الآن ، فانه غير من اصدقائه في سرعة واستبدل بهم آخرين واقحم اسرته في الطبقة الارستوقراطية ، وشيئا فشيئا اصبح ديماغوجيا عينا شهيرا .

الحقيقة هي ان (غونثاليث بيدىلا) لا يدخل في اطار الديكتاتوريين النموذجيين التقليديين في امريكا الجنوبية ، اذ ان في (ملغاريجو) (٧) ديكتاتور بوليفيا ، وفي الجنرال (غوميث) ديكتاتور فينزويلا ، اعراقا ارضية وطبقات معدنية يمكن معرفتها ، ولهما اشارة تنمي ببعض العظمة ، ويبدو عليهما كأنهما يتحركان بدافع قوى مدمرة ،

٧ - ملغاريجو Mariano: عقيد قام بانقلاب عسكري في بوليفيا، وحكمها ديكتاتوريا (١٨١٨ - ١٨٧١)

ولكن هذا لا ينفي عنهما انهما سفاحان ، غير انهما كانا قائدين جابها الممارك والنيران .

بينما (غونثاليث بيدىلا) كان ، على العكس من ذلك ، نتاج الطبسخ السياسي ، تافها متماديا في غيه ضعيفا يحاول ان تبدو عليه ملامح القوة والجبروت .

في حديقة حيوانات امريكا ، كان الديكتاتوريون هم العظائيات العملاقة ، بقايا اقطاعية هائلة في اراض ما زالت كما كانت قبل التاريخ . ان يهوذا تشيلي ما كان الا تلميذا في الطفيان وفي درجات العظائيات ومراتبها لا يمكن له ان يتعدى كونه ضبا ساما (٨) ، بيد انه فعل ما فيه الكفاية من اذى لتشيلي ، فهو على الاقل اعاد تاريخ البلد الى الوراء . كان التشيليون في عهده المبارك ينظر بعضهم الى بعض في خجل دون ان يفهموا كيف جرى ذلك وكيف يجري هذا الامر المخجل .

كان هذا الرجل من دعاة الاعتدالية ، بهلوان مجلس . توصل الى ان تموضع في يسارية مشهدية . في «ملهاة الاكاذيب» هذه كان بطلا مكثرا خبيثا . في هذا لا احد يجادل . في بلد حيث السياسيون فيه ، عموما ، جادون جدا او هكذا يبدو ، ارتاح الناس لظهور التفاهة والسخافة والطيش والخفة والبطلان ، ولكن حين ، راقص «ال كونغا» هذا خرج من الام (٩) ، كان الوقت متأخرا جدا : كانت السجون مليئة بالمعتقلين السياسيين الى درجة انه أنشئت معتقلات مثل معتقل «يساغوا» . وتركزت الدولة البوليسية ، اذاك ، كتجديد قومي في وضع البلاد . فلم يكن ثمة سبيل غير الجلد والصبر والصراع بشكل سرّي للعودة الى الحشمة والجديّة .

ان الكثيرين من اصدقاء (غونثاليث بيدىلا) الذين رافقوه حتى النهاية في نشاطاته الانتخابية قد سيقوا الى السجون في سلسلة الجبال العالية

٨ - ضب سام : هو الضب الابرس السام الذي يقال له الونغ .

٩ - خرج من الام : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، فاض عن الحد .

او في الصحراء بسبب انشغالهم عن مسخه ومخالفتهم لتغيره وتبدله .

فالحقيقة هي ان الطبقة العالية المورطة بقدراتها الاقتصادية ، ابتلعت مرة اخرى حكومة امتنا كما جرى ذلك عدة مرات من قبل ، لكن في هذه الحالة ، كان الهضم عسيرا غير مريح فمرت تشيلي في حالة مرضية كانت تتراوح بين الفشية والحشرجة .

لقد تحول رئيس الجمهورية الذي اخترناه بأصواتنا ، تحت حماية ورعاية الولايات المتحدة ، الى وطواط مطاط خسيس دنيء حقير سافل لثيم رذيل بخس تافه شرس عنيف دموي . انه لاكيد ان تأنيب ضميره له لم يكن يدعه ينام وبذلك فقد نصب ، قرب القصر الجمهوري ، مواخير للفلمان واللبغايا خاصة به ، زودها بسجاجيد ومرايا للذاته . لقد كان لهذا التعيس عقلية تافهة بيد انها ملتوية ، ففي الليلة نفسها التي بدأ فيها القمع واضطهاد الشيوعية والشيوعيين ، دعا اثنين او ثلاثة من القادة العمال الى العشاء معه ، بعد انتهاء الوليمة نزل معهم من على درج القصر الجمهوري ، ثم أخرج من عينيه بعض الدموع فعانقهم وقال لهم : «اني ابكي لاني قد امرت بسجنكم ، فحين تخرجون من هنا سوف يعتقلونكم ، ولست أدري فيما اذا سيشاهد بعضنا بعضا بعد هذه اللحظة» .

«الجسد الموزع»

لقد كانت خطاباتي عنيفة دوما وكانت قاعة مجلس الشيوخ مليئة دائما بالناس الذين يأتون ليسمعوني . لكن ، بعد مضي وقت قليل على انتخابي وعضويتي وخطبي ، طلب من المجلس طردي فطردت منه ووجه الامر الى الشرطة باعتقالي .

بيد اننا ، نحن الشعراء ، نملا بين جواهرنا الاصيلية ، ذاتا مصنوعة في معظمها من نار ودخان .

كان الدخان قد خُصص للكتابة . ان العلاقة التاريخية لكل ما كان

يجري لي اقتربت بشكل ماساوي من المواضيع الامريكية القديمة . في ذلك العام من الخطر والاختباء انهيئت اكثر كتبي اهمية الا وهو «النشيد العام» .

كنت ابدل دارا بدار في كل يوم تقريبا . في الجهات جميعها كانت الابواب تنفتح كي تحميني . كان ثمة دائما اناس لا اعرفهم يعبرون عن رغبتهم في ايوائي لعدة ايام . كانوا يرجون مني ان ابقى عندهم ملتجئا ولو لبضعة اسابيع ولو لبضعة ساعات . فعبرت قري ، حقولا ، موانئ ، مدنا ، مخيمات ، كذلك بيوت فلاحين ، مهندسين ، محامين ، عمال مناجم ، اطباء ، بحارة .

نمة موضوع قديم في الشعر الفولكلوري يعاد ويكرر في اقطارنا جميعها وهو موضوع «الجسد الموزع» . يفترض المغني الشعبي ان قدميه في جهة وان كليتيه في جهة اخرى فيصف اعضاء جسده كلها التي تركها مبددة مبثرة عبر الارياف والمدن . وهذا ما كنت اشعر به انا في تلكم الايام .

من بين الاماكن المؤثرة التي حوتني وضمنتي ، اذكر بيتا ذا غرفتين ، ضائعا بين التلال الفقيرة في «بالبارائيسو» .

فلقد خُصص لي فيه جزء من غرفة وركينا من نافذة كنت منه اراقب الحياة في الميناء . من هذه المطة (١٠) الحقيبة كان نظري يحيط بقسم من الشارع . كنت ارى في الليالي مسير الناس المزدحم . كان ربضا (١١) فقيرا وكان ذاك الشارع ، على بعد مائة متر من نافدتي ، يحتكر الاضاءة كلها له في ذلك الحي المعتم ، وتملأه حوانيت صغيرة وخدائيف ولعب اطفال .

قابعا في ركني كان لي حب للاستطلاع لا حد له ، احيانا لم اكن

١٠ - المطة : في الاصل *atalaya* وهي الكلمة العربية الطلائع ومن معانيها باللغة الاسبانية ما عرّبناه في النص .

١١ - ربض : هكذا في الاصل *arrabal* وهو الحي الشعبي خارج المدينة ، ولقوة الربض التي قام بها اهل قرطبة على الخليفة مشهورة معروفة .

اتوصل الى حل المشاكل ، مثلا ، لماذا كان الناس الذين يمرون ، سواء منهم المتسكعون او المستعجلون يتوقفون دائما في المكان نفسه ؟ ما هي هذه السلع السحرية التي كانت تعرض في هذه الواجهة ؟ اسر بكاملها كانت تتوقف لمدة طويلة واطفالها على الاكتاف . ما كنت ابلغ ان ارى وجوه التجلي والوجد التي كانت ولا شك تبدو عليهم حين ينظرون الى تلك الواجهة الساحرة ، لكنني كنت اتخيلها وافترضها .

بعد مضي ستة اشهر عرفت ان ذاك المكان كان واجهة حانوت بسيط لبيع الاحذية . سجل اذن ان الحذاء هو اكثر ما يهم الانسان . اقسمت ان ادرس هذا الموضوع ، ان ابحت فيه وان اصبر عنه ، لكن ما كان لسي الوقت كي انفذ هذا العزم او الوعد الذي املته ظروف غريبة . غير ان الاحذية ليست قليلة في شعري . انها تمشي على اكعبها في كثير من مقاطع قصائدي دون ان اكون قد عزمت على ان اغدو شاعرا حداثيا .

كانت تصل الى هذا البيت زيارات تطول احاديثها ، جيران يمكنون هناك ساعات وساعات ، زوار ثقلاء نرنارون لا يدرون انه على بعد قليل منهم ، مفصولا عنهم بحاجز من ورق صحف قديمة ، ثمة شاعر مطارد من قبل من لست ادري من محترفي الصيد الانساني .

السبت مساء وكذلك صبيحة كل يوم احد كان ياتي الى البيت خطيب احدي فتيات العائلة التي تستضيفني ، وكان ممن لا يجب ان يخبروا بوجودي . كان هذا الشاب عاملا ، يستودع لديه قلب الفتاة ، لكن ، آه ، ما كان اهل الفتاة يثقون به بعد . كنت اراه من كوة النافذة وهو ينزل من على دراجته التي كان عليها يوزع البيض في ذلك الحي الشعبي الواسع المديد كله ، بعد قليل اسمعه وهو يدخل مترنما الى البيت . كان عدو هدوئي وطمانينتي ، اقول انه عدو لانه كان يصّر على ان يبقى هناك يغازل الفتاة على بعد قليل من السانتيمترات من راسي . هي كانت تدعوه الى ممارسة الحب الافلاطوني في احدي الحدائق او في السينما، ولكنه كان يقاوم بشكل بطولي ويصر على ممارسة الحب الطبيعي في البيت، وانا كنت العن هامسا بين اسناني عناد موزع البيض المنزلي .

كان بقية افراد الاسرة يعرفون سر اختبائي عندهم : الام الارملة ،

الفتاتان الرائعتان والابنان البحاران . كان هذان الشابان يفرغان الموز في رصيف الميناء وأحياناً كانا يعودان الى البيت غاضبين لانما من باخرة كلفتهم بتفريغ شحنتها من الموز . عن طريقهما عرفت ان مركبا قديما قد تفكك قطعة قطعة في الميناء . فوجهت انا من ركني السري العمليات فانتزعا من قيدوم المركب التمثال الجميل وتركاه مخبأ في قبو بالميناء . ما استطعت ان ارى هذا التمثال الا بعد مضي عدة سنين بعد ان انتهى فراري ونفيري . ان المرأة الخشبية الجميلة ذات الوجه الاغريقي مثل بقية وجوه التماثيل في المراكب القديمة ، تنظر اليّ الآن في جمالها الكثيب الحزين فيما اكتب هذه المذكرات ازاء البحر (١٢) .

كانت الخطة هي ان اركب حفية الباخرة المشحونة بالموز في غرفة احد هذين الشابين وان اهبط منها حين تصل الى ميناء «غواياكيل» ، طالعا من بين عناقيد الموز . شرح لي الشاب البحار انه يجب عليّ ان اظهر فجأة على ظهر السفينة، تحت القسم المغطى منها، حين ترسو في الميناء الاكوادوري، وأنا البس رداء انيقا وادخن سيجارا نقياً ، ابدا ما استطعت ان ادخن هذا النوع من التبغ . فقررت العائلة بعد ان تبين ان الاقلاع قد اقترب ، ان تفصل لي البدلة المناسبة - انيقة ومخملية - ، لهذا الغرض اخذت لي المقاييس بشكل جيد دقيق .

في ضرب اثنين بثلاثة (١٣) كانت بدلتي جاهزة . ابدا ما سررت بمثل سروري حين استلمتها . ان فكرة «المودا» هذه التي كانت عند نساء البيت مقبولة بفيلم شهير في ذلك الوقت وهو فيلم : ذهب مع الريح . الشابان من جهتهما كانا يعتبران ان الطراز الذي كانا يريدان ان تكون البدلة عليه هو قدوة في الاناقة التقطاه من رقصات «هارلم» ومن حانات الرقص في البحر الكاريبي . ان السترة ، متصالبة ومحزمة ، كانت تصل حتى ركبتيّ ، والسروال كان يشد على راسي .

١٢ - لقد كتب (نيرودا) عن هذه الفتاة الخشبية قصيدة بعنوان التمثال على قيدوم السفينة ، ترجمناها ونشرناها في صحيفة الجمهورية العراقية عدد ٢٠٤٩ بتاريخ ١٩-٦-١٩٧٤ ضمن مجموعة من القصائد تحت عنوان «سبع قصائد لبابلو نيرودا» .

١٣ - في ضرب اثنين بثلاثة : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي في وقت عين .

احتفظت بهذا الزي الجدير بالرسم والوصف ، المصنوع بأيدي أناس
طيني النية جدا ، ولم تسنح لي مناسبة كي البس هذه البدلة . ابدا ما
خرجت من مخبائي في الباخرة ولا نزلت مطلقا مع الموز بـ «غواياكيل» ،
لابسا مثل (كلارك غيبل) (١٤) مزيف . لقد اخترت ، على العكس ، طريق
البر . انطلقت نحو الجنوب الاقصى لتشيلي الذي هو الجنوب الاقصى
لامريكا وعزمت على اجتياز سلسلة الجبال .

طريق في الغابة

كان الامين العام لحزبي في ذلك الوقت هو (ريكاردو فونسيكا) ، وهو
رجل حازم جدا ، دائم الابتسامة ، جنوبي مثلي . من العلفين البارد والمناخ
الرطب بـ «كاراهويه» . ان افونسيكا اعنى بحامي اللاشرعية ، بمخابئي،
بغاراتي السرية ، بطبع منشوراني وكثبي الهجائية . لكنه امتنى اكثر ما
اعتنى . في حيلة وحذر . بسر عناويني . لقد كان رئيسي هذا الشاب
اللامع الامين العام للحزب الشيوعي (ريكاردو فونسيكا) هو الوحيد الذي
كان يعرف على وجه الدقة خلال سنة ونصف مخابئي ونجركائي . ابن
كنت انام كل ليلة واين كنت اكل كل يوم . لكن توعمك سحته كان يضني
وينضي ذلك اللهب الاخضر الذي كان يطل من عينيه . ويظهر ، ويخمد تلك
الابتسامة التي كانت تملأ وجهه ، وذات يوم رحل عنا الى الابد ذلك الرفيق
الطيب .

لقد اخترت في اجواء اللاشرعية قائدا اعلى ، رجل فظ غلبه اللعب ،
كان حمالا في «بالبارائيسو» يدعى (غالو فونشاليث) ، كان رجلا معقدا في
هيئة خادعة وفي حزم قاتل . يجب عليّ هنا ان اقول انه ، في حزبنا ،
لم توجد عبادة الشخص ، لكن الحزب الشيوعي لتشيلي هو منظمة قديمة
مرت بمراحل من الضعف العقائدي ، بيد انه دائما كانت تسود روح الضمير

١٤ - كلارك غيبل Clark Gable : الممثل الامريكاني المروف (١٩٠١ - ١٩٦٠) ،

«نزل» نيلم ذهب مع الريح .

التشيلي ، وعي شعب صنع كل شيء بأيديه ، ففي حياتنا القومية كان لنا قادة قلائل جدا وهذا انعكس ايضا على حزبنا .

غير ان هذه السياسة الهرمية للفترة الستالينية ، انتجت كذلك في تشيلي جوا مخلخلا محميا باللاشرعية التي فرضت علينا .

لم يكن (غالو غونثاليث) ليستطيع الاتصال بمجموع الحزب . كانت المطاردة تتفاقم وتشتد وكان لنا في السجون آلاف المعتقلين وكذلك فقد حشد جمع كبير منا في معتقل خاص بساحل «بيساغوا» Pisagua الخالي الصحراوي .

لقد كان (غالو غونثاليث) يقوم وسط حياة لا شرعية، بفعاليات ثورية كثيفة مهمة ، لكن عدم اتصال القيادة بالهيكل العام للحزب كان يبرز في وضوح . لقد كان رجلا عظيما حقا ، نوعا من العالم الشعبي والعارف بكل شيء ، مناضلا جريئا شجاعا .

اليه كانت تصل خطط هربي الجديد ، وهذه المرة طبقت هذه الخطط بدقة متناهية ، وكانت ترى هذه الخطط ان انتقل الى مكان يبعد السف كيلومتر عن العاصمة وأن أعبر من بعد سلسلة الجبال على ظهر جواد ، وسينتظرنني الرفاق الارجنطينيون في جهة محددة عند الحدود .

خرجنا بعد ان حل الليل في سيارة كانت لنا رحمة وحماية . فلقد قادني صديقي الدكتور (راؤول بولنيس) السلي كان فسي ذلك الوقت طبيبا للشرطة الآلية ، بسيارته حتى ضواحي «سانتياغو» وهناك اصبحت في عهدة منظمة الحزب التي اعدت لي سيارة اخرى صالحة للسفر الشاق الطويل ، وكان في انتظاري بها رفيق قديم في الحزب هو السائق (ايسكوبار) .

مضينا ليل نهار عبر الطرق . كنت انا خلال النهار ، كي ازيد في دعم اللحية والنظارة اللتين كانتا تخفيان ملامحي ، التف بأغطية مخفية ، بخاصة حين نعبّر القرى والمدن او نتوقف في محطات البنزين .

مررت بـ «تيموكو» في الظهيرة . لم أنوقف في اي مكان ، لا احد رأي
فعرني . للصدفة والزهر (١٥) البسيط ، كانت مدينتي القديمة «تيموكو»
هي سبيلي للخروج والهرب . عبرنا الجسر وضاحية «بادره لاس كاساس» ،
توقفنا بعيدا عن المدينة ، لأكل شيء ، جالسين فوق صخرة هناك . عبر
المنحدر كان يجري نهر نحو مصبه وكانت مياهه تصطبغ . كانت طفولتي
تودعني . لقد نموت ونشأت في هذه المدينة ، وشعري ولد هنا بين التلة
والنهر ، هنا كنت ألتقط صوت المطر ، هنا كنت أضمخ بالغابات ، هنا
كنت أنتشي بالخشب . وهانذا ، في طريقي نحو الحرية ، انزل لحظة قرب
«تيموكو» فاسمع صوت الماء الذي علمني الغناء .

ثم تابعتا السفر . ما كان لنا من لحظة فلق الا مرة واحدة فقط . فلقد
امرنا ضابط كان واقفا وسط الطريق في صوت حاسم ان نقف ، فحبست
أنفاسي ولكن تبين انه ليس بهجوم كاسح بل ان الضابط طلب منا ان نأخذه
معنا في السيارة الى مكان يبعد مائة كيلومتر عن ذلك الموضع ، جلس قرب
السائق ، رقيقي (ايسكوبار) ، فتحدث في لطافة معه ، وأنا تصنعت النوم
كي لا يكلمني ، لأن صوتي ، صوت شاعر ، كانت تعرفه حتى حجارة
تشيلي .

ثم وصلنا دون اي خطب من خطوب الدهر ، الى نقطة النهاية . كانت
هذه النقطة هي عبارة عن عزبة مليئة بالاششاب ، ظاهريا غير مأهولة ، الماء
كان يلمسها من الجهات الاربع ، اولا كان لا بد من عبور البحيرة الواسعة
«رانكو» الى مكان بين الاحراج والاشجار العملاقة السامقة ، من هناك كان
لا بد من امتطاء حصان يمر عبر ممر ضيق خلال فترة من الزمن الى ان
نعود فنركب زورقا لنجتاز مياه بحيرة «مايهويه» . كانت دار
صاحب العمل لا تكاد تبين ، وهي مختبئة في سفح سلسلة الجبال الهائلة،
تحت أغصان الاشجار الضخمة ، بين دوي الطبيعة العميق . انه لقول
معروف بأن تشيلي هي آخر ركن في العالم . ذلك المكان المبطن بالغابة
البكر ، المحاط بالثلج ، المطوق بمياه البحيرات ، هو في الحقيقة آخر ركن
مسكون في المعمورة .

١٥ - الزهر : هكذا في الاصل Azar بمعنى العظ والبخت . عن العربية

كانت غرف المنزل حيث انزلوني مجهزة بما يجب في تلك المنطقة ،
بمدفأة من صفر وحديد مليئة بحطب بري حديث القطع ، يتاجج ليل
نهار . كان مطر الجنوب الرهيب يلطم بلا هوادة ، النوافذ ، كما لو كان
يلتمس الدخول الى البيت ، يسيطر على الغابة الظليلة ، على البحيرات ،
على البراكين ، على الليل ، ويشور فاضبا لان اولئك الحرس من البشر كان
لهم دستور آخر ولم يخضعوا لجبرونه وانتصاره .

انا كنت اعرف قليلا جدا ذلك الصديق الذي كان ينتظرني
هناك وهو (خورخه بيت) ، سائق طائرة قديم ، مزيج من
رجل عملي ومن رائد ، كان يحتدي جزمة ويلبس سترة سميقة قصيرة ،
كان له طبع امر فطري ولهجة قائد عسكري ، يتناسبان مع ذلك الجو ، مع
ان الفرق الوحيدة المصطفة هناك كانت الاشجار .

صاحبة الدار كانت امرأة هشة نواحة ، محاصرة بمرض العصاب .
كانت تعتبر الوحدة الثقيلة في تلك المنطقة ، المطر الخالد ، البرد ، مسببة
لشخصيتها الكريمة ، كانت تتباكى طيلة النهار كله وقسما كبيرا من الليل ،
لكن كل شيء كان يسير لديها سيرا حسنا وكانت تستخرج مواد الغابة والماء .

كان ابييت) يقود هذه المؤسسة الخشبية ، وهذه المؤسسة كانت
تقتصر على صنع رواقد للسكك الحديدية ، تصدر لاستعمالها في السويد
والدانيمارك . خلال النهار كانت تصر صريحا حادا ، المناشر التي تقطع
الجلود الكبيرة ، اولا كان يسمع التقوض العميق للشجرة التي كانت
تسقط وتهوي ، كل خمس او عشر دقائق كانت تهتز الارض مثل زلزال
غامض حين يرضها انهيار شجر الارز والبطم والسرر والعفص والميس ،
اعمال جسيمة هائلة للطبيعة ، اشجار مفروسة هناك من قبل الريح منذ
الف سنة ، تشكو الآن من فعل المنشار الذي يلوي جسمها ويطرحه أرضا ،
صوت المنشار المعدني يصر عاليا مثل نغم الكمان البري الهمجي الذي يتلو
قرع الطبول حين تهوي الاشجار على الارض . كل هذا كان يشكل جوا من
التوتر الاسطوري ، من الشدة السرية ، من الرعب الكوني . الغابة كانت
تموت ، وانا كنت اسمع متألما أنينها كما لو ان اكثر الاصوات قدما ترن
وهي تترنج ، الرنة الاخيرة ، الآهة التي ابدأ لن تعاد .

كان صاحب هذه الغابة كلها هو رجل من «سانتياغو» لا يعرفه . كان يعلن عن زيارته الى غابته في اواخر الصيف فكان الناس الذين يعملون عنده يخشون هذه الزيارة ويهابونها ، وهو يدعى (بيبه رودريغيث) . أخبروني اني اصبحت راسماليا حدثا ، وانه صاحب مناسج ومعامل اخرى . وانه رجل صناعي مهم . وانه ماهر وكهربائي الحركة . ولزيادة المعلومات اضيف بانه كان رجعا من جفن الكرم (١٦) وهو عضو دائم في اكثر الاحزاب يمنية بشيلي . بما اني كنت عابرا في مملكته دون علمه ، فان هذه الميزات التي يتمتع بها كانت عناصر اجاده بالنسبة لي في هذه الآونة فلا احد كان يستطيع ان ياتي الى مملكته للبحث عني . فلقد كان المسؤولون المدنيون ورجال الشرطة دائما تحت امره هذا الرجل العظيم الذي كنت اتمتع بصفائه وحماسه ، دون ان تدري وكان مسن المستحيل ان ينزعقل بي وانا بمملكته .

كان انطلاقي من جديد على وشك الابتداء ، اد ان الثلوج في سلسلة الجبال كانت على وشك الابتداء كذلك ، ولا يمكن اللعب مع جبال «الانديس» . كان الطريق يتدارسه يوميا اسدقائي . ان كلمه طريق هي من نافل القول ففي الحقيقة والواقع كان الامر هو اكتشاف درب محته منذ زمن الثلوج . لقد اصبحت الانتظار مقلقا بالنسبة لي . فرفاني من الجانب الارجنيني لا بد وانهم قد انطلقوا للبحث عني .

حين كان كل شيء قد اعدت ، وكنا على وشك الاقلاع جاء القبطان العام والرائد الاعظم للاخشاب ليخبرني بان شيئا جديدا قد طرا ، قال هذا وعلائم التائر بادية على سيماء وجهه ، فقد اعلن «البطرون» الاعلى عن زيارته وانه سيصل بعد يومين .

بقيت حائرا ، لم تكن الاستعدادات قد جهزت تماما في ذلك الوقت ، وما هو اكثر خطورة بالنسبة لوضعي ، بعد ذلك العمل الطويل من الاختفاء

١٦ - من جفن الكرم : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي الشمس من ام العنقود بمعنى اصيل .

والتنقل ، كان ان هذا «البطرون» سيعرف اني كنت ملتجئاً في اراضيهِ
الخاصة وهو صديق حميم لملاحقي ومطاردي (غونثاليث بيدىلا) وهو يعرف
ان السيد الرئيس قد وضع ثمننا لرأسي ، ما العمل ؟

كان (بييت) منذ اللحظة الاولى يرثي ان نكلم (رودريفيث) صاحب
المكان ، وجها لوجه .

اني اعرفه جيداً - قال لي - هو رجل في معنى الكلمة ولن يبوح عنك
ولن يفشي بسرّك .

كنت غير موافق فان تعليمات الحزب كانت ان اختفي في سرية كاملة،
(بييت) كان يحاول نسف هذه التعليمات ، وهذا ما قلته له ، تناقشنا في
حدة وصخب واثناء النقاش السياسي قررنا ان اذهب لاسكن في بيت
شيخ قبيلة « مابوتشه » ، كان هذا البيت عبارة عن كوخ
مغروز في طرف الغابة نفسها .

انتقلت الى الكوخ فأصبح وضعي هناك مزعزعا جدا الى درجة اني
اخيراً ، بعد التفكير والتقدير ، قبلت ان اقابل (بييه رودريفيث) صاحب
المؤسسة والمناشير ، والغابات . عينا نقطة محايدة للقائنا ، بين منزله
وكوخ شيخ القبيلة . حين خيم المساء رايت سيارة «جيب» تقترب ، ثم
نزل منها مع صديقي (بييت) رجل كهل «شبوبي» ذو شعر أشيب ووجه
حازم . اول ما قاله لي انه منذ هذه اللحظة يتولى هو مسؤولية حراستي
وحفظي . في مثل هذه الظروف ، لا احد يجرؤ على محاولة الاعتداء
على أمني .

تكلّمنا من غير ود كبير ، لكن الرجل شيئاً فشيئاً راح يكسب ودي
فاستلطفته ودعوته الى بيت الشيخ لان البرد كان هناك شديداً جداً ، كي
نتابع حديثنا ، فقبل وتابعنا الحديث . وبأمر منه ظهرت زجاجة شمبانيا
وأخرى من ويسكي ، وثلج يبرد ويرطب ذلك كله .

حين بدانا بالكأس الرابعة من الويسكي كنا نتناقش بأصوات عالية

مرتفعة . لقد كان هذا الرجل استبداديا في قناعاته واعتقاداته ، يقول
اشياء هامة ، وكان عالما بكل شيء ، لكن غطرسته كانت تجعلني غضوبا
نزقا . كلانا كان يضرب ضربات شديدة فوق طاولة الشيخ الى ان انهينا في
سلام تلك الزجاجة .

لقد استمرت صداقتنا لزمان طويل . من بين مزاياه وفضائله ،
صراحة غير منكرة من انسان متعود على ان تكون له المفلاة في مقبض
يده (١٧) . لكن كذلك كان يتقن قراءة شعري قراءة رائعة حقا بنبرة صوت
رجولية وذكية الى درجة ان اشعاري هذه كانت تبدو لي وكأنها تولد من
جديد .

عاد (رودريغيث) الى العاصمة ، الى مؤسسانه واعماله . كانت له
لطافة اخيرة ، فقد نادى أنبائه المتحلقين حولي وأمرهم بصوته ذي
النبرة الآمرة :

اذا كان للسيد (ليفاريتيه) من هذا اليوم الى اسبوع اي مانع يعرقل
مسيره الى الارجننتين عبر ممر المهريين ، فانه يجب عليكم ان تشقوا طريقا
آخر يصل الى الحدود ، اوقفوا اعمال الاخشاب كلها لتعملوا جميعا في
شق هذه الطريق . هذه هي اوامري .

(ليفاريتيه) كان اسمي في تلك اللحظة .

ان (بييه رودريغيث) ذاك الرجل الاقطاعي المسيطر ، مات بعد سنتين
من لقائنا ، في حالة فقر مدقع ، بعد ان عوقب على تهريب خطير قام به ،
فقضى شهورا كثيرة في السجن ، لا بد ان السجن كان معاناة لا توصف
بالنسبة لطبع غطريس وطبيعة آمرة .

اندا ما عرفت من بعد على وجه الدقة ان كان مذنب ام بريئا من التهمة

١٧ - المفلاة في مقبض يده : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، في مقبضه
مقاليد الامور .

التي وجّهت اليه ، لكنني عرفت ان طبقة الاقلية الحاكمة في بلادنا ،
التي كانت تأرق متمنية دعوة من (رودريغيث) ، هجرته ما ان رآته
يستنطق ويتهدم .

فيما يتعلق بي ، فاني ما زلت الى جانبه ، دون ان يمحي من ذاكرتي .
لقد كان (بييه رودريغيث) بالنسبة لي امبراطورا صغيرا امر بفتح طريق
طولها ستون كيلومترا عبر الغابة البكر كي يبلغ شاعر حريره .

جبال الانديس

ان لجبال الانديس دروبا غير معروفة ، يستعملها منذ زمن قديم
المهربون العدّاءون الصعّبون الى درجة ان الدرك لا يشغلون انفسهم بنعيقهم
وملاحقتهم . ان انهارا كثيرة ومهاوي سحيقة تتكفل بمنع العابر والسالك
ان يسلك .

كان صاحبي (خورخه بيت) هو رئيس تلك الحملة الجبلية ، لقد
انضاف الى حامية ظهورنا المؤلفة من خمسة رجال من الفرسان ورعاة
البقر . صديقي القديم (فيكتور بيانشي) الذي كان جاء الى هذه المواضع
بصفته مستاحا للاراضي ، كي يحل النزاعات القائمة هناك حول تقسيم
الارض . لم يعرفني اذ انني كنت في لحيّة نامية جدا بعد سنة ونصف من
الحياة المتخفية . ما ان عرف خطتي لاجتياز الغابة حتى ابدى استعداداه
لمساعدتي وقدم لنا خدمات لا تثنى لكونه مكتشفا مدربا خبيرا . ولقد كان
من قبل قد صعد قمة « اكوانكاغسوا » في حملة مأساوية كان هو
الوحيد الذي نجا منها سالما .

كنا نسير في صف منتظم ، محميين بجلالة الفجر . منذ زمن طويل،
اي منذ طفولتي ، لم اكن قد امتطيت صهوة جواد ، لكن هنا كنا نمشي
خطوة خطوة بطيئين متمهلين . ان الغابة الانديسية الجنوبية لا يسكنها الا
اشجار ضخمة سامقة تتباعد الواحدة عن الاخرى . انها لاشجار عملاقة
من الارز والبطم والعفص والصنوبر . اشجار الميس تدهش بضخامتها ،

توقفت لأقيس واحدة فكانت في قطر حصان . من الأعلى لا ترى السماء .
من تحت الأوراق قد سقطت خلال قرون عديدة فشكلت طبقة من الدبال
كانت تفرق فيها حوافر المطايا . في مسيرة صامتة كنا نجتاز تلك الكاتدرائية
من الطبيعة البرية .

بما أن دربنا كان مخفيا ومحرمًا ، فقد كنا نقبل بأقل الصوى إرشادا
وأضعف العلامات توجيهًا . لم يكن ثمة من آثار ولم تكن هناك من دروب ،
ومع أصحابي الأربعة على ظهور الخيل كنا نبحث ، مشكلين كتيبة من
الفرسان - ونحن نزيل العراقيل ، متجنبين الأشجار القديمة ، متخطين
الأنهار المستحيلة ، متسلقين الصخور الهائلة ، غارقين في الثلوج
المدمرة ، عن اتجاه لحريتي - بالأحرى كنا نخمن تخمينًا - . أن الذين
كانوا يصطحبونني كانوا يعرفون التوجه ، الإمكانية بين أوراق الشجر
الكبيرة وأغصانها المشتبكة المعقدة ، لكن كي يكونوا على يقين فانهم كانوا
يعلمون هنا وهناك فوق لحي الشجر بسكاكين حادة تترك آثارا تدلهم حين
يعودون بعد أن يتركوني وحيدا مع مصري .

أحيانا كنا نتبع اثرا ضعيفا جدا صنعه - ربما - مهربون أو مجرمون
هاربون ، وكنا نجهل فيما إذا كان الكثير منهم قد قضاوا نحبهم على حين غرة
حين فاجأتهم أيدي الشتاء الجليدية القارسة وعواصف الثلج الرهيبة التي
حين تفرغ شحنتها فوق جبال الأنديس تلف العابر وتفرقه تحت سبعة
طوابق من البياض .

على كل جانب من جانبي ذلك الاثر من الدرب رأيت ، في تلك الوحشة
البرية ، شيئا كأنه بناء انساني . كأن أجزاء من أغصان مكومة تحملت عدة
فصول شتائية ، قربانا نباتيا قدمه مئات العابرين ، جثوات عالية من
خشب ، شواهد لتذكر من سقطوا هنا صرعى ، من لم يستطيعوا المضي ،
فمكثوا تحت الثلوج الى الأبد . كذلك قطع أصحابي بالمدى والسكاكين
الأغصان التي كانت تلامس رؤوسنا وتهبط إلينا من أشجار البلوط التي كانت
أوراقها الأخيرة تخفق قبل اكتساح زوابع الشتاء . وأنا كذلك كنت
أترك على كل جثوة ذكرى ، بطاقة بريدية من خشب ، غصنا مقطوعا من
الغابة كي أزين قبور العابرين الهالكين هناك والذين ما عرفتهم أبدا .

كان علينا ان نجتاز نهرا . ان هذه المنحدرات الصغيرة المولودة فسي قمم جبال الانديس كانت تتعجل ، تفرغ شحنة سريعة جدا سرعان ما تصبح شلالات تحطم الاراضي ، تفتت الصخور بفعل من طاقتها وسرعتها اللتين جلبتهما من تلك المرتفعات الشهيرة : لكن هذه المرة وجدنا غديرا ، مرآة كبيرة من المياه ، مخاضة نهر . الخيول خاضت في المياه الى اعناقها وسبحت حتى الضفة الاخرى . وجوادي كذلك تابع مسير رفاقه ففرق في المياه كله تقريبا فبدأت انا اترنح واهتز من غير سند ولا مدعم ، قدماي شدتا على الانساق بينما الجواد كان يكافح كي يحتفظ براسه في الهواء الطلق . هكذا عبرنا ، وما ان وصلنا الى الضفة الاخرى حتى سألني رعاة البقر والفلاحون الذين كانوا يرافقوننا في شيء من الابتسام ولعله استخفاف :

— هل خفت كثيرا ؟

— كثيرا جدا ، ظننت انه قد حانت ساعتى الاخيرة — قلت .

— كنا نسير خلفك والاصرة في اليد — اجابوني .

— في هذا المكان نفسه — اضاف احدهم — سقط والدي فجرفه التيار . ما كان ليحدث الشيء نفسه لحضرتك ، فقد احتطنا لذلك فوضعتنا الاصرة في اليد حتى ننقلك ان سقطت .

تابعنا المسير الى ان دخلنا في نفق طبيعي ، ربما كان قد شقه هناك في الصخور الصلبة الصلدة نهر ضائع غزير او هزة ارضية قامت هناك في الاعالي بهذا العمل ، بهذه القناة الكهفية من حجر محفور ، من غرائيت . فما ان تسربنا في هذا النفق بضعة خطوات حتى اخذت المطايا تتزحلق ، تحاول ان تثبت في المنحنيات الحجرية الملساء رجليها ، فتكبر ، تنفجر الشرار حين تصطك حوافرها بالصخر : أكثر من مرة رأيتني ممددا فوق الصخور بعد ان هويت من على صهوة مطيتي التي كانت تدمي من أنفها واقدامها ، لكننا مضينا مصرين فوق ذلك الدرب الصعب المديد الرائع .

كان شيء ينتظرنا في وسط تلك الغابة الوحشية . على حين غرة ،

مثل رؤيا فريدة ، وصلنا الى مرج براق قابع في حضن الجبال : ماء زلال ، مرج مخضوضر ، ازهار غابية ، خريز انهار ، السماء من فوق ، نور سمح كريم لا يفصله عنا اية ورقة او اي غصن او اية شجرة .

هناك نزلنا كأننا ننزل وسط دائرة سحرية ضيوفا على حياض مقدسة . واكثر قداسة كان ذلك الاحتفال الذي شاركت فيه . فلقد نزل البقارة من على ظهور مطاياهم . وسط المرج كانت هناك جمجمة ثور وضعت فسي موضع بارز كما في قداس . اقترب اصحابي في سكون وصمت ، واحدا اثر الآخر ، كي يضعوا بعض النقود وبعض الأغذية في فجوات الجمجمة العظيمة . شاركتهم في هذا القربان المقدم الى الف «اوليس» تائه هارب ، لعل هؤلاء العابرين النائمين يجدون الخبز والملح في مدارات هذا الشور الميت ، حين يمرون به ذات يوم .

لكننا لم نقتصر على تقديم القربان في هذا الاحتفال والقداس ، بل ان اصدقائي الريفيين خلعوا عنهم قبعاتهم وشرعوا في رقصة غريبة ، يقفزون على رجل واحدة فقط حول تلك الجمجمة المهجورة ، وهم يدوسون فوق الاثر الدائري الذي خلفته هناك رقصات كثيرة اداها كل من عبر من قبل . حينذاك ادركت وان كان ادراكا غير واضح دقيسق ، ان ثمة اتصالا بين مجهول ومجهول ، ان ثمة مطلبا وتلبية ، ان ثمة سؤالا وجوابا في تلك المناطق الاكثر وحشة ، الاكثر انعزالا بهذا العالم .

لقد وصلنا ليلا الى حلاقيم الجبال الاخيرة فاصبحنا على وشك ان نعبر الحدود التي ستبعدني لسنين طويلة عن موطني . رأينا فجأة ضوءاً مشتعلا كان علامة أكيدة على ان هناك بيتا انسانيا ، وحين اقتربنا وجدنا ابنية مقوضة واقبية غير منسقة ، بدت لنا فارغة خاوية . ولجنا فراينا ، على ضوء النار ، جدوعا كبيرة تتأجج في وسط القبو ، أجساد اشجار هائلة كانت هناك تتوهج ليل نهار ، تطلق عبر تشققات السقف دخانا ينكاسل يطوف وسط الدياجير كأنه حجاب أزرق عميق . شاهدنا كتلا من الجبن كوتماها هناك الذين خشروه وروبوهم في تلك المرتفعات . وكان قرب النار يرقد بعض الرجال كأنهم اكياس ممددة . ميزنا في السكون نغم اوتار قيثاره، ولحن كلمات اغنية تولد بين الجمر والعتمة فجلت لنا اول صوت

انساني عثرنا عليه في طريقنا الموحشة . كانت اغنية حب وحنين ، أسفا
على الحبيب النائي وحنينا الى ذلك الربيع البعيد ، ونداء اليما موجهها الى
تلك المدن التي قدمنا منها ، ولوعة تريد احتضان مدى الحياة اللانهائي ،
لم يكونوا يعرفوا شيئا عنا ، لم يكونوا ليعلموا شيئا عن الهارب القادم ،
ما كانوا يعرفون شيئا عن شعري ، ما كانوا قد سمعوا يوما باسمي . او
لعلهم يعرفونه ، افتراهم يعرفونني ؟ تحلقنا حول النار وغنينا واكلنا ، ثم
توجهنا وسط العتمة نحو غرف بدائية جدا . كان يمر عبر هذه الغرف تيار
من ماء معدني حار ففرقنا فيه وغطسنا ، جدول من الحرارة ينطلق من
الجبال ليستقبلنا في كنفه .

كنا نربط في الماء متمتعين ، نفتسل ونزيل عنا اوضاع المسيرة
المرهقة ، فشعرنا اننا في غضارة ونضارة واننا ولدنا من جديد في هذا
التعميد . حين بزغت الشمس في اليوم التالي انطلقنا لنجتاز المسافة
الاخيرة التي كانت ستبعد بي عن كسوف وطني وخسوفه ، كنا نتهاذى على
ظهور مطايانا ، نغني ونشدو ونحن ممثلثون بهواء جديد ، مغممون بانفاس
تدفعنا نحو درب العالم الفسيح الذي ينتظرنا . عندما اردنا (اذكر هذا
جيذا) ان نعطي الى الرجال الجبليين بضعة قطع من نقود مكافأة لهم على ما
قدموه لنا من اغان واغذية ومياه معدنية وسقف وفراش ، اي ، على هذا
اللقاء غير المتوقع ، على هذا الكنف الذي آوانا ، على هذا الود الذي شملنا
وحضننا ، رفضوا عطاءنا رفضا باتا دون ان يقولوا اي شيء ولا ان
يبدوا اية حركة جسدية بل اكتفوا بالنظر الينا عاتبين ، لقد قاموا بواجبهم
نحونا ولا شيء اكثر . ان في «لا شيء اكثر» ، في عبارة «لا شيء اكثر»
الصامتة كان يكمن كل شيء ، ربما انهم رأوا انفسهم فينا ، ربما عثروا على
احلامهم ذاتها متجلية في احلامنا . من يدري ؟

«سان مارتين» San Martin بجبال الانديس

خص مهجور بيتن لنا الحدود بما كتب عليه . هائلا اغدو حرا طليقا .
كتبت على حائط الكوخ : «الى اللقاء ، يا وطني ، ارحل وانت معي» .

في قرية «سان مارتين» بجبال الانديس كان يجب ان يكون بانتظارنا صديق تشيلي . ان هذه القرية الصغيرة جدا في سلسلة الجبال الارгентينية لم يكن فيها ما يتيه او يجعل المرء يضيع ، ولذلك فقد اعطوني علامة وحيدة للاستدلال على صديقي هذا وهي ما يلي :

— اذهب الى احسن فندق في القرية وهناك سيأتي للبحث عنك (بيدريتو راميريث) .

لكن الاشياء الانسانية معرضة للخطأ دائما ففي «سان مارتين» لم يكن هناك فندق واحد فقط بل كان اثنان وكلاهما من النوع الجيد . فأيهما اختار؟ آثرنا اغلاهما وهو يقع في اطراف القرية ورفضنا الفندق الاول الذي رايناه امام ساحة القرية الجميلة .

لقد حصل ان الفندق الذي اخترناه كان من درجة رفيعة جدا الى درجة انهم ما ارادوا ان يقبلوا بنزولنا فيه . لقد لاحظوا في ازدياد آتار عدة ايام من السفر على ظهور الخيل ، اكياسا على اكتافنا ، وجوهنا الملتحبة المفبرة ، كان منظرنا يخيف كل من في الفندق من عمال ونزلاء .

وكان هذا المنظر يخيف اكثر ما يخيف صاحب الفندق الذي كان يضيف فيه انجليزا نبلاء قادمين من «اسكوتلانديا» ليصطادوا سمك «السلمون» في الارجنتين . نحن لم يكن علينا ملامح نبلاء ولا مظاهر سادة . فاعطانا مدير الفندق «الهيئات» متأسفا ومحتجا بحركات مسرحية في ان الغرفة الاخيرة قد حجزت منذ عشر دقائق . اثناء ذلك اطل من الباب سيد انيق عليه سيماء رجل عسكري ، تصطحبه امرأة شقراء كأنها ممثلة سينمائية ، فصرخ بصوت رنان :

— قف ! التشيليون لا يمكن طردهم من اي مكان ، هنا سيبقون .

وبقيتنا . كان راعينا هذا يشبه كثيرا الجنرال (بيرون) (١٨) وسيدته التي

١٨ — بيرون Juan Domingo : هو الزعيم الارгентيني المروك (١٨٩٥ - ١٩٧٤) .

تصعبه تشبه هي الاخرى (ايفيتا) (١٩) الى درجة انا ظننا انها هما ، لكن من بعد ، بعد ان اغتسلنا ولبسنا وجلسنا على المائدة نحتسي في غير لذة زجاجة شمبانيا كنا نشك في انها شمبانيا ، عرفنا ان الرجل هذا هو قائد الشرطة المحلية وان الشقراء هي ممثلة من «بونوس ايريس» جاءت لتزوره .

كنا نزعم اننا تجار اخشاب تشيليون جئنا لنعقد صفقات تجارية مربحة . كان العميد قائد الشرطة يدعوني «الانسان الجبل» . اكتشف (فيكتور بيانتشي) الذي كان ما يزال يرافقني لما يكنه لي من صداقة ولما يكنه من حب للمغامرة ، قيثارة هناك في الفندق ، وبأغانيه التشيلية السافلة البديئة كان يخلب ويفتن ارجنتينيين وارجنتينيات . لكن مضت ثلاثة ايام ولم يكن يأتي (بيدريتو راميريث) للبحث عني . لم يكن يرافقني الحظ في الامور جميعها ، ما كان على جسدي من قميص نظيف ولم يكن معي ما اشتري به قمصانا جديدة . ان تاجر اخشاب جيد ، كان يقول (فيكتور بيانتشي) يجب ان يكون له على الاقل قمصان جيدة نظيفة .

اثناء ذلك قدم لنا قائد الشرطة غداء في المجلس البلدي . لقد توطدت صداقته بنا فاعترف لنا انه على الرغم من شبهه الجسدي بالجنرال (بيرون) فانه هو ضد البيرونية . كنا نقضي ساعات طويلة ونحن نتناقش فيمن عنده رئيس أسوأ من الآخر ، انا ام هو ، هل هي تشيلي ام هي الارجنتين .

فجأة بلا سابق انذار او اعدار واذ ب (بيدريتو راميريث) يلج ذات صباح غرفتي في الفندق .

— يا تعيس ، — صرخت به — لماذا تأخرت كثيرا ؟

لقد وقع ما لم يكن في الحسبان ، لقد كان هو ينتظر مطمئنا هادئا في الفندق الآخر الذي يقع بساحة القرية .

بعد عشر دقائق تدحرجنا عبر السهول اللامتناهية وبقينا نتدحرج ليل

١٩ — ايفيتا : هو تصغير (ايفا Eva) وكانت زوجة لبيرون ، (١٩١٩ — ١٩٥٢) .

نهار . من حين الى حين كان الارجنطينيون الذين يصحبوني يوقفون السيارة كي يحتسوا «ماته» (٢٠) Mate ثم نستمر في عبور تلك الرتابة اللامتناهية .

في باريس وبجواز سفر

كان همي الاكبر ، طبعا ، في «بونوس ايريس» هو ان احصل على هوية جديدة ، ان الاوراق المزيفة التي افادتني كثيرا كي اعبر الحدود الارجنطينية لن تصلح بعد فيما اذا حاولت السفر عبر القارات والتجول في اوروبا . كيف الحصول على اوراق اخرى ؟ كانت اثناء ذلك تبحث عني في جد واجتهاد الشرطة الارجنطينية التي استنفرتها الحكومة التشيلية لهذا الغرض .

تذكرت في هذه الحالة من الياس والقنوط والضغط والمطاردة شيئا كان ينام في ذاكرتي . لا بد ان الروائي (ميغيل انخيل استورياس) وهو صديقي منذ ايامي في بلده ، هو الآن في بونوس ايريس يؤدي مهمة دبلوماسية في سفارة بلده «غواتيمالا» . لقد كان لنا شبه فيزيولوجي غريب غامض . في اتفاق مشترك بيننا سميننا انفسنا « شومبيبيه » Chompipe وهي كلمة هندية يشار بها الى الديكة في غواتيمالا وفي جزء من المكسيك . أنفان طويلان ، يسر في الوجه وفي الجسد ، يوحدنا شبه عام بعالم الدجاج المفدى .

جاء ليراني في مخبائي .

— يا صاحبي «شومبيبيه» — قلت له — ، اعرني جوازك ، امنحني متعة ان اصل الى اوروبا وقد غدوت (ميغيل انخيل استورياس) .

٢٠ — ماته : هو شاي من «بارغواي» يشربه الامريكيون الجنوبيون والمفتربون العرب الذين يعودون الى اوطانهم من امريكا اللاتينية .

يجب عليّ أن أقول هنا أن (استورياس) كان دوما ليبراليا ، بعيدا جدا عن السياسة الحزبية ، غير أنه ما تردد لحظة ، إذ أنني ، بعد أيام قليلة كنت أعبر ، بين «يا سيد (استورياس) تفضل من هنا» ، وبين «يا سيد (استورياس) تفضل من هناك» النهر العريض الذي يفصل الأرجنتين عن الأوروغواي فدخلت إلى «مونتيفيديو» ثم عبرت المطارات وتجاوزت مخافر شرطة المراقبة إلى أن وصلت أخيرا إلى باريس تحت ستار «روائي غواتيمالي عظيم» .

لكن في فرنسا عادت قضية هويتي لتصبح معضلة . أن جوار سفري القشيب لن يقاوم الفحص الذي لا يرحم حين ينقدونه في La Sureté لقد كان عليّ أن أترك كوني (ميغيل أنخيل استورياس) وأن أغدو من جديد (بابلو نيرودا) ، لكن كيف يتأتى هذا لي و(بابلو نيرودا) لم يصل إلى فرنسا، بل أن الذي وصل كان (ميغيل أنخيل استورياس) . .

لقد أخبرني مستشاري بأن عليّ أن آوي إلى نزل «جورج الخامس» .

— هناك ، بين جبابرة العالم ، لن يطلب أحد منك أوراقك — قالوا لي .

فنزلت هناك لبضعة أيام ، دون أن انزعج كثيرا من ملابس الجبلية التي ما كانت لتتلاءم مع ذاك العالم من الأغنياء والانيقين . عند ذلك طلع (بيكاسو) الذي بقدر ما هو عبقرى كبير بقدر ما هو إنسان طيب جدا . كان سعيدا كما الطفل لأنه كان قدلقى أول خطاب في حياته ، كان موضوع الخطاب يدور حول شعري ، حول مطاردتي وملاحقتي ، حول غيابي واختفائي . وها هو العبقرى اللامع في الرسم الحديث ينشغل الآن في ود أخوي وعطف أبوي بحل معضلتي في جزئياتها الأكثر دناوة وحقارة . كان نكلم مع السلطات المسؤولة ، كان يتصل هاتفيا بنصف الناس كي يعملوا على مساعدتي في الخروج من هذه الورطة . لست أدري كم من اللوحات الرائعة الخالدة ترك رسمها من أجلي ، لقد كنت أشعر بالذنب وأتأسف جدا أني جعلته يضيع الكثير من وقته المقدس .

في تلك الأيام كان انعقد في باريس مؤتمر للسلام العالمي . ظهرت في

قاعة المؤتمر باللحظة الاخيرة كي القى قصيدة من قصائدي ، كان المندوبون يصفقون لي ويعانقونني فقد كان الكثير منهم يظنون اني كنت قد مت وما كانوا يعتقدون بانني قادر على الاستهزاء بمطاردة الشرطة التشيلية الغاضبة .

في اليوم التالي وصل الى الفندق الذي اقيم فيه السيد (الديريرت) وهو صحفي كبير يعمل في وكالة الانباء الفرنسية ، فقال لي :

— حين علمت حكومة تشيلي عن طريق الصحافة انك في باريس ، اعلنت ان الخبر عار من الصحة وانه كذب وبهتان وان الذي حضر المؤتمر هو شبه لك وليس اياك فانت توجد في تشيلي وان رجال الشرطة يتقصّون اثرك وان مسألة اعتقالك لن تتعدى ساعات قلائل ، فماذا تجيب على هذه المزاعم ؟

تذكرت انه في احدى المناقشات التي دارت حول موضوع (شيكسبير) ان كان هو من كتب اعماله الخالدة ام لا ، وهي مناقشة انبيقية (٢١) وعبثية عقيمة ، اشترك (مارك توين) (٢٢) فأدلى برأيه : «في الحقيقة لم يكن (وليم شيكسبير) هو من كتب هذه المؤلفات ، بل رجل انجليزي آخر ولد في اليوم نفسه والساعة ذاتها ومات ايضا في التاريخ نفسه ولكي تسزداد المطابقات بينهما كان كذلك يسمى (وليم شيكسبير) .

أجب انت — فلت للصحفي — في اني لست (بابلو نيرودا) بل انا تشيلي آخر ، يكتب شعرا يصارع في سبيل الحرية اسمه كذلك (بابلو نيرودا) .

ان قضية تجهيز اوراقى ما كان بالامر السهل فلقد كان (اراغسون) و(بول الوار) يساعداني كذلك في الحصول على اسمي . اثناء ذلك عليّ ان اعيش في وضع شبه سري . من بين البيوت التي آوتني فيها ، كانت

٢١ — انبيقية : مأخوذة من الكلمة العربية **الانبيق** Alambique ، وهي ها بمعنى شحيحة المردود .

٢٢ — مارك توين : روائى من الولايات المتحدة الامريكية (١٨٣٥ — ١٩١٠) .

دار السيدة (فرانكويس جيروكس) . ابدا لن انسى هذه السيدة الاصلية
الدكية . كانت هذه الدار تقع في «بالس رويال» (القصر الملكي)
قرب «كوليت» . تبنت هذه السيدة المحترمة ابنا
فيتناميا ، فلقد كان الجيش الفرنسي قد تكفل في فترة من الفترات بالعمل
الذي وقع من بعد على عاتق الامريكيين الشماليين : قتل الابرياء في اراضي
فيتنام البعيدة . عند ذلك تبنت هي الطفل .

اذكر انه في هذه الدار كان هناك لوحة لبيكاسو من اجمل اللوحات
التي رأيتها في حياتي ، وهي لوحة ذات ابعاد كبيرة ، سابقة على الفترة
التكعيبية ، تمثل ستارتين من قطيفة حمراء تتدليان ، تنغلقتان بين
كمصراعي نافذة ، تلمسان مائدة ، المائدة عليها اربعة ارغفة من الخبز
الفرنسي الطويل نتصالب في تناسق ، بدت لي هذه اللوحة انها جديرة
بالانحناء لها اجلالا واحتراما . كانت الارغفة الكبيرة الطويلة كأنها الطيف
المركزي لـ «الايقونات» (٢٣) او مثل لوحة القديس 'ماوريشيو'
تلك اللوحة الرائعة التي رسمها (ال غريكو El Greco) والتي توجد في
دير «الاسكوريال» . لقد سميت لوحة (بيكاسو) هذه باسم علم وهو
صعود القديس الخبز .

في احد هذه الايام جاء (بيكاسو) نفسه لزيارتي في مخبائي ، فاخذته
ليرى لوحته التي رسمها منذ اعوام كثيرة وكان قد نسيها ، فراح يدقق في
اللوحة بجدية تامة ، غارقا في هذا الانتباه الفائق والكثيب بعض الكتابة الذي
قلما يديه ، ظل اكثر من عشر دقائق في صمت وسكون ، يقترب خطوة ثم
يبتعد أخرى عن عمله الرائع هذا .

— كل مرة تعجبني اكثر — قلت له حين انهى تأمله — سوف اقترح
على متحف بلدي تشيلي ان يشتريها فالسيدة (جيروكس) على استعداد
لتبيعها لنا .

٢٢ — الايقونات : هي الرسوم والالواح البيزنطية القديمة الموجودة في الكنائس .

أدار (بيكاسو) من جديد رأسه نحو اللوحة ، ثم سَمَّرَ عينيه في ذاك
الخبز الرائع وأجاب بتعليق واحد فقط :

— ليست سيئة .

عُثرت على بيت للايجار بدا لي غريبا . كان يقع في شارع «بير ميل»
في الـ Arrondissement الثاني ، اي ، حيث أضاع ابليس عباءته (٢٤) . كان
حيا عماليا ولطيفة متوسطة فقيرة جدا . كان يجب السفر ساعات طويلة
تحت الارض بـ «المُترو» كي يصل المرء الى هذه المحلة . ان الذي أعجبني
في هذه الدار هو انها تبدو مثل قفص . كان لها ثلاثة طوابق ، دهاليز ،
غرف صغيرة ، كانت قفص طيور لا يوصف .

لقد خصصت الطابق الاول الذي كان اكثر اتساعا من اخويه ، وكانت
فيه مدفأة نشارة، للمكتبة، وجعلت فيه قاعة للحفلات المحتملة والزيارات
الطارئة . في الطابقين الاعليين ، تمركز اصدقاء لي ، جاؤوا جميعا من
تشيلي ، فهناك نزل الرسامان : (خوسه بينتوريلى) و(نيميسيو انتونيث)
وآخرون لم أعد أذكرهم الآن .

لقد زارني في تلكم الايام ثلاثة من كبار الادباء في الاتحاد السوفييتي:
الشاعر (نيكولاي تيكخونوف) الكاتب المسرحي (اليكساندر كورنيتشوك) (الذي
كان في الوقت نفسه محافظ «اوكرانيا») والكاتب الروائي (كونستانتين
سيمونوف) . ابدا ما كنت قد قابلتهم من قبل ، فعانقوني كما لو كانوا اخوة
عادوا بعد غياب طويل ليجدوا اخا لهم ، واعطاني كل واحد منهم بالاضافة
للمعانفة قبلا رنانة ، من هذه القبل «السلافية» التي يتبادلها الرجال فيما
بينهم والتي تعني صداقة كبيرة واحتراما ، والتي كلفني جهدا جهيدا ان
أعود عليها . بعد مضي السنين ، حين فهمت طبيعة هذه القبل الاخوية
الرجولية ، كانت لي مناسبة بأن ابدا حكاية من حكاياتي بهذه الكلمات :

٢٤ — حيث أضاع ابليس عباءته : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، حيث أضاع
القرود ابنه .

— ان اول رجل قبلني كان هو فنصل تشيكوسلوفاكيا

حكومة تشيلي لم تكن تحبني ، لم تكن تحبني لا داخل تشيلي ولا خارجها كذلك . كانت تسبقني الى كل جهة امر بها ، رسائل ومكالمات هاتفية تحض الحكومات على معاداتي وطردي .

علمت انه في قصر «فرساي» كان ثمة تقرير عني جاء فيه تقريبا ما يلي : ان (نيرودا) وزوجته (ديليا ديل كارمن) يقومان برحلات متكررة الى اسبانيا حيث يوصلان ويأتیان بتعليمات من السوفييت وإليهم وان مرجعهما في هذه التعليمات هو الكاتب الروسي (ايليا ايهرينبورغ) الذي يقوم (نيرودا) معه برحلات سرية ايضا من حين الى حين ، ولكي تكون هذه الاتصالات بين (نيرودا) و(ايهرينبورغ) اكثر سرية فان (نيرودا) استأجر شقة في العمارة نفسها حيث يسكن الكاتب للسوفييتي» .

لقد تبع هذه الاقاويل سلسلة من النخريصات والهراءات . لقد اعطاني (جان ريتشارد بلوش) رسالة الى صديق له كان رئيسا مهما فسي وزارة الخارجية . شرحت لهذا الموظف العالي كيف انهم يسعون جهدهم كي يعملوا على طردي من فرنسا مختلقين اكاذيب وادعاءات كثيرة . قلت له اني في لهفة للتعرف على (ايهرينبورغ) ، لكن ، لسوء حظي ، حتى هذا اليوم ، (ايهرينبورغ) ما خصني بهذا الشرف العظيم . نظر اليّ هذا الموظف الكبير في أسى وأسف ووعدني بأنهم سيقومون بتحردقيق حول هذه المسألة لكنهم ، ما قاموا أبدا بشيء من هذا القبيل وبقيت الاتهامات الباطلة واقفة على أقدامها .

عند ذلك قررت ان اقدم نفسي الى (ايهرينبورغ) ، كنت اعلم انه كان يتردد دائما الى «لا كوبول» حيث يتغدى على الطريقة الروسية ، اي ، عند المساء .

— أنا الشاعر (بابلو نيرودا) ، من تشيلي — قلت له — بناء على قول الشرطة نحن صديقان حميمان . ان رجال الامن ومخبريهم يؤكدون في اننا نعيش في بناء واحد، وبما انهم سيطردونني بسببك من فرنسا فاني احببت على الاقل ان اعرفك من قرب وان اصافح يدك .

اني لا اظن ان (ايهرينبورغ) كان يعبر عن علامات مفاجأة ازاء اية ظاهرة تحدث في العالم ، غير انه ، استغرب واندعش لما قلته ، فرأيت نظرة ذهول تشبه الخدر تخرج من بين حاجبيه المزبثرين ، من حيث عقيدة شعره الغاضبة الشائبة .

— انا كذلك كنت اود التعرف عليك ، يا (نيرودا) — قال لي — ان شعرك يعجبني جدا . والآن ، كل ، كل هذه الـ «شاوكروت» (Choucrote) المصنوعة على طريقة منطقة الـ «سائيا» .

منذ تلك اللحظة أصبحنا صديقين حميمين . يبدو لي انه في ذلك اليوم بدأ بترجمة ديواني «اسبانيا في القلب» . يجب عليّ ان اعترف ان الشرطة الفرنسية ، دون ان تقصد ذلك طبعاً ، قد منحني اكثر الصداقات محبة في حياتي وزودتني كذلك بأحسن مترجم لي الى اللغة الروسية .

جاء ذات يوم ليراني السيد (جوليس سوبريفيه) (٢٥) . كنت قد حصلت على جواز سفر تشيلي باسمي وكانت مدة صلاحيته لما تنته بعد . كان هذا الشاعر القديم الكبير النبيل قلماً يخرج الى الشارع آنذاك فتأثرت وتفاجأت بزيارته .

— انقل اليك خبراً مهماً . ان صهري ، زوج ابنتي ، (بيرتاوكس) ، يريد ان يراك ، لست ادري بم يتعلق الامر .

ان (بيرتاوكس) هذا كان مدير الامن العام . وصلنا الى دائرته : الشاعر العجوز وأنا ، جلسنا مقابله ، امام الطاولة . أبداً ما رأيت طاولة تحتوي على هواتف اكثر من طاولة هذا المدير . كم عددها ؟ اعتقد انه لا يقل عن عشرين هاتفاً . كان وجهه الذكي الخبيث ينظر اليّ من بين تلك الغابة الهاتفية . انا

٢٥ — جوليس سوبريفيه : كاتب وشاعر من اورغواي . اخذ الجنسية الفرنسية (١٨٨٤ - ١٩٦٠) .

كنت أفكر في أنه لا بد أن تكون في هذا المكان الرفيع جدا ، خيوط الحياة الباريسية تحت الأرضية كلها . تذكسرت (فانتوماس Fantomas و«الكوميسير» (مايفريت) (٢٦) .

كان هذا المدير قد قرأ كتبي وكانت له معرفة غير متوقعة بشعري .

— لقد استلمت طلبا من سفير تشيلي بأن اسحب منك جواز سفرك .
ان السيد السفير يقول بأن حضرتك تستعمل جواز سفر دبلوماسيا ، وهذا ليس شرعا . أفصح ما يقول ؟

— ان جوازي ليس دبلوماسيا — أجبه — . انه جواز رسمي بسيط ، انا عضو في مجلس الشيوخ ببلدي ، وبهذه الصفة فان لي الحق بامتلاك هذه الوثيقة . على كل حال ، فما هو هنا وتستطيع حضرتك ان تدقق فيه ، شريطة الا تسحبه مني فهو ملكي ، خاص بي .

— (هو صالح حتى الآن ؟ من جدده ؟ سألني السيد (بيرتاوكس) أخذا جواز سفري .

— هو صالح طبعاً — قلت له ، — اما بالنسبة لمن جدده لي ، فاني لا أستطيع ان أبوح باسمه ، فان بحث فان حكومة التشيلي ستعزله من منصبه .

فحص رئيس الشرطة في دقة جوازي ، ثم استعمل واحدا من هواتفه الكثيرة وأمر ان يوصلوه بسفير تشيلي .

المحادثة الهاتفية جرت في حضوري .

— كلا ، ايها السيد السفير ، لا أستطيع ان افعل هذا فان جواز سفره

٢٦ . — مايفريت : شخصية في الروايات البوليسية التي كتبها (سيمينون Simenon) .

شرعي قانوني وما زال صالحا ، اني لا أعرف من جدده له ، أكرر القول في انه سيكون غير صحيح اما اخذنا منه اوراقه . لا استطيع ، يا سعادة السفير ، اني لأسف جدا .

كان يستشف من هذه الحادثة اصرار السفير وكذلك كان واضحا غضب خفيف من جهة (بيرتاوكس) في النهاية وضع الهاتف وقال لي :

— يبدو انه عدو لدود لك . لكن حضرتك تستطيع البقاء في فرنسا ما شئت من الزمن .

خرجت مع (سوبرففيه) الشاعر العجوز ما كان يستطيع ان يفهم كيف يجري هذا الامر ، وانا من جهتي ، كنت أحس بشعور انتحار ممزوج بشعور آخر من الاشمئزاز والاستنكار . لقد كان ذاك السفير الذي يناكدني، ذاك المواطن مع مطاردي في تشيلي هو (جواكين فيرنانديث) ذاته ، من كان يفتخر ويتباهى بأنه صديق لي ولم يكن بضيع فرصة الا وتملقني ، والذي في صباح ذلك اليوم نفسه ارسل لي تحية مع سفير غواتيمالا .

جذور

ان (ايهرينبورغ) الذي كان يقرأ ويترجم شعري ، كان يلومني : انك تكرر كلمة «جذر» كثيرا في شعرك ، لماذا هذه الجذور الكثيرة في شعرك ؟

ان هذا لحقيقة . لقد غلغلت اراضي الحدود جذورها في شعري فلم تستطع ابدا أن تخرج منه بعد . ان حياتي لهي حج طويل المدى يطوف حول العالم دائما ، ودائما يعود الى الغابة الجنوبية لبلادي ، الى الغابة الضائعة.

هناك الاشجار الكبيرة هوت طريحة الثرى بما لها من سبعمائة سنة من حياة مديدة قديرة ، احيانا أخرى اقتلع جذورها زلزال ارضي او حرقها الثلج او هدمها الحريق . لقد احسست بالاشجار السامقة وهي تسقط في عمق الغابة : البلوط الذي يختر في نوح مصيبة صماء كما لو انه قرع بيده

الضخمة على أبواب الارض طالبا جدثا .

بيد ان الجذور تظل في العراء، معرضة للدهر العدو، للرطوبة الطافية،
لحزازات الصخور واشنياتهما ، للتلف المتتابع الناخر القارض .

لا شيء اجمل من هذه الايدي المبسوطة الكبيرة ، الجريحة المحروقة
التي تحكي لنا حين نعبّر دربا في الغابة عن سر الشجرة الدفين ، عن لغز
الاوراق ، عن طلسم الاغصان ، عن أحجية العضلات العميقة لهذه الطاقة
النباتية ، انها لترينا وهي في وضع مأساوي وحالة مهلوبة مزبثرة ، جمالا
جديدا : انها اعمال العمق في فن النحت : انها مؤلفات انموذجية سريسة
للطبيعة الخالقة :

ذات مرة ، فيما كنت اسير مع (رافائيل البرتي) بين الشلالات والاحراج
والغابات قرب «اوسورنو» ، لفت (رافائيل) نظري الى ان كل غصن هو
مختلف عن الآخر وان الاوراق تتنافس في تغيير الاسلوب اللانهائي .

— انها لتبدو وكأنها اختيرت من لدن عالم نبات لتزين حديقة رائعة —
كان يقول لي .

بعد سنين في روما ، تذكر (رافائيل) تلك النزهة وحن الى ثروة غاباتنا
الطبيعية .

هكذا كان ... وهيئات أن يعود ... اني لأذكر في كآبة ، خطاي في
عهد الطفولة وزمن الشباب ، بين « بوروا » و « كاراهوييه »
او نحو « تولتين » في تجليات الشاطئ . كم من اكتشاف كان
لي ! رشاقة اشجار القرفة وشذاها غب المطر ، الاشنة التي تندلى لحاها
الشتوية من وجوه الغابة التي لا حصر لها .

لقد كنت انبش الاوراق الساقطة محاولا أن أعثر على بريق بعض
مغمدات الاجنحة : القوارب المذهبة التي ارتدت صباغ عباد الشمس الازرق
كي ترقص رقصة «باليت» صغيرة تحت الجذور .

فيما بعد ، حين كنت أعبّر على جواد سلسلة الجبال نحو الجانب
الارجنطيني ، تحت عقود الأشجار السامقة الخضراء برز عائق : جذر احدى
هذه الأشجار ، أكثر علواً من مطاياتنا ، كان يسد علينا الدرب ، فما كان الا
ان اعملنا فيه الفأس وبيأس شديد حتى قدرنا على اختراقه . ان تلك
الجذور لهي كاتدرائيات مقوضة رأساً على عقب : كانت العظمة الجليلة
تفرض علينا هيبتها وجبروتها .

الفصل التاسع

بداية منفى ونهايته

في الاتحاد السوفييتي

في عام ١٩٤٩ ، حديث الخروج من المنفى ، دعيت لأول مرة الى الاتحاد السوفييتي ، بمناسبة احياء ذكرى (بوشكين) المئوية . وصلت مع الشفق الى موعدي ، مع درة «البليق» الباردة الى لينينغراد القديمة الجديدة ، النبيلة البطلة . ان لمدينة (بترس) الاكبر و(لينين) «ملاكا» كما لباريس . لها ملاك رمادي : شوارع بلون الفولاذ ، قصور من حجارة رصاصية ، بحر من فولاذ اخضر . كانت اكثر المتاحف روعة في العالم ، كنوز القياصرة ، ازيائهم ، جواهرهم الباهرة ، ملابسهم للاحتفالات ، اسلحتهم ، اوانهم ، كلها امام ناظري . والذكريات الجديدة الخالدة : الطراد «اورورا» (١) Aurora الذي مدافعه وافكار لينين هدّت أسوار

١ - اورورا : كلمة اسبانية تعني الصبح او الفجر .

الماضي وفتحت ابواب التاريخ .

لقد بادرت الى موعد مع شاعر مات منذ ١٠٠ سنة (اليكساندر بوشكين) مؤلف أساطير خالدة كثيرة ومبدع روايات . ان امير الشعراء الشعبيين هذا يملأ قلب الاتحاد السوفيتي العظيم . بمناسبة ذكراه المئوية رمم الروس حجرا حجرا وقطعة قطعة قصر القياصرة . كان كل سور قد رفع كما كان قبل ، ناشئا من الانقراض المسحوقة بفعل من المدفعية النازية . لقد استخدمت التصميمات القديمة للقصر ، ورائق تلك الفترة التي بني فيها اول مرة ، كي يشيدوا من جديد النوافذ الزجاجية الملونة البراقة ، الاطناف المطرزة ، تيجان العواميد المزهرة ، على شرف شاعر رائع من عهد آخر ، تكريما له وتخليدا .

ان اول ما اثار بي في الاتحاد السوفيتي كان شعوره بالامتداد ، انزواؤه الفضائي فهو يمتد عرضا لا طولا ، حركة اشجار الـ «بتولا» في المروج ، الغابات النقية الهائلة بشكل اعجوبي ، الانهار الكبيرة ، الاحصنة المختالة فوق حقول القمح .

لقد عشقت في اول نظرة الارض السوفيتية وادركت انها لا تلقسي درسا اخلاقيا على اركان الوجود الانساني كله وتعلم الانسانية كيفية تسوية الامكانيات والتقدم النامي في الانتاج والتوزيع فحسب، بل كذلك ادركت انه من تلك القارة السهبوية ذات النقاوة الطبيعية الغنية ، كان سينتج طيران كبير . ان الانسانية قاطبة تعرف انه هناك تصنع الحقيقة العملاقة ، وان في العالم ثمة توترا مذهلا ينتظر ما سيحدث . بعضهم ينتظر في فزع وبعضهم ينتظر أمة ، وبعضهم يؤمن انه لا بد ان يقع ما يتوقع وانا كنت اتوقع انه سيحدث طيران عظيم عبر المدى والفضاء .

كنت أجدني وسط غابة من الفلاحين ، لابسين ازياء قديمة مهرجانية، ينصتون الى قصائد (بوشكين) . كان كل ذلك يخفق : البشر ، اوراق الاشجار ، المدى حيث القمح الجديد يبدأ الحياة . كانت الطبيعة تبسود وكأنها تشكل وحدة منتصرة وانسانها الجديد . كان لا بد ان يبرز ذات مرة ، من قصائد (بوشكين) في غابة (ميشايسلويسكي) الانسان الذي

سيطير نحو كواكب أخرى .

فيما الفلاحون يشهدون مهرجان التكريم هذا واذ بديمة سكوب تفرغ
شحنها واذ بصاعقة نصعق بالقرب منا فتحرق رجلا وشجرة كانت تأويه
وتظله . فبدا لي هذا كله انه داخل اطار الطبيعة العاصفي . اصف الى هذا
ان ذلك الشعر المصاحب بالمطر كان منذ زمن في كتبي وكان ذا علاقة
وثيقة بي .

ان البلد السوفييتي يتغير بشكل دائم مستمر ، تبنى مدن وقنوات
هائلة ، حتى الجغرافيا تتبدل . لكن في اول زيارة لي انطبعت في نفسي
نابنة راسخة نواحي التشابه التي كانت تلصقني بهم ، كذلك كل ما كان
يبدو لي فيهم غريبا عن روحي بعيدا عن نفسي ، كل ما كان يصعب عليّ
فهمه او التقاطه .

ان الكتاب في موسكو يعيشون دوما في احتدام جدال مستمر . لقد
علمت هناك ، قبل ان يكتشف ذلك الغربيون محبو الفضائح ، بكثير ، ان
(باسترنالك) (٢) كان التساعسر السوفييتي الاول ، في قرن واحد
(ماياكوفيسكي) . ان (ماياكوفيسكي) هو الشاعر الجماهيري ذو الصوت
الرعدي والمظهر البرونزي والقلب العظيم النبيل الذي استطاع ان يطوع
اللغة ويواجه اكثر القضايا صعوبة في الشعر السياسي واكثر مشاكله
البنيانية تعقيدا ، بينما (باسترنالك) هو شاعر شفقي كبير ، شاعر الذاتية
المتأفزيقية ، وهو سياسيا شاعر رجعي متواضع ، ما استطاع ان يرى
في تحول وطنه وتغييره ابعده مما كان يرى سادن كنيسة مثقف . على كل
حال فاني استمعت الى اكثر النقاد صرامة في انتقاده بسبب جموده
السياسي وهم ينشدون قصائده عن ظهر قلب كثيرا من الاحايين .

ان وجود اعتقادية Dogmatismo سوفييتية في الفنون خلال مراحل
طويلة الامر لا يمكن انكاره . بيد انه يجب ان يقال كذلك ان هذه «الاعتقادية»

٢ - باسترنالك (بوديس) : شاعر وكاتب روسي (١٨٩٠ - ١٩٦٠) .

اعتبرت دائما عيبا كوفح وجهها لوجه . ان عبادة الشخصية ادت ، عن طريق المقالات النقدية التي كان يكتبها (زدانوف Zhdanov) ، وهو «اعتقادي» لامع ، الى نصلب خطير في مجرى الثقافة السوفيتية وتطورها . لكن كانت هناك اجابات كثيرة من الجهات جميعها على هذه المقالات ، وانه لامر معروف ان الحياة هي اقوى واعند من الفروض والاوامر والقواعد . ان التورة لهي الحياة وان الفروض تبحث دائما عن نعشها وقبرها .

ما زال (ايهرينبورغ) على كبره في العمر المهيج الاكبر لكل ما هو حقيقي وجوهري وحي في الثقافة السوفيتية . لقد زرت مرات كثيرة صديقي الطيب الودود في شقته بتسارع (غوركي) ، شقته المكوكة بلوحات (بيكاسو) ، او في عزبته (Dacha) قرب موسكو . لقد كان له هـوس بالنباتات فهو دائما في حديقته ينزع النباتات الطفيلية ويجني ثمار كل ما ينمو حوله .

فيما بعد انشأت صداقة متينة مع الشاعر (كيرسانوف) الذي ترجم الى الروسية شعري ترجمته نبعث على الاعجاب حقا . ان (كيرسانوف) . مثل السوفييت جميعا ، وطني متوهج . ان لشعره ومضا منفجرا . جرسا تمنحه اللغة الروسية الجميلة التي يقذف بها الى الهواء بريشته فتنبعث تفجرات وشلالات .

كنت على الدوام ازور في موسكو او في الريف شاعرا كبيرا آخر الا وهو الشاعر التركي (ناظم حكمت) ، وهو كاتب خرافي اسطوري ، كانت حكومة بلده الغريبة عن شعبه قد سجنه خلال ١٨ سنة .

لقد اهتم (ناظم) بانه كان يريد اثارة فتنة وتمرد في صفوف البحرية السريكية فادانوه بكل عفوبات جهنم . جرت المحاكمة على ظهر بارجة عسكرية . كانوا يحكون لي كيف انهم جعلوه يمشي حتى درجة الانهاك على جسر الباخرة ومن بعد ادخلوه الى المرحاض حيث كان الغائط يعلو اكثر من نصف متر فشعر اخي الشاعر بالاغماء وخارت قواه . كانت الرائحة الكريهة تجعله يقرز ويرتعد . عند ذلك فكر : لا بد ان الجلاديين يرقبونني من نقطة ما ، فهم يريدون ان يروني اتداعى ، يريدون ان يروني

تعيسا بألسا . فانبعثت قواه في انفة وعنجهية وبدأ يغني ، أولا في صوت خفيض من بعد في صوت اكثر علوا ، في النهاية شرع يغني ملء حنجرتة، غنى الاغاني كلها ، الغزل الذي كان يذكره ، جميع قصائده التي نظمها ، مواويل الفلاحين ، اناشيد شعبه النضالية . غنى كل ما كان يعرفه من غناء . وهكذا انتصر على الرجس والنجاسة والعذاب . عندما قص عليّ ذلك ، قلت له : «يا اخي ، انك بهذا قد اجبت عنا جميعا . فلم نعد نحنا فيما نفعله ، فها نحن جميعا معشر الشعراء نعرف متى يجب علينا ان نبدأ الغناء » .

كان يحكي لي كذلك عن آلام شعبه ، عن الفلاحين الذين يضطهدهم في قساوة سادة تركيا الاقطاعيون . كان (ناظم) يراهم وهم يأتون السي السجون جماعات جماعات ، كان يراهم وهم يستبدلون التبنك بقطعة الخبز التي كانوا يعطونهم حصّة وحيدة وجراية يتيمة . اخذوا ينظرون الى مرعى الباحة في السجن بذهول ، من بعد بانباه وتركيز ، من بعد بشراهة ونهم . ذات يوم التقطوا اقداء الحشائش والاعشاب وقربوها من أفواههم ثم راحوا يقتلعونها حزما حزما ملء الايدي فيبتلعونها الى ان انتهوا الى ان يرعوها بأربعة أرجل كما الدواب .

لقد عاش (ناظم) ، الذي كان عدوا لدودا للاعتقادية ، سنين طويلة منفيا في الاتحاد السوفيني . ان حبه لهذه الارض التي حضنته لمتثل في هذه الجملة التي قالها : «انا أوّمن بمستقبل الشعر ، أوّمن لانني اخيا في بلد يشكل الشعر فيه اكثر مقتضيات الروح لزوما وضرورة» . في هذه الكلمات ننوس اسرار كثيرة لا تدرك من على بعد . ان الانسان السوفييتي، والابواب مفتحة على المكتبات كلها والقاعات جميعها والمسارح قاطبة ، لهو مركز اهتمامات الكاتب السوفييتي . ليس من مجال لنسيانه حين يتناقش حول مصير العمل الادبي . فمن ناحية ، يجب على الصيغ الجديدة ، اي التجديد الضروري لكل ما يوجد ، ان تتجاوز القوالب الادبية الجاهزة وان تعمل على تحطيمها . ومن ناحية أخرى كيف يمكن للادب ان لا يرافق خطى ثورة عميقة مديدة ؟ كيف يمكن له ان يبتعد عن المواضيع الاساسية ، الانتصارات ، المنازعات ، المشاكل الانسانية ، عن خصب وحركة وتناسل شعب كبير يواجه تغييرا شاملا للنظام السياسي الاقتصادي الاجتماعي الذي

كان سائدا في بلده ؟ كيف يمكن له ان لا يتضامن مع هذا الشعب الذي بهاجمه غزاة شرسون ويحاصره مستعمرون لا يرحمون يعكرون صفو الاجواء الانسانية كلها ؟ أفستطيع الآداب والفنون ان تتخذ موقفا مستقلا استقلالا هوائيا هشا ازاء احداث جوهريه ومجربات اساسية ؟

ان السماء لبيضاء . في الرابعة مساء تغدو سوداء . منذ هذه الساعة يفلق الليل المدينة .

ان موسكو لهي مدينة شتوية . هي مدينة الشتاء الجميلة . لقد تركز الثلج فوق سطوح المنازل المتكررة المترامية بشكل لا نهائي . تلتمع الشوارع النظيفة ابدا . ان الهواء لهو بلور قاس شفاف . لون فولاذي ناعم ، زغب نلجي يحوم ، ذهاب المارة واياهم كما لو انهم لا يحسون للبرد طعما ولا لذعا ، كل هذا يجعلنا نحلم في ان موسكو ما هي الا قصر للشتاء كبير ذو زخارف شبحية وحية ، خارقة ومدهشة .

ثلاثون درجة تحت الصفر في موسكو هذه التي هي مثل نجمة من نار ومن ثلج ، مثل قلب متوهج مشنعل ، قلب يكمن وسط صدر الارض .

هانذا انظر عبر النافذة ، ثمة حراس في الشوارع ، فماذا يجري ؟ لقد توقف حتى الثلج عن الحركة عن الهطول . انهم يدفنون (فيسهينسكي Vishinski العظيم ، تنفتح الشوارع في جلاله ووقار كي يمر موكبه . يسود سكون عميق ، خفوت في قلب الشتاء احتراما لهذا المحارب الكبير . ان نار (نيسهينسكي) توؤب الى اس الوطن السوفييتي .

ما زال الجنود الدين حيوا بأسلحتهم الموكب حين مر في اماكنهم ثابتين في تشكيلات ثلاثية ، من حين الى حين يقوم احدهم برقصة صغيرة ، رافعا يديه القفازيتين ومحديا بجزمته الطويلة لحظة . ثم يرجع متصلبا راسخا ثابتا .

لقد روى لي صديق اسباني انه خلال الحرب العظمى في اشد الايام بردا وصقيعا ، اثر غارة جوية داهمة كان المسكويون يثرون وهم يأكلون

المثلجات فى السوارع ، «آنذاك ادركت انهم لا بد رابحو الحرب — كان يقول لى صديقى — ، حين رأيهم يأكلون المثلجات فى هدوء وطمأنينة نفس وسط حرب رهيبة وبرد شديد» .

لقد تزركتشت اشجار الحدائق بيضاء من نلج . لا شيء يقرن بهذه الاوراق المتبلورة فى الحدائق بشتاء موسكو ، ان الشمس تجعلها اكثر شفافية ، تقتلع منها لها ابيض دون ان تذوب ابة قطرة من قامتها الزهرية من قوامها الثلجي . انه لكون مشجر يدعك ترى من خلال ربيع الثلجي ابراج «الكريملين» العتيقة القديمة ، السهام الرشيقة الهيفاء الالفية ، قباب كنيسة «القديس باسيل» المذهبة .

انى لارى ، بعد ان عبرت ضواحي موسكو باتجاه مدينة اخرى ، دروبا مريضة بيضاء ، ان هي الا الانهار المتجمدة . فى مجاري هذه الانهار الجليدية بطلع من حين الى حين كما ذباية فى خوان ابيض باهر ، طيف صياد مطرق الرأس . يقف الصياد وسط السماط السببب المدبد الجليد ، يختار نقطة ، بثقب الجليد حتى يدع التيار الدفين مرثيا جليا ، فى هذه اللحظة نفسها لا يمكن له الصيد اذ ان الاسماك المباغثة هربت مدعورة من ضجيج المثاقب الحديدية التي عملت فى الجليد ثقبا وتنقيبا ، حينذاك يعيش الصياد بعضا من طعم هنا وبعضا من طعم هناك كي يجذب الاسماك الفارّة ثم يرمي بصنارته ويترقب ، ينتظر ساعات وساعات فى ذاك البرد الابليسي اللعين .

ان عمل الكتاب ، فى رأيي ، له شبه كبير بعمل اولئك الصيادين فى القطب الشمالى . على الكاتب ان يبحث عن النهر فان وجده متجمدا فانه يضطر ان يثقب الجليد . عليه ان يجلد ويصبر ، ان يتحمل الطقس المعادي والنقد المضاد ، ان يتحدى التفاهة ، ان يبحث عن التيار العميق ، ان يرمي بالصنارة الصالحة الصائبة ، ليخرج بعد جهد جهيد وصبر شديد سمكة صغيرة . بيد انه لا بد له من ان يرجع الكرة ويعود للصيد من جديد ، ضد البرد ، ضد الصقيع ، ضد الماء ، ضد النقد ، وهكذا دواليك حتى يخرج فى كل مرة صيدا اكبر واعظم .

دعيت لحضور مؤتمر للكتاب ، كان يجلس هناك فى سدة الرئاسة

صيادو الاسماك العظماء . كتاب الاتحاد السوفيتي الكبار (فاديف) بابتسامته
البيضاء وشعره الفضي . (فيدين) بوجهه النحيل الحاد كوجه صياد
انجليزي . (ابهرينبورغ) بنواصي نسره المضطربه وببدلته الني وان كان قد
دشنها حديثا يعطى انطباعا بأنه كان ينام وهو يرنديها . و(تيخونوف) .

كان كذلك ممثلين في الرئاسة بوجوههم المنغولية ، الناطقون باسم
آداب اكثر الجمهوريات السوفييتية بعدا ، ممتاو شعوب ما كنت أدري انا
حتى بأسمائها . شعوب ما كانت لها الابجدية من قبل .

الهند المزاراة من جديد

كان عليّ في عام ١٩٥٠ ان أسافر الى الهند على غير توقع او انتظار .
لقد استدعاني الى باريس (جوليوت كوري Joliot Curie) (٢) كي
يكلفني بمهمة الا وهي السفر الى «دلهي الجديدة» للاتصال هناك بأناس من
مخلف الآراء والاتجاهات السياسية والبحث هناك عن امكانيات تدعيم
الحركة الهندية من اجل السلام العالمي . كان (جوليوت كوري) هو الرئيس
الدولي لانصار السلام . تحدثنا في اسهاب . كان يقلقه ان السلم في الهند
ليس له الوزن الذي يجب ان يكون عليه . غير انه كان للهند سمعة حسنة
في انها دولة مسالمة من الطراز الاول . وكان لرئيس وزرائها نفسه ،
(البانديت نهرو) ، الشهرة في انه زعيم السلام ان قضية السلام لهي قديمة
عميقة بالنسبة لملك الامة .

اعطاني (جوليوت كوري) رسالتين : واحدة منهما لعالم بحثة مسالم
في «بومباي» والاخرى لرئيس الوزراء (نهرو) على ان أسلمها له يدا ليد .
لقد استغربت انه اختارني على التعيين للقيام بسفر مرهق طويل وبعمل
سهل جدا ، كما كان يبدو . ربما انه اعتمد على حبي الذي ما خمد ابدا
نحو ذاك البلد حيث قضيت بضعة سنين اثناء شبابي او لعله استند الى اني

٢ - جوليوت كوري Frédéric : فيزيائي - كيميائي (١٩٠٠ - ١٩٥٨) .

حزت في هذه السنة نفسها على جائزة السلام بقصيدتي «فليستيقظ الحطّاب» ، ميزة منحت كذلك الى (بابلو بيكاسو) و (ناظم حكمت) .

ركبت الطائرة متوجها الى «بومباي» . بعد ثلاثين سنة كنت اعود الى الهند من جديد ، والهند الآن ليست مستعمرة تكافح في سبيل تحررها وانعتاقها بل هي جمهورية (٤) ذات سيادة : حلم (غاندي) الذي حضرت مؤتمراته الاولى عام ١٩٢٨ . لم يعد من اصدقائي الطلبة الثوريين اذاك الذين اودعوني في ثمة واخوة حكاياهم الكفاحية البطولية اي فرد حي ، هذا ما كنت افكر فيه حين وصلت .

ما أن نزلت من الطائرة حتى توجهت الى الجمارك وفي نيني ان اتوجه الى اي فندق مهما كان ، كي أسلم الرسالة الى العالم الفيزيائي (رامان) (٥) واواصل سفري من بعد الى دلهي الجديدة . لم أكن احسب حساب الضيافة والاقامة عند هذا العالم . لكن حقائبي ما كانت لتخرج من سورها اذ ان مجموعة ممن كنت احسبهم رجال جمارك ، كانوا يفتشون حقائبي تفتيشا دقيقا وبحثا متطائرا وفي عدسة مكبرة : لقد شاهدت في حياتي تحريات وفتيشات عديدة لكنني ابدا ما شاهدت كما هذه المرة : لم يكن عفشي بالكثير النامي : حقيبة صغيرة تحتوي على ملابسي ومحفظة تتضمن لوازمي الشخصية . راحت سراويلي وملابسي الداخلية وأحذيتي تعلو في الهواء ترقبها خمسة أزواج من العيون ، كانت الجيوب والفراغات والدروز تنقب تنقبا دقيقا مجهريا . كي لا تتسخ ملابسي بأحذيتي فقد كنت في مطار روما قد طويت هذه الاحذية بصحيفة متجعدة عثرت عليها في غرفة فندقسي هناك وأظن انها «الابوسيرفاتور رومانسو» . ففرشوا هذه الصحيفة فوق طاولة وأخذوا ينظرون اليها بالنور الكاشف نسّم طووها في اعتناء كما لو انها وثيقة سرية ثم وضعوها قرب اوراقى ووثائقي الاخرى . كذلك فانهم درسوا وفحصوا احذيتي من الداخل ومن الخارج كأنها نماذج فريدة من الحفريات الهائلة .

٤ - من المعروف ان الهند هي دولة تابعة للكومنولث البريطاني .

٥ - رامان Chandrasekhara Venkata : عالم فيزيائي هندي ولد عام ١٨٨٨ .

لقد دام هذا البحث الخرافي زهاء ساعتين . لقد صنعوا من اوراقى
(جواز سفر ، مفكرة عناوين ، الرسالة التي كان عليّ أن أسلمها الى رئيس
الحكومة ، صحيفة «الابسير فاتور رومانو») ربطة مطولة ختموها بشكل
احفالي بالشمع الاحمر امام ناظري ، بعد ذلك قالوا لي اني استطيع
التوجه الى الفندق .

بدلت جهدا تشيليا كي لا افقد صبري، ثم اندرتهم بأنهم لن يقبلوني في
اي من الفنادق ان لم اكن مزودا بوثيقة تثبت هويتي، وأن موضوع زيارتي
الى الهند هو اعطاء الوزير الاول الرسالة التي لن استطيع اعطاها له لانهم
خطفوها مني وبقيت معهم .

— نحن سنتكلم مع الفندق كي يفلوك فيه ، اما بالنسبة للاوراق فاننا
سنعيدها اليك في اللحظة المناسبة .

هذا هو البلد الذي شكل كفاحه من اجل الاستقلال جزءا من مصري
وشبابي . قلت في نفسي . اغلقت حقيبتني وفي الوقت نفسه اغلقت فمي .
كان فكري ، في داخلي ، يشكل كلمة واحدة لا غير : خرا .

التقيت في الفندق مع الاستاذ (بايرا) فحكيت له محنتي . كان هو
رجلا هنديا ذا مزاج طيب . لم بول الامر الاهمية اللازمة فلقد كان متسامحا
مع بلده ومتساهلا اذ انه اعتبر الهند في مرحلة التنسكل والتكون فيما كنت
انا على العكس ، فلقد رأيت في تلك الفوضى شيئا سيئا جدا ، شيئا ما
كنت أنتظره من امة مستقلة جديدة تجري لي هذا الاستقبال الفاضح
المخزي .

كان صديق (جوليوت كوري) الذي كنت أحضر له رسالة التقديم ، هو
مدير الدراسات الفيزيائية — الذرية في الهند ، فدعاني لزيارة مراكزه
النوية هذه وأضاف قائلا بأننا مدعوون الى الغداء في اليوم نفسه على
مائدة أخت رئيس الوزراء . هكذا كان حظي وهكذا كانت حياتي كلها دوما:
بيد بلطمونني على أضلاعي وبيد أخرى يقدمون لي باقة ورود كي أغفر الحيف .

ان معهد الابحاث النووية كان واحدا من هذه الاماكن النظيفة الواضحة

المشعة التي فيها ترى رجالا ونساء وهم يرتدون ملابس بيضاء فضفاضة شفافة ، يحومون ويطوفون كالماء الجاري ، يعبرون دهاليز وممرات ، يتفادون التماس بأدوات والواح كبيرة وأوان وأوعية كثيرة . مع اني لم أفهم الا القليل من تلك الشروح العلمية فان تلك الزيارة افادتني كأنها حمام من مطر كان ينظفني ويغسل عني أوضار تلك البقع التي لطخني بها رجال الشرطة وتنكيداتهم وإزعاجاتهم وتفتيشاتهم . أذكر في غير وضوح انسي رأيت من بين الاشياء الاخرى نوعا من الزئبق ادهتني . لا شيء أروع من هذا المعدن الذي يعرض طاقته كأنها حياة حية . لقد سرنني دائما بحركته وتحركه : قدرته على التحول السائلي الكروي السحري .

لقد نسيت اسم اخت (نهر) التي تغدينا معها ذلك اليوم . حين رأيتها زال عني المزاج السيء . كانت امرأة ذات جمال وحسن عظيمين ، متزينة ، منبرجة كأنها ممثلة غريبة النوع ، كان رداؤها Sari يبرق في السوان زاهية ، وكان الذهب والدر والجوهر تزودها بزخارف تزيد من جمالها ، لقد أعجبتني كثيرا . لقد كان ، فعلا ، شيئا مناقضا أن تراها وهي تأكل بيديها ، ان ترى اناملها الطويلة المحلاة بالزينة وهي تفرز في الارز ومرق Curry . قلت لها اني سأذهب الى دلهي الجديدة كي أرى اخاها وأقابل انصار السلام العالمي . أجابتنني انه ، في رأيها ، سكان الهند جميعا يجب عليهم ان ينخرطوا في هذه الحركة العالمية .

في المساء سلمني رجال الشرطة السفط وأوراقني . لقد كان أولئك المنافقون من رجال الشرطة قد كسروا الخوانم الشمعية التي هم بأنفسهم وضعوها حين صفّتوا وثائقي في حضوري . بالتاكيد انهم صوروا كل شيء حتى وصول حسابات محل تنظيف الثياب التي كنت أحملها في جيبني . مع مضي الوقت عرفت انهم استجوبوا جميع الاشخاص التي كانت عناوينهم تبدو فسي مفكرتي ، ومن بين هؤلاء الاشخاص ارملة (ريكاردو غويرالديس) (٦) التي هي أخت زوجتي في ذلك الوقت . كانت هذه السيدة امرأة متصوفة سطحية ليس لها من هوى ولا هوس الا

٦ - ريكاردو غويرالديس : روائي أرجنتيني (١٨٨٦ - ١٩٢٧) .

الفلسفات الآسيوية ، وكانت تعيش في ضيعة نائية جدا في الهند ، ومع ذلك فقد ازعجوها نظرا لان اسمها كان من جملة الاسماء التي أحملها في مفكرني .

في دلهي الجديدة رايت سبعا من الشخصيات بالعاصمة الهندية ، في يوم وصولي نفسه ، حيث كنت اجلس في حديقة تحت ظلال تحميني من وهج النار السماوية . كانوا كنانا ، فلاسفة ، كهنة هندوسا او بوذيين ، من أناس الهند ، هؤلاء البسطاء جدا الى درجة تبعث على التقدير والتفديس ، غير مزودين بأي تبجح مصطنع ولا زهو مزيف . ارتأوا بالاجماع ان بشكل أنصار السلام حركة واحدة تنصهر مع الروح القديمة لهذا البلد العريق بتقاليده الحية من حب للخير وتفاهم منسرك . اضافوا في حكمة انهم يرون انه من الضروري ان تصلح العيوب ، عيوب الميل نحو جانب دون آخر او سيطرة قسم على آخر : ليس على احد او فئة ان بدعى الحركة لنفسه سواء اكان من الشيوعيين او البوذيين او البورجوازيين . ان مساهمة الانجاهات كلها كان هو المحور الرئيسي وعقدة الامر . كنت على اتفاق معهم .

جاء ليراني سفير شيلي في دلهي الجديدة وهو صديق قديم لي ، كاتب وطبيب يدعى الدكتور (خوان مارين) (٧) وحين وصل كنت انا اتغدى . بعد كثير من اللف والدوران والواربة في الكلام قال لي انه كان قد قابل رئيس الشرطة . فاخبره رئيس الشرطة الهندي في هذا الطابع الجدي الذي يتكيفه الرجال المسؤولون حين يتوجهون لمخاطبة الدبلوماسيين انشطاتي تزعج حكومة الهند ونقلها وانه ليتني أهجر الهند عما قريب . فأجبت السفير ان نشاطاتي قد اقتضت على مقابلة سبعة من الاشخاص الشهيرين المعروفين في حديقة الفندق ، افكارهم معروفة لدى الجميع ، كنت افترض انا . اما بالنسبة لي ، قلت له ، فاني حين اسلم رسالة (جوليوت كوري) الى رئيس الوزراء ، لن ارغب من بعد ان استمر في بلد يعاملني على الرغم من وقوفي المجرب الى جانب قضاياه بهذه الوقاحة وقلة الكياسة دون اي مبرر او داع .

٧ - خوان مارين : روائي ومؤرخ تشيلي (١٩٠٠ - ١٩٦٣) .

لقد كان سفيري ، مع انه كان واحدا من مؤسسي الحزب الاشتراكي بتشيلي ، خامدا هامدا . قد يكون بسبب تراكم السنين عليه وبسبب تراكم الامتيازات الدبلوماسية لم يبد اي احتجاج على الالهانة التي لحقت به وبني من جراء هذا السلوك الفبي من لدن الحكومة الهندية ، وانا لم اطلب منه اي دعم او تضامن معي بل ودّعته بالتّي هي احسن ، فمضى هو مرتاحا من الحمل الثقيل الذي كان يعني بالنسبة له وجودي في الهند وانا مضيت يائسا الى الابد من حساسيته ومن صداقته .

كان (نهر) قد حدد لي موعدا في صباح اليوم التالي بمقر الحكومة في مكتبه . وقف ومد لي يده دون اية ابتسامة من ترحيب وتكريم . ان مقر الحكومة هذا قد وصف كثيرا فلا حاجة بي للكلام عنه . نظرت اليّ عينا داكنتان باردتان من غير عاطفة ولا شعور . قبل ثلاثين سنة قدموني اليه والى ابيه في اجتماع حاشد من اجل استقلال الهند . فذكرته بهذا الاجتماع واللقاء فلم تنغير ملامحه ابدا . على كل ما كنت ا قوله كان يجيب في مقاطع قصيرة من الكلام ذات حرف او حرفين وهو يرقبني بنظرته الباردة الجامدة الثابتة .

ناولته من بعد رسالة صديقه (جوليوت كوري) فقال لي بأنه يشعر نحو هذا العالم الفرنسي شعور التقدير والاحترام ، ثم قرا الرسالة في رصانة . كان حديثه في الرسالة عني ويطلب منه مساعدتي في مهمتي . انتهى من قراءتها وأدخلها من جديد في ظرفها ونظر اليّ دون ان يقول لي شيئا . فكرت لتوّي ان حضوري يسبب له اشمئزا لا يفاوم ، كذلك مر في ذهني ان هذا الرجل ذا اللون الاصفر الشاحب لا بد انه يمر في لحظة فيسيولوجية سيئة او سياسية مزعجة او نفسية مضايقة . كان في سلوكه بعض من الأنفة والتشامخ ، شيء من التكبر والعجرفة ، زهو شخص متعود على ان يكون آمرا ناهيا دون ان يكون له شيء من هيبة القائد . تذكرت ان اياه (البانديت موتيلال زيمندار) ، سليل جنس قديم من السادة ، كان امين خزانة (غاندي) وانه ساهم ليس بمعرفته السياسية فحسب بل كذلك بثروته الكبيرة في حزب المؤتمر الهندي . فكرت في انه ربما يكون هذا الرجل قد عاد ليصير بشكل مهلهل (زيماندارا) وانه لهذا السبب يرمقني في احتقار ولا مبالاة كما لو كان ينظر الى فلاح حاف عار .

— ماذا عليّ أن أقول للاستاذ (جوليوت كوري) حين أعود إلى باريس؟

— سأجيب على رسالته — قال في جفاف .

احتفظت بالسكون والصمت خلال بضعة دقائق بدت لي دهرًا . كان ظهر لي أن (نهر) ليست عنده أية رغبة في أن يقول لي شيئًا ، لكن ما كنت أبدي أي تملل أو عدم صبر كما لو أنني كنت أستطيع البقاء هناك جالسًا إلى الأبد بدون أي غرض ولا هدف ، يملؤني شعور بأن أضيع وقت رجل عظيم جدًا ومهم جدًا .

اعتبرت أنه لا بد لي من أن أقول له بضع كلمات عن مهمني . أن الحرب الباردة تهدد بأن تصبح ساخنة بين لحظة وأخرى . أن هاوية جديدة قد تبتلع الإنسانية . كلمته عن خطر الأسلحة الذرية الرهيبة وعن أهمية أن يتكلم جميع الذين يريدون تجنب الحرب الذرية أو أكثرتهم على الأقل .

كما لو أنه ما سمع مني شيئًا ، استمر في تأمله واطراقه الفكري الروحي . بعد انتهاء بضع دقائق تفوّّه قائلاً :

— أن ما يحصل هو أن كتلة وأخرى تتراشقان بحجج السلام .

— بالنسبة لي — أجبته — أن الذين يتكلمون عن السلام أو يريدون المشاركة في السلم جميعًا يستطيعون أن ينتموا إلى الكتلة نفسها التي الحركة نفسها ، فنحن لا نريد اقضاء أحد عن حركتنا ما عدا أنصار الحرب ودعاة الانتقام .

استغرق الصمت طويلاً فأدركت أن الحديث قد انتهى فوقفت ومددت له يدي مودعًا فصافحني في سكون . حين كنت أتوجه نحو الباب سألني في شيء من الود :

ماذا أستطيع أن أعمل في سبيل حضرتك ؟ ألا أستطيع أن أقدم لحضرتك شيئًا ؟

أنا عادة بليد الإجابة غير سريع الخاطر ، غير مجهز بالخبث والمكر ، لكن للمرة الوحيدة في حياتي استفدت من تلك الفرصة السانحة :

— بلى ، طبعا ، لقد نسيت ، على الرغم من اني قد جئت سابقا الى الهند فاني لم تسنح لي فرصة زيارة «تاج محل» القريب جدا من دلهي الجديدة . كان من الممكن ان تكون هذه هي الفرصة المناسبة لزيارة هذا المشهد التذكاري الرائع لو لم تخبرني الشرطة اني لا استطيع مغادرة المدينة وان عليّ ان اعود الى اوروبا في اسرع وقت ممكن، ولهذا فاني سأرحل غدا . كنت فرحا بأنني رشقته بالسهم (٨) . حييته في خفة وغادرت مكتبه .

في قاعة الاستقبال بالفندق كان المدير ينتظرني .

— عندي رسالة لحضرتك ، رسالة شفوية ، لقد اتصلت بي الحكومة هاتفيا لتخبرني ان حضرتك تستطيع زيارة «تاج محل» حين يطيب لحضرتك .

— اعد حسابي — اجبته — اني لآسف لعدم قدرتي على القيام بهذه الزيارة ، فاني سأتوجه الآن حالا الى المطار كي آخذ اول طائرة تقلني الى باريس .

بعد خمس سنين على هذا كلفت ان اكون عضوا في لجنة الجوائز التي كل سنة تمنح جائزة لينين للسلام في موسكو وهذه اللجنة هي محكمة أممية أشكل أنا جزءا منها . حين حانت لحظة تقديم اسماء المرشحين لذلك العام ، قذف مندوب الهند باسم رئيس الوزراء (نهر) .

أنا ابتسمت ابتسامة لم يفهمها احد من الاعضاء الآخرين وصوتت ايجابيا . بتلك الجائزة الاممية نصّب (نهر) واحدا من أبطال السلام في العالم .

٨ — رشقته بالسهم : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، كالتة له الصاع صاعين وان كان التعبير العربي في الاصل يعني الخير والمودة .

زيارتي الاولى للصين

لقد زرت الصين مرتين بعد الثورة ، الاولى عام ١٩٥١ ، حين شاركت في مهمة حمل جائزة لينين للسلام الى السيدة (سونغ سين لينغ) ارملة (سون يات سين Sun Yat Sen) (٩) .

لقد منحت هي هذه المداوية الذهبية بناء على اقتراح (كوو موخسو) (١٠) نائب رئيس الصين وكاتب شهير . كان (كوو موخو) كذلك نائب رئيس لجنة الجوائز مثلما كان كذلك (اراغون) . الى هذه اللجنة كان ينتمي : (انا سيفيرس) ، السينمائي (أليكساندروس) (١١) و (ايهرينبورغ) وانا ، وآخرون لا اذكر الان اسماءهم . كان ثمة حلف سري مؤلف من (اراغون) و(ايهرينبورغ) ومني ، عن طريق هذا الحلف توصلنا الى ان تمنح اللجنة الجائزة في اعوام اخرى الى (بيكاسو) ، الى (بيرتولد بريخت) (١٢) الى (رافائيل البرتي) . لم يكن الامر سهلا ، على فكرة .

خرجنا بالقطار المتجه نحو الصين العابر «سيبيريا» . لقد كان حشر نفسي في هذا القطار الاسطوري مثل الدخول في باخرة تبخر عبر الارض في المدى السحري الغريب . لقد كان كل شيء اصفر فيما حولي . على كل جانب من كويتي في القطار ، فرسحا اثر فرسخ . كان الخريف السيبيري يسود ويسيطر ولا شيء يرى غير اشجار «البتولا» الفضية ذات الاوراق الصفراء . ثم بدا المرج المديد ، صحراء جليدية او غابات الصنوبريات Taiga ومن حين الى حين تقترب من محطات المدن الجديدة . كنا نهبط ، (ايهرينبورغ) وانا ، كي نتنشط بعد التخدير القطاري . كان الفلاحون ينتظرون القطار في المحطات ومعهم حزم وطرود وحقائب مكدمة في قاعات الانتظار .

٩ - سون يات سين : سياسي صيني (١٨٦٦ - ١٩٢٥) .

١٠ - كوو موخو : كاتب صيني ولد عام ١٨٩٥ .

١١ - أليكساندروف : مخرج سينمائي روسي ولد عام ١٩٠٣ .

١٢ - بريخت : مؤلف مسرحي وشاعر ألماني معروف (١٨٩٨ - ١٩٥٦) .

لم يكن لدينا من الوقت الا القليل نستفيد منه كي نقوم ببعض الخطوات عبر هذه القرى . كانت جميعها سواء وفي كل قرية كان ثمة تمثال لستالين ، من اسمنت . احيانا كان التمثال مدهونا بالفضة و احيانا أخرى بالذهب . من عشرات التماثيل التي شاهدناها والتي كانت رتيبة سواء ، لسب ادري ايها كان اقبح وابشع اهي الفضيحة ام الذهبية . حين نعود الى القطار الذي ابخر بنا لمدة اسبوع كان (ايهرينبورغ) يسليني بحديثه الظريف المرتاب ولو انه كان وطنيا وسوفييتيا . كان (ايهرينبورغ) يحدثني في ازدراء وتهكم عن كثير من جوانب الحياة في تلك الفترة .

كان (ايهرينبورغ) قد وصل الى برلين مع الجيش الاحمر . كان هو ، بلا شك ، المع المراسلين الحربيين على الاطلاق . كان الجنود الاحمر يحبون هذا الرجل الغريب الاطوار اللامركزي . لقد اراني في موسكو قبل السفر بقليل هديتين كان اولئك الجنود قد اهدوهما اليه بعد ان استخرجوهما من بين الاطلال الالمانية . ان احدي هاتين الهديتين هي بندقية صنعها صانعو اسلحة بلجيكيون ل نابوليون بوناپرت والاخرى هي عبارة عن مجلدين صغيرين من أعمال (رونسارد) فد طبعها في فرنسا عام ١٦٥٠ . كان هذان المجلدان الصغيران مشيطين وملوثين بالمطر والدم .

تنازل (ايهرينبورغ) عن بندقيته الى المتاحف الفرنسية ، ماذا اصنع بها ؟ كان يقول لي وهو يداعب ماسورة هذه البندقية النابوليونية الجميلة الجيدة الصنع وقندقها المصقول اللامع . اما بالنسبة لمجلدي (رونسارد) فقد احتفظ بهما لنفسه في غيرة وحيلة .

كان (ايهرينبورغ) متفرنسا متحمسا . انشدني في القطار قصيدة من قصائده السرية ، كانت قصيدة قصيرة يتغنى فيها بفرنسا كما لو كان بغازل امرأة يهيم بها .

اقول ان القصيدة سرية لانها كانت الفترة التي فيها بدأت بروسيا تشن الاتهامات ضد «الكونية» Cosmopolitismo . كانت الصحف تنشر وشايات معممة ضد الكونيين . فقد كان الفن الحديث كله يبدو لهؤلاء الصحف انه كوني . كان هذا الكاتب او ذاك الرسام يسقط ضحية هذا الاتهام وبمضى اسمه كليا . وهكذا كان على قصيدة (ايهرينبورغ) المتفرنسة

ان نحمي حنانها كما زهرة سرية .

ان الكثير مما كان يطلعي عليه (ايهرينبورغ) كان يختفي من بعد الى الابد في ليل (ستالين) المعتم المظلم اختفاءات كنت انا أرجع اسبابها الى طبعه المتمرد المتناقض .

كان (ايهرينبورغ) بالنسبة لي بوفرة شعره غير المنتظمة وبتقطيب جبينه العميق وبأسنانه المتسمة بالتبع ، وبعينه الرماديتين الباردتين ، هو الارتياحي القديم ، الخائب الكبير . انا كنت افتح عيني ، حديثا ، على الثورة العظيمة ولم يكن في متسع لجزئيات مشؤومة . كنت اخالف قليلا الذوق العام السائد اذاك والمتمثل في تلك التماثيل المدهونة بالذهب او الفضة . لقد اثبت الزمن اني لست على صواب وحق ، لكنني اعتقد انه لا احد ولا حتى (ايهرينبورغ) كان يدرك عمق المأساة وفداحة المصيبة الى ان انعقد المؤتمر العشرون فكشف لنا جميعا عن ذلك كله .

كان يظهر لي ان القطار يسير في بطء كثير عبر المدى الاصفر ، يوما بعد يوم ، شجرة «ال بتولا» اثر شجرة «ال بتولا» . هكذا كنا نقرب عبر «سيبيريا» من جبال «اورال» .

كنا ذات يوم نتغدى في عربة المطعم حين لفت نظري جندي كان يتسفل مائدة وحده ، كان ثملا جدا وهو شاب اشقر كثير الابتسام . كان يطلب في كل لحظة من النادل ان يأتي له ببيض نيء ، ثم يكسر هذا البيض وفي سرور (١٢) كبير واضح يفرغ كل بيضة في طبق ثم يطلب زوجا آخر من المبيض ، وفي كل مرة كان يحس انه اكثر سعادة ، يستدل على هذا من ابتسامته الطروب ومن عينيه الزرقاوين الفرحتين فرح طفل صغير . لا بد انه قد قضى وقتا كثيرا وهو يكسر ويصب ويطلب ثم يكسر ويصب ويطلب لان زلال البيض اخذ يتدفق ويفيض بشكل خطير من أطباقه ويسقط على ارضية العربة .

١٢ - سرور : في الاصل البروز Alborozo وهي كلمة عربية من معانيها فسي الاسبانية الطرب والفرح والسرور .

— Tovarich — كان ينادي الجندي في حماسة على النادل ليطلب منه بيضات جديدة كي يضاعف من كنزه وثروته البيضوية .

وأنا كنت أراقب في حماسة كذلك هذا المشهد السريالي البريء جدا، المبالغت جدا في اطار تلك الوحشة السيبيرية المحيطية .

الى ان نادى النادل المستنفر على شرطي عسكري . نظر الشرطي المسلح تماما من علوه اذ كان طويلا جدا ، في حزم وجدية الى الجندي فلم يعره هذا اي انبهاه بل استمر في عمله يكسر البيض ويهشمه .

افترضت انا ان السلطة سوف تخرجه في عنف من حلمه المسرف المبدر ، لكنني دهشت حين رأيت الشرطي الهرقلي يجلس قربيه ويمر يده في حنان عبر الشعر الاثغر ويكلمه في نصف صوت ، مبتسما له ومحاولا اقناعه الى ان جعله يقوم فجأة في نعومة ورشاقة من مقعده وقاده من ذراعه كأنه اخ كبير له ، الى مخرج العربدة نحو المحطة نحو شوارع القرية .

فكرت في مرارة ماذا كان يقع لو ان سكيرا مسكينا هنديا جعل يكسر البيض في قطار اكوادوري .

خلال تلك الايام السيبيرية كان يسمع في الاضاحي والاماسي عزف (ايهرينبورغ) في قوة على معازف آلتة الكاتبة . هناك انهي رواية «الموجة الاولى» وهي الاخيرة قبل روايته الاخرى «ذوبان الجليد» . من جهتي كنت لا اكتب الا على فترات متقطعة بعض قصائد من ديواني «أشعار القبطان» وهي قصائد غزل ب (ماتيلده Matilde) سأنشره من بعد في «نابولي» غفلا من التوقيع .

تركنا القطار في «ايركوتز» . قبل ان نأخذ الطائرة الى «مونفوليا» ، ذهبنا للقيام بنزهة عبر البحيرة ، بحيرة «بايكال» الشهيرة ، في أطراف «سيبيريا» التي كانت تعني في العهد القيصري باب الحرية . نحو هذه البحيرة كانت تتجه افكار المسجونين والهاربين وأحلامهم . كانت الطريق الوحيدة الممكنة للفرار والهرب . «بايكال ، بايكال» ما زالت حتى الآن

ترددها الاصوات الروسية الفخمة وهي تفني الاناشيد القديمة .

لقد دعانا معهد ابحاث البحيرات الى الغداء . فكتشف لنا العلماء عن اسرارهم العلمية . ابدا ما اسنطعنا تحديد عمق تلك البحيرة الني هي ابنة جبال «اورال» وعينها . من على بعد الفي متر عمقا تسنخرج اسماك غريبة عجيبة . اسماك عمياء . تسنخرج من هاوينها المعنمة الليلية . ما ان سمعت هذا حتى اخذتني السهية وتمكنت من افناع العلماء البحايين من ان يحضروا لي الى مائدتي روجا من تلك الاسماك العجيبة . اني لواحد من الاشخاص العلائل في العالم . الذين اسنطاعوا ان ياكلوا اسماكا قعرية عميفة مروية بـ «فودكا» سيبرية جيدة .

من هناك طرنا الى مونفوليا . ما زلت اخنفظ بذكرى ضبابية لملك الاراضي القمرية حيث يعيش السكان هناك في خيام بدوية بينما شرعوا في خلق اوائل مصانعهم وانتشاء اوائل جامعاتهم . حول «اولان باتور» تنفتح ارض يباب مدورة لا نهائية شبيهة بصحراء «اتاكاما» في وطني . لا يمخرها الا قوافل الجمال التي تجعل وحننها ووجدتها اكثر قدما . بالمناسبة بدوفت في طاساب (١٤) فضية مصنوعة في سكل مدهل وبسكي المنفوليين . ان كل قرية تصنع كحولها (١٥) مما ستطيع . ان هذا الذي ذقه كان من حليب بافه متخثر منحمر . ما زلت حتى الآن كلما ذكرته بعشعر بدني . لكن . كم هو رائع اني كنت في «اولان باتور» ، انا من يعيش في الاسماء الجميلة ، انا احيا في هذه الاسماء كما لو كنت احيا في منازل الاحلام . لقد غنيت متمنعا منلذا بكل مقطع من اسم «سينعابور» من اسم «سمرفند» . اني اريد حين اموت ان يدفنوني في اسم . في اسم رنان جبد الاختيار ، كي تفني مقاطعه فوق عظامي ، قرب البحر .

ان الشعب الصيني هو من اكثر الشعوب ابتساما في العالم . عبر الاسنعمار الذي لا يرحم ، عبر الثورات ، عبر المجاعات ، عبر المجازر ،

١٤ - طاساب : هكذا في الاصل Tazas . عن العربية

١٥ - كحول : هكذا في الاصل Alcohol . عن العربية

يبتسم ، يعرف ان يبتسم في المآسي اكثر من اي شعب آخر . ان ابتسامة الاطفال الصينيين لهي أجمل حصاد أرز تفرطه هذه الجماهرة الفقيرة من الخلق . غير ان ثمة نوعين من الابتسامات الصينية . نمة نوع من الابتسامة الطبيعية تضيء الوجوه بلون قمحي ، هي ابتسامة الفلاحين وابتسامة الشعب العديد . النوع الثاني هي ابتسامة «انزع وضع» (١٦) ، تتشاءب ، تلسق ثم تمحق تحت الانف ، انها ابتسامة الموظفين .

لقد كلفنا جهدا ان نميز بين هذين النوعين حين وصلنا ، انسا و(ايهرينبورغ) الى مطار بكين لأول مرة . لقد رافقتنا الابتسامات الحقيقية خلال الايام الاولى ، كانت ابتسامات زملائنا الكتاب الصينيين ، روائيين وشعراء ، استقبلونا احسن استقبال في كرم ضيافة وجود نفس . هكذا تعرفنا على (تينغ لينغ) وهو روائي ، حائز على جائزة (ستالين) ، ورئيس اتحاد الكتاب . على (ماو دونغ) ، على (ايمسي سياو) ، على (اي شينغ) الرائع وهو شيوعي قديم وأمير الشعراء الصينيين . هم كانوا يتكلمون الفرنسية او الانجليزية . لقد دفنتهم الثورة الثقافية جميعا بعد سنوات قلائل . لكن في ذلك الحين ، حين وصلنا ، كانوا شخصيات الادب الصيني الاوائل .

في اليوم التالي ، بعد منح جائزة (لينين) التي كانت تدعى بجائزة (ستالين) ، أكلنا في السفارة السوفيتية . لقد كان حاضرا في هذه الوليمة ، بالاضافة الى السيدة التي منحناها الجائزة ، (شو اين لاي) والمارشال العجوز (شو تيه) (١٧) وآخرون قلائل . كان السفير بطلا من أبطال «ستالينغراد» وهو عسكري سوفيتي أصيل كان يغني ويشرب الانخاب بشكل متكرر سريع . لقد جلسنا انا قرب (سونغ سين لينغ) كانت امرأة وقورة جدا وما زالت بعد جميلة . لقد كانت الشخصية الانثوية الاكثر احتراما في تلك الفترة .

كل واحد منا كان له تحت تصرفه زجاجة صغيرة مليئة بالفودكا . كانت

١٦ - انزع وضع : تعبير أسباني بمعنى النفاق والزيف .

١٧ - شو تيه : سياسي وعسكري صيني ولد عام ١٨٨٦ .

gambé تنفجر في فيض ووفرة . ان النخب الصيني يجبرك على ان تشرب الكأس كلها حتى السلافة دون ان تدع فيها قطرة واحدة . كان المارشال العجوز (شوتيه) ، مقابلي ، يملأ قدحه مرارا وتكرارا وبابتسامته الفلاحية الكبيرة كان يحثني على نخب جدد في كل لحظة . في نهاية الاكل انهزت لحظة شرود فكر هذا الاستراتيجي القديم كي أذوق جرعة مسن زجاجته الفودكية . لقد تأكدت شكوكي حين عرفت ان المارشال كان يتناول ماء نقيا خلال الاكل فيما انا كنت اتجرع كميات كبيرة من المسائل الناري .

حين حانت ساعه تقديم القهوة ، اخرجت جرتي في المائدة (سونغ سين لينغ) ارملة (سن يات سين) المرأة الرائعة التي جئنا كسي نقلدها الوسام ، من علبة الدخان سيجارا . من بعد ، في ابتسامة ضئيلة جدا قدمت لي آخر . «لا ، انا لا ادخن ، شكرا جزيلا» قلت لها . وحين مدحت لها علبة سجائرها ، اجابتني : «اني احتفظ بهذه العلبة لانها ذكرى تمينه جدا في حياتي» . لقد كانت هذه العلبة شيئا مذهلا باهرا ، كانت مصنوعة من ذهب خالص نقي ، مرصعة بالجواهر والاماس والبواقيت والدر . بعد ان امعنت النظر في العلبة واضفت مدائح جديدة اعدتها الى صاحبها .

لقد نسيت هي فيما بعد اني ارجعت العلبة اليها فحين وفنا لندع المائدة اتجهت نحوي في شيء من التوتر فائلة :

— علبة سجائري Please (١٨) .

انا ما كنت اشك قطعا في اني اعدت العلبة اليها . لكن . على كل حال ، بحثت عنها فوق المائدة ثم تحت المائدة دون ان اعثر عليها . لقد تلاشت ابتسامة ارملة (سن يات سين) واضمحلت وما كان في وجهها الا عينان سوداوان تخترقني كما شعاعان لا يرحمان . لم يكن ليُعنر على تلك الحاجة المقدسة في اية جهة من الجهات وبدأت انا اشعر اني مسؤول عن ضياع هذا الشيء الثمين المقدس ، لقد كانت تلك الاشعة السوداء تقنعني في اني

18 — Please : كلمة انجليزية ، معناها ، من فضلك .

انا لص الجواهر المرصعة .

لحسن حظي في الدقيفة الاخيرة من الاحتضار لمحت العلبة التي عادت للظهور في يديها . لقد عثرت عليها في محفظتها ، ببساطة وبشكل طبيعي . فاستعادت هي ابنسامتها ، لكنني لم اعد ابتسم خلال عدة سنين طويلة . اني لافكر الآن مهموما في انه ربما ان الثورة الثقافية قد تركتها بتكسل نهائي من غير علبة سجائرهما الذهبية الثمينة .

كان الصينيون في ذلك الفصل من السنة يلبسون اللون الازرق ، بدلة ميكانيكي كانت تغطي كل واحد منهم سواء الرجال والنساء ، وكان هذا اللون يعطيهم مظهرا سماويا متوحدا جماعيا . لم تكن هذه الاردية اسمالا كما لم يكن عندهم سيارات . بل انها لجماهير غفيرة تملأ كل شيء وتطفو في كل ناحية وتبرز في كل زاوية .

لقد كنا هناك في العام الثاني للثورة الصينية . بشكل اكيد كان هناك قلة في المواد ومصاعب في اماكن مختلفة ، لكن هذا كله ما كان يتجاهل اتناء التجوال في مدينة بكين . ان ما كان يشغل بالنا بشكل خاص : بال (ايهرينبورغ) وبالي هو هذه الجزئيات الصغيرة ، بعض تشنجات النظام . حين اردنا ان نشترى زوجا من الجرابات او المناديل تحولت المسألة الى مشكلة دولة . كان الزملاء الصينيون يتناقشون فيما بينهم . بعد مداولات عصبية انطلقنا من الفندق في كروان (١٩) على رأس القافلة كانت تهدير سيارتنا ، من بعد سيارة الحرس ، فسيارة الشرطة ثم سيارة المترجمين . انطلق فوج السيارات في عجلة وسرعة ففتح طريقا وسط الجماهرة المزدحمة من الناس البسطاء . كنا نمر مثل هيار جليدي عبر القناة الضيقة التي يدعها الناس حرة . حين وصلنا الى المخزن نزل من السيارات اصدقاءنا الصينيون فطردوا من المحل المشترين جميعهم وأوقفوا حركة السير وشكلوا بأجسادهم حاجزا وبسواعدهم سابطا انسانيا عبرناه : (ايهرينبورغ) وأنا، مطاطي الرأسين كي نخرج منه بعد خمسة عشر دقيقة كذلك مطاطشي الرأسين وفي أيدينا صفت صغير وتصميم على الا نشترى من بعد زوجا من

١٩ - كروان : هكذا في الاصل Caravana عن العربية ، من اصل فارسي .

الجرات البتة .

كانت هذه الاشياء تجعل (ايهرينبورغ) غاضبا حائقا . فتصور كيف كان في المطعم الذي سأروي قصته الآن . كانوا يقدمون الينا في مطعم الفندق أسوا الطعام الانجليزي ، اطعمة خلفتها في الصين الانظمة الاستعمارية . انا نظرا لاني معجب كبير بالطهي الصيني ، قلت لترجمي الشاب باني احترق رغبة للتمع بفن الطهي البكيني التهير . اجابني بانه سيطلب الاستشارة حول هذا الامر .

اجهل فيما اذا استسار ام لا لكن ما هو اكيد اننا ظللنا نمضغ ونعلك لحم البقر المشوي التافه في الفندق . عدت فكلمته عن الموضوع ، فصمت مطرقا مفكرا ثم قال :

ان الزملاء قد اجتمعوا عدة مرات لدراسة هذه الحالة ، والمنسكلة على وشك ان تحل .

في اليوم التالي اقترب منا عضو مهم في لجنة الاستقبال . بعد ان علق في وجهه ابتسامة بتشكل صحيح ، سالنا ان كنا فعلا راغبين في ان ناكل طعاما صينيا فقال له (ايهرينبورغ) في حزم ان اجل وأنا اضفت اني منذ ايام صباي وأنا اسمع عن اكلهم التهي الفنى وانى منذ ذلك الحين وأنا متشوق لنذوق متعة بكبن الشهيرة جدا .

— ان الموضوع لصعب — قال الزميل الصينى وهو فى حالة انتغال وقلق .

سكون ، حركة رأس ، ثم اوجز قائلا :

— انه لشبه مستحيل .

(ايهرينبورغ) ابتسم ابتسامته المعهودة المرة ، ابتسامة مستهزىء متشكك بصر على شكوكه . انا ، على العكس ، غضبت — ايها الزميل — قلت له — اعمل المعروف بتجهيز اوراقى كي اعود الى باريس حالا . ان لم استطع ان اكل الطعام الصينى في الصين فاني سأكله في الحي اللاتينى بباريس .

فهو هناك ليس بمشكلة .

ان احتجاجي العنيف لاقى نجاحا . بعد اربع ساعات وصلنا ونحسن
مقادان من لدن حاشيتنا العديدة الى مطعم مشهور يعد منذ خمسمائة سنة
طبق البط المصنوع بصمغ اللك ، طبقا صغيرا لكنه جدير بالذكر والذكرى .

كان المطعم الذي يفتح ليلا نهارا لا يبعد اكثر من ثلاثمائة متر عن مطعم
فندقنا .

«اشعار القبطان»

من اتجاه الى اتجاه في هذه التجوالات ، تجوالات منفي ، وصلت الى
بلد ما كنت اعرفه فتعلمت ان احبه حبا شديدا : ايطاليا . لقد بدا لي في
هذا البلد كل شيء رائعا وبخاصة البساطة الايطالية : الزيت ، الخبز ،
الخمير الطبيعي . حتى تلك الشرطة تلك الشرطة التي ما ازعجتني
ابدا ولا عاملتني معاملة سيئة قط ، لكنها طاردتني مطاردة لا تتعب ولا تمل ،
شرطة وجدتها في الجهات جميعها ، حتى في الاحلام وفي الحساء .

لقد دعاني كتاب ايطاليا لقراءة اشعاري فقرأتها في نية حسنة في كل
مكان ، في الجامعات ، في المسارح ، في موانئ «جنوا» ، في فلورنسا ،
في قصر «لا لانا» ، في «تورين» ، في البندقية .

كنت اقرا في متعة لا نهائية امام قاعات مكتظة بالناس . احدهم كان
يجلس قربي على المنصة ليعيد من بعد ، انشاد اشعاري مقطعا مقطعا ، في
لغة ايطالية سامية ، فكان يعجبني سماع ابياتي في هذا البريق الذي تضيفه
عليها اللغة الايطالية الرائعة . لكن ما كان هذا ليعجب الشرطة الايطالية
كما كان يعجبني . في القشتالية ، جواز مرور ، بينما في الايطالية كان ثمة
نقاط ومسائل شرف . ان مدائح السلام وهي كلمة محرمة عند « الغربيين » ،
والافدح من هذا ان اتجاه شعري نحو تمجيد النضال الشعبي ، كان يؤدي الى
نتائج خطيرة .

كانت مجالس البلديات قد ربحتها في الانتخابات الاحزاب الشعبية

ولهذا فأنهم استقبلوني في هذه المجالس الفخمة الفاخرة ضيف شرف عليها . كثيرا من المرات كانوا يعيّنونني عين المدينة : فأنا مواطن شرفي في ميلان ، في فلورنسيا ، في جاناوا . قبل انشادي او بعده كان المستشارون يضعون لي اوسمتهم . كان يجتمع في القاعة مواطنون اعيان وارسنوقراطيون واساقفة . كانوا يشربون نخبي كؤوس شمبابيا ، وكنت أشكرهم على هذا باسم وطني البعيد النائي . كنت أهبط درجات القصور الفخمة لمجالس البلديات بين العناق والتقبيل . في التسارع كانت الشرطة تنتظرني فلا تتركني لحظة لا في الشمس ولا في الظل (٢٠) .

اما ما حدث في البندقية فقد كان سينمائيا . القيت فصائدي في القاعة كما هي عادتني في ايطاليا . عينت مرة اخرى مواطن شرف . لكن الشرطة كانت تريد ان اذهب من المدينة حيث ولد ونعذب (ديسديمونا) . لقد ربض رجال الشرطة ليلا نهارا على ابواب الفندق .

جاء صديقي القديم (فيتوريو فيدالي) «الرائد كارلوس» من «تريستا» ليسمع أشعاري . وصاحبني كذلك في المتعة الخالدة بالتجوال عبر القنوات فكنا نرى ونحن في الجندول القصور الرمادية الساحرة . اما بالنسبة للشرطة فانها حاصرتني اكثر مما كانت تحاصرني من قبل . فلقد كان رجال الشرطة يمشون مباشرة خلفنا ، على بعد مترين . حينذاك قررت ان اهرب كما فعل (كازانوفا) من هذه المدينة التي كانت تريد ان تضيق عليّ الخناق . خرجنا منطلقين جرياً ، انا و(فيتوريو فيدالي) والكاتب الكوستاريكسي (خواكين غوتيريث) الذي كان هناك صدفة . وعلى اثرنا انطلق الشرطيان . في سرعة توصلنا الى ان نركب فسي الجندول الآلي الوحيد بالبندقية ، جندول رئيس البلدية (٢١) الشيوعي . لقد خدّد جندول السلطات البلدية مياه القناة ومخر مسرعا فيما السلطات الاخرى كانت تجري كما الايائل السمر بحثا عن زورق آخر الى ان عثرت

٢٠ - لا في الشمس ولا في الظل : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، لا في الحر ولا في القر .

٢١ - رئيس البلدية : في الاصل Alcalde وهي الكلمة العربية القاضي ، وكان القاضي في الاندلس يقوم بمهام رئيس البلدية كذلك .

عليه . كان الزورق الذي ركباه واحدا من هذه القوارب الرومانطيقية الكثيرة ذات المجذاف المدهونة باللون الاسود وذات الزخارف الذهبية التي يستعملها العشاق في البندقية . كان زورقهم يطاردنا من على بعد وبدون أمل كما بطة تلاحق دخسا بحريا .

في نابولي هذه المطاردات استعجل بها وكانت على نحو آخر . وصل رجال الشرطة الى الفندق حيث كنت ابيت في وقت ليس هو بالمبكر اذ انه في نابولي لا احد يعمل مبكرا ولا حتى رجال الشرطة . احتجاجوا بخطأ في جواز السفر ورجوني ان ارافقهم الى مديرية الشرطة . هناك قدموا لي قهوة «ايكسبريس» وأخبروني بأنني يجب ان أغادر الاراضي الايطالية في اليوم نفسه .

لم يفدني بشيء حبي لايطاليا .

— ان الامر لا بد ان يكون خطأ — قلت لهم .

— لا شيء من هذا القبيل ، انا للأسف كثيرا ، لكن عليك ان تغادر البلد حالا .

ثم بشكل غير مباشر وبطريقة زائغة اخبروني ان سفارة تشيلي هي التي طلبت طردي من ايطاليا .

كان القطار سيخرج في المساء . كان اصدقائي قد خفوا قبلي الى محطة القطار لتوديعي . قبل . زهور . هتافات . (باولو ريكيثي) ، آل (اليكاتا) . آخرون كثيرون . Arivederci : مع السلامة ، مع السلامة .

لقد اسرف رجال الشرطة الذين كانوا يرافقونني في رحلتي القطارية المتجهة الى روما في اللطف والكياسة . لقد رفعوا لي حقائبي ووضعوها كما يجب واشتروا لي صحيفة L'Unité وصحيفة El Paise Sera ولا بأي شكل صحيفة من الصحف اليمينية . كانوا يطلبون مني ان اعطيهم صوراً لهم ولاقربائهم . ابدا ما شاهدت في حياتي شرطة اكثر رقة ولطافة من الشرطة الايطالية :

— انا لتأسف لهذا الامر كثيرا يا صاحب السعادة فنحن ارباب عائلات فقيرة وعلينا ان نطيع الاوامر ، انه لشيء مقرف

في محطة روما ، حيث كان عليّ ان أغتير العطار لأواصل سفري نحو الحدود ، لمحت من نافذة القطار جمهره غفيره من الناس . سمعت هتافات . لاحظت حركات غامضة وعنيفة . حزم كبيرة من الزهور كانت تسير نحو القطار مرفوعة فوق نهر من الرؤوس .

— نالو ! نالو !

حين نزلت من القطار وأنا محروس في انافة ، صرت حالا وسط وطيس معركة هائلة . فلقد اختطفني من ايدي رجال الشرطة ككتاب وكاتبات ، صحفيون ، نواب ، حوالي الف من الاشخاص الهاجمين . رجال الشرطة من جهنهم تقدموا في عملية معاكسة واسترجعوني من اذرع اصدقائي . لقد ميزت في تلك اللحظات المساوية بعض الوجوه الشهيرة : (البرتو مورافيا) وزوجته : (ايلسا مورانتي) روائية مثله ، الرسام المشهور (ريناتو غوثوسسو) . شعراء آخريين ، رسامين آخريين . . كان المؤلف المعروف (كارلو ليفسي) مؤلف « المسيح توقف فسي ايولي» يناولني باقة من الزهور ، لكن الزهور كانت تنساقط متبعثرة على الارض ، كانت تطير قبعات ومظلات ، كانت ترن صفعات ولكمات ولكزات كأنها الانفجارات . كان رجال الشرطة ينالون من هذا كله النصيب الاكبر والقسم الاسوأ وشن اصدقائي حملة معاكسة واستردوني . اثناء المناوشة والاشتباك استطعت ان ارى وجه الحلوة (ايلسا مورانتي) وهي تضرب بقبعنها الحريرية على رأس احد رجال الشرطة . ثم اخذت تمر العربات التي تأخذ وتجلب الحقائق في محطة القطار واذا بواحد من هؤلاء الحماليين ذوي المرسات الغلبطة Facchino يهوي بهراوته ضربا على ظهور القوة البوليسية . لقد كان هذا تعبيرا عن نضامن الشعب الرومي (٢٢) معي . لقد احتدم النزاع وصارت المعركة عويصة شائكة الى درجة ان رجال الشرطة قالوا لي على حدة :

— تكلم مع اصدقائك . قل لهم بأن يهدأوا

كانت جمهرة الناس تهتف :

— نيرودا يبقى في روما . نيرودا لن يغادر ايطاليا . فليبق الشاعر ،
فليبق التشيلي ، فليرحل النمساوي . («النمساوي» هو (دي غاسبري)
رئيس وزراء ايطاليا) .

بعد نصف ساعة من الحرب السجال والهجومات المضادة وصل امر
سام من السلطات العليا بالسماح لي في البقاء بايطاليا، فعانقني اصدقائي
وقبلوني فابتعدت عن تلك المحطة وأنا ادوس في اسى تلك الزهور المتناثرة
ضحيا المعركة .

لقد اصبحت اصبوحة اليوم التالي في دار احد النواب ، المتمتع
بالحصانة البرلمانية ، حيث اخذني اليه الرسام (ريناتو غوتوسو) الذي لم
يثق بالكلمة الحكومية . هناك وصلتني برقية من جزيرة «كابري» بعثها
المؤرخ الشهير العظيم (ايروين ثيريسو) (الذي لم اكن اعرفه
شخصيا . كان يعبر في هذه البرقية عن انه شعر بالاهانة ازاء هذا العمل
الشائن والاستخفاف بالتقاليد الايطالية وثقافة ايطاليا وانتهى قائلا بأنه يقدم
لي «فيلا» بكابري نفسها كي اقضي فيها ما شئت من الوقت لعله بذلك يزيل
شيئا مما لحقني من حيف في بلده .

لقد كان كل شيء يبدو وكأنه حلم من الاحلام . وحين وصلت الى
كابري في صحبة (ماتيلده اورونيا) صار الاحساس اللاواقعي بالاحلام
اكبر واعظم .

وصلنا ليلا وفي فصل الشتاء الى هذه الجزيرة البديعة . في الظل
كان الشاطئ يمتد ابيض عاليا ، غريبا صامتا ، ماذا سيجري ؟ ماذا
سيجري لنا ؟ كانت تنتظرنا هناك عربة خيل . صعدت العربة وصعدت
عبر الشوارع الليلية الخلاء ، بيوت بيضاء خرساء ، ازقة ضيقة شاقولية .
اخيرا توقف الحوذي ، انزل حقائبنا ووضعها في تلك «الفيلا» ، كذلك
بيضاء وعلى ما يبدو خاوية فارغة

حين ولجنا الدار رأينا النيران وهي تتوهج فى المدفأة الكبيرة . على ضوء الشمعدانات المضاءة رأينا هناك رجلا طويلا ابيض الشعر واللحية والبدلة . كان هذا هو السيد (ايروين نيريو) صاحب نصف جزيرة كابري، وهو مؤرخ وعالم فى التاريخ الطبيعى . كان وسط اللهب شامخا كأنه طيف (تايتا) إله الحكايا الطفولية .

كان له ما يقرب من تسعين سنة من العمر وكان اكثر الرجال شهرة في الجزيرة .

— ان هذه الدار دارك وتستطيع ان تكون هنا مطمئنا مرتاحا .

غاب عدة ايام لم يكن يزورنا ذوقا وأدبا وكياسة ، بل كان يرسل لنا رسائل صغيرة مختزلة جدا فيها نصائح وزهره او ورقة من حديقة داره . لقد مثل لنا (ايروين نيريو) قلب ايطاليا الفسيح العميق الكريم النبيل .

من بعد تعرفت على مؤلفاته ، على كتبه التي هي اكثر صحة من كتب (اليكس مونشي) (٢٣) ولسوا انها اقل شهرة . كان العجوز النبيل (نيريو) يعيد في مزاح ودعابة :

— ان عمل الإله النموذجي هو ساحة جزيرة «كابري» .

لقد كنا : انا و(ماتيلده) ، نطوي على حينا . كنا نقوم بجولات عبر «انكاكبري» للجزيرة الصغيرة المجزأة الى الف بستان وبستان ، بريق طبيعى كتب عنه الكثير وفعلا هو بريق طاغ غريب . بين الصخور ، حيث تسوط الشمس والرياح ، عبر الارض الجافة ، تنفجر نباتات وتنبثق زهور صغيرة، تنمو متناسقة في اطار تأليف موسيقي حداثي . ان لجزيرة «كابري» العميقة هذه التي يطوف بها المرء بعد حج طويل وبعد ان تسقط عن ملابسه اشارة سائح ، جزيرة «كابري» الشهيرة بصخورها ودواليها الصغيرة وبأناسها المتواضعين الاصليين العاملين ، لسحرا أخاذا . ها هو المرء ينصهر

٢٣ — اليكس مونشي : كاتب وطبيب سويدي (١٨٥٧ - ١٩٤٩) .

في ذات واحدة والاشياء والناس . ها هو المرء بعرفه الحوذيون والصيادون .
ها هو المرء يشكل جزءا من «كابري» الخفية الفقيرة . ها هو المرء يعرف ابن
النبيذ الجيد الرخيص وأين يشتري الزيتون التي يأكل مثلها اهالسي
« كابري » .

انه لمحتمل أن خلف أسوار القصور المليئة بالندماء تدور الشرور
والكأس والطاس والخلاعة والقمار ، الاشياء الروائية التي تقرا في الكتب ،
لكنني شاركت في حياة سعيدة في عزلة كاملة او بين أكثر الناس بساطة
في العالم . انه لزم من لا ينسى . كنت أنظم في كل صباح وفي المساء كانت
(ماتيلده) تنسخ على الآلة الكاتبة ما اكتبه من قصائد . لأول مرة كنا نحيا معا
في دار واحدة . لقد نما حبنا وزاد في ذلك المكان ذي الجمال المدهش
المسكر . لم نعد نستطيع ان نفترق ابدا .

هناك انهيت كتاب حب . كتاب مغمم بالعاطفة والالم ، طبع فيما بعد
بنابولي في شكل مغفل التوقيع : «أشعار القبطان» .

والآن سأروي لكم حكاية هذا الكتاب . هو من بين كتبي أكثرها بعثا
للمجادلة والمناقشة فيه وحوله . لقد بقي زمنا طويلا سرا لا تسبر له أبوة
ولا نسب ، ظل زمنا طويلا وهو لا يحمل اسمي على غلافه كما لو اني كنت
اتبرا منه او ان الكتاب نفسه ما كان ليعرف من هو أبوه الذي خلفه . كما
ان هناك أبناء غير شرعيين طبيعيين ، أبناء الحب الطبيعي ، كذلك كان كتابي
هذا ابنا طبيعيا لا شرعيا .

ان القصائد التي يتضمنها هذا الكتاب نظمت هنا او هناك ، على مدى
منفاي في أوروبا . ثم نشرت بشكل مغفل في نابولي عام ١٩٥٢ . ان حبي
ل (ماتيلده) ، حنيني الى تشيلي ، عواظي ومشاعري تملأ صفحات هذا
الكتاب الذي حافظ على نفسه دون اسم صاحبه في طبقات كثيرة .

لطبعته الاولى ، حصل الرسام (باولو ريكتي) على ورق جدير بالاعجاب
وعلى نماذج حروف قديمة للطباعة وعلى نقوش اخذها عن كؤوس من
«بومباي» . لقد أعد (باولو) كذلك في حماسة اخوية قائمة المشتركين ،
ولم يطل الوقت حتى ظهر المجلد الاول الجميل ولم يطبع منه حينذاك أكثر

من خمسين نسخة . فاحتفلنا لهذه المناسبة احتفالا استغرق كثيرا من الوقت ، اعددنا مائدة مزهرة عليها Frutti di mare واحسنينا نبينا شفافا كالماء ، الابن الوحيد لدوالي «كابري» . يصحبنا فرح الاصدقاء الذين احبوا حبنا .

لقد عزا بعض النقاد المرتابين الى اسباب سياسية ظهور هذا الكتاب بلا توقيع . «الحزب قد عارض ، الحزب لم يقر قصائد هذا الكتاب» قالوا ان حزبي لا يعارض ابدا اي تعبير عن الجمال .

الحقيقة الوحيدة هي انني ما شئت ، خلال زمن طويل ، ان تجرح هذه القصائد شعور (ديليا ديل كاريل) زوجتي التي كنت انفصل عنها . لقد كانت (ديليا) ، وهي عابرة ناعمة جدا في حياتي ، خيطا من فولاذ وحرير ربط يدي خلال الاعوام الرنانة المصاحبة ، وخلال ثمانية عشر سنة كانت لي الرفيقة المثالية . كان هذا الكتاب ذو الهوى الجارف المناجح سيهوي كما الحجر المقلدوف على بنائها الطري الهش . لقد كانت هذه وليست أخرى هي الاسباب العميقة ، الشخصية ، المحترمة لاغفالي ذكر اسمي على الكتاب الغفل .

ثم شب الكتاب ولو انه بلا اسم ولقب وغدا رجلا ، رجلا طبيعيا وقيما . لقد شق له دربا في الحياة فكان عليّ في نهاية الامر أن اعترف به ابنا . ها هو الآن يمضي عبر الطرقات ، اي ، عبر المكاتب والمكتبات ، ها هو ديوان «اشعار القبطان» يحيا موقعا عليه بتوقيع القبطان الحقيقي .

نهاية المنفى

لقد اقترب منفاي من نهايته عام ١٩٥٢ . وصلنا عبر سويسرا الى «كان» Cannes كي نركب باخرة ايطالية نقلنا الى « مونتبيديو » هذه المرة ما كنا نريد ان نرى احدا في فرنسا . ما اخبرت بمرورنا الا (أليس غاسكسار) ، مترجمتي وصديقتي لزمان طويل . غير انه كانت تنتظرنا في «كان» حوادث غير متوقعة .

لقد التقيت في الشارع ، قرب شركة السفريات البحرية ، ب (بول الوار) وبزوجته (دومينيك) ، كانا قد علما بوصولي فانتظراني عند باب الشركة كي يدعواني للغداء الذي سيحضره (بيكاسو) . من بعد التقينا بالرسام النتيلي (ييميسيو انتونيث) وزوجته (اينيس فيفيروا) اللذين دُعيا كذلك .

كانت هذه هي المرة الاخيرة التي رأت فيها (بول الوار) . اني لاذكره وهو تحت اشعة شمس «كان» ببذلته الزرقاء التي تبدو وكأنها بيجاما . لن انسى ابدا وجهه الملوح المتورد ، عينيه الزرقاوين ، ابتسامته الفتية دائما تحت الضوء الافريقي في شوارع «كان» المتألثة . لقد جاء (الوار) من « سينت - ترويث » كسي يودعني ، احضر (بيكاسو) واعد الغداء . كانت الحفلة مسلحة .

حادث غبي غير متوقع خرب لي اليوم كله . لم يكن في جواز سفر (ماتيلده) تأشيرة دخول الى الاورغواي . فكان لا بد من اللجوء الى قنصلية هذا البلد . اصطحبتها في سيارة تكسي وانتظرت عند باب القنصلية . ابتسمت (ماتيلده) متفائلة حين خرج القنصل لاستقبالها . كان يبدو انه شاب طيب . كان يدندن بأنغام Madame Butterfly ويرتدي ما هو ليس بقنصلي : قميصا داخليا وسروالا قصيرا Short هي ما كانت لتصور انه خلال مجرى الحديث سيتحول هذا النموذج El Tipo الى مزعج رخيص تافه حقير . لقد اراد بمظهره مظهر Pinkerton ان يقبض اجرة ساعات اضافية فوضع امامها انواع العراقيل كلها . فاحتفظ بنا في سباق (٢٤) طيلة الصباح كله . كان طعم Bouillabaise خلال الغداء مثل طعم المرارة في فمي . عدة ساعات كلف (ماتيلده) الحصول على التأشيرة . كان Pinkerton هذا يضع لها في كل لحظة قيودا وعراقيل : أن تتصور ، أن تغير الدولارات فهو لا يقبض الا فرنكات ، أن تدفع تكاليف المكالمات الهاتفية مع مدينة «بوردو» . ارتفعت التعريفة (٢٥) الى اكثر من مائة وعشرين دولارا ثمن تأشيرة عبور كان من المفروض ان تمنح

٢٤ - في سباق : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، الحبل على الغارب .

٢٥ - التعريفة : هكذا في الاصل la Tarifa . عن العربية

مجانا . لقد بلغ بي التفكير الى اني كنت أخشى ان تفقد (ماتيلده) الباخرة
وفي هذه الحالة انا كذلك لن اركب الباخرة . لزم من طويل اعتبرت ذلك
اليوم اكثر الايام مرارة في حياتي .

علم وصف المحيطات المختلفة

اني لعاشق البحر . منذ سنين عديدة وانا اجمع معارف لا تفيدني
كثيرا لاني ابحر فوق الارض .

هائلا اعود الى تشيلي ، الى بلدي المحيطي وتقرب سفينتي من
سواحل افريقيا . لقد عبرت اعمدة «هرقل» القديمة (٢٦) ، اليوم هي مدرعة
هذه الاعمدة ، في خدمة الامبريالية قبل الاخيرة .

انظر الى البحر نظرة مجردة عن المنفعة ، نظرة عالم المحيطات النقي
الظاهر الذي يعرف السطح والعمق ، بلا لذة ادبية ، بل بتذوق المكتشف ،
بمذاق العالم الدارس .

لقد أعجبتني دوما القصص البحرية وعندي شبكة منها في رفوف
داري . اكثر كتاب اعود اليه للمراجعة هو كتاب لـ (وليم بيب) (٢٧) او
بحث يصف الحلازين البحرية في بحر الشمال .

ان ما يهمني هي مجموعة الاحياء البحرية ، هذا الماء الغذائي الهبائي
الكهربائي الذي يصبغ البحار بلون برق بنفسجي . هكذا توصلت الى معرفة
ان الحيتان تتغذى من هذا النماء البحري المتكاثر الذي لا حصر له . ان
نباتات صغيرة جدا ونقاعيات وهمية تعمر قارتنا الراعشة الراجفة . الحيتان
تفتح أشداقها الهائلة فيما تنزاح وتترجح ، رافعة السنتها حتى الحلق

٢٦ - اعمدة هرقل القديمة : هي اعمدة قرب مضيق جبل طارق الذي يحتله الامبرياليون
البريطانيون .

٢٧ - وليم بيب : هو عالم الطبيعة ، الامريكي الشمالي (١٨٧٧ - ١٩٦٢) .

الاعلى كي تملأها هذه المياه الحية ذات الاحشاء وتغذيها . هكذا يفتلي الحوت الاخضر الزاهر Bahiametas Clauca الذي يمشي باتجاه جنوب المحيط الهادي نحو الجزر الساخنة الدافئة ، قبالة نوافذ داري في «ايسلانيغرا» .

من هناك يعبر كذلك الدرب سمك «البريس» المهاجر ، او الحوت ذو الاسنان ، وهو اكثر الحيتان المطاردة «تشيلية» . لقد زخرف البحارة التشيليون عالم البحر الفولكلوري بهذا النوع من الحيتان . فقد نقشوا بالسكين في أسنانها قلوبا وسهاما ، انصاب حب صغيرة ، صورا طفولية لزواجهم الشراعية ولخطباتهم . لكن حوتنا الاخضر الزاهر الذي يمشي ، باتجاه الجنوب ، يعبر المضيق ورأس «اورنوس» El Cabo de Hornos وبحر الشمال واوبشته ، ليس في بساطة كي يفرك حنك سمك «البريس» المهدد بل لكي يسلب منه كنزه الشحمي واكثر من هذا كي يخطف منه كيسه العنبري (٢٨) الرمادي الذي يخبئه هذا الحيوان الضخم في جبله الجوفي وما من حيوان غيره له مثل هذا الكيس الفني .

هاندا آتي الآن من جهة أخرى . لقد خلفت ورائي آخر معبد ازرق في البحر الابيض المتوسط ، كهوف جزيرة «كابري» وضواحيها البحرية وتحت البحرية حيث كانت عرائس البحر يخرجن كي يسرحن شعرهن الازرق فوق الصخور ، لان حركة البحر كانت قد صبغت وضمخت صفائر شعرهن المجنونة .

لقد استطعت ان اشاهد في مماعة «نابولي» الذرات الكهربائية للاجهزة العضوية الربيعية ، صعود وهبوط السعلاة المصنوعة من دخان وفضة ، تهتز تتماوج في رقصها العذب الجليل ، مكتنفة من الداخل بالحزام الكهربائي الوحيد الذي ما وضعته حتى الآن اية سيدة من سيدات الاعماق البحرية الاّها .

منذ سنين كثيرة ، في «ماداس» بالهند المتجهمه لشبابي ، زرت ممهه رائعه . ما زلت حتى الآن اذكر تلك الاسماك الصقيلة البراقة ، الاسماك البنية السامه ، مجموعات الاسماك المرتدية حرائق واقواس قزح ، واكثر من هذا وذاك ، الاخطبوطات الجدية الرزينة جدا ، المعدنية كأنها آلات حاسبه ، بعيون لا حصر لها ، باطراف وارجل لا عد لها ، برياح شديدة ، بمعارف كثيرة .

من ذاك الاخطبوط الكبير الذي عرفناه جميعا لأول مرة في كتاب «عمال البحر» لـ (فيكتور هوغو) (٢٩) ان (فيكتور هوغو) هو كذلك اخطبوط الشعر الضخم المتعدد النفقات) ، من ذاك النوع ما استطعت ان ارى غير قطعة ذراع في متحف التاريخ الطبيعي بـ «كوبنهاغن» . هذا ، اجل ، كان «كراكين» القديم ، رعب البحار القديمة ، كان يمسك بشراع فيطويه طيا ويمزقه اربا يرفعه فوقه ، يخترقه ويشربه . قطعة الذراع التي رايتها انا محفوظة بالكحول في المتحف كانت تشير الى ان طول ذاك الاخطبوط كان يتعدى ثلاثين مترا .

لكن الحيوان الذي كنت ابحث عنه في اصرار واستمرار هو اثر كركدن البحر او بالاحرى جسده . نظرا لان اصدقائي كانوا لا يعرفون هذا الكركدن البحري وحيد القرن الهائل في بحار الشمال ، صرت اشعر اني مخزن وحيد للكركدن ، اني انا نفسي كركدن بحري .

هل يوجد الكركدن ؟

هل من الممكن ان حيوانا بحريا مسالما يحمل في جبينه حربة من العاج بطول اربعة او خمسة امتار مخددة مثلومة على مدى طولها ، على نمط حربة النبي سليمان ، منتهية بثقب ، يمر دون ان ينتبه اليه ملايين البشر ، ولا ان يعرفوا حتى اسطورته ولا حتى اسمه الرائع ؟

عن اسمه استطيع القول — Narval او Narwhal (٣٠) انه ابداع

٢٩ — فيكتور هوغو Victor Hugo : الكاتب الفرنسي المعروف (١٨٠٢ - ١٨٨٥) .

٣٠ — كلمتان من اصل سويدي .

اسم من اسماء حيوانات أعماق البحار ، اسم كأس بحرية تتغنى ، اسم صيصة زجاجية .

لماذا اذن لا احد يعرف اسمه ؟

لماذا ليس هناك آل «نارفال» ، دار جميلة باسم «نارفال» وأكثر من هذا ، لماذا ما من احد يدعى «نارفال رامريث» او «نارفالا كارفاخال» ؟

ليس ثمة من هذا شيء . ان وحيد القرن البحري يظل في سره ، في تياراته ذات الظلال عابرة البحار ، في سيفه العاجي الطويل الغارق في لجة المحيط المجهول .

لقد كان صيد وحيد القرن في العصر الوسيط رياضة صوفيسة وجمالية . لقد بقي وحيد القرن الارضي الى الابد باهرا ساحرا ، فسي السجاجيد ، تحيط به السيدات المرميات الرخاميات ذوات الابهة والشعر المسترسل وتكلمه في جلالته الطيور المزغردة الصداحة كلها .

اما بالنسبة لوحيد القرن البحري فان السلاطين في العصور الوسيطة كانوا يتهادون قطعة من جسمه الرائع البديع ، من هذه القطعة كانوا يكشطون غبارا وفتاتا يحلون بها في سوائل خاصة يشربونها فتمنحهم حلم الانسان الخالد الا وهو الصحة والشباب والقوة .

بينما كنت شاردا ذات مرة في الدانيمارك ، دخلت الى حانوت قديم يبيع تحف التاريخ الطبيعي ، هذه السلع المجهولة في قارتنا الامريكية والتي هي بالنسبة لي نحتوي على سحر الارض كله . هناك اكتشفت وهي مهمة في زوايا الحانوت ، ثلاثة او اربعة قرون من الكركدن البحري ، اكبر هذه القرون كان يقيس تقريبا خمسة أمتار . فتناولتها وبقيت المسهسا واداعبها خلال فترة من الوقت .

كان صاحب الحانوت المعجوز يراني وأنا اشهر هذه الحربة العاجية واقوم بطعنات وهمية ، ضد طواحين البحر غير المرئية . من بعد كنت اتركها ، كل واحد أضعه في زاويته . ما استطعت ان اشترى الا قرنا صغسيرا

لكركدن حديث الولادة من هذه التي تخرج احيانا لتسبر سطح المياه
الشمالية الجليدية بمقدمة فرنها البريء .

. وضعت في حقيبتني ، لكن في نزل صغير بسويسرا ، امام بحيرة
«ليمان» احتجت ان ارى ذلك الكنز السحري لوحيد القرن البحري وان
المسه فأخرجته من حقيبتني .

الآن لا أجده .

هل تركته في نزل «فيسيناث» او انه تدحرج في آخر لحظة تحت
السرير ؟ ام انه عاد في شكل سحري لبلي الى الدائرة القطبية ؟

هاندا انظر الى الامواج الصغيرة ليوم جديد في المحيط الاطلسي .

تدع الباخرة على كل ضلع من قيدومها مزقا بيضاء ، زرقاء ، كبريتية
من مياه ، من ازباد ، من مهاو مهتزة .

انها ابواب المحيط ترتجف ، تضطرب .

من فوق القيدوم تطير الاسماك الصغيرة الصاروخية الفضية الشفافة.

هاندا اعود من منفاي .

انظر الى المياه مستغرقا متاملا . ابحر فوقها نحو مياه اخرى : امواج
وطنى المعوصفة .

سماء يوم طويل تغطي المحيط كله .

سيحل الليل عما قريب ومع ظله ساخبيء مرة اخرى قصر اللغز
الاخضر الكبير .

الفصل العاشر

إبحار مع إياب

خروف في داري

لقد جاء قريب لي كان نائبا في البرلمان ليقضي بضعة ايام في داري بـ «ايسلا نيجرا» بعد ان فاز في انتخابات برلمانية جديدة . هكذا تبدأ حكاية الخروف .

فما ان درى بذلك اكر منتخبيه حماسة حتى خفوا للاحتفال به وتكريمه . في امسية اول يوم من ايام هذه الاحتفالات اتوا بخروف وشووه على طريقة ارياف تشيلي ، بصلاء في الهواء الطلق وسفود يسلك في جوف هذا الحيوان من اوله الى آخره ، ولهذا فان هذه الطريقة من الشئ تدعى «الشئ» على السفود» ، ويشربون عادة فيما هم يسلخون منه فيأكلون كثيرا من النبيد ويعزفون على القيثارة النواحة الصداحة .

وكان لديهم خروف آخر ينتظر مصير أخيه ، ابقوه الى امسية اليوم التالي ، فقيده قرب نافذتي . طيلة الليل كان يئن ويبكي ، يشغو ويشكو من وحدته . كان يمزق قلبي سماع صيحاته واثاته فقررت ان انهض وان أخطفه واسرقه .

وضعته في سيارة وأخذته معي الى داري في «سانتياغو» التي تبعد عن «ايسلانيفرا» مائة وخمسين كيلومترا ، فهناك لن تطاله السكاكين . ما أن اطلقت سراحه حتى راح يقضم في نهم شديد أفضل أعشاب حديقة داري . استهوته زهور الخزامى فحصدتها ولم يبق منها شيئا حيا . لم يجرؤ على تذوق الورود لاسباب شوكية لكنه انقض على زهور الخيري (١) والزنايق فالتهمها في لذة غريبة . لم يكن بد من ان اربطه مرة اخرى واقيده ، فجعل يشغو محاولا ان يؤثر بي ويشير شجوني كيما أرق له كما فعلت من قبل فبقيت حائرا لا أدري ما أفعل .

الآن سوف ترتبط قصة (خوانيتو) بحكاية الخروف . حصل انه في ذلك الوقت قام الفلاحون في جنوب تشيلي باضراب عنيف استطاع الاقطاعيون الذين ما كانوا يدفعون اكثر من عشرين «سنتيما» في اليوم لكل فلاح يعمل عندهم ، ان ينهوه بواسطة القمع والضرب والحبس والاضطهاد.

شعر شاب فلاح شارك في الاضراب بخوف شديد جعله يقفز الى قطار كان يسير مسرعا . هذا الفتى الشاب يدعى (خوانيتو) ، وكان كاثوليكيًا مؤمنا وما كان يعرف عن امور العالم شيئا . حين مر جابي القطار ليفتش تذاكر السفر ووصل اليه اجابه الفتى بأنه ليس لديه اية تذكرة وانه متجه الى العاصمة وانه كان يظن ان القطارات هي كي يركب فيها من شاء السفر من الناس ، مجانا . حاول الجابي انزال الفتى من القطار لكن المسافرين بالدرجة الثالثة - اناس من الشعب ، كرماء دائما - قاموا فيما بينهم بحملة جمع للنقود ودفعوا ثمن تذكرة الفتى .

١ - الخيري : هكذا في الاصل Aleli وتكتب كذلك Alheli ، وهذه الكلمة يستعملها (فيدريكو غارثيا لوركا) كثيرا ، وقد أعددنا كتابا عن الموضوع العربي والكلمات العربية عند (لوركا) .

مشى (خوانيتو) عبر شوارع العاصمة وساحانها وتحت ابطه حزمة من الملابس اتى بها من قريته . بما انه لم يكن يعرف احدا من سكان العاصمة، فهو لم يشأ ان يكلم من الناس احدا . فقد كان يسمع وهو في قريته ان سكان العاصمة هم لصوص في اكثريتهم فكان يخشى ان ينزعوا عنه قميصه وان يخطفوا منه نعليه المصنوعين من القنب والذين كان يحملهما تحت ابطه وقد لفهما بجريدة عثر عليها في ناصية احد الشوارع . كان الفتى يشرد خلال النهار في الشوارع الاليفة المكتظة بالناس الذين هم على عجل، يسيرون دوما يتعرقلون به او يدفعونه فلا يدري أين يسير ، ويستغربون لهذا Caspar Hauser (٢) الذي هوى من كوكب آخر . اما في الليل فانه كان يبحث ايضا عن اكثر الاحياء احياء ، شوارع المحانات والكهوف الليلية ، فكان حضوره هناك يبعث على الاستغراب والاستهجان . فمن هو هذا الراعي الشاحب الوجه التائه بين السكاري والاثمين . لم يكن له سنتيم واحد يشتري به ما يسد رمقه ، صبر وكابد الى ان هوى ذات يوم فاقد الوعي من جوع ومن حسرة .

احاط بالفتى الملقى على رصيف الشارع حشد كبير من محبي الاستطلاع ثم حملوه وادخلوه الى مطعم صغير قريب من هناك وتركوه كما كان مطروحا ملقيا . «انه القلب» قال بعضهم ، «بل هو اغماء كبلي» قال آخر ، اقترب صاحب المطعم منه ونظر اليه فقال : «انه الجوع» . ما ان اكل بضعة لقمات حتى استعادت تلك الجثة انفاسها واستردت الحياة . استخدمه صاحب المطعم عنده في غسل الصحون والاواني وكان يودّه ويحبه . وكان لهذا الود اسباب اذ ان الفتى كان يبتسم دائما وهو يغسل جبالا من الاطباق والملاعق . كان يشعر ان الامور تجري على ما يرام فهو الآن يأكل اكثر مما كان وهو في قريته .

لقد شاءت الصدفة ان يجتمع في داري الراعي والخروف معا .

طاب للراعي ذات يوم ان يتعرف على المدينة فقادته خطاه الى ما هو

٢ - غاسبر هاوسير : هو امير «بادن» Baden الذي سجن منذ ان ولد حتى عام

١٨٢٨ (١٨١٢ - ١٨٣٣) .

ابعد من جبال الصحون والاوراني تلك فاجتاز في لهفة شارعا ثم عبر فسي شوق ساحة فشارعا فساحة وكان كل ما يراه يفننه ويخلب لبه ، وحين اراد العودة الى مطعمه لم يعد يعرف من اين يتجه ، لم يكن قد سجل عنوانه لانه لا يعرف الكتابة فبحث عبثا عن ذلك الباب الذي حضنه واكرمه وأطعمه فما استطاع ان يجد اليه سبيلا .

قال له احد المارة وقد رق لحاله وحزن لحيرته ان عليه ان يتوجه الى الشاعر (بابلو نيرودا) . لست ادري لماذا اوحى اليه بهذه الفكرة . قد يكون لأن الناس في تشيلي عندهم ميل غريب بأن يكلفوني بكل ما يخطر على بالهم من افكار وكذلك ان يحملوني مسؤولية كل ما يقع من مصائب . انها لعادة قومية عجيبة .

وصل ذات يوم الفتى والحيوان الاسير في داري . لم يكن صعبا عليّ ان اقوم بخطوة اخرى فانكفل بهذا الراعي بعد ان تحملت مسقة التكفّل بالخروف غير الضروري . كلفت الفتى بعمل الا وهو الاعتناء بالحيوان المجترّ كي لا يقضم ازهاره كلها، بل ان يرعى من حين الى حين لينسبع نهمه كلاً الحديقة ويدع لي فيها شيئا من الزهور والورود .

لقد تفاهم الراعي والخروف تفاهماً كاملاً، فوضع الفتى لخروفه منذ اليوم الاول للامان والضمان حبيلاً في عنقه كان يقوده به من مكان الى آخر . كان الخروف يأكل بلا هوادة والراعي لا يقصر هو الآخر في هذا الشأن ، وكلاهما يسرح عبر الدار كلها حتى في غرف النوم . لقد كان بينهما تكامل تام توصلنا اليه بواسطة رحم الأم الارض وحبل سرتها الذي يؤاخيها وهو ما يخول الانسان ان يكون له سلطة اصيلة حقيقية على الحيوان . هكذا انقضت شهور كثيرة . كلاهما اثري كنوزه اللحمية ، بخاصة ، المجترّ الذي لم يكن ليفدر ان يرعى كثيرا ، متنقلا من مكان الى آخر ، بسبب ما كان له من الإلية وما اصبح له من السمنة . كان يلج احيانا في رصانة الى غرفتي، ينظر اليّ في غير اكتراث ثم يخرج بعد ان يترك لي على الارض مسبحة صغيرة من خرز داكن اللون غامق .

انتهى كل شيء حين شعر الفتى الفلاح بحنين الى قريته فقال لي انه سيعود الى اراضيه النائية . كان قراره هذا قد اتخذه في آخر لحظة لان

عليه ان يفي بندر الى مريم العذراء بقريته . ما كان يستطيع ان ياخذ اخاه الخروف معه فتودعا في حنان . ركب الفتى الراعي القطار ، ولكن هذه المرة بتذكرة كان يحملها في يده متباهيا . لقد كان ذاك انرحيل متسيرا للتسجون وللدموع .

لم يدع في حديفتي خروفا بل مشكلة خطيرة او بالاحرى سميئة . ما العمل مع هذا المجرأ من سيعتني به الآن ؟ . لقد كانت لي متاعل سياسية كثيرة . كانت داري مخرلة اثر الملاحقات التي جلبها لي شعري المكافح . اخذ الخروف من جديد يشغو ويرسل اناته الشاكية الاليمة .

اغمضت عيني وقلب لاختي ان تأخذه . آه واواه هذه المرة كنت متاكدا من انه لن ينجو من السفود .

من آب عام ١٩٥٢ الى نيسان عام ١٩٥٧

ان الاعوام التي انقضت بين آب عام ١٩٥٢ ونيسان عام ١٩٥٧ لن نرسم بشكل مفصل في مذكراتي لاني قضيت معظم هذا الوقت في تشيلي، ولم تقع لي اشياء غريبة ولم اقم بمغامرات يمكن لها ، ان رويتها ، ان تسلي قرائي . غير اني اجد انه من الضروري سرد بعض الاحداث الهامة التي جرت في هذه الفترة المذكورة . لقد نشرت كتابي «الاعناب والريح» . اشتغلت في همة واصرار على تهئية «اناشيد بدائية» و«اناشيد بدائية جديدة» و«كتاب الاناشيد الثالث» . نظمت مؤمرا قاريا للثقافة انعقد في «سانتياغو» وحضره ادباء وكتاب مشهورون جاءوا من امريكا كلها . احتفلت كذلك في «سانتياغو» بعيد ميلادي الخمسين بحضور كتاب مهمين قدموا من العالم جميعه : من الصين جاء (اي شينغ) و (اي ميسي سياو) ، من الاتحاد السوفييتي طار قادما اليه (ايليا ابهرينبورغ) ، ومن تشيكوسلوفاكيا (دريدا) و (كوتفاليك) ، من بين الامريكيين اللاتينيين جاء (ميغيل انخيل استورباس) و (اوليبيرو خيروندو) و(نوراه لانجه) و(البو روميرو) و(ماريا روسا اولييسر) و(راوول لارا) . وآخرون كثيرون . اهديت الى مكتبة تشيلي مكتبتي الخاصة ومنافع اخرى . قمت برحلة الى الاتحاد السوفييتي لاشارك بصفتي عضوا فسي

اللجنة المحلفة التي تمنح جائزة لينين للسلام ، التي انا نفسي كنت قد حصلت عليها في هذه الفترة حين كانت لما تزل تسمى جائزة ستالين . انفصلت نهائيا عن زوجتي (ديليا ديل كاريل) . بنيت دارا سميتها «لا تشاسكونا» انتقلت اليها كي أعيش و(ماتيلده اوروتيا) فيها . أسست مجلة «صحيفة تشيلي» وأخرجت منها بضعة أعداد . ساهمت في الحملات الانتخابية وفي نشاطات أخرى قام بها الحزب الشيوعي بتشيلي . نشرت دار النشر «لوسادا» ، في بونوس ايريس ، اعمالي الكاملة في ورق كورق الكتاب المقدس .

سجين في «بونوس ايريس»

بعد انتهاء هذه الفترة من الزمن دعيت لحضور مؤتمر السلام الذي كان سيعقد في «كولومبو» بجزيرة سيلان ، التي عشت فيها منذ زمن بعيد . كان ذلك في نيسان ١٩٥٧ .

ليس الالتقاء بالشرطة السرية امرا خطيرا ، لكن اذا كانت هذه الشرطة هي البوليس الارجنتيني السري فان اللقاء يأخذ طابعا آخر ، طابعا لا يخلو من الدعابة ولكنه ذو نتائج مباغتة غير متوقعة . بعد ان وصلت من تشيلي الى الارجنتين وفي نيتي مواصلة السفر الى الاقطار النائية القصية ، ذهبت الى السرير وأنا مرهق جدا وما ان اخذ النوم يسري في أعصابي التعب حتى اقتحم رجال الشرطة الدار حيث كنت انام وأخذوا يفتشونها تفتيشا دقيقا بطيئا ، نزعوا الكتب والمجلات ، خلعوا خزائن الملابس ، حشروا انفسهم في الملابس الداخلية . كانوا قد اخذوا الصديق الارجنتيني الذي اضافني في بيته ، عندما اكتشفوني في الغرفة التي كنت انام فيها وهي غرفة خافية في عمق الدار .

— من هذا السيد ؟ سألوا .

— اسمي (بابلو نيرودا) — أجبت .

— أهو مريض ؟ — استقصوا زوجتي .

— أجل ، انه لمريض وتعب جدا من السفر ، لقد وصلنا صبيحة هذا اليوم وسنأخذ غدا طائرة تقلنا الى اوروبا .

— حسنا جدا ، حسنا جدا — قالوا ثم خرجوا من الغرفة .

بعد ساعة من الزمن عادوا من جديد ومعهم سيارة اسعاف . احتجت (ماتيلده) لكن هذا لم يغير شيئا من الامور . فقد كانت لديهم تعليمات مشددة بان يأخذوا جسدي ، تعباً او طازجاً ، سليماً او مريضاً ، حياً او ميتاً .

كانت السماء تمطر تلك الليلة ، قطرات سميكة عنيفة كانت تتلقت من سماء «بونوس ايريس» المثقلة بالفيوم الكثيفة . كنت اشعر اني في بلبه وتشويش وفي هذيان وتخدير . كان الجنرال بيرون قد سقط من الحكم والجنرال (ارامبورو) (٢) باسم الديموقراطية أطاح بالاستبداد والطفيان . غير اني غدوت سجيناً دون ان ادري كيف ولم ومتى والى اين ، دون ان اعرف اذا كان السبب لهذا او لذلك او لذلك ، الغير سبب ام للأسباب جميعها ، وأنا مريض هالك او شبه هالك . لقد أصبح سريـر سيارة الاسعاف الذي انزلوني به وأنا محاط بأربعة من رجال الشرطة متسلـة عويصة اثناء نزول الدرج ، صعود الدرج ، العبور بين الممرات ، الصعود بالمصاعد ، الهبوط بالمهابط . كان رجال النقالة يتزحلقون ويعانون كثيراً ولكي تزيد (ماتيلده) من معاناتهم فانها قالت لهم بأني ازن مائة كيلوغرام . وفي الحقيقة كنت ازن هذا الوزن بالمعطف والبطانيات التي كانت تغطيني من اخصص قدمي حتى رأسي . لقد كنت التمع مثل جرم ، مثل بركـان «اوسورنو» . فوق تلك المحفة التي خصتني بها الديموقراطية الارجنتينية . كنت أفكر ، وهذا كان يخفف عني اوجاع التهاب الوريد ، ان من كان يحمل النقالة ليس هم اولئك الفقراء المساكين الذين كانوا يجهدون ويتصببـون عرقاً تحت ثقل ووزني ، بل هو الجنرال (ارامبورو) بذاته .

فاستقبلت من لدن الروتين العجسي والتصنيف السجني والتفتيش

٣ - ارامبورو Pedro Eugenio : عسكري وسياسي ارجنتيني (١٩٠٥ - ١٩٧٠) .

المعتقلي فاستولوا على حاجاتي الشخصية جميعها ، ولم يدعوني احتفظ بالرواية البوليسية السيئة التي كنت أحملها معي لأفراها فلا أمل داخل هذا السجن الرهيب . لكن الحديقة هي انه ما كان لديّ وقت للملّ . كانت تفتح الطاقات الحديدية تم تغلق . كانت الحمامة نعب الدهايز والبوابات الحديدية ، تحفها أكثر فأكثر عمقا وسدّة أنعام الأفعال وأزير الأغلاق العولاذية . فجاء وجدّني وسط حشد كبير من السجناء الذين انسي بهم الى السجن هذه الليلة نفسها ، كان عددهم يربو على الألفين . لم أستطع الاتصال بأحد منهم وما كان يقدر منهم أحد على الاقتراب مني . لكن ما نفصّتي اليد التي كانت تتسلل من تحت البطانيات كي تصافحني ، ولا الجندي الذي يترك بندقيه جانبا كي أضع له على ورقة يخفيها في جيب سرواله .

من بعد وضعوني فوق ، في زنزانة بعيدة جدا لها طافة عالية جدا . كنت أرغب ان أستريح ان أنام ، ان أنام ان أنام . لم أستطع ذلك لان الفجر قد بزغ والسجناء الأرجنتينيون شرعوا بالقيام بضجيج يصم الأذان وبجلبة مدوية صخابه كما لو انهم كانوا يشاهدون مباراة بين «ريفيرو» River و«بوكا» Boca .

بعد بضع ساعات تحرك تضامن الكتاب والاصدقاء في الأرجنتين وتنسلي وفي بلدان أخرى عديدة ، مما اضطرهم الى اخلاء سبيلي من الزنزانة فأخذوني الى المستوصف وأعادوا لي هناك حوائجي الشخصية التي كانوا سلبوها مني واعتقوني . كنت على وشك مغادرة السجن حين اقترب مني أحد حراسي ورضع في يدي ورقة ، كان عليها قصيدة مكتوبة يهديها اليّ ، أبيات بدائية مليئة بالاختاء ومفعمة بالبراءة الشعبية . اعتقد ان شعراء قلائل في العالم أهدي اليهم ما أهدي اليّ وتلقوا تكريما شعريا من قبل الشخص الذي كانت مهمته هي الحراسة القاسية الشديدة كما تلقيت من حارسي الشاعر .

شعر وشرطة

ذات يوم قالت لنا الخادمة : «ايتها السيدة ، با سيد (بابلو) ، اننا

حامل» . ثم وضعت طفلا . ابدا ما استطعنا ان نعرف منها من هو والد هذا الطفل . بالنسبة للخادمة ما كان يهمها والده في شيء وكل ما كان يهمها هو ان نقبل ، انا و(مانيلده) ، ان نكون عرابين لهذا الوليد . لكن هذا لم يكن ممكنا . ما استطعنا ذلك . ان اقرب كنيسة الينا هي في «ال تابو» El Tabo ، وهي ضيعة صغيرة سعيدة نقف فيها عادة لنضع للسيارة بنزيننا . تفتقد القس كالفنذ قائلا : «أفعرآب شيوخى لا ، ابدا ، (نيرودا) لن يدخل هذا الباب ولو حمل في ذراعيه ابنك الصغير» . عادت الفتاة الى مكنتها واشغالها في الدار ، مطاطئة الرأس ، غير قادرة على فهم السبب الذي ادى بهذا القس الى الرفض .

في وقت آخر رايت السيد (استيريو) وهو يعاني ويتالم . كان هذا السيد مصلح ساعات فديم وهو احسن ضابط للساعات في «بالبارائيسو» كلها ، كان يصلح ساعات البحرية العسكرية في اتقان ودقة . كانت زوجته نازع ، رفيعة عمره التي صاحبته خمسين سنة في هذه الحياة كانت تموت فتألمت له ولها ، وقلت : يجب عليّ ان اكتب شيئا عنها ، شيئا يواسيها قليلا في محنتها الكبيرة ، شيئا يقرأه لزوجته المحتضرة لعلها تسترد بعض انفاسها . هكذا فكرت . لست أدري ان كنت على صواب في ذلك ام لم اكن ، فكتبت القصيدة وعبرت فيها عن اعجابي وعاطفتي نحو الفنان وفنه ، ووصفت فيها حياته النقية بين «تيك تاك» الساعات العتيقة . اخذت هذه القصيدة (ساربتا فيال) لنشرها في الصحيفة ، كانت هذه الصحيفة تسمى «لا اونيون» (٤) la union يديرها رجل يدعى (باسكال) . السيد (باسكال) هذا هو كاهن . لم يتأ نثر القصيدة . لن ننشر هذه القصيدة مطلقا فمؤلفها (نيرودا) هو شيوخى مطرود من الكنيسة . لم يشأ . ماتت السيدة ، رفيقة السيد (استيريو) القديمة والكاهن أصر فلم تنشر القصيدة .

اني أريد ان احيا في عالم بلا محرومين ولا مطرودين . لن احرم احدا . لن اقول غدا لهذا الكاهن : «لن تستطيع تعميد احد لأنك ضد الشيوخية» . اني لأرغب ان اعيش في عالم يكون فيه البشر بشرا ، دون اية القاب ولا

٤ - لا اونيون : معناها ، الاتحاد .

نعوت الا كون المرء انسانا ، من غير ان يلصق في راسه شيء : لا اعلنا ولا قاعدة ولا كلمة . اريد ان يكون في مكنة من يشاء ، الدخول الى الكنائس كلها ، الى المطابع جميعها . اريد الا ينتظروا احدا عند بوابة دار البلدية كي يعتقلوه او يطرده بعد اليوم . اريد ان يدخل الجميع الى دار البلدية او يخرجوا منها مبتسمين فرحين . لا اريد لاحد ان يهرب في جندول . لا اريد لاحد ان يطارّد بدراجات نارية . اريد للاغلبية القصوى ، للاغلبية الوحيدة ، للناس كلهم ان يستطيعوا الكلام ، القراءة ، الاستماع ، الازدهار . لم أفهم ابدا الصراع الا على انه الصراع في سبيل القضاء على الصراع . لم أفهم قط الشدة الا كي تنتهي الشدة الى الابد . لقد اتخذت لي طريقا لانني اعتقد ان هذه الطريق ستؤدي بنا جميعا الى هذه المحبة الدائمة . انسي أناضل في سبيل هذه الطيبة الكلية الشاملة اللامنتهية . من بين هذه اللقاءات بين الشعر والشرطة ، من بين هذه الحوادث العرضية التي جرت لي وحوادث أخرى لن أرويها تجنباً للتكرار وحوادث ما جرت لي ولكن لآخرين ما استطاعوا ان يرووها لنا ، خرجت وأنا أوّمن ايماناً مطلقاً بالمصير الانساني ، وعندي القناعة التامة بأننا نقرب من عهد الحنان الكبير العظيم . اني لاكتب وأنا ادري ان فوق رؤوسنا جميعا يحوم خطر القنبلة الدريسة الساحقة الماحقة التي لن تبقي ولن تدر في الارض شيئا ولا احدا . ولكن هذا لن يبدل من املي ورجائي . اننا لنعرف انه في هذه اللحظة الحرجة . في هذا الخفق والرعشة من الاحتضار ، لا بد ان يدخل النور الى العيون الساهمة . سنتفاهم جميعا . سنتقدم معا . وهذا الامل هو قطعي اكيد .

((سيلان)) القاهما من جديد

لقد أعادتني من جديد الى «كولومبو» قضية دولية الا وهي الصراع ضد الموت الدري . عبرنا الاتحاد السوفييتي باتجاه الهند على متن طائرة Tu 104 كانت هذه الطائرة النفثة الرائعة قد انطلقت كي تقل وفدنا الكبير . ما توقفنا الا في «طاشقند» قرب «سمرقند» على مرحلتين طارت بنا كي تضعنا في قلب الهند . كنا نظير على ارتفاع ١٠.٠٠٠ مترا . كي نستطيع ان نجتاز جبال «هملايا» فان هذا الطير الهائل حلق على ارتفاع ١٥.٠٠٠ مترا . من الاعلى كنا نلمح منظرا طبيعيا خلّابا كان يبدو وكأنه لا يتحرك مع تحرك طائرنا السريعة . ها هي الحواجز الاولى تبدو من تحتنا،

تظهر منحدرات سلسلة جبال «الهملايا» الزرقاء والبيضاء . هناك لا بد انه يمشي انسان الثلوج المهيبة في وحدته الرهيبة . من بعد ، على يسارنا ، تتميز هضبة جبل «ايفريست» بين اكاليل الثلوج وتيجانها . الشمس تشرق فوق ذاك المنظر الغريب ، نورها يحزّ ويحزّ جوانب الصخور المستننة ، قدرة السكون الثلجي المسيطرة السائدة .

اتذكر جبال «الانديس» الامريكية التي اجتزتها عدة مرات . هنا لا تسود تلك الفوضى ، ذاك الفضب الهائل ، تلك الصحراء الوبائية الموجودة في سلسلة جبالنا . تبدو لي هذه الجبال الآسيوية اكثر كلاسيكية ، اكثر تنظيما ، اكثر اتساعا وامتدادا . قممها الثلجية تنقش أديره ، تحفر معابد هندية او صينية في المدى الفسيح اللانهائي . ان وحدتها لهي اكثر عرضا واتساعا . ظلالها لا ترتفع اسوارا من حجارة رهيبة بل تمتد حدائق غريبة عجيبة زرقاء في دير كبير هائل .

اقول لنفسي بانني الآن استنشق انقى هواء في العالم وانني انظر الى اعلى مرتفعات الارض من اعلى مرتفع . انه لاحساس فريد تمتزج فيه السرعة والثلوج والوضوح والافتخار .

نطير نحو سيلان . الآن قد هبطنا الى ارتفاع قليل ، فوق اراضي الهند الساخنة الحارة . لقد تركنا الطائرة السوفييتية في دلهي الجديدة كي نأخذ طائرة هندية ، اجنحتها تثر وتهتز بين سحب سوداء عنيفة . افكاري وسط التارجع هي الآن في الجزيرة المزدهرة التي كنت اعيش فيها وليس لي من العمر الا اثنان وعشرون عاما . لقد عشت في سيلان وجودا متوحدا منعزلا ، وكنيت هناك اكثر اشعاري مرارة وانا محاط بطبيعة الفردوس المتنوعة الخلافة .

اعود بعد انقضاء زمن طويل على تلك الايام ، ايام صباي وتباي ، الى هذا الاجتماع المؤثر من اجل السلام ، الذي دعت اليه حكومة سيلان . لقد لاحظت وجود المئات من الرهبان البوذيين جماعات جماعات ، ببرودهم ذات اللون الزعفراني ، وهم غارقون بالتأمل الذي يميز تلامذة (بوذا) واتباعه . حين يناضل هؤلاء الكهنة ضد الحرب والدمار والموت فانهم بهذا يؤكدون

من جديد مبادئ السلام ومشاعر الوثام التي دعا اليها قديما الامير
(سيدرائنا غاوتاما) المدعو كذلك (بوذا) . كم هي
بعيدة - افكر - عن الاضطلاع بهذه المهمة وسلوك هذا النهج ، الكنيسة
في اقطارنا الامريكية ، انها كنيسة من نوع اسباني ، رسمية وداعية الى
الحرب ، كم هو منعش ومشجع ان يرى المسيحيون الحقيقيون كهنتهم
الكاتوليك وهم من على منابرهم يحاربون افدح الجرائم واكثرها خطورة
واشدها ارهابا الا وهي جريمة الموت الذي يغتال ملايين من الابرياء
ويترك الى الابد لطخانه البيولوجية في سلالات الانسانية وذرياتها .

لقد مضيت متخطيا عبر الازقة باحثا عن الدار التي كنت اعيش فيها
بضاحية « فيلا وانا » . فجهدت كثيرا حتى عثرت عليها . كانت الاشجار قد
نمت ووجه الشارع قد تغير .

كانت الغرفة القديمة حيث كتبت اشعاري الاليمة ستهدم نظرا لان
جدرانها كانت مناكلة متداعية فقد آذت رطوبة المدار هذه الحيطان التي
كانت تنتظرني واقفة كي تودعني في هذه اللحظة الاخيرة من حياتها .

ما التقيت باحد من اصدقائي القدامى . غير ان الجزيرة عادت لترن
في قلبي بلحنها القاطع لاوتار القلب ، بوميضها المديد . البحر ما زال يغني
غناءه القديم نفسه تحت سعف النخيل ، ضد ارصفت الميناء . عدت لأجول
عبر طريق الغابة ، عدت لأرى الفيلة ذات الخطو الجليل وهي تملأ الدروب ،
عدت لاشعر بعبق العطور الفواحة ، بوشوشة النمو وحفيف الحياة في
الغابة . لقد وصلت الى صخرة « سيخيريئا » حيث شاد هنالك
ملك مجنون حصنا له . لقد بجلت كما أكرمت من قبل ، تماثيل بوذا
الهائلة العديدة التي يمضي الرجال تحت ظلالها وكانهم حشرات صغيرة .

ابتعدت من جديد وانا متأكد اني بعد هذه المرة لن اعود ابدا الى هذه
الجزيرة .

زيارة ثانية للصين

لقد طرنا من « كولومبو » بعد انتهاء مؤتمر السلام هذا عبر اجواء الهند،

وكان معنا (خورخه امدو) (٥) وزوجته (ثيليا) .
ان الطائرات الهندية كانت تقلع دوما وهي غاصة بمسافرين معممين ومليئة
بالاصفاط والسلل ومزدحمة بالاشكال والالوان . كان يبدو مستحيلا حشر
هذا العدد الكثير من الناس في مثل هذه الطائرة التي اقلتنا . حشد ينزل
في اول مطار وحشد يصعد . كان علينا ان نواصل السفر الى ما هو ابعد
من «مدراس» الى «كلكتا» . كانت الطائرة تتمايل تحت العواصف
الاسوائية . كان النهار الليلي الذي هو اكثر ظلمة من الليل يطوينا فجأة ثم
يهجرنا تاركا مكانه لسماء باهرة ساطعة . ثم تعود الطائرة تتمايل وترتعد
وترتجف ، على حين غرة تنفجر الصواعق والبروق فتضيء السماء وتجلو
العتمة لماما . كنت انظر الى وجه (خورخه امدو) وهو يمر من اللون الابيض
الى الاصفر ومن الاصفر الى الاخضر وكان هو يرى في وجهي تحول الالوان
ذاته الناتج عن الخوف الذي كان يخلق انفاسنا ويبدل الواننا . بدأت الطائرة
بالامطار ، كانت المياه تتسرب ، ترشح من ثقب في سقفها كثقوب السماء ،
تساقط قطرات ثخينة تذكرني ببיתי في «تيموكو» اثناء فصل الشتاء ،
لكن هذه القطرات لم تكن تستهويني على ارتفاع ١٠,٠٠٠ مترا . لكن ما كان
يستهويني هو ان راهبا كان يجلس خلفنا فتح مظلة احتوى تحتها من المطر
واخذ يقرأ في جديده شرقية نصوص كتابه المحتوي على كنوز المعرفة القديمة .

لقد وصلنا بلا حوادث الى «رانغون» في «برمانيا» . لقد اكتملت في
هذه الايام ثلاثون سنة على مقامي في الارض ، على اقامتي في «برمانيا»
حيث كتبت هناك اشعاري الاليمة وأنا اذاك غير معروف البتة . في عام
١٩٢٧ حين كان لي من العمر ٢٣ سنة نزلت في «رانغون» هذه نفسها .
لقد كانت «برمانيا» حينذاك ارضا تهذي من الحر ، ارضا لا تنفذ اليها
اللغات ، ارضا ساخنة ساحرة . لقد كان المستعمرون الانجليز يستغلونها
استغلالا بشعا ويخنقون انفاسها ، غير ان العاصمة كانت نظيفة ومضيئة ،
كانت الشوارع تلتهم بالحياة وواجهات المحلات كانت تتباهى بمفرياتها
الاستعمارية .

اما الآن فهذه المدينة تبدو نصف فارغة ، واجهات المحلات غير مزودة

بأي شيء مما يغري ويجذب الانظار، الشوارع فيها مليئة بالاوساخ والاقذار المتراكمة . ان صراع الشعوب من اجل استقلالها ليس بالامر السهل لا بد، بعد قعقة السلاح وتفجر الارواح وانتصاب الرايات وتحقيق التحرير ، من أن تشق هذه الشعوب طريقها عبر العواصف والمصاعب . انا لا اعرف حتى الآن تاريخ «بيرمانيا» المستقلة الحبيسة قرب نهرها القدير، نهر «ايرآودهي» وفي سفوح معابدها الذهبية ، لكنني استطيع ان المح - ابعده من القمامة في الشارع ومن الحزن المتموج - الماسي كلها التي تهز الجمهوريات الجديدة . انه كما لو كان الماضي ما يزال يستمر في اضطهاد هذه الجمهوريات الفتية .

لم اجد اي ظل لـ (خوسيه بليس) ، بطلة قصيدتي «تأنغو الارمل» . لا احد استطاع ان يدلني شيئاً عنها ، عن حياتها او موتها . حنى الحي الذي كنا نعيش فيه معا لم يعد له من وجود .

لقد طرنا الآن من «بيرمانيا» عابرين سلاسل الجبال الني فصلها عن الصين . انه لمنظر متجهم عابس ، ذو سكون رعوي . لقد حلقت الطائرة من «ماندالاي» فوق حقول الارز ، فوق المعابد المفرطة في الزخرفة ؛ فوق ملايين من اشجار النخيل ، فوق الحرب الاخوية بين البيرمانيين وتغلغلت في الهدوء الصارم المحاذي لمناظر الصين الطبيعية .

كان ينتظرنا في «كون مينغ» وهي اول مدينة صينية بعد الحدود ، صديقي القديم ، الشاعر (اي تشينغ) . لقد كانت تقاسيم وجهه العريض الاسمر ونظرات عينيه الكبيرتين المليئتين بالطيبة والشيطنة المتيقظة، مرة اخرى ، مقدمة فرح لسفر طويل ان (اي تشينغ) و(هو تشي مينغ) كانا شاعرين من جفن الكرامة الشرقية القديمة ، متشكلين بين القساوة الاستعمارية في الشرق ووجود صعب في باريس . ان هذين الشاعرين ذوي الصوت العذب الطبيعي ، وفد خرجا من السجون ، تحولا خارج بلدهما الى طالبين فقيرين بعملان في المطاعم . لقد حافظا على ثقتهما بالثورة . وعادا في الوقت المناسب وهما ناعمان جدا في الشعر وصلبان جدا في السياسة ، الى بلدهما لكي يؤديا مهماتهما المصيرية .

اشجار الحدائق في « كون مينغ » كانت قد اجريت لها عملية

جراحية جمالية . كانت جميعها تأخذ اشكالا غير طبيعية واحيانا كانت تلمح وتلاحظ ندوب مبنورة قد غطيت بصلصال وطين او غصون ملتوية لم تزل مضمدة مثل ذراع جريح . اخذونا لنرى البستاني ، العبقري العظيم الذي كان يسيطر على تلك الحديقة الغريبة . رأينا اشجار التنوب الغليظة العتيقة وهي لما تنم بعد اكثر من ثلاثين سانتيمترا وكذلك رأينا اشجار برتقال ، افزاما تغطيها برتقالات ضئيلة كانها حبات ارز مذهبة .

كذلك ذهبنا لزيارة غابة احجار باسلة ، كانت كل صخرة تتناول كانها مسلة من حجر واحد او تستشيط كانها موجه من بحر جلمود . عرفنا ان هذا الذوق بالاحجار العجيبة هو ارث قديم منذ قرون سحيقة . لقد زينت هذه الصخور الكبيرة العديدة ذات المظهر المبهم اللغز ساحات المدن القديمة، حين كان الحكام في الزمن القديم يريدون ان يقدموا احسن هداياهم الى الامبراطور فانهم كانوا يرسلون اليه واحدة من هذه الصخور الضخمة ، وكان وصولها يتأخر سنوات عديدة ، كان يدفعها عشرات من العبيد خلال آلاف الكيلومترات حتى تصل الى بكين .

ان الصين بالنسبة لي ، ليست لغزا ، على العكس اني اراها ، حتى داخل حدة الاندفاع التوري الرائع ، بلدا قد بني منذ آلاف السنين وما زال يبني ويشاد على الدوام . اني اراها معبدا هائلا من بنيانه القديم يدخل ويخرج البشر والاساطير ، المحاربون والفلاحون والآلهة . لا شيء عفويا يوجد فيها ، ولا حتى الابتسامة . عبثا يبحث المرء في الجهات كلها عن اشياء الفن الشعبي البدائي الصغير غير المتقن، عن هذا الفن المصنوع بأخطاء في التصميم الذي يلمس احيانا حدود المعجزة . ان الدمى الصينية ، والاعمال الفخارية والخزفية والاحجار المرصعة والاشخساب المزخرفة ، جميعها تكرر نماذج الفية . ان كل شيء له طابع اثنان معاد .

لقد كانت مفاجأتي الكبرى حين عثرت في سوق ضيعة صغيرة على اقفاص صغيرة للزيران مصنوعة من خيزران رقيق . كانت رائعة لانها في دقتها البنائية كانت مبنية غرفة فوق اخرى ، وكل غرفة بزيها الحبس الاسير ، تشكل قلاعا في ارتفاع متر ، تقريبا . لقد بدا لي وأنا انظر الى الاعشاش التي كانت تقيد الزيران والى اللون الاخضر الطري في عيـدان الخيزران ان اليد الشعبية كانت تطل منبعثة من الاقفاص ، البراءة التي

تستطيع ان تصنع الاعاجيب . حين راى الفلاحون دهشتي واعجابي بهذه
الاقفاص لم يشأوا ان يبيعوني واحدا منها بل اهدوني قلعة صداحة ، اكبر
قفص واجمله . بهذا الشكل رافقني غناء الزيزان القداسي خلال عدة اسابيع
عبر اعماق الاراضي الصينية . لا اذكر اني تلقيت هدية مثل هذه الهدية
البرية الجديرة بالذكرى الا في طفولتي .

شرعنا السفر في باخرة تقل الف مسافر عبر نهر «يوانغ تسه»
اتهم فلاحون ، عمال ، صيادون ، جمهرة مليئة بالنشاط
والحيوية . لقد جلنا خلال عدة ايام ، باتجاه «نان كينغ» في هذا النهر
العريض جدا ، المليء بالقوارب والاشغال ، الذي تعبره وتمخره آلاف
الحيوات ذوات الاحلام والهموم . ان هذا النهر لهو الشارع الرئيسي في
الصين . لقد كان نهر «يانغ» العريض الهادئ يغدو احيانا نحيلا ضيقا فلا
تكاد الباخرة تعبر حلاقيه الجبارة الا بصعوبات قاسية على كل جانب من
جانبه تبدو الجدران الحجرية العالية السامقة وكأنها تتلامس في الاعالي
حيث تلمح من حين الى حين غمامة سوداء في السماء ، رسمتها رسما
انموذجيا ايد شرقية باقلام رصاص ، او ترى غرفة انسانية صغيرة بين
ندوب الاحجار .

ليس في الارض الا مناظر قليلة لها مثل هذا الجمال الرهيب . ربما
نستطيع مقارنتها بفجاج القوقاس العنيفة او بقنواتنا الجلييلة المنعزلة في
مضيق «ماغايانيس» .

بعد خمس سنوات على زيارتي الاولى للصين لاحظ الان تغيرا ملحوظا
يتأكد كلما توغلت في هذا البلد من جديد .

في البداية لاحظتني كانت متوشة . ماذا لاحظ الان ؟ ما هي
التغيرات الطارئة على الشوارع وعلى الناس ؟ آه ، اني لافتقد اللون
الازرق . منذ خمس سنين زرت في هذا الفصل نفسه شوارع الصين ،
كانت دائما غاصة خافتة بالحيوات البشرية . لكن اذاك كان الناس كلهم
يمضون وهم مرتدون ملابس زرقاء بروتيتارية، نوعا من القماش او النسيج
العمالي الرقيق . كانت هذه هي ملابس الرجال والنساء والاطفال . لقد
كان يلد لي هذه البساطة في البدل ، في تدرجاتها المختلفة من الزرقة .

لقد كان بديعا ان ارى حينذاك هذه التموجات الزرقاوية العديدة وهي تعبر شوارع وطرقا .

الآن هذا قد تبدل ، فماذا جرى ؟

ببساطة ، الصناعة النسيجية في هذه السنوات الخمس نمت كثيرا الى درجة انه اصبح ممكنا ان يلبس الناس ما شاؤوا من ألوان وأنواع ، مخططة او منقطة ، اصبح ممكنا لباس الملايين من الصينيين بكل اصناف التحرير والسماح لهم ان يستعملوا منها ألوانا عديدة وأقمشة احسن وأفضل مما كانوا يستعملون من قبل .

ان الشوارع الآن هي أفواس قزح من ذوق الصين الدقيق النقي . ان الجنس الصيني لا يعرف ان يصنع شيئا قبيحا . هذا البلد مزدهر ومزدهر حتى الصندل الاكثر بدائية يبدو فيه وكأنه زهرة من قش .

لقد انتهت وأنا ابهر عبر نهر «يانغ تسه» الى وفاء الرسوم الصينية القديمة . هناك ، في اعلى الفجاج ، شجرة ارز ملتفة مثل معبد صيني صغير ، جلبت الى ذهني حالا الصور التخيلية القديمة . ثمة اماكن قليلة في العالم ، حقيقية جدا ، خيالية جدا ، مفاجئة جدا ، مباغثة جدا ، مثل هذه الفجاج التي يخترقها هذا النهر العظيم ، فجاج ترتفع الى علو غير معقول ، فجاج تريك في كل صدع او شق في هذه الصخرة او تلك الاثر النفساني القديم لهذا الشعب المدهش العريق : خمسة أمتار او ستة من بقول حديثة الغرس ، او معبد صغير ذو خمسة سطوح او ستة للتفرج والتأمل . يبدو لنا هناك بعيدا اننا نرى في اعلى الصخور القمرعاء الصلعاء ، العباءات البيضاء او دخان الاساطير ، وان هي الا الغيوم وطيران عصافير رسمه عدة مرات اكثر رسامي الصور المصغرة الملونة قدما ومعرفة على وجه الارض قاطبة . ان شعرا عميقا ينطلق من هذه الطبيعة الجليلة العظيمة ، شعرا موحزا مختزلا عاريا كطيران طير او البريق الفضي لماء يطفو شبه ساكن بين الاسوار الحجرية .

بيد ان ما هو فائق بشكل لا نهائي في هذا المنظر الطبيعي هو رؤية الانسان وهو يعمل في مستقيمات قائمة الزوايا ، صغيرة ، في اشكال

قمرية خضراء بين الصخور . على ارتفاع هائل في قمم الاسوار الشاقولية، حيث يوجد منحني يحتفظ بقليل من التركة الصالحة للزراعة ، نمة هناك رجل صيني يزرع ويفرس . ان الارض الام الصينية هي واسعة وفسيحة . لكنها قاسية وصعبة . لقد ربت الانسان وأعطته شكلا وحولته الى آلة عمل ، لا تتعب ، آلة ذكية وعنيدة . ان هذا التركيب المؤلف من ارض فسيحة ومن جهد انساني خارق ومن الغاء متدرج لكل انواع الظلم والقهر سيجعل الصين الجميلة المديدة العميقة الانسانية تزدهر وتتقدم .

لقد بدا لي (خورخه امادو) خلال عبور نهر «يانغ تسه» كله انه كان عصيبا كثيبا . كانت تزعجه جوانب من الحياة لا حصر لها في الباخرة وكذلك كانت تزعج (ثيليا) زوجته . لكن (ثيليا) لها طبع هادئ يسمح لها ان تمر بالنار دون ان تحترق .

واحد من هذه الاسباب التي كانت تزعجه هو اننا اصبحتنا على غير ارادتنا ذوي امتياز وتمييز في هذا المركب . لقد كنا نشعر في غرفنا الخاصة ومطعمنا الخاص بنا شعورا سيئا وسط مئات الصينيين الذين كانوا يتكلمون في جهات المركب كله . كان الروائي ينظر اليّ بعينين ساخرتين ولا يترك فرصة الا وعلق عليها بتعليقاته اللطيفة القاسية .

الحقيقة هي ان كشف الحقائق المتعلقة بالفترة الستالينية قد عطل احد النوابط في أعماق (خورخه امادو) . نحن صديقان قديمان ، تقاسمنا أعوام المنفى معا ، دوما كنا نمتزج في قناعة وأمل مشتركين . لكنني اعتقد انني كنت متمدهبا بأقل مقدار من تشييعه وتمذهبه فلقد كانت طبيعتي الخاصة نفسها وطبعي ذاته يجعلاني اكثر ميلا للتفاهم مع الآخرين فيما (خورخه) كان على العكس من ذلك صارما دائما . لقد قضى معلمه (لويس كارلوس بريستيس) خمس عشرة سنة من حياته ، سجيناً . انها لاشياء لا يمكن ان تنسى ، بل تجعل الروح صلبة صلدة . انا كنت أبرر امام نفسي تشييع (خورخه) دون ان أشاطره هذا التعصب والتحزب .

ان تقرير المؤتمر العشرين كان اضطراب أمواج دفعنا نحن الثوريين كلنا ، نحو مواقع جديدة ونتائج حديثة ، بعضنا شعر وكأنه يولد من جديد اثر تلك الكآبة الناجمة عن كشف الحقائق القاسية ، يولد من جديد نظيفا

من الدياجير والرعب ، مستعدا لمواصلة الدرب والحقيقة تسطع في يده .

(خورخه) ، على العكس ، يبدو انه بدأ ، هناك على حافة تلك الباخرة، بين الفجاج الهائلة لنهر «يونغ تسه» ، مرحلة مختلفة في حياته . منذ ذلك الحين صار اكثر هدوءاً، غدا اكثر اعتدالا في افعاله وفي اقواله . انا لا أعتقد انه فقد ايمانه الثوري بل انه غرق اكثر من قبل في مؤلفاته ونسزع عنها الطابع السياسي المباشر الذي كانت تتميز به بشكل مفرط طاغ . كما لو انه اطلق الابيفورية التي فيه فاندفع يكتب احسن كتبه مبتدئا برواية «غابرييله ، مسمار وقرنفلة» وهي رواية انموذجية ، تفيض بالحسياسة والبهجة ، بالشهوانية والفرح .

لقد كان الشاعر (اي تشينغ) هو رئيس الوفد المرافق الذي كان يقودنا ويدلنا . كل ليلة كنا نتعشى : (خورخه امادو) و(ثيليا) و(ماتيلده) و(اي تشينغ) وأنا ، في غرفة منفصلة . كانت المائدة تتغطى ببقول خضراء ومدهبة ، بأسماء حامضة - حلوة ، بأوز ، بديكة ، بفراريج مطبوخة بطريقة غريبة ، دائما لذيدة . بعد عدة ايام اصبحت تلك الاكلة الرائعة تغص في حلوقنا ولو انها كانت من قبل تسري فيها بسرعة وكانت تطيب لنا . وجدنا فرصة كي نتحرر ولو لمرة واحدة من تلك الاطعمة الطيبة اللذيذة لكن مبادرتنا وجدت طريقا صعبة ، راحت تتلوى هذه الطريق اكثر فاكثر مثل غصن من تلك الاشجار المضايقة المعدبة .

حصل ان عيد ميلادي كان يصادف وقوعه في تلك الايام . (ماتيلده) و(ثيليا) وضعتا مخططا كي يكرمانني بأكلة غريبة تغير من رتبة طعامنا ، كان الامر هو القيام بتكريم متواضع : اعداد فروج مشوي على طريقتنا مع سلطة من طماطم وبصل على الطريقة التشيلية . المرأتان صنعتا من هذه المفاجأة سرا كبيرا . توجهتا بكل ثقة الى اخينا الطبيب الشاعر (اي تشينغ)، فاجابهما الشاعر وهو قلق قليلا ، انه لا بد له من الاجتماع بالاعضاء الآخرين في اللجنة للتداول حول هذا الامر .

كان الجواب مفاجئا . ان البلاد كلها تمر في موجة من التقشف ، و(ماو تسي تونغ) تخلى عن احتفاله بعيد ميلاده حتى يساهم مع شعبه في التقشف والتوفير فكيف يمكن ان يحتفل بعيد ميلادي تجاه هذه الاجراءات

الصارمة من التقشف ؟ (ثيليا) و(ماتيلده) ردتا على هذه الحجة بأن الأمر هو مناقض. كليا فنحن نريد ان نستبدل فروجا واحدا مشويا على الفرن ولكن بأسلوب تشيلي ، بكل ما في هذه المائدة من اكل لذيذ متنوع (كان على المائدة فراريج وأسماك وديكة لم تلمس بعد) . أجاب (اي تشينغ) بعد اجتماعه الى اللجنة غير المرئية التي كانت تقود التقشف ، في اليوم التالي بأنه ليس ثمة من فرن على ظهر الباخرة التي كنا نبحر بها. (ثيليا) و(ماتيلده) اللتان كانتا قد تكلمتا مع الطاهي ، أجابتا (اي تشينغ) بأنهم مخطئون وان فرنا رائعا كان يسخن في انتظار فروجنا المحتمل . أغمض (اي تشينغ) عينيه بين يمين وأضاع نظره في تيار نهر «يانغ تسه» .

كان لنا في يوم ١٢ تموز ، تاريخ عيد ميلادي ، على المائدة فروجنا المستوي ، جائزة ذهبية من ذلك النزاع والمداولة . زوج من الطماطم مع بصل حار حاد كانت تلتهم في صينيتنا الصغيرة . وهناك من على بعد كانت تمتد المائدة الكبيرة المزخرفة مثل بقية الايام بأطباق براقة وقصصات لماعة مليئة بأكل صيني طيب .

انا كنت قد مررت عام ١٩٢٨ بـ «هونغ كونغ» وبـ «شانغهاي» . تلك كانت صينا مستعمرة بشكل حديدي ، فردوسا للمقامرين وملتصقي الافيون ، للمتددين على المواخير وبيوت الدعارة ، للصصوص الليل للدوقات الروسيات المزيفات ، لقراصنة البحار والاراضي . مقابل المؤسسات المصرفية الكبيرة في تلك المدن الكبيرة كان ثمة نماني او تسع مدرعات رمادية تكشف عن عدم الطمأنينة والخوف ، عن اغتصاب الاستعمار وتعبه ، عن احتضار عالم بدأ يفوح برائحة الموت . رايات بلدان كثيرة ، تمثل قناصل لؤماء ، كانت تتلألأ فوق بواخر قرصنة تابعة لجناة مجرمين، صينيين او ملايويين . كانت المواخير تابعة لشركات عالمية . انا قد رويت في مكان آخر من هذه المذكرات كيف أغار عليّ اللصوص ذات ليلة وتركوني بلا نياح ، بلا نقود ، بلا وثائق شخصية ، مهجورا في احد الشوارع الصينية .

لقد عادت هذه الذكريات الى رأسي حين وصلت الى الصين الثورة . هذه الصين اصبحت بلدا جديدا ، مدهشا في نظافته الاخلاقية . ان العيوب ، والمشاكل الصغيرة والاختلافات الضئيلة وكثيرا مما احكيه الآن عن

صين الثورة ، ما هي الا ظروف عابرة ليست بذات اهمية . ان انطباعي العام السائد هو اني لاحظت ان ثمة تغييرا ظاهرا وتحويلا جذريا في الارض الفسيحة ذات اقدم ثقافة في العالم . ففي كل جهة كان يشرع بتجارب لا حصر لها وباختبارات هامة . كان النظام الاقطاعي قد دحر تماما والزراعة بدأت في نهج ومنهج جديدين . كان الجو النفسي المعنوي شفافا كما بعد مرور زوبعة عاصفة .

ان ما اقصاني عن سنن التطور الصيني لم يكن (ماو تسي تونغ) بل الماوسوتونغية اي الماوستالينية ، تكرار عبادة زعيم اشتراكي . من يستطيع ان ينفي عن (ماو) كونه شخصية سياسية ومنظما عظيما ومحررا كبيرا لنسبته ؟ كيف اقدر انا ان افلت من سحر هالته الملحمية ، من بساطته الشعرية ، من تواضعه الكئيب ، من اصالته العريفة ؟

لكن ، خلال زيارتي ، رأيت كيف ان المئات من الفلاحين الفقراء العائدين من اعمالهم كانوا يختصون قبل ان يدعوا عدتهم ، وهم يحيون صورة بطل «يونان» Yunan المحارب المتواضع الذي تحول الآن الى إله . انا رأيت كيف ان المئات من المخلوقات كانوا يهزون في ايديهم الكتاب الاحمر ، اكسيرا عالميا للفوز في «البينغ - بونغ» ، لشفاء التهاب الزائدة الدودية . لحل المشاكل السياسية . لقد كان التملق يطفو على كل فم وفي كل يوم ، يتدفق من كل صحيفة ومن كل مجلة ، من كل دفتر ومن كل كتاب ، من كل تقويم ومن كل مسرح ، من كل تمثال ومن كل رسم .

كنت قد ساهمت بمقداري فسي عبادة الشخصية ، في حالة (ستالين) . لكن في تلك الاوقات كان (سنالين) يبدو لنا على انه المنتصر القاهر لجيوش (هتلر) ، على انه المنفذ للانسانية العالمية . لقد كان انتكاس شخصيته مجرى مبهما ، ما زال حتى الآن لغزا بالنسبة للكثيرين منا .

والآن هنا ، في وضع النور ، في المدى الارضي والسمائي الرحب للصين الجديدة ، يراد من جديد امام ناظري ، ان تستبدل أسطورة تحتكر الضمير الثوري ، تقتصر على قبضة يد واحدة خلق عالم سيكون للجميع . لم يكن سهلا بالنسبة لي ان ابتلع للمرة الثانية هذا القرص .

في «تشونغ كينغ» اخذني اصدقائي الصينيون الى جسر المدينة . لقد عشقت الجسور طيلة حياتي كلها . لقد اوحى لي والدي ، وهو عامل في السكك الحديدية ، ان اكن لها احتراماً كبيراً . لم يكن يدعوها ابداً بالجسور . كان هذا النعت سيدنسها وينتهك حرمتها . بل كان يدعوها بالاعمال الفنية ، نعتاً ما كان يطلقه على الرسوم واللوحات وأعمال النحت بله على قصائدي ، طبعاً . كان هذا النعت مقتصرًا على الجسور فقط . لقد اخذني معه عدة مرات كي نشاهد جسر « مايبكو » الرائع ، بجنوب تشيلي . حتى الآن كنت اظن انه اجمل جسر في العالم ، وهو ممتد بين سندس الجبال وخضرتها الجنوبية ، عالياً ، نحيلاً ، نقياً ، مثل كمان من فولاذ بأوتاره المشدودة المهيأة لعزف الرياح عليها ، رياح «كويبيوي» Collipulli . ان الجسر الهائل الذي يعبر نهر «يانغ تسه» هو شيء آخر . انه اعظم عمل قام به الهندسة الصينية بمشاركة المهندسين السوفييت . وهو ، بالإضافة الى هذا نهاية صراع دام فروناً . لقد كانت مدينة «تشونغ كينغ» يفصلها هذا النهر الى قسمين منذ قرون وكان عدم الاتصال هذا بين شقيها يعني تأخراً وبطئاً وعزلة .

ان حماسة اصدقائي الصينيين الذين كانوا يرونني الجسر هي اكثر مما كانت تستطيع ان تتحملة ساقي وقدماي . كان هؤلاء الاصدقاء يجعلوني اصعد أبراجاً ، أهبط مهاوي كي ارى المياه التي تنساب هناك منذ آلاف السنين والتي تقطعها اليوم هذه القضبان الحديدية المؤلفة من كيلومترات عديدة ، عبر هذه السكك الحديدية ستمر القطارات ، هذه الارصفة ستكون لسائقي الدراجات ، هذا النهج الهائل سيكون مخصصاً للمشاة . أحس باختناق من هذه العظمة الكثيرة .

ياخذنا (اي تشينغ) ، ليلاً ، الى الاكل في مطعم قديم ، ماوى اكثر الاطعمة تقليدية . مطر من ازهار الكرز ، قوس قزح من سلطة خيزران ، بيض له من العمر مائة سنة ، شفاه فتية شابة من اسماك قرشية . ان هذه الاطعمة الصينية هي مستحيلة ان توصف في تعقيدها وتنوعها الغريب ، في اختراعها الشاذ ، في قوالبها غير المعقولة . زودنا (اي تشينغ) بمعارف عنها ، وقال ان القواعد العليا الثلاث التي يجب ان تتوفر في اية اكلة جيدة هي : اولا ، الطعم ، ثانياً ، الرائحة ، ثالثاً ، اللون ، هذه الجوانب الثلاثة يجب ان تحترم دائماً وأن يصر عليها دوماً ، الطعم

يجب ان يكون لذيذا ، الرائحة يجب ان تكون ممتعة ، اللون يجب ان يكون منعشا ومتناغما ومتسقا . « في هذا المطعم حيث سناكل - قال (اي تشينغ) ستتوفر ميزة اخرى : النغم » . يضاف الى الطبق (٦) المصنوع من الخزف الصيني المحاط بـ «المنجار» ، في آخر لحظة ، شلال صغير من طوابير «الجمبري» التي تصب في صفيحة معدنية تسخن على الجمر واللهب كي ينتج لحن ناي ، مقطع موسيقى يكرر دائما ويعاد .

في بكين استقبلنا (تيين لينغ) التي كانت تترأس لجنة الكتاب التي خصصت كي ترافقنا اثناء زيارتنا للصين . كذلك كان موجودا اثناء هذا الاستقبال صديقنا القديم الشاعر (امي سياو) وزوجته الالمانية المصورة . كل شيء كان لطيفا وضاحكا ومبتسما . تنزهنا فسي زورق بين عرائس البحيرة الاصطناعية الهائلة التي بنيت لتسلية آخر امبراطورة . زرنسا مصانع ، دور نشر ، متاحف ، معابد . اكلنا في اصغر مطعم في العالم (صغير جدا الى درجة انه لا يحتوي الا على مائدة واحدة) تتردد اليه سلالة الاسرة الامبراطورية . كنا نحن الامريكيين الجنوبيين الاربعة نجتمع في مقر الكتاب الصينيين كي نشرب وندخن ونضحك كما لو كنا في اي جزء من قارتنا الامريكية . انا كنت كل يوم اعطي الجريدة الى مترجمنا الشاب المسمى (لي لي) (Li Li) وكنت اشير يا صبعي الى عواميد الصحيفة المكتوبة بحروف صينية واقول له :

- ترجم لي .

كان يشرع بعمله في لغة اسبانية تعلمها حديثا ، ويقرا لي المقال الافتتاحي عن الزراعة ، المآثر السباحية (ماو تسي تونغ) ، الابحاث الماوماركسية ، الاخبار العسكرية التي كانت تبعث في نفسي الملل ما ان يبدأ بترجمتها .

- Stop - كنت اقول له . اقرا لي من هذا العمود فهو افضل .

٦ - الطق : Fuente : ومن معاني هذه الكلمة باللغة الاسبانية كذلك ، النبع، نشير لهذا لان (ثيرودا) يستغل المعنى الثاني للحديث من الطبق .

هكذا فوجئت ذات يوم حين عثرت على دمل في المكان حيث وضعت اصبعي . كانت الصحيفة تتحدث عن دعوى سياسية يتهم فيها اصدقائي الذين كنت اراهم كل يوم والذين كانوا يشكلون قسما من الوفد المرافق لنا. مع ان القضية تبدو انها مشاركة منذ وقت طويل فهم ابدا ما كانوا قالوا لنا اية كلمة حول هذا الشأن ولا تفوهوا مطلقا بأنهم تحت الاستجواب والاستنطاق وان خطرا يهددهم وان تهديدا ينخر في مصالحهم .

لقد تغيرت الفترة ، والزهور انفلقت . حين هذه الزهور انفتحت بأمر من (ماو تسي تونغ) ، ظهرت قصاصات من ورق - في المصانع والمرائب ، في الجامعات والمكاتب ، في المزارع والحقول - كانت تعلن عن ظلم وتشكو من جرم وتفصح افعالا يرتكبها الرؤساء البيروقراطيون .

هكذا كما من قبل كانت قد نوقفت بأمر سام الحرب ضد الدباب وضد العصفير الدورية ، حين تبين ان تصنيفاتها سيجلب نتائج غير متوقعة ، كذلك الآن انتهت بشكل حازم مرحلة تفتح البراعم . لقد وصل من اعلى ، امر . اكتشاف اليمينيين . وفي الحال بدأ الصينيون في كل منظمة ، في كل معمل ، في كل منزل ، الاعتراف الذاتي عن نزعة يمينية او جعل الآخرين يعترفون بهذه النزعة اليمينية كي ينقضى عليها نهائيا .

صديقتي الروائية (تينغ لينغ) اتهمت بأنها اقامت علاقات غرامية مع جندي من اتباع (تشيانغ كاي تشيك) (٧) . لقد كانت هذه التهمة حقيقة، ولكن حدثت هذه العلاقات قبل الحركة الثورية العظيمة . وفي سبيل الثورة هي رفضت عشيقها ذاك ، ومن « بينان » Yen-an (٨) حملت وليدها ومضت لتشارك في المسيرة الكبرى في تلك السنوات البطولية . ولكن هذا لم يقيّم لها بشيء ، فقد طردت من منصبها كرئيسة لاتحاد الكتاب وحكم عليها ان تقدم الطعام اجيرة في مطعم اتحاد الكتاب نفسه الذي كانت قد ترأسته خلال عدة سنين . لكنها كانت تؤدي عملها في هذا المطعم في انفة

٧ - تشيانغ كاي تشيك : هو ديكتاتور فورموزا المعروف ولد عام ١٨٨٦ .

٨ - بينان : لسنا ندري ان كانت هذه المدينة هي نفسها التي كان الشامر (نيودا) قد اشار اليها من قبل ولكنه كتبها هكذا : Yunan ، وقد يكون الامر خطأ مطبعيا .

وكرامة ثم ارسلت من بعد للعمل في مطبخ مشاعة فلاحية في مكان ناء .
كان هذا آخر ما عرفته عن هذه الكاتبة الشيوعية الكبيرة التي كانت
الشخصية الاولى في الادب الصيني .

لست أدري ماذا حل بـ (امي سياو) ، اما بالنسبة لـ (اي تشينغ)
الشاعر الذي كان يراففنا في كل ناحية وركن ، فان مصيره كان حزينا
جدا ، فقد ارسلوه في اول الامر الى صحراء «غوبي» ثم سمح له بالكتابة
على الا يوقع ما يكتبه باسمه الحقيقي الشهير داخل وخارج الصين ، وهكذا
حكم عليه بالانتحار الادبي .

كان (جورج امادو) قد انطلق نحو البرازيل ، من قبل ، اما انا فاني
سأرحل في وقت لاحق وفي فمي طعم من المرارة ما زلت أشعر به
حتى الآن .

قرود «سوخومي»

لقد عدت الى الاتحاد السوفيتي فدعوني هناك الى رحلة نحو الجنوب .
حين هبطت من الطائرة بعد ان عبرت اراضي شاسعة ، كنت قد خلفت
ورائي السهوب والقفار ، الهضاب والتلال ، الطرق والمعابر ، القرى
السوفيتية والمدن العظيمة . لقد وصلت الى الجبال القوقازية المهيبة
العامرة بأشجار التنوب وبالحيوانات الغابية . لقد تزين البحر الاسود
ببدلة زرقاء كي يستقبلنا ويجثو تحت أقدامنا ، كان عبق عفيف من البرتقال
المزهر يأتي إلينا من كل جهة .

نحن الآن في «سوخومي» ، عاصمة «افغاسيا» Afgasia ، وهي
جمهورية سوفيتية صغيرة ، هذه هي «لا كولشييدا» Colchida
الاسطورية . انها منطقة الجلود الذهبية التي جاء اليها (خاسون) (٩)

٩ - خاسون : بطل من أبطال الاساطير اليونانية .

سنة قرون قبل ولادة المسيح يسرق ويسلب . انها وطن «القلقاس»
Los dioseuros الاغريقين . في وقت لاحق سارى في المتحف
نقتا من مرمر هلثيني استخرج حديثا من البحر الاسود . على ضفاف هذا
البحر احتفلت الالهة اليونان بأسرارهم والغازهم . اليوم قد استبدل بالسر
واللفز الحياة البسيطة العاملة ، حياة الشعب السوفييتي . ليسوا هم
بأناس «لينينغراد» . ان لهذه الارض الشمسية ، القمحية ، العنبية ، لحنا
آخر ، لها نبرة صوت من البحر الابيض المتوسط . هؤلاء الرجال لهم
طريقة أخرى في المشي والسير ، ان لهاته النساء عيونا وايدي من ايطاليا
او من اليونان .

اعيش بضعة ايام في بيت الروائي (سيمونوف) في بستان داره
اشجاره الجميلة . أعرفها وأذكرها ، فكلما ذكر لي اسم شجرة كنت أجيبه
كما فلاح متعصب لأرضه :

— من هذه ، يوجد في نشيلي، من هذه الاخرى تمة في وطننا الكثير،
وكذلك من تلك الاخرى . فينظر اليّ (سيمونوف) في ابتسامة مستهزئة ،
فأقول له :

— انه ليحزنني جدا انك لن تستطيع ان ترى العريشة في داري
بـ «سانتياغو» ولا اشجار الحور المذهبة بالخريف التشيلي فليس هناك من
ذهب مثل ذهبه . لو ترى في طريق «ميليبيّا» كيف يضع
الفلاحون عرائس الذرة الذهبية فوق اسطحة المنازل . لو ترى اشجار
الكرز المزهرة في فصل الربيع . لو تنسم شذى «البولدو» (١٠) .
لو تفرق رجلك وساقيك في مياه «ايسلا نيغرا» النقية الباردة . لكن
الاقطار والبلدان ، يا عزيزي (سيمونوف) ، ترفع حواجز فيما بينها ، تلعب
لعبة الاعداء فيما بينها ، تتقاذف النيران في حروب باردة فنصبح نحن
معشر البشر منعزلين متباعدين . نقترّب من السماء بصواريخ سريعة ولا
نقرب أيدينا من أيدينا في أخوة انسانية .

١٠ - البولدو : نوع من الشجر ، ذو أوراق خضراء وزهور دائمة لها مظهر فوّاح .

— ربما تتغير الاشياء — يقول لي (سيمونوف) مبتسما ويقذف بحصوة بيضاء الى الآلهة الفرقى في البحر الاسود .

ان مفخرة «سوموخي» هي في مجموعتها من القروود . لقد ربى هناك معهد طب تجريبي ، مستغلا الطقس تحت الاستوائي ، اصناف القسروود الموجودة في العالم جميعها . فلندخل . سنرى في اقفاص واسعة قروودا منحركة كهربائية وقرودا ساكنة استاتيكية ، بعضها كبير وبعضها صغير ، بعضها أجرد وبعضها أشعر ، بعضها ذو عيينين انعكاسيتين وبعضها ذو عيينين مثيرتين للشرر ، ايضا بعضها مطرق مسكين وبعضها طاغ مسنبد . بعضها رمادي اللون وبعضها ابيض ، بعضها ذو است ولية بثلاثسة ألوان وبعضها كبير السن متقشف وبعضها متعدد الزوجات اناني الطبع لا يسمح لزوجته ان تتغذى دون اذنه ، لا يمنحها هذا الاذن الا بعد ان يبتلع في وقار وسكينة اكله الخاص به .

ان اكثر المخابر تقدما في علم الاحياء هو في هذا المعهد، وان افضل البحوث تجري في هذا المعهد تدرس بأجهزة القروود الجهاز العصبي ، الوراثة ، ويقام ببحوث دقيقة حول سر الحياة وامكانية اطالة الاعمار .

تلقت نظرنا قرودة صغيرة لها طفلان . واحد منهما يتبعها باستمرار والآخر تحمله بذراعيها في حنان انساني . يحكي لنا المدير ان القرد الصغير الذي ترضعه كثيرا ليس بابنها وانما هو لقيط تبنته . كانت هي على وشك ان نفست بوليدها حين ماتت قرودة اخرى بعد ان خلّفت قردا فتبنت هذه القردة الأم لتوها اليتيم ، منذ ذلك الحين انصرفت بحنانها الامومي وعطفها الانثوي نحو هذا الابن المتبنتى اكثر مما انصرفت نحو ابنها الحقيقي . فكّر العلماء ان هذا الميل الامومي الشديد سيجعلها تبنتى ابناء آخرين لقطاع لا يمتون اليها بصلة لكنها رفضتهم جميعا واحدا اثر الآخر ، لان سلوكها لم يكن يخضع ببساطة الى قوة حيوية بل الى ضمير قد شعسر حين ماتت رفيقتها بتضامن امومي .

((ارمينيا))

الآن نظير نحو ارض مجد أسطورية . نحن في «ارمينيا» . هناك ،

نحو الجنوب ، تتراس تاريخ «ارمينيا» القمة الثلجية لجبال «ارارات» حيث رست سفينة نوح حسب ما جاء في الكتاب المقدس، كي يعاد تعمير الارض. لقد كان عملا صعبا لان «ارمينيا» هي ارض وعرة وبركانية. لقد زرع الارمن هذه الارض في تضحية لا يمكن وصفها ورفعوا حضارتها الى اعلى قمة في العهود القديمة . لقد اعطى المجتمع الاشتراكي الى هذه الامة النبيلة المعذبة تطورا وازدهارا فائقين . فلقد ذبح الغزاة الاتراك على مدى قرون عديدة الارمن واستعبدوهم . كل حجر في الهضاب ، كل بلاطة فسي المنازل ، صبغ وصبغت بالدم الارمني . لقد كان البعث الاشتراكي لهذا البلد اعجوبة، وردّا عظيما على اقوال المتخرصين حول امبريالية سوفيتية. لقد زرت في «ارمينيا» معامل نسيج تشغل ٥٠٠٠ عاملا ، مشاريع هائلة في الري وتوليد الطاقة ، مصانع اخرى كثيرة وقديرة . لقد تجولت من طرف الى آخر في المدن في الارياف في المراعي فلم أر الا ارمننا ، رجالا ونساء ، ارمننا . وجدت روسيا واحدا ، كان مهندسا ، فريدا في عينيه الزرقاوين بين آلاف العيون السود لأولئك المواطنين السمر . كان ذاك الروسي يدير مركزا كهرمائيا فسي بحيرة « سيفان » . ان سطح البحيرة هو كبير جدا ومياهها تتسرب من مجرى واحد للنهر فالمياه القيّمة تبخر دون ان تستطيع ارمينيا العطشى ان تستفيد من هبات هذه المياه. فلكي تقهر عملية التبخير سده ويكسب منها الوقت قبل ان تقلل من حجم المياه ، فلقد وسّع مجرى النهر وبهذا تتدفق المياه ويقل حجم البحيرة شبه الراكدة وفي الوقت نفسه ستخلق بمياه النهر الجديدة ثمانية مراكز كهرمائية ، صناعات جديدة ، مراتب للالومينيوم ، طاقة كهربائية للاضاءة ، ما يكفي من المياه لارواء الارض كلها في هذا البلد . ابدا لن انسى زيارتي لذلك المصنع الكهرمائي المطل على البحيرة التي تنعكس في مياهها النقية جدا زرقة سماء ارمينيا التي لا تنسى . حين سألني الصحفيون عن انطباعاتي حول كنائس ارمينيا وأديرتها القديمة ، اجبتهم مبالغا :

— ان اكثر كنيسة اعجبني هي المركز الكهرمائي ، ذاك المعبد المطل على البحيرة .

لقد شاهدت في ارمينيا اشياء كثيرة . اعتقد ان مدينة «ايريفان» Erevan هي من اجمل مدن العالم ، انها لمبنية من جير بركاني ، وهي

متناسقة كأنها الورد الموردة . ان زيارتي للمركز الفلكسي ب «بيناك» هسي زيادة لا نسي ، هناك رأيت لأول مرة كتابة النجوم . كانت اجهزه دقيقة جدا تلتقط اشعاعات الكواكب المرتعشة وتروح تكتب خفق النجم في الفضاء كأنه برقية كهربائية تأتي من السماء . لقد لاحظت في تلك الخطوط البيانية ان لكل نجم نوعا من الخط والحرف مختلفا ، ساحرا ومرتجفا ، مع انه غير مفهوم بالنسبة لعيني : عيني شاعر ارضي .

توجهت مباشرة ، فسي حديقة الحيوانات ب «ايريفان» نحو قفص «الكندور» ، لكن ابن بلدي لم يعرفني . كان هناك في ركن قفصه ، أصلع ، بهابن العينين غير المباليتين ، عيني «كاندور» بلا آمال ولا رغبات ، عيني عصفور كبير يحن الى سلسلة جبالنا . نظرت اليه في حزن لانني سوف اعود انا الى وطني وسيبقى هو سجيننا في هذا القفص .

ان مغامرتي مع «ال نابير» El Tapir كانت مختلفة . كان التابير يملك حديقة الحيوانات في «ايريفان» - قليلة هي حدائق الحيوانات الني لها مثل هذا الحيوان - ان «التابير» من «الامازون» وهو حيوان بجسد نور ووجه عظيم الأنف وعينين صغيرتين . يجب الاعتراف في ان «التابير» يتسبهي كثيرا ، ان هذا ليس بسر .

كان «تابير» مدينة «ايريفان» يغفو في حظيرته قرب البحيرة الصغيرة . حين رأيته رتقني بنظرة ذكاء لعلنا كنا قد تلاقينا ذات يوم في البرازيل فذكرني . سألني المدير ان كنت ارغب في ان اراه وهو يسبح فأجبتته بأنني كنت ارحل عبر العالم وليس لي من قصد الا ان اري «تابير» يسبح . ففتحوا له بوبا فخرج منه وهو ينظر اليّ نظرة سعادة وغبطة وانقذف الى الماء شاخرا كالحصان البحري ، مثل خيلان (١١) اشعر . كان يعلو رافعا جسده كله من الماء نم يغطس مسببا تموجا عاصفيا . كان ينهض نشوان من الفرخ ، كان يرنخر وينسخر ومن بعد بواصل في سرعة كبيرة العابسه البهلوانية غير المعقولة .

١١ - خيلان : حيوان حرافي نصفه رجل ونصفه سمك ، وهو الساس البحري .

— أبدا ما رأيناه فرحا جزلا كما هو عليه الآن — قال لي مديـر حديقة الحيوانات .

في الظهر ، عند الغداء الذي قدمته لي جمعية الكتاب ، رويت لهم في خطابي لاسداء الشكر على حفاوتهم بي مآثر الـ «تأبير» الامازوني وحدثتهم عن هوسي بالحيوانات واني لا ادع زيارة ابة حديقة من حدائق الحيوانات .

في الخطاب الجوابي ، رئيس الكتاب الارمن قال :

— لم يكن (نيرودا) بحاجة كي يذهب لزيارة حديقة الحيوانات في بلدنا، فلقد كان يكفيـه المجيء الى جمعية الكتاب كي يجد الاصناف والانواع كلها هنا مجمعة ، فنحن هنا لدينا اسود ، نمور ، نعالب ، عجول بحريسة وكذلك نسور ، افاع ، جمال ، ببغاوات .

النبيذ والحرب

لقد توقفت في موسكو بطريق عودتي . ان هذه المدينة ليست هي العاصمة العظيمة للاشتراكية فحسب ، ليست هي مقر الاحلام المتحققة فقط ، بل هي بالنسبة لي كذلك منزل اكثر اصدقائي محبة الى نفسي . ان موسكو لهي ، بالنسبة لي ، مهرجان واحتفال . ما ان اصل اليها ، عادة ، حتى اخرج وحيدا عبر الشوارع ، فرحا بالتنفس فيها ، مصفرا لحن «كويكا» (١٢) . انظر الى وجوه الروس ، الى عيون الروسيات وخصلات شعرهن ، الى الثلجات التي تباع في زوايا الطرقات، الى الزهور الورقية الشعبية ، الى واجهات المحلات بحثا عن اشياء جديدة ، عن اشياء صغيرة تجعل الحياة كبيرة .

ذات مرة ذهبت ، كعادتي ، لآزور (ايهرينبورغ) . فأراني هذا الصديق

١٢ — كويكا : يقال له كذلك «لأماويكا» ، وهو نوع من الرقص التشيلي .

الطيب اول ما اراني زجاجة «ماء الحياة» (١٢) نرويجية Aequavite على سطح هذه الزجاجاة رسمت سفينة شراعية كبيره في مكان آخر كتب تاريخ انطلاق الباخرة وتاريخ عودتها . انطلقت معها كذلك هذه الزجاجاة حتى «استراليا» ثم عادت معها الى موطنها «اسكاندينافيا» .

جعلنا نتحدث عن النبيذ . تذكرت تلك الفترة من شبابي حين كان نبيذنا الذي ورثناه ابا عن جد ، يسافر الى الخارج ، بناء على دعوة لكونه ممتازا فاخرا . لقد كان النبيذ اذالك غاليا جدا بالنسبة لنا نحن الذين كنا نستعمل ملابس السكك الحديدية وكنا نعيش حياه بوهيمية عاصفة .

لقد كنت اهتم دائما في كل بلد احل به ، بسنن النبيذ ومسالكه، منذ ان يولد من «أرجل الشعب» الى ان يتدورق في بلور أخضر او زجاج ذي وجوه . لقد طاب لي في «جليقيا» تناول نبيذ «ريبيرو» (١٤) الذي يشرب في طاسات ويدع على الفخار علامات دموية كثيفة متخثرة . اني لأذكر اني شربت في «هنفاربيا» نبيذا مكثفا معتقا يدعى «دم الثور» ، حين ينطشح يجعل اوتار الفجر ترتعد وترتجف الحانا وانغاما .

لقد كان لاجدادني كروم عنب . ان قرية «برآل» (١٥) ، حيث ولدت ، هي مهد سلافة حريفه . لقد تعلمت من ابي ومن اعمامي : (دون (١٦) خوسه انخيل) و(دون خويل) ، و(دون اوسياس) و(دون اموس) ، ان اميز النبيذ المعتق من المصفى . لقد كلفني جهدا أن أجعلهم يميلون نحو النبيذ غير المكرر الذي يرشح في الزق وينصب من قلب أصيل سخي غير محصن . كما في الاشياء جميعها كلفني جهدا ان اعود الى ما هو بدائي ، الى منبع القوه والنشاط ، بعد ان تمرست على مجاوزة حاسة الذوق بعد ان تدوقت

١٢ - ماء الحياة : هو نوع من العبر يشبه العرق .

١٤ - ريبيرو : هي كلمة من اللغة الجليقية تطلق على هذا النوع من النبيذ الشائع جدا في «جليقيا» وهي منطقة تقع في الشمال العربي من اسبانيا .

١٥ - برآل : معناها عريشة او دالية ، وقد كنا نذكرنا ذلك .

١٦ - دون : ان هذه الكلمة تعني السيد باللغة الاسبانية .

الطعم الشكلي التقليدي . ان الشيء نفسه يجري للفن : ان المرء يستيقظ على «افروديت» لـ (براكسليس Praxiteles) ويظل يحيا مع تماثيل «اوثيانيا» البرية الهمجية .

لقد تذوقت بباريس في بيت رفيع نبيدا رفيعا . كان النبذ هو «موتون - روتشيلد» Mouton - Rothschild ذا جسد معصوم ، ذا شذى لا يمكن التعبير عن روعته ، ذا تماس كامل . البيت كان بيت (اراغون) و (ايلسا تربولي) .

لقد تلقيت هذه الزجاجات لتوّي وسافنحها لك الآن - قال لي (اراغون) .

وروى لي الحكاية .

كانت الجيوش الالمانية تتقدم داخل الاراضي الفرنسية . وصل (لويس اراغون) وهو الشاعر الضابط واكثر جنود فرنسا ذكاء ، الى موقع متقدم . كان هو آمر فصيل من المرضى . فأعطاهم الامر بالتقدم الى ما هو أبعد من هذا الموقع المتقدم ، الى بناء يقع على بعد ثلاثمائة متر منه . فأوقفه رائد ذلك الموقع الفرنسي . وكان هذا الرائد هو (الكنت الفونس دي روتنيلد) ، أصغر من (اراغون) وهو ذو دماء حارة مثل دماء (اراغون) .

- انك لن تستطيع ان تمر من هنا - قال له - فالنيران الالمانية ستطلق حالا .

- ان أوامري هي ان يتقدم فصيلي حتى ذلك البناء - رد (اراغون) في حزم وجزم .

- ان أوامري هي ان لا تتقدم وأن تظل هنا - اجاب الرائد .

اني متأكد ، لاني اعرف (اراغون) جيدا ، انه في ذلك النقاش خرجت منه شرارة اثر شرارة كما القنابل ، اجابة كأنها السيوف . لكن هذا النزاع لم يدم اكثر من عشر دقائق اذ سقطت ، على حين غرة ، امام عيني

(روتشيلد) المفتوحتين وأمام ناظر (اراغون) كذلك ، قنبلة من مدفع هاون الماني فوق ذاك البناء القريب منهما فأحالتة الى دخان وانقراض ورماد في هنيهة .

هكذا انفذ التساير الاول لفرنسا بفضل عناد (روتشيلد) واصراره .

مند ذلك الحين ، في تاريخ تلك الحادثة الحولي نفسه يتلقى (اراغون) كل سنة بضعة Bonnes Bouteilles من «موتون - روتشيلد» ، من كروم «الكونت» الذي كان رائده في الحرب العالمية الاخيرة .

الآن انا في موسكو ، في دار (ايليا ايهرينبورغ) . لقد كان هذا المحارب الكبير بالادب ، العدو الخطير للنازية الى درجة انه وحده بساوي فرقة بأربعين الف رجل ، كذلك ابيقوريا صافيا . ابدا ما استطعت ان اعرف ان كان هو يعرف عن (سنندال) (١٧) أم عن (فواغراس) كان يندوق اشعار (جورج مانريك) في لذة كثيرة بقدر ما كان لا يتسددق (بومري - غرينو) . ان اكثر حبه حيوية وحياة كانت فرنسا بكاملها ، روح وجسد فرنسا اللذيذة الشدية .

الموضوع هو انه ، بعد الحرب ، ترددت اشاعة في موسكو بأنه ستعرض للبيع بعض زجاجات النبيذ الفرنسي . كان الجيش الاحمر اثناء زحفه نحو « برلين » قد استولى على معقل - فبو ، مليء بدعاية (غوبلز) (١٨) غير الصحية وزجاجات نبيذ كان هذا قد سلبها من خوابي فرنسا العذبة . ارسلت اوراق الدعاية وزجاجات النبيذ الى ثكنات الجيش الغالب فلم يجد الجيش الاحمر الذي بحث في الاوراق واحتفظ بالونات ما يفعل بالنسبة لهذه الزجاجات .

كانت الزجاجات المصنوعة من بلور مجيد تتباهى في عناوين خاصة

١٧ - ساندال : روائي فرنسي (١٧٨٣ - ١٨٤٢) .

١٨ - غوبلز Joseph Paul : سياسي الماني (١٨٩٧ - ١٩٤٥) .

سوارىخ مىلادها . تنحدر جمىعها من اصول رفىعة نبىلة ومن مواسم قطاف
سُهىرة معروفة . كانت زجاجات النبىذ Romané و Beaume و
chateau - neuf - du Pape تحاذى زجاجات Pouilly التقرء
وزجاجات Vourray العنبرىة وزجاجات chambertin المخملىة . كانت
المجموعه بأسرها مدعومة بأرقام تسلسلىة تبىن توارىخ قطاف أعناىها
الرفىعة جدا .

لقد وزعت العقلىة الاشتراكىة النازعة الى المساواة فى كل شىء على
الحوانىث أمجاد المعاصر الفرنسىة السامىة هذه بسعر النبىذ الروسى
نفسه . وفرض على ذلك قىدا وحىدا ألا وهو ان كل متستر لا ىستطىع
الحصول الا على عدد محدد ومختصر من هذه الزجاجات . انها لعظىمة
مفاسد الاشتراكىة ، بىد اننا نحن السُعراء على نمط سواء فى انحاء الدىا
كلها . كل واحد من زملائى فى الادب ارسل أقاربہ ، جىرائه ، معارفه ،
كى ىشتروا له بسعر مخفض جدا زجاجات نبىذ ذات محدد سام وصنف
عال . فانتهب من السوق فى يوم واحد فقط .

لقد وصلت الى دار (اىهرىنبورغ) كمىة لن أبوح بها . بهذه المناسبة
وجدتنى فى صحبة عدو النازىة اللدود ، نتحدث معا عن النبىذ ونشرب
جزءا من قبو (غوبلز) ، نخب الشعر وعلى شرف الانتصار .

القصور المستردة

لم يدعنى الاشراف الى بىوتاتهم الكبرى يوما ، البتة ، والحقىقة هى
اننى لم ىكن لى من حب الاستطلاع الا القلىل النادر ، دائما . ان الرىاضة
الفومىة فى تشىلى هى المزايدة . انك لترى أناسا كثرىن ىخفون فى زحمة
وازدحام الى المزايدات الاسبوعىة التى تىمز بلدى . كل مزاد له حظىرته
الخاصة به وكل حظىرة دار لها مصىرها . حىن تصل اللحظة المناسبة تبدأ
بالمزايدة على احسن مزايد الحواجز الحدىدىة التى ما تركتنى مرة اتخطاها ،
لم تتركنى ولا بركب العامة التى اشكل جزءا منها ، ومع هذه الحواجز
الحدىدىة التى تحىط بالحظائر تفر اصحابها ومالكىها المقاعد والكراسى ،
تماىل المسىح المدماة ، صور الفترة الحالىة ، الصحون ، الملاعق ، الملاحف
التي تحتها تناسلت حىوات كسلى كثيرة . انه لىعجب الانسان التشىلى ان

بدخل ، أن يلمس ، أن يجس ، أن ينظر ، أن يساوم ويفاصل . قليلون هم الذين يستترون في آخر الامر . من بعد يهد بناء كل حظيرة فيزايد على كل قطعه من قطع البناء . فيأخذ المستترون معهم العيون ، اي النوافذ ، الامعاء ، اي السلالم والاقدام هي ارضيات البناء الخشبية ، واخيرا فانهم ينمسون كل شيء حتى اشجار النخيل المغروسة .

في اوروبا ، على العكس من هذا فان الدور يحافظ عليها ولا تباع كما في تشيلي . انك لستطيع ان ترى ، احيانا ، صورة لكل «دوق» ولكل «دوقة» ، معلقة هناك على الجدران ، صورا رسمها رسام محظوظ لاصحاب هذه المنازل وسيداتهما وهن عاريات فكانت معة لنا نحن الذين نتمعن الآن في هذه الرسوم وفي هذه الانحناءات التي بها . اننا لنستطيع ان نلمح ايضا الاسرار ، الجرائم ، السعر المستعار ، هذه السجلات المحيرة التي هي الجدران ذات الزرابي والسجاجيد التي امنصت احاديث كثيرة مختصة بمقصورة المستقبل الاليكترونية .

لقد دعيت لزيارة «رومانيا» فلبيت الدعوة مسرعا واسرعت الى الموعد . اخذني الكتاب للاستجمام الى دارهم الريفية الجماعية وسط الغابات الجميلة . لقد كان منزل الكتاب الرومانيين من قبل قصرا لـ (كارول Carol) ذاك الطائش الذي اصبحت غرامياته فوق الطبيعية مهيزة عالية . ان القصر الآن بأثاثه الجديد وحمائماته المرمرية قد وضع تحت خدمة الفكر والشعر برومانيا . لقد نمب نوما مريحا جيدا في سرير جلالة الملكة ، وفي اليوم التالي ذهبنا لنزور قصورا اخرى اصبحت متاحف او منازل اسنجمام او مواضع لقضاء الاجازات . كان يصحني من التعراء (جيبيليانسو) و (بينويك) و (رادو باورلانو) . في الصباح الاخضر ، تحت عمق اشجار الثنوب بالحدائق الملكية القديمة ، كنا نعني في افراط ، كنا نضحك في صخب ، كنا ننتد اشعارا بكل اللغات . ان الشعراء الرومانيين باريوخهم الطويل من الآلام والافجاء خلال الانظمة الملكية - الفاشية ، هم اكثر الشعراء قيمة وفي الوقت ذاته اكثرنا فرحا . لقد كان اولئك المنشدون الرواة الرومانيون جدا كما عصافير بلادهم الاحراجية ، الحازمون في قوميتهم الجازمون في ثورتهم ، المغمسون بالحياة غراما ثملا ، اكتشافا بالنسبة لي . في اماكن قليلة استطعت ان افوز بأخوة كثر في وقت قصير كما في «رومانيا» .

رويت للشعراء الرومانيين كي اسرهم وأبعث في نفوسهم فرحا كبيرا
أن زيارتي السابقة لقصر نبيل كانت هي زيارتي لقصر «ليريا» بمدريد في عز
الحرب الاهلية . فيما كان العدو يمضي منصرفا الى عمله المقدس بتقتيل
الاسبان ، يشاركه في هذا الطليان والمغاربة والصلبان المعقوفة ، احتل
رجال «الميليشيا» ذاك القصر الذي كنت اراه مرارا وتكرارا لدى عبوري بشارع
«ارغوايس» في عامي ١٩٣٤ - ١٩٣٥ . كنت من حافلة الركاب النسي
تفني أوجه نظره الاحرام ، ليست نظرة طاعة لهؤلاء «الدوقيين» الجدد من
آل (البا) الذين ما كانوا ليقدروا على اخضاعي وأنا امريكي اجنبي شبه
همجي ، بل كنت مسحورا مأخوذا بهذه الجلالة التي لا يملك مثلها الا
الخيول وشواهد القبور ونواويسها الصامنة البيضاء .

حين اندلعت الحرب الاهلية ظل (دوق ، البا) هذا مفيما في انجلترا ،
لان لقبه في الحقيقة هو (بيرويك) . بقي هناك مع احسن لوحاته ومع أكنز
كنوزه . متذكرا هذا الهرب «الدوقي» قلت لزملائي الرومانيين انه في
الصين ، بعد التحرير ، هرب آخر سليل من سلالة (كونفوشيوس) الذي
اغتنى بمعبد الفيلسوف المرحوم وبعضهم قبسه ، الى «فيرموزا» مزودا
بلوحات وسراشف وأوان ، وعظام كتيره كذلك . لا بد انه جيد التوضع
هناك نظرا لانه يقبض ممن بطاقات الدخول ليرى الناس رفات جده
المغفور له .

من اسبانيا كانت نخرج في تلكم الايام ، نحو بقية انحاء العالم أخبار
رهيبة مرعبة : «قصر (دوق البا) التاريخي يسطو عليه الحمر» ، مشاهد
آثمة من التخريب والتهديم . «فلنقد هذه التحفة التاريخية» .

لقد ذهبت لأرى الفصر الذي كنت استطيع ان ادخل اليه بعد ان
احتله رجال «الميليشيا» . كان الناهبون المفترضون عند الباب واقفين في
ملابسهم العمالية الزرقاء وبنادقهم في ايديهم . كانت تتساقط أوائل القنابل
فوق مدريد من طائرات الجيش الالماني . طلبت من رجال «الميليشيا» ان
يتركوني ادخل الى القصر . دققوا في اوراقى الثبوتية تدقيقا دقيقا وفحصا
متمعنا . كنت على وشك ان أبدا بأوائل خطاي داخل القاعات الثرية، الغنية
حين منعوني من ذلك لاني ارتكبت خطأ فادحا : لم اكن قد نظفت حذائي
في المسحة الموجودة عند البوابة . في الواقع ان مداسات القاعات

وأرضياتها كانت تلمع كالمرايا . نظمت الحذاء ودخلت . كانت المستطيلات الفارغة في الجدران تعني لوحات غائبة . كان رجال المليشيا يعرفون ذلك كله . لقد قصوا عليّ كيف ان «الدوق» كان قد اخذ هذه اللوحات السي مصرفه في «لندن» منذ سنين كثيرة ووضعها هناك في صندوق محكم . ان الشيء المهم الوحيد في القاعة الكبيرة كان هو تذكارات صيد ؛ رؤوس ذات قرون ، لا حصر لها وخراطيم وحوش مختلفة . ما كان يلفت النظر اكثر من غيره هو دب ابيض كبير واقف على قدميه وسط الغرفة ورافع ذراعيه القطبيتين المفتوحتين وله وجه ضاحك يفتر عن اسنانه كلها ، وكان هذا الدب هو المفضل لدى رجال «المليشيا» اذ انهم ينفضونه بعرضاة كل يوم وينحجونه .

طبعا لقد اهتممت بغرف النوم حيث كان ينام الكثيرون من آل (البا) مع كوابيس تسببها الاشباح «الفلامنكية» التي تأتي في الليالي لتدغدغ لهم أرجلهم . الأرجل لم تعد هناك موجودة لكن ، اجل ، اكبر مجموعة من الاحذية رأيتها في حياتي . ان هذا الدوق الاخير لم يزد شيئا في مجموعة لوحات القصر غير ان مجموعة احذيته كانت شيئا مفاجئا ، شيئا لا يحصى لكثرتة . رفوف طويلة ذات زجاج كانت تصل حتى السقف ، فيها تحفظ آلاف الاحذية . كان ثمة ، كما في المكتبات ، سلالم خاصة ، ربما انها تستعمل كي تأخذ هذه الاحذية من كعابها . نظرت في حيلة وتمعن اليها . كان ثمة مئات الأزواج من الجزم البديعة لركوب الخيل ، بعضها اصفر وبعضها اسود . كذلك كان هناك من هذه الاحذية ذات الكعوب العالية ، ذات الاقمصة المخملية والازرار الصدفية . كان هناك كميات هائلة من الاحذية الكبيرة ، من النعال ، من الاخفاف ، كل واحد منها وقلبه في داخله ، وهذا ما كان يجعلها تبدو وكأن لها سيقانا واقداما نابثة صلبة تحت تصرفها وطوع امرها . فان فتحت الواجهة لهذه الاحذية فانها ستركض جمبعها الى «لندن» وراء «الدوق» ! يمكن للمرء ان يستعرض هذه الاحذية ذات الكعوب العالية المصطفة على طول ثلاث غرف او اربع ، استعراضا بنظره ، بنظره فقط لان رجال «المليشيا» وقد تنكبوا البنادق لن يسمحوا له ولا حتى لدبابة ان تلمس هذه الاحذية . «الثقافة» كان المدعون يقولون : «التاريخ» كان المتخرصون يزعمون . لقد كنت انا أفكر بالفتيان الفقراء المنتعلين نعلا من قتب الموقفين زحف الفاشية في قسم «سوموسير» (١٩) الرهيبة ،

المدفونة في الثلج والوحل .

كان قرب سرير «الدوق» لوحة ذات اطر ذهبية جذبتني بحروفها القوطية . عجباً ، فكرت ، لا بد ان شجرة اسرة (البا) قد رسمت هنا وخطت ، لقد كنت على خطأ فلقد كانت قصيدة « ايف » لـ (روديارد كيبلينغ) (٢٠) هذا الشعر المتبدل المناق ، رائد مجلة «ريدير ديجيست» الذي مستواه الفكري لا يزيد علواً في رأيي عن مستوى احذية (الدوق البا)، مع اذن الامبراطورية البريطانية .

ان حمّام «الدوقة» سيكون منيراً للغاية ومهيّجاً جداً ، كنت افكر انا ، لا بد انه سيتير بي اشياء كثيرة . بخاصة تلك العذراء المتكئة الموجودة في متحف «الباردو» (٢١) التي وضعت لها (غويا) الحلمتين الواحدة بعيدة جداً عن الاخرى ، الى درجة ان المرء يفكر كيف قاس الرسام الثوري البعد مضيئاً على قبة الى ان ترك لها عقداً غير مرئي من نهد الى نهد . لكن الغلط استمر فأخطأت مرة اخرى في توقعاتي . لقد اخطأت في الدب ، فضع موضع الاحذية ذات الكعوب العالية ، في «الابيريت» الاسبانية ، في الـ «ايف» وأخيراً بدلاً من حمّام إلهة وجدت مرحاضاً مدوراً ذا أبهة مزيفة بنصف برميل تحت مستوى الأرض ، ببجع مصنوعة من الهيصم ، متأنقة ، حاملات قناديل متحدقة متكلفة متصنعة هزلية ، في النهاية ، قاعة حمّام للجارية كأنه حمّام في فيلم امريكي شمالي .

كنت على وشك الانسحاب في عدم رضا كئيب حين خفّف عني اذ ان رجال «المليشيا» دعوني الى الغداء . هبطت معهم الى المطابخ . كان قد استمر هنا اكثر من اربعين او خمسين من الطهام والخدم والبستانيين الذين كانوا يعملون عند «الدوق» ، يعيشون ويطبخون لهم ولرجال «المليشيا» الذين كانوا يحرسون القصر . اعتبروا زيارتي مشرفة لهم . بعد

١٩ - سوموسيرا : هي سلسلة جبال قريبة من مدريد .

٢٠ - روديارد كيبلينغ : روائي وشاعر انجليزي (١٨٦٥ - ١٩٣٦) .

٢١ - الـ باردو : هو متحف مدريد الشهير .

بضعة همسات وبعد الذهاب والاياب وتوقيع وصول لا بد منها أخرجوا
زجاجة مغيرة واذ بها من نوع lachrima christi لها من العمر مائة سنة،
فما تركوني اشرب منها الا بضعة جرعات ، كان نبذا لاعجا حارا مركبا من
عسل ونار ، وفي الوقت نفسه عنيقا شديدا ، لا يدرك باللمس . لن انسى
بسهولة دموع «الدوق» التي انسكبت في الاقداح .

بعد اسبوع اغارت طائرتان المانيتان والقتا اربع قنابل محرقة فوق قصر
«ليريا» . لقد شاهدت وأنا على شرفة بيتي طيران العصفورين العرافين ،
تألقا ملونا جعلني أدرك لتوتني اني اشاهد لحظات القصر الاخيرة .
لقد مررت ذاك المساء نفسه بالاطلال الدخانية — اقول هذا للكتاب
الرومانيين منهيًا حكايتي — .

هناك علمت بنسيء مؤثر جدا — أضعت من بعد — اذ ان رجال
«المليشيا» النبلاء انصرفوا تحت النار التي كانت تنزل من السماء ، وبين
الانفجارات التي كانت تهز الارض ووسط الحرائق التي كانت تزداد وتنمو،
لانقاذ ما يمكن انقاذه فما استطاعوا ان ينقلوا الا الدب الابيض، وكادوا ان
يهلكوا في محاولتهم هذه اذ ان الدعامات كانت تنهدّ وكل شيء كان يشتعل،
وكان هذا الحيوان المحنط الهائل يصر ويعاند كي لا يمر من بين النوافذ او
الابواب . لقد رأيته من جديد ولاحر مرة بذراعيه المنفتحتين وبلونه الابيض
ميتا من الضحك فوق عشب حديقة القصر .

عهد عابري الفضاء

موسكو من جديد . في صبيحة يوم ٧ من تشرين الثاني حضرت
استعراض الشعب لرياضيه ، للفتوة السوفيتية المضيئة . لقد كان
الشبان يسرون ثابتين أكيدون فوق الساحة الحمراء . كانت تتأملهم عينان
حادثتان لرجل مات منذ سنوات طويلة ، انه مؤسس هذا الامن ، مؤسس
هذا الفرح وهذه القوة : (فلاديمير ايليش اوليانوف) (٢٢) المعروف بشكل
خالد بليينين .

٢٢ — فلاديمير ايليش اوليانوف : هو (لينين) بطل الثورة البروليتارية في الاتحاد
السوفيتي (١٨٧٠ — ١٩٢٤) .

لقد عُرِضَتْ هذه المرة اسلحة قليلة ، ولكن لأول مرة شوهدت الصواريخ عابرة القارات ، الهائلة . تقريبا كنت استطيع ان المس باليد تلك السجائر العظيمة النقية ذات المظهر الدمى ، القادرة على حمل التدمير النووي الى أبعد نقطة في الكرة الأرضية .

لقد منحوا في ذلك اليوم نفسه اوسمة للروسيين الذين عادوا من السماء . لقد كنت انا اشعر اني قريب جدا من اجنحتهما . ان مهنة الشاعر هي ، في قسمها الاكبر ، الطيران كما العصافير . لقد جاءني الرغبة عبر شوارع موسكو ، عند ضفاف البحر الاسود ، بين الفجاج الجبلية بالقوقاس السوفييتي ، في ان انظم ديوانا عن عصافير تشيلي . لقد كان شاعر «نيموكو» بشكل واع منصرفا الى «التعصفر» ، الى الكتابة عن ارضه النائية الفضية ، عن البلبل والعندليب ، عن القبرة والسدوري ، عن «الكندور» والكناري ، بينما كان عصفوران بشريان ، عابرا فضاء سوفييتيان ينطلقان، يحلقان في الفضاء ويدهشان العالم اجمع . لقد حبسنا جميعا أنفاسنا ونحن نشعر فوق رؤوسنا بهما ، وننظر بعيوننا الى الطيران الكوني الشائلي.

ذلك اليوم كانوا يمنحونهما اوسمة . وكان بالقرب منهما ، وجميعهم ارضيون بشكل كامل ، عائلاتهم ، اقاربهم ، اصلهما ، جنسهما ، جذرهما الشعبي . كان للرجال الشيب شوارب فلاحين كبيرة غزيرة وكانت النساء العجائز يفتين رؤوسهن بمناديل الارياف الاصيلية . لقد كان رائدا الفضاء هذان مثلنا سواء بسواء ، فنحن جميعا ارواح من الحقل ، من الضيعة ، من المصنع ، من المكتب . لقد استقبلهما في الساحة الحمراء ، باسم الامة السوفييتية (نيكينا خروتشوف) (٢٣) . من بعد رأبناهما في قاعة القديس (جورجوس) فقدموني الى (غورمان تيتشوف) (٢٤) رائد الفضاء رقم اثنين ، وهو شاب لطيف له عينان مضيئتان . فسألته ، فجأة:

— قل لي ، ايها الرائد ، حين كنت تبهر عبر الكون وتنظر نحو كوكبنا،

٢٣ — نيكينا خروتشوف Nikita Jruschov : هو الزعيم السياسي السوفييتي (١٨٩٤ — ١٩٧٣) .

٢٤ — غورمان تيتشوف : رائد الفضاء السوفييتي ولد عام ١٩٣٥ .

أفكنت تلمح تشيلي ؟ كان ذلك كما لو اني قلت له : «انك لتدرك ان ما هو مهم فى رحلتك كان هو رؤية «تشيلي» من عل» .

لم يتسم كما كنت أتوقع بل فكر بضعة ثوان ثم قال :

— اني لأذكر اني رايت سلسلة جبال صفراء بأمريكا الجنوبية وكنت لاحظ انها عالية جدا ، ربما انها كانت تشيلي .

طبعا كانت تشيلي ، ايها الرفيق . .

لقد تركت موسكو في الوقت الذي اكتملت فيه اربعون سنة على نشوء الثورة الاشتراكية ، وأخذت القطار المنجه الى «فينلانديا» . حين كنت أعبّر المدينة باتجاه المحطة كانت تصعد صواريخ نارية كبيرة مضيئة ، فوسفورية ، زرقاء ، حمراء ، بنفسجية ، خضراء ، صفراء ، برتقالية ، وتحلقّ عاليا جدا كأنها شحانات فرح تفرغ ، علامات صداقة تنطلق نحو الشعوب قاطبة من تلك الليلة المجيدة .

اشتريت في «فينلانديا» ناب كركدن بحري ومضيئا في سفرنا . اخذنا الباخرة التي ستعيدنا الى أمريكا . كذلك أمريكا ووطني يمضيان مع الحبة ومع الزمن . عندما مررنا بـ «فينزويلا» في طريقنا الى «البارائيسو» ارسل الطاغية (بيرث خيمينيث) (٢٥) ، الطفل المدلل لدائرة الدولة بالولايات المتحدة ، نفل (تروجيلو) (٢٦) و (سوموثا) (٢٧) بضعة جنود كما لو كانوا يركبون الى الحرب ، في مهمة منعنا من النزول الى «فينزويلا» ، ليس منع الركاب جميعهم بل منع رفيقة حياتي ومنعي من النزول من الباخرة . لكن ، ما ان وصلنا الى «البارائيسو» حتى كانت الحرية قد طردت الطاغية الفينزويلي ، فهورل المرزبان العظيم نحو «ميامي»

٢٥ — بيرث خيمينيث Marcos : جنرال فينزيولي ولد عام ١٩١٤ .

٢٦ — تروجيلو Rafael Leónidas : جنرال دومينيكاني (١٨٩١ - ١٩٦١) .

٢٧ — سوموثا Anastasio «Tachi» : جنرال بيكراغوي (١٨٩٦ - ١٩٥٦) .

مثل ارنب مروبص . ان العالم يسير بسرعة منذ طيران «سبوتنيك» . من
كان يقول ان اول شخص سيقرع بابغرفتي في الباخرة بميناء «البارائيسو»
كي يرحب بمجيئنا ، هو الروائي (سيمونوف) الذي كنت تركته يسبح في
البحر الاسود ؟.

الفصل الحادي عشر

الشعر حرفة

قدرة الشعر

لقد كان ميزة من ميزات فترتنا - بين الحروب والثورات والحركات الاجتماعية الكبرى - انماء خصوبة الشعر حتى حدود ليست بمشتبهة . لقد كان على الانسان الاجتماعي ان يواجه الشعر بشكل جرح او مجروح، سواء اكان في وحدته منعزلا وسواء اكان مشاركا في جماهير الاجتماعات العامة المحتشدة .

ابدا ما فكرت من قبل ، حين كتبت اوائل كتبي المفعمة بالحزن والوحدة ، اني مع مضي السنين سأجدني انشد شعري في ساحات وشوارع ومعامل وقاعات ومسارح وحدائق عامة . لقد جبت وجلت في انحاء تشيلي كلها أنثر شعري بين اناس شعبي .

سأروي الآن ما جرى لي في «الغوطة المركزية» التي هي أكبر سوق وأكثرها شعبية وشهرة في تشيلي . مع شروق الشمس يصل اليها الشاحنات والعربات والسيارات التي تجلب البقول والفواكه والاطعمة على اختلاف أنواعها وأصنافها من المزارع التي تحيط بالعاصمة اللاعقة الملتهمة الشرهة . يتكاثر الحمالة - وهم حشد كبير ، حفاة عراة ، ذوو أجور قليلة زهيدة - في المقاهي الصغيرة والمخابيء الليلية المجاورة لأحياء «الغوطة» .

ذات يوم جاء بضعة رجال في سيارة يبحثون عني فدخلت الى السيارة دون ان أعرف الى اين ولماذا انا أمضي معهم في هذه السيارة . كنت أحمل معي في جيبتي نسخة من ديواني «اسبانيا في القلب» . ثم شرحوا لي في السيارة اني مدعو لكي ألقى محاضرة في نقابة حمالي «الغوطة» .

حين دخلت الى تلك القاعة غير المرتبة شعرت ببرد «ليل» (خوسيه اسونثيون سيلفا) (١) ، ليس بسبب فصل الشتاء المتقدم ففي زمهريره وأمطاره فحسب بل كذلك بسبب ذلك الجو في تلك القاعة ، الذي جعلني مندهشا مرتعدا . كان يجلس على صناديق ختبية او مقاعد ليست بمقاعد، أكثر من خمسين رجلا ، بعضهم يضع على خصره كيسا مربوطا على شكل مريول وبعضهم يغطي جسده بقميص مرقع عتيق وبعضهم الآخر يتحدث برد شهر تموز (٢) ببدنه العاري . انا جلست خلف طاولة صغيرة تفصلني عن ذاك الجمهور الغريب العجيب . كانوا جميعا ينظرون اليّ بعيون فحمية ساكنة ، عيون شعب بلدي .

تذكرت (لافيرت) المعجوز . كان (لافيرت) ينعت هؤلاء المتفرجين الثابتين الجنان الذين لا يحركون اية عضلة من عضلات وجوههم ، وينظرون نظرات ثابتة جريئة ، بنعت كان يجعلني اضحك كثيرا . ذات مرة قال لي حينما كنا في سهول ملح البارود : «انظر الى هذين المسلمين المستندين الى عامود

١ - خوسيه اسونثيون سيلفا : شاعر كولومبي (١٨٦٥ - ١٨٩٦) .

٢ - تموز : هو شهر بارد من اشهر الشتاء في امريكا الجنوبية، حيث الفصول هناك معاكسة لفصولنا المعهودة .

هناك في آخر القاعة ، اللذين ينظران الينا ، لا ينقصهما الا البرنس (٣) كي يبدوا وكأنهما من مؤمني الصحراء الرابطي الجاش والجنان» .

ما العمل مع هذا الجمهور ؟ عم يمكن لي ان أحدثهم ؟ ما هي اشياء حياتي التي في مكنتها ان تثير اهتمامهم ؟ دون ان استطيع ان اقرر شيئا ، وقد أخفيت رغباتي بالخروج من هناك مهرولا ، اخذت الكتاب الذي كنت أحمله معي وقلت لهم :

لقد كنت في اسبانيا منذ زمن قريب . هناك كان ثمة صراع كبير وطلقات رصاص كثيرة ، اسمعوا ما قلته حول ذلك الموضوع .

يجب عليّ هنا ان أشرح ان كتابي «اسبانيا في القلب» لم يبد لي قط على انه كتاب سهل الفهم . له طموح الى الوضوح لكنه مغموس في زحمة تلك الآلام الكبيرة المتعددة .

ما هو اكيد اني فكرت ان اقرا بضعة ابيات ثم اودعهم . لكن الاشياء لم تجر هكذا . عندما شرعت اقرا قصيدة اثر قصيدة ، مدفوعا بإحساسي ان هناك سكونا عميقا يسود وان كلماتي تتساقط فيه كما لو كان ماء عميقا وان عيونا تعلوها حواجب داكنة كثيفة الشعر تتابع في اهتمام بالغ شعري ، أدركت ان كتابي قد بلغ غايته وحقق غرضه فمضيت اقرا واقرأ ، متأثرا انا نفسي بنغم شعري ، مهتزا بالعلاقة المغناطيسية بين أشعاري وبين تلك الارواح المهجورة .

لقد استغرقت قراءتي اكثر من ساعة . حين كنت على وشك الانسحاب نهض واحد من أولئك الرجال ممن يحملون الكيس المعقود حول الخصر وقال :

— أريد ان أقدم لك الشكر باسم الجميع — قال ذلك في صوت عال —

٣ - البرنس : هكذا في الاصل Albornoz عن العربية

وكذلك أريد أن أقول لك أننا لم نفعل من قبل كما افعلنا ونحن نصفي إلى
أشعارك .

حين انتهى من كلمته هذه انفجر في نحيب وطفق آخرون عديدون
يكون . خرجت إلى الشارع بين نظرات بليلة ومصافحات بأيدي خشنة
غليظة .

هل يستطيع شاعر أن يكون هو نفسه بعد أن يمر بهذه التجارب من
الورد والنار ؟

عندما أريد أن أتذكر (تينا مودوتي) فأنسي أبذل جهدا
كبيرا كما لو أنني التقط قبضة ضباب . كانت هشة ذكراها ، غير مرئية .
أعرفتها أم لم أعرفها ؟ .

كانت لما نزل جميلة : وجه بيضوي شاحب متأطر بجناحين سوداوين
من شعر ملموم ، وعينان مخمليتان واسعتان تنظران من خلال السنين . لقد
طبع (دييغو ريبيرا) صورتها ، قوامها ووجهها ، على جدارية من لوحاته ،
مكللة بتويجات نباتية ومزارق من ذرة .

لقد كانت هذه المرأة مناضلة ثورية إيطالية ، فنانة كبيرة في فن
التصوير ، وصلت إلى الاتحاد السوفييتي منذ زمن بغرض تصوير الجماهير
والنصب التذكارية . لكنها ، هناك وقد أحيطت بأنغام الخلق الاشتراكي
المبهرة ، رمت بآلة التصوير إلى نهر «موسكوف» وأقسمت أن تكرس حياتها
كلها لتأدية أكثر مهام الحزب الشيوعي تواضعا . حين كانت تؤدي هذه
المهام أو قسما منها عرفت أنها في المكسيك وشعرت أنها تموت تلك الليلة .

وقع هذا عام ١٩٤١ . كان زوجها هو (فيتوريو فيدالي) الرائد المشهور
باسم (كارلوس) في الطابور الخامس . ماتت (تينا مودوتي) بسكتة قلبية
في التاكسي الذي كان يقلها إلى بيتها . هي كانت تعرف أن قلبها ما كان
يسير سيرا حسنا لكنها لم تبج بهذا الأمر إلى أحد حتى لا يضمنوا عليها
بالعمل الثوري الذي كانت تؤديه ، فقد كانت مستعدة لتنفيذ ما لا ينفذه
أحد غيرها : مسح المكاتب وتنظيفها ، الذهاب مشبا على الأقدام إلى أبعد

المناطق وأكثرها شعبية ، قضاء الليالي في سهر وهي تكتب على الآلة الكاتبة ، الرسائل والتقارير او وهي تترجم مقالات . وفي الحرب الاهلية الاسبانية كانت ممرضة لجرحى مناضلي الجمهورية الاسبانية .

لقد وقعت لها حادثة مأساوية في حياتها حين كانت رفيقة الزعيم الكبير الشاب (خوليو انطونيو ميبا) الذي كان لاجئا حينذاك في المكسيك . لقد ارسل الطاغية (جيراردو ماتشادو) (٤) من «لا هافانا» عصبة من حاملي المسدسات المجرمين كي يقتلوا هذا الزعيم الثوري . كانا يخرجان ذات مساء من السينما ، «تينا» واضعة ذراعها بذراع «ميبا» ، حين اطلقت عليهما عيارات نارية ، فسقط هو صريعا وتدحرجت هي معه على الارض ملطخة بدماء صاحبها فيما كان المقاتلون المجرمون يهربون وهم محميون بشكل جيد . والطامة الكبرى هي ان رجال الامن هؤلاء الذين حموا المجرمين حاولوا اتهام (تينا مودوتي) زاعمين انها هي القاتلة .

بعد مضي اثنتي عشرة سنة على ذلك الحادث استنفرت في صمت قوي (تينا مودوتي) . حاولت السلطات المكسيكية ان تكرر تلك الفضيحة التي ارتكبتها حين ارادت هذه السلطات اتهام (نيننا) بموت (ميبا) ، مدعية ان موتها يتعلق بفضيحة . اثناء ذلك (كارلوس) وأنا كنا نكشف عن تلك الجثة الصغيرة . ان رؤية معاناة رجل قوي جدا وشجاع جدا ليس بالمنظر اللطيف . لقد كان ذاك الاسد يدمى حين يتلقى في جراحه سم الفضيحة القارض التي كان يراد بها تلطيخ (تينا مودوتي) مرة أخرى وهي ميتة . كان الرائد (كارلوس) يزمر ويزار بعينيه المحمرتين ، (تينا) اصبحت من شمع في تابوتها الصغير ، تابوت لاجئة وأنا كنت ساكتا غير قادر على عمل شيء تجاه ذاك الكرب الانساني المجتمع في تلك الغرفة .

كان الصحفيون يملأون صفحات كاملة من سلسلة قصص قدرة . كانوا يسمونها «امراة موسكو الغامضة» . بعضهم كان يضيف «ماتت لانها كانت تعرف اكثر مما يجب» . متأثرا بالآلام (كارلوس) الغاضب ، اتخذت قرارا .

٤ - خيراردو ماتشادو : كان رئيسا للدولة الكوبية (١٨٧١ - ١٩٣٩) .

كتب قصيدة متحدية ، ضد أولئك الذين كانوا يهينون ميتتنا النبيلة .
ارسلتها الى الصحف كافة دون أدنى أمل بأن ينشروها . ها لقد حدثت
الاعجوبة . فلقد ظهرت في اليوم التالي على الصفحات الاولى بدلا من
الفضائح المزورة المزيفة ، قصيدتي الساخطة الغاضبة .

كانت القصيدة معنونة على الشكل التالي « (تينا مودوتي) قد ماتت »
قراؤها ذلك الصباح ، في مقبرة «المكسيك» (٥) حين اودعنا التراب جسدها
حيث ترقد هناك الى الابد تحت حجر غرانييتي مكسيكي . فوق شاهد هذا
الحجر نقش قصيدتي .

ابدا لم تعد تلك الصحافة تكتب سطرا واحدا ضد (تينا مودوتي) .

كان ذلك في «لوتا» منذ سنوات عديدة . لقد خف الى اجتماع سياسي
اكثر من عشرة آلاف عامل من عمال المناجم . ان منطقة الفحم هي منطقة
متزعزعة مهتزة لما فيها من فقر دام اكثر من قرن . فجاء منها الى ساحة
«لوتا» عمال كثيرون غصت بهم الساحة . تكلم الخطباء السياسيون كثيرا .
كانت تطفو في الهواء الحار لمنتصف النهار رائحة كرائحة الفحم وملح
البحر . قريبا من هناك كان المحيط ، نمتد تحت مياهه على مدى اكثر من
عشرة كيلومترات الانفاق المعتمدة التي كان أولئك الرجال يستخرجون
منها الفحم .

ها هم الآن يصفون، في عز الشمس ، المنصة عالية جدا ومنها ألحظ
ذاك البحر من خلال قبعات العمال السوداء وخوذهم . كان دوري فسي
الكلام هو الاخير . حين اعلن عن اسمي وعن عنوان قصيدتي «نشيد حب
جديد الى «ستالينغراد» » ، حدث شيء خارق ، مهرجان لن يستطيع ان
انساه ابدا .

ان الجماهير الفقيرة ، حين سمعت اسمي وعنوان قصيدتي انكشفت
في هدوء . انكشفت لانه ، بعد تلك اللهجة الحاسمة والجميل السياسية

٥ - المكسيك : هو اسم عاصمة المكسيك كذلك .

الحازمة سيتكلم شعري : الشعر . انا رايت من على تلك المنصة العالية
حركة القبعات الهائلة : عشرة آلاف يد كانت تنزل في ايقاع واحد ، في
تموج لا يوصف ، في حركة بحر ساكن ، في زبد اسود ذي وقار صامت
واحترام خاشع .

اذك قصيدتي نمت واكتسبت نبرتها النضالية التحريرية المطلقة .

هذا الشيء الآخر جرى لي في اعوامي الفتية . حينذاك كنت شاعرا
طلابيا ارتدي برودة غامقة اللون ، شاعرا لا يتغذى بما فيه الكفاية كشعراء
تلك الفترة جميعهم . كنت قد انتهيت من نشر ديواني «شفقيات» ، وكنت
ازن اقل من ريشة سوداء .

دخلت مع اصدقائي الى ملهى ذي ميتة سيئة (٦) . كان زمن «التانغو»
وعهد العريضة الدنيئة . فجأة توقف الرقص وتهشم «التانغو» كما كأس
انفجرت على حائط .

كان في مركز الحف حيث كان الناس يرقصون ، وغدان شهيران
يتشاتمان ويتهازمان ويتلامزان . حين يتقدم احدهم كي يصفع الآخر ،
يتقهقر الثاني وترتد مع تقهقره جمهرة محببي الموسيقى الذين كانوا
يتمترسون خلف الطاولات . كان هذا كله يبدو وكأنه رقصة بدائية وحشية
في ساحة وسط الغابة البكر .

دون ان افكر مليا اقتربت منهما وانتهرتهما وأنا ما أنا عليه من ضعف
جسدي وهزال عضلي :

ايها العريضان الرعيدان ، ايها الحقيران التافهان ، ايها الخسيسان
البخسان ، ايها الفرخان المشاغبان ، اتركوا الناس وشأنهم في راحة وهدوء
فهم ما جاؤوا الى هنا لمشاهدة هذه المهزلة بل للرقص والمتعة .

٦ - ميتة سيئة : تعبير اسباني بمعنى ، سيء او بمعنى ، سمعة سيئة .

نظر احدهم الى الآخر مندهشين متفاجئين كما لو لم يكن اكيدا ما كانا اليه ينصتان . توجه اقصرهما الذي كان ، قبل ان يغدو وغدا ، ملاكما معروفا ، نحوي يريد ان يقضي عليّ ويغتالني ، وكان على وشك ان يزيلني من الوجود لو لم تظهر على حين غرة قبضة اصابت هدفها فدحرجت «الفوريلا» على الارض ، لقد كانت قبضة خصمه الذي قرر اخيرا ضربه والخلاص منه .

حين اخرجوا البطل المهزوم كما لو كان كيسا ، بدأت الايدي من الطاولات المنتشرة هناك تمد لنا الزجاجات والراقصات اخذن يتسمن لنا متحمسات فرحات، والعملاق الذي جاءت منه ضربة اراد المشاركة ظانا انه يستحق التكريم بعد ان برأ نفسه بضرب خصمه ، لكنني شتمته وردعته بشكل صاروم :

— انسحب من هنا فلأنت من العينة السافلة ذاتها .

انتهت لحظاتي من المجد بعد قليل، اذ اننا لمحنا حين كنا نمر عبر مخرج ضيق نوعا من جبل له حزام من نمر يسد باب المخرج . لقد كان الملاكسم الآخر من طغمة الاوباش الاوغاد ، كان الغالب الذي ضربته بكلماتي وطردته يقطع علينا الممر في حراسة انتقامية .

كنت أنتظرك — قال لي .

بضربة خفيفة نحاني نحو باب هناك فيما كان اصدقائي يعدون هاربين على غير هدى . بقيت مهجورا مخذولا وحيدا امام جلادي . نظرت نظرة سريعة علني أعثر على ما يمكن ان التقطه فأدافع عن نفسي به فلم يكن هناك من شيء . قطع المرمر الثقيلة التي تغطي الطاولات ، الكراسي الحديدية مستحيلة الرفع فلا اصيص زهر ولا زجاجة ولا عكاز بائسة منسية .

فلنتكلم — قال الرجل .

ادركت ان اي جهد ابدله في الحوار سيكون عديم الجدوى، وفكرت في ان هذا الوحش يريد روزي قبل التهامي كما النمر مع الأيل الوليد ، وفهمت

ان دفاعي الوحيد هو الا انمّ عن الخوف الذي كنت أشعر به . اعدت اليه
الضربة التي اعطانيها لكنني لم استطع زحزحته ولا ميليمترا واحدا فقد كان
جدارا صخوريا صلدا .

فجأة حنى رأسه نحو الخلف وغيرت عيناه : عينا سبع ، من تعابيرهما .
- هل حضرتك الشاعر (بابلو نيرودا) ؟

- أجل انا (بابلو نيرودا) .

اخفض رأسه واستمر قائلا :

- يا لي من حقير ! انا امام الشاعر الذي اعجب به جدا وهو من قال
لي في وجهي اني حقير دنيء .

ومضى يتأسف ورأسه بين يديه كليهما :

- اني قواد سافل والآخر الذي ضربته هو مهرب كوكائين ، نحن أسفل
السفلاء لكن ثمة في حياتي شيء نقي طاهر الا وهو خطيبتني ، حبيبي
لخطيبتني . انظر اليها يا سيد (بابلينو) (٧) ، انظر الى صورتها ، سأقول لها
ان صورتها لمستها يداك وهذا سيسرها ويبهجها .

ناولني صورة فتاة مبتسمة .

- هي تحبني بسببك ، يا سيد (بابلينو) ، بسبب أشعارك التيسبي
حفظناها عن ظهر قلب .

ثم انطلق ينشد :

- « في أحشائك ، جانبا جنين حزين مثلي ينظر اليّ »

٧ - بابلينو : هو تصغير تحب لمن يسمى (بابلو) .

في هذه اللحظة فتح الباب بدفعة واحدة واذ بأصدقائي يعودون وقد جاؤوا بمعدات وأسلحة . رأيت الرؤوس تتزاحم عند الباب مندهشة ذاهلة .

خرجت في بطاء . ظل الرجل هناك وحيدا ، دون أن يغير من موضعه وحالته ، واستمر يقول منشدا :

« فدى لهذه الحياة التي نضطرم في شرايينه سأفني يدي » .

لقد هزمه الشعر .

لقد هوت طائرة الطيار (بويرس) التي أرسلت في مهمة تجسسية فوق الأراضي السوفييتية ، من علو لا يصدق . صاروخان رائعان أدركاها فأسقطاها من غيومها . أسرع الصحفيون إلى المكان الجبلي الذي انطلقت منه القديفتان .

كان المدفعيان شابين صغيرين ، منعزلين في ذاك العالم الهائل المليء بشجر التنوب والثلوج والأنهار . كانا يأكلان تفاحا أو يلعبان الشطرنج أو يعزفان على «الأكورديون» أو يقرآن كتباً ويحرسان . هما كانا قد صوبا نحو السماء دفاعا عن السماء الفسيحة ، سماء الوطن الروسي .
فانهال الصحفيون عليهما بالأسئلة العديدة .

— ماذا تأكلان ؟ من هم آبائكما ؟ هل يعجبكما الرقص ؟ ما هي الكتب التي تقرأنها ؟

اجاب واحد من هذين الشابين المدفعيين على السؤال الأخير بأنهما كانا يقرآن أشعارا وأنه من بين شعرائهما المفضلين الشاعر الكلاسيكي (بوشكين) والشاعر التشيلي (نيرودا) .

أحسستُ بفرح غامر حين عرفت ذلك . لقد كان ذاك الصاروخ الذي صعد وحلق وأسقط ، من عل إلى أسفل سافلين ، يحمل ذرة من شعري المتوقد .

(الشعر)

.... كم من عمل فني لم يعد العالم ليسع هذه الاعمال
لكثرنها ... لا بد من تعليقها خارج الغرف ... كم من كتاب ... كم من
كتيب ... من يستطيع ان يقرأها جميعها ؟ ... لو انها صالحة للأكل ...
لو اننا نقدر في موجة شهية عارمة ان نجعلها سلطة فنفرمها ونتبلها ... لم نعد
نستطيع ان نطيق منها اكثر ... لقد ضفنا ذرعا بها ... لقد اختنق العالم
في دوامة الكتب ... (ريفردي) (٨) قال لي : « لقد اعلمت
دائرة البريد بان لا ترسل لي ما يصلها باسمي من كتب . لم اعد أستطيع
فضها . لم يعد عندي مكان لها . لقد تسلفت الجدران فخشيت من كارثة
ان تنهال فوق رأسي » ... انكم جميعا تعرفون (اليوت) (٩) ...
قبل ان يكون رساما ، قبل ان يصبح مخرجا مسرحيا ، قبل ان يغدو كاتب
مقالات في النقد . كان يقرأ اشعاري ... فكنت اشعر بالفبطة ... لا احد
كان يفهم شعري كما يفهمه (اليوت) ... الى ان بدأ ذات يوم ينشدينسي
اشعاره وانا ، بشكل اناني انطلقت مستنكرا : « لا تقرا لي اشعارك ، لا تقرا
لي اشعارك » ... نم حبست نفسي في الحمائم ، لكن (اليوت) ، من خلف
الباب ، طفق ينشد اشعاره على مسمع مني ... فشعرت بحزن شديد ...
الشاعر الاسكوتلاندي (فريزر) الذي كان حاضرا آنذاك نهرني : «لماذا تعامل
(اليوت) هذه المعاملة السيئة» ؟ ... فأجبتة : اني لا أريد ان اخسر احسن
قرائي فلقد ربينه حتى عرف كل شيء عن شعري حتى تفضناته وتجاعيد ...
ان له لنبوغا كثيرا ... يستطيع ان يرسم اللوحات ... يقدر ان يكتب
المقالات ... بيد اني اريد ان احافظ على هذا القارئ ، ان احفظ به ، ان
ارويه كما اروى نبتة نادرة . انك لتفهمني وتفهمني يا (فريزر) ... الان
الحقيقة ، ان استمر هذا الوضع كما هو عليه ، هي ان الشعراء سينشرون

٨ - ريفردي : شاعر فرنسي ولد عام ١٨٨٩ .

٩ - اليوت : شاعر وناقد امريكي شمالي (١٨٨٨ - ١٩٦٥) .

شعرهم كي يقرأه الشعراء الآخرون ، ليس الا كل واحد منا سيخرج معدنه ، قصيدته ويدسها في جيب الآخر او يضعها في طبقه (كيببدو) ترك قصيدة من قصائده تحت منشفة الملك فوق مائدته . . . هذا، نعم ، كان يستحق الهم والمغامرة . . . فاما ان نضع الشعر في ساحة تحت أوج الشمس . . . او ان الكتب تستهلك وتتفتت وتلف في اصابع الجماهير الانسانية . . . لكن هذا النشر من شاعر الى شاعر لا يغريني ، لا يستهويني، لا يشوقني بل يحدوني الى ان انتبد مكانا قصيا وسط الطبيعة ، قرب الصخر والموج ، نائيا بنفسني عن دور النشر وعن الورق المطبوع . . . لقد فقد الشعر صلته بالقارئ البعيد . . . فعليه ان يستردها . . . عليه ان يجوس الدياجير حتى يلتقي بقلب الرجل ، بعيني المرأة ، بهؤلاء المجهولين الذين يعبرون الشوارع ، الذين قد يحتاجون في ساعة شفقية او في ليلة ذات نجوم الى بيت شعر واحد على الاقل . . . ان هذه الزيارة المباشرة تعادل كل ما مشيناه ، كل ما قرأناه ، كل ما تعلمناه . . . لا بد لنا من ان نضيع بين من لا نعرفهم كي يقطفوا عما قريب ثمار أشعارنا من الشارع ، من الرمال ، من الاوراق المتساقطة منذ الف سنة وحتى الآن في الغابة ذاتها . . . فيتناولوا في حنان هذا الشيء الذي صنعناه نحن . . . حينذاك سنكون شعراء حقيقيين . . . وفي هذا الشيء الذي نصنعه ليقطفه الآخرون سيحيا الشعر . . .

انا احيا مع اللغة

انا ولدت عام ١٩٠٤ . في عام ١٩٢١ نشرت لي قصيدة في كتيّب . في عام ١٩٢٣ طبع لي اول ديوان وهو «شفقيات» . وهانذا اكتب هذه المذكرات في عام ١٩٧٣ . لقد مضت خمسون سنة على تلك اللحظة المثيرة التي يشعر فيها الشاعر بأوائل ابتهالات المخلوق الوليد المطبوع ، حيا ، مهتزا ، راغبا في ان يلفت الانظار اليه كأي وليد آخر .

ليس في مكنة المرء ان يعيش طيلة حياته كلها بلغة واحدة وهو يمطها طولانيا ، يسبرها عمقا ، ينبث شعرها ، يقلب امعاءها ، دون أن تشكل هذه المعاشة وهذه الالفة جزءاً من تركيبها العضوي. وهذا ما حصل لي مع اللغة الاسبانية . ان للغة الكلام أبعادا أخرى بينما لغة الكتابة تتخذ طولا

غير متوقع . ان استعمال اللغة كرداء ، او كبشرة في الجسم ، باكمامه ، برقعته ، بترشحاته ، بلطخاته من الدم او من العرق يكشف عن الكاتب . هذا هو الاسلوب . انا وجدت فنرتي التي عشت فيها ، مشوشة مضطربة بثورات الثقافة الفرنسية . لقد جذبتني هذه الثورات دوما لكنها ما كانت لتتلاءم مع جسدي كرداء له . لقد تكفل (هويدوبرو) وهو شاعر تشيلي ، بالنماذج الفرنسية الرائجة التي طوتها لتتلاءم وطريقته في الوجود والتعبير ، بشكل يستحق التقدير والاعجاب . احيانا بدا لي وكأنه يتجاوز نماذجه ويتفوق عليها . شيء مثل هذا جرى ، في درجة أعلى ، لـ (روبين داريو) حين اقتحم الشعر «الهيسباني» (١٠) . بيد ان (روبين داريو) كان فيلا عظيما صخابا هتسم زجاج نوافذ فترة كاملة من فنرات اللغة الاسبانية كي يتسرب الى محيطها هواء العالم كله . فدخل وتسرب .

ان اللغة تفصل ، احيانا ، بين الاسبان والامريكان وبخاصة عقيدة اللغة ، فهي تنقسم الى قسمين . ان جمال (غونفورا) الجماد لا يناسب ادمادنا وآمادنا ، وليس ثمة من شعر اسباني وان كان آخر ما كتب الا وله هذه العادة السيئة بالاقنباس عن الثروة «الفونفولية» . ان شريحتنا الامريكية لهي من حجر مغبر ، من حمم مطحونة ، من صلصال ودم . اننا لا نعرف ان نؤمن الزجاج بقرعه على الحجر ، فنحن نروى الشيء بقرعه في الفراغ حتى يرن فنعرف قيمته . ان قطرة واحدة من نبيد (مارتين فييرو) او من شهيد (غابرييلا ميسترال) تجعل المثلثين يقفون في مكانهم مندهشين كأنهم ينظرون الى اصص زهور نادرة .

لقد اصبحت اللغة الاسبانية مذهبة بعد (ثيرفانتيس) (١١) . اناقة وتهديا ، فقدت القوة الهمجية التي جلبتها من (غونثالو

١٠ - الهيسباني : نفتح هذه الكلمة للدلالة على ما هو مكتوب باللغة الاسبانية مقابل «اساني» (Espouno) الذي يقتصر على ما هو من اسبانيا دون ان يشمل امريكا اللاتينية .

١١ - ثيرفانتيس : الكاتب الاسباني المعروف مؤلف دون كيشوته

١٥٧١ - ١٦١٦ .

دي بريثيو (١٢) ومن (ارثيبريستنه) (١٣) ، فقدت نزعة
الاخصاب التي كانت ما تزال تتوهج في (كيبيدو) . لقد جرى الشيء نفسه
فسي انجلترا ، في فرنسا ، في ايطاليا . ان افراط (تشوسر) (١٤)
و(رابيليس) (١٥) قد خصصي وشظف . ان «البيتراركية» (١٦)
التمينية جعلت الزمرد والماس والجوهر تلمع لكن نبع العظمة بدأ ينضب .

لقد كان لهذا ينبوع السالف علاقة بالانسان في كليته ، مداه ،
غزارته ، فيضه .

على الاقل هذه كانت مشكلتي مع اني لم اطرحها على نفسي بهلله
الحدود . ان كان لشعري من معنى ، فهو هذا النزوع الفضائي اللامحدود
الذي لا يقنع داخل غرفة مسدودة . لقد كان عليّ ان اتجاوز حدودي غير
اني ما صممت حدودا داخل اطار بفاة بعيدة . لقد كان عليّ ان اكون انا
إيائي ، مجتهدا ان امتد (١٧) مثل اراضي موطني ، مسقط رأسي . لقد
ساعدني في هذا السبيل شاعر آخر من القارة نفسها ألا وهو (والت
وايتمان) (١٨) ، زميلي ، من «مانهاتان» .

يجب على النقاد ان يتعذبوا

ان «اغاني مالدورور» تشكل في العمق قصة متسلسلة كبيرة . لكن

١٢ - غونثالو دي بريثيو : شاعر اسباني (١١٨٥ - ١٢٦٤) .

١٣ - ارثيبريستنه : شاعر اسباني مات عام ١٣٥٠ .

١٤ - تشوسر : شاعر انجليزي (١٣٤٠ - ١٤٠٠) .

١٥ - رابيليس : كاتب فرنسي (١٤٩٤ - ١٥٥٣) .

١٦ - البتراركية : نسبة الى الشاعر (بترارك ، فرانثيسكو Pétrarca, Francisco
ايطالي (١٣٠٦ - ١٣٧٤) .

١٧ - من المعروف ان تشيلي هي ارض طويلة رفيعة ممتدة ، عرضها قليل جدا كما
يبدو من الخارطة .

١٨ - والت وايتمان : شاعر امريكي شمالي (١٨١٩ - ١٨٩٢) .

يجب ألا ينسى أن (إيسيدور دو كاس) أخذ اسمه المتحلل عن رواية لكاتب القصص المتسلسلة (أوجين سو) (١٩) وهي رواية لوتريامون المكتوبة في «شاتيناي» عام ١٨٧٣ . لكن (لوتريامونت) ، نعرف ذلك ، مضى أبعد من (لوتريامونت) ، راح إلى ما هو أعمق فقد أراد أن يكون جهنميا . وراح إلى ما هو أعلى فقد أراد أن يكون ملاكا لعينا . أن (مالدورور) ، في عظمة النعاسة ، يحتفل بـ «زواج الجنة بجهنم» . أن الفضب والقصائد الحماسية الفنائية والاحتضار تشكل الأمواج الجارفة في البلاغة «الدوكاسية» . (مالدورور) : مالدولور (٢٠) .

لقد خطط (لوتريامونت) لمرحلة جديدة ، انكر وجهه المكفهر فكتب مقدمة لشعر متفائل لم يسطع انجازه وخلفه فقد أخذت المنية هذا الشاعر الأورغواي في باريس . غير أن هذا التغير الموعود في شعره ، هذه الحركة نحو الطيبة والصلاح ، اللذين ما أمهلت المنية كي يقوم بهما ، قد أثارا من النقد الكثير . . . فهو يمجّد في آلامه لكنه يئدان في عبوره إلى الفرح . يجب على الشاعر أن يتعذب ويعاني ، عليه أن يحيا بأثسا ، لا بد له من أن يظل يكتب الأغنية اليائسة (٢١) . هذا كان رأي شريحة اجتماعية ، رأي طبقة . لقد أطاع وخضع لهذه الصيغة «الشاهدية» (٢٢) الكثيرون ممن رزحوا تحت العذاب الذي فرضته قوانين ليست مكتوبة لكنها ليست أقل من المكتوبة شاهدية . أن هذه المراسيم غير المرئية تعاقب الشاعر بالكوخ ، بالحصاء المفتوق ، بالمستشفى ، بالتسول . وهكذا الناس كلهم يصبحون فرحين ويمضون في حفلاتهم بقليل من الدموع .

١٩ - أوجين سو : شاعر فرنسي (١٨٠٤ - ١٨٥٧) .

٢٠ - مالدولور : كلمة تعني الألم السيء . لاحظ التشابه اللفظي بين اسم بطل الرواية Maldoror وبين هذه الكلمة Maldolor .

٢١ - الأغنية اليائسة : إشارة إلى قصيدة لنيرودا نفسه . ترجمناها في كتابنا ، نيرودا ، مختارات شعرية ص ٥٤ - ٥٨ .

٢٢ - الشاهدة : نسبة إلى شاهد القبر الحجري ، ومن معاني هذه الكلمة نسي الإسبانية (La pidaril) : الناقد أو الممن أو حكاك الأحجار الثمينة ، ويستغل (نيرودا) هنا هذه المعاني كلها .

لقد تغيرت الاشياء لان العالم قد تغير . ونحن الشعراء ترأسنا، فجأة،
تمرد الفرع . ان الكاتب التعيس والكاتب المصلوب يشكلان جزءاً من طقوس
السعادة في غروب الرأسمالية . لقد ضُرف اتجاه الدوق العام ، في
مهارة ، الى تضخيم المصيبة وجعلها خميرة في الخلق الفني العظيم . لقد
اعتبر السلوك السيء والوجع وصفتين جيدتين في العمل الشعري . لم
يُعط في نهاية القرن، (هولديرلين) المجنون بالقمر والبأس، و(رامبو) (٢٣)
الثائ المتمرمر، و(جيرارد دي نيرفال) (٢٤) الذي شق نفسه في عامود كهرباء
عند زقاق بائس ، حدة الجمال واحتداه فحسب بل كذلك درب الآلام .
فصار المذهب هو ان هذا الدرب من الاشواك يجب ان يكون الشرط اللازم
لكل نتاج روحي .

لقد كان (ديلان توماس) هو الاخير في السنكسار (٢٥) الموجّه .

ان ما هو غريب عجيب ان هذه الافكار البورجوازية العتيقة الفظة ما
زالت سارية المفعول في بعض الانفس ، انفس لا تجس نبض العالم في انفه
حيث يجب ان يجس لان انف العالم يشتم المستقبل .

ثمة نقاد يشبهون القرع، اغصانهم الدالة وتطعيماتهم، تبحث عن آخر
نفس لآخر تقليعة خوفا من ان تضيع منها لكنما جذورهم وشروشهم ما
تزال مطمورة بالماضي .

نحن الشعراء لنا الحق في ان نكون سعداء ، على اساس ان نكون
متحدين بشكل حديدي مع شعوبنا وان نصارع من اجل سعادتها .

«ان (بابلو) هو واحد من بضعة رجال قلائل سعداء ، ممن عرفتهم في
حباتي» يقول (ايليا ايهرينبورغ) في احد كتبه . و(بابلو) هذا هو اننا
و(ايهرينبورغ) لا بخطيء البتة .

٢٣ - رامبو : الشاعر الفرنسي المشهور (١٨٥٤ - ١٨٩١) .

٢٤ - جيرارد دي نيرفال : كاتب فرنسي (١٨٠٨ - ١٨٥٥) .

٢٥ - السنكسار : اخبار الشهداء والقديسين .

لهذا لا أستغرب أن ينشغل كاتبو مقالات اسبوعية مشهورون أمجاد
بوضعي المادي مع أن «الشخصوية» يجب ألا تكون موضوع النقد . انسي
لافهم أن رفاهيتي المفروضة تغيظ الكثيرين لكن الامر هو اني سعيد بمن
الداخل . لدي ضمير مطمئن وعقل غير مطمئن .

اني لاهيب بالنقاد الذين يحسدون الشعراء ان كان لهم مستوى من
الحياة أفضل ، أن يفتخروا بأن الدواوين الشعرية تطبع وتباع وتؤدي
مهمتها بإيجاد عمل للنقاد ، أن يستهجوا في أن حقوق المؤلف تدفع له وأن
بعض المؤلفين ، على الأقل ، يستطيع أن يعيش من عمله المقدس . يجب على
الناقد أن يفتخر بهذا كله لا أن يطلق الشّعر على الحساء (٢٦) .

لهذا ، حين قرأت منذ وقت قريب العبارات التي خصني بها ناقد
شاب ، لامع «واكليروسي» كنائسي ، بدا لي ما كتبه سخفا ، وليس لان هذا
الناقد فد لامع بدا لي ما كتبه أقل سخفا وخطأ مما لو كان غير فد لامع .

بناء على ما يزعمه ان شعري يشعر بالسعادة ولذلك فهو يصف لي
العذاب . وفق هذه النظرية ان التهاب الزائدة الدودية سينتج نثرا ممتازا
وان التهاب الصفاق سينتج أناشيد رفيعة .

انا امضي أعمل بالمواد التي املك والتي هي انا . اني التهم كل شيء:
المشاعر ، المخلوقات ، الكتب ، الاحداث ، المعارك . لو استطيع لاكلت
الارض كلها ولشربت البحر جميعه .

أبيات قصيرة وطويلة

لاني شاعر فعال نشيط فقد حاربت تأملاتي الذاتية . لذلك فان العراك
بين ما هو واقعي وبين ما هو ذاتي، قد انحسم امره داخل وجودي نفسه .
دون ان أزعج اني بهذا انصح احدا من الناس ، اقول ان تجاربي تستطيع

٢٦ - اطلاق الشّعر على الحساء . تعبير اسباني بمعنى تدنيس النقاوة وتعكير الجو
الصافي .

ان تساعد وتفيد . لنر النتائج لاول وهلة .

انه لمن الطبيعي ان يخضع شعري لحكم النقد الرفيع وان يتعرض لهوى الانتقاد الحقيقى ، سواء بسواء . ان هذا يدخل فى اللعبة . ليس لي حُلول هذه الناحية من النقاش صـوت ، لكن لـي رأي لاجل النقد الجوهري ان رأيي هو شعري بأسره المتمثل في كـتـبي ، لاجل الانتقاد المعادي لي ايضا حق ابداء الرأي وهذا الرأي كذلك مكوّن من ابداعي الذاتى الدائم .

ان ظهر ما اقله على انه زهو وغرور فأنتم على حق وهو كذلك فعلا . ان غروري هو زهو الصانع الذي مارس حرفته خلال سنوات كثيرة في حب لا يمحي .

لكنني راض من شيء واحد الا وهو انني بشكل او بآخر ، جعلت الناس ، على الاقل في وطني ، يحترمون حرفة الشعر ، مهنة الشعر .

حين بدأت بنظم الشعر ، كان الشعراء على نوعين اثنين ، شعراء سادة كبار يكسبون احترام الناس بأموالهم التي تساعدكم على اقتناء اهميتهم الشرعية او اللاشرعية ، والاسرة الثانية من الشعراء هي اسرة المحترفين المتشردين وهم مجانين سحرة ، ساهرون مترو بصون ، عمالقة لكنهم معذبون . يبقى كذلك ، حتى لا أنساهم ، وضع أولئك المربوطين الى طاوولات الدوائر العامة كما يربط المحكوم عليه بالليمان الى السفينة بسلاسله . لقد كانت أحلامهم ، دوما ، تخنقها جبال من الاوراق المختومة ومخاوف رهيبة تجاه السلطة والعار .

لقد قدفت بنفسى الى الحياة وأنا اكثر عريا من آدم لكنني كنت مصمما على المحافظة على طهارة شعري . لم يكن هذا الموقف غير المزعج نافعا لي فقط بل كذلك اهدف منه ان يدع التافهون الاستهزاء من الشاعر . فكان هؤلاء التافهون ، ان كان لهم قلب وضمير ، يستسلمون امام شعري القيم وما يوقظه فيهم من معان انسانية ، واما الذين هم أشرار فانهم بدأوا يتخوفون مني .

وهكذا احترم الناس الشعر المكتوب بالحرف الكبير ، ليس الشعر
فحسب بل كذلك الشعراء كل الشعراء .

اني لواع بهذه الخدمة التي قدمتها الى المجتمع ولن ادع ان يسلبني
هذا الفضل احد من الناس لانه يطيب لي أن أحمل هذا الفضل وساما على
صدري دائما . ان غير ذلك من الامور قابل للنقاش اما هذا الذي ارويهِ الآن
فانه تاريخ حاسم وحقيقة مسلمة .

ان اعداء الشاعر العنيد سيشهرون حججا لم تعد تفيد في شيء ،
لقد سموني في صباي : الميت جوعا ، والآن ها هم يعادوني ويحاولون
تنكيد عيشي بجعل الناس يظنون اني مثر ، املك ثروة هائلة ، انه ليعجبني
ان املك هذه الثروة ان كنت لا املكها كي انكد عيشهم وازيدهم غيظا
بالاضافة الى الاشياء الاخرى التي املكها وتبعث في نفوسهم الغيظ
والحسد .

آخرون يقيسون سطور اشعاري ليثبتوا اني اقسم هذه الابيات الى
اقسام صغيرة او اطيلها كثيرا . ليس لهذا من قيمة او اهمية . من هو
الذي ينظم الاشعار ويجعلها قصيرة او طويلة ، نحيلة او نخينة ، صفراء او
حمراء ؟ انه الشاعر الذي يقرر ذلك ، يحدد ذلك بنفسه ودمه ، بمعرفته
وجعله لان هذا كله يدخل في خبز الشعر .

ان كان الشاعر غير واقعي فانه ميت ، لكن ، ان كان الشاعر واقعا
فقط فانه كذلك ميت . ان كان الشاعر وهميا فقط فانه لن يفهم الا من
لدى حبيبته ومن نفسه ، وهذا محزن للغاية وان كان الشاعر عقلانيا فقط
فانه سيفهم من 'قبل الجميع وحتى من قبل الحمير وهذا كذلك محزن
جدا . ليس ثمة من ارقام وصيغ مكتوبة على اللوح بالنسبة لهذه المعادلات،
وليس ثمة من عناصر ومواد قدرها الله او قررها الشيطان ، بل ان هاتين
الشخصيتين المهمتين تتصارعان داخل الشعر وفي هذه المعركة قد يغلب
هذا او قد يغلب ذاك لكن الشعر لن يهزم البتة .

انه لمن الواضح ان حرفة الشاعر اصبحت مغشوشة نوعا ما . يخرج
شعراء مبتدئون كثيرون وشواعر مبتدئات كثيرات الى درجة انا سنبدو عما

قريب جميعا شعراء وسيختفي القراء . سيكون علينا ان نذهب للبحث عن القراء في رحلات تجتاز الرمال على ظهور الجمال او تحلق في السماء بسفن فضائية .

ان الشعر لهو النزعة العميقة في الانسان ، فمن الشعر خرجت الطقوس الدينية ، والمزامير وكذلك محتوى الاديان . لقد فسر الشاعر مظاهر الطبيعة وتجرا عليها وتقلب في العهود الاولى كاهنا كي يصون دعوته ، ومن هنا فان الشاعر ، في العصر الحديث ، كي يدافع عن شعره ، يرتدي الزي الذي تخلعه عليه الجماهير والشوارع . ان الشاعر المدني اليوم لا يزال هو أقدم كاهن وريت الكهنوتية السحيقة في القدم . لقد تحالف من قبل مع الدياجير وعليه الآن ان يشرح النور .

الأصالة

انا لا اعتقد بالأصالة . انها لصنم آخر ، مخلوق في عصرنا ذي الانهيار السريع المسبب للدوار . اني لا اعتقد بالشخصية من خلال اية لغة ، اي شكل ، اي معنى للخلق الفني . لكن الاصالة الهاذية الهتراء هي اختراع حديث وغش انتخابي . ثمة من يريد ان يختار الشاعر الاول في بلده ، في لغته ، في العالم بأسره . عند ذلك يجري بحثا عن ناخبين ، يلعن كل من يظن ان لديه احتمالا في ان ينافس على الفوز بهذا الصولجان ، وبهذا الشكل يتحول الشعر الى مهزلة .

غير انه من الضروري الاحتفاظ بالاتجاه الداخلي ، المحافظة على النمو الذي تساهم به الطبيعة والثقافة والحياة الاجتماعية لتطوير ميزات الشاعر ومميزاته .

لقد كتب ، في الازمنة القديمة ، اكثر الشعراء نبلا وأكثرهم صرامة ، مثل (اوفيديو) Ovidio ، مثلا ، قصائدهم مع هذا التنبيه : «تقليد لـ (هوراثيو Horacio) (٢٧)» ، «تقليد لـ (اوفيديو) (٢٨)» ، «تقليد

٢٧ - هوراثيو : شاعر لاتيني من القرن الاول قبل المسيح .

٢٨ - اوفيديو : شاعر لاتيني من القرن الاول قبل المسيح .

من جهتي ، اني لاحافظ على لحنى الخاص بي الذي راح يتوطد بفضل طبيعته الذاتية مثلما تنمو الاشياء الحية كلها . لا مندوحة في ان العواطف تشكل جزءا اساسيا في اوائل دواويني ، فآه للتساعس الذي لا يجيب بغناؤه على نداءات قلبه الناعمة او الفاضبة ! بيد انني ، بعد اربعين سنة من التجربة ، اعتقد ان التأليف الشعري يستطيع التوصل الى سيطرة على العواطف اكثر جذرية واساسية . اني لأؤمن بالارتجالية الموجهة او العفوية المسيرة او التلقائية المقننة . لاجل هذا فلا بد من ان تكون ثمة أرصدة يجب ان توضع تحت تصرف الشاعر دوما ، فلنقل انه يجب ان يحملها معه في جيبه ، لاية طارئة قد تحدث . اول ما يجب ان يزود به الشاعر هو رصيده من الاشكال والمضامين ، من الكلمات ، من الاوزان ، من الالحان ، من الصور ، ومن هذه الاشياء التي تمر ازاء المرء كما النحل . يجب ان تصاد توا وان توضع في الجيب . انا جد كسول في هذا المعنى ، لكنني ادري انني بهذا اعطي نصيحة طيبة للشعراء الآخرين . لقد كان لدى (ماياكوفيسكي) كراس صغير يلجأ اليه بلا هوادة او تريث . ثمة ايضا مخزون العواطف . فكيف تحفظ هذه ؟ تحفظ بوعيتها حين تحدث . من بعد ، امام القرطاس ، سنتذكر هذا الوعي في حيوية اكثر من حيوية العاطفة نفسها .

في قسم كبير من تألوفي اردت ان ابرهن على ان الشاعر يستطيع ان يكتب حول ما يشار له به ، حول كل ما هو ضرورة للمجموعة الانسانية . ان اكثر المؤلفات العظيمة في القدم قد كتبت بناء على مطالب ضيقة خاصة . ان كتاب «جورجيكاس» هو دعاية للزراعة الرومانية يستطيع الشاعر ان يكتب للجامعة او النقابة ، للمنظمات وجمعيات الحرف . ابدا لم يفقد الحربة بهذا . ان الوحي السحري وان اتصال الشاعر بالله ان هما الا اختلاقين مفرضين وابتكارين ذوي مصلحة . في اكثر لحظات الابداع غيبوبة قد يكون النتاج ، جزئيا ، بعيدا عن صاحبه ، متأثرا بقراءاته وبضغوط خارجية عنه .

هأنذا اقطع هذه الاعتبارات والاحكام التي هي نظرية لا تذكر الحياة الادبية التي خضتها في أعوامي الفتية . كان نمة ، اذالك ، رسامون وكتّاب يتهيجون هياجا أصم . كان ثمة ، حينذاك ، غنائية خريفية في الرسم وفي الشعر . كل واحد كان يحاول ان يكون اكثر فوضويا ، اكثر انفلاشا . كانت الحياة الاجتماعية التشيلية تتحرك بشكل عميق . (اليساندرى) كان يلقي خطبا تستهدف قلب النظام . في سهول ملح البارود اخذ العمال ينظمون انفسهم فخلقوا اكثر الحركات الشعبية اهمية في القارة الامريكية . لقد كانت تلك الفترة ايام صراع مقدس . ايام (جان غاندولفو) و(كارلوس بيكونيا) . لقد التحقت انا بحركة العقيدة الفوضوية الطلابية . كان كتابي المفضل هو «سانشا يغوليف» Sancha Yegulev لـ (اندرىف) . كان الآخرون يقرأون الروايات الاباحية لـ (ارزيفاشيف Arzivachev) وكانوا ينسبون اليه استنتاجات عقائدية كما يقع اليوم بالنسبة للاباحية الوجودية . كان المثقفون يلتجئون الى النوادي الليلية فكان النبيل المعتقد يجعل البؤس يلتمع التمتع الذهب حتى مطلع الفجر في اليوم التالي . (جان ايفانيسا Juan Egana) ، شاعر موهوب جدا ، كان قد افلس حتى القبر (٣٠) فيحكى عنه انه ورث أموالا كثيرة انفقها على الكأس والطاس فوق طاولة في حانة مهجورة . كان السمّار ينامون نهارا ويخرجون ليلا للبحث عن نبيل فيحتسون دنانا بأسرها . غير ان هذا الشعاع القمري لشعر (خوان ايفانيسا) هو ارتعاش غير معروف في «غابتنا الغنائية» وهذا هو العنوان الرومانطيكي لكتاب المختارات الكبير الذي ألفه (مولينا نونييث) و(و. سيفورا كاسترو O. Segura Castro) ، وهو كتاب واسع محيط مليء بالعظمة والجود، وهو **الخصيلة الشعرية** لفترة مضطربة مرتبكة ، متميزة بفراغات هائلة وببريق نقي جدا . ان اكثر شخصية بهرتني هي شخصية ديكتاتور الادب الفتى الحديث ، لم يعد يذكره احد ، كان يسمى (اليرو اويارثون) ، لقد كان (بودليريا) ضامرا ، كانه من عصر الانحطاط لكنه مليء بالمزايا الفريدة ، كانه (باربا - جاكوب) بالنسبة لتشيلى . كان يتكلم بصوت أجش في قامته الطويلة . لقد اخترع هذه الطريقة الهيروغليفية الغامضة فعرض القضايا والمشاكل الفنية الجمالية ، وهو عرض فريد من نوعه في عالمنا الادبي .

كان يرفع صوته ويبدو جبينه كأنه قبة صفراء في معبد الذكاء . كان يقول مثلا : «ما هو دائر في الدائرة» ، «ما هو «ديونيسي» في (ديونيسوس Dionysos)» ، «ما هو معمه في المعمات» . لكن (الرواويارثون) لم يكن غبيا ، بل كان يلخص في ذاته ما هو فردوسي وما هو جهنمي في الثقافة . لقد كان كونيا : فبسبب حبه للتنظير ، قتل جوهره الاصيل . يقولون انه كي يكسب في مراهنة كتب قصيدته الوحيدة وأنا لا أفهم لماذا لا ترد هذه القصيدة الرائعة في كتب المختارات الشعرية التشيلية كلها .

زجاجات وتماثيل

هو ذا عيد ميلاد يقترب . كل عيد ميلاد يمر ، يقربنا مسن عام ٢٠٠٠ . من اجل هذه البهجة المقبلة من اجل سلام الغد ، من اجل العدالة الكونية العالمية صارعنا وأنشدنا نحن شعراء هذا الزمن .

لقد طلب مني ، في ٢٤ كانون الاول من عام ١٩٣٠ ، (سوقراط اغيره)، ذاك الرجل الناعم الفاخر الممتاز الذي كان رئيسي في قنصلية تسيلسي بـ «بونوس ايرس» ، ان اجعل من نفسي القديس (نيقولا) او رجل الفصح العجوز بداره . لقد صنعت اشياء كثيرة سيئة في حياتي ، لكن ما من شيء صنعته كان أسوأ من هذا «رجل الفصح العجوز» . لقد كانت تتساقط مني شواربي القطنية واخطأت كثيرا في توزيع الالعاب . وكيف يمكن لي ان اخفي صوتي وفد جعلته طبيعة الجنوب التشيلي اغن اخن ، انفيا ، غير قابل للخطأ في معرفته ، منذ نعومة اظفاري ؟ لجأت الى خديعة : خاطبت الاطفال باللغة الانجليزية ، لكن الاطفال كانوا يغرزون بي عدة أزواج من عيون سوداء وزرقاء ويبدون ارتيابا وشكا وعدم ثقة لا تليق بهم هم على خلق عظيم وتربية صالحة .

من كان سيقول ان تمة من بين أولئك الاطفال ، طفلة ستصبح من احسن صديقاتي المفضلات ومن احسن من كتبوا سيرتي وترجموا لي ، اعني بها الكاتبة الشهيرة (مارغاريتا اغيره) .

لقد جمعت في بيتي ألعابا صغيرة ودمى كبيرة ، لن أستطيع العيش

بدونها . ان الطفل الذي لا يلعب ليس بطفل ، لكن الرجل الذي لا يلعب فانه يفقد للابد الطفل الذي كان يعيش في داخله والذي سيحتاج اليه دوما . لقد شيدت بيتي كذلك مثل لعبة اللعب بها من الصباح الى الليل .

انها لعبي الخاصة بي ، لقد جمعتها طيلة حياتي كلها بهدف علمي الا وهو ان اتسلى بها وحدي . ساصفها من اجل الاطفال : الاطفال الصفار واطفال الاعداد كلها .

عندي سفينة شراعية داخل زجاجة . لكي اقول الحقيقة ان عندي اكثر من واحدة . انها لاسطول حقيقي لها اسمائها المكتوبة ، قضبانها ، قلاعها ، قياديمها ، مراسيها ، مخاطيفها ، بعضها جاء من بعيد ، من بحار اخرى صغيرة . واحدة منها ، وهي من اجمل السفن ، ارسلوها لي من اسبانيا كدفع لحقوق المؤلف عن كتاب من كتب اناشيدي . في الاعلى ، على السارية الكبيرة ترفرف رايتنا التيشيلية بنجمتها الوحيدة الصغيرة . لكن ، البواخر الاخرى ، تقريبا كلها ، هي من صنع السيد (كارلوس هوياندير) والسيد (هوياندير) هو بحار عجوز ، اعاد انتاج الكثير من السفن الجليلة الشهيرة التي كانت تجيء من «هامبورغ» او من «سالم» او من الشاطئ البريتاني لشحن ملح البارود او لصيد الحيتان من بحار الجنوب .

حين اهبط الطريق الطويل لتشيلى كي اجد في «كورونيل» البحار العجوز بين رائحة الفحم والمطر الغزير بهذه المدينة الجنوبية فاني فسي الحقيقة ألج الى الترسانة حيث يوجد اصفر مرآب لبناء السفن في العالم . في القاعة ، في غرفة الطعام ، في المطبخ ، في الحديقة كانت تتراكم وتنتظم المواد التي ستحتر داخل الزجاجات الشفافة الواضحة التي قد افرغ منها «البيسكو» (٣١) . يلمس السيد (كارلوس) بصغيره السحري قياديم ، اشرعة ، صواري ، فيستحيل كل ما يمر بين يديه حتى اصفر دخان في المرفأ الى خلق وابداع ، الى سفينة زجاجية جديدة ، نضرة مشعة ، مهياة للبحر الوهمي . تبرز في مجموعتي في كبرياء وغطرسة ، من بين السفن

٣١ - البيسكو : نوع من الخمر يشبه العرق .

الآخري التي اشتريتها في «امبيرس» او «مارسيليا» ، السفن التي خرجت من يدي ملاح «كورونيل» المتواضعين . فهو لم يمنح هذه السفن الحياة بحسب بل اضاءها بمعرفته ، ملصقا عليها اعلانا يحكي الاسم والرقم ومآثر كل نموذج يقلده ، الاسفار التي قامت بها كل سفينة الالهوال التي لاقتها ، الحمولات التي وزعتها حين كانت نمخر ضد الريح مرتعشة عبر المحيط الهادي ، بأشرعتها التي لن نراها من بعد أبدا .

انا عندي سفن زجاجية قديره وعظيمه وشهيرة جدا مثل سفينة «بوتوسي» الرائعة وسفينة «بروسيا» الهائلة التي انطلقت من «هامبورغ» وغرقت في قناة «المانش» عام ١٩١٠ . ان المعلم (هوياندير) قد خصني فصنع لي كذلك نموذجين من سفينة «ماريا ثيلسته» (٢٢) التي منذ عام ١٨٨٢ تحولت الى نجمة ، في سر من الاسرار .

لست مستعدا لكشف السر الملاحى الذي يحيا في شفاف هذه السفن الزجاجية . وهو يتعلق بمعرفة كيف دخلت هذه السفن الصغيرة فسي زجاجاتها الهشة جدا . انا ، بصفتي خادعا محترفا ، بفرض التزوير ، وصفت بشكل دقيق في نشيد ، العمل المسهب الضئيل في هذه البنى الغريبة العجيبة ورويت كيف ندخل وتخرج من الزجاجات البحرية . لكن السر ظل قائما .

ان افضل لعبي لى تماثيل القياديم المقنعة . كبقية اشياى كثيرة فان هذه التماثيل المقنعة قد عولجت في الصحف وفي المجلات ، قد نوقشت في رفق او في حقد في رضا او في سخط ، الذين يحكمون لها في رفق ورضا يضحكون ويقولون :

يا له من مخبول معتوه ، ما الذي ادى به الى هوس جمع هذه الاشياء !

والذين يحكمون عليها في حقد وسخط برون الاشياء بشكل آخر .

٣٢ - ماريا ثيلسته : معناها ، مريم السماوية .

واحد منهم ، متمرمر بسبب مجموعاتي وبسبب الراية الزرقاء ذات السمكة البيضاء التي انا ارفعها فوق داري بـ «ايسلا نيفرا» قال :

— اني لا انصب راية خاصة وليس عندي تماثيل قياديم .

كان المسكين يبكي بكاء صبي يحسد الصبيان الآخرين على الخدروف الذي يلعبون به ، فيما كانت تماثيلي البحرية تبتسم مفتونة زاهية ، تضحك من الحسد الذي تبعثه فيهم جميعا .

في الحقيقة كان يجب ان يقال دوما ، دفعا للالتباس ، تماثيل قياديم . انها لاشكال نصفية ، انها لنصب بحرية ، انها لصور للمحيط الضائع . حين بنى الانسان اشرعنه احب ان يسمو بقياديم سفنه في معنى اجلّ وأرفع . فوضع مند القدم في اشرعته اشكال طيور ، عصافير طوطمية ، حيوانات خرافية ، نقوشا في الخشب . من بعد ، في القرن التاسع عشر نحتت البواخر الحيتانية الضخمة اشكالا ذات صفات رمزية : إلهات نصف عاريات او سيدات يمثلن العهد الجمهوري بقبعات فشيبة جمهورية .

انا عندي تماثيل قياديم مذكرة ومؤنثة . أصغر واحدة من المؤنثات وأبدعها تسمى «ماريا ثيلسته» وقد حاول (سالفادور اينسنده Salvador Allende) (٣٣) ان يخطفها مني عدة مرات ، وهي كانت تنتمي الى سفينة فرنسية ذات حجم صغير ولعلها لم تبحر الا في مياه نهر «السين» ، وهي منحوتة من شجر بلوط ، ذات لون غامق اذ انها بعد مضي السنين ، وبعد العديد من الابحار اصبحت سمراء الى الابد . انها لصبية صغيرة تبدو وكأنها تطير لدى اشارة من الريح في ملابسها الجميلة من ازياء الامبراطورية الثانية . تنظر عيناها ، من فوق غمازات خديها ، الى الافق البعيد ، وهاتان العينان ، وان بدا هذا غريبا ، تبكيان خلال فصل الشتاء في كل سنة . لا احد يستطيع ان يفسر هذه الدموع الفصلية . ربما ان الخشب المصنوعة منه له صمغ يتضخم بالرطوبة . لكن ما هو اكيد ان

٣٣ — سالفادور (اينسنده) هو رئيس جمهورية تشيلي ، انتخب رئيسا عام ١٩٧٠ وقتل عام ١٩٧٣ على اثر الانقلاب العسكري اليميني .

هاتين العينين الفرنسيتين تبكيان في الشتاء فأنا أرى كل سنة في هذا الفصل الدموع الرائعة وهي تتصبب من وجه «ماريا ثيلسته» الصغير .

قد يستيقظ شعور ديني في الانسان تجاه الصور والتماثيل ، اكانت هذه مسيحية ام وثنية فالامر سواء . واحدة اخرى من تماثلي الانثوية مكثت خلال بضعة أعوام في المكان الذي يناسبها الا وهو مقابل البحر ، في وضعية مائلة منحدره كما لو انها كانت تمخر في الباخرة . غير ان (ماتيلده) وأنا اكتشفنا ذات مساء بعض السيدات المتدينات التقيات في «ايسلا نيغرا» وقد قفزن من على حاجز الدار كما يعتاد ان يفعل الصحفيون الذين يريدون اجراء مقابلة معي ، رأيناهن وهن راكعات امام تمثال القيدوم المضاء بكثير من الشموع التي كنا قد أشعلناها لهذا التمثال الانثوي . لعل دينا جديدا قد ولد . لكن مع ان التمثال كان في موضع عال ويبدو طويلا جليلا مثل (غابريلا ميسترال) فقد كان علينا ان نبعث اليأس في نفوس المؤمنات كي لايمكنن هناك عابدات في براءة ووقار ، صورة امرأة بحرية كانت قد ابحرت عبر اكثر البحار خطيئة فسي كوكبنا المذنب مقترف الخطايا دائما .

مند ذلك الحين نحيتها من الحديقة وها هي الآن قربي عند المدخنة .

كتب وقواقع

ان هاوي الكتب الفقير له مناسبات لا نهاية لها للمعاناة والعذاب . فالكتب لا تفر من بين يديه ، بل تعبر امامه عبر الهواء في طيران عصفور ، في طيران أسعار غالية .

غير انه بعد تنقيب كثير وبحث عسير تبرز الدرّة . اذكر دهشة بائع الكتب (غارثيا ريكو Garcia Rico) بمدريد في عام ١٩٣٤ حين اقترحت عليه ان اشترى منه طبعة قديمة من ديـوان (غونغورا) الذي كان ثمنه ١٠٠ «بيسيتة» فقط ، بأقساط شهرية قدرها ٢٠ «بيسيتة» كل شهر . لقد كان ثمن هذا الديوان مبلغا زهيدا غير اني ما

كنت امتلكه فدفعت له في الموعد المحدد على مدى ستة أشهر (٣٤) . لقد كانت هذه الطبعة هي طبعة (فوبينيوس) . هذا الناشر الفلامنكي طبع بحروف رائعة لا يمكن مقارنتها بغيرها نظرا لجودتها وجمالها ، في القرن الثامن عشر ، اعمال المعلمين الاسبان الفطاحل من العصر الذهبي (٣٥) .

لا يعجبني أن أقرأ لـ (كيبيلدو) الا في تلك الطبوعات حيث الـ «سوفنيوس» (٣٦) تبرز في خط دهاعي مثل بوارج حديدية . من بعد الفت غابه دكاكين الوراقين في ضواحي المدينة الوعرة حيث تباع كتب «اليد الثانية» (٣٧) وتمرت على اروقة المكتبات الضخمة التي تشبه اروقة الكاتدرائيات في فرنسا وانجلترا . لقد كانت يداي تخرجان بعد اللمس والبحث مغبرتين ، لكن من حين الى حين كنت احصل على كنز ، او على الاقل ، على الفرحة بافتخاري في انه كنز .

لقد ساعدتني الجوائز الادبية التي دفعت لي عددا ونقدا على اقتناء بعض النسخ باثمان شاذة فأصبحت مكتبتي معتبرة ، كانت كتب الشعر القديمة تبرز فيها وضاحة براقة وكذلك فان شففي بالتاريخ الطبيعي ملأها بكتب ضخمة من علم النبات في كل صنف ولون ومن علم الطيور ومن علم الحشرات ومن علم الاسماك . لقد وجدت كتب رحلات وأسفار ساحرة ، طبعات لكتاب «دون كيخوته» لا تصدق ، مطبوعة من قبل (ايبارا Ibarra كتيبات لـ (دانتى Dante) (٣٨) في طباعة رائعة ، حتى اني عثرت على كتاب لـ (موليير Moliere) (٣٩) كان قد طبع في نسخ قليلة جدا (Adusnm Delphine) لابن ملك فرنسا .

٣٤ - يبدو انه حين اشترى الديوان لم يدفع شيئا ولذلك يقول على مدى ستة أشهر وليس خمسة أشهر .

٣٥ - هو القرن السادس عشر الميلادي .

٣٦ - السوليتوس : هي قصائد تشبه الأراجاز العربية .

٣٧ - اليد الثانية : تعبير اسباني بمعنى للمرة الثانية .

٣٨ - دانتى Alishieri : الاديب الايطالي المعروف مؤلف الكوميديا الالهيسية ، (١٢٦٥ - ١٣٢١) .

٣٩ - موليير : الاديب الفرنسي الشهير (١٦٢٢ - ١٦٧٣) .

لكن ، في الواقع ، ان احسن ما جمعت في حياتي كانت هي قواعي .
لقد منحني متعة بنيتها المدهشة : لنقاوة القمرية : نقاوة «بورسيلان»
غريب ساحر بالاضافة الى العديد من الاشكال الملساء ، الفوطية ، الفخمة .

ان آلاف الابواب الصغيرة البحرية قد انفتحت امام معرفتي منذ ذلك
اليوم الذي اهداني فيه عالم الرخويات الكوبي السيد (كارلوس دي لا توريه)
احسن نماذج مجموعته . منذ ذلك الوقت وأنا ، حيث اسافر ، اجوب
البحار السبعة بحثا عنها . لكن عليّ ان اعترف ان بحر باريس ، بين
موجة وموجة ، هو من كشف لي قواقع اكثر . كانت باريس قد نقلت
اصداق المحيطات كلها الى دكاينها لبيع تحف التاريخ الطبيعي ، الى
«أسواقها البراغيشية» .

لقد كان أسهل من ادخال الايدي في صخور «بيراكروث» (Veracruz)
او «كاليفورنيا» السفلى ، العثور ، تحت غلاف المدينة ، بين زجاج مكسر
وأحذية قديمة ، على الطيف الشائق لحلزونة «الزيتونة المحاكة» او مفاجئة
حلزونة الرمح المصنوع من المرو الذي يتناول ويتناول ، كبيت شعر من
الماء ، في (La Rosellaria Fusus) لا احد يستطيع ان ينزع مني الانبهار
والزهو باني قد استخرجت من البحر (el Espondylus) الوردي وهو
محارة مرصعة بأشواك مرجانية . وقدرت ان اشاهد (el Espondylus)
الابيض وهو مفتوح بين بين ، وهو مصنوع من قضبان وأشواك ثلجية
بيضاء تبدو كالنوازل الكلسية المترسبة في مغارة «غونفورية» .

بعض هذه الانتصارات كانت تاريخية . اذكر انه في متحف بكين فتحوا
الصندوق الاكثر تقدسا ، المليء برخويات البحر الصيني وأهدوني نموذجا
من النموذجين الاثنين الوحيدين من صنف (Thatcheria Mirabilis)
استطعت ان اكنز هذا العمل الفني الخارق الذي به اهدى المحيط الى
الصين أسلوب المعابد والهيكل الذي عم وشاع الى الآن في تلك الاصقاع .

لقد استغرقت ثلاثين سنة وأنا اجمع كتباً كثيرة . كانت رفوفي تحتوي
على كتب طبعت قبل زمن بعيد ومجلدات كانت تهزني ، كتب لـ (كيبيدو)
و (ثيرفانتس) و(غونفورا) في طبعتها الاصلية الاولى ، كذلك على كتب
لـ (لافورقه Luforque) لـ (رامبو) لـ (لوتريامون) . كانت هذه الصفحات

تبدو لي وكأنها ما زالت تحتفظ بلمس هؤلاء الشعراء الاحياء . لقد أهداني (بول ايلوار) بمناسبة عيد ميلادي في باريس الرسالتين اللتين كتبهما (ايسابيل رامبو) الى أمه في المستشفى بمرسيليا حيث بترت لهذا المتشرد التائه ساقه . لقد كانت هاتان الرسالتان كنزين يطمع بهما : المكتبة الوطنية في باريس وجامعو الكتب الشرهون في «شيكافو» .

لقد جبت العوالم كلها الى درجة ان مكتبتي نمت في افراط وجاوزت شروط المكتبة الخاصة . ذات يوم أهديت مجموعة القواقع التي قضيت عشرين سنة وأنا اجمعها وتلك المجلدات التي بلغ عددها الخمسة آلاف التي اخترتها في حب عظيم من اقطار العالم كله ، الى جامعة تشيلي فاستقبل مدير الجامعة هذه الهبة بالجمل الطنانة والكلمات الجميلة .

اي انسان متبلور شفاف سيفكر في البهجة التي عمت تشيلي اثر هديتي هذه ، لكن ثمة أناس ضد المتبلورين وغير متبلورين . لقد كتب ناقد رسمي مقالات غاضبة يحتج فيها بحدة وشدة على سلوكي هذا . متسى سيقطع دابر الشيوعية الدولية ؟ كان يصرخ . سيد آخر القى في البرلمان خطابا ملتهبا ضد الجامعة لانها قبلت هداياي الرائعة ، القابلة للمهد منها وغير القابلة (٤٠) وهدد بقطع الاعانات التي تتلقاها الجامعة الوطنية . بين كاتب المقالات ونائب البرلمان شن آخرون موجة من الصقيع فوق عالم تشيلي الصغير فكان مدير الجامعة يروح ويغدو عبر كواليس البرلمان شاحب الوجه مرتعدا ، ثم فصل وعزل .

لقد انقضت عشرون سنة على ذلك التاريخ وما من احد عاد فرأى كتبتي او قواعي يبدو انها رجعت الى دكاكين الوراقين والى المحيطات .

زجاج مهشم

منذ ثلاثة ايام عدت لادخل بعد غياب طويل الى داري في «البارائيسو»

٤٠ - تعبير اسباني بمعنى الصالح والطالح .

فرايت شقوفا تجرح الحيطان والزجاج قد أصبح شظايا مهشمة تشكل
سجادة اليمه فوق الارض في الغرف جميعها . كانت الساعات التي هوت
على الارض تشير الى ساعة حدوث الزلزال . كم من الاشياء الجميلة
تكسها الآن (ماتيلده) بمكنسة ! كم من الاغراض الغريبة التي حولتها الهزة
الارضية الى قمامة ونفاية ! .

يجب علينا تنظيف الدار وترتيب الحاجات والبدء من جديد . انه
ليكلف جهدا العثور على الورق في وسط الفوضى وانه لصعب من بعد ،
ايجاد الافكار .

كانت آخر اعمالها هي ترجمة «روميو وجولييت» وقصيدة غزل طويلة
في اوزان قديمة ، لكنها ظلت غير منتهية .

هيا ، ايتها القصيدة الغزلية انهضي من بين الزجاج المهشم فلقد حانت
ساعة الفناء .

ساعديني ، ايتها القصيدة الغزلية ، على اعادة الصفاء ، على الفناء
فوق الالم .

انها حقيقة ان العالم لا يتطهر من الحرب ، لا يفسل من الدم ، لا
يسلم من الكراهية . انها حقيقة .

بيد انها كذلك ، في حد سواء ، لحقيقة اننا نقترب من الجلاء : ان
العنيفين ينعكسون في مرآة العالم ، ووجههم ليس جميلا حتى في نظريهم
انفسهم .

وما زلت اعتقد في امكانية الحب . لدي يقين بأن التفاهم بين البشر
سيتم على الرغم من الآلام ومن الدم ومن الزجاج المهشم .

(ماتيلده اورتيا) ، زوجتي

ان زوجتي لهي قروية مثلي انا . ولدت في بلدة بالجنوب تدعى

تسييان» وهذه البلدة شهيرة ، من الناحية السعيدة ، بأوانيها الفخارية
الريفية ، ومن الناحية التعيسة ، بزلازلها الرهيبة .

قد قلت كل ما أريد ان اقله لها في ديواني «مائة أرجوزة حب»
(Cien sonétos de amor) (٤١) .

ربما تستطيع هذه الاشعار ان تدل عما تعنيه هي بالنسبة لي . لقد
جمعتنا الحياة والارض .

مع ان هذا لا يهم احدا غيرنا فاني اقول ، نحن سعيدان جدا . نقسم
وقتنا المشترك الى جلسات طويلة في شاطئء تشيلي المنعزل الوحيد . ليس
في الصيف لان الشريط الساحلي الذي تعيد تجفيفه الشمس طيلة الصيف
يعلن عن نفسه اصفر أجرد صحراويا . بلى في الشتاء حين يرتدي هذا
الشريط في تزهير غريب مع الامطار والبرد ، الاخضر والاصفر ، الازرق
والارجواني . بعض الاحيان نصعد من المحيط البري الوحيد الى المدينة
العصبية ، الى العاصمة «سانتياغو» التي فيها نعاني معا من وجود
الآخرين المعقد .

(ماتيلده) تغني في صوت قدير اغاني وقصائدي .

اني لأهدي اليها كل ما اكتب وكل ما املك ، ليس بالكثير لكنها سعيدة
راضية .

الآن المحها وهي تدفن حذاءها في طين الحديقة ومن بعد تدفن يديها
الصغيرتين في عمق النبتة .

لقد جلبت لي من الارض برجليها ويديها وعينيها وصوتها الجذور كلها،
الزهور جميعها ، ثمار السعادة الشذية جمعاء .

٤١ - لقد ترجمنا الكثير من هذه «الاراجيز» في كتابنا «بابلو نيرودا: مختارات شعرية».

مخترع نجوم

رجل كان ينام في غرفته بفندق بباريس ، بما انه كان سهرا كبيرا فلا تندهشوا ان قلت لكم انه كان يظل نائما الى ما بعد منتصف النهار .

لقد اضطر ان يستيقظ ذات يوم وكانت الساعة قد جاوزت الثانية عشر فقد انهار الجدار الشمالي على حين غرة ثم انهار الجائط المواجه ، لم يكن الامر بغارة جوية . كان يدخل عبر الفجوات الحديثة الحفر عمال ذوو شوارب كبيرة والحمالة بأيديهم فينتهرون النؤوم :

(Eh, léve, bourgeois) تناول كأسا معنا .

انفتحت زجاجات الشمبانيا ، دخل رئيس البلدية بشريط ذي ثلاثة ألوان على صدره . صدح بوق بنغمات «المارسيليز» . ما هو السبب الذي أدى الى هذه الاعمال الغريبة ؟ حصل انه هناك تحت ارض غرفة ذلك الحالم وقعت نقطة الاتصال بين طرفي السكة الحديدية تحت الارضية في باريس ، التي كانت في تلك الفترة بمرحلة الانشاء .

منذ تلك اللحظة التي روى لي ذلك الرجل هذه الحكاية قررت ان اكون صديقه او بالاحرى مريده او تلميذه ، بما انه كانت تقع له اشياء غريبة جدة فما كنت اريد ان تفوتني واحدة منها ولذلك فقد رافقته في التجول عبر بلدان كثيرة . (فيدريكو غارتيا لوركا) اتخذ موقفا شبيها بموقفي ، فقد كان اسير وهم واعتقاد بمثل هذه الظواهر والغرائب . (فيدريكو) وأنا كنا جالسين ذات يوم في «مبيرة» (محل بيرة) «كورتيوس» (٤٢) مقابل «ثيبيليس» (٤٣) المديرية فاقترح مجلسنا نؤوم باريس ، مع انه في مظهره كان متباهيا وخرائطيا فقد وصل متفككا متخلعا . لقد وقع له مرة اخرى ما هو فائق الوصف ، فقد كان في مخبئه المتواضع جدا ، وأحب ان ينظم اوراقه الموسيقية ، لقد نسيت ان اقول ان صاحبنا هذا كان مؤلفا

٤٢ - كورتيوس : هو مبنى البريد والبرق في مدريد .

٤٣ - ثيبيليس : هي ساحة بمدريد مقابل مبنى البريد ، في وسطها تمثال لهذه الالهة .

موسيقيا ساحرا . فماذا جرى ؟

— توقفت سيارة عند باب فندقى . سمعت كيف كانت الاقدام تصعد الدرجات ، كيف كانت الخطوات تدخل الى الحجرة المجاورة لحجرتى . من بعد بدأ المستأجر الجديد بالشخير ، فى البداية كان شخيره وشوشة ثم ارتجّ الجو بدات الحيطان والخزائن تهتز وتتحرك تحت الدفع المتناغم لذلك المتشخر العظيم .

لا بد انه ، بلا شك ، حيوان متوحش . حين انطلقت الشخيرات فى شلال عارم لم يكن عند صاحبنا ادنى شك فى انه الجبلي (٤٤) الاقرن . لقد كانت قمقمته فى بلدان اخرى قد هزت كنائس كبيرة ، سدت الطرق واهاجت البحار . فما الذى سيجري مع هذا الخطر الفلكي ، مع هذا الحيوان الضخم الكريه الذى يهدد سلام اوروبا ؟

كل يوم كان يروي لنا صروفا وخطوبا رهيبة عن هذا الخنزير البري الاقرن وكنا نحن جميعا ، أنا و(فيدريكو) و(رافائيل البرتي) والنحّات (البرتو) و(فولخينشو ديّات باستور) و(ميغيل ايرنانديث) ننصت اليه متشوقين ونودعه ونحن نرغب فى المزيد .

الى ان جاء ذات يوم بضحكته الكروية العتيدة وقال لنا :

— لقد انحلت المشكلة الرهيبه . لقد قبل (el Graaf Zeppelin) الالماني ان يشحن الجبلي الاقرن وسيسقطه فى الغابة البرازيلية ، وهناك الاشجار الكبيرة ستفديه ولن يكون ثمة خطر فى ان يشرب «الامازون» فى وردة واحدة . وهو هناك سيظل يرج الارض بشخيره الرهيب .

كان (فيدريكو) يصفى اليه منفجرا من الضحك بعينيه المطبقتين من حدة التأثير . ثم اخذ صاحبنا يروي علينا انه ذهب ذات مرة ليرسل برقية فأقنعه عامل البرق ألا يرسل ابدا اية برقية بل رسالة لان الناس

٤٤ — الجبلي : هكذا فى الاصل el jabali ، وهو الخنزير البري . عن العربية

تخاف كثيرا حين تستلم البرقيات المجنحة السريعة وحتى ان بعضهم مات بالسكتة القلبية قبل ان يفضّ البرقية التي استلمها . وحكى لنا كذلك انه حضر ذات يوم كمتفرج محب للاستطلاع مزادا على الخيول «ذات الدماء النقية» في لندن فرفع يده كي يحيي صديقا له شاهده هناك فما كان من الضارب بالمطرقة الا ان هوى بمطرقته معلنا وقوف المزاد عند صاحبنا وباعه بعشرة آلاف ليرة استرلينية فرسا كان (آغا خان) قد نافسه عليها فوصل بمزايده حتى تسعة آلاف وخمسمائة .

— كان عليّ ان احمل الفرس الى فندقى وان اعيدها في اليوم التالي —
انهى كلامه .

الآن الراوية لا يستطيع ان يروي لنا حكاية الجبلي الاقرن ولا اية قصة اخرى فلقد توفي هنا في تشيلي . هذا التشيلي المداري ، الموسيقي من مصراع الى مصراع «٤٥» ، المسرف في حكايا لا مثيل لها ، كان اسمه في حياته (اكاريو كوتابوس Acario Cotapas) . لقد كان عليّ ان اتكلم عند دفن هذا الانسان غير القابل للدفن ، فقلت فقط : «اليوم نهب الى الظلال كائننا مشرقا كان يهبنا نجمة كل يوم» .

(ايلوار) الرائع

لقد مات رفيقي (بول ايلوار) منذ زمن قريب . لقد كان جدا كاملا ، جدا محكما ، جدا رائع فكلفني الما وجهدا ان اعتاد على فقدانه وان اتعود على اختلافاته . كان نورمانديا ازرق ورديا ، ذا بنية قوية ونسيج رقيق ، ان الحرب العالمية الاولى تركته بيدين مرتجفتين دائما . لكن (ايلوار) اعطاني في كل لحظة فكرة اللون السماوي ، فكرة الماء العميق الهادي ، فكرة عذوبة تعرف قوتها . من شعره النقي جدا ، الشفاف جدا مثل قطرات مطر ربيعي على الزجاج كان يمكن ان يبدو (بول ايلوار) انسانا لا سياسيا ،

٤٥ — من مصراع الى مصراع : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي ، من اقل راسه حتى اخصى كعنه .

شاعرا ضد السياسة ولكنه لم يكن هكذا فقد كان يشعر بأنه ملتصق التصاقا قويا بالشعب الفرنسي ، بأراء شعبه وبنضاله .

كان (بول ايلوار) حازما ، نوعا من برج فرنسي بهذا الجلاء العاطفي الذي ليس هو سواء والغباء العاطفي ، السائد العام .

لاول مرة ، في المكسيك ، حيث سافرنا معا ، رأيت على حافة هاوية مظلمة ، هو الذي دوما كان يترك مكانا مريحا للحزن ، مكانا يواظب عليه بقدر ما كان يواظب على اكتساب المعرفة .

لقد كان مرهقا متضايقا . انا كنت قد اقنعت وجررت هذا الفرنسي القطب الى هذه الاراضي النائية وهناك في اليوم نفسه الذي دفنا (خوسه كليمينته اوروثكو) هويت انا ايضا بالتهاب الوريد ، وهو مرض خطير احتفظ بي مربوطا الى سريرى خلال اربعة اشهر بكاملها . فشعر (بول ايلوار) انه وحيد كئيب ، مهجور كما لو كان رائدا مكتشفا اعصى قد ترك وحده . لم يكن يعرف احدا ، لم تكن تفتح له الابواب . شعر كأنه ارملة بلا حب ولا رفيق فكان يقول لي : «اننا نحتاج الى رفقة كي نرى الحياة ، نحتاج الى احد يشاركنا جوانب الحياة كلها . ان وحدتي لأمر محال ولجريمة » .

ناديت اصدقائي فأجبرناه على الخروج ، غصبا عنه اخذوه كي يتجول في دروب المكسيك ، وفي منعطف درب عثر على حبه الاخير : (دومينيكه) .

انه لمن الصعوبة ان اكتب حول (بول ايلوار) . فساظل اراه يحيا بجانبى ، تشتعل في عينيه أعماق الزرقاء الكهربائية التي تنظر نظرة واسعة عريضة بعيدة .

لقد خرج من الارض الفرنسية واكاليل الغار والجذور تحوك موارثه الشدية . لقد كانت قامته الطويلة مصنوعة من ماء وحجر ، وعلى هذه القامة كانت تتسلق نباتات قديمة تحمل زهرا وبريقا ، أعشاشا وأغاني شفافة .

شفافية ، هذه هي الكلمة ، شعره زجاج من حجر ، ماء توقف في مجراه المغني .

لقد وضع شاعر الحب الفلكي ، شعلة الظهر النقية ، في ايام فرنسا العvisبة ، وسط وطنه ، قلبه ومنه خرجت النار الحاسمة للمعارك .

هكذا وصل بشكل طبيعي الى صفوف الحزب الشيوعي . ان كونه شيوعيا كان يعني بالنسبة له التأكيد بشعره وبحياته على قيم الانسان والانسانية .

يجب الا يعتقد بأن (ايلوار) كان اقل سياسيا منه شاعرا . لقد ادهشتني دائما بصيرته الواضحة وتنبؤه العلمي وحجته الجدلية الرائعة . لقد حللنا معا اشياء كثيرة ، بشرا وقضايا في عصرنا ، فأفادني جلاؤه دوما .

لم يضع في السريالية اللاعقلية المحالة لانه لم يكن مقلدا بل كان خالقا مبدعا . وبما انه كان هكذا فقد افرغ فوق جثة السريالية طلاقات من جلاء وذكاء .

لقد كان لي صديق كل يوم ، كفاف يومي واني افتقد حنانه الذي كان جزءا من خبزي ، كفاف يومي . لا احد يستطيع ان يعطيني ما حمله معه لان اخوته الفعالة كانت قيمة فاخرة من قيم حياتي .

يا برج فرنسا ، يا اخي ، اني لانحني فوق عينيك المطبقتين اللتين ما زالتا تعطيانني النور والعظمة ، البساطة والاستقامة ، الطيبة والتواضع ، كل ما فرسته انت في هذه الارض .

(بيير ريفيردي)

ابدا لن ادعو شعر (بيير ريفيردي) بالساحر ، لان هذه الكلمة ، شائعة عامة في فترة ، هي كقبة مهرج في مهرجان : ولا اية حمامة برية تخرج من جوفه كي تشرع بالطيران .

لقد كان (ريفيدي) شاعرا حسيا ماديا يذكر الاشياء باسمائها ويلمس
اشياء لا عد لها من الارض والسماء . كان يعدد كل ما هو جلي وبراق
في العالم .

لقد كان شعره مثل عرق من معدن المرو ، عميقا ، براقا ، ليس ينفذ .
احيانا يضيء في قساوة بلمعان معدن اسود وقد اقتلع في صعوبة من باطن
الارض الكثيف و احيانا يطير فجأة في شرارته الفوسفورية المتألقة او يختفي
في نفق منجمه ، بعيدا عن الوضوح ولكنه يظل مشدودا الى حقيقته الداتية
مرتبطا بها . ربما ان هذه الحقيقة ، هذا التلاحم بين جسد شعره وبين
الطبيعة ، هذه الطمانينة «الريفيدية» ، هذه الاصلة الثابتة الراسخة غير
المتزعزعة او المتذبذبة قد عجلت له النسيان فقد راح الآخرون شيئا فشيئا
يعتبرونه مثل حقيقة مسلمة ، ظاهرة طبيعية : دارا، نهرا ، شارعا معروفا،
شيئا لن يغير ابدا من مظهره ولا من موضعه .

الآن قد غيّر من موضعه ، الآن سكون عظيم اكبر من سكونه الفخور
الشريف فد اخذه اليه ، فنرى انه لم يعد موجودا وان هذا البريق الذي
لا يعوض قد اختفى ، قد دفن في ارض وفي سماء .

اقول انا ان اسمه مثل ملاك منبعث ، سيحطم ذات يوم ابواب النسيان
غير العادلة .

سنراه ، بلا ابواق ، وهو مكلل بهالة النور المنبعث من سكون شعره
العظيم الحي الرنان ، في يوم الحكم النهائي ، فسي يوم الميعاد الجوهري
فيبهرنا بخلود اثره البسيط .

(جيرزي بوريزجا Jerzy Borezjha)

لم يعد ينتظرني في بولونيا (جيرزي بوريزجا) . لقد احتفظ القدر
لهذا المهاجر القديم بحقه في ان يرى وطنه وقد استرجع واسترد . حين
دخل اليه جنديا مقاتلا، بعد سنوات كثيرة من الغياب عنه كانت «فرصويا»
عبارة عن كومة من الانقاض المطحونة ، لم يكن فيها شوارع ولا اشجار .

لم يكن من احد فيها ينتظره . لقد عمل (بوريزجا) وهو ظاهرة ديناميكية حيوية ، مع شعبه . من رأسه خرجت خطط هائلة ، مبادرة رائعة : دار الكلمة المطبوعة . لقد بنيت الدار طبقا فوق طبق على مراحل ، وصلت المطابع الرحوية من احسن المطابع في العالم . وهناك تطبع الآن آلاف وآلاف من الكتب والمجلات . لقد كان (بوريزجا) محولا دنيويا للرغبات الى اعمال ، لا يتعب ولا يهدأ . لقد نفذت مشاريعه الجريئة في بولونيا الجديدة ذات الحيوية الخارقة ، بكاملها كما تبنى القلاع في الاحلام .

لم اكن اعرفه . ذهبت لاتعرف عليه في الحقل حيث كان يقضي العطلة ، بشمال بولونيا في المنطقة ذات البحيرات «الماشورية» حيث كان ينتظرني .

حين هبطت من السيارة رأيت رجلا ارفل عديم الرشاقة ، سيء الهندام ، لم يحلق ذقنه منذ ايام كثيرة ، يرتدي سروالا قصيرا (شورت) ذا لون ضعب التحديد . ناداني حالا في طاقة محتدمة بلغة اسبانية تعلمها من الكتب : «يا (بابلو) ، اخولقت مرهقا ، لا مندوحة في ان تأخذ قسطك من الاستجمام» (٤٦) . لم يدعني في حقيقة الامر ان آخذ «ولا اي قسط من الاستجمام» . كان حديثه مسهبا مطنبا ، متنوعا متنقلا ، مفاجئا مباغتاً ، في نداءات وتساؤلات وتعجبات متداخلات . كان يحكي لي في الوقت نفسه عن سبع خطط مختلفة مختلطة مع تحليلات لكتب تضيف تفسيرات جديدة لوقائع تاريخية او لأمور الحياة . «كان البطل الحقيقي هو (سانشو بانثا Sancho Panza) (٤٧) وليس (دون كيخوته) ، يا (بابلو) » . بالنسبة له كان (سانشو) هو صوت الواقعية الشعبية ، القطب الحقيقي لعالمه ولزمته «حين يحكم (سانشو) فان حكمه سيكون جيدا لان الشعب هو من يحكم عند ذلك» .

٤٦ - نحاول ان ننقل الى العربية أسلوبه الفصيح الذي تعلمه من الكتب القديمة .
٤٧ - سانشو بانثا : هو مرافق (دون كيخوته) في رائلة (ثيرفانتيس) الخالدة ، وهو يشبه شيبوب في قصة عنتر بن شداد الشعبية ، وقد كان (دون كيخوته) قد ومد مرافقه بامطائه حكم مقاطعة ان انتصر على الاعداء ، انظر كتابنا ، دون كيخوته في القرن العشرين .

كان يسحبني من السرير في وقت مبكر ويصيح بي دوما : «لا بد لك من ان تأخذ قسطك من الراحة والاستجمام» فياخذني عبر غابات شجر التنوب والارز كي يريني هناك معبدا لطائفة دينية هاجرت الى هذا المكان من روسيا منذ قرن من الزمن وظلت تحافظ على طقوسها كلها فكانت الراهبات يستقبلنه كأنه بركة تحل عليهن فقد كان (بوريزجا) كله لياقة وكياسة واحتراما تجاه الراهبات المتدينات .

لقد كان رقيق العواطف فعلا نشيطا . تلك السنون كانت رهيبة ، زمن الاحتلال النازي . ذات مرة أراني المسدس الذي أعدم به مجرم حرب ، بعد محاكمة تحقيقية عامة .

كانوا قد عثروا مع هذا المجرم النازي على مفكرة سجل فيها بشكل دقيق جرائمه كلها . عجز وأطفال خنقهم بيديه ، صبايا هتك أعراضهن . ففاجأوه في الضيعة نفسها حيث كان يقوم بهذه الاعمال الوحشية والقوا القبض عليه . ثم اصطف الشهود يدلون بشهاداتهم حول هذه الاعمال ، وقرئت مفكرته التي تدينه ادانة واضحة فاضحة . لم يجب هذا المجرم المتحدي الا بجملة واحدة : «سأعيد فعل ذلك ان استطعت ان ابدأ من جديد» . لقد امسكت انا بهذه المفكرة بيدي وكذلك بالمسدس الذي أنهى حياة ذلك المجرم القاسي العنيد .

في البحيرات الموشورية ، المتزايدة حتى اللانهاية ، تصطاد ثعابين المياه . كنا ننطلق في ساعة مبكرة من الصباح الى الصيد فنرى هذه الثعابين خفاقة بليلة كأحزمة سوداء .

لقد ألفت تلك المياه بصيادها ومناظرها الطبيعية الخلابة . كان صديقي من الصباح حتى الليل ، يجعلني أصعد وأهبط ، أجري وأجذف ، أتعرف على الناس والأشجار . كل ذلك على صيحة ان : هنا لا بد لك من ان تتناول قسطا من الراحة والاستجمام ، ليس من مكان مثل هذا من اجل الاستجمام » .

حين انطلقت من البحيرات الموشورية ، اهداني ثعبانا بحريا نفائا ، اطول ثعبان بحري رأيته في حياتي .

هذا العكاز الغريب العجيب عقد حياتي ، انا كنت اريد ان التهمه
لاني لست من انصار الثعابين النفائة وهذا الثعبان يجيء من بحيرته مسقط
رأسه بشكل مباشر من غير مخازن ولا وسطاء ولا باعة فهو طيب بلا شك .
لكن في هذه الايام لم تكن الثعابين البحرية لتنقصني في كل وجبة اتناولها
بفندي ولم تسنح لي الفرصة بأن احضر ثعباني وأقلية لأكله ، لا في الليل
ولا في النهار . فبدأ الثعبان يشكل لي وسوسة مزعجة متسلطة على عقلي .

في الليل كنت اخرجه الى شرفة الغرفة كي يتناول الهواء الطازج .
احيانا وأنا في مجرى احاديث مهمة كنت اذكر بأن ثعباني لم يزل فسي
الخلاء تحت السماء وبعز الشمس وقد جاوز النهار الظهيرة عند ذلك افقد
كل اهتمام بموضوع الحديث وأركض كي أضعه في مكان بارد من غرفتي ،
داخل الخزانة ، مثلا .

في النهاية عثرت على هاو مفرم فأهديته هذا الثعبان المائي النفاث
بل اطول ثعبان وأطرى ثعبان واحسن الثعابين النفائة التي شاهدتها في
حياتي ، طبعا ندمت على ذلك وأنبني ضميري كثيرا .

الآن ، (بوريزجا) العظيم ، الـ (كيخوته) النحيل الديناميكي النشيط ،
المعجب بـ (سانشو) على انه (كيخوته) آخر ، الحساس العالم العارف ،
يستجم لأول مرة ، يستجم في الدياجير التي أحبها كثيرا . في مستقره
المريح يبدع عالما أعطاه هو تفجره الحيوي ، ناره التي لا تتعب ولا تخمد .

(سومليو جورجى Somlyo Georgy)

اني لأحب في هنغاريا تشابك الحياة والشعر ، التاريخ والشعر ،
الزمن والشعر . في اماكن اخرى يناقش هذا الموضوع في براءة اكثر او
اقل . في هنغاريا كل شاعر هو ملتزم قبل ان يولد. ان (ايتلا جوزيف)
(وادي اندريه) و(غيولا اليس) لهم نتاج طبيعي للذبذبة كبيرة متراوحة بين
الواجب والموسيقى ، بين الوطن والظل ، بين الحب والالم .

ان (سومليو جورجى) لهو شاعر رأيته ينمو في ثقة وقدرة منذ عشرين

سنة . انه لشاعر ذو لحن ناعم متصاعد كما الكمان ، شاعر يهتم بحياته وبالحيوات الاخرى ، شاعر هنفاري حتى العظم ، هنفاري في استعداده السخي للمشاركة في واقع شعبه وأحلامه . انه لشاعر الحب الاكثر تصميمًا والعمل الاكثر توهجًا واشتعالًا ، يحفظ في عالميته الطابع المتميز للشعر العظيم في وطنه .

انه لشاعر شاب ناضج ، جدير بانتباه عصرنا . ان شعره لشعر هاديء ، شفاف ، مسكر مثل نبيذ الرمال الذهبية .

(كواسيمودو Quasimodo) (٤٨)

ان ارض ايطاليا تحفظ اصوات شعرائها القدماء في أحشائها النقية جدا . حين اطا رحاب الارياف ، حين اجتاز الحدائق حيث تترقرق المياه وتتلأ ، حين أعبّر رمال محيطها الازرق الصغير ، يبدو لي وكأنني اطأ جواهر جوهريّة ، مضامين الماسية ، أكوابا زجاجية خافية سرية ، البريق كل البريق الذي حفظته القرون . لقد اعطت ايطاليا الى شعر اوروبا ، شكلا ، صوتا ، نغما ، رشاقة ، ظرافة ، احتداما فأخرجته من شكله الاولي العديم الشكل ، من بدائيته غير المهذبة المرتدية برذعة ودرعا . لقد حول نور ايطاليا اسمال الرواة وصلابة الاناشيد البطولية الحماسية الى نهر غزير واقف من اللماس المصقول المثقف المرصع .

لقد كان مدهشا لعيوننا ، عيون شعراء حديثي الوصول الى المعرفة ، قادمين من اقطار حيث المختارات الشعرية تبدأ بشعراء عام ١٨٨٠ ، أن ترى في المختارات الشعرية الايطالية تاريخ ١٢٣٠ ونيف او ١٣١٠ او ١٤٥٠ وبين هذه التواريخ قصائد «الترثيتو» (٤٩) الباهرة : الزينة المثيرة ، العمق والترصيع في اعمال (اليجيري Alishieri) ، (كافالكانتي) (٥٠) (بيتراركا) ،

٤٨ - كواسيمودو Salvatore : شاعر ايطالي (١٩١٠ - ١٩٦٧) .

٤٩ - ال ترثيتو el terceto : وزن من اوزان الشعر يشبه بحر المديد العربي .

٥٠ - كالكانتي Guido : شاعر وفيلسوف ايطالي (١٢٦٩ - ١٣٠٠) .

(بوليزيانو) (٥١) .

ان هذه الاسماء وهؤلاء الرجال قد اعاروا نورا «فلورنسيا» الى كاتبنا العذب القدير (غارثيلاسو دي لا بيغا) ، الى الحليم اللطيف (بوسكان Boscán (٥٢) ، وأضاءوا لـ (غونغورا) وصبغوا بنشابتهم الظليلة كآبة (كيبيدو) وصاغوا «سونيتوس» (وليسم شكسبير) في انجلترا وأشعلوا مضامين فرنسا وبذلك ازهرت ورود (رونسارد) و(دو بيلاتي) .

هكذا اذن : الولادة في اراضي ايطاليا هي مهمة صعبة ، بالنسبة لشاعر ، مشروع ذو نجوم يتضمن ان يأخذ الشاعر على عاتقه القبة الزرقاء ذات المواريث المشرقة المتألقة .

اني لاعرف منذ سنوات (سالفاتوري كواسيمودو) واستطيع القول بأن شعره يمثل ضميرا قد يبدو لنا طيفا شبحيا بسبب شحنته الثقيلة المتوهجة . ان (كواسيمودو) هو اوروبي مزود بعلم اكيد في المعرفة ، في التوازن ، في اسلحة الذكاء كلها . غير ان موقعه كإيطالي مركزي كممثل حالي لكلاسيكية غير متواصلة لم يجعله محاربا سجيننا داخل حصنه . ان (كواسيمودو) هو رجل عالمي بامتياز لا يقسم العالم تقسيما حريبا الى شرق وغرب بل يعتبر ان الواجب المعاصر المطلق هو محو الحدود بين الثقافة وقرار الشعر والحقيقة والحرية والسلم والفرح على ان هذه الاشياء كلها هي هبات لا تقبل القسمة والتقسيم .

في (كواسيمودو) تتحد الالوان والالحن لعالم هادىء بشكل كثيب . لكن حزنه لا يعني ريبة (ليوباردي) (٥٣) المهزومة بل انزواء الارض الخصبي في المساء ، هذا الورع الذي يتخذه المساء حين تحمي العطور والالحن والالوان والاجراس عمل اكثر البدور عمقا في الارض . اني لاعشق اللغة القطاف في هذا الشاعر العظيم ، وكلاسيكيته ورومانطيكته وأعجب خاصة

٥١ - بوليزيانو Angelo : شاعر ايطالي (١٤٥٤ - ١٤٩٤) .

٥٢ - بوسكان Juan : شاعر اسباني (١٤٩٢ - ١٥٤٢) .

٥٣ - ليوباردي Giacomo : كاتب ايطالي (١٧٩٨ - ١٨٣٧) .

بما فيه من تضميخ خاص لاستمرارية الجمال ، كذلك بقدرته على تحويل ذلك كله في لغة ذات شعر حقيقي مهزّ مؤثر .

اني لارفع عبر المدى وفوق البحر والبعد تاجا شذيا مصنوعا من اوراق «اراوكانيا» وادعه يطير في الهواء كي تحمله الرياح والحياة لتضعه فوق جبين (سالفاتوري كواسيمودو) . ليس هو بتاج الفار «الايولونسي» الذي رأيناه مرات كثيرة في صور (فرانثيسكو بيتراركا) بل هو تاج من غاباتنا غير المرتادة ، من اوراق ليس لها حتى الآن من اسماء ، مضمخة بالندی في اسحار جنوبية .

(باييجو Vallejo (٥٤) يحيى من جديد

رجلا آخر كان (باييجو) . ابدا لن انسى رأسه الكبير الاصفر ، الشبيه بالرؤوس التي نراها في الشبابيك القديمة بـ «بيرو» . لقد كان (باييجو) جديا ونقيا . مات في باريس . مات من هواء باريس القدر ، من النهر القدر حيث اخرجوا أمواتا كثيرين . لقد مات (باييجو) من جوع ومن اختناق . لو كنا احضرناه الى موطنه «بيرو» ، لو كنا جعلناه يستنشق هواء ارضا بيروية فلربما كان لا يزال حيا حتى الآن يغني وينشد . لقد كتبت في فترتين مختلفتين قصيدتين عن صديقي الحميم ، عن رفيقي المخلص . اعتقد اني وصفت فيهما سيرة صداقتنا الموزعة . القصيدة الاولى هي «نشيد الى (ثيسر باييجو)» وهي تظهر في الجزء الاول من «أناشيد بدائية» .

في الاوقات الاخيرة ، في هذه الحرب الصغيرة حرب الادب ، الحرب القائمة بين جنود صفار ذوي اسنان مفترسة اخذوا يقدفون بـ (باييجو) بظل (ثيسر باييجو) بغياب (ثيسر باييجو) بشعر (ثيسر باييجو) ضدي وضد شعري . هذا يمكن ان يقع في الجهات كلها . ان الامر هو جرح من عملوا كثيرا واهانتهم . يقولون : «هذا ليس بجيد ، (باييجو) بلى كان جيدا . لو

٥٤ - باييجو Cesar : شاعر مشهور من البيرو (١٨٩٣ - ١٩٢٨) .

ان (نيرودا) كان ميتا لقدفوا به ضد (بايخو) الحي» .

القصيدة الثانية عنوانها هو حرف واحد فقط الا وهو حرف (V) (٥٥) وهي تظهر في ديوان «شاذ» . (Estravagario) ٥٥

للبحث عما هو غير محدد ، عن الدليل او الخيط الذي يربط الانسان بآثره ، اتكلم عمن كان لهم علاقة ما او كثير من العلاقة بي . لقد عشنا الحياة معا وهانذا الآن !حياتهم من جديد . ليس لي بد من ان أسبر غور ما يسمى بالسر الشعري وانا سأسميه بالوضوح الشعري . لا بد ان تكون ثمة علاقة بين الايدي والاثر ، بين عيون الانسان ، أحشائه ، دمائه وبين عمله . لكن ليست لي نظرية . انا لست أسير ومذهبي تحت ذراعي كي اتركه يسقط فوق رأس احد من الناس . مثل البشر كلهم انا ارى كل شيء واضحا يوم الاثنين ، وأرى كل شيء غامضا يوم الثلاثاء وأعتقد ان هذا العام هو واضح - غامض . الاعوام القادمة ستكون بلون ازرق .

(غابريلا ميسترال)

لقد قلت سابقا اني عرفت (غابريلا ميسترال) في قريتي ، فسي «تيموكو» . لقد نزحت هي عن هذه القرية الى الابد من بعد . (غابريلا) كانت اذالك في منتصف حياتها الشاقة المجتهدة وكانت ، خارجيا ، ديرية، كأنها رئيسة على راهبات مستقيمات .

في تلكم الايام كتبت هي قصائد «الابن» مصنوعة في نشر نقي مطرز مكوكب لان نشرها كان في معظم الاحيان اكثر شعرها تأثيرا . بما انها في قصائد «الابن» تصف الوهن والطلق والمخاض والنمو فان شيئا مشوشا قد وشوش به في «تيموكو» ، شيئا مبهما غير محدد ، شيئا بديشا بشكل بريء، ربما كان تعليقا فظا جرح كونها عزباء ، تلفظ به هؤلاء الناس العاملون

٥٥ - (V) . هو اول حرف من اسم (بايخو) ، ونحب هنا ان نلفت انظار القارئ العربي الى ان هذا الحرف ينطق باللغة الاسبانية كما ينطق حرف (B) .

بالسكة الحديدية او بالاخشاب الذين اعرفهم جيدا فهم اناس اجسلاف
عاصفيون ولكن صريحون يسمون الخبز خبزا والنبيد نبيدا .

شعرت (غابريلا) انها مهانة وماتت وهي تشعر انها مهانة .

بعد سنوات ، في الطبعة الاولى لكتابها العظيم ، وضعت ملاحظة بلا
فائدة ضد ما كان قد قيل وهمس به حول شخصها في تلك الجبال بآخر
العالم .

في مناسبة انتصارها التاريخي بجائزة «نوبل» التي توجت بها كان
عليها ان تمر اثناء سفرها بمحطة «تيموكو» . كانت المدارس تنتظرها كل
يوم ، والطالبات كنّ يصلن الى المحطة مضمخات بالمطر مختلجات بزهور
«كوبيهويه» . ان «ال كوبيهويه» (el copihue) هي الزهرة الكوكبية ،
التويج الجميل البري من «لا اراوكانيا» . لقد كان انتظارهن عديم الجدوى
اذ ان (غابريلا ميسترال) رتبت الامر كي تمر من هناك ليلا فقد بحثت عن
قطار ليلي معقد كي لا تستلم زهور «كوبيهويه» من «تيموكو» .

حسنا هل هذا يسيء الى (غابريلا) ؟ هذا يعني ببساطة ان الجراح
كانت تدوم في مشاعر نفسها وانها لم ترقا في سهولة . ان هذا يكشف ان
في روح هذه المؤلفة ذات الشعر العظيم جدا ثمة صراعا كما في روح اي
انسان ، صراعا بين الحب والحقد بين المحبة والكرهية .

لقد كانت دوما تبتسم لي ابتسامة مفتوحة ابتسامة رفيقة طيبة ،
ابتسامة طحينية في وجهها ذي الخبز الاسمر .

لكن ، ما هي احسن المضامين في فرن اعمالها ؟ ما هو السر المقوم
لشعرها الاليم دوما ؟

انا لن اروح استقصي عن ذلك ، وبالتأكيد لن اتوصل الى معرفته ،
وان عرفته لن ابوح به .

في شهر ايلول (٥٦) هذا يزهر اللفت البري فالحقل سجادة صفراء
مرتعشة . هنا في الساحل تعصف الريح الجنوبية في غضب رائع منسد
اربعة ايام . الليل مليء بحركتها الصاخبة الرنانة . المحيط هو في الوقت
نفسه زجاج اخضر مفتوح وبياض هائل .

فتصلين انت يا (غابرييلا) ايتها الابنة الحبيبة لزهور اللفت البري هذه،
لهذه الحجارة ، لهذه الريح الهائلة فنستقبلك جميعنا في فرح . لن ينسى
احد اغانيك للاشواك ، للثلوج في تشيلي . انك لتشيلية . تنتمين الى
الشعب . لن ينسى احد ابياتك عن اقدام اطفالنا الحفاة . لم ينس احد
«كلمتك اللعينة» (٥٧) . انك لنصيرة للسلم مؤثرة . لهذه الاسباب ولغيرها
احبيناك ونحبك .

تصلين انت يا (غابرييلا) الى زهور اللفت البري والى اشواك تشيلي .
انك لتستحقين ان ارحب بك الترحاب الحقيقي ، المزهري المخشوشن بما
يناسب عظمتك ويتلاءم وصادقتنا التي لا تنهار . ان ابواب ايلول الحجرية
الربيعية تنفتح لك . لا شيء احب الى قلبي من رؤية ابتسامتك العريضة
وهي تدخل الى الارض المقدسة التي يجعلها شعب تشيلي تزهر وتزدهر
وتغني .

انه ليخصني ان اشاركك الجوهر ، والحقيقة التي بفضل صوتنا
وافعالنا ستصبح محترمة . فليطمئن قلبك الرائع وليكافح وليغن وليبدع
في وحدانية الوطن المحيطية «الانديسية» .
اني لاقبل جبينك النبيل واجل شعرك الرحب .

(بيثينته هويدوبرو)

لقد لاحقني الشاعر الكبير (بيثينته هويدوبرو) الذي تبنى دائماً

٥٦ - ايلول : هو بداية فصل الربيع في امريكا اللاتينية .

٥٧ - كلمتك اللعينة : هي قصيدة لهذه الشاعرة العظيمة بعنوان «كلمة لعينة» .

الدسيسة الخبيثة تجاه الاشياء كلها بدسائسه العديدة ، فكان يرسل رسائل بلا توقيع يتهمني فيها بالانتحال والاقتباس . ان (هويدوبرو) لمثل صف طويل من المتمادين في غيٲهم ، المصرّين على ضلالهم . ان هذا الشكل من الدفاع عن النفس في حياة تلك الفترة المضطربة التي لا تمنح الكاتب اي دور ، كان صفة عامة صبغت الاعوام السابقة على الحرب العالمية الاولى ان الوضعية المركزة على الذات انعكست في امريكا كصدي لتبجّحسات (دانونثيو) (٥٨) في اوروبا . هذا الكاتب الايطالي ، المسرف الكبير ، المنتهك لسنن البورجوازية الصغيرة ترك في امريكا صوى بركانية من «المهدية» (٥٩) . وكان اكثر اتباعه فخفخة وثورية هو (بارغاس بيلا) (٦٠) .

انه لمن الصعوبة جدا ان اذم (هويدوبرو) فقد شرفني طيلة حياته كلها بحرب مدادية تستحق المشاهدة . لقد تقلد لقب «إله الشعر» ولم يجد عدلا اني ، وأنا شاب اصغر منه بكثير ، أشكل جزءا من «وادي عبقر» (٦١) الذي هو إلهه . ابدا ما استطعت ان اعرف على وجه الدقة ماذا كان يدور في «وادي عبقر» هذا . كان أناس (هويدوبرو) يبتدعون ، «يتسريلون» (٦٢) ، يلتهمون آخر ورقة طبعت في باريس . انا كنت اقل شأنًا منهم ، قرويا لا يمكن صياغته من جديد ، ارضيا ، شبه متوحش .

لم يكن (هويدوبرو) ليقنع بأنه شاعر موهوب جدا كما كان فعلا بل كان يريد كذلك ان يكون «سوبرمان» ، كان ثمة شيء جميل طفولي في شيطنته . لو انه ظل حيا حتى هذه الايام لكان تطوع في اول رحلة الى القمر . اتخيله وهو يبرهن للعلماء ان مجتمه هي الوحيدة فوق هذه الارض المؤهلة طبيعيا بسبب ما لها من شكل ومن مرونة للتلاؤم مع الصواريخ الكونية والمراكب الفضائية .

-
- ٥٨ - دانونثيو Gabriel : كاتب وسياسي ايطالي (١٨٦٣ - ١٩٣٨) .
٥٩ - المهدية : في الاصل (Mesianismo) الاعتقاد بمجيء مخلص من السماء .
٦٠ - بارغاس بيلا : كاتب وديبلوماسي من كولومبيا (١٨٦٠ - ١٩٣٣) .
٦١ - وادي عبقر : في الاصل (Olimpo) ، وهو جبل الشعر وموضع الجنة في ديانة اليونان القديمة .
٦٢ - يتسريلون : يتمذهبون بالسريالية .

بعض النوادر قد تحدده . مثلا ، حين عاد الى تشيلي بعد الحرب العالمية الاخيرة وقد غدا عجوزا يقترب من نهايته اخذ يرى الناس كلهم هاتفا صدئا ، وكان يقول :

— لقد اختطفته شخصا من (هتلر) فقد كان هذا الهاتف هو المفضل لدى «الفوهرر» .

ذات مرة أروه عملا نحتيا اكاديميا سيئا فقال :

— يا للفظاعة ! انه لاسوا من اعمال (ميفيل انجيل) .

يستحق الذكر ايضا الكلام عن مغامرة رائعة كان هو بطلها بباريس في عام ١٩١٩ . فقد نشر (هويدوبرو) كتيباً معنوناً بـ (Finis Britanniu) فيه كان يتوقع انهيار الامبراطورية البريطانية العاجل . بما انه لا احد علم بتنبؤه هذا فقد اختار الشاعر ان يختفي عن الانظار . فاهتمت الصحافة بأمر اختفائه : «ديبلوماسي تشيلي بشكل غامض مختطف» بعد بضعة ايام ظهر مسطحا عند باب داره .

(Boy - Scouts) انجليز اختطفوني — صرح الى الشرطة — وربطوني الى عامود في مكان تحت الارض وأجبروني على ان اهتف الف مرة : «تحيا الامبراطورية البريطانية» .

ثم عاد الى الاعماء . لكن رجال الشرطة فحصوا سفيطا كان يحمله تحت ابطه فوجدوا فيه بيجاما جديدة كان (هويدوبرو) نفسه قد اشتراها قبل ثلاثة ايام من محل جيد في باريس . فكشف كل شيء . لكن (هويدوبرو) خسر صديقا وهو الرسام (جان غريس Juan Gris) (١٢) الذي كان قد اعتقد بدون ريب في امر الاختطاف وعانى عذابات اليممة بسبب المداهمة الامبريالية واعتدائها على الشاعر التشيلي . فلم يغفر له ابدا تلك الاكذوبة .

٦٣ — خوان غريس : رسام اسباني (١٨٨٧ - ١٩٢٧) .

ان (هويدوبرو) لشاعر من زجاج . يلمع اثره الشعري من كل الجهات، ولا يره بهجة باهرة ان في شعره كله بريقا اوروبيا يبلوره هو ويصوغه في صنعة لطيفة ذكية .

ان اكثر ما يفاجؤني في اثره عدة مرات هو شفافيته . ان هذا الشاعر الاديب الذي تابع وتابع النماذج التي كانت سائدة في فترة منعقدة منشابكة ، والذي صمم على الا يصفي لجلال الطبيعة ووقارها ، يجعل الغناء المائي الدافق ابدا ينساب من خلال شعره وحفيف الهواء والاوراق والانسانية العظيمة تسيطر تماما على قصائده الاخيرة وما قبل الاخيرة .

ان في (هويدوبرو) ، انطلاقا من زخارف شعره المتفرنس الرائعة حتى قوى ابيانه الاساسية المتينة ، صراعا بين الصنعة والنار ، بين التملص والمعاناة . هذا الصراع يشكل مشهدا ، يجري في نور مطلق وفي وعي مطلق ، تقريبا ، بوضوح باهر .

ليس من شك في اننا عشنا بعيدين عن اثره الشعري متوهمين اننا في غنى عنه وفي اكتفاء . اننا لنتفق على ان الد اعداء (بيثينته هويدوبرو) كان هو (بيثينته هويدوبرو) نفسه . لقد اسدل الموت ستارا على حياته الفانية ولكنه رفع ستارا آخر فكشف الى الابد عن نوعيته الباهرة . لقد اقترحت ان يقام له نصب تذكاري قرب نصب (روبين داريو) . لكن حكوماتنا مقتررة في اقامة تماثيل للمبدعين الخلاقين بقدر ما هي مبذرة في اقامة تماثيل بلا معنى ولا مغزى .

اننا لا نستطيع ان نفكر في (هويدوبرو) كبطل سياسي على الرغم من غاراته السريعة على الساحة الثورية . لقد كانت له تجاه الافكار والمبادئ متناقضات طفل مدلل . غير ان هذا عفى عليه الزمن وصار امرا قديما حمله العجاج وسنكون نحن متناقضين ان نصبنا أنفسنا لنغرز فيه خلال (٦٤) في مخاطرة ائتلاف اجنحته والفت من عضده . انه لاجري بنا ان نقول ان قصائده في ثورة تشرين وفي موت (لينين) لهي مساهمة اساسية جوهرية

٦٤ - خلال : هكذا في الاصل Alfleres وهي الابر والدبابيس . عن العربية

قدمها (هويدوبرو) الى اليقظة الانسانية .

لقد مات (هويدوبرو) في عام ١٩٤٨ ب «قرطاجنة» (٦٥) قرب «ايسلا نيغرا» ولكنه قبل ان يموت كتب قصائد من اكثر القصائد التي قراتها في حياتي جدية وتأثيرا في النفس . قبيل موته زارني في داري ب «ايسلا نيغرا» في رفقة (غونثالو لوسادا) وهو ناشر وصديق حميم لي . (هويدوبرو) وانا تكلمنا في مودة شاعرين ، تشيليين ، صديقين .

اعداء ادباء

اني لافترض ان النزاعات بين الكتاب في قدر كبير او صغير قد وجدت وستظل توجد في مناطق العالم كلها .

يكثّر بين ادباء القارة الامريكية المنتحرون العظام . في روسيا الثورية احدث الحاسدون ب (ماياكوفيسكي) الى ان اطلق على نفسه النار .

ان الاحقاد الصغيرة تستشري وتستشيط في امريكا اللاتينية . يصل الحسد احيانا الى ان يكون حرفة . يقال بأن شعور الحسد هذا ورثناه عن اسبانيا الاستعمارية المنقرضة . الحقيقة هي اننا نجد في (كيبيدو) وفي (لوبيه) (٦٦) وفي (غونغورا) بشكل مألوف، الجراح التي سببها بعض لبعض . ان القرن الذهبي على الرغم من بريقه الفكري الادبي الرائع كان فترة تعيسة بالجوع الذي يطوف حول القصور يغني وينشد .

في السنوات الاخيرة اخذت الرواية مساحة جديدة في اقطارنا . ان اسماء (غارثياماركت) (Garcia Marquez) (٦٧) ، (جان رولف) (Juan Rulf)

٦٥ - قرطاجنة : هي بلدة في تشيلي وليست قرطاجنة الاسبانية ولا قرطاج التونسية.

٦٦ - لوبيه (de Vega) : كاتب اسباني معروف (١٥٦٥ - ١٦٣٦) .

٦٧ - غارثيا ماركت (Gabriel) : روائي من كولومبيا ولد عام ١٩٢٨ .

(بارغاس يوسا (Vergas Llosa) ، (ساباتو (Sabato) (٦٩)،
(كورتازار (Cortazar) ، (كارلوس فوينتيس) (٧٠) ، التشيلي (دونوسو
(Donaso) ، اخذت تسمع وتقرأ في كل جهة . لقد عمّدوا انفسهم باسم
(Boom) . وانه لاليف ان تسمع من يقول بأنهم يؤلفون مجموعة مطنطنة
متبجحة .

لقد عرفتهم كلها تقريبا فوجدتهم بشكل ملحوظ أصحاب كرماء . اني
لأنفهم - كل يوم في وضوح اكثر - ان بعضهم اضطر الى مغادرة وطنه
بحثا عن طمأنينة اكبر تساعد في عمله ، بعيدا عن سياسة الضفينة والاحنة
والحسد المتكاثر المستشري . ان اسباب هجرتهم الاختيارية لا تدحض ولا
تنقض : لقد راحت كتبهم تصير جوهريّة ، اكثر فاكثرا ، في حقيقة بلداننا
واحلامها .

كنت اتردد في ان اتكلم عن تجاربي الشخصية مع هذا الحسد
المتطرف . لم اكن ارجب في ان ابدو على اني اناني لا هم لي الا الحديث عن
نفسي دوما والانشغال بذاتي دائما . لكن لحسن حظي كان من نصيبي
حساد ملحون مصرون طريفون جدا الى درجة اني وجدت مفيدا الشروع
بالقول .

انه لمن المحتمل ان هذه الاشباح المطاردة المزعجة اغضبتني ذات مرة،
بيد ان الحقيقة هي انهم كانوا يؤدون بشكل غير ارادي واجبا دعائيا غريبا
كما لو انهم التّفوا مؤسسة تعمل على ان يصبح اسمي يرن في كل مكان .

لقد ترك موت احد هؤلاء الخصوم الاشباح ، موتا مأساويا ، نوعا من
الفراغ في حياتي . كان يشن الحرب خلال سنين عديدة على كل ما

٦٨ - خوان رولف : روائي مكسيكي ولد عام ١٩١٨ .

٦٩ - ساباتو (Ernasto) : روائي ارجنتيني ولد عام ١٩١١ .

٧٠ - كارلوس فوينتيس : روائي مكسيكي ولد عام ١٩٢٨ .

كنت أفعله وأقوله ، الى حد اني أفقدها بعد ان فقدتها .

ان اربعين سنة من المطاردة الادبية لهو امر رائع حقا . اني لاشعر بشيء من الابتهاج حين ابعث هذه المعركة الوحيدة الطرف التي كانت معركة انسان ضد ظله ذاته ، من رقادها . هي وحيدة الطرف لانني لم أشارك فيها البتة .

لقد نشر خمسا وعشرين مجلة مدير غير قابل للتغيير (كان هو نفسه مديرا لهذه المجلات دوما) واختصت هذه المجلات بمحاولة تهديمي ادبيا فكانت تنسب لي كل نوع من انواع الجرائم ، الخيانات ، الذبول الشعري ، الشح الابداعي ، الشذوذ الجنسي ، الانحراف الخطير . كذلك كانت تظهر منشورات ضدي توزع في مثابة وإلحاح ، وريبورتاجات لا تخلو من الفكاهة وأخيرا ظهر مجلد ضخيم معنون «أنا ونيرودا» (٧١) وهو كتاب سمين بدين ينطوي على شتائم مقدعة .

كان خصمي هذا شاعرا تشيليا اكبر مني عمرا ، متعصبا ، متطرفا ، استبداديا ، اكثر ايماء في حركاته منه فعلا وأصيلا . ان هذا النوع من الكتّاب الموهوبين أنانية شرسة يتكاثر عددهم في بلدان امريكا وهم يتبنون اشكالا كثيرة من الفظاظه والاكتفاء الذاتي والتركيز على الذات ، لكن نسبهم «الدانونزيا» هو ، بشكل مأساوي ، حقيقي .

كنا نحن الشعراء الجياع المرتدين أسملا رثة نطوف عبر مجالاتنا الفقيرة في الاسحار غير الرحيمة بين تقيؤ السكرى . كان الادب في هذه الاجواء البائسة ينتج بشكل غريب شاذ نماذج معربة ، أشباحا من الصعلوكية الباقية على قيد الحياة . ان العدمية ، استهتارا «نيتشويا» مزيفا ، كانت تدفع بالكثير من جماعتنا الى التخفي تحت اقنعة اجرامية . ليس بالقليل من عوج سبيل حياته نحو الجريمة او التدمير الذاتي .

٧١ - أنا ونيرودا : العنوان هو تقليد وللمبح لكتاب «أنا وحماري» للاديب الشاعر الاسباني (خوان رامون خيمينيث) .

ان خصمي الخرافي الاسطوري نشأ من هذا المشهد . اول الامر حاول ان يفريني ويفويني ، ان يدخلني في لعبته وقواعدها . فلم يكن هذا لتقبله ريفيتي البورجوازية الصغيرة . لم اكن أجرو وما كان يعجبني ان احيا في الاحتيال والغش . بطلنا هذا على العكس كان خبيرا في استخراج العصير من الفرص السانحة (٧٢) . كان يعيش في عالم مهزلة مستمرة حيث يحتال على نفسه ويفش ذاته مخترعا له شخصية مهددة كانت تفيده كحرفسة وكحماية .

لقد حان الوقت كي نسمي هذه الشخصية المسرحية ، انه (بيريكو دي بالوديس Perico de Palothés) . كان رجلا قويا أشعر بحاول ان يؤثر ببلاغته وبمظهره . في احدى المناسبات ، حين لم يكن لي من العمر سوى ثماني عشرة سنة او تسع عشرة ، اقترح عليّ ان تصدر مجلة ادبية . كانت المجلة ستحتوي فقط على قسمين ، في قسم سيؤكد هو نثرا وشعرا وبحثا ولحنا على اني شاعر عبقرى قدير وفي القسم الآخر اثبت انا على مدى الجهات الاربع انه هو ذو الذكاء المطلق والموهبة غير المحدودة وبهذا كل شيء يسلك وينتظم .

مع اني كنت فتيا صغيرا فقد بدا لي ذلك المشروع مفرطا مبالغا . غير اني بذلت جهدا كبيرا ضد نفسي كي أنصرف عنه نظرا لاغرائه . هو كان ناشرا للمجلات عجيبا غريبا . لقد كانت مدهشة حقا قدرته على نبش ارسدة كي يحافظ على اصدار منشوراته الهجائية الخالدة .

في المحافظات المنعزلة ذات الامطار والعواصف كان يضع خطة عمل دقيقة . كان يصنع قائمة طويلة بأسماء الاطباء والمحامين واطباء الاسنان والمهندسين الزراعيين والاساتذة والمهندسين والمدراء والموظفين الكبار الخ . كان بطلنا هذا يأتي اليهم وهو مكلل بهالة كبيرة من منشوراته الضخمة ومجلاته الكثيرة واعماله الكاملة وكتبه الملحمية والغنائية ، على انه رسول الثقافة الكونية . كل ذلك كان يقدمه بشكل جاد صارم الى هؤلاء الرجال المغمورين الذين يزورهم في بيوتهم ومن بعد يتفضل فبتنازل بقبول بضعة

٧٢ - استخراج العصير من الفرص السانحة : تعبير اسباني وهو واضح المعنى .

«اسكودو» (٧٢) منهم . امام كلامه الفصيح البليغ كانت الضحية تتضاءل الى حجم ذبابة . بشكل عام كان (دي بالوديس) يخرج من بيت ضحيته وفي جيبه مبلغ من «ال سكودو» تاركاً الذبابة منصرفة للتحويم فوق عظمة الثقافة العالمية .

احيانا اخرى كان (بيرثيو دي بالوديس) يقدم نفسه على انه خبير في الدعاية الزراعية ويقترح على الفلاحين الجنوبيين البريئين ان يقوموا بنشر أبحاث فاخرة جدا عن املاكهم مع صورهم وصور أبقارهم . لقد كان منظرا يستحق المشاهدة حين يصل وهو يرتدي سروال ممتطي الخيول وينتعل جزمة مثل جزم رجال الاطفاء ويلتف بسترّة رائعة كان اتي بها من مصدر غريب . بين اغراءات وتهديدات زائفة بكتابات مضادة كان زلمتنا يخرج ببعض الشيكات من اراضي هؤلاء الملاك الذين هم بخلاء ولكنهم واقعيون اذ انهم كانوا يناولونه بعض الاوراق النقدية كي يتخلصوا منه .

ان الميزة السامية العليا في (بيرثو دي بالوديس) : وهو فيلسوف «نيتشوي» وحاك «فونوغرافي» لا شفاء له ، لهي عربدته الفكرية ومشاغبته الفيزيولوجية . لقد كان يمارس «المنفخة» في الحياة الادبية بتشيلي . كان له خلال سنين كثيرة شرذمة من الفقراء المساكين يطبلون له ويزمرون . لكن الحياة معتادة على ان «تنفس» بلا رحمة هؤلاء المنتفضين العرضيين من المخلوقات البشرية .

ان النهاية المأساوية لخصمي النزق هذا - انتحر وهو عجوز - جعلتني اتردد كثيرا قبل ان اكتب عنه هذه الذكريات . لقد فعلت هذا اخيرا ، خاضعا لامر املته عليّ الفترة واجبرني عليه المكان . ان سلسلة كبيرة من الكراهية تكتسح الاقطار الناطقة باللغة الاسبانية ، تنخر آثار انكاتب في جسد لجوج . ان الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذه الشراسة المهدّمة هي عرض حوادث هذا الحسد الخطير على الناس والتشهير به .

لقد كانت المطاردة الادبية - السياسية المتسلسلة التي اطلقها ضدي

و ضد اعمالي الشعرية رجل من «اوروغواي» مشبوه ذو لقب جليقي ، شيء هكذا مثل (ريبيرو Ribero) ، معتوهة جدا وملحاحة جدا على حد سواء . ان هذا الزلة ينشر منذ عدة سنين بالاسبانية وبالفرنسية كتبها هجائية ينهشني فيها ويفطعني اربا اربا . ان ما يدهش هو ان مآثره ضد «النيرودية» لا تطفئ على ورق الطباعة التي ينفق عليها هو بنفسه ، فحسب بل كذلك يقوم بتمويل سفريات باهظة تهدف الى تدميري بلا رحمة .

لقد رحل هذا البطل متحملا مشقة السفر حتى وصل الى مقر جامعة «اوكسفورد» اذ انه علم انهم هناك سيمنحوني لقب دكتور فخري . وصل هذا الشعور الشويعر المتشاعر الى ذاك المكان وهو مزود بمجموعة من سهام الاتهامات الخيالية ومستعد لتقويض ادبها . لقد قص عليّ السادة اساتذة الجامعة في فكاهاة ، الاتهامات التي وجهها ضدي حين كنت لما ازل ارتدي الجبة القرمزية اللون الرسمية بعد ان استلمت الامتياز الفخري ، انناء ما كنا نحتسي النبيذ الطقوسي .

كان اكثر محالا واشد تطاولا سفر هذا الاوروغواي الى «استوكهولم» عام ١٩٦٣ . فقد كان ينساع بآني سأحصل في تلك المناسبة على جائزة «نوبل» . حسنا اذن هذا الزلة أجرى مؤتمرات صحفية ، تكلم بالاذاعة كي يؤكد على اني كنت واحدا ممن اغتالوا (تروتسكي) . وكان يحاول بهذه المناورة ان يحرمني من جائزة نوبل .

لقد ثبت بعد مضي الزمن ان الرجل كان سيء الحظ دوما فقد فقد سواء في «اوكسفورد» وسواء في «استوكهولم» بشكل حزين ، ماله وجهه .

نقد ونقد ذاتي

لا يمكن انكار اني حظيت بنقاد جيدين . لا اقصد الولايم والمآدب الادبية التي اقيمت لي ولا أعني الشتائم التي اثرتها بشكل غير ارادي .

أعني أناسا آخرين . من بين الكتب التي ألّفت من شعري ، بعد ان

استثنى ما كتبه شبان هواة متحمسون ، اخص بالذكر واضح في المكان الاول الافضل ما ألفه الكاتب السوفييتي (ليف اوسبوفات (Lev Ospovat) فلقد توصل هذا الشاب الى اتقان اللغة الاسبانية فرأى شعري بشيء اكثر من الاقتصار على فحص للمعنى والمبنى : فقد سلط عليه منظورا مطابقا من نور عالمه الشمالي .

لقد نشر (امير رودريغيث مونيفال (Emir Rodriguez Monegal (٧٤) وهو ناقد من الطراز الاول ، كتابا حول اعمال الشعرية وعنوانه «الرحالة المسنقر» . يلاحظ من النظرة البسيطة ان هذا الدكتور ليس بغبي فقد انتبه في سرعة الى اني احب ان اسافر دون ان اتحرك من بيتي ، دون ان اخرج من بلدي ، دون ان ابتعد عن نفسي . (في نسخة عندي من ذلك الكتاب الرائع عن الادب البوليسي المعنون بـ «الحجر القمري» ثمة صورة تعجبني جدا تمثل فارسا انجليزيا قديما متشحا بحلته او بـ (Macfrlan) او بريته الرسمي او ، مهما كان ، جالسا قرب المدفأة ، وكتاب في يده ، وغليون في اليد الاخرى ، وكلبان نائمان عند قدميه . هكذا يطيب لي ان امكث دوما ، امام النار ، ازاء البحر ، بين كلبين ، قارئا الكتب التي كلفني جمعها جهدا جهيدا ، مدخنا غلاييني) .

ان كتاب (امادو الونسو) (٧٥) — «شعر (بابلو نيرودا) واسلوبه» — هو صالح للكثيرين . مهم جدا تنقيبه الشغوف الكلف في الظلال بحثا عن المستويات بين الكلمات والواقع المنزلق اللزج . اصف الى هذا ، ان دراسة (الونسو) تكشف عن اول اهتمام جدي في لغتنا بأثر شاعر معاصر . وهذا يشرفني كثيرا جدا .

لقد استعان بي لدراسة شعري وتوضيحه وتحليله نقاد كثيرون من بينهم (امادو الونسو) نفسه الذي كان يحدق بي بأسئلته الكثيرة ويمضي بي الى جدار الوضوح حيث كنت اذالك لا أستطيع مجاراته .

٧٤ — امير رودريغيث مونيفال : كاتب معاصر من الاورغواي .

٧٥ — امادو الونسو : هو باحث لغوي اسباني ، هاجر الى الأرجنتين (١٨٩٦ — ١٩٥٢) .

يظن بعضهم اني شاعر سريالي وبعضهم الآخر يعتقد اني شاعر واقعي
وهناك من لا يؤمن في اني شاعر . وانا ارى ان لديهم جميعا قليلا من الحق
وقليلا من الباطل .

ان ديوان «مقام في الارض» نظم او على الاقل شرع بنظمه قبل ازدهار
السريالية ، كما ان ديوان « محاولة الانسان اللامحدود »
كتب كذلك قبل السريالية ، بيد انه يجب الا يوثق في امر التاريخ هذا . ان
هواء العالم ينقل ذرات الشعر سواء اكان هذا الشعر خفيفا مثل الطلع او
ثقيلًا مثل الرصاص ، فتسقط هذه البذور في السلام او فوق الرؤوس
وتمنح الاشياء جو ربيع او جو معركة ، وتنتج ازهارا او قدائف على
حد سواء .

اما بالنسبة للواقعية فيجب عليّ ان اقول ، اقول : «يجب» لانه لا
يناسبني ان اقول انا ما سأقوله ، اني امقت الواقعية حين يتعلق الامر
بالشعر . وأكثر من هذا ليس هناك ما يفرض على الشعر ان يكون فوق
الواقعية او تحت الواقعية لكن يمكن له ان يكون ضد الواقعية . وهذا
الامر الاخير ، بالمعقول كله وباللامعقول جميعه ، اي بالشعر .

يروق لي الكتاب ، مادة العمل الشعري الكثيفة ، غابة الادب ، يروق
لي كل شيء ، حتى كعاب الكتاب تروق لي ، لكن لا تستهويني عناوين
المدارس . اريد كتبًا بلا مدارس وبدون وضع علامات مثل الحياة .

يعجبني «البطل الايجابي» في (والت ويتمان) (٧٦) وفي (ماياكوفيسكي)،
اي فيمن وجدوه بدون وصفه طبية فتمثلوه ليس بلا معاناة ، وجسدوه
في الفة حياتنا الجسدية وجعلوه يشاركنا الخبز والحلم .

ان على المجتمع الاشتراكي ان يقضي على ميثولوجيا فترة مستعجلة
كانت فيها اللافتات تساوي اكثر من السلع وفيها اهملت المضامين . لكن

٧٦ - والت ويتمان : شاعر مشهور من الولايات المتحدة الامريكية (١٨١٩ - ١٨٩٢) .

الحاجة الماسة ، هي ان يكتب الكتاب كتباً جيدة . كما يعجبني «البطل الايجابي» الذي عثر عليه في متاريس الحروب الاهلية المضطربة كل من الامريكي الشمالي (وايتمان) والسوفييتي (ماياكوفيسكي) فان قلبي يسع كذلك البطل المتشح بثياب الحدود عند (لوتريامونت) والفارس المتحسر لدى (لافورجيه) والجندي السلبي في (شارل بودلير) (٧٧) . حذار من فصل نصفي تفاحة الخلق بعضاً عن بعض لانه ان فعلنا ذلك ، ربما نقسم القلب فلقطين وندع الوجود . حذار ، يجب ان نطلب من الشاعر ان يتخذ له مكاناً في الشارع وفي المعركة كما في النور وفي الظل .

ربما ان واجبات الشاعر كانت هي نفسها على مدى التاريخ كله . ان شرف الشعر كان الخروج الى الشارع كان المشاركة في هذا العراك وفي ذلك . لم يرتعد الشاعر حين قالوا له انك لعاص فالشعر هو العصيان . لم يشعر الشاعر بالاهانة حين دعوته بالتمرد فالحياة تتخطى البنى والصيغ واذ بسنن جديدة للروح . ان البذرة تقفز من كل جهة ، كل الافكار هي غريبة ، نحن ننتظر في كل يوم تغييرات هائلة ، نحيا في حماسة تحوّل النظام الانساني : ان الربيع لهو نائر .

اعطيت انسا كل ما ملكت ، لقد قدفت بشعري الى الرمل ، ونزفت مع شعري دوماً ، معانيا الاحتضارات وممجداً المآثر التي كان من حظي اني شاهدتها وعشتها . بسبب او آخر لم يفهمني الآخرون وليس هذا بسوء من النواحي جميعها .

لقد قال ناقد اكوادوري انه ليس في كتابي «الاعناب والريح» اكثر من ست صفحات من الشعر الحقيقي . لقد قرأ هذا الناقد الاكوادوري بسلاً محبة ديواني هذا لانه كتاب سياسي كما ان نقاداً آخرين سياسيين اكثر من اللازم مقتوا ديواني «مقام في الارض» لانهم اعتبروه كتاباً باطنياً قائماً داجياً . ان (جان مارينيو) (٧٨) الفد الشهير جداً ادانه في زمن آخر باسم

٧٧ - شارل بودلير : الشاعر والناقد الفرنسي المعروف (١٨٢١ - ١٨٦٧) .

٧٨ - خوان مارينيو : شاعر وكاتب كوبي ولد عام ١٨٩٨ .

المبادئ . اني اري ان كلا من الطرفين يرتكب خطأ فادحا ناشئا عن نفس المنطلقات .

انا كذلك تكلمت ذات مرة ضد «مقام الارض» لكنني فعلت ذلك وانا افكر ، ليس في الشعر ، بل في الجو المتسائم الذي يخلقه كتابي هذا ويتنفس فيه . لا أستطيع ان انسى مطلقا انه منذ سنوات قليلة انتحر شاب من «سانتياغو» على جذع شجرة وترك كتابي مفتوحا على القصيدة المعنونة «يعني ظلالا» .

أعتقد ان لكتاب «مقام في الارض» وهو كتاب اساسي وظليل معتم في اثري الشعري ، ولكتاب «الاعناب والريح» وهو كتاب ذو رحاب فسيحة ونور كثير ، حقا في ان يوجد في ناحية ما من اعمال الشعرية وانا في هذا القول لا اتناقض .

الحقيقة هي ان في نفسي بعضا من الميل الى كتاب «الاعناب والريح» ربما لانه اكثر كتبي عدم تفهم من لدن الآخرين ، او لانه عبر صفحاته شرعت انا بالمسير في العالم . ان له لغبار دروب وماء انهار ، فيه احياء ومخلوقات ، ان فيه مجالات ومحيطات اماكن اخرى ما كنت اعرفها فراحت تنكشف لي لكثرة ما جبت وجلت . انه لواحد من احب الكتب الى نفسي ، اكرر واعيد .

من بين كتبي كلها ديوان «شاذ» ليس هو اكثرها غناء بل هو اكثرها واحسنها وثبا . ان ابياته الوثابة تقفز متجاوزة الوجاهة والوقار والاحترام ، والحماية المشتركة ، والسنن والواجبات ، كي ترعى الاستهتار المكرم . بسبب وقاحته هو اكثر كتبي الفة في نفسي . بسبب بلوغه يتوصل الى نباهة واهمية داخل شعري . على طريقتي الخاصة في الدوق والتدوق هو كتاب خطير عسير له طعم ملحي كطعم الحقيقة .

في «أناشيد بدائية» افترضت لنفسي ركيزة اصيلة ، مولدة . احببت اعادة وصف اشياء كثيرة غنيت وقيلت واعيدت مرارا وتكرارا . كانت نقطة انطلاقتي المتعمدة يجب ان تكون نقطة انطلاق الطفل الذي يبدأ ، وهو يمص القلم ، انشاء وظيفة مدرسية اجبارية عن الشمس ، او عن السبورة ، او عن الساعة ، او عن الاسرة الانسانية . ولا موضوع كان يمكن ان يبقى خارج

دأثرتي ، كان عليّ أن المس كل شيء وأنا سائر أو وأنا طائر ، مخضعا تعبيرى
للشفافية القصوى والبتولة الكبرى .

لاني شبّهت بعض الحجارة ببضعة بطّات صفيرات ، استهجن ذلك
ناقد اورغوايى فقد كان هو قد أصدر مرسوما ينص على أن البطات وكذلك
بقية الحيوانات الصغيرة ليست بمادة شعرية . حتى هذا الحد من الهزل
وعدم الجدية وصل الهراء الادبى . يريدون اجبار المبدعين على عدم معالجة
شيء الا المواضيع السامية الرفيعة . لكنهم يخطئون . اننا نحن معشر
الشعراء سنصنع شعرا حتى من اكثر الاشياء احتقارا من لدن معلمى
الدوق الجيد .

البورجوازية تطلب شعرا يتعد اكثر فأكثر عن الواقع . ان الشاعر
الذي يعرف ان يسمى الخبز خبزا والنبيد نبيدا لهو خطير بالنسبة
للرأسمالية المحتضرة المحشرجة . ان ما يناسب الرأسمالية هو ان يعتقد
الشاعر في انه «إله صغير» ، كما لو ان (بيثينته هويدوبرو) كان قد قال
ذلك . ان هذا الاعتقاد او هذا السلوك لا يزعج الطبقات الحاكمة . فهكذا
يمكث الشاعر في برجه العاجي متأثرا بعزلته الربانية فلا يحتاج الى ان
يرتشي او ان يسحق . هو نفسه قد رشا نفسه حين حكم على نفسه بالنفي
الى السماء فيما الارض تمضي وترتجّ في طريقها وفي بريقها .

ان بين شعوبنا الامريكية لملايين من الأميين ، يحافظ على اللاثقافة
كظرف موروث وكإمتياز من الاقطاعية . نستطيع القول ، امام عطالة سبعين
مليون من الأميين في بلادنا ، ان قراءنا لما يولدوا بعد . يجب علينا ان نعجل
بهذا المخاض حتى يولد من يقرأ لنا ويقرأ للشعراء جميعا . لا بد من شق
رحم امريكا كي نخرج منه النور المجيد .

ان نقاد الكتب بشكل مألوف يعملون على ارضاء أفكار الرؤساء
الاقطاعيين . مثلا ، في عام ١٩٦١ ، ظهرت لي ثلاثة دواوين : «اغنية
مفخرة» ، و«أحجار تشيلي» ، و«أناشيد شعائرية» ، فلم يذكر نقاد بلدى ولا
حتى عناوينها في مجرى العام كله .

حين نشرت لأول مرة قصيدتي «مرتفعات ماكتشو بيكتشو» كذلك لم يجرؤ احد من النقاد على ذكر هذه القصيدة في تشيلي . ذهب ناشر هذه القصيدة الى مكاتب اضعف صحيفة في الصحف التشيلية وهي صحيفة «ال ماركوريو» (٧٩) ، تصدر منذ حوالي قرن ونصف من الزمن وكان معه وصل مدفوع للاعلان عن ظهور هذا الكتاب فقبلوا ان ينشروا هذا الاعلان شريطة ان يحذف اسمي .

— لكن ، اذا كان (نيرودا) هو المؤلف — احتج الناشر (نيرودا) .

— لا يهم .

فكان على كتاب «مرتفعات ماكتشو بيكتشو» ان يظهر في الاعلان كما لو كان مؤلفه غفلا مجهولا . فماذا تفيد هذه الصحيفة مائة وخمسون سنة من العمر ؟ فهي في هذا الزمن كله لم تتعلم احترام الحقيقة ولا الوقائع ولا الشعر .

احيانا لا تخضع الالهواء السلبية ضدي ببساطة الى انعكاس صراع الطبقات الملتهب بل الى اسباب اخرى . على الرغم من اني اعمل منذ اربعين سنة متواصلة واني منحت عدة جوائز ادبية وان كتبي نشرت في اغرب اللغات فانه لا يمر بي يوم دون ان اتلقى صفيعة او صفقة من الحسد المحدث بي ، هذه هي حال داري . لقد اشترت منذ عدة سنوات هذه الدار في «ايسلا نيغرا» بمكان خال قفر حين لم يكن هناك ماء صالح للشرب ولا كهرباء . ثم حسنتها ورفعتها على دفعات كتب . احضرت تماثيل خشبية حبيلة الى نفسي ، تماثيل قياديين لسفن عتيقة فوجدت في داري هذه مراحا ومستراحا بعد اسفار مرهقة طويلة .

لكن ثمة كثيرين من الناس لا يبيحون لشاعر ان يتوصل كثره لاثره الادبي المنشور في كل جهة من العالم الى حيازة الكرامة المادية التي يستحقها الكتاب كلهم والموسيقيون جميعهم والرسامون قاطبة . ان الكتب

٧٩ — ماركوريو : هو عطارده وهو إله التجارة عند اليونان .

الرجعيين المنبوذين لقدمهم ، الذين يطلبون في كل لحظة تكريمات السي
(غوته Goethe) (٨٠) يآبون ان يكون لشعراء اليوم حق في الحياة . ان
امتلاكي سيارة يخرجهم من مفصلة الباب (٨١) . ففي رأيهم السيارة يجب
ان تكون مقتصرة على التجار ، على المضاربين ، على القيمين على المواخر ،
على المرابين ، على الغشاشين .

كي ازيد من حنقهم وغضبهم اهديت داري في «ايسلا نيغرا» الى
الشعب وهناك ذات مرة ستعقد اجتماعات نقابية وستقضي اجازات
استراحة واستجمام لعمال المناجم والفلاحين .

حينذاك سيثار شعري .

عام آخر يبدأ

يسألني صحفي :

— كيف ترى حضرتك العالم في هذا العام الذي يبدأ ؟

أجيبه :

— في هذه اللحظة بالضبط ، في الساعة التاسعة وعشرين دقيقة من
صباح يوم الخامس من شهر كانون الثاني ارى العالم بأسره ورديا وأزرق .

ليس في هذا القول اية مقتضيات ادبية او سياسية او ذاتية . هذا
يعني ان دوحة كبيرة كثيفة من ازهار وردية اراها من نافذتي وان هناك على
المدى المحيط الهادي والسماء ينصهران في عناق أزرق .

لكنني ادرك ، ونحن جميعا نعرف ذلك ، ان ألوانا اخرى توجد في

٨٠ - موته : الكاتب الالماني المشهور (١٧٤٩ - ١٨٣٢) .

٨١ - الخروج من مفصلة الباب: تعبير اسباني بمعنى الخروج عن الطور وفقدان الاتزان .

مراى العالم . من يستطيع ان ينسى لون الدماء الكثيرة المهرقة بلا جدوى
كل يوم في الفيتنام ؟ من يستطيع ان ينسى لون القرى المحروقة بالنابالم ؟

أجيب على سؤال آخر وجَّهه اليّ الصحفي . كما فعلت في السنوات
الآخرى فاني سأنشر كتابا جديدا في هذه الثلاثمائة وخمسة وستين يوما .
انا متأكد من ذلك . اني أداعب الكتاب ، أزعجه ، اكتبه كل يوم .

— ماذا تعالج فيه ؟

ماذا أستطيع ان أجيب ؟ يعالج دوما في كتبي الموضوع نفسه ، دائما
اكتب الكتاب ذاته . فليغفر لي اصدقائي ان ليس ما أقدمه لهم في هذه
المرّة الجديدة في هذه السنة الجديدة الا أشعاري ، الأشعار الجديدة ،
الأشعار نفسها .

لقد اتى لنا العام المنصرم بانتصارات الى الارضيين جميعنا: انتصارات
في الفضاء ومداراته . لقد احببنا نحن البشر جميعا ان نظير في ذلك العام
المنصرم . لقد سافرنا جميعا في أحلام فضائية . ان ارتياد العلاء العظيم
يخصنا جميعا سواء اكان امريكيين شماليين ام سوفيتيين من تمنطقوا
بأول هالة قمرية واكلوا اولى الاعناب القمرية .

يجب ان يكون من نصيبنا نحن الشعراء الحصة الكبرى من الهبات
المكتشفة . ان الكوكب الشاحب ، من (خوليو فيرنه) (٨٢)
الذي « مكنك » الحلم الفضائي القديم في كتاب ، الى
(جوليس لافورغويه) و (هاينريش هايني) و (خوسه اسونثيون سيلفا) ،
دون نسيان (بودلير) الذي اكتشف رقيته المؤذية ، قد بحثنا فيه نحن
الشعراء وغنيناه وشهرناه قبل اي انسان .

تمر السنون . المرء يستهلك ، يزدهر ، يعاني ويتمتع . السنون
تجلب للمرء الحياة وتأخذ منه الحياة . تصير التوديعات اكثر مألوفة ،

٨٢ — خوليو فيرنه : روائي فرنسي (١٨٢٨ - ١٩٠٥) .

يدخل الاصدقاء السجون او يخرجون منها ، يروحون الى اوروبا او يعودون منها ، او ببساطة يموتون .

ان الذين يمضون حين يكون المرء بعيدا جدا عن المكان حيث يموتون ، يبدو انهم يموتون اقل ، يستمرون يحيون داخل المرء نفسه كما كانوا . ان شاعرا يحيي اصدقاءه ليميل الى القيام بمختارات شعرية حدادية في عمله الشعري . انا توقفت عن اتمام هذه المختارات خوفا من رتب الالم الانساني تجاه الموت . اذ ان المرء لا يحب ان يصبح فهرسا للمتوفين ولو ان هؤلاء كانوا اكثر الناس حبا الى قلبه . حين كتبت في «سيلان» عام ١٩٣١ «غياب (خواكين)» اثر موت صديقي وزميلي الشاعر (خواكين ثيفوينتيس سيبولفيدا) وحين في وقت لاحق نظمت «(البرتو روخاس خيمينيث) يأتسي وهو يطير» في «برشلونة» عام ١٩٣١ ظننت ان لا احد سيموت لي من بعد . مات لي كثيرون . هنا ، قريبا ، في التلال الارجنطينية عند «قرطبة» (٨٣) يرقد مدفونا احسن اصدقائي الارجنطينيين وهو (رودولفو اراوس الفارو) الذي ترك ارملة ابنة بلدنا (مارغاريتا غيره) .

في هذا العام المنصرم ، حملت الريح قامة (ايليا اهيرينبورغ) المهشة ، وهو صديق حبيب جدا ، ومدافع صنديد عن الحقيقة ومحقق جبار للكذب . في موسكو نفسها وفي هذا العام المنصرم نفسه دفنوا الشاعر (اوفادي سافيش) الذي كان قد ترجم شعر (غابريلا ميسترال) وشعري الى الروسية ليس بدقة وجمال فحسب بل بحب مشع كذلك . ربح المنيّة اخذت مني أخوي الشعارين (ناظم حكمت) و(سيمون كيرسانوف) وآخرين كثيرين .

٨٣ - قرطبة : نلفت انظار القاريء العربي الى ان اسماء المدن الاندلسية قد انتشرت في امريكا اللاتينية واطلقت على مدن وقرى هناك كما يظهر الان من اسم قرطبة وكما ظهر من قبل من اسم قرطاجنة .

لقد كان فجيعمة مرة اغتيال (تشي غيفارا) (٨٤) رسميا في « بوليفيا » الحزينة جدا . ان نعيه طاف في العالم مثل قشعريرة مقدسة : ملايين المراثي حاولت ان تصنع « جوقة » كي تمجد وجوده البطولي المأساوي . لقد انهدرت عبر الدنيا اشعار ما كانت دوما على مستوى هذا الالم . تلقيت برقية من « كوبا » من عقيد اديب يطلب مني مرتيتي التي لم اكتبها حتى الآن . افكر ان مثل هذا الرثاء يجب ان يحتوي ليس على الاحتجاج الفوري فحسب بل على الصدى العميق لهذه القصة الاليمة . سأتروى في هذه القصيدة حتى تنضج في رأسي وفي دمي .

انه ليهزني ان اكون انا الشاعر الوحيد الذي ذكره (تشي غيفارا) ، هذا القائد العظيم في حرب العصابات ، في يومياته . اذكر ان (ال تشي) حكى لي ذات مرة ، امام الرقيب (ريتامار) كيف كان يقرأ مرات كثيرة كتابي « النشيد العمام » على اوائل ملتحي « سيرا مايسترا » (٨٥) المتواضعين الامجاد . ينقل في يومياته ، بجلاء هاجس ، بيت شعر من قصيدتي « نشيد الى (بوليفارا) » (٨٦) « جثته الصغيرة ، جثة قائد مقدم »

جائزة « نوبل »

ان لجائزة « نوبل » التي حزت عليها لقصة طويلة . خلال سنوات كثيرة رن اسمي كمرشح لهذه الجائزة دون ان يتبلور هذا الرنين في شيء .

في عام ١٩٦٣ كانت المسألة جدية جدا . اذاعت محطات البث مرارا

٨٤ - تشي غيفارا : هو طبيب ارجنتيني ساهم في الثورة الكوبية ثم ساهم في الثورات بأمريكا اللاتينية ، ويعتبر بطلا من أبطال التحرر والتقدم في عصرنا هذا (١٩٢٨ - ١٩٦٩) .

٨٥ - سيرا مايسترا : هي سلسلة جبال في كوبا منها انطلقت الثورة الكوبية .

٨٦ - بوليفار : هو زعيم التحرر والاستقلال في أمريكا اللاتينية (١٧٨٣ - ١٨٣٠) .

وتكرارا ان اسمي يناقش فيه بشكل حاسم في «استوكهولم» واني اكثر المرشحين احتمالا في الفوز بهذه الجائزة . عند ذلك انا و(ماتيلدا) وضعنا قيد التنفيذ الخطة رقم ٣ في الدفاع المنزلي . علقنا قفلا كبيرا في البوابة الكبيرة لدارنا بـ «ايسلا نيغرا» وتموتنا بمواد غذائية وبنبيد احمر قان . اضفت بضعة روايات بوليسية لـ (سيمنون) (٨٧) على هذه الاحتياطات الاعترالية الانزوائية .

وصل الصحفيون مبكرين فأبقيناهم على بعد يكظمون الغيظ اذ انهم لم يستطيعوا النفوذ عبر البوابة المزودة بقفل برونزي بقدر ما هو جميل هو قدير متين . كانوا يدورون من وراء الجدار الخارجي ويطوفون كنمور غاضبة . ماذا كانوا يحسبون ويظنون ؟ ماذا كنت استطيع ان اقول عن مناقشة لا يشارك فيها الا اكاديميون سويديون في الطرف الآخر من العالم ؟ بيد ان الصحفيين ما كانوا يخفون نياتهم على استنباط الماء من عود يابس (٨٨) .

كان الربيع قد تأخر مجيئه الى شاطيء المحيط الهادي الجنوبي . لقد افادتني تلك الايام المنعزلة في ان انا لف والربيع البحري الذي وان كان جاء متأخرا ، قد تزين لاجل الاحتفال بمهرجانه الموحش المتفرد . لا تسقط خلال الصيف اية قطرة من المطر فالارض طينية جافة صخرية مسننة ، لا يلحظ اي قدي اخضر . خلال الشتاء تطلق ريح البحر غضبا ، ملحا ، زبد امواج هائلة ، واذاك الطبيعة تبرز مكفهرة فريسة لتلك القسوى الرهيبة .

يبدأ الربيع بعمل اصفر كبير ، كل شيء يتغطى بازهار مذهبة صغيرة لا عد لها ولا حصر . ان هذا التناسل الصغير القدير يكسو السفوح، يحدق بالصخور ، يزحف نحو البحر ويطلع وسط دروبنا اليومية كما لو انه يريد ان يتحدثانا ، ان يبرهن لنا على انه موجود حي . لقد تحملت هذه الازهار حياة لا مرئية خلال زمن كثير جدا ، لقد افحمها رفض الارض اليباب

٨٧ - سيمنون : روائي بلجيكي ولد عام ١٩٠٣ .

٨٨ - استنباط الماء من عود يابس : تعبير اسباني بمعنى محاولة المستحيل .

المكدر المدمر الى حد انها الآن لا نثنع بشيء وبدو لها كل شيء قليلا لاجل
خصوبتها الصفراء .

من بعد تدبل وتخمذ الازهار الشاحبة الصغيرة فكل شيء يتغطى
بتزهر بنفسجي فاقع . لقد عبر قلب الربيع من الاصفر الى الازرق ومن
بعد الى الاحمر . فكيف استعاضت بعضها ببعض ؛ تويجات الانوار الصغيرة
غير المحدودة وغير المعروفة ؟ كانت الريح تهز لونا وفي اليوم التالي لونا آخر
كما لو ان الربيع كان يبدل فسطاطه بين التلال والروابي المتوحدة وكما لو
ان الجمهوريات المختلفة كانت تتباهى براياتها الغازية .

في هذه الفترة نزه اشجار الـ «كاكتو» (٨٩) في الساحل . بعيدا عن
هذه المنطقة ، في سفوح سلسلة الجبال «الانديسية» تشمخ اشجار
الـ «كاكتو» عملاقة ، ذات اخاديد واسواك ، مثل طواير معادية . بينما ،
اشجار الـ «كوكنو» في الساحل ، على العكس ، هي صفيره ومدورة .
رايتها وهي تتوج ، كل واحدة منها ، بعشرين برعما قرمزيا كما لو ان يدا
كانت قد تركت هناك دية متوهجة من قطرات دماء . من بعد تفتقت البراعم .
ان المرء ليلمح مواجه الازباد البيضاء العظيمة المنبعثة من المحيط آلافا من
اشجار الـ «كاكتو» المتفدة بازهارها المنطلقة السائدة .

ان السيزال العنيق في داري اخرج من عمق احتشائه ومن حشاشته
فلبه نوره الجريء المنتحر . هذه الشتلة الزرقاء الصفراء، الغليظة العملاقة
استفرقت في نموها اكثر من عشر سنين عند باب داري الى ان صارت
اطول مني . والآن تزهر كي تموت . لقد نما نبثوت اخضر قدير ، سما الى
ارتفاع سبعة أمتار ثم اوقفت نموّه تشكيلة ازهار جافة لا يكسوها الا
القليل من الهباء الذهبي . من بعد اوراق السيزال الامريكي نخرّ فتموت .

واذ ، مقابل الزهرة الكبيرة التي تموت ، زهرة ضخمة تولد . لا احد

سيعرف هذه الزهرة خارج وطني ، لا توجد هذه الزهرة الا في هذه الاصقاع « الانطارطية » (٩٠) « تشاتشوال » (٩١) ان هذه الشتلة السلفية قد عبدها « ال اراوكانوس » . لم يعد «ال اراوكانو» القديم يوجد الآن . ان الدم والموت والدمر ومن ثم أناشيد (الونسو دي ايرتبيا) (٩٢) الملحمية ختمت التاريخ التليد القديم لقبيلة من صلصال (٩٣) استيفظت على حين غرة من نومها الجيولوجي كي تدافع عن وطنها المكتسح المفزوع . حين ارى طلوع ازهار هذه القبيلة مره اخرى ، فوق قرون من أموات داكنين ، فوق طبقات من فناء دام ، اعتقد ان ماضي الارض يزهر ضد وجودنا ، ضد ما نحن عليه الآن . ان الارض وليس الا الارض ، تستمر كائنة حية ابدية محتفظة بالماهية والذات .

لكن نسيت ان اصفها .

انها «بروميلائيا» (٩٤) ذات اوراق منشارية . نقنحم الدروب منل حريق اخضر ، نكوّم في خزانة الاسلحة سيوفها الزمرجدية الغريبة . لكن، فجأة ، زهرة هائلة واحدة وحيدة ، عنقود يولد لها من خصرها ، وردة خضراء هائلة بارنفاع قامة الانسان الكهل . ان هذه الزهرة المنقطعة النظر المؤلفة من جمهرة براعم ، المتجمعة في كاتدرائية خضراء واحدة ، المتوجة بالطلع الذهبي تلتمع على نور البحر . انها الزهرة الخضراء الهائلة الوحيدة التي رايتها نغدو نصبا تذكاريًا للموجة .

ان الفلاحين والصيادين في بلدي قد نسوا منذ زمن بعيد اسماء النباتات الصغيرة ، الازهار الصغيرة ، فلم يعد لها الان من اسم . لقد

٩٠ - الانطارطية Antartica : نسبة الى القطب الجنوبي .

٩١ - معناها : منخس تشيلي .

٩٢ - الونسو دي ايرتبيا : شاعر اسباني ١٥٣٣ - ١٥٩٤) ، كما قد عرفنا به من قبل .

٩٣ - لاحظ التشابه الصوتي بين لقب المؤلف (Ercilla) وكلمة صلصال (Arcilla) فالجناس من خصائص (فيرودا) .

٩٤ - بروميلائيا : هي نوع من البات والاسم مأخوذ من اسم عالم نبات سويدي من القرن الثامن عشر وهو (Bromel) .

راحوا ينسون هذه الاسماء شيئا فشيئا وراحت الازهار تفقد كرامتها بشكل بطيء . غدت الازهار غامضة مهمة كما الاحجار التي تجرفها الانهار من اعالي الثلوج «الانديسية» حتى السواحل غير المعروفة . لقد ظل الفلاحون والصيادون وعمال المناجم والمهربون ، عاكفين على وعورة حياتهم ، على ديمومة الموت والانبعاث في واجباتهم وهزائمهم . انه لغامض ان يكون المرء بطلا في اراض لما تكتشف بعد . الحقيقة هي انه ليس يتمتع فسي ذوائهم ، في غنائهم ، الا الدماء المجهولة الاصول ، والازهار التي لا احد يعرف اسماءها .

من بين هذه الازهار ثمة واحدة اكتسحت داري كل داري . انها زهرة زرقاء ذات قد طويل صقيل مرهو صامد . في كئيسها تتبختر الزهيرات المتكاثرة المتعددة الالوان من نيلوفر فاتح الى كحلي غامق . لست أدري ان كان في مكنة البشر كلهم ان يحظوا بتأمل هذه الزرقة السامية الربعة . أم ان هذه المتعة ستقتصر على بعضهم ؟ أفستمكن هذه الزرقة محجوبة غير مرئية ، عن عبون أناس آخرين حرمهم إله أزرق من هذا التأمل المزوررق ؟ أم ان الامر لا يعدو ان يكون غير فرحي الذاتي المتغذي فسي الوحدة ، المتحول الى زهو ، المفتخر في انه عثر على هذه الزرقة ، هذه الموجة الزرقاء ، هذه النجمة الزرقاء ، في هذا الربيع المهجور ؟

اخيرا سأتكلم عن نباتات ال «دوكاس» . لست أدري ان كانت توجد في جهات اخرى هذه النباتات المتكاثرة ملايين وملايين ، التي تغرز في الرمال أصابعها المثلثية الشكل . لقد ملأ الربيع هذه الايادي الخضراء بخواتم غير مألوفة ذات لون غريب . ان ال «دوكاس» تحمل اسما اغريقيا:

ان روعة «ايسلا نيفرا» في هذه الايام المتأخرة من الربيع لهي هذه ال (aizoaceae) التي تنسكب مثل اجتياح بحري ، مثل فوحان مغارة البحر الخضراء ، مثل عصير العناقيد الارجوانية الذي خزنه في حانته ، «نبتون» Neptuneo (٩٥) النائي البعيد .

٩٥ - نبتون : هو إله الماء عند اليونان ، وهو كذلك الكوكب نبتون الذي اكتشف في منتصف القرن التاسع عشر .

في هذه اللحظة بالضبط تعلن لنا الاذاعة ان شاعرا يونانيا جيدا قد حصل على جائزة نوبل الشهيرة . فهاجر الصحفيون . اخيرا استطعنا ، انا و(ماتيلدا) ، ان نظل هادئين بعد ان نخلصنا من الصحفيين . سحنا في وقار قفل البوابة الكبيرة كي يدخل الناس كل الناس كما كانوا يدخلون من قبل دون ان يقرعوا على باب داري ودون ان يعلنوا عن انفسهم كما الربيع .

في المساء جاء ليراني السفير السويدي وزوجته . كانا يحضران معهما سلة زجاجات (delicatessen) كي نحتفل بجائزة نوبل التي كانا يعتقدان اعتقادا اكيدا انها ستكون من نصيبي . لم نقعد حزاني بل تناولنا جرعة نخب «سيفيريس» الشاعر اليوناني الذي فاز بالجائزة . لدى التوديع اخذني السفير جانبا وقال لي :

— بالتاكيد رجال الصحافة سيأتون ليقابلونني ولست ادري شيئا في هذا الشأن . أتستطيع حضرتك ان تقول لي من هو (سيفيريس) ؟

اجبته في صراحة وصدق : انا كذلك لست ادري شيئا عنه .

الحقيقة هي ان كل كاتب على سطح هذا الكوكب المدعو «الارض» يريد ان يحصل ذات مرة على جائزة نوبل حتى أولئك الذين لا يفصحون بذلك وحتى هؤلاء الذين يرفضون الجائزة .

في امريكا اللاتينية ، بشكل خاص ، للاقطار مرشحوها ، يخططون لحملاتهم ويرسمون استراتيجيتهم . امريكا اللاتينية هذه خسرت الجائزة لبعض هؤلاء الكتاب الذين كانوا يستحقونها . هذا هو حال (رومولو غاييفوس) (٩٦) ، اثره الادبي عظيم ولائق . لكن «فينزويلا» هي بلد النفط ، اي ، بلد المال ولهذا السبب وفي هذا السبيل قد صنّم على ان تربح الجائزة «فينزويلا» في اسم (رومولو غاييفوس) . ولذلك عينت «فينزويلا» سفيرا لها في «السويد» ، هدفه

٩٦ — رومولو غاييفوس : روائي فنزويلي (١٨٨٤ - ١٩٥٩) .

الأعلى حدّ بالحصول على الجائزة . فكان هذا السفير يسرف في الولايم والدعوات ، ينشر مؤلفات الاكاديميين السويديين في اللغة الاسبانية بمطابع خاصة تابعة لسفارته في «استوكهولم» ذاتها . لا بد ان هذا كله بدا للاكاديميين المتحفظين الحساسين مفرطاً زائداً عن حده . ابداً ما كان يعرف (رومولو غايغس) بفعالية سفير بلده الطافحة الزائدة عن اللزوم ، وقد يكون هذا هو السبب الذي أدى الى حرمانه من استلام هذا اللقب الادبي الذي يستحقه فعلاً .

في باريس حكوا لي في مناسبة ما قصة حزينة ، محاطة بمزاح قاس . كان الامر يتعلق هذه المرة بـ (بول فاليري) (٩٧) كان يشاع اسمه على انه المرشح الاكثر احتمالاً في الفوز بجائزة «نوبل» لذلك العام ، وكانت تردد ذلك الاذاعات والصحافة في فرنسا كلها . في صباح اليوم نفسه الذي كانت فيه هيئة المحلفين تتداول بـ «استوكهولم» خرج (فاليري) مبكراً جداً من داره الريفية مصاحباً بعكازه وبكلبه ، بحثاً عن اخماد الحالة العصبية التي سببها له هذا الخبر المثير .

عاد من جولته في منتصف النهار ، في ساعة الفداء . فما ان فتح الباب حتى بادر الى سؤال السكرتيرة :

— هل من مكالمات هاتفية ؟

— اجل ، ايها السيد ، لقد اتصلوا بك من «استوكهولم» منذ عشر دقائق .

— انة بترى زفوها اليك ؟ قال وقد أفصح عن تأثره .

— لقد كان صوت صحفية سويدية تريد ان تعرف رأيك في حركة التحرير النسوية .

٩٧ — بول فاليري : شاعر واديب وناقد فرنسي معروف (١٨٧١ - ١٩٤٥) .

كان (فاليري) نفسه يشير الى هذه الفكاهة في شيء من التهكم .
والحقيقة هي انه شاعر جد كبير وجد عظيم وكان متقن جدا ومع ذلك
نهر ابدأ ما فاز بهذه الجائزة الشهيرة .

لكن ، فيما يخصني فيجب على الآخرين ان يعرفوا لي بأني كنت دوما
محترسا محتاطا جدا . كنت قد قرأت في كتاب لعلامة تشيلي اراد اطراء
(غابريلا ميسترال) ، الرسائل العديدة التي وجهتها مواطنتي المتقشفة الى
اماكن كثيرة دون ان يفقدها ذلك تقشفها وزهدا ، ولكنها كانت تدفعها
رغباتها في التقرب من الجائزة . هذا جعلني اصبح كنوما اكثر . منذ ان
علمت بان اسمي بنرد (لست ادري كم من مره تردد ذكر اسمي من قبل)
على اني مرشح ، قررت الا اعود الى السويد ، وهو بلد طالما جذبني منذ ان
كنت صبيا حين جعلنا من انفسنا ، انا و(توماس لاغو) ، تلميذين حقيقيين
لراع بروتسناني سكير مطرود من الكنيسة اسمه (غوسنا بيرلينغ) .

زد على هذا اني كنت قد سئمت من ان اذكر كل سنة دون ان تذهب
الامور الى ابعد من الذكر ، وكان يبدو لي مفيظا ان ارى اسمي في المباريات
السنوية كما لو اني جواد سباق . من جهة اخرى كان التسلمون ، ادباء
او جماهير ، يتعرون بالاهانة بسبب لا مبالاة الاكاديمية السويدية بي .
كان هذا وضعنا يتاخم ما يضحك بشكل خطير .

اخيرا ، الناس كلهم يعرفون ذلك . منحوني جائزة «نوبل» . كنت انا
في باريس ، عام ١٩٧١ ، حديث الوصول لتأدية مهمتي سفيرا لتشيلي .
حين بدأ اسمي بالظهور في الصحف مره اخرى ، انا و(ماتيلدا) قطبنا
الجبين لقد فقدت بترتنا الاحساس بعد ان نعودنا على القتل . ذات ليلة
من تشرين الاول من تلك السنة دخل (خورخه ايدواردس) وهو كاتب كان
مستشارا في السفارة بباريس ، الى غرفة الطعام في منزلي . اقترح ،
على الرغم من تقيره الذي يميزه . عليّ قبول رهان بسيط جدا . ان
منحوني جائزة «نوبل» هذا العام فان عليّ ان ادفع ثمن وجبة في احسن
مطعم بباريس له ولزوجته وان لم بمنحوني فسيدفع هو ثمن وجبة لسي
ولزوجتي .

قلب له : موافق . سناكل بشكل رائع على حسابك .

جزء من سر (خورخه ادواردس) ومن رهانه المغامر بدأ ينكتشف فى اليوم التالي . عرفت ان صديقة له كانت قد اتصلت به هاتفيا من «استوكهولم» وكانت هذه الصديقة كاتبة وصحفية . قالت له ان الاحتمالات كلها تشير الى ان (بابلو نيرودا) سيفوز بجائزة «نوبل» هذه المرة .

بدأ الصحفيون يتصلون من على بعد كبير . من «بونوس ايريس» ، من «المكسيك» وبخاصة من «اسبانيا» . في هذا البلد الاخير كانوا يعتبرون الامر مقضيا . طبعاً رفضت ان ادلي بتصريحات لكن شكوكي بدأت تطل من جديد .

تلك الليلة جاء ليراني (ارتور لونديكيڤيست) وهو، صديقي الوحيد من الكتاب السويديين . كان (لونديكيڤيست) اكاديميا منذ ثلاث سنوات او اربع . وصل من بلده الى باريس في طريقه الى جنوب فرنسا . بعد الاكل قصصت عليه ما لديّ من صعوبات كي ارد على المخابرات الدولية التي يقوم بها الصحفيون الذين ينسبون لي الجائزة .

قلت له : اريد ان اطلب منك شيئاً ، يا (ارتور) . في حالة ان كان هذا حقيقة ، فانه يهمني جداً ان اعرف ذلك قبل ان ينشر في الصحافة . اريد ان اخبر به ، اول ما اخبر ، (سلفادور ايينده) الذي شاركت معه في صراعات كثيرة فانه سيفرح كثيراً ان كان هو اول من يتلقى هذه البشرى .

الاكاديمي الشاعر (لونديكيڤيست) نظر اليّ بعينين سويديتين وقال في جدية قصوى :

— اني لا استطيع ان اقول لك شيئاً . ان كان ثمة شيء من هذا القبيل فانه سيعلمك به برقياً ملك السويد او سفير السويد في باريس .

هذا كان يجري يوم ١٩ او ٢٠ من تشرين الاول . في صباح يوم ٢١ بدأت قاعات السفارة تمتليء بالصحفيين . كان العاملون في التلفزيون السويدي ، الالماني ، الفرنسي وتلفزة اقطار امريكا اللاتينية يبدون تمللاً وعدم صبر يهدد بأن يستحيل الى تمرد ضد صمتي الذي لم يكن الا لافتقادي اية معلومات امدهم بها . في الساعة الحادية عشرة والنصف

في هذا من اهانة لامريكي حر مثلي . ولهذا فاني أعلمك بأنني بالمال الزهيد الذي يمكن لي ان اجمعه سأسافر الى «استوكهولم» كي أعقد مؤتمرات صحفية لافضح فيها الطبيعة الامبريالية وغير الشعبية لمثل هذه الاحتفالات . فليحتفل هكذا بتكريم اكثر الشعراء العالميين عداء للامبريالية واكثرهم شعبية » .

في شهر تشرين الثاني سافرت و(مانيلده) الى «استوكهولم» . لقد صاحبني في سفرنا بعض الاصدقاء القدماء . فأنزلونا في «الفندق الكبير» الباهر . كنا نرى من هنالك المدينة الجميلة الباردة والقصر الملكي مقابل نوافذنا . في الفندق نفسه حل كذلك المتوجون الآخرون لذلك العام ، في الفيزياء والكيمياء والطب الح . شخصيات مختلفة ، بعضهم مهذارون شكليون سطحيون . وآخرون بسطاء اجلاف كأنهم عمال ميكانيكيون حديثو الخروج من مراتبهم بالصدفة . لم يكن الالماني (ويلي براندت) (٩٨) ينزل في الفندق نفسه بل كان يستلم جائزة «نوبل» للسلام في «النرويج» . تأسفت لذلك كثيرا لانه كان من بين أولئك الفائزين بالجائزة جميعهم اكثر واحد يهمني معرفته والتحدث اليه . لم استطع ان ألحه من بعد الا وسط الاستقبالات بعيدا احدا عن الآخر كثيرا يفرق بيننا ثلاثة او اربعة اشخاص على الاقل .

كان ضروريا لاجل الاحتفال اجراء تجربة سابقة . لقد جعلتنا المراسم السويدية نخرج للتمثيل في المكان نفسه حيث سيجري الاحتفال . كان مضحكا حقا رؤية أناس جديين جدا وهم يقفزون من أسرّتهم ويخرجون من الفندق مهرولين في ساعة مبكرة ليصلوا في الوقت المحدد بالضبط الى مبنى فارغ ، ثم يصعدون الدرج دون ان يخطئوا ثم يمضون على اليسار وعلى اليمين في ترتيب صارم تم كان علينا ان نجلس في المنصة كل على مقعده المخصص له ليستلم جائزته في اليوم التالي . كل هذا ونحن نواجه اجهزة التلفزة في قاعات فارغة هائلة تبرز فيها كراسي الملك والعائلة المالكة الفارغة الخاوية في شكل كئيب كذلك . ابدا مـ

٩٨ - ويلي براندت : السياسي الالماني المعروف الذي كان رئيسا للحكومة في المانيا الغربية .

استطعت ان اعرف ولا ان افسر لاي هوس كان التلفزيون السويدي يصور ذلك التمرين المسرحي الذي يقوم به ممثلون ثقيلون جدا ، بليدون جدا .

لقد توافق يوم تسليم جائزه «نوبل» مع عبد العديسة «لويثا» . انفظتني بعض الاصوات الني كانت بغني بشكل عذب في ممرات الفندق . من بعد ، الصبابا الشقراوات الاسكندبنافيات ، المتوججات بزهور . والمضاعات بشموع مستعلة ، اقتحمن غرفتي وكن يحضرن لي الفطور وكذلك يحضرن ، كهديّة ، لوحة طويلة جميلة تمثل البحر .

في وقت لاحق حصل حادث حرك شرطه استوكهولم» واثارها . في مكتب الاستقبال بالفندق اعطوني رسالة . فتحتها واذ هي موقعة من ذاك الرجل نفسه عدو الاستعمار ، الراكب رأسه ، المطلق زمامه ، العضو الفعال في حركة «جيورجيتون» ، «غوابانا الهولانديه» . لقد وصلت حديثا الى «استوكهولم» ، كان يقول في رسالته . كان قد قتل في تصميمه على عقد مؤتمر صحفي ، لكنه بما انه رجل فضية ثورية وفعل نوري فانه قد اتخذ اجراءاته . انه لمحال ان يستلم (بابلو نيرودا) ساعر المسحوفين والمتواضعين جائزة «نوبل» وهو يرندي بدلة رسمية . وبالتالي فقد اشترى مقصا اخضر سيقطع لي به علانية وامام الناس «خرف البدلسه الرسمية المتدلية وابة خرق متدلية اخرى» . «لهذا فاني اؤدي واجبي بان احذر من مغبة هذا . حين ترى رجلا ملونا ينهض من آخر القاعة فانه عليك ان تفترض ما سيجري لك بعد هنيهة» .

ناولت الرسالة الغريبة الى الشاب الدبلوماسي ، ممثل المراسم السويدية الذي كان يصحبني في تحركاني جميعها . قلت له مبتسما اني كنت قد تلقيت في باريس رسالة اخرى من هذا المجنون نفسه وانه في رأيي يجب الا نهتم بهذا الامر كثيرا ولكن الشاب السويدي لم يكن على اتفاق معي في هذا الشأن .

— في هذه الفترة من المباحكات يمكن ان تحدث اكثر الاشياء غرابة . ان واجبي هو ان اعلم شرطة «استوكهولم» بهذا الامر — قال لي وانطلق بسرعة لاداء ما كان يعتبره واجبا عليه .

يجب ان اشير الى ان من بين مرافقيّ الى «استوكهولم» كان الفينزويلي (ميفيل اونيرو سيلفا) وهو كاتب كبير وشاعر ظريف ، وهو بالنسبة لي ليس ضميرا امريكيا فحسب بل زميل لا يقارن . كان الاحفال على وشك الابتداء حين رويت خلال الاكل الجدية التي كان السويديون قد أبدوها تجاه مسألة الرسالة المحتجة . (اونيرو سيلفا) الذي كان يتغدى معنا ضرب كفا على جبينه وصرخ :

— لكن، هذه الرسالة كتبتها انا بيدي وفي خطي لكي اتناول شعر(٩٩) (بابلو) . ماذا سنفعل الآن مع رجال الشرطة الذين يبحثون عن فاعل لا يوجد ؟

— ستقاد الى السجن جزاء لك على نكتتك الثقيلة الهمجية نكتة « البحر الكاريبي » ، ستلقى العقاب الذي يستحقه رجل «جيورجيتون» — قلت له .

في هذه اللحظة جلس معنا حول المائدة الشاب السويدي ، مرافقي الذي كان يعود بعد ان أعلم الجهات المختصة . قلنا له ما جرى :

— ان الامر لا يعدو ان يكون غير مزاح سيء المزاج والفاعل ها هو يتغدى معنا ، الآن .

عاد للخروج مستعجلا مجولا . لكن رجال الشرطة كانوا قد زاروا فنادق «استوكهولم» كلها بحثا عن اسود «جيورجيتون» او اسود ابة ارض اخرى شبيهة .

واتخذوا احتياطاتهم اذ انني و(ماتيلده) كذلك ، حين دخلنا الى الحفلة وحين خرجنا من رقص الاحتفال لاحظنا انه كان يبادر الى الاهتمام بنا بدلا من الحجاب العاديين اربعة او خمسة من الشبان الاقوياء الاشداء،

٩٩ — تناول الشعر : تعبير اسباني بمعنى المزاح وهو يشبه التعبير العربي الفصحى على الدفون .

حراس ظهر ، شقر ، متهيئون لالة محاولة من ضربة بالمقص .

كان للاحتفال المراسيمي بتسلم جائزة «نوبل» جمهور حافل . هادى ومتدرب على النظام اذ انه ما كان يصفق الا في الوقت المناسب وفسي كياسة وأدب . كان العاهل العجوز يصافح كل واحد منا ، يعطي كل واحد منا الديبلوم ، الوسام ، التشيك . كنا نعود الى اماكننا في المنصة واحدا اثر آخر ، وكانت هذه المنصة مليئة بالزهور والمقاعد المشغولة ، وليس كما كانت من قبل هزيلة قدرة ، حين كنا نجري التمرين والمناورة . يقال (او هذا ما فالوه لـ (ماتيلده) كي يجعلوها تتأثر كثيرا) ان الملك بقي معي وقتا اكثر مما بقي مع المكللين الآخرين الحائزين على الجائزة ، وانه شد على يدي خلال وقت اطول ، وانه عاملني بلطافة ظاهرة بادية على محياه . ربما كانت هذه اللطافة تذكاري تلك التي كان الملوك في العهد القديم يبدونها للرواة . على كل حال ولا اي ملك آخر مد لي يده لوقت قصير او طويل .

لقد كان لذاك الاحتفال البروتوكولي الصارم الوقار المناسب . قد يحيا هذا الوقار الجاري في المناسبات المهمة الى الابد في العالم . يبدو ان الانسان بحاجة اليه . غير اني وجدت شبرا لطيفا ببر ذاك الاسعراض الذي قام به الفائزون الشهيرين وبين توزيع الجوائز المدرسية في مدينة صغيرة بمحافظة نائية .

تشيلي الصغيرة

كنت احيى انا من «بورتو ابانيث» . مندهنا بالبحيرة الكبيرة «جينرال كاريرا» مندهنا من هذه المياه المعدنية التي هي ذي اللون الفيروزي . في «كوبا» او ببحيرتنا «بيثرو هوبه» . نم ففزه نهر «ابانيث» الهمجية ، وهو نهر عظيم رهيب . كنت احيى ايضا كئيبا مكروبا بسبب فقر شعوب المنطقة وعدم الاتصال فيما بينها . مع انهم يجارون الطاقات الكهربائية الهائلة فهم غير مزودين بالكهرباء . مع انهم يعيشون بين قطعان الاغنام الصوفية التي لا حصر لها

فهم لا يرتدون الا أسملا فقيرة ممزقة . الى ان وصلت الى « تشيلسي الصغيره » .

هناك كان الشفق الكبير ينظرني وهو يفلق النهار . كانت الريح المؤبده تمزق الفيوم « الكوارنزية » (١٠٠) . أنهار من نور ازرق كانت تحجز دمة كبيرة كانت الريح بحافظ عليها في عطالة بين الارض والسماء .

مربع مواس ، مزارع كانت تصارع نحت ضغط الريح اللولبية . كانت ترتفع الارض حول هذه المراع والمزارع بأبراج « لا روكا كاستيو » (١٠١) الصلبة ، برؤوس حادة مسننة ، بعوهاد قوطية ، باسئحكافات وشرفات طبيعيله من غرائث . كانت جبال « ايسين » التمسقية المكوره مثل الخدروف ، المرتفعة الملاء مثل الطاولات ، نري مستطيلات ومثلثات من بلج .

وكانت السماء تصنع سفعها من خيوط الحرير ومن فلزات المعادن : يبالا اللون الاصفر في الاعالي محوما كما الطير الهائل عبر الفضاء النقي . كان كل شيء يتغير فجأة ، يتحول الى فم حوت ، الى نمر ارقط متوهج ، الى مساعل تجريدية .

شعرت ان السعة كانت تنتشر فوق راسي وفد رسمتني فاسمتني شاهد الـ « ايسين » الباهر باطواده ، بتللاته ، بملايينه من الاشجار الميتة المحروقة التي تهم قائلها القدماء ، مع سكون عالم يولد فيه كل شيء معد : مهرجانات الارض والسماء . لكن ينقصه الكنف ، النظام الجماعي ، التسيد ، الانسان . ان من يعيتى فى مثل هذه الارض الخلاء يحتاج الى بضامن انساني جد فسيح مثل هذه المساحات الواسعة الكبيرة .

ابتعدت حين كان ينطفئ الشفق ، والليل كان يخيم ازرق مفرعا .

١٠٠ - الكوارتريه : نسبة الى « لوارتز » وهو المرو .

١٠١ - لا روكا كاسيو : معناها ، الصخرة القلعة .

رايات ايلول

ان شهر ايلول في جنوب القارة الامريكية اللاتينية لهو شهر عريض مزهر . كذلك ان هذا الشهر مليء بالرايات .

في بداية القرن الماضي في عام ١٨١٠ وفي شهر ايلول هذا انشقت او توطدت الانتفاضات ضد السيطرة الاسبانية في اراض عديدة بأمريكا الجنوبية .

في شهر ايلول هذا نحن امريكان الجنوب نذكر التحرر والانعتاق ، نحمل بالابطال ، نسقبل الربيع الربيع العسيح جدا الى حد انه يتجاوز مصيق « ماغابانيس » لبزهرة حتى في « باتاغونيا اوسترال » حتى في « كابو دي اورنوس » .

لقد كانت مهمة جدا للعالم سلسلة التورات الدورية التي كانت تنفجر من المكسيك حتى الارجننتين وتشيلي .

لم يكن الفواد يتشابهون فيما بينهم . ف (بوليفار) كان محاربا ودمثا ، موهوبا باشراق ببوي . (سان مارنين) (١٠٢) كان منظما عبفريا لجيس عبر سلسلة الجبال الاكثر ارتفاعا وصعوبة على وجه الارض كي ينش فسي تشيلي المعارك الحاسمة في سبيل تحريرها . (خوسيه ميغيل كاريرا) (١٠٣) (برناردو اوهيغنس) (١٠٤) كانا مبدعي اوائل الجبرش التشلييه كما كانا كذلك السباقين في جلب المطابع الى تشيلي وسن القوانين المحرمه للرق الذي

١٠٢ - سان ماريس : بطر من ابطال التحرر في امريكا اللاتينية ١٧٧٨ - ١٨٥٠ .

١٠٣ - جوسه ميغيل كاريرا : بطر من ابطال التحرر في تشيلي، كان عسكريا وسياسيا ١٧٨٥ - ١٨٢١ .

١٠٤ - برناردو اوهيغيس : بطر من ابطال التحرر في تشيلي ١٧٧٨ - ١٨٤٢ .

الفي قبل سنوات كثيرة من الغائه في الولايات المتحدة .

ان اخوسه ميفيل كاريرا و(بوليفار) وبعض المحررين الآخرين كانوا يخرجون من الارستوقراطية الـ «كريبوييا» . كانت مصالح هذه الطبقة نصطدم بشكل عنيف مع المصالح الاسبانية في امريكا . لم يكن الشعب يوجد بعد كتنظيم بل كان في شكل جمهرة غفيرة من عبيد تحت اوامر السيطرة الاسبانية . كان على الرجال ، من أمثال (بوليفار) و(كاريرا) ، الذين كانوا قد قرؤوا الموسوعات وتخرجوا من الكليات العسكرية الاسبانية ان يحطموا جدار العزلة والصمت والجهل كي يتوصلوا الى تحريك الروح القومية في نفوس الشعب .

ان حياة (كاريرا) كانت قصيرة ولكنها ملتهبة مثل برق . «العسس التيمس» عنونت اننا كتابا قديما يحتسوي على ذكريات ، سترنه انا بنفسى منذ عدة سنين . ان شخصيته الجذابة جلبت النزاعات حول رأسه كما مانعة الصواعق تجذب وتجذب شرارات العواصف . اخر الامر اعدم رميا بالرصاص في «ميندوثا» بأمر من حكام الجمهورية الارجنطينية الحديثة الاعلان اذآك . كانت رغباته الجامحة بتحطيم السيطرة الاسبانية قد وضعت على رأس الهنود المتوحشين في السهول الارجنطينية . حاصر «بونوس ايريس» وكان على وشك ان يأخذها عنوة . بيد ان رغباته الحقيقية كانت تميل الى تحرير تشيلي وفي هذا الاصرار استعجل فقام بحروب وحروب عصابات أدت به الى ختيسة الاعدام . لقد التهمت التورة في تلك السنين المضطربة احد ابنائها الاذكيا الشجعان . يدين التاريخ بهذا الفعل الدامي (او هيغينيس) و(سان مارين) . لكن التاريخ في شهر ايلول هذا ، الشهر الربيعي المليء بالرايات يغطي بأجنحته ذكرى الابطال الثلاثة في هذه المعارك التحريرية التي دارت رحاها على مسرح واسع من سهول هائلة ومن ثلوج خالدة .

ان (اوهيغينيس) وهو بطل آخر من محرري تشيلي ، كان رجلا متواضعا بسيطا . كانت حياته ستكون غامضة هادئة لو لم يكن قد تلاقى في لندن ، حين لم يكن له من العمر الا سبع عشرة سنة ، مع ثائر قديم كان يجوب بلاطات ملوك اوروبا كلها بحثا عن مساعدة لقضية الانعتاق

الأمريكي . كان يسمى السيد (فرانثيسكو دي ميراندا) (١٠٥) . ومن بين
اصدقائه الكثر اعتمد على ود امبراطورة روسيا (كاتالينا) (١٠٦) ودعمها
القدير . بجواز سفر روسي وصل الى باريس وكان يدخل ويخرج في
امارات أوروبا ودويلاتها .

انها لرواية رومانطكية ذات نفس يمثل «فترة» مما يجعلها تبدو مغناة
(Opera) . (اوهيغينيس) كان ابنا غير شرعي لنائب الملك الاسباني وكان
هذا جنديا جمع نروة كبيرة فأصبح حاكما باسم الملك على تشيلي وهو من
اصل إيرلندي . رتب الامور (ميراندا) لاثبات اصل (اوهيغينيس) حين
أدرك فائدة الشاب وما يمكن ان يكون لاصله من نفع في تحريض شعوب
المستعمرات الاسبانية في أمريكا . في كتب التاريخ تروي اللحظة التي
كتشف فيها (ميراندا) للشباب (اوهيغينيس) سر اصله ودفعه الى العصيان
والتمرد . خر الشاب النائر راکما وعانق (ميراندا) وبين النحيب والبكاء
وعده بالانطلاق من لندن الى تشيلي حالا ليقود هناك حركة التمرد ضد
النفوذ الاسباني . كان (اوهيغينيس) هو من حقق الانتصارات النهائية في
الفضاء على النظام الاسنعماري بتشيلي وهو يعتبر مؤسس جمهوريتنا .

اما (ميراندا) فقد قضى نحبه حين كان سجيناً من قبل الاسبان في
سجن « لا كاراكاس » ب « قادش » . ان جسد هذا
الجنرال في الثورة الفرنسية ومعلم ثوريين كثيرين قد لُفّ في كيس
والقي به الى البحر من اعلى السجن .

(سان مارتين) مات بعد ان نفاه أبناء قومه ، في « بولونيا »
بفرنسا عجوزا وحيدا .

(او هيغينيس) محرر تشيلي مات في «البيرو» بعيدا عن كل ما يحب ،
مطرودا ، بعد ان استولت الطبقة الاقطاعية «ال كريويا» على الثورة .

١٠٥ - فرانثيسكو دي ميراندا : بطل من أبطال التحرر في أمريكا الجنوبية
(١٧٥٠ - ١٨١٦) .

١٠٦ - كاتالينا : هي امبراطورة روسيا (١٧٢٩ - ١٧٩٦) .

منذ وقت قريب ، حين مررت بـ «ليما» Lima وجدت في متحف «البيرو» التاريخي بعض اللوحات التي رسمها الجنرال (او هيفينيس) في أعوامه الأخيرة . موضوع هذه اللوحات كلها هو تشيلي . كان يرسم ربيع تشيلي ، اوراق وأزهار شهر ايلول في تشيلي .

في شهر ايلول هذا جعلت أذكر تلك الفترة من الانعتاق والتحرر ، أسماء أبطالها ، حوادثها ، رغباتها وآلامها ، بعد مضي قرن على تلك الفترة ها هي الشعوب تهتز من جديد وها هو تيار مضطرب من ريع وغضب يحرك الرايات . ان كل شيء قد تغير منذ تلك السنين القصية السحيقة ، لكن التاريخ يتابع مسيره وها هو ربيع جديد يملأ أصقاع امريكا وأجواءها .

(بريستيس Prestes)

ولا اي زعيم شيوعي في امريكا كانت حياته معرضة للخطر دوماً كما كانت عليه حياة (لويس كارلوس بريستيس) . لقد كان بطلا عسكريا وسياسيا للبرازيل . لقد تجاوزت حقيقته وأسطورته منذ زمن كثير التقييدات العقائدية فاستحال هو الى تجسيد حي للأبطال القدماء الاشأوس .

لهذا ، حين تلقيت دعوة وأنا بـ «ايسلا نيغرا» لزيارة البرازيل والتعرف على (بريستيس) قبلت الدعوة حالا . عرفت كذلك أنه لن يكون هناك مدعو اجنبي آخر غيري وهذا ملأني فخرا فشعرت اني اشارك بشكل ما في حركة انبعاث .

كان (بريستيس) حديث الخروج الى الحرية بعد ان قضى اكثر من عشر سنوات في عبودية السجن . ان هذه الاعتقالات الطويلة الامد ليست استثنائية شاذة في بلدان «العالم الحر» . فزميلي وصاحبى الشاعر (ناظم حكمت) قضى ثلاث عشرة او اربع عشرة سنة في سجون تركيا . الان وأنا اكتب هذه الذكريات أذكر ان سنة او سبعة من شيوعى «الاورغواي» قد دفنوا في السجون دون اي اتصال بالعالم منذ اثنتي عشرة سنة . لقد

سأمت الديكتاتورية البرازيلية زوجة (بريستيس) وهي المانية الاصل ، الى
ال «غيستابو» . قيدها النازيون بالسلاسل الى الباخرة التي كانت تقلها
الى عذاب الموت . وضعت طفلة تعيش الآن مع ابوها ، انقلتها من بين
اثاب ال «غيستابو» السيدة المحترمة التي لا تملّ ، السيدة (ليوكاديا
بريستيس) والدّة هذا الزعيم . بعد ان وضعت زوجة (لويس كارلوس
بريستيس) طفلتها في فناء سجن ، دق النازيون عنقها . ان هذه الحيوانات
المستشهادة كلها جعلت الناس لا ينسون (بريستيس) ابدا طيلة السنوات
الطويلة التي قضاها في السجن .

انا كنت في المكسيك حين ماتت والدته السيدة (ليوكاديا بريستيس) .
كانت هي قد دارت العالم كله وهي تطالب بتحرير ابنها . ابرق الجنرال
(لاثارو كارديناس) (١٠٧) وهو رئيس سابق للجمهورية
المكسيكية ، الى الديكتاتور البرازيلي طالبا منه ان يعطى
(بريستيس) بضعة ايام من حرية تسمح له ان يحضر جنازة والدته . كان
الرئيس (كارديناس) في رسالته يقول بأنه يضمن شخصيا عودة (بريستيس)
الى حبسه فكان جواب (غيتوليو بارغاس) (١٠٨) سلبيا .

لقد ساهمت في سخط العالم كله فكتبت قصيدة على شرف السيدة
(ليوكاديا) وفي ذكرى ابنها الغائب وفي لعنة الطاغية .

انشدتها على ضريح السيدة النبيلة التي قرعت ابواب العالم عبثا في
سبيل تحرير ابنها . كانت قصيدتي تبدأ في وقار واعتدال :

سيدتي ، لقد جعلت من قارتنا الامريكية اكبر وأعظم .
لقد منحتها نهرا نقيا من مياه جمّة ،

١٠٧ - لاثارو كارديناس : زعيم سياسي مكسيكي ، كان جنرالا في الجيش ثم اصبح
رئيسا للجمهورية (١٨٩٥ - ١٩٢٠) .

١٠٨ - غيتوليو بارغاس : زعيم سياسي برازيلي (١٨٨٣ - ١٩٥٤) .

لقد منحتها شجرة كبيرة ذات جذور لا نهائية :
ابنا لك جديرا بوطنه العميق .

لكن ، بمقدار ما كانت القصيدة تستمر كانت تغدو أكثر عنفا ضد
المستبد البرازيلي .

لقد انشدتها في جهات كثيرة ثم راحت تنسخ وتطبع في منشورات
وعلى البطاقات البريدية فجابت القارة بأسرها .

ذات مرة ، حين كنت أمر ب «بناما» أرفقتها بمجموعة من القصائد في
أحدى قراءاتي الشعرية بعد أن انشدت قصائدي الغزلية . كانت القاعة
ملئية وكان حر البرزخ يجعلني أعرق وأرشح . كنت قد وصلت فسي
أنشادي الى الايات التي تلحن الرئيس (بارفاس) حين شعرت أن حنجرتي
قد جفت . توقفت عن الانشاد ومددت يدي نحو كأس كانت قريبة مني .
في هذه اللحظة رأيت شخصا يلبس بدلة بيضاء يقترب مني مستعجلا نحو
المنبر . انا ، معتقدا أنه مستخدم تابع للقاعة ، مددت له الكأس كي يملأها
لي بالماء . لكن الرجل هذا المرتدي البدلة البيضاء رفض ذلك وقد شعر
بالاهانة والتفت الى الحضور ثم صرخ بشكل عصبى *Soyo Embaxador do*
Brasil (١٠٩) . احتج لان (بريستيس) ما هو الا مجرم عام . . .» .

فقاطع الجمهور هذه الكلمات بتصفير حاد مدو . طالب شاب ملون ،
عريض كخرانة ، نهض من وسط القاعة وشق له درباً نحو المنبر ومد يديه
الى عنق السفير . انا أسرعت كي أحمي الدبلوماسي ولحسن الحظ
استطعت أن أخرجه من ذاك المكان دون أي ضرر كان يمكن أن يلحق بمنصبه
وسمعه .

بهذه السوابق بدأ سفري من «ايسلا نيغرا» الى البرازيل للمشاركة
في الابتهاج الشعبي ، طبيعياً بالنسبة للبرازيليين . لقد اندهشت حين
رأيت الجماهرة الغفيرة التي كانت تمسلاً ملعب «باكايمبو» *Pecaimbu*

١٠٩ - المباراة بالبرتغالية ، معناها ، انا سفير البرازيل .

في «سان باولو» . يقولون أنه كان هناك أكثر من مائة ألف نسمة . كانت الرؤوس ترى صغيرة جدا داخل تلك الدائرة الواسعة جدا . لقد بدا لي (بريستيس) ذو القامة الضئيلة وهو بجانبه وكأنه (العازر) وقد خرج من القبر ، نظيفا ومتزينا للمناسبة . كان ضامرا ابيض حتى الشفافية ، بهذا الشحوب الغريب الذي يبدو على ملامح السجناء . نظرت الحادة الشديدة ، دوائر المزرقة حول عينيه ، أساريره الرقيقة جدا ، رصانته الخطيرة ، كل شيء كان يذكر بالتضحية الطويلة خلال حياته كلها . غير أنه تكلم في هدوء جنرال منتصر .

انا انتسدت قصيدة على شرفه كتبتها ساعات قليلة من قبل . غير فيها (خورخه أمادو) كلمة واحدة وهي كلمة البنائين (١١٠) واستبدل بها كلمة Pedreiras (١١١) البرتغالية . على الرغم من تخوفاتي فقد فهم الحشد الغفير كله قصيدتي المكتوبة والمقروءة باللغة الاسبانية . بعد كل سطر من قراءتي المتهمة البطيئة كان ينفجر تصفيق البرازيليين . كان لتلك التصفیقات رجوع عميق في شعري . ان شاعرا ينشد أشعاره امام مائة وثلاثين ألف نسمة ليس في مكنته ان يظل هو نفسه كما كان من قبل ولا يستطيع ان يكتب بالطريقة نفسها بعد هذه التجربة .

في النهاية اجد نفسي وجها لوجه امام البطل الاسطوري (لويس كارلوس بريستيس) كان ينتظرني في منزل احد اصدقائه . ان كل ملامح (بريستيس) - قامته الصغيرة ، نحولته ، بياضه كبياض الورق الشفاف تتطلب امعانا كامعان التصوير الدقيق . كذلك كلماته ، ولربما تفكيره ، تبدو في تناسق مع هذا المظهر الخارجي .

انه ودي معي ولطيف داخل اطار تحفظه المعروف به . اعتقد انه يخصني بهذه المعاملة الودودة التي نحن الشعراء نجدها دوما لدى الآخرين في معاملتهم لنا وهي معاملة تلتف بين الطراوة والمراوغة ، شبيهة جدا بمعاملة الكبار حين يتحدثون الى الصغار .

١١٠ - البنائين : هكذا في الاصل Albaniles عن العربية .
١١١ - معناها : الصقارة .

دعاني (بريستيس) الى الغداء في يوم من ايام الاسبوع التالي . عند ذلك وقعت لي واحدة من هذه المصائب التي لا يمكن عزوها الا الى القدر او الى فوضويتي وعدم مسؤوليتي . ان اللغة البرتغالية ، مع انها تملك سبتها واحدها لا تشير الى الايام الاخرى مثل الاثنين والثلاثاء والاربعاء الا بتسميات شيطانية على النحو التالي (Segonda Feira, Tersa Feira, Guarta Feira قافزة عن Feiara الاول باعتباره تحصيل حاصل . انا اتخربط بهذه الايام البرتغالية دون ان ادري في اي يوم يكون يومها .

رحت لأقضي بضع ساعات على الشاطئ مع صديقة برتغالية جميلة مدكرا نفسي في كل لحظة انه في اليوم التالي ينتظرني (بريستيس) على الغداء . في La quarta Feira علمت ان (بريستيس) انتظرني في Tersa Feira بلا جدوى والمائدة جاهزة بينما كنت انا أقضي تلك الساعات في شاطئ «إبانيما» ibanima . بحث عني في كل جهة دون ان يعرف احد اين موضعي . القائد الزاهد كان قد احضر تكريما لي زجاجات نبيذ فاخرة ممتازة من الصعب الحصول عليها في البرازيل . كنا سنتفدى نحن الاثنين وحدنا .

كلما ذكرت هذه الحكاية ، أريد ان اموت خجلا . لقد استطعت ان اتعلم كل شيء في حياتي غير اسماء ايام الاسبوع بالبرتغالية .

(كودوفيا Codvila)

لدى خروجي من «سانتياغو» عرفت ان (فيتوريو كودوفيا) كان يريد التحدث معي فذهبت لأراه . كنت أحافظ دوما على صداقة طيبة معه حتى موته .

كان (كودوفيا) ممثلا للأمية الثالثة وكانت تجتمع فيه عيوب تلك الفترة كلها . كان شخصانيا استبداديا ، وكان يظن انه يملك الحق دوما، كان يفرض رأيه ويعتقد انه الفيصل ، كان يتدخل في آراء الآخرين كما السكين في الزبدة . يدخل الى الاجتماعات في عجلة واستعجال

ليعطي الانطباع بأن كل شيء عنده قد انجز وانه فكر في كل امر ووجد له حلا . يبدو عليه حين ينصت الى آراء الآخرين وكأنه يفعل ذلك فسي كياسة وذوق ، وفي تملل وعدم صبر . من بعد كان يعطي أوامره الباتة وتعليماته القاطعة . قدرته كانت هائلة وسيطرته على الانشاء والتركيب كانت باهظة تبعث الآخرين على الارهاق . كان يعمل بلا كلل وكان يفرض هذا النسق السريع المتواصل على رفاقه . لقد تكونت لي فكرة دائمة عنه الا وهي انه آلة كبيرة للفكر السياسي في تلك الاوقات .

لقد كان له نحوي دوما شعور خاص جدا بالتفهم والمراعاة . لقد كان هذا الايطالي المهاجر النغمي فيما هو مدني ، انسانيا بشكسل فائض ، ذا شعور عميق وحس فني يجعلانه يتفهم نقاط الضعف في رجال الثقافة ، ولكن هذا ما كان ليمنعه من ان يكون عديم الشفقة - وأحيانا نحسا - في الحياة السياسية .

كان منزعجا منشغلا ، قال لي ، بسبب عدم تفهم (بريستيس) لموقفه المعادي للديكتاتورية «البيرونية» . فقد كان (كودوفيا) يعتقد ان (بيرون) وحركته كانا امتدادا للفاشية الاوروبية . ولا اي انسان معاد للفاشية يمكن له ان يقبل بتضخم «بيرون» وبنشاطاته المتكررة في القمع والاستبداد . كان (كودوفيا) والحزب الشيوعي الارجنطيني وبساريون آخرون يفكرون في تلك الفترة ان الجواب الوحيد على (بيرون) هو العصيان .

(كودوفيا) كان يريد ان اتكلم انا في هذا الموضوع مع (بريستيس) . ليس هذا بمهمة يجب عليك تأديتها ، قال لي . لكنني شعرت بأنه كان منشغلا في اطار هذه الثقة بالنفس التي كانت تميزه .

بعد المهرجان السياسي الذي جرى في «باكيامبو» تحدثت مطولا مع (بريستيس) . لم يكن ممكنا العثور على رجلين مختلفين متناقضين اكثر منهما . الايطالي - الارجنطيني الضخم الطافح كان دائما يشغل الفرفة كلها ، الطاولة بأسرها ، الجو بكامله . (بريستيس) الضامر الزاهد كان جد هس الى حد ان هبة ريح كانت تستطيع ان تحمله عبر النافذة .

غير اني وجدت من وراء المظاهر رجلين صلبين جدا لا يختلف احدهما

عن الآخر في صلابته وعناده .

«ليس ثمة من فاشية في الأرجنتين ، ان (بيرون) هو قائد وليس زعيما فاشيستيا» قال لي (بريستيس) مجيبا على استلتي . «اين هي القمصان البنية ؟ القمصان السوداء ؟ المليشيا الفاشيستية ؟» .

«زد على هذا ، ان (كودوفيا) يخطيء . يقول (لينين) انه لا يمكن اللعب بالعصيان . ولا يمكن ان تعلن حرب بدون جنود ، اذا كان لا يعتمد فيها الا على المرتجلين العقويين» .

كان الرجلان المختلفان جدا في أعماقهما متشابهين في انهما لا يمكن اقناعهما . احدهما ، بشكل محتمل (بريستيس) ، كان له الحق في هذه الاشياء لكن اعتقادية كليهما ، اعتقادية هذين الثوريين المستحقين للاعجاب كانت تثير حولهما بشكل دائم جوا انا كنت اجده خائفا .

يجب عليّ ان اضيف هنا ان (كودوفيللا) كان رجلا حيويا . بالنسبة لي فقد كانت تعجبني جدا محاربته للحنمية وتصنع الحياء و «البوريتانية» (١١٢) لفترة شيوعية . كان (لافيتره) (رجلنا التشيلي العظيم جدا في تلك الاوقات القديمة المتعصبة المتحيزة ، ضد «الكحولية» حتى الهوس . كان (لا فيتره) العجوز يقبع (١١٣) كذلك في كل لحظة ضد الحب والعلاقات الغرامية التي كانت تنشأ خارج «حكم الشرع» (١١٤) بين رفاق الحزب ورفيقاتهم . كان (كودوفيللا) يهزم معلمنا المحدود بما له من سعة حيوية .

١١٢ - البوريتانية : هي مذهب التمهيص والتمسك بالدين ، يمكن ترجمتها بـ الحنيلة .

١١٣ - يقبع : قبع الخنزير اي دمدم وممهم .

١١٤ - حكم الشرع : في الاصل Registro Civil اي السجل المدني .

(ستالين)

ان كثيرا من الناس قد اعتقدوا في اني سياسي مهم ، او اني كنت ذلك السياسي . لست أدري من اين خرجت هذه الاسطورة الشهيرة جدا . ذات مرة رايت ، صدفة ، صورة لي صغيرة مثل صور الطوابع ، في صفحة من صفحات مجلة Life . كانت هذه المجلة تعرض على قرائها صور قادة الشيوعية العالمية . لقد بدت لي صورتي المحشورة بين صورة (بريستيس) وصورة (ماو تسي تونغ) فكاهة مسلية ، غير اني ما اوضحت انا لقراء المجلة شيئا لاني دائما كنت اكره رسائل الاستدراك او الاحتجاج التي تبعث عادة الى الصحف لتوضيح امر او آخر . كذلك كان شيئا لطيفا ان اترك C.I.A (١١٥) على خطتها مع ان لها في العالم اكثر من خمسة ملايين من العملاء والمخبرين .

ان اطول اتصال قمت به مع زعيم قطب في العالم الاشتراكي جرى خلال زيارتي للصين حين تبادلت مع (ماوتسي تونغ) في مجرى احتفال ، شرب الانخاب . عندما تلامست كأسانا نظر السّي بعينين مبتسمتين وبابنسامة عريضة واسعة بين لطيفة ومستهزئة ، احتفظ بيدي في يده حين سلم عليّ ، ضافطا عليها خلال بضع ثوان اكثر مما هو معتاد عليه . من بعد عدت الى المائدة لاجلس في مكاني .

ابدا ما شاهدت اثناء زياراتي الكثرة للاتحاد السوفييتي لا (مولوتوف) (١١٦) ولا (فيسهيونسكي) ولا (بريا) (١١٧) ولا حتى (ميكويان) ، ولا (ليتفيتسوف) وهذان الاخيران هما شخصيتان اجتماعيتان اكثر من غيرهما وأقل غموضا من الآخرين .

١١٥ - ادارة الاستخبارات الامريكية .

١١٦ - مولوتوف : سياسي سوفييتي ولد عام ١٨٩٠ .

١١٧ - بريا : سياسي سوفييتي مشهور (١٨٩٩ - ١٩٥٣) .

اما (ستالين) فقد لمحته اكثر من مرة ، ودوما في النقطة نفسها :
المنصة التي تعلو فوق الساحة الحمراء وتفص بالقادة السوفييت ذوي
المناصب العالية ، سواء في الاول من ايار او في السابع من تشرين الثاني
كل عام . لقد قضيت ساعات طويلة في «الكريملين» بصفتي عضوا في
اللجنة المحكمة لمنح الجائزة التي كانت تحمل اسم (ستالين) دون ان
نتواجه البتة ، في ممر ، ودون ان يأتي هو ليزورنا خلال مداولاتنا او
ولاثمننا او ان يدعونا ليجيئنا . لقد منحت الجوائز دوما باجماع الاصوات
لكن كان يسبق الاقتراع نقاش مغلوق لاختيار المرشح . لقد كان لـ «لدي»
الانطباع بأن شخصا ما من امانة سر اللجنة المحكمة كان يعدو بما كنا نتفق
عليه ، قبل اتخاذ القرارات النهائية ، ليرى فيما اذا كان الرجل الكبير
يصادق عليها ام لا . لكن لا اذكر مطلقا انه كان ثمة اعتراض او اية ممانعة
من قبله ، ولا اذكر كذلك انه ، على الرغم من قرب المحسوس منا ، كان
يشعر بأنه يعلم بوجودنا . لقد كان (ستالين) بشكل مقرر يزور الغموض
كمنهاج يتخذه ، او انه كان هيبا كبيرا ، رجلا سجين نفسه . ربما يمكن
ارجاع هذه الميزة الى التأثير المسيطر الذي كان (بيريا) عليه . لقد كان
(بيريا) هو الوحيد الذي يدخل ويخرج ، دون اعلام مسبق ، الى غرف
(ستالين) .

بيد انه كان لي في مناسبة ما علاقة غير متوقعة ، ما زالت تبدو لي
حتى الآن غريبة ، مع رجل «الكريملين» الغامض . كنا نروح في صحبة
آل (اراغون) - (لويس) و(ايلسا) - في طريقنا الى موسكو لنشارك في
اجتماع اللجنة المحكمة التي كان عليها ان تتداول في منح جائزة (ستالين)
لذلك العام . فأوقفنا في «فرصوفيا» عواصف ثلجية هائجة هائلة .
فعرفنا اننا لن نصل الى «موسكو» في الوقت المحدد . احد مرافقينا
السوفييت تكلف بارسال اسماء المرشحين الذين انا و(اراغون) كنا قد
اخترناهم ، برقا باللغة الروسية الى «موسكو» . على فكرة ، هذه الاسماء
قد ووفق عليها في الاجتماع . لكن ما هو غريب حقا في هذا الامر ان
السوفييتي الذي تلقى الاجابة على ذلك هاتفيا ، اخذني جانبا وقال لي على
حين غرة :

— اهنك ، ايها الرفيق (نيرودا) . ان الرفيق (ستالين) حين قدمت

اليه قائمة المرشحين للفوز بالجائزة صرح متسائلا : «ولماذا اسم (نيرودا) ليس بين هذه الاسماء ؟» .

في العام التالي استلمت انا جائزة (ستالين) للسلام والصدقة بين الشعوب . ربما اني كنت استحقها عن جدارة لكنني اتساءل كيف علم ذلك الرجل النائي بوجودي ؟ .

عرفت في تلكم الاوقات بتدخلات مشابهة لستالين . حين كانت تتفاقم الحملة ضد «الكونية» El Cosmopolitismo ، حين كان المتحزبون ذوو «العنق القاسي» يطالبون برأس (ايهرينبورغ) رن جرس الهاتف ذات صباح في منزل مؤلف «خوليو خورنيتو» فردت على النداء (لوبا) صوت غير معروف بشكل غامض ، سأل :

— اموجود (اليا غريغوريفيتش) ؟

— من حضرتك ؟ اجابت (لوبا) .

— هنا (ستالين) — قال الصوت .

— يا (اليا) ، ثمة رجل يمزح يريد التكلم معك — قالت (لوبا) (ايهرينبورغ) .

لكن حين اخذ الهاتف عرف الكاتب انه صوت (ستالين) المسموع جدا من لدن الناس جميعهم :

— لقد قضيت الليلة وانا اقرا كتابك «سقوط باريس» la caída de Paris . فأحببت ان اتصل بك كي اقول لك ان تظل مستمرا على كتابة مثل هذه الكتب المهمة جدا ، ايها العزيز (اليا غريغوريفيتش) .

قد تكون هذه المكالمات الهاتفية غير المتوقعة قد جعلت حياة (ايهرينبورغ) العظيم تطول .

مثال آخر . كان (ماياكوفيسكي) قد مات ، لكن أعداءه الرجعيين العنيدون كانوا يهاجمون ذكرى الشاعر بأنساب وبسكاكين ، مصممين مصرين على محوه من خارطة الادب السوفييتي . حينذاك حدث امر غير كل ما يتوه وافترضوه . كتبت حبيبته (ليلي بريك) رسالة الى (ستالين) تشير له فيها الى ما هو مخجل وعار في تلك التهجمات وتدافع بشكل مؤثر عن شعر (ماياكوفيسكي) . كان المعتدون يظنون انهم لن يعاقبوا على فعلتهم محميين بتأليبهم الجماعي . فاصيبوا بخيبة امل . لقد كتب «ستالين» على هامش رسالة (بريك) : «ان (ماياكوفيسكي) لهو احسن شاعر في العهد السوفييتي» .

منذ تلك اللحظة اخذت تبني المتاحف وتقام النصب التذكارية تكريما لـ (ماياكوفيسكي) وتكاثرت طبعات دواوين شعره الفاخر جدا . فصعق المخرصون وخمدوا امام نفخة (يهوه) في الصور .

علمت كذلك انه حين مات (ستالين) عشروا بين اوراقه على قائمة اسماء كتب عليها «ممنوع اللمس» ، بخط يده . في رأس هذه القائمة كان اسم الموسيقي (شيوكاكوفيتش) (١١٨) ثم تلو اسماء شهيرة اخرى . (ايسنتستين) (١١٩) ، (باسترناك) ، (ايهرنبورغ) ، الخ .

ان الكثيرين ظنوا اني ستاليني مقتنع . لقد صورني الفاشيسون والرجعيون على اني مفسر غنائي لستالين . لا شيء من هذا يفضبنسي ويزعجني . ان الاستنتاجات كلها ممكنة في عهد مشوش بشكل شيطاني .

ان المأساة الذاتية بالنسبة لنا نحن الشيوعيين كانت هي اننا ادركنا انه ، في نواح عديدة من مشكلة ستالين كان للعدو الحق . لقد تلت هذا الكشف الذي هز النفس حالة وعي اليمة . بعض الشيوعيين شعر انه كان

١١٨ - شيوكاكوفيتش : مؤلف موسيقي سوفييتي ولد عام ١٩٠٦ .

١١٩ - ايسنتستين : مخرج سينمائي سوفييتي (١٨٩٨ - ١٩٤٨) .

مخدوعا فقبل في عنف ، منطق العدو وعبر الى صفوفه . آخرون اعتقدوا ان الاحداث الرهيبة المفزعة التي كشف عنها **المؤتمر العشرون** بشكل غير رحيم تفيد في ان تبرهن على نزاهة حزب شيوعي أنقلد نفسه وهو يثري العالم الحقيقة التاريخية وهو يقبل مسؤوليته الذاتية .

ان كان فعلا ان هذه المسؤولية تقع علينا جميعا ، فان فضح تلك الجرائم كان يعيدنا الى النقد الذاتي والتحليل وهما مادتان جوهريتان في مذهبنا . كان هذا يعطينا الاسلحة كي نمنع ان تتكرر مثل هذه الاشياء الرهيبة جدا .

هذا كان موقفي : على الرغم من دياجير عهد (ستالين) ، التي لم اكن أعرفها كان يبرز امام عيني (ستالين) الاول ، رجل مبدئي ، طيب ، دمث ، قانع مثل زاهد ، مدافع جبار عن الثورة الروسية . بالاضافة الى هذا كان ذاك الرجل القصير ذو الشاربين الكبيرين قد اصبح عملاقا في الحرب ، فقد اقتحم الجيش الاحمر واسم (ستالين) على كل شفة ، حصن الابالسة الهتلريين فجعله غبارا .

بيد اني ، كتبت قصيدة واحدة اهديتها الى هذه الشخصية القديرة وكان ذلك في موته . يستطيع من يشاء ان يعثر عليها في اعماله الكاملة . ان موت مارد «الكريملين» كان له وقع دولي . فلقد اهتزت الغابة الانسانية له . قصيدتي هذه التقطت مشاعر ذاك الهلع الأرضي .

درس في التواضع

لقد باح لي (غابرييل غارثيا ماركيث) ، وهو يشعر بإهانة كبيرة ، كيف انهم حذفوا في موسكو بعض العبارات الغرامية من كتابه الرائع «مائة سنة في الوحدة» .

— ان هذا لسيء جدا — قلت انا للناشرين .

— لكن الكتاب لا يفقد شيئا — اجابوني ، وانا ادركت بانهم كانوا

قد شذّبوه من غير نية سيئة . لكنهم شذّبوه .

كيف يتم اصلاح هذه الاشياء ؟ انني في كل مرة أصبح أقل علما في المجتمع . خارج مبادئ الماركسية العامة ، خارج كراهيتي للرأسمالية وثقتي في الاشتراكية ، كل مرة أغدو أقل فهما لتناقض الانسانية العنيد.

كان علينا نحن شعراء هذه الفترة ان نختار . لم يكن الاختيار سريرا من ورود . لقد أصبحت الحروب الرهيبة الظالمة ، الاضطهاد المستمر ، ظلم المال واعتدائه ، المظالم كلها ، أكثر امعانا ووضوحا . لقد كانت صنّاعات النظام الهرم هي «الحرية» المشروطة ، الناحية الجنسية ، العنف والملذات المدفوعة على اقساط شهرية مريحة .

لقد بحث شاعر الحاضر عن مخرج من قلقه . بعضهم التجأ البسي لصوفية او نحو حلم العقل . بعضهم الآخر يشعر انه مفتون بالعنف العفوي المهدم للشباب ، فعبر ليصير «تلقائيا» immediatista دون الاخذ بعين الاعتبار ان هذه التجربة ، في العام الحالي الحربي ، قد أدت دوما الى القمع والتعذيب الجسدي العقيم .

لقد وجدت في حزبي ، الحزب الشيوعي التشيلي ، مجموعة كبيرة من اناس متواضعين كانوا قد نحوا جانبا الغرور الشخصي ، حب الزعامة ، المصالح المادية . شعرت بأنني سعيد في معرفة اناس متواضعين يناضلون في سبيل التواضع العام اي في سبيل العدالة .

قط لم تكن لي من مصاعب مع حزبي الذي بتواضعه توصل الى تحقيق انتصارات عظيمة لشعب تشيلي ، شعبي . ماذا استطيع ان اقول أكثر من هذا ؟ اني لا اطمح الا الى ان اكون جد متواضع مثل رفاقي ، جد مثابر وغير قابل للهزيمة كما هم عليه . ابدا لا يتعلم المرء ما فيه الكفاية من التواضع . قط ما علمني شيئا الافتخار الشخصي الذي يتحصن «المذهب الارتياحي» el escepticismo كي لا يتضامن مع العذاب الانساني .

بعد أسبوعين من دخوله المنتصر الى «لا هافانا» وصل (فيديل كاسترو) الى «كاراكاس» في زيارة قصيرة . لقد جاء ليشكر علنا الحكومة والشعب الفنزويليين على المساعدة التي كانت «فينزويلا» قد قدمتها له . هذه المساعدة كانت عبارة عن اسلحة لقواته ولم يكن ، طبعاً ، (بيتانكورت ١٢١) (المنتخب حديثاً رئيساً للجمهورية) من أمده بهذه المساعدة بل كان امير البحر (وولفغانغ لارازابال) . لقد كان (لارازابال) صديق الحركات اليسارية الفينزويلية بما فيها الحزب الشيوعي فلبى مطلب التضامن مع كوبا ، الذي وجهه اليه هؤلاء اليساريون .

لقد رأيت في حياتي قليلا من الاستقبالات السياسية الحماسية جدا مثل الاستقبال الذي خص به الفينزويليون هذا الشاب المنتصر في الثورة الكوبية . لقد تكلم (فيديل كاسترو) خلال اربع ساعات مستمرة فسي الساحة الكبرى المسماة « ال سيلنثيو » (١٢٢) وهي قلب «كاراكاس» . انا كنت واحدا من المائتي الف شخص الذين استمعوا وهم واقفون على أرجلهم بدون نبس الى ذلك الخطاب الطويل . بالنسبة لي كما بالنسبة لآخرين كثيرين كانت خطب (فيديل) وحيا وتنزيلا . حين كنت اسمعه يتكلم امام ذاك الحشد الفقير ، أدركت ان عهدا جديدا قد بدأ بالنسبة لأمريكا اللاتينية . لقد أعجبت بجدة لفته . لقد اعتاد احسن القادة النقابيين والسياسيين على هرس صيغ قد يكون محتواها ذا قيمة لكنها كلمات مستهلكة وهنة من كثرة التكرار . لقد كان (فيديل) يتجاهل مثل هذه الصيغ . لفته كانت طبيعية تعليمية . كان يبدو وكأنه هو نفسه يتعلم فيما كان يتكلم ويعلم .

لم يكن الرئيس (بيتانكورت) يحاضر في الاحتفال . كانت ترهبه فكرة

١٢٠ - فيديل كاسترو : الزعيم الكوبي المعروف ولد عام ١٩٢٦ .

١٢١ - بيتانكورت : سياسي فنزويلي ولد عام ١٩٠٨ .

١٢٢ - سيلنثيو : معناها السكون .

ان يتواجه وشعب « كاراكاس » اذ لم يكن فيها شعبيا ابدا . كل مرة كان (فيديل كاسترو) يذكر فيها اسمه في خطابه كانت تسمع توا تصفيرات واستنكارات التي كانت يدا (فيديل) تحاولان تهدئتها . انا اظن ان ذلك اليوم قد وضع ختما نهائيا لعداوة استفحلت شيئا فشيئا بين (بيتانكورث) والثوري الكوبي . لم يكن (فيديل) ماركسيا ولا شيوعيا في ذلك الوقت ، كلماته نفسها كانت تنأى كثيرا عن هذا الموقف السياسي . ان رايسي الشخصي هو ان ذلك الخطاب ، شخصية (فيديل) اللامعة والحماسية الجماهيرية التي كانت تنبعث . الشفف الذي ابداه شعب «كاراكاس» حين كان ينصب اليه ، احزنت كل هذه الاشياء قلب (بيتانكورث) وهو سياسي ذو أسلوب عتيق ، ذو بلاغة ، رجل محافل واجتماعات سرية . منذ ذلك الحين و(بيتانكورث) يمقت في حق لا يرحم كل حكاية تجعله يشتم من قريب او بعيد رائحة (فيديل كاسترو) او الثورة الكوبية .

في اليوم التالي لذلك المهرجان السياسي ، حين كنت انا في الريف اقوم بنزهة يوم الاحد وصلت الينا بعض الدراجات النارية كانت تحضر لي دعوة الى السفارة الكوبية . كانوا قد بحثوا عني طيلة النهار كله دون ان يعثروا عليّ وفي النهاية اكتشفوا موضعي . كان الاستقبال سيجري في مساء ذات اليوم نفسه . (ماتيلده) وأنا اتجهنا مباشرة الى مقر السفارة . كان المدعوون جد كثيرين الى درجة انهم كانوا يتجاوزون سعة القاعات والحدائق ، في الخارج كان الشعب يتزاحم وكان صعبا جدا اجتياز الشوارع التي تؤدي الى مقر السفارة .

تخطينا قاعات مزدحمة بالناس ، متراسا من اذرع تحمل كؤوس «كوكتيل» كانت ترتفع فنعب . اخذنا شخص ما عبر دهايز وسلالم الى طابق آخر . في مكان مفاجيء كانت تنتظرنا (ثيليا Celia) صديقة (فيديل) وسكرتيته واقرب الناس اليه . (ماتيلده) بقيت معها . اما انا فقد ادخلوني الى الغرفة المجاورة . وجدت نفسي في غرفة نوم اضافية كأنها غرفة نوم بستانى او سائق . لم يكن ثمة غير سرير واحد يبدو ان احد الاشخاص كان نائما عليه فنهض منه في استعجال تاركا الشراشف في

فوضى والمخدة (١٢٢) على الارض . ثمة طاولة سرير صغيرة ولا شيء آخر . ظننت انهم من هناك سيأخذوني الى قوينة لائقة كي أقابل القائد . لكن هذا لم يكن هكذا اذ فتح الباب على حين غرة واذا (فيديل كاسترو) يملأ الفراغ بقامته .

كان اطول مني براس . اتجه نحوي بخطى سريعة .

— مرحبا ، (بابلو) — قال لي وغمرني بذراع شادة ضاغطة .

لقد فاجاني صوته النحيل الرقيق ، الطفولي تقريبا . كذلك شيء في منظره كان يتطابق مع لحن صوته . لم يكن (فيديل) يعطي الانطباع بأنه رجل كبير ، بل طفل صغير كانت قد تطاولت فجأة سافاه دون ان يفقد وجهه وجه فتى ، ولحيته الضئيلة ، ذقن مراهق .

ترك ذراعه عني في فظاظة وخشونة . ثم ظل كمن لدعته الكهرباء . دار نصف دورة واتجه عازما حازما نحو ركن في الغرفة . دون انتبه انا كان قد دخل في خفوت مصور صحفي ومن هذا الركن اخذ يوجه آلتة التصويرية نحونا . (فيديل) انقضّ عليه دفعة واحدة . رأيتة وهو يمسك به من خناقه ويهزه فسقطت آلة التصوير على الارض . اقتربت من (فيديل) وأخذته من ذراعه وقد فزعت حين رأيت المصور الضئيل يكافح بلا جدوى ويحاول ان يتملص منه ويتخلص . غير ان (فيديل) قذف به نحو الباب واجبره على الاختفاء . من بعد التفت اليّ مبتسما ، التقط آلة التصوير من الارض ورمها فوق السرير .

لم نتكلم عن الحادثة بل عن امكانات انشاء وكالة انباء لامريكا بأسرها . يظهر لي انه من جراء تلك الحادثة الثنائية ولدت وكالة « الصحافة اللاتينية » . من بعد كل واحد منا خرج من باب ليعود الى الاستقبال .

١٢٢ — المخدة : هكذا في الاصل Almohada . عن العربية

بعد ساعة على ذلك ، حين كنت اعود من السفارة في صحبة (ماتيلده) رجع الى مخيلتي وجه ذاك الصحفي المروع والسرعة الغريزية لرئيس حرب العصابات الذي انتبه الى وصول الدخيل الخفوت من وراء ظهرنا .

هذا كان اول لقاء لي مع (فيديل كاسترو) . لماذا رفض بشكل قاطع تلك التصويرة ؟ اكان رفضه يتضمن سرا سياسيا صغيرا ؟ الى الآن لم استطع ان اتوصل الى فهم ، لاي سبب كانت مقابلتنا يجب ان تتسم في جو ذي طابع سري جدا .

كان اول لقاء لي مع (نشي غيفارا) مختلفا جدا . جرى اللقاء فسي «لا هافانا» . وصلت لأراه في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، تقريبا، وقد دعاني لزيارته في مكتبه بوزارة المالية او الاقتصاد ، لا اذكر الآن على وجه الدقة . مع انه كان قد حدد لي منتصف الليل ، انا وصلت متأخرا. كنت احضر اجتماعا رسميا واجلسوني في المنصة فلم أستطع المغادرة .

كان «نشي» ينتعل جزمة ، ويرتدي زيا عسكريا للميدان ويتمنطق بحزام فيه مسدسان . كان نمط لباسه هذا لا يتسق وجو المكتب المصرفي .

كان (نشي) اسمر ، متمهلا في الكلام ، ذا نبرة ارجنتينية واضحة . كان رجلا يصلح الحديث معه في ترو، بسهولة «بامبا» Pampa بين «ماته» (١٢٤) و«ماته» . جملة كانت قصيرة موجزة تقضب في ابتسامة كما لو انه يترك التعليق معلقا في الهواء .

لقد لد لي ما قاله لي عن كتابي «النشيد العام» . كان يعتاد قراءته ليلا على رجاله المحاربين في «لا سيرا مايسترا» . الآن ، بعد ان مرت

١٢٤ - ماته : كنا قد اشرنا الى انه نوع من الشاي يشربه الامريكيون اللاتينيون والمعتربون العرب العائدون الى وطنهم العربي من امريكا اللاتينة .

١٢٥ - ريجيس دو بريه : هو الصحفي الفرنسي الذي رافق (نشي غيفارا) في «بوليفيا»

سم سجن هناك .

السنون ، أقشعرّ حين أفكر ان اشعاري رافقته كذلك في موته . عن طريق (ريجيس دوبسري) (١٢٥) عرفت انه في جبال «بوليفيا» احتفظ حتى آخر لحظة في زوادته بكتابين لا غير وهما : كتاب في علم الرياضيات وكتابي «النشيد العام» .

لقد قال لي (تشي) تلك الليلة شيئاً بلبني كثيرا ولكنه ممن ناحية يفسر مصيره الذي آل اليه . كان نظره يشرذ عني نحو النافذة المعتمدة لذلك البناء المصرفي . كنا نتكلم عن احتمال غزو امريكي شمالي لكوبا . انا كنت قد شاهدت في شوارع «لا هافانا» اكياس رمل منتشرة في نقاط استراتيجية . هو قال لي بشكل مفاجيء :

— الحرب ... الحرب نحن دوما ضد الحرب ، اما وقد قمنا بها فنحن لا نستطيع الحياة بدون الحرب في كل لحظة نريد ان نعود اليها .

كان يفكر في صوت عال ويخاطبني . انا استمعت اليه في زهول صريح واضح . بالنسبة لي الحرب هي تهديد وليست بمصير .

ودعته وما عدت فرايته من بعد قط . من بعد جرت معركته التي خاضها في الغابة البوليفية وانتهت بموته المأساوي . لكنني ما زلت ارى في (تشي غيفارا) ذاك الرجل المتأمل المفكر الذي خصص دوما فسي معاركه البطولية ، ازاء الاسلحة ، مكانا للشعر .

ان كلمة «أمل» تعجب كثيرا امريكا اللاتينية . يطيب لنا ان تسمى قارتنا «قارة الامل» . لو ان المرشحين للنيابة ، لعضوية مجالس الشيوخ ، للرئاسة ، يسمون انفسهم «مرشحي الامل» .

في الواقع ان هذا الامل هو شيء هكذا مثل الفردوس الموعود ، وعد بالدفع ، اداؤه يتأجل دوما . يؤجل الى المرحلة التشريعية القادمة ، الى السنة القادمة او القرن القادم .

حين نشبت الثورة الكوبية حدثت لملايين من الامريكيين الجنوبيين لحظة فجائية . ما كانوا اول الامر يصدقون ما كانوا يسمعون . لم يكن

هذا مكتوبا في اسفار قارة قد عاشت وهي تفكر بياس في الامل .

واذ ، على حين غرة ، (فيديل كاسترو) وهو كوبي لم يكن احد :
قبل يعرفه ، يمسك بالامل من شعره او من قدميه ولا يسمح له ان يفلت
من بين يديه بل يجلسه في مائدة او دارة شعوب امريكا .

منذ ذلك الحين الى الآن تقدمنا كثيرا في طريق الامل هذا الذي
غدا واقعا حيا . لكننا نحيا والروح في خيط (١٢٦) . بلد مجاور ، جـ سـ
قدير وجد امبريالي ، يريد سحق كوبا مع الامل ومع كل شيء . تفـ ا
جماهير امريكا الصحف كل يوم ، تنصت الى الاذاعات كل ليلة . تتنفس
هذه الجماهير الصعداء . كوبا توجد ، يوما آخر ، سنة اخرى . نصف
عقد آخر (١٢٧) . لم يقطع راس املنا ، لن يقطع .

رسالة الكوبيين

منذ زمن والكتاب البيرويين ، الذين لي بينهم اصدقاء كثر اعتمد
عليهم دوما ، كانوا يضغطون كي يمنحني بلدهم وساما رسميا . اعترف ان
الوسمة بدت لي دائما الى حد ما مضحكة . ان الوسمة القليلة التي املكها
هي اوسمة علقت على صدري بدون اية محبة ، على مهام أديتها ، بسبب
اعمال قنصلية قمت بها اي بسبب لياقة او عادة مألوفة . مرت ذات
يوم بـ «ليما» فأصر (ثيرو اليغريا) (١٢٨) الروائي الكبير صاحب رواية
« الكلاب الجياع » السذي كان اذاك رئيس الكتاب البيرويين ،
على ان يمنحني بلده وساما آنذاك . كانت قصيدتي « مرتفعات
«ماكتشو بيكتشو» » قد صارت جزءا من الحياة البيروية ، ربما انسي

١٢٦ - الروح في خيط : تعبير اسباني بمعنى الجوع والهلع .

١٢٧ - في الاصل كلمة واحدة وهي *lustro* تعني مدة خمس سنين ، نقترح ان
ترجم الى العربية بكلمة خاموس .

١٢٨ - ثيرو اليغريا : روائي وشاعر من البيرو ١٩٠٩ - ١٩٦٧ .

استطعت ان اعبر في أبياتها عن بعض المشاعر التي كانت ترقد نائمة مثل حجارة لبناء عظيم . اصف الى هذا ان الرئيس البيروي لذات الوقت وهو المهندس المعماري (بيلاونده) (١٢٩) كان صديقي وقارئي . مع ان الثورة التي طردته من بلده فيما بعد ، وهبت البيرو حكومة ، بشكل غير متوقع منفتحة في طرق التاريخ الجديدة ، فاني ما زلت أعتقد ان المهندس المعماري (بيلاونده) كان رجلا ذا عفة نفس ليس تمحى ، انهمك في اعمال باطللة نوعا ما قادت في النهاية به الى ان يصبح معزولا عن الواقع الرهيب وان يغدو مفصولا عن شعبه الذي كان هو يحبه بشكل عميق .

قبلت ان امنح وساما ، هذه المرة ليس بسبب خدماتي القنصلية بل بسبب قصيدة واحدة من قصائدي . بالاضافة الى هذا وليس هو بالامر الاقل شأنا ، كانت لما تزل بن شعب «تشيلي» وشعب «بيرو» جراح لم ترقا . ليس الرياضيون والديبلوماسيون والسياسيون هم وحدهم من يجب عليهم ان يعملوا على ايقاف نزيف دماء الماضي بل كذلك ، وفي حق اكثر ، الشعراء الذين حدود ارواحهم اقل من حدود ارواح الآخرين .

في تلك الفترة نفسها قمت بسفر الى الولايات المتحدة . كان الامر يتعلق بمؤتمر عالمي « نادي القلم » (١٣٠) . من بين المدعوين اليه كان اصدقائي : (آرثر ميلر) (١٣١) الارجنطينيان (ايرنستو ساباتو) و (فيكتوريسا اوكامبو) ، الناقد الاورغواياني (امير رودريغيث مونيغال) ، الروائي المكسيكي (كارلوس فوينتيس) . كذلك شارك كتاب من بلدان اوروبا الاشتراكية كلها تقريبا .

بلغت كذلك حين وصولي ان الكتاب الكوبيين كانوا مدعوين ايضا .

١٢٩ - بيلاونده : سياسي من البيرو . كان رئيسا للأمم المتحدة ، الجمعية العامة (١٨٨٣ - ١٩٦٦) .

١٣٠ - نادي القلم : كنا قد اقمنا الى انه ناد يجمع الادباء الامبرياليين والصهيونيين .

١٣١ - آرثر ميلر : كاتب مسرحي امريكي شمالي ولد عام ١٩١٥ .

كان أعضاء « نادي القلم » مندهشين لان (كاربينتيير ١٣٢) لم يكن قد وصل ، فطلبوا مني ان أستعلم عن الامر ، فتوجهت الى ممثل وكالة « الصحافة اللاتينية » في نيويورك الذي تفضل فسمح لي ان ارسل برقية من وكالته الى (كاربينتيير) .

كان الجواب الذي جاء من طريق وكالة « الصحافة اللاتينية » هو ان (كاربينتيير) لم يستطع المجيء لان الدعوة وصلته متأخرة جدا وان تأشيرة الدخول الامريكية لم تكن جاهزة . احد ما كان يكذب في هذه المناسبة : كانت التأشيرات قد منحت منذ ثلاثة اشهر ومنذ ثلاثة اشهر كذلك كانوا يعرفون بالدعوة وقد قبلوها . يفهم من هذا ان امرا بالتغيب صدر من جهة عليا في آخر ساعة .

انا أدت اشغالي الدائمة . القيت قراءتي الشعرية الاولى في نيويورك بمكان فسيح جدا امتلأ الى درجة انهم اضطروا الى وضع شاشات تلفزة خارج المسرح كي يرى ويسمع آلاف الناس الذين ما استطاعوا الدخول . لقد اثر بي الوقع الذي أحدثته قصائدي ، المعادية للامبريالية في عنف ، في هذا الحشد من الامريكيين الشماليين . لقد ادركت اشياء كثيرة هناك في « واشنطن » وفي « كاليفورنيا » حين اخذ الطلبة والعوام يعبرون عن استحسانهم لكلماتي التي تدين الامبريالية . تأكدت عن كثب ان الاعداء الامريكيين الشماليين لشعوبنا هم كذلك على حد سواء اعداء الشعب الامريكي الشمالي .

اجروا معي بعض المقابلات الصحفية . ان مجلة Life التي تصدر بالقشتالية (١٣٣) والتي يشرف عليها امريكيون لاتينيون دخلاء قد تعسفت في آرائي وبترتها . لم يستدركوا حين طلبت منهم ذلك . لكن الامر لم يكن شيئا خطيرا . ان ما حذفوه كان فقرة أدين بها الحرب في الفيتنام

١٣٢ - كاربينتيير : روائي كوبي ولد عام ١٩٠٤ .

١٣٣ - القشتالية: تسمى اللغة الاسبانية كذلك بالقشتالية Castellano ، وهي لسمية اكثر دقة نظرا لوحود عدة لغات اخرى في اسبانيا .

وفقرة أخرى حول زعيم أسود اغتيل في تلك الايام . فقط بعد سنوات شهدت الصحفية التي اجرت المقابلة ان المقابلة قد خضعت للمراقبة .

عرفت خلال زيارتي - وهذا يشرف زملائي الكتاب الامريكيين الشماليين - انهم مارسوا ضغطا قويا كي امنح تأشيرة دخول الى الولايات المتحدة . يبدو لي انهم وصلوا الى حد انهم هددوا «مكتب الدولة» باصدار استنكار علني يتخذه اعضاء «نادي القلم» ان استمروا على رفضهم باعطائي تأشيرة الدخول . في اجتماع عام كانت فيه تستلم وساما الشخصية الاكثر احتراما واعتبارا في الشعر الامريكي الشمالي الا وهي الشاعرة العجوز (ماريانه مور) التي مانت بعد نهور من ذلك التاريخ ، تناولت هي الكلمة لتعلن عن بهجتها بأن دخولي الشرعي الى البلد قد تحقق بفضل وحسنة الشعراء . لقد حكوا لي بان كلماتها المرتجة المؤثرة قد قوبلت بتصفيق حاد وهتاف عال .

ما هو اكيد وما لم يسبق اليه هو اني ، بعد هذه الجولة المتميزة بفعالياتي السياسية ونشاطي الشعري المكافح ، وبعد ان قمت في الدفاع عن الثورة الكوبية ودعمها اثناء القسم الاكبر من جولتي هذه ومن نشاطي هذا ، تلقيت ما ان عدت الى تشيلي رسالة الكتاب الكوبيين الشهيرة الوبيلة الني تهدف الى اتهامي بالانصياع بله بالخيانة . لم أعد أذكر العبارات التي استعملها المدعون العامون في شأني . لكنني استطيع القول بأنهم كانوا ينصبون انفسهم معلمين للثورات ، مؤدبين في السنن التي يجب ان تطبق على كتاب اليسار . بغطرسة وبسلطة لسان وبمداهنة كانوا يحاولون ان يقوّموا من فعاليتي الشعرية والاجتماعية والثورية . ان منحني الوسام على قصيدة «ماكتشو بيكتشو» وحضوري مؤتمر «نادي القلم» وتصريحاتي وقراءاتي الشعرية ، كلماتي واعمال المعادبة للنظام الامريكي الشمالي التي عبرت عنها في قم الدثب (١٣٤) ، كل هذا كان يوضع موضع الشك ، مزيفا او مفترى من لدن الكتاب السابق ذكرهم ، ان كثيرا منهم حديثو الوصول

١٣٤ - في قم الدثب : تعبير اسباني يشبه التعبير العربي بين شدقي الاسد او في عرينه او في جفن الردى .

الى الميدان الثوري ، وكثيرا منهم يتقاضون مكافآت عن حق واستحقاق او عن ظلم واجحاف من الدولة الكوبية الجديدة .

ان هذا العدل من الشتائم قد تضخم بتواقيع اكثر فاكثر طوّل بها في عفوية مشكوك بها من منابر جمعيات كتاب وفنانين . وكلاء مفوضون كانوا يتراكمون من هنا الى هناك في «لا هافانا» بحثا عن تواقيع نقابات مهنية بكامل اعضائها ، لموسيقيين وراقصين وفنانين تشكيليّين . كان ينادي للتوقيع على الفنانين والكتاب العديدين العابرين الذين دعوا الى كوبا في سخاء عظيم فلبوا الدعوة وامنات بهم الفنادق الفخمة ذات الفخفخة والأبهة . بعض الكتاب الذين ظهرت اسمائهم مختومة (١٣٥) على هامش الوثيقة المجحفة أوصل اليّ أخبارا ملفقة : «لم أوقع تلك الرسالة قط ، علمت بمضمونها بعد ان رأيت عليها توقيعى الذي ابدأ ما وضعته» . صديق لـ (خوان مارينيو) قد زعم لي بأن هذا هو ما جرى له كذلك ، مع اني لم استطع التأكد من ذلك كله . لكنني تأكدت من ذلك بالنسبة لآخرين .

لقد كان الموضوع كبة خيوط ، خدروف تلج او تلفيقات عقائدية كان من الضروري جعل الآخرين يعتقدون بها مهما كلف الامر . تمركزت وكالات مختصة في مدريد وباريس وعواصم أخرى ، عكفت على ارسال أعداد من الرسالة الكذوب او طبعها من جديد فخرجت الآلاف من هذه الرسالة ، وبخاصة من مدريد ، في ارساليات بعشرين او ثلاثين نسخة الى كل عنوان وكل شخص . لقد كان مسلما بشكل نحس (١٣٦) استلام هذه الظروف المزخرفة بصور (فرانكو) على الطوابع البريدية وفي ضمنها كان يتهم (بابلو نيرودا) بأنه ضد - ثوري .

١٣٥ - نحب ان نلفت انظار القارئ العربي الى ان (نيرودا) يستعمل هنا كلمات لها معان كثيرة بعضها لطيف والآخر عنيف ، لهذا كلمة مختومة قد تعني كذلك ، مداسة ، او مركولة .

١٣٦ - بشكل نحس : هذه الكلمة بالنص الاسباني قد تعني كذلك : يساري ، كما في العربية ، أسير = أسير .

لا يخصني التحري عن اسباب تلك النوبة (١٢٧) : الزيف السياسي ،
الخور العقائدي ، الاحقاد والاحساد الادبية ، ماذا أدري انا كم من اشياء
دفعت بهؤلاء الكثر لشن معركة ضد رجل واحد . لقد رووا لي من بعد ان
المحررين المتحمسين ، المحرضين والمتصيدين لتواقيع تلك الرسالة الشهيرة
كانوا هم الكتّاب (روبيرتو فيرنانديت ريتامار) و(ادمونسو ديسنويس
و(ليساندرو اوتيرو) . بالنسبة لـ (ديسنويس) ولـ (اوتيرو) لا اذكر اني فد
فراحت لهما شيئا ابدا ولا عرفت لهما شخصا . اما بالنسبة لـ (ريتامار) فبلى .
في «لا هافانا» وفي «باريس» كان يلاحقني بإطرائه وتملقه بشكل مثابر
مواظب . كان يقول لي بأنه كان قد نشر مقدمات متوالية ومقالات تقريرية
حول مؤلفاتي . الحقيقة هي انني ما اعتبرته ابدا بدي قيمة بل اعتبرته
واحدا من هؤلاء الذين يطفون فجأة من السياسيين والادباء في عصرنا .

ربما انهم تصوروا انهم بهذا يسقطون ان يؤذوني او يدمروني كحزبي
ثوري . لكن حين وصلت الى شارع تياتينوس في «سانتياغو» بتشيلي
لمعالجة الموضوع لأول مرة مع اللجنة المركزية للحزب ، وجدت ان لهم
رايهم ، على الاقل من الناحية السياسية .

يتعلق الامر بأول هجوم ضد حزبنا التشيلي . قالوا لي .

كانت تعيش في تلك الاوقات نزعات جدية . كان الشيوعيون
الفنزويليون والمكسيكيون يتنازعون عقائديا مع الكوبيين . من بعد ، في
ظروف مأساوية لكن بشكل ساكن اختلف كذلك البوليفيون .

الحزب الشيوعي التشيلي قرر منحني في احتفال عام مدالبسة
(ريكابرين) التي احدثت حينذاك وخصصت لتمنح الى احسن اعضائه .
لقد كان ذلك جوابا مقنعا . لقد تحمل الحزب الشيوعي التشيلي في ذكاء
تلك الفترة من الاختلافات وأصر على عزمه بتحليل اختلافاتنا داخليا . مع

١٢٧ - النوبة : في الاصل Arrebato ، وهي الكلمة العربية الرباط ، ومن
معانيها بالاندلس العربية ، الهجوم المفاجيء ، ومن معانيها بالاسبانية اليوم ، ما قيدناه .

الزمن امحى كل ظل لهذا النزاع ويوجد الآن بين الحزبين الشيوعيين ، وهما اكثر الاحزاب الشيوعية اهمية في امريكا اللاتينية ، تفاهم واضح وعلاقة اخوية .

اما بالنسبة لي فما زلت انا من كتب كتاب «اغنية مفخرة» . انه لكتاب ما يزال يعجبني . ولا أستطيع ان أنسى اني كنت اول شاعر خصص كتابا بكامله لتمجيد الثورة الكوبية .

اني لادرك ، طبعا ، ان الثورات وبخاصة رجالها ، تقع من حين الى حين في الخطأ وفي الظلم . ان القوانين التي ما كتبت ابدا في الانسانية تُلَفَّ على حد سواء الثوريين وغير الثوريين . لا احد يستطيع ان ينجو من الاخطاء ، نقطة صغيرة عمياء داخل مسيرة كبرى ليس لها من اهمية في سياق قضية كبيرة . لقد ظلت اغني ، احب ، احترم الثورة الكوبية ، شعبها ، أبطالها النبلاء .

لكن كل واحد وله نقطة ضعفه . انا لذيّ نقاط ضعف كثيرة . مثلاً، لا يعجبني ان اتخلي عن الافتخار الذي اشعر به بسبب سلوكي الصلب ، سلوك مناضل ثوري . ربما انه لهذا او لثلمة أخرى في ترهاتي رفضت حتى الآن وسأظل أرفض ان اصافح اي واحد من الذين وقّعوا بوعي او بغير وعي تلك الرسالة التي ستظل تبدو لي وصمة عار .

الفصل الثاني عشر

وطن عذب وقاس

تطرف وجواسيس

ان الفوضويين القدماء - والشيء نفسه ينطبق على فوضويي اليوم هذا - يميلون الى موقف مريح جدا ، بشكل اليق جدا ، وهو موقف الفوضراسمالية (١) ، وهو وكر ينحشر فيه كذلك السياسيون الهدافون (٢) ومدعو اليسارية والمستقلون المزيفون . ان العدو الرئيسي للرأسمالية القائمة ، هم الشيوعيون ، وهي لا تخطيء في تصويب سلاحها نحوهم . ان

١ - الفوضراسمالية : الفوضوية - الرأسمالية .

٢ - الهدافون : رجال الطاومة ، وهم رجال من المقاومة غير منظمين ، يحسنون اصابة الهدف .

هؤلاء الفردين المتمردين جميعهم يمكن تطويعهم بشكل أو بآخر بواسطة الحكمه او الدهاء الرجعي الذي يعتبرهم مدافعين بطوليين عن مبادئ مقدسة . ان الرجعيين يعرفون ان خطر التغيرات في مجتمع ما لا يكمن في التمردات الفردية بل في تنظيم الجماهير وفي وعي طبقي شامل .

لقد شاهدت هذا كله بوضوح في اسبانيا خلال الحرب . كانت بعض المجموعات المعادية للفاشية نلهو في عيد المرافع تجاه قوات (هتلر) و(فرانكو) الزاحفة نحو مدريد . استثنى منهم طبعاً أولئك الفوضويين الاشائوس الذين لا ينقهرن ولا يستسلمون من أمثال (دوربوتي Durputi) ورفاقه الكتلان (٢) الذين قاتلوا في «برشلونة» قتال الاسود .

ان الجواسيس لهم اسوأ من المتطرفين بألف مرة . يتسلل الى صفوف مناضلي الاحزاب الثورية من حين لآخر العملاء المعادون، المخبرون، المندسون الذين يعملون لصالح الشرطة او الاحزاب الرجعية او الحكومات الاجنبية . يؤدي بعض منهم مهمات خاصة من تحريض وزج وتوريط ، وبعضهم الآخر يكتفي بمراقبة طويلة الاناة . انها لحكاية قديمة قصة (ازيف) . فلقد شارك قبل سقوط القيصرية الروسية بعدة عمليات ارهابية وسجن مرات عديدة . ان مذكرات مدير الامن العام في العهد القيصري التي ظلت سرية الى ان نشرت بعد الثورة تروي في تفصيل كيف ان (ازيف) كان في كل لحظة عميلاً لـ «اوتشرانا» . لقد اتسق في رأس هذه الشخصية الغريبة ، الارهابي والمخبر معا ، في احدى العمليات التي قام بها قتل احد «الدوقات» .

تجربة اخرى من هذه التجارب المدهشة وقعت في «لوس انجليس» «سان فرانسيسكو» او بمدينة اخرى من ولايتة «كاليفورنيا» . خلال الفترة «المكارتية» الجنونية اعتقل اعضاء الحزب الشيوعي في تلك المحلة كلهم . كانوا خمسة وسبعين شخصاً ، معدودين ، محصين ، مؤرخين حتى في اقل جزئيات حياتهم حسناً جداً ، تبين ان هؤلاء جميعاً بلا استثناء كانوا عملاء للشرطة . لقد سمحت لنفسها مؤسسة

٣ - الكتلان : هم سكان المنطقة الشمالية الغربية من اسبانيا .

F.B.T (٤) ان تنشئ حزبها الشيوعي الصغير الخاص بها من عناصر ما كان يعرف بعضهم بعضا ، لكي تلاحقهم من بعد وتنسب لنفسها انتصارات عظيمة على اعداء غير موجودين . لقد توصلت هذه المؤسسة الى اختلاق حوادث مضحكة مثل فصل رأس الكرنب حيث كان يحفظ فيه الاسرار الدولية المنفرقة رجل يدعى (تشالميرس Chalmers) وهو شيوعي قديم باع نفسه مقابل دولارات الى الشرطة . كذلك نسجت هذه المؤسسة حكايات فظيعة من بينها الحكاية التي نسبت الى الزوجين (روسينبورغ Rosenberg) (٥) اللذين أعدما فانار هذا سخط الانسانية .

لقد كان تسرب العملاء الى صفوف الحزب الشيوعي التشيلي سببا جدا دوما لان هذا الحزب هو منظمة ذات تاريخ طويل وذات اصول بروليناري بشكل مفلق . ان نظريات حرب العصابات في امريكا اللاتينية، على العكس ، فتحت الابواب لكل صنف من الوشاة والنافخين . ان العفوية والارتجالية و«الشيوعية» الحديثه العهد بالنضال في هذه المنظمات جعلت من الصعب فضح هؤلاء الجواسيس المندسين واعتقالهم . لهذا فان السكوك رافقت دوما قادة رجال العصابات المقاتلة اذ كان عليهم ان يحتاطوا حتى من طلهم . لقد غلذى روح المغامرة بشكل ما الحماس الرومانطيكي والتنظير الخاص بحرب العصابات الجامحة التي غمرت امريكا اللاتينية كلها . ربما ان هذا العهد قد انتهى باغتيال (ارنيستو غيفارا) وموته البطولي . لكن خلال زمن طويل اتخم داعمو هذا التكتيك النظريون القارة كلها بنظريات وفرضيات التي تعهد الحكومة الثورية الشعبية في المستقبل ، ضمنا ، الى المجموعات المسلحة في «الفلاقة» (٦) وليس الى الطبقات التي تستغلها

٤ - F.B.T : هي مؤسسه الشرطة السرية في الولايات المتحدة الامريكية .

٥ - روسينبيرغ Alfred : سياسي الماني (١٨٩٣ - ١٩٤٦) .

٦ - الفلاقة : كلمة كان يطلقها المستعمرون الفرنسيون على الثوار في المغرب العربي، وجدناها صالحة لترجمة كلمة «la montoner» اي مجموعة من الثوار يمتطون الخيل ويحاربون قوات الحكومة . وواضح اننا لا نتبى مفهوم «الفلاقة» الذي يعني عند المستعمرين الفرنسيين ، قطاع الطرق بل مفهوم الاغنية الجزائرية : «قالوا . فلاقة ، يا فرنسا ، ما احناش ، فلاقة . لكن رفاقة ، خيوه (اخوة) في جيش التحرير ، الله بنصر» .

الرأسمالية . ان عيب هذا التعليل والتبرير يكمن في ضعفه السياسي
قد يحدث في بعض الظروف ان قائد حرب العصابات يكون مزودا بعقلية
سياسية قديرة كما في حالة (تشي غيفارا) ، لكن هذا قليل الحديث
ويخضع للصدفة . ان من يبقى سالما بعد انتصار حرب العصابات ليس في
مكنته توجيه دولة بروليتارية لكونه فقط كان اكثر شجاعة من غيره ولكونه
حظي بحظ اكبر تجاه الموت او لانه احسن التصويب تجاه الاعداء او انه اقدر
على اطلاق النار من غيره من الاحياء .

الآن سأروي تجربة شخصية . انا كنت اذاك في تشيلي حديث
الوصول من المكسيك . في احدى الاجتماعات السياسية التي كنت انا
اتردد عليها اقترب مني رجل ليحييني . كان سيدا ذا عمر متوسط ، مثالا
للنبيل العصري ، يرتدي هنداما لائقا جدا ويضع نظارة من هذه النظارات
التي تمنح المرء وقارا امام أعين الناس وهي عبارة عن عدستين بلا اطر او
حامل ، من هذ التي تعلق فوق الانف . واذ به شخصية لطيفة مهذبة جدا:

— يا سيد (بابلو) ، لم اتجرا ابدا على الاقتراب من حضرتك مع اني
ادين لك بحياتي . اني واحد من الالاجئين الذين انقذتهم حضرتك من
معسكرات الاعتقال ومن افران الغاز ، حين شحنتنا في باخرة «وينيبينغ»
باتجاه تشيلي . انا كتلاني وماسوني . وضعي هنا جيد اذ انني اعمل خبيرا
في بيع الادوات الصحية بشركة كذا وهي احسن شركة في تشيلي الخ .

حكى لي انه يسكن في شقة محترمة بمركز «سانتياغو» وان جاره هو
بطل في «التنس» مشهور يدعى (اغليسياس) كان زميلي في المدرسة . كانا
يتكلمان عني دائما وأخيرا ، قررا ان يدعواني لكي يكرمانني . لهذا جاء
ليراني ويبلغني الدعوة .

ان شقة هذا الكتلاني كانت تدل على الرفاهية التي كانت تتمتع بها
بورجوازيتنا الصغيرة . اثاث كامل ، «بهية» (٧) Paella مذهب ووافرة.

٧ — بهية : هي صنف من الطعام يصنع من الرز والخضروات واللحوم والاسماك
تشتهر به مدينة «بلنسية» باسبانيا .

كان (ايغليسياس) معنا خلال فترة الغداء كلها . كنا نضحك متذكرين المدرسة القديمة في «تيموكو» التي في سراديبها كانت اجنحة الخفاقيش نلامس وجوهنا . في نهاية الغداء قال المضيف الكريم الكتلاني بضع كلمات قليلة وأهداني تكريما لي نسختين تصويريتين رائعتين : واحدة لـ (بودلير) والثانية لـ (ادغار بو Edgar Poe) (٨) . وهما عبارة عن رأسي شاعرين رائعين ما زلت احتفظ بهما في مكتبي .

ذات يوم من الايام سقط هذا الكتلاني صاحبنا صريع التسلل ، هامدا في سريره دون ان يستطيع التكلم او الحراك او التعبير بالاشارات والحركات . لا يتحرك فيه غير عينيه اللتين كانتا تريدان في ألم ان تبوحا بشيء الى زوجته وهي اسبانية جمهورية ممتازة ذات تاريخ مجيد لا تشوبه شائبة او الى صديقه وجاره (ايغليسياس) بطل «التنس» صديق طفولتي . لكن الرجل مات بدون كلام او حراك او بوح .

حين امتلأت الدار بالدموع وبالاصدقاء وبالاكالييل تلقى الجار لاعب «التنس» مكالة غريبة غامضة «نحن نعرف مدى الصداقة المتينة التي كانت بين حضرتك وبين المرحوم الكتلاني . هو لم يتعب من اطراء حضرتك والثناء على فضائلك ومزاياك . ان اردت حضرتك ان تقوم بمعروف كبير وخدمة جليلة لذكرى صديقك فافتح الصندوق الكبير واستخرج منه علبسة حديدية مستودعة هناك . سأعود للاتصال بحضرتك بعد ثلاثة ايام» .

لم تشأ الارملة ان تسمع شيئا من هذا القبيل لقد كان حزنها محتدا محتدا فلم ترد ان تعرف شيئا حول هذا الموضوع ، تركت الدار وانتقلت لتسكن في غرفة بـ «بنسيون» يقع في شارع «سانتو دومينغو» . صاحب «البنسيون» كان بوغوسلافيا من رجال المقاومة في يوغوسلافيا ابسان الاحتلال النازي ، رجلا متمرسا في السياسة . عثر هذا اليوغوسلافي على العليبة الحديدية ففتحها في صعوبة ومشقة . اذالك قفز اكثر الارانب البرية مفاجأة (٩) . كشفت الوثائق المحفوظة عن ان المرحوم كان دوما

٨ - ادغار البو Allan : كاتب من الولايات المتحدة الامريكية (١٨٠٩-١٨٤٩) .

٩ - تصميم الممثل الاسباني : «من حيث لا يتوقع المرء ، يقفز الارنب البري» .

عميلا فاشيا . كانت نسخ رسائله تبين اسماء العشرات من المهاجرين الذين حين عادوا الى اسبانيا بشكل سري وغير شرعي سجنوا او أعدموا . ومن بين هذه الرسائل كان ثمة رسالة يشكره النازيون فيها على خدماته . توجيهات اخرى ارسلها الكتلاني هذا افادت البحرية النازية لكي تفرق بواخر حمولة كانت تخرج من الساحل التشيلي محملة بأعتدة حربية . احدى هذه الضحايا كانت بارجتنا الجميلة ، فخر البحرية التشيلية ، «لاوتارو» Lautaro المحنكة المجربة . فافترقت خلال الحرب بحمولتها من ملح البارود حين خرجت من مينائنا : ميناء «توكوبيا» . فقد الحياة في غرق هذه البارجة سبعة عشر نلميذا من المدرسة البحرية العسكرية ماتوا جميعا غرقى او متفحمين .

هذه هي مآثر الكتلاني الاجرامية الذي ابتسم لي ذات يوم ودعاني الى الغداء .

الشيوعيون

.... لقد انقضت بضع سنين على انتسابي الى الحزب اننا راض الشيوعيون يؤلفون أسرة طيبة ... بشرتهم مدبوغة ولكن قلوبهم مشدود الاوتار ... من كل جهة يتلقون ضربات الهراوات ... هراوات مقتصرة عليهم ... فليحي الروحانيون ، الملكيون ، الشاذون ، المجرمون على اختلاف أصنافهم ... فلتعش الفلسفة ذات الدخان لكن بلا هياكل ... فليحي الكلب الذي ينبج ويعض (١٠) ... فليعش المنجمون اللوطيون ... فلتعش صور الدعارة ... فليحي مذهب الاستهتار والخلاعة ... فليحي القريدىس ... فليحي العالم كل العالم الا الشيوعيين فلتعش أحزمة العفة (١١) ... فليحي المحافظون الذين

١٠ - تضمين للمثل الاسباني «كلب ينبج لا يعض ابدا» ، وقد جمعه هنا ، يعض .
١١ - أحزمة العفة : كانت الراهبات في العصور الوسطى يضعن احزمة لا يخلعنها ابدا ، حول فروجهن

لم يفسلوا أقدامهم العقائدية منذ خمسمائة سنة ... فليحي القمل في
 الاحياء البائسة ... فليعيش الرمس الجماعي المجانسي ... فلتحسي
 الفوضر اسمالية ... فليحي (ريلكه Rilke) (١٢) ... فليحي (اندرية
 جيد) (١٣) مع غلامه ... فليعيش التصوف والاتصالات الروحية على
 جميع انواعها ... فكل شيء جيد حسن ... وكلهم أبطال ... الصحف
 جميعها يجب ان تصدر ... كلهم يستطيعون ان ينشروا ما شاؤوا ما عدا
 الشيوعيين ... السياسيون جميعا يجب ان يدخلوا في «سانتو دومينغو»
 بلا أصفاد ... يجب عليهم جميعا ان يحتفلوا بموت السفاح ، مسوت
 (ال تروخيو) الا الذين قاتلوه بصلابة اكثر ... فليحي «الكرنفال» (١٤) ،
 آخر ايام «الكرنفال» ... نمة أقنعة للجميع ... أقنعة مسيحي مثالي ،
 أقنعة يساري منطرف ، أقنعة سيدات محسنات وفاضلات مشفقات ...
 لكن ، حذار ، امنعوا الشيوعيين من الدخول ... اوصدوا الباب جيدا ...
 لا تخطئوا ... فليس للشيوعيين الحق في شيء ... فلنهتم بما هو ذاتي ،
 بماهية الانسان ، بماهية الماهية ... هكذا سنصبح جميعا قاتعين
 راضين ... لدينا حرية ... ما اعظم الحرية ! ... هم لا يحترمونها ، لا
 يعرفونها ... الحرية للاهتمام بالماهية ... بما هو جوهري في الماهية ...

... هكذا انقضت السنوات الاخيرة ... انقضى «الجاز» ، اتى
 «ال سول» el Soul ، غرقنا في بديهيات الرسم التجريدي ،
 زعزعنا الحرب وقتلنا ... في هذا الجانب من العالم كل شيء ظل على
 حاله ... أم لم يبق على حاله ؟ ... بعد عدة خطب عن الروح وبعد عدة
 عصي على الرأس ، شيء كان يسير على غير ما يرام ... يسير سيئا
 جدا ... أخطأت التقديرات ... فالشعوب تنظمت ... اخذت تتوالى
 حروب العصابات والاضرابات ... كوبا وتشيلي استقلتا ... شرع رجال
 كثيرون ونساء كثيرات بترديد النشيد الاممي (الانترناشيونال) ... يا
 للفرابة ... يا للاحباط ... ها هم يغنون هذا النشيد باللغة الصينية ،
 باللغة البلغارية ، باللغة الاسبانية في امريكا ... يجب اتخاذ اجراءات

١٢ - ريلكه (Rainer Maria) : شاعر الماني مشهور (١٨٦٩ - ١٩٥١) .

١٣ - اندرية جيد : كاتب فرنسي معروف (١٨٦٩ - ١٩٥١) .

١٤ - الكرنفال : هو عيد المراقع .

عاجلة ... يجب منع هذا النشيد ... يجب ان نزيد في الكلام عن
الروح ... يجب ان نزيد في اطراء العالم الحر يجب ان نزيد في
ضربات الهراوات ... يجب ان نزيد في دفعات الدولارات ... هذا يجب
الا يستمر ... بين حرية العصي والخوف من (خيرمان
ارثينييفاس) (١٥) ... والآن كوبسا ... فسي نصف كرتنسا
الخاصة بنا ، في منتصف تفاحتنا ، هؤلاء الملتحون يغنون النشيد
نفسه ... فبماذا ينفعنا المسيح ؟ ... وبأي شكل قد خدمنا
القساوسة ؟ ... لم نعد نثق بأحد ... ولا حتى بالقساوسة انفسهم ...
فهم لا يرون وجهات نظرنا ... لا يرون كيف هبطت أسهمنا في السوق
المالية (البورصة)

... اثناء ذلك يتسلق البشر عبر النظام الشمسي ... تبقى آثار
احذية في القمر ... كل شيء يصارع من اجل التغيير ، الا الانظمة
القديمة ان حياة الانظمة العتيقة ولدت من انسجة العناكب فسي
العصر الوسيط ... انسجة اكثر قساوة من حدائد المعدات الآلية ...
بيد انه ، ثمة أناس يؤمنون بالتغيير وقد مارسوا التغيير ، وقد جعلوا
التغيير ينتصر وجعلوه يزدهر عجباً ان الربيع حتمي

شاعرية وسياسية Poética Política (١٦)

لقد قضيت عام ١٩٦٩ كله تقريبا في «ايسلا نيغرا» . يقتني البحر
في الصباغ شكلا خياليا من النمو يبدو وكأنه يعجن رغيف خبز هائلا . انه
لأبيض مثل الطحين الزبد المسفوح الذي تدفعه خميرة العمل الباردة .

ان فصل الشتاء لسابكن وذو ضباب . نضيف كل يوم على روعته
الارضية حطب الدفء في المدفأة . يهبنا بياض الرمال في الشاطئ عالما
خاليا وحيدا كما كان قبل ان يوجد السكان او المصطافون على سطح هذه

١٥ - خيرمان ارثينييفاس : مؤرخ وعالم اجتماعي معاصر ، من كولومبيا .

١٦ - لاحظ التشابه الصوتي بين الكلمتين .

الارض . لكن ارجو الا يظن اني امقت الحشود الصيفية من الناس . ما ان يقترب الصيف حتى تقترب الصبايا من البحر . رجال ونساء يلجون في الامواج على حذر ثم يخرجون قافزين من خطر . هكذا يؤدون رقصة الانسان الالفية تجاه البحر ، ولربما ان هذه الرقصة هي اول رقصات البشر .

في فصل الشتاء تحيا منازل «ايسلا نيفرا» ملتحفة ظلام الليل . ما من دار تشتعل غير داري . احيانا اظن ان نمة احدا في الدار المواجهة . ارى نافذة مضاءة . وما هو الا سراب . ما من احد في دار القبطان . انه نور داري ينعكس على نافذته .

خلال ايام هذه السنة كلها كنت امضي لاكتب في ركن مكتبي . ليس الوصول اليه بالامر السهل ولا المكوث فيه . نمة شيء يجذب كلبي (باندا Panda) و(تشو توتو Chou tu) وهو جلد نمر من «بنغالا» Bengala فرشناه في الحجرة الصغيرة ، كنت قد احضرته معي من الصين منذ سنوات كثيرة ، فتساقطت منه مع مضي السنين مخالب وشعر بالاضافة الى العث الذي انتشر فيه وكنا انا و(ماتيلده) نحذر منه .

كان يروق لكلبي التمدد فوق جلد عدو هما القديم . كما لو كانا قد خرجا منتصرين من عراق معه ، كانا يرقدان وتأخذهما سئة النوم سريعا وقد انهكهما العراق معه . كانا يتمددان متصالبين عند باب الحجرة كأنهما يريدان اجباري على عدم الخروج ، على البقاء لأواصل عملي .

في كل لحظة كان يقع شيء في البيت . كان يرن جرس الهاتف البعيد عني فماذا يقولون للهاتف الداعي ؟ لست هنا . ثم يعود فيرن مرة أخرى ، فبماذا يجيبون ؟ انا هنا .

لست هنا . انا هنا . انا هنا . لست هنا . هذه هي حياة شاعر لم يعد ركنه النائي في «ايسلا نيفرا» بناء .

دوما يسألوني وبخاصة ، يسألني الصحفيون . في اي كتاب اشتغل ، ما هو الشيء الذي اكتبه . دائما اندهش من مثل هذا السؤال بسبب

سطحيته . لان الحقيقة هي انني دائما اشتغل بالشئ نفسه . ابدا لم ادع
أن اعمل الشئ ذاته . أهو شعر ؟

لقد علمت بعد مدة طويلة بأن ما كنت افعله واكتبه يسمى شعرا . ما
اهتممت قط بالتحديدات والعناوين . تبعث في نفسي السأم حتى درجة
الموت النقاشات الادبية الجمالية . لا أستصغر من يجرون هذه المناقشات
بل اني بقدر ما أشعر اني لا أمت بصلة الى شهادة الميلاد أشعر كذلك اني
غريب el Post Mortem في الخلق الادبي . «أن لا يتوصل اي شئ
خارجي الى أن يسيطر عليّ» قال (والث وايتمان) . ويجب الا تحل الزينة
مهما كانت قيمتها محل الخلق العاري .

لقد بدلت الكثير من الدفاتر خلال السنة كلها . ها هي هناك هذه
الدفاتر المربوطة بخيط خطي الاخضر . لقد حبرت الكثير من هذه الدفاتر
التي راحت تصير كتباً كما لو انها كانت تمر من حالة تحول الى اخرى ،
من الجمود الى الحركة ، من اليرقانات الى الجباحب .

لقد اتمت الحياة السياسية كما يجيء الرعد لتخرجني من اعمالسي
فعدت مرة اخرى الى جمهرة الناس .

ان الجمهرة الانسانية كانت بالنسبة اليّ درس حياتي . استطيع ان
اصل الى هذه الجمهرة بخجل الشاعر المتأصل فيه ، بفرع الخائف ، لكن ،
ما ان اصبح في حضن هذه الجمهرة ، حتى أحس بالتقصص واذ بي جزء
من الاغلبية الجوهريّة واذ بي ورقة من أوراق شجرة الانسانية الكبيرة
العظيمة .

وحدة وجمهرة ستظلان واجبات الشاعر الاساسية في زمننا هذا .
لقد اغتنت حياتي بمعركة تلاطم الامواج في الساحل التشيلي . غمرتني
واستهوتني المياه المقاتلة والصخور المقاتلة والتكاثر في الحياة المحيطية ،
والتشكيلة المتقنة من «العصافير التائهة» ورونق الزبد البحري .

لكني تعلمت اكثر من تموج الحيوانات العظيم ، من نظرة الحنان في

آلاف العيون التي نظرت اليّ معا . قد لا يلتقط الشعراء جميعهم رسالة العيون هذه ، لكن من أحس بها مرة سيحفظها في قلبه ، سيجريها في أعماله الأدبية .

انه لجدير بالذكرى وممزق للقلب بالنسبة للشاعر ان يجسد لأناس كثيرين ، خلال دقيقة ، الامل .

مرشح لرئاسة الجمهورية

صباح ذات يوم من عام ١٩٧٠ وصل الى مخبائي البحري ، الى داري في «ايسلا نيغرا» الامين العام لحزبي ورفاق آخرون . جاؤوا ليعرضوا عليّ الترشيح المبدئي لرئاسة الجمهورية وهو ترشيح سيقترحونه فيما بعد على ستة او سبعة احزاب في **الوحدة الشعبية la unidad Popular** كانوا قد هياؤا كل شيء : برنامج ، طبيعة الحكومة ، اجراءات عاجلة في المستقبل القريب الخ . حتى تلك اللحظة كانت تلك الاحزاب قد تقدمت بمرشحيها وكل حزب كان يريد ابقاء مرشحه باستثناء الشيوعيين فلم تكن قد تقدمنا بمرشحنا بعد . كان موقفنا هو دعم المرشح الوحيد الذي تختاره احزاب اليسار وسيكون هو مرشح **الوحدة الشعبية** . لكن لم يكن هناك حينذاك اجماع وقرار حاسم وما كان من الممكن ان نترك الامور تستمر على هذا النحو . كان مرشحو اليمين قد انطلقوا وبدأوا بحملات الدعاية . ان لم نتحد في مرشح عام واحد بهذه الانتخابات فاننا سنصاب بهزيمة نكراء.

كانت الطريقة الوحيدة لاستعجال تحقيق هذه الوحدة هي اننا نحن الشيوعيين نعين مرشحنا الخاص . حين قبلت بالترشيح بناء على رغبة حزبي اصبحت الموقف الشيوعي واضحا جليا . سندعم المرشح الذي يضمن موافقة الآخرين على ترشيحه ممثلا وحيدا **للوحدة الشعبية** . ان لم يتوصل الى هذا الاجماع فان ترشيحي سيحافظ عليه حتى النهاية .

كانت وسيلة مشرفة لاجبار الآخرين على الاتفاق . عندما قلت للرفيق (كورفالان) بأنني موافق على الترشيح كنت أدرك انهم سيوافقون من بعد على انسحابي في المستقبل لاعتقادي ان تنازلي فيما بعد هو امر لا مناص

منه . فلم يكن ثمة احتمال قوي بأن يتفوقوا على ترشيح مرشح شيوعي يلتفون حوله . بتعبير افضل كانوا جميعا يحتاجون الينا كي ندعمهم (بما فيهم بعض مرشحي الديمقراطية المسيحية) ولكن ولا واحد منهم كان يحتاجنا كي يدعمنا .

لكن ترشيحي الذي خرج في ذاك الصباح البحري «ايسلا نيفرا» قبض على النار . لم يبق مكان في تشيلي الا وطلب حضوري اليه . لقد تأثرت جدا امام المئات بل الالاف من الرجال والنساء الذين كانوا يعصرونني ، يقبلونني ويبتكون . سكان ضواحي «سانتياغو» ، عمال المناجم في «كوكيمبو» رجال النحاس والصحراء ، فلاحون ينتظرونني خلال ساعات وساعات وصفارهم على اكتافهم او بأذرعهم ، اناس تعيش الاهمال وعدم الاعتناء من نهر «بيثو بيو» Bio Bio الى أبعد من مضيق «ماغايانيس» ، كنت أحدثهم جميعهم او اقرا لهم قصائدي في عز المطر ، في وحل الشوارع والطرقات ، تحت الريح الجنوبية التي تجعل الناس يرتعدون بردا .

كنت اتحمس ، ففي كل مرة كان يأتي الى مهرجاناتي اناس اكثر ، كل مرة يجيء نساء اكثر . في افتنان وفزع بدأت أفكر فيما عليّ عمله ان فزت برئاسة جمهورية بلد من اكثر البلدان شراسة بشكل مأساوي تعنتا واكثرها استبدانة وقد يكون اكثرها نكرانا للجميل . كان يهتف للرؤساء خلال الشهر الاول فقط ومن بعد خلال الخمس سنوات والاحد عشر شهرا المتبقية كانوا يعذبون بعدل او بدون عدل .

حملة ايينده (Allende)

في لحظة مناسبة وصلت البشرى : ظهر (اليندي) على انه المرشح المحتمل للوحدة الشعبية بأسرها . بعد موافقة حزبي قدمت على جناح السرعة انسحابي من الترشيح . امام حشد هائل جدل فرح تكلمت انما لاعلن انسحابي وتكلم (اليندي) ليعلن ترشيحه ويطلب المبايعة له . لقد عقد هذا المهرجان السياسي في حديقة عامة فكان الجمهور المكتظ يملأ المدى كله وكذلك الاشجار . من غصون الاشجار كانت تبرز سيقان ورؤوس .

ليس من شيء مثل هؤلاء التشيليين المدربين على التسلق .

انا كنت اعرف المرشح . كنت قد رافقته ثلاث مرات سابقة ، وانا اقدف الاشعار والخطب عبر اراضي تشيلي الوعرة اللامنهاية كلها . ثلاث مرات متعاقبة ، كل ست سنوات ، كان صاحبي الملحاح جدا يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية . هذه ستكون الرابعة والرابعة (١٧) .

يروي (ارنولد بينيت) او (سومرست ماوغهام) (١٩) (لا اذكر جيدا اي الاثنين) انه ذات مرة كان عليه ان ينام (من يروي هذه القصة) في غرفة (وينستون تشرشل) (٢٠) نفسها . اول شيء عمله ذاك السياسي المهيب حين فتح عينيه هو انه مد يده وتناول سيجارا كوبيا كبيرا من على الطاولة الصغيرة التي كانت قرب السرير وبدأ بتدخين هذا السيجار . هذا لا يستطيع عمله الا رجل المفاويز القوي الصحيح ذو الصحة المعدنية في العصر الحجري .

ان صمود (ايينده) واحتماله وجلده كانت تدع مرافقيه جميعا وراءه . كان له فن جدير (تشرشل) بألم عينه . كان ينام حين يعن له النوم . احيانا كنا نمضي عبر الاراضي القاحلة اللامنتهية في شمال تشيلي . (اليندي) كان ينام نوما عميقا في ركن من اركان السيارة . على حين غرة تبدو نقطة حمراء صغيرة في الطريق : حين تقترب تستحيل هذه النقطة الى مجموعة مؤلفة من خمسة عشر رجلا او عشرين مع نسائهم واطفالهم وراياتهم . تتوقف السيارة ، (ايينده) يفرك جفنيه كسي يواجه الشمس الشاقولية والمجموعة الصغيرة التي كانت تنشد ، يتحد معهم ينشدون معا

١٧ - الرابعة الرابعة : التعبير الاسباني المعروف هو مثل التعبير العربي : الثالثة

القابلة .

١٨ - ارنولد بينيت : كاتب انجليزي (١٨٦٧ - ١٩٣١) .

١٩ - سومرست ماوغهام : كاتب انجليزي (١٨٧٤ - ١٩٦٥) .

٢٠ - وينستون تشرشل : هو السياسي الانجليزي المعروف (١٨٧٤ - ١٩٦٥) .

النشيد الوطني ، ثم يحدثهم حديث النشيط السريع الفصيح البليغ ثم يعود الى السيارة فنتابع متجولين عبر طرق تشيلي الطويلة جدا ، يعود (اليندي) فيفرق في نومه بدون اي جهد . كل خمس وعشرين دقيقة كان المشهد يعاد : مجموعة ، رايات ، نشيد ، خطاب ، عودة الى النوم وهكذا دواليك .

كان يقابل التظاهرات الهائلة المؤلفة من آلاف وآلاف من التشيليين ، يبدل بالسيارة القطار وبالقطار الطائرة وبالطائرة البخرة وبالباخرة الحصان ، فآتم (ايينده) بلا تردد اشغال تلك الاشهر المضنية المنهكة . ومن خلفه كان اعضاء موكبه منهكين مرهقين . من بعد ، حين اصبح رئيسا فعليا وشرعيا لتشيلي سببت فعاليتها غير الرحيمة اربع او خمس سككات قلبية بين مساعديه ومعاونيه .

سفارة في باريس

حين وصلت لاقوم بأعباء سفارتنا في باريس ادركت ان عليّ ان ادفع ضريبة ثقيلة الى بطلاني . لقد وافقت على هذا المنصب دون ان افكر في الامر مليا ، تاركا نفسي للذبذبة الحياة . كان يطيب لي ان امثل حكومة شعبية منتصرة توصلنا اليها بعد سنين طويلة من الصبر على حكومات غبية وكذابة . ربما ان الدافع الاكبر في أعماقي كان هو ان ادخل الى دار السفارة التشيلية بباريس في كرامة جديدة فلطالما ذلت فيها حين كنت انظم ترحيل الجمهوريين الاسبان باتجاه بلدي . كان كل واحد من السفراء السابقين قد ساهم في اضطهادي وتعذيبني ، كان كل واحد منهم قد شارك في ايدائي وجرح كرامتي . سيجلس المضطهد على كرسي المضطهد ، سياكل على مائدته ، سينام على سريره ، سيفتح النوافذ كي يدخل الهواء الجديد الى بناء السفارة العتيق .

كان اصعب شيء هو جعل الهواء يدخل . لقد تسرب الاسلوب الصالوني الخانق الى خياشيمي وعينيّ حين وصلت و(ماتيلده) في تلك الليلة من آذار عام ١٩٧١ الى غرفة النوم واضطجعنا على الفراش الفاخر حيث مات بعض السفراء وبعض السفيرات في هدوء او في فزع .

انها غرفة نوم صالحة لايواء فارس وفرسه ، ثمة سعة كافية لكي يتغذى الفرس وينام الفارس . ان السقف عال جدا ومزين بشكل ناعم . اما الاثاث فهو عبارة عن اشياء مخملية ذات لون غامق مثل لون ورقية جافة ، مزخرفة بهدايات مرعبة ، ينمّ هذا الاثاث عن ثروة وانحطاط في الوقت نفسه . ربما ان الزرابي قبل ستين سنة كانت جميلة لكنها الان اتخذت لونا لا يفهر من حف ودعس ، ورائحة عث كرائحة احاديث مجاملة ميتة .

كي يزيد الطين بلة فان موظفي السفارة العصبيين كانوا قد فكروا في كل شيء الا في تدفئة غرفة النوم العملاقة . قضينا ، انا و(ماتيلده) ، اول ليلة ديپلوماسية في باريس ونحن متشنجان متجمدان .

في الليلة التالية سرت التدفئة في الغرفة ، كان لهذه المدفأة المركزية ستون سنة من العمر ، وهي تستعمل وتستخدم فتعطلت فيها المصافي والمسام . لم يكن الهواء الساخن في هذا الجهاز العتيق يترك شيئا يمر الا اللامائي من حامض الكربون . لم يكن عندنا الحق في ان نشكو من البرد كما في الليلة السابقة لكننا كنا نشعر بالاختلاج والفم من جراء التسمم . كان علينا ان نفتح النوافذ كي يدخل البرد الشتائي . ربما ان السفراء القدماء كانوا بهذا ينتقمون من متسلق جاء ليحل محلهم دون ان تكون له مميزات بيروقراطية ولا مآثر سلالية وعائلية .

فكرنا : يجب علينا ان نبحث لنا عن منزل حيث نستطيع التنفس مع الاوراق ، مع الماء ، مع العصافير ، مع الهواء . هذا التفكير كان يتحول مع الزمن الى هوس . مثل سجينين مורقين ينتظران اطلاق حريتهما كنا نبحث ونبحث عن الهواء النقي خارج باريس .

كوني اصبحت سفيرا كان شيئا جديدا وغير مريح بالنسبة لي . لكن هذا المنصب كان يتضمن تحديا . كانت قد نشأت في تشيلي ثورة ، ثورة على الطريقة التشيلية ، محلة جدا ومناقش فيها كثيرا . كان اعداء الداخل والخارج يسنون أسنانهم كي يقوضوها . لقد تعاقب خلال مائة وثمانين سنة على حكم بلدي الحكام انفسهم ولو كانوا بعناوين مختلفة . فعل هؤلاء الحكام جميعهم الشيء نفسه . استمرت الاسمال ، المنازل غير

اللائقة بالبشر ، الاطفال بدون مدارس ولا احذية ، السجون وضربات
الهرابي على رؤوس شعبي المسكين .

الآن نستطيع ان نتنفس وان نفني . هذا هو ما كان يعجبني في
وضعي الجديد .

ان التعيينات الدبلوماسية في تشيلي تتطلب موافقة مجلس الشيوخ.
كان اليمين التشيلي قد تملقني بشكل مستمر كوني شاعرا حتى انه القى
خطبا على شرفي . انه لواضح انهم كانوا سيلقون هذه الخطب بسرور اكثر
على لحدي وفي ماتمي . في تصويت مجلس الشيوخ لابرام تعييني سفيرا
انقذت بأكثرية ثلاثة اصوات لا غير . صوت شيوخ اليمين وبعض الشيوخ
من المنافقين - المسيحيين (٢١) ضدي تحت سر الكريات البيضاء والسوداء.

كان السفير السابق قد غطى الحيطان بصور أسلافه في المنصب دون
تمييز بالاضافة الى صورته الشخصية . كانوا مجموعة هائلة من
شخصيات فارغة ما عدا اثنين او ثلاثة منهم من بين هؤلاء الشهير المجيد
(بليست غانا) (٢٢) وهو يعتبر « بلزاكنا » التشيلي الصفيير .
أمرت بانزال الصور الطيفية واستبدلت بها أشكالا أكثر صلابة : خمسة
تمائيل منقوشة لأبطال منحوا تشيلي راية ، قومية ، استقلالاً ، وثلاث
صور معاصرة : صورة (أغيره ثيردا) وكان رئيسا للجمهورية تقديما ،
صورة (لويس ايميليو ريكابيرين) وهو مؤسس الحزب الشيوعسي
التشيلي ، وصورة (سالفادور اليندي) . أصبحت الحيطان احسن
وأفضل .

لست أدري ماذا كان يفكر به موظفو السفارة الدبلوماسية وهم في
مجموعهم يمينيون . كانت الاحزاب الرجعية قد طوقت واحتوت ادارة

٢١ - المنافقون - المسيحيون (Hipocrita - Cristiano) : لاحظ التلاعب اللفظي

مع (Democrata - Cristianos) اي ، الديموقراطيون - المسيحيون .

٢٢ - بليست غانا Cuillermo : روائي ودبلوماسي تشيلي (١٨٣٠ - ١٩٢٢) .

البلاد خلال مائة سنة . لم يكن يعين احد ولا حتى حاجب ان لم يكن محافظا او ملكيا . برهن الديموقراطيون المسيحيون الذين يطلقون على حزبهم اسم «ثورة في حرية» من جهتهم على شره وحب في التسلط مثل الرجعيين العتاق . من بعد ستتحذ المتوازيات الى ان تصبح خطأ واحدا تقريبا .

البيروقراطية ، اربخيلات الابنية العامة، كل شيء ظل مليئا بموظفين، بمفتشين ، بمستشارين من اليمين . كما لو انه ما انتصر (اليندي) والوحدة الشعبية ابدا في تشيلي ، كما لو ان وزراء الحكومة الآن ليسوا اشتراكيين وشيوعيين .

في مثل هذه الظروف طلبت ان يملا منصب المستشار في سفارتنا بباريس بأحد اصدقائي ، وهو دبلوماسي خريج المدرسة الدبلوماسية وكاتب ذو اهمية كبيرة ، الا وهو (خورخه ادوارس) (٢٣) مع انه ينتمي الى أسرة من اكثر الاسر رجعية في بلدي فقد كان رجلا يساريا دون انتماء حزبي معين . ان ما كنت احتاج اليه هو موظف ذكي يعرف مهنته ويكون اهلا لثقتي . كان (ادواردس) حتى تلك اللحظة القائم بأعمال سفارتنا في «لا هافانا» . كانت قد وصلت الي بعض الاخبار الغامضة عن بعض الصعوبات التي كان يلاقيها في كوبا . بما انني كنت اعرفه على انه رجل يساري خلال سنوات عديدة فلم اعط اهمية كبيرة لهذا الموضوع .

وصل مستشاري الفد من كوبا عصبيا جدا وباح لي بحكايته . تكون لدي الانطباع بان الحق كان عند كلا الجانبين ولم يكن عند اي منهما ، كما يحدث احيانا في الحياة . استعاد (خورخه ادواردس) شيئا فشيئا اعصابه الممزقة . فلم يعد يأكل اظافره وعمل معي بقدرة جلية وبذكاء ووفاء واخلاص وجدارة . كان مستشاري هذا خلال تلك السنتين من العمل الصعب المرهق في السفارة ، احسن زملائي ، وكان الموظف الوحيد في هذا المكتب الكبير الذي لم يكن فيه عيب من الناحية السياسية .

٢٣ - خورخه ادوارس : كتب كتابا هاجم فيه حكومة كوبا الثورية .

حين حاولت الشركة الامريكية الشمالية فرض الحظر على النحاس التشيلي اجتاحت اوروبا بأسرها موجة من الغضب ، لم تكن الصحف والتلفزات والاذاعات هي وحدها من اهتم بهذا الموضوع بل دافع عنا مرة اخرى بضمير شعبي كاسح .

عمال الموانئ في فرنسا وفي هولاندا رفضوا تفريغ شحنات النحاس في موانئهم لكي يعلنوا عن سخطهم تجاه هذا العدوان . لقد هز هذا السلوك الرائع العالم كله . ان مثل هذه الحكايا التضامنية تعلم تاريخ زمننا هذا اكثر مما يمكن ان يعلمه اساتذة الجامعات .

أذكر ايضا حالات اكثر تواضعا مع انها اكثر تأثيرا في القلوب . في اليوم التالي على الحظر ارسلت لنا سيدة فرنسية متواضعة من مدينة صغيرة في محافظة من محافظات فرنسا مائة فرنك ، ثمرة توفيراتها كي تساعد في الدفاع عن النحاس التشيلي . وكذلك رسالة تضامن حارة وقعها السكان جميعا ورئيس البلدية وراهب الكنيسة والعمال والرياضيون والطلبة .

من تشيلي كانت تصلني رسائل من مئات الاصدقاء المعروفين وغير المعروفين تهنئني على مجابهتي للقراصنة الدوليين دفاعا عن نحاسنا . لقد تلقيت وساما ارسلته امرأة فلاحه يحتوي على قرعة واربع من الكمثرى ونصف «دزينة» من فليفلة خضراء حادة .

في الوقت نفسه اصبح اسم تشيلي عظيما رائعا . لقد تحولنا الى بلد يوجد ويفرض وجوده . قبل كنا نمر فلا نرى في مجموعة البلدان المتأخرة . الان لأول مرة كانت لنا سيماء خاصة بنا ولم يكن في العالم من يجرو على انكار عظمة صراعنا في تشييد مصر قومي لنا .

ان كل ما كان يحدث في وطننا كان يثير عاطفة فرنسا بله اوروبسا قاطبة . اجتماعات شعبية ، مؤتمرات طلابية ، كتب تنشر في اللغات كلها، كانوا يتدارسوننا ، كانوا يفحصوننا ، كانوا يصفوننا . انا كان عليّ ان اكبح الصحفيين الذين كانوا في كل يوم يريدون ان يعرفوا كل شيء واكثر

من كل شيء . أصبح الرئيس (الهندي) رجلا عالميا . ان ثبات طبقتنا
العملية كان ماثرا للاعجاب والثناء .

ان المودة المتقدمة نحو تشيلي قد تضاعفت بسبب المنازعات المتفرعة عن
تأمين طبقات نحاسنا . لقد فهم الناس في انحاء العالم كله ان هذا التأمين
هو خطوة جسارة في سبيل استقلال تشيلي الجديد . لقد جعلت الحكومة
الشعبية ، بدون اية موارد من اي صنف ، سيادتنا على نحاسنا من اجل
وطننا نهائية حاسمة .

الإياب الى تشيلي

حين عدت الى تشيلي استقبلني سندس جديد في الطرقات وفي
الحدائق . كان ربيعنا الرائع قد جعل يرسم باللون الاخضر على اوراق
الغابات . تحتاج عاصمتنا القديمة الرمادية الى الاوراق الخضراء كما يحتاج
قلب الانسان الى الحب . فتنشقت النسيم الندي من هذا الربيع الفتى .
حين نكون بعيدين عن الوطن لا نذكر البتة فصول شتائه . ان البعاد يحو
اسى الشتاء وذكرى القرى المهملة ومنظر الاطفال الحفاة في البرد . لا
يأتي لنا فن التذكر الا بالارياض الخضراء والازهار الصفراء والحمراء
والسما المزروقة التي يتفنى بها النشيد الوطني . هذه المرة شاهدت
الفصل الجميل الذي كان من قبل رؤيا بعاد .

خضرة اخرى كانت تلمح جدران المدينة . كان طحلب الكراهية
يغطيها . لافتات ضد كوبا ، لافتات ضد السوفييت ، لافتات ضد السلام
والانسانية ، لافتات ضد الشيوعية تقطر سفاهة وكذبا وبهتاناً ، لافتات
سفاهة سفاكة أفاكة تتكهن بمذابح ومجازر و«جاكارتاس» (٢٤) . هذه هي

٢٤ - جاكارتاس Yakartas : ج جاكارتا وهي عاصمة اندونيسيا ، وهو بهذا يشير
الى المذابح التي اقترفت ضد الثوريين الاندونيسيين على اثر قلاب العسكري اليميني
المميل للامبريالية الامريكية الذي اطيح بحكم (سوكارنو) .

الخنزيرة الجديدة التي كانت توسخ جدران المدينة .

انا كنت اعرف بالتجربة لحن هذه الدعاية ومعناها . فلقد عشت في اوروبا السابقة على عهد (هتلر) . كان هذا هو روح الدعاية الهتلرية ، الافراط في الكذب ، حرب صليبية من تهديد وذعر ، انتشار اسلحة الكراهية كلها ضد المستقبل . شعرت بأنهم يريدون تغيير جوهر حياتنا نفسه . ما كنت أقدر ان أفسر لنفسي كيف يمكن ان يوجد تشيليون يهينون بهذا الشكل روحنا القومية .

حين غدا الارهاب ضروريا بالنسبة لليمين الرجعي استخدم اليمين الارهاب بلا تردد وبلا تأنيب ضمير . ان الجنرال (شنيدر) الذي كان القائد الاعلى للجيش ، وهو رجل محترم ومحترم عارض قيام انقلاب عسكري كان يهدف الى منع تسلم (اينده) سدة رئاسة الجمهورية فاغتالوه . مجموعة متنوعة من الاشرار الاثمين رشته بالرصاص في ظهره فهوى قتيلا قرب داره . كان يقود العملية جنرال سابق طرد من صفوف الجيش . كانت هذه الحفنة مؤلفة من شراذم صفار ومن مجرمين محترفين .

بعد ان بُتت الجريمة على هذا الجنرال الذي خطط للجريمة سجن وحُكمت عليه المحكمة العسكرية بثلاثين سنة في الحبس ولكن الحكم خُفض الى سنتين من لدن محكمة العدل العليا . ان رجلا فقيرا يسرق عن جوع دجاجة يلقي ضعف العقوبة التي أنزلت بمن اغتال القائد الاعلى للجيش . انه التطبيق الطبقي للقوانين التي سنتها وشرعتها الطبقة المسيطرة .

ان انتصار (اينده) قد سبب لهذه الطبقة المسيطرة ذعرا مميتا . لأول مرة فكروا في ان القوانين التي فبركوها في حيلة وحذر قد تضربهم على رؤوسهم . هرولوا بأسهمهم المالية وبجواهرهم وحليهم وعماليتهم الصعبة الى الالتجاء في جهة من الجهات . ذهبوا مع ذهبهم الى الأرجنتين ، الى اسبانيا حتى انهم وصلوا الى استراليا . ان خوفهم من الشعب قد جعلهم يصلون في سهولة الى القطب الشمالي .

من بعد سيعودون .

ان الطريق التشيلي المحدد من كل جهة بعراقيل جهنمية شرعية كان في كل لحظة دستوريا ضيقا . اثناء ذلك اصلحت طبقة الاقلية الحاكمة من ثوبها المهلهل الممزق وتحولت الى عصابة فاشية . ان الحصار الذي فرضته الولايات المتحدة على تشيلي اثر تأميم النحاس امسى اكثر نعنتا وظلما . لقد رمت L.T.T بالاتفساق مع الرئيس السابق (فريي) الديموقراطية المسيحية في احضان اليمين الفاشي الجديد .

لقد شعلت شخصيا (اليندي) و(فريي) المتناقضتان المتنافرتان شعب تشيلي على الدوام . ربما يعود ذلك الى هذا التباين فيما بينهما فهما رجلان جد مختلفين ، زعيمان على طريقتهما الخاصة بكل منهما في بلد بدون زعامة ، كل واحد منهما له اهدافه وطريقه المحدد جدا .

اعتقد اني اعرف معرفة جيدة الرئيس (ايينده) ، لم يكن فيه اي شيء مبهم معي . اما بالنسبة لـ (فريي) فقد كنت زميله في مجلس الشيوخ . هو رجل غريب الاطوار ، متبصر جدا ، بعيد جدا عن العفوية الاليندية . مع ذلك ينفجر بشكل مألوف في ضحكات عنيفة في قهقهات تصرّ الاذان . بالنسبة لي فانه يعجبني الناس الذين يضحكون مقهقهين (انا ليست لي هذه الموهبة) . لكن ثمة قهقهات وقهقهات . قهقهات (فريي) تخرج من وجه مهموم ، جاد ، يراقب خرم الابرة التي يخطط بها خطه السياسي الحيوي . انها اضحكة مفاجئة تذهل شيئا ما كما نعيب بعض الطيور الليلية . اما من جهة اخرى فان سلوكه يكون عادة رصينا وودودا بشكل بارد .

ان تعرجاته السياسية كانت تحبط عزائمي الى ان اياستني منه تماما . اذكر انه جاء ذات مرة ليراني في داري بـ «سانتياغو» . كانت

٢٥ - فريي Eduardo : كان رئيسا للجمهورية التشيلية من عام ١٩٦٠ الى عام ١٩٦٥ ، ومن هذا العام الى عام ١٩٧٠ ، اي الى ان تولى (اليندي) مقاليد الامور في تشيلي .

تطفو في ذلك الحين فكرة تفاهم بين الشيوعيين والديموقراطيين
المسيحيين . هؤلاء ما كانوا آنذاك يسمّون هكذا بل كانوا ما يزالون
يحتفظون باسم «فلانخه ناثيونال» (٢٦) Falange Nacional وهو اسم
فظيع تبنيه تحت التأثير الذي أحدثه فيهم الشاب الفاشي (بريمو دي
ريبيرا) ، من بعد ، حين انقضت الحرب الاسبانية ، أثر فيهم
(ماريتاين) (٢٧) وأصبحوا معادين للفاشية وغيروا الاسم .

كان حديثي معه غامضا ولكنه كان وديا . بالنسبة لنا نحن الشيوعيين
كان يهمنى التفاهم مع جميع الناس والجهات ذات النية الطيبة ، ان كنا
منعزلين لن نصل الى اية جهة . اكد لي (فريي) داخل مراوغته الطبيعية
يساريتة الظاهرية لذلك الوقت . ودّعني وهو يهدي اليّ واحدة من هذه
القهقهات التي تتساقط من فمه كالأحجار . «سنواصل الحديث» ، قال ،
لكن بعد يومين ادركت ان حديثنا قد انتهى الى الابد .

بعد انتصار (ايينده) خلق (فريي) وهو السياسي الطموح البارد حلفا
رجعيا له لكي يعود الى السلطة . لقد كان مجرد وهم حلم العنكبوت
السياسي المجدد . نسيجه لن يدوم ، لن يفيد في شيء الانقلاب العسكري
الذي استهواه . ان الفاشية لا تسمح بالتعاقدات بل تطلب امثالا
وخضوعا . ان شخص (فريي) سيصبح في كل عام اكثر عتمة وسيكون
عليه ان يجابه ذات يوم مسؤولية الجريمة .

(توميك Tomic)

لقد اهتمت بالحزب الديموقراطي - المسيحي منذ ولادته ، منذ ان
هجر اسمه المنكر اسم «فلانخه» . لقد نشأ هذا الحزب حين شكلت

٢٦ - فلانخه ناثيونال : معناها ، الكتائب الوطنية .

٢٧ - ماريتاين Jacques : فيلسوف فرنسي ولد عام ١٨٨٢ .

مجموعة قليلة من المفكرين الكاثوليك حلقة «ماريتاينية» و«تومية» (٢٨) . لم اهتم بهذا التفكير الفلسفي اذ ان لي لا مبالاة طبيعية تجاه منظري الشعر والسياسة والجنس . لقد تجلت النتائج العملية لهذه الحركة الصغيرة بشكل فريد غير متوقع . توصلت الى ان اجعل بعض القادة الشبان في هذه الحركة يتكلمون لصالح الجمهورية الاسبانية في مهرجانات سياسية كبيرة نظمها بعد عودتي من مدريد المناضلة . لقد كانت هذه المشاركة غير عادية الى درجة ان الزعامة الدينية الاكليروسية العتيقة كانت على وشك ان تحل الحزب الجديد يدفعها الى ذلك **الحزب المحافظ** . لم ينقذهم من الانتحار السياسي سوى تدخل أسقف رائد . ان بيان أسقف «تالكا» Talca انقذ حياة هذه المجموعة التي اصبحت مع الزمن اكثر الاحزاب السياسية عددا في تشيلي . تغيرت عقيدته مع مضي السنين بشكل كامل .

لقد كان الرجل الأهم بين المسيحيين الديموقراطيين بعد (فريي) هو (رادوميرو توميك) . عرفته اثناء فترتي البرلمانية ، وسط الاضرابات والجولات الانتخابية في شمال تشيلي . لقد كان الديموقراطيون المسيحيون اذالك يطاردوننا (اقصد الشيوعيين) ليشاركوا في مهرجاناتنا السياسية . نحن كنا (وما زلنا) اكثر الناس شعبية فسي صحراء ملح البارود والنحاس ، اي ، بين اكثر الكادحين تضحية فسي القارة الامريكية . من هناك كان قد خرج (ريكابارين) ، هناك كانت قد ولدت الصحافة العمالية وأوائل النقابات ، لولا الشيوعيون ما كان وجد شيء من هذا كله .

لم يكن (توميك) في تلك الفترة امل الديموقراطيين المسيحيين فحسب، بل كان كذلك شخصيتهم الجذابة جدا وكلمتهم الفصيحة جدا .

كانت الاشياء قد تغيرت كثيرا في عام ١٩٦٤ حين ربحت الديموقراطية المسيحية الانتخابات التي رفعت (فريي) الى سدة رئاسة الجمهورية . ان حملة المرشح الذي فاز على (ايبنده) قد قامت فوق قاعدة

من العنف ضد الشيوعية لم يسبق لها نظير، منظمة بالبحان صحفية واذاعية كانت تهدف الى ارهاب السكان . كانت تلك الدعاية توقف شعر الرأس : الراهبات سيعدمن ! الاطفال سيمثل فيهم بالحراب الملتحون الشبيهسون بكاسترو ! الطفلات الصغيرات سيؤخذن عنوة من آبائهم وأمهاتهم ليرسلن الى سيبيريا ! عُرِف فيما بعد من تصريحات أدلت بها لجنة التحقيق التابعة لمجلس الشيوخ في الولايات المتحدة ان ادارة C.I.A انفقت عشرين مليون دولار في تلك الحملة الارهابية .

بعد ان نصَّب (فريي) رئيسا للجمهورية ، صنع حاضرا يونانيا لمنافسه الكبير الوحيد في الحزب : عين (رادومير و توميك) سفيرا لتشيلي في الولايات المتحدة . كان (فريي) يعرف ان حكومته ستعيد النظر في الاتفاقيات المعقودة مع شركات النحاس الامريكية الشمالية . ففي تلك اللحظة كان البلد كله يطالب بتأميم النحاس . استبدل (فريي) بصفته خبيرا مشعوذا ، بعبارة التأميم كلمة «تشيليل النحاس» (٢٩) فأبرم باتفاقيات جديدة موضوع تسليم تروتنا الوطنية الرئيسية الى الشركتين الطائلتين «كينوكوت» و«اناكوندا كوبر كومباني» كانت النتيجة الاقتصادية لتشيلي مريعة جدا . النتيجة السياسية بالنسبة لـ (توميك) كانت حزينة جدا : فلقد محاه (فريي) من الخارطة . ان سفيرا لتشيلي في الولايات المتحدة يساهم في تسليم النحاس للشركات الاجنبية لن يدعمه الشعب التشيلي مطلقا . لذلك جاء (توميك) في الانتخابات الرئاسة الثالثة من بين ثلاثة مرشحين .

بعد قليل من نخله عن منصبه سفيرا لتشيلي في الولايات المتحدة جاء (توميك) في مطلع عام ١٩٧١ ليراني في «ايسلا نيغرا» . كان حديث الوصول من الشمال وفي ذلك الوقت لما يكن بعد قد رشح نفسه رسميا للرئاسة . لقد حافظنا على صداقتنا وسط الاضطرابات السياسية وما زلنا نحافظ عليها حتى الان . لكننا في صعوبة تفاهمنا هذه المرة . هو كان يريد اجراء تحالف اوسع بين القوى التقدمية بدلا من حركتنا حركة الوحدة الشعبية تحت اسم اتحاد الشعب . ان مثل هذا الاقتراح كان

٢٩ - تشيليل النحاس : اي جعله شيليا .

مستحيل التحقيق ، فمشاركته في المفاوضات النحاسية كانت لا تؤهل ترشيحه امام اليسار السياسي . اصف الى هذا ان الحزبين الاساسيين الكبيرين في الحركة الشعبية : الشيوعي والاشتراكي كانا قد بلغا سن الرشد وعلى قدرة كافية لكي يوصلا الى سدة الرئاسة واحدا من صفوفهما .

قبل ان يذهب من داري ، وقد كان يائسا ، باح لي (توميك) بأمر مهم . وزير المالية الديموقراطي المسيحي (اندريس نالديبار) اطلعه بالوثائق على افلاس الواقع الاقتصادي في البلد آنذاك .

— نحن نمضي الى الهاوية — قال لي (توميك) — . ان الوضع لا يسمح بأكثر من اربعة اشهر . انها لمصيبة . لقد زودني (نالديبار) بكل التفاصيل عن افلاسنا الذي لا مفر منه .

بعد شهر من انتخاب (ايبنده) وقبل ان يتولى رئاسة الجمهورية رسميا اعلن (نالديبار) على الملأ ان مصيبة البلد الاقتصادية مشرفة على الوقوع ، لكنه عزأها هذه المرة الى ردود الفعل الدولية التي انارها انتخاب (اليندي) هكذا يكتب التاريخ . على الاقل هكذا يكتبه السياسيون الملتوون الانتهازيون من أمثال (نالديبار) .

(ايبنده Allende)

كان شعبي اكثر شعب غدر به في هذا الزمن . لقد نشأت من صحاري ملح البارود ، من مناجم الفحم تحت البحرية ، من المرتفعات الرهبة حيث يرقد النحاس وتستخرجه ايدي شعبي بأعمال غير انسانية ، نشأت حركة تحريرية ذات اهمية كبيرة . هذه الحركة حملت الى رئاسة الجمهورية في تشيلي رجلا يدعى (سالفادور ايبنده) لكي يقوم باجراء اصلاحات ونادية مهام عادلة لا يمكن تأجيلها ، حتى ينقل ثروتنا القومية من المخالب الاجنبية . حيث حل ونزل ، في اكثر الاقطار بعدا عن بلدنا ، اعجبت الشعوب بالرئيس (ايبنده) وأنت على جبهة حكومتنا الائتلافية الرائعة . ابدا في تاريخ مقر هيئة الامم المتحدة بنيويوركما سمع تصفيق حاد كالذي قابل به مندوبو العالم كله رئيسنا . هنا ، في تشيلي ، كان يشاد ،

بين صعوبات جمّة ، مجتمع عادل بشكل حقيقي ، يقام على قاعدة سيادتنا ، على اس كرامتنا القومية ، على دعامة بطولة احسن سكان تشيلي . كان الى جانبنا ، الى جانب الثورة التشيلية ، الدستور والقانون ، الديمقراطية والامل .

لم يكن ينقص الجانب الآخر شيء من الاشياء . كان لهم مهرجون ومشعوذون ، سحرة مدربون ، اربابيون ، حملة مسدسات وسلاسل حديدية ، رهبان مزيفون وعساكر مخلوعون حقيرون . هؤلاء وأولئك كانوا يدورون ويلفون في «كاروسيل» (٣٠) المكتب . كانوا يروحون يدا بيد مع الفاشي (خاربا jarpa) وبنيه «وطن وحرية» (٣١) مستعدين لكسر رأس كل ما يوجد وازهاق روح كل من يوجد بغرض استرداد الحانوت الكبير الذي كانوا يسمونه : «تشيلي» . بجانبهم لكي يحيي سهرة هذه الفرقة المتجولة ، كان يرقص راقص مصرفي كبير ، شيء ملوث بالدماء ، وبطل رقصة «الرومبا» هذا هو (غونثاليث بيدىلا) الذي سلم وهو «يرومبي» ، حزبه منذ زمن طويل الى اعداء الشعب . الان كان (فريي) هو من بعرض حزبه الديموقراطي المسيحي على نفس اعداء الشعب فكان يرقص على الوقع الذي يعزفه هؤلاء له ، وكان يرقص كذلك مع العقيد السابق (بياوكس) الذي شاركه في فعلته . هؤلاء كانوا الفنانين الرئيسيين في المهزلة . كانوا قد اعدوا وهياوا مؤن الاحتكار : «المجيليين» (٣٢) ، ادوات السحل ، الرصاصات التي بالأمس اماتت شعبنا في «اكيكه» ، في «رانكين» ، في «سالفادور» ، في «بورتو مونت» ، في «لا خوسه ماريا كارو» ، في «فروتيار» ، في «بوينته التو» ، وفي عدة اماكن اخرى . ان مغتالي (هرنان ميري) كانوا يرقصون مع الذين كان من المفروض ان يدافعوا عن ذكراه على الاقل . كانوا يرقصون رقصا طبيعيا

٣٠ - كاروسيل Carrousel : هي كلمة فرنسية معناها ، ارجوحة الخيل ، حيث

عدة فرسان يؤدون حركات تبهر الانظار ، وهي بمعنى التهرج .

٣١ - وطن وحرية : شعار الحزب .

٣٢ - المجيليون Miguelitos : كل من يسمى بـ (ميجيل) وهو هنا بالتصغير للتحقير .

بشكل منافق . كانوا يشعرون بالاهانة ان عوبوا على هذه « الاشياء الصغيرة » .

ان لتشيلى تاريخا مدنيا طويلا بقليل من الثورات وكثير من الحكومات الثابتة وهي حكومات محافظة وقليلة الشأن . رؤساء صغار كثيرون ما عدا اثنين كانا رئيسين كبيرين وهما (بالمائيدا) (٣٣) و(ايبنده) . وما هو غريب حقا ان كليهما ينحدران من الوسط نفسه ، من البورجوازية المثرية التي تسمى نفسها هنا بالارستوقراطية . بما انهما كانا رجلاسي مبادئ وهما نفسيهما في سبيل اعلاء شأن بلد جعلته الطبقة الحاكمة الغبية قليل الشأن ، فقد قيذا الى الموت بالطريقة نفسها . اجبر (بالمائيدا) على الانتحار لانه قاوم صد منح بروتنا من ملح البارود الى الشركات الاجنبية .

(ايبنده) اغتيل لانه اتم الثروة الاخرى المختزنة في جوف ارض تشيلي وهي النحاس . وفي كلتا الحالتين قامت الاقلية التشيلية بثورات دامية ، وفي كلتا الحالتين تحول العساكر الى كلاب صيد لهد الطبقة المستغلة . الشركات الانجليزية في عهد (بالمائيدا) والشركات الامريكية في عهد (ايبنده) حرضت على هذه الانتفاضات العسكرية وانفقت عليها الاموال .

وفي كلتا الحالتين نهب منزل الرئيس بأمر من «ارستوقراطيتنا» المبعجلة . قاعات منزل (بالمائيدا) قوضت بضربات الفؤوس . اما منزل (ايبنده) ، فبفضل تقدم العالم ، قصفه من الجو طيارونا البواسل .

غير ان هذين الرجلين كان يختلف احدهما عن الآخر اختلافا كبيرا . كان (بالمائيدا) خطيبا آسرا . كانت له طبيعة تحب السيطرة اخذت تقربه اكثر فأكثر من الحكم الفردي . كان اكيدا من سنمو مقاصده . في كل لحظة كان يرى انه محاط بالاعداء . لقد كان تفوقه على الوسط الذي كان يعيش فيه كبيرا جدا وكذلك غدت وحدته كبيرة جدا فادت به الى الانطواء

٣٣ - بالمائيدا José Manuel : هو معامي وسياسي تشيلي (١٨٣٨-١٨٩١) .

على نفسه . اما الشعب الذي كان من المفروض ان يدعمه فلم يكن حينذاك يوجد كفوة ، اي ، لم يكن منظما . لقد كان مصير ذاك الرئيس ان يصبح اشعاعا ، ان يظل حالما : ان حلمه بالعظمة بقي حلما . بعد اغتياله تملك التجار الاجانب الجتسون والبرلمانيون «الكريويون» ملح البارود . للاجانب الملكية والامتياز و«الكريويين» المومسات . بعد ان تقاضوا اجرهم عادت الامور الى مجاريها وجف دماء آلاف الرجال من ابناء الشعب الذين سقطوا في ميادين المعركة . فلم تتوقف عمال شمال تشيلي وهم اكثر طبقة مستغلة في العالم ، منذ ذلك الحين عن انتاج كميات هائلة من الليرات الاسترلينية في سبيل «لندن سيتي» .

لم يكن (ايينده) خطيبا بارزا ابدا . اما بصفته سياسيا فقد كان حاكما يستشير قبل اتخاذ اي اجراء ، لقد كان عدوا لنديكتاتورية وكرسان ديموقراطيا مبدئيا حتى في الجزئيات الضئيلة فلقد حالفه الحظ اذ وجد بدل شعب (بالمائيدا) الفر طبقة عمالية قوية كانت تعرف كل شيء . لقد كان هذا الرجل ، مع انه لم يخرج من بين صفوف الطبقة العاملة ، نتاج نضال هذه الطبقات ضد الحمود وفساد الطبقة المستغلة . لهذه العوامل والاسباب كان ما حققه (ايينده) خلال هذه الفترة القصيرة اكثر بكثير مما حققه (بالمائيدا) بل هو اعظم ما حقق على مدى تاريخ تشيلي كله . ان تأميم النحاس وحده كان عملا جبارا بالاضافة الى مشاريع اخرى تمت في عهد حكومته ذات الطبيعة الجماعية .

ان اعمال (ايينده) وآثاره ذات القيمة القومية التي لا تمحى اغضبت اعداء حريتنا ، والرمز المساوي لهذه الازمة ينسب عنه قصف القصر الرئاسي . ان المرء لينذكر la Blitz Krieg للطيران النازي في قصف مدن آمنة عزلاء ، مدن اسبانية وانجليزية وروسية ، الآن كانت الجريمة نفسها تحدث في تشيلي اذ ان طيارين تشيليين نهشوا وانقضوا على القصر الذي كان خلال قرنين من الزمن مركز الحياة المدنية في البلاد .

اني اكتب هذه السطور العاجلة في مذكراتي بعد انقضاء ثلاثة ايام فقط على تلك الاحداث التي لا يمكن نعتها والتي أدت الى موت صاحبي ورفيقي العظيم الرئيس (ايينده) . لقد أحاطوا اغتياله بجدار من الصمت ودفنوه سرا ، ولم يسمحوا الا لأرملته بأن ترافق ذاك الجثمان الذي لا

يموت . ان رواية المعتدين هي انهم وجدوه جثة هامة بأدلة بيّنة على انه انتحر . اما الرواية التي انتشرت في الخارج فهي مختلفة اذ انه بعد القصف الجوي اقتحمت الدبابات ، الدبابات الكثيرة ، لتقاتل في بسالة رجلا وحيدا فردا : الا وهو رئيس جمهورية تشيلي (سلفادور أليندي) الذي كان ينتظرهم في مكتبه دون ان يكون له من رفيق غير قلبه العظيم ، وقد أحيط بالدخان والنيران .

لقد كان لهم ان ينتهزوا هذه الفرصة النادرة ، كان لا بد من افراغ الرصاص من الرشاشات في جسده فهو لن يتخلى ابدا عن منصبه . قدفن ذاك الجسد سرا في مكان ما . لقد مضى ذاك الجثمان الى اللحد لا يصاحبه الا امرأة واحدة وحبدة تحمل في نفسها ألم العالم كله ، ان تلك الشخصية المجيدة الميتة كانت تمضي وهي مخرقة برصاص رشاشات عساكر تشيلي الذين خانوا تشيلي مرة اخرى .

نيرودا حياته وأعماله

- ١٩٠٤ - ١٢ تموز : يولد نيفتالي ريبس باسوالتو (بابله نيرودا) في قرية «العريشة» بتشيلي .
- آب : تموت أمه ، وقد ترك موتها في نفسه أثرا يظهر في شعره وفي حياته .
- ١٩٠٦ - ينتقل والده الى بلدة «تيموكسو» ليعمل سائق قطار في السكك الحديدية . فيأخذ الطفل معه الى هذه البلدة ، حيث يعود الاب ليتزوج من جديد .
- ١٩١٠ - ينتسب الى معهد هذه البلدة الى ان ينهي دراسته الثانوية - قسم الآداب .
- ١٩١٧ - ١٨ تموز : ينشر في إحدى صحف هذه البلدة اول محاولة ادبية له ، وهي مقالة بعنوان «حماسة ومثابرة» موقعة باسمه الحقيقي .
- ١٩١٨ - ٣٠ تشرين الثاني : ينشر في مجلة كانت تصدر في العاصمة «سانتياغو» اول قصيدة له عنوانها «عيناي» .
- تظهر له في هذه السنة ثلاث قصائد منشورة في المجلة نفسها بالاضافة الى قصائد أخرى نشرت في مجلات طلابية ادبية .
- ١٩١٩ - يبدأ بنشر قصائده تحت عدة اسماء مستعارة .
- يشترك في مسابقة شعرية فيحصل على الجائزة الثالثة عن قصيدة له بعنوان «ليلي مثالي» .
- ١٩٢٠ - تشرين الاول : يتخذ له نهائيا اسما مستعارا ، وهو الاسم الذي

عرف به حتى انه طفى على اسمه الحقيقي ومجاه كليا ، وسبب اتخاذه هذا الاسم (بابلو نيرودا) يعود الى اعجابه الفائق بالشاعر والكاتب القصصي التشيكوسلوفاكي (جان نيرودا) الذي عاش في براغ ما بين عام ١٨٣٤ و عام ١٨٩١ .

٢٨ تشرين الثاني : يحصل على الجائزة الاولى من لجنة مهرجان الربيع ببلدة تيموكو .

يعين رئيسا للنادي الادبي في هذه البلدة وينتخب نائب الامين العام لجمعية الطلبة في هذه المنطقة .

يعد ديوانين للنشر ولكنه لا ينشرهما بل يختار بضعة قصائد منهما ليتشرها في اول ديوان له «شفقيات» .

١٩٢١ - ينتقل الى العاصمة ساننيافو لينتسب الى معهد يعدّه ليصبح مدرسا للغة الفرنسية .

١٤ تشرين الاول : يحصل على الجائزة الاولى في مسابقة أعدّها اتحاد الطلبة بتشيلي عن قصيدته «أغنية المهرجان» .

١٩٢٢ - تشرين الاول : تنشر مجلة «الازمان» عددا خاصا عن شعر تشيلي الجديد ، وتعتبر (بابلو نيرودا) شاعر المستقبل واحسن من يمثل هذا الشعر الجديد .

١٩٢٣ - آب : يظهر اول ديوان له تحت عنوان «الشفقيات» .

١٩٢٤ - حزيران : ينشر ديوانه الثاني «عشرون قصيدة حب وأغنية (بالرفع) يائسة» .

١٩٢٥ - ينشر قصيدة طويلة في كتاب مستقل بعنوان «محاولة الانسان اللانهائي» .

يتراأس تحرير احدى المجلات الادبية ويساهم في مجلات عديدة .

١٩٢٦ - ينشر كتاب «خواتم» وهو نشر فني ، اشترك معه في هذا الكتاب الاديب الكاتب ، مواطنه ، (توماس لاغو) . ينشر رواية له بعنوان «القطن وأمله» . يبدأ بترجمة العديد من الكتاب والشعراء الفرنسيين - كان قد ترجم من قبل عن الفرنسية - ولكن هذه الترجمات لم تلق النجاح الذي اخذت تلقاه ترجماته الجديدة .

١٩٢٧ - يعين قنصلا فخريا في «رانغون» (برمانيا) . في طريقه الى رانغون يزور ليشبونة ومدريد وباريس ومارسيليا .

- ١٩٢٨ - يعين قنصلا في «كو لومبو» (سيلان) .
- ١٩٢٩ - يحضر في كالكوتا بالهند مؤتمرا من اجل استقلال الهند .
- ١٩٣٠ - يعين قنصلا في باتابيا (جوه ، اندونيسيا) .
- ٦ تشرين الثاني : يتزوج من (ماريا Maria) التي التقى بها في « جاوه » .
- ١٩٣١ - يعين قنصلا في سينغابور .
- ١٩٣٢ - يعود الى تشيلي بحرا .
- ١٩٣٣ - ٢٤ كانون الثاني : ينشر ديوانه «حامل المقبلع المتحمس» نيسان : ينشر الجزء الاول من ديوانه الرائع « اقامة في الارض » يضمه مجموعة من القصائد كتبها ما بين عام ١٩٢٥ وعام ١٩٣١ .
- ٢٨ آب : يصل الى «بونوس ايرس» عاصمة الارجنتين ليستلم منصبه قنصلا عاما فيها .
- ١٣ تشرين الاول : يتعرف على الشاعر الاسباني الخالد (فيدريكو غارثيا لوركا) الذي كان يزور الارجنتين .
- ١٩٣٤ - ٥ ايار : يسافر الى برشلونه باسبانيا لاستلام منصبه قنصلا فيها .
- ٤ تشرين الاول : تولد في مدريد ابنته (مالبا ماريا) .
- ٦ كانون الاول : يقدمه (لوركا) لطلبة جامعة مدريد في مهرجان تكريمي له حيث ينشد مختارات من شعره .
- ١٩٣٥ - ٣ شباط : ينتقل من برشلونه الى مدريد قنصلا عاما في العاصمة الاسبانية .
- ١٥ ايلول : يظهر الجزء الاول والثاني من ديوانه «اقامة في الارض» (١٩٢٥ - ١٩٣٥) .
- تشرين الاول : يظهر العدد الاول من مجلة «حصان اخضر من اجل الشعر» برئاسة تحرير (بابلو نيرودا) .
- ١٩٣٦ - ١٨ تموز : تنشب الحرب الاهلية في اسبانيا ويقتل صديقه (لوركا) .
- يعزل من منصبه .
- يسافر الى باريس .

- يصدر مجلة «شعراء العالم يدافعون عن الشعب الاسباني» .
- انفصل عن زوجته التي عاش معها تعيسا غير سعيد .
- ١٩٣٧ - شباط : يلقي في باريس محاضرة عن (لوركا) .
- ١٠ تشرين الاول : يعود الى تشيلي .
- ٧ تشرين الثاني : يؤسس ويرأس «حلف مثقفي تشيلي من اجل الدفاع عن الثقافة» .
- ١٣ تشرين الثاني : ينشر ديوانه «اسبانيا في القلب» .
- ١٩٣٨ - ٧ ايار : يموت والده في تيموكو . ولم يكن (نيرودا) يشعر نحوه باية محبة .
- آب : يرأس تحرير مجلة «فجر تشيلي» .
- ١٩٣٩ - يسافر الى فرنسا .
- ١٩٤٠ - ٢ كانون الثاني : يعود الى تشيلي .
- ١٦ آب : يصل الى المكسيك حيث عين قنصلا عاما .
- ١٩٤١ - سافر الى غواتيمالا .
- ١٩٤٢ - نيسان : سافر الى كوبا .
- ٣ ايلول : ينشر قصيدته «نشيد حب الى ستالينغراد» .
- موت ابنته في اوروبا وهي مريضة بشلل الاطفال منذ ولادتها ، ولم يرزق بغيرها .
- ١٩٤٣ - يسافر الى الولايات المتحدة .
- ١ ايلول : يشرع بالعودة الى تشيلي ماراً بالعديد من الاقطار الامريكية اللاتينية حيث يلقى الترحيب وحسن الاستقبال الى ان يبلغ سانتياغو في ٣ تشرين الثاني .
- يتزوج للمرة الثانية في المكسيك بامرأة تكبره بخمس عشر سنة : كان قد التقى بها في مدريد وتدعى (ديليا Delia) وهي رسامة ارجنتينية اثرت فيه عقائديا وجعله نحو منحى جديدا فسي حياته .
- ١٩٤٤ - يحصل على جائزة المجلس البلدي لمدينة سانتياغو .
- ١٩٤٥ - ٤ آذار : ينتخب نائبا في البرلمان .

- يحصل على الجائزة القومية للآداب .
- ٨ تموز : ينتسب الى الحزب الشيوعي التشيلي .
- ١ آب : يشرع السفر ليتجول في بعض اقطار امريكا الجنوبية حيث ينشد قصائده ويلقي محاضرات عديدة .
- ايلول: يكتب ملحمة الرائعة عن جبال «البيرو» تحت عنوان «مرتفعات ماكتشو - بيكتشو» .
- ١٩٤٦ - ٢٨ ايلول : يصدر حكم قضائي بعلن ان اسمه الرسمي قد أصبح (بابلو نيرودا) .
- ١٩٤٧ - يصدر ديوانه الكبير «اقامة ثالثة» ، ويضمنه كتباً صغيرة كان قد نشرها من قبل مثل «اسبانيا في القلب» .
- ١٩٤٨ - يصدر الامر باعتقاله بعد عزله من مجلس النواب فيختفي عن انظار رجال الامن .
- ١٩٤٩ - ٢٤ شباط : يخرج هارباً من تشيلي عبر الجبال .
- ٢٥ نيسان : يحضر المؤتمر العالمي الاول لانصار السلام وبذلك يظهر لأول مرة بعد طول اختفاء ، ويعين عضواً في المجلس العالمي للسلام .
- يسافر الى الاتحاد السوفييتي لأول مرة حيث يحضر الذكرى المائة والخمسين لبوشكين .
- ٢٧ حزيران : يجري له ادباء الاتحاد السوفييتي حفلة تكريم يحضرها ادباء من جميع انحاء العالم .
- تموز : يزور بولونيا وهنغاريا .
- آب : يسافر الى المكسيك حيث يمرض فيبقى فيها الى نهاية العام تحت المعالجة .
- ١٩٥٠ - ينشر في المكسيك ديوانه الضخم «النشيد العام» . يسافر الى غواتيمالا .
- حزيران : يسافر الى براغ ثم الى باريس .
- يسافر الى روما ثم الى نيودلهي حيث يلتقي بنهرو .
- تشرين الثاني : يحضر في فارصوفيا المؤتمر الثاني لانصار السلام .
- ٢٢ تشرين الثاني : يمنح جائزة السلام العالمي .

يدعى لزيارة تشيكوسلوفاكيا فيلبي الدعوة ويقضي في احد قصورها فترة من الزمن .

١٩٥١ - يذهب الى ايطاليا فيتنقل في انحاءها منشدا شعره او مشرفا على ترجمات كتبه .

آب : يحضر في برلين مهرجان الشباب العالمي الثالث .
يذهب بالقطار الى جمهورية منغوليا الشعبية .
يزور الصين الشعبية .

١٩٥٢ - يقيم في ايطاليا .
ينشر ديوان «أشعار القبطان» .
١٢ آب : يعود الى تشيلي فتجري له حفلات استقبال كثيرة .
كانون الاول : يسافر الى الاتحاد السوفيتي بصفته عضوا في لجنة جائزة السلام العالمية .

١٩٥٣ - ٢٢ كانون الثاني : يعود الى تشيلي .
٢٠ كانون الاول : يستلم جائزة ستالين للسلام .

١٩٥٤ - تموز : ينشر ديوانه «أناشيد بدائية» .
تموز : ينشر ديوانا آخر بعنوان «الأعشاب والريح» .

١٩٥٥ - يفصل عن زوجته الثانية التي لم يكن يحبها بل كان يعجب بها وبثقافتها الواسعة .

يتزوج للمرة الثالثة والاخيرة بماتيلده Matilde التي أحبها كثيرا ونفى بها في كثير من قصائده .

ينشر كتابه «أسفار» Viajes وهو كتاب نشر يحكي فيه عن مشاهداته في رحلاته .

١٩٥٦ - كانون الثاني : ينشر ديوانه الجديد «أناشيد بدائية جديدة» .

١٩٥٧ - يختار رئيسا لجمعية الكتاب في تشيلي .
١٨ كانون الاول : ينشر ديوانه «كتاب ثالث للأنشيد» .

١٩٥٨ - ١٨ آب : ينشر ديوانه الجديد «شاذ» .

١٩٥٩ - يتجول في فينزويلا لمدة خمسة اشهر .
٥ تشرين الثاني : ينشر ديوانا جديدا بعنوان «إبحارات وعودات» .
٥ كانون الاول : ينشر ديوانه الغزلي «مائة أرجوزة غزلية» .

١٩٦٠ - يسرح في رحلة طويلة يزور فيها العديد من الاقطار الاوروبية والامريكية .

ينشر في كوبا ديوان «اغنية مفخرة» .

١٩٦١ - شباط : يعود الى تشيلي .

٢٦ تموز : ينشر ديوانه «أحجار تشيلي» .

٣١ تشرين الاول : ينشر في تشيلي ديوانه «أناشيد شعائرية» .

١٩٦٢ - ينشر في كتاب (بالاشتراك مع (نيكانور بارا) Nicanor Parra

مجموعة خطب تحت عنوان «خطب» .

يسافر من جديد ليزور كثيرا من البلدان .

٦ ايلول : ينشر ديوانا جديدا بعنوان «صلاحيات كاملة» .

١٩٦٣ - تنشر له اعماله الكاملة - طبعة ثانية - .

١٩٦٤ - ١٢ تموز : ينشر له كتابه الجميل الكبير «مذكرة «الجزيرة

السوداء» « في خمسة أجزاء بعنوانين مختلفة .

٩ ايلول : ينشر ترجمته لرائعة شكسبير «روميو وجولييت» .

١٩٦٥ - شباط : يعود فيسافر الى اوروبا .

حزيران : يمنح لقب دكتور شرف من جامعة اوكسفورد .

في هنغاريا يكتب (بالاشتراك مع الكاتب الروائي المعروف ، جائزة

نوبل ، (ميفيل انخيل استورياس) مجموعة مقالات نشرت في كتاب

تحت عنوان «ونحن نأكل في هنغاريا» . وقد ترجم هذا الكتاب الى

اربعة لغات اخرى ونشر الكتاب في اصله الاسباني وترجماته في

وقت واحد .

يسافر الى موسكو فيمنح الشاعر الاسباني (رافائيل

البارتي) جائزة لينين بصفته عضوا في اللجنة المحكمة .

يعود الى تشيلي عن طريق الارجننتين .

١٩٦٦ - يعود للسفر فيذهب الى الولايات المتحدة والمكسيك والبيرو .

ينشر ديوانه عن الطيور «فن العصفير» .

يكتب مسرحية بعنوان «بريق وموت» (خواكين موريتا) .

ينشر في برشلونة باسبانيا ديوانه «الدار في الرمال» .

١٩٦٧ - نيسان : يعود فيسافر من تشيلي .

٢٢ ايار : يشارك في مؤتمر الادباء السوفييت المنعقد في موسكو .
يزور ايطاليا وفرنسا وبريطانيا .
آب : يعود الى تشيلي .
تطبع له مسرحيته وتمثل في تشيلي .
ينشر ديوانا جديدا بعنوان «أغنية للبحارة» .
تنشر له أعماله الكاملة (طبعة ثالثة مزيده) في بونسوس ايرس
بالارجنتين عن دار النشر «لوسادا» .

١٩٦٨ - ينشر ديوانه الجديد «أيادي النهار» وكان هذا الديوان قد نشر
في أعماله الكاملة (الطبعة الثالثة) .

١٩٦٩ - ينشر ديوانا جديدا «نهاية العالم» .

١٩٧٠ - ينشر ديوانا آخر «أحجار السماء» . وآخر «السيف المتوقد» .
يعين سفيرا لبلاده في باريس .

١٩٧١ - ٢١ تشرين اول : يفوز بجائزة نوبل للاداب .
ينشر ديوانا جديدا «ما زال» .

١٩٧٢ - ينشر آخر ديوان له «جغرافيا باطلة» .
يعود الى بلاده مارا باسبانيا .

١٩٧٣ - ٢٣ ايلول : يموت بالسرطان في سنتياغو عاصمة تشيلي حيث
دفن . بعد ان شهد الانقلاب العسكري الذي اطاح بالحكم
الديموقراطي الذي كان هو احد دعائمه ، ولذلك فانه يقال بأنه
قتل كما قتل الرئيس (سالفادور ايبيده) بأيدي اعداء الحرية
والنور والعدالة .

الفهرست

٥	ملاحظات حول هذه المذكرات
٩	الفصل الاول : الشاب القروي
٤٣	الفصل الثاني : ضائعا في المدينة
٨١	الفصل الثالث : دروب العالم
١١٥	الفصل الرابع : الوحدة المضيئة
١٦١	الفصل الخامس : اسبانيا في القلب
١٩٩	الفصل السادس : خرجت أبحث عن شهداء
٢٢٣	الفصل السابع : المكسيك المزهر الشائك
٢٤٧	الفصل الثامن : الوطن في دياجير
٢٨٧	الفصل التاسع : بداية منفى ونهايته
٣٢٥	الفصل العاشر : إبحار مع إياب
٣٦٧	الفصل الحادي عشر : الشعر حرفة
٤٧٥	الفصل الثاني عشر : وطن عذب وقاس

مذكرات يابلونيرودا

ان هذه المذكرات أو الذكريات منقطعة تنأوب على فترات كثيرة السهر والسيان لأنه هكذا سنة الحياة . ان تعاقب الحلم يجعلنا نقوى على تحمل مشقات العمل . حين استحضرت المذكرات أجد أن كثيراً منها قد أمحي وعفا وهذا غباراً ليس بهذا كمثل زجاج جريح ليس برأ .

ان مذكرات كاتب المذكرات ليست مذكرات الشاعر . ذلك ربما عاش أقل من الشاعر . لكنه التقط صوراً أكثر منه فهو لذلك يستعنا بالجزئيات المثقنة المهدبة . بينما الشاعر بمنحنى معرضاً من الأشباح المهتزة المتراوحة بين النار والظل كالعكاس لعصر الشاعر . ربما اني لم أعش في ذاتي . ربما اني عشت حيات الآخرين .

بقدر ما استودعت هذه الصفحات من كتابة ستجود دائماً - كما في غيل الخريف وكما في موسم الكرم - الأوراق الصفراء التي تروح تروح والأعشاب التي ستبعث في الربيع المقدس .

حياتي هي حياة صبغت من كل الحيات :
حيوات الشاعر .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية مكسدي ومسالحة - ص.ب. ٥٤٦٠ / ١١
بناية سراج شهاب - شلة الخياط - ص.ب. ١٩٥١١٩
تبرقيا، مراكشي - بيروت